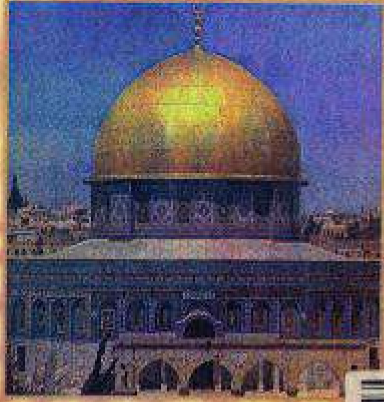
بنو إسرائيل

الجزء الثاني

التاريخ

منذ دخولهم فلسطين وحتى الشتات الروماني في عام ١٣٥ م



...اذ الدكتور

...بيومي مهران

...ر والشرق الأدنى القديم

... جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية


mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

بنو إسرائيل

الجزء الثانى

التاريـــخ

منذ دخولهم فلسطين وحتى الشتات الرومانى فى عام ١٣٥م

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

١٩٩٩

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير الأزاريطة
الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وآله

إهـــــداء

إلى ذكرى أساتذتي الأجلاء ـ طيّب الله ثراهم ـ:

الأستاذ الدكتور: عبد المنعم أبو بكر.

الأستاذ الدكتور: نجيب ميخائيل.

الأستاذ الدكتور: مصطفى الأمير.

الأستاذ الدكتور: محمد أبو المحاسن عصفور.

الأستاذ الدكتور: رشيد الناضوري.

أهدي هذه الدراسة.

تقـــــــديم

كـان الحيـز المخصص لتاريخ إسرائيل فى سلسلة «دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم» هذه، جزءاً واحداً، فضلا عن جزء آخر للحضارة، غير أن صفحات هذا الجزء التاريخى، إنما قد تجاوزت المائة بعد الألف بكثير، ومن ثم فقد رأينا من الأفضل أن يكون الجزء التاريخى فى كتابين.

وها نحن نقدم للقارئ الكريم «الكتاب الثانى» نتابع فيه تاريخ بنى إسرائيل بعد أن وقفنا بالقوم فى «الكتاب الأول» عند وفاة موسى عليه السلام، على تخوم كنعان، ومن ثم فإننا نتابع فى هذا الكتاب الثانى قصة بنى إسرائيل منذ دخولهم فلسطين - بقيادة يشوع بن نون، خليفة موسى وفتاه - وحتى نهايتهم - سياسيًا وسكانيًا - فى عام ١٣٥م، على أيدى الرومان.

هذا ونظراً لأن الكتـابين - الأول والثـانى - إنما يتحدثان عن تاريخ الإسرائيليين القديم، ومن ثم فهما يكونان وحدة واحدة، ولهذا فقد آثرنا أن نضع مراجعهما فى نهاية هذا الكتاب الثانى، على أن يكون الكتاب الثالث والرابع (الحضارة) وحدة مستقلة.

والله نسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل.

﴿وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ﴾،

بولكلى - رمل الإسكندرية فى [الثانى عشر من ربيع الأول عام ١٣٩٨هـ
التاسع عشر من فبراير عام ١٩٧٨م

دكتور

محمد بيومى مهران

الباب الخامس

سكان فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي



الفصل الأول
العناصر السامية

كانت فلسطين فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ـ عندما تدفقت إليها موجات البدو العبرانيين الذين طردوا من مصر ـ كغيرها من دول الشرق الأدنى القديم، ذات ثقافة راسخة، وسكان قد استقروا منذ أجيال وأجيال، وليس هناك أدنى تأكيد على أن سكان فلسطين السابقين للغزو الإسرائيلى، كانوا من عناصر غير سامية، ذلك لأن بقايا ساكنى الكهوف من الألف الثالث قبل الميلاد، تشير إلى أنهم كانوا قوماً من الساميين[1]، صحيح أن وجود جنس نقى فى الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التى تتلاطم فيه، أمر يتطلب مستوى من الفضيلة لا يعقله عاقل، فيما يرى ول ديورانت[2]، ولكنه صحيح كذلك أن سكان فلسطين كانوا فى غالبيتهم العظمى ـ كما سوف نرى ـ من الساميين الذين أتوا إليها من شبه الجزيرة العربية.

ولعل من الأهمية بمكان أن نصحح هنا خطأ، ربما كان شائعاً إلى حد ما، وهو: أن العرب لم يدخلوا فلسطين إلا فى القرن السابع الميلادى مع دخول الإسلام إليها، ذلك لأن الحقائق التاريخية إنما تكذب هذا الزعم تماماً، فالكنعانيون العرب إنما هم سكان فلسطين الأصلاء، وأن العرب المسلمين الذين دخلوا هذه البلاد العربية فى عام ١٥هـ (٦٣٧م)[3] لم يكونوا نقطة البداية للإقامة العربية فى فلسطين، إذ سبقهم إلى هناك أخوة لهم عاشوا فى كل مناطق الشرق الأدنى القديم ـ ومنها فلسطين ـ قبل

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 56.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ٣٢٨/٢ (القاهرة ١٩٦١).

(٣) انظر عن دخول العرب المسلمين إلى فلسطين: محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٤٦-٢٦٣؛ تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم، ٢٢٣/١-٢٣١؛ الكامل لابن الأثير، ٤٩٨/٢-٥٠١.

مجيء الإسلام بمئات السنين، هذا فضلا عن أن أعداد المسلمين العرب الذين دخلوا فلسطين مع الإسلام كانت قليلة، كما كانوا يتشابهون مع السكان الأصليين من الناحية الجنسية، ومن ثم فقد رأى العلماء أن السكان العرب في فلسطين ـ فيما قبل الإسلام ـ كانوا سكاناً وطنيين، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان[1].

وهكذا فالفلسطينيون اليوم إنما هم سلالة هؤلاء العرب القدامى، من كنعانيين وآموريين وغيرهم ـ بجانب قبائل أخرى قديمة ـ وأنهم قد عاشوا في بلادهم منذ العصور القديمة بدون انقطاع، بل ويمكن تتبع استقرارهم في فلسطين إلى عصور سحيقة، ترجع إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، وإن كان هذا لا يمنع من وجود تسرب من عناصر أخرى إلى الأرومة الفلسطينية وبخاصة في فترة الوجود اليهودي في فلسطين.

وهكذا يمكننا القول أن العرب على أيام الفاروق عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ = ٦٣٤-٦٤٤م) ـ رضوان الله عليه ـ لم يأتوا إلى فلسطين بعروبتها وإنما أتوا إليها بالإسلام ـ دين الله الحنيف ـ وظل سكانها، كما كانوا من قبل عرباً، حتى تمكن اليهود من إقامة دولتهم في ١٥ مايو ١٩٤٨م (عام ١٣٦٦هـ)

وأما سكان فلسطين فقد كانوا ـ كما قلنا آنفاً ـ في غالبيتهم العظمى من الساميين، مع قليل آخر من عناصر غير سامية من الحيثيين والفلسطينيين وغيرهم، ومع ذلك، فمما لا ريب فيه أنه ليست هناك سلالة نقية صافية، كما أنه ليست هناك ثقافة وليدة البيئة وحدها، ولم تتأثر بأخرى، وإن كان هذا لا يمنعنا من القول بأن فلسطين ـ أو قل سورية بمعناها الواسع والذي يشمل سورية والأردن وفلسطين ولبنان ـ كانت أكثر

---

(١) Henry Cattan, Palestine, The Arabs and Israel, London, 1969, p. 3-7.

وكذا: M. Rodinson, Israel and the Arabs (Panguin Books), 1968, p. 216.

من غيرها تعرضاً لهجرات الشعوب السامية، والآخر هو العناصر غير السامية، وسوف نتحدث عن كل منها فى فصل مستقل، كما أننا سنجعل هذا الفصل مقصوراً على العناصر السامية.

العناصر السامية

تتكون العناصر السامية فى فلسطين من الأموريين والكنعانيين والآراميين، هذا إلى جانب كوكبة أخرى من القبائل كالأدوميين والمؤابيين والمديانيين واليبوسيين، والقنزيين والقينيين والعمالقة وغيرهم. ولعل من الأفضل هنا قبل أن نتحدث عن العناصر السامية فى فلسطين أن نشير إلى أمرين: الواحد يتصل بتعريف الساميين هؤلاء، والآخر يتصل بالموطن الأصلى لهم.

الساميون:

ينسب المؤرخون الساميين إلى «سام بن نوح» عليه السلام، وذلك اعتماداً على رواية التوراة، التى جعلتهم إحدى التقسيمات البشرية الثلاثة، التى ترجع السلالات البشرية على تعدد قبائلها وشعوبها إلى أبناء نوح الثلاثة «سام وحام ويافث»[١]، وقد استعمل لفظ «سامى» لأول مرة فى عام ١٧٨١م، على يد المستشرق الألمانى «أوجست لدوج شلوتر» فى مقالته عن «الكلدانيين» وذلك فى قوله «من البحر المتوسط إلى الفرات، ومن أرض الرافدين حتى بلاد العرب جنوباً، سادت ـ كما هو معروف ـ لغة واحدة، ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون والعرب شعباً واحداً»[٢] وكان الفينيقيون يتكلمون هذه اللغة التى أود أن أسميها «اللغة السامية»، وقد تولى «أيشهورن» بعد ذلك هذا الاصطلاح، وإن ادعاه لنفسه[٣].

(١) تكوين ١٠: ١، ٢١.

(٢) سبتينوموسكاتى: الحضارات السامية القديمة، ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٣٩، وكذا: A. L. Schlozer, Von den Chaldaem, 1781, p. 161.

(٣) R.A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1962, p. XV.

وهكذا بدأ العلماء يستعملون كلمة «الساميين» على أنها تعنى جنساً بشرياً واحداً يرتفع فى نسبه إلى «سام بن نوح»، ويتميز عن غيره بصفات مشتركة بينّة، وهى لغوية قبل كل شىء، فبين اللغات السامية فى التشابه الكبير من الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات مالا يمكن معه أن تنسب تقاربها إلى حدوث اقتباسات بينها فى العصور التاريخية، وإنما لا سبيل إلى تفسير هذا التقارب إلا باقتراض أصل مشترك بينها[١].

ولعل السبب فى ذلك أن اللغات السامية إنما تشترك فى وجود فعل ثلاثى كمصدر أساسى، ووجود زمنيين للفعل، هما الماضى والمضارع، وتصريف يتبع نفس الأسلوب، هذا فضلا عن أننا نجد فى جميع لغات المجموعة السامية تشابهاً بين الكلمات الأساسية كالضمائر الشخصية والأسماء التى تدل على القرابة[٢] ومن ثم فكلمات الأب والأم والأخ والأخت والعم كلمات مشتركة فى كل هذه اللغات، والكلمات الخاصة بأعضاء جسم الإنسان مثل العين والأنف والرجل والشعر واليد والأذن والرأس، ألفاظ نجدها مشاعة فى كل اللغات السامية[٣].

هذا فضلا عن تغير الحركات فى كلمات هذه اللغات، والذى يحدث تغيراً فى المعنى وفى التعابير التى تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين[٤]، وفى أمور أخرى مشتركة[٥]، وهكذا كان هناك الكثير من الأدلة

(١) سبتنو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٤٤؛ وانظر:

P. Dhorme, Langues et Ecritures Semitiques, Paris, 1930, p. 57-62.

وكذا:

H. Fleisch, Introduction a l'etudedes langues semitiques, Paris, 1947, p. 20-22.

(٢) فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٦٦/١، (بيروت ١٩٥٨)؛ تاريخ العرب، ٩/١-١٠ (بيروت ١٩٦٥)؛ وانظر: J. Hastings, ERE, 2, 1934, p. 378.

(٣) محمود حجازى، اللغة العربية عبر القرون، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢.

(٤) جواد علي، ٢٢٢/١ وكذا: E.B., 20, p. 315.

(٥) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص١٧-٢٥؛ عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، بيروت ١٩٦٤، ص٣٨.

اللغوية التى ترسم صورة عامة للملامح المميزة فى المجموعة السامية، من حيث هى أسرة لغوية واحدة

ولكن هناك من يعترض على هذه التسمية ـ أى السامية ـ على أساس أنها تسمية لغوية، وليست جنسية، وغير جامعة ولا مانعة كذلك، هذا فضلا عن أنها لا تعتمد على أسس علمية أو عنصرية صحيحة، وإنما بنيت تلك القرابة التى أوردتها التوراة،ووضع ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وعاطفية، وعلى الآراء التى كانت شائعة عند شعوب العالم فى ذلك الزمن عن النسب والأنساب وتوزيع البشر[1].

وكان من نتائج ذلك أن أصبح العيلاميون ساميين، وذلك حين جعلت التوراة من جدهم «عيلام» فيما تزعم الابن الأكبر لسام، وفى هذا يقول سفر التكوين: «بنو سام عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام»[2]، ومع ذلك فهم لا يتكلمون لغة سامية، ثم هناك الكنعانيون الذين جعلتهم التوراة من الحاميين، وهم يتكلمون لغة سامية، بل هم أنفسهم ساميون، والأمر كذلك بالنسبة إلى المصريين الذين جعلتهم التوراة حاميين كذلك، حيث تقول «بنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان»[3].

ومع ذلك فقد تعمد العبرانيون فى توراتهم «إقصاء الكنعانيين عن الانتساب إلى سام بن نوح، لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية، وقد أرجع الإصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبئيين إلى «حام» جد الكوشيين، ذى البشرة السوداء، مع أنهم لم يكونوا من الحاميين، وربما

---

(١) جواد علي، ١/٢٢٣-٢٢٤؛ وكذا:

G.A. Barton. Semitic and Hamitic Origins. London. 1934, p. 1

(٢) تكوين ١٠ ٢٣

(٣) تكوين ١٠: ٦

كان ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية فى أفريقية، فعد كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين[١]

وفى الواقع فإن التوراة مضطربة فى أصل السبئيين، فهم مرة من الحاميين[٢] وهم مرة أخرى من الساميين[٣]، وفرق كبير بين الحاميين والساميين، كما هو معروف، ثم إن سبأ (أو شبأ) تقدمه التوراة - وفى سفر التكوين بالذات - مرة على أنه من ولد «يقطان»[٤]، ولكنه مرة أخرى من ولد «يقشان»[٥] والمعروف أن يقطان من ولد «عابر»، ولكن يقشان من ولد إبراهيم الخليل من زوجه «قطوره»[٦]، وفرق بين الاثنين كبير.

ولعل هذا الاضطراب فى نصوص التوراة بشأن السبئيين، هو الذى جعل بعض الباحثين يذهب إلى أن ما جاء فى التوراة بشأنهم، إنما هو من مصادر غير أصيلة لا يمكن الاعتماد عليها، فضلا عن الثقة بها، فهى مادة كدرة، ليس لها نصيب كبير من صواب[٧].

ومن هنا كان المصدر الذى اعتمد عليه العلماء - وأعنى به التوراة - فى تقسيم الشعوب، موضع شك كبير، فكاتب سفر التكوين فى التوراة، إنما اعتمد على الأجناس التى يعرفها فحسب، كما أنه كان متأثراً بعواطفه العدائية القديمة نحو مصر وكنعان وبابل، ومن هنا نراه يخرجهم من الساميين ويجعلهم من الحاميين، هذا فضلا عن أنه يبدو مضطرباً بالنسبة

---

(١) جواد علي، ٢٢٤/١؛ وكذا: R.A. Nicholson, op.cit., p. XV.

(٢) تكوين ١٠ : ٧؛ أخبار أيام أول ١ : ٩.

(٣) تكوين ١٠ : ٢٨

(٤) تكوين ١٩ ٢٨

(٥) تكوين ٢٥ ٣

(٦) تكوين ٢٥ ١ ٢

(٧) W.F Albright, The Bible and the Ancient Near East, London, 1961 p 300.

ثم قارن EB. p 2564 ، وكذا J Hastings, Dictionary of the Bible, p 490

لآشور وكوش، فإذا أضفنا إلى ذلك أن سفر التكوين - فيما يرى جان ستروك، كما جاء في دائرة المعارف اليهودية[1] - ليس عملاً موحداً، قام به مؤلف واحد، وإنما هو من عمل مجموعة من كتاب متتاليين، ومن مصادر مختلفة وأنه أخذ صورته الحالية بمرور الزمن، وفي عصور لاحقة لعصر موسى بأمد طويل، لتبين لنا إلى أي مدى كان الاعتماد على روايات سفر التكوين - أول أسفار التوراة - منزلقاً خطراً.

وعلى أي حال، فرغم أن العلم الحديث يعتبر تسمية «السامية» أو الشعوب السامية، تسمية لغوية أكثر منها تسمية جنسية، وذلك خلاف المفهوم القديم الذي أشاعته قصص العبرانيين في التوراة عن الفصل بين جنس الساميين من نسل سام، وبين جنس الحاميين من نسل حام، ولدى نوح عليه السلام، فإن تعبير «الشعوب السامية» مقبول، على أساس شيوعه، للدلالة على شعوب ربطت بين أهلها روابط التشابه في الملامح العامة، وروابط التشابه في تأثيرات البيئة والمناخ، وروابط اللغات، ثم روابط العقائد والتقاليد والتخيلات، نتيجة لتشابه الأسس التي قامت عليها والظروف التي أوحت بها، وينطبق ذلك بأطرافه على شعوب الشرق الأدنى، بدوله العربية في شبه الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر والدول العربية الأفريقية.

وانطلاقاً من هذا يذهب «موسكاتي» إلى أن الشعوب السامية في لغتها تؤلف كتلة واحدة، لا باجتماعها في صعيد جغرافي واحد، والتحدث بلهجات لغة واحدة فحسب، ولكن باشتراكها في أصل حضاري تاريخي واحد أيضاً، ومن هنا يجوز لنا ألا نقصر الصفة السامية على الميدان اللغوي، وأن نتحدث أيضاً عن الساميين، وعن الشعوب والحضارة السامية[2].

ومع ذلك فهناك من يرى أن «السامية» ليست جنساً بالمعنى المفهوم

---

(١) The Jewish Encyclopaedia, 4, N.Y., 1903, p. 6-7.

(٢) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ٤٩.

من الجنس عند علماء الأجناس، أى أنها ليست جنسًا له خصائص جنسية، وملامح خاصة تميزه عن الأجناس البشرية الأخرى، ويقول العالم الفرنسى «الأب هنرى فليش» «إنه لا ينبغى أن نفهم من استعمال كلمة «السامية» أى شيء أكثر من اصطلاح المقصود به تيسير الأمر على الباحثين، دون أن نعتقد أن له دلالة عنصرية»[١]، وذلك لأن بين الساميين تمايزًا وتباينًا فى الملامح وفى العلامات الفارقة، يجعل إطلاق الجنس عليهم بالمعنى العلمى الحديث من علم الأجناس أو الفروع العلمية الأخرى، نوعًا من الإسراف واللغو، كما أننا نرى تباينًا فى داخل الشعب الواحد من هذه الشعوب السامية فى الملامح وفى المظاهر الجسمية وفى هذا التمايز والتباين دلالة على وجود اختلاط وامتزاج فى الدماء، وقد وجد بعض علماء الأنثروبولوجيا أن بين اليهود تباينًا فى الصفات وفى الخصائص التى وضعها هذا العلم للجنس[٢]، والأمر لا يختلف كثيرًا عن ذلك بالنسبة إلى الآشوريين والبابليين والعرب فى الجاهلية وغيرهم[٣].

٢ ـ الموطن السامى للساميين:

هناك شبه إجماع بين العلماء، على أن هذه الشعوب المتكلمة بلغات سامية، إنما ترجع إلى جماعة سامية أولى، وكان لها وطن واحد، ثم تفرقوا فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وإن اختلفوا فيما بينهم اختلافًا كبيرًا فى هذا الموطن الأول، فهناك من رأى أن أرض بابل «بلاد الرافدين» كان الوطن الأول للساميين، بينما يفضل آخرون أرض أرمينية، على أن هناك فريقًا ثالثًا،

---

(١) H. Fleisch, op.cit., p. 18.

(٢) جواد علي، ١/٢٣٥؛ وكذا:
L.H.D. Buxton, The Peoples of Asia, London, 1925, p. 96F.
وكذا: E.Pittard, Les Races et l'Histoire, Paris. 1924, p. 432-442.

(٣) جواد علي، ١/٢٣٥-٢٣٦؛ وكذا: L.H.D. Buxton, op.cit., p. 99F

إنما يذهب إلى أن ذلك المهد الأول للساميين إنما كان فى أرض آمور - أى بلاد الشام ومنطقة الفرات - بينما رأى فريق رابع أن أفريقية هي ذلك الوطن الأم، على حين ذهب فريق خامس إلى أنه فى شبه الجزيرة العربية، وأخيراً توسط بعض الباحثين بين هذه الآراء المتباينة عن الوطن الأول للساميين، فذهب إلى أن منطقة الهلال الخصيب [١] وأطراف جزيرة العرب هى الوطن الأول للساميين، وقد كان هذا الميدان موضع صراع بين البداوة والحضارة، فقد كان البدو سكان الصحراء يهاجمون الحضر سكان القرى والمدن، والبدو هم الساميون، وكذا كثير من سكان الحضر، ومن هذا التنازع على الحياة تكون تاريخ الساميين فى هذه المنطقة فى الهلال الخصيب التى تحدها من الشرق والشمال والغرب الجبال، والتى تمتد فتشمل كل جزيرة العرب[٢]، هذا وقد ناقشنا هذه الآراء المختلفة فى مقالنا عن «الساميين والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلى»[٣].

وعلى أى حال، فإن الغالبية العظمى من العلماء - ومنهم سبرنجر[٤]،

(١) كان «جيمس هنرى برستد» أول من أطلق فى عام ١٩١٦م على منطقة غربى آسيا، والمحصورة بين الجبال فى الشمال، والصحراء فى الجنوب، اسم «الهلال الخصيب» ، وعلل ذلك بأنها «تكون شكل نصف دائرى على وجه التقريب، يرتكز طرفه الغربى فى جنوب شرقى البحر المتوسط، ووسطه فوق شبه جزيرة العرب، وطرفه الآخر عند الخليج الفارسى (العربى، والأفضل الإسلامى) وخلف ظهر هذا تقوم الجبال المرتفعة، وبذا تقع فلسطين عند نهاية الجزء الغربى، وبلاد بابل فى الجزء الشرقى، بينما تكون بلاد آشور جزءاً كبيراً من وسطه، هذا وقد تداول الباحثون هذه التسمية مثنين عليها، فذكر جون سارتر، أنه اسم يليق كل اللياقة . (انظر: برستد، انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٥١ ؛ جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة: طه باقر، ص ١٤٣ ، (القاهرة ١٩٦٥)، انظر:

J.H. Breasted, Ancient Times, Boston, 1916.

(٢) جواد علي، ٢٠٩/١ ؛ وكذا: G. Rodx, op.cit., p. 125.

(٣) انظر: مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض، ١٩٧٤، ص ١٤٥-٢٧١.

(٤) A. Spronger, Das Leben und lehre des mohammad, Berlin, 1861, p. 241.

وكذا: A. Sprenger, Alte Geographie Arabiens, 1978, p. 293.

وإيرهارد شرادر[١] وهربرت جريمة[٢] وربوبرتسون سمث [٣] وكارل بروكلمان[٤] وكنج[٥] وجون ماير[٦]، وستانلى كوك[٧]، ورايت[٨]، وهوجو فنكلر، وتيلة والأب فنسان وجاك دى مورجان وكايتانى[٩] وديتلف نلسن[١٠] وفريتز هومل[١١] وجون فلبى[١٢]، وسايس[١٣] وحسن ظاظا[١٤]، وسبتينو موسكاتى[١٥] وول ديورانت [١٦] وغيرهم - يرون أن الموطن الأصلى للساميين إنما هو شبه الجزيرة العربية، ذلك الخزان البشرى الشهير، الذى لم يتوقف عن أن يقذف - كإقليم طرد، وكصحراء فقيرة ولكنها ولود - بالموجة تعلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة[١٧]، وإلى وادى النيل، عبر البحر الأحمر، أو عن طريق سيناء، والواقع أن بلاد العرب -

---

(١) E. Shrader, ZDMG, 27, 1873, p. 397, F.

(٢) H.Grimme, Mohammad, Welt Geschichte, Berlin, 1904, p. 6-8.

(٣) R. Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, London, 1907, p. 178.

(٤) C. Brocklemann, Gmndriss der verglichenden grammatik der semitischen sprachen, Berlin, 1908, p. 2.

(٥) L.W. King, History of Sumer and Akkad , London, 1915, p. 119.

(٦) J.L. Meyers, in CAH, I, 1923, p. 28.

(٧) S.A. Cook, in CAH, I, 1923, p. 192.

(٨) E.Wright, Comparative Grammar of Semitic Languages, p. 8.

(٩) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٣.

(١٠) D. Niclaen, Handbuch, I, 1927, 47, SS.

(١١) F. Hommel, Ethnologie und Geographie des Altan ORient, 1926, p. 10.

وكذا: A. Grohmann, Arabien, p. 14.

(١٢) J.B. Philby, The Background of Islam, p. 9F.

(١٣) A.H. Sayce, A Ssyrian Grammer, 1872, p. 13.

(١٤) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٦.

(١٥) S.Moscati, Histoire et Civilization des peuples Semitiques, p. 32-33.

(١٦) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة : محمد بدران، القاهرة، ١٩٦١، ص٢٠٩.

(١٧) جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٨.

كانت ولا تزال - فى معظمها أراضى صحراوية، يحيط البحر بأطرافها جميعاً - ما عدا القسم الشمالى - فإذا زاد سكانها، وعجزت عن إمدادهم بالغذاء الضرورى، كان طبعياً أن يرحل الفائض من السكان إلى المناطق الخصبة من منطقة الهلال الخصيب ومصر[1].

وقد اختلف أصحاب هذه النظرية فى المكان الذى كان الموطن الأول للساميين من الجزيرة العربية[2] ففريق رآه فى وسط الجزيرة ولاسيما نجد[3] وفريق ثان رآه في العروض - ولاسيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها - وفريق ثالث رآه فى الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية[4]، أى أن هذا الفريق من العلماء إنما يرى أن اليمن هى «مهد العرب» منها انطلقت الموجات البشرية إلى سائر الأنحاء، وهى فى نظر بعض المستشرقين أيضًا «مصنع العرب» وذلك لأن بقعتها أمدت الجزيرة بعدد كبير من القبائل قبل الإسلام بأمد طويل، وفى الإسلام ومن اليمن كان «نمرود» وكذلك جميع الساميين[5].

وأيًا كانت هذه المنطقة من جزيرة العرب، فإن جزيرة العرب هذه كانت موطن الساميين الأول، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير حركات القبائل السامية من البادية إلى أودية الأنهار الخصبة والتى بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ ولم تتوقف على الإطلاق حتى الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى[6].

---

(١) J.B. Philby, op.cit., p. 10. (٢) A. Sprenger, op.cit., p. 241.

(٣) عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ص ٣٦؛ وكذا: J. Hastings, op.cit., p. 74.

وكذا: W.Warrell, A Study of Races in Ancient Near East, p. 7, 45, 94.

(٤) J.B. Philby, op.cit., p. 9.

(٥) J.A. Montagomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, p. 126.

(٦) عن الأدلة التى تدعم هذا الرأى ومناقشتها بالتفصيل، انظر : محمد بيومى مهران، الساميون والآراء التى دارتحول موطنهم الأصلى، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ١٩٧٤، ص٢٦٣-٢٧١.

وهكذا انطلقت من شبه الجزيرة العربية هجرات ضخمة تتدفق فى موجات متتابعة تشق طريقها إلى الأراضى الخصبة، ويذهب بعض العلماء إلى أن الفترة بين الموجة والتى تليها تبلغ زهاء ألف عام[١] ولعل من أشهر هذه الموجات، موجة الآموريين، ثم الكنعانيين ـ أو الفينيقيين، وأما ثالث الموجات فكانت الموجة الآرامية.

وعوداً على بدء، إلى الشعوب السامية فى فلسطين، حتى نتحدث عن كل منها بشىء من التفصيل.

(١) الآموريـــــــون

يمثل الأموريون الموجة السامية الأولى التى قدمت إلى سورية من شبه الجزيرة العربية، ولسنا نعرف عن أهل البلاد الأصليين قبل قدوم الأموريين الكثير، بل إن معلوماتنا عنهم شبه نادرة، إن لم تكن معدومة فى بعض النواحى، فربما كانت بها جماعات ليست من جنس البحرالمتوسط قدمت من مواطنها فى الأراضى المرتفعة فى أواسط آسيا، أثناء العصر الحجرى النحاسى، وفرضت نفسها على سكان البلاد واختلطت بهم على مرّ الأيام، كما أثبتت ذلك الحفائر فى جازر وقرقميش وغيرها من مواقع أخرى، كما فى فلسطين[٢]، وربما كان بها بعض السومريين الهندو ـ أوربيين.

ولكن الرأى السائد الآن أنهم كانوا دون شك من جنس البحر الأبيض المتوسط والذى يعتبر الساميون فرعاً منه، وقد عاش فى هذا الجزء من العالم بين سكانه، بعض الساميين المنتمين فى الأصل إلى شبه الجزيرة العربية، ولكنهم كانوا أقلية، قبل أن يقوموا بهجرتهم الكبيرة، حوالى عام ٣٠٠٠ق.م[٣] ، وعلى أى حال، فلم تكن فلسطين خالية من السكان عند

(١) H. Winckler, The History of Babylonia and Assyria, N.Y., 1907, p. 18-22.
وكذا: J.A. Montgomery, op.cit., p. 21.

(٢) فيلب حتى، لبنان فى التاريخ، بيروت ١٩٦٩، ص ٧٣-٧٤.

(٣) أحمد فخرى، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٥٩.

قدوم الهجرة السامية الكبرى إليها، بل كان فيها دون شك أقوام ساميون، اختلطوا بسكانها الأصليين الذين كانت لهم لغات وديانات غير سامية الأصل، ولكن سرعان ما طغت السامية على غيرها[1].

ونحن لا نعرف الاسم الذى أطلقه الأموريون على أنفسهم، ولكننا نعرف أن جيرانهم السومريون فى الشرق كانوا يطلقو عليهم اسم «مار ـ تو» Mar - tu (المارتو)، كما كان يطلق عليهم الأكديون اسم «أمورو» Amuru ويعنى الغرب، وقد أطلق البابليون الاسم كله على سورية، كما سموا البحر المتوسط باسم «بحر أمورو العظيم»، ومن المحتمل أن اسم «أمورو» كان فى الأصل اسماً لقبيلة قوية أو مجموعة من القبائل، ثم عمم الاسم بعد ذلك، وصار اسمًا عامًا يطلق على البدو القاطنين فى بادية الشام[2]، وأما معنى الاسم فى التوراة، فهو «الواحد الأعلى»، ذلك لأن اسم الأموريين إنما هو اسم عام يعنى «ساكن البلاد الجبلية أو طوال القامة»[3].

وكان أول ذكر لأمور فى النصوص المصرية، إنما يرجع إلى عهد «سيتى الأول» (١٣٠٩-١٢٩١ق.م)، فعلى الجدار الشمالى لمعبد الكرنك، نجد التقرير المقتضب القائل بأن هذا الملك قد ذهب لتخريب بلاد قادش وبلاد «أمور» (أمور)[4]، ثم ذكرت بعد ذلك فى نصوص قادش من عهد «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م)[5]، وفى نقش السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ق.م)[6]، وفى حملة أمور الثانية

---

(١) أحمد فخرى، دراسات فى العالم العربى، ص ١٠٨.

(٢) محمد عبد القادر، الساميون فى العصور القديمة، ص ١١٠.

(٣) عدد ١٣: ٢٩؛ تثنية ١: ٧، ٢٠؛ يشوع ١٠: ٦؛ عاموس ٢: ٩؛ ثم قارن: عدد ١٣: ٣٢؛ تثنية ٢: ١١؛ وانظر: M.F. Unger, op.cit., p. 45.

(٤) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastics, 2, p. 189.

(٥) A.H. Gardiner, op.cit., p. 189-190.

وكذا: A.H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxford 1960.

(٦) W.F. Edgerton and J.A. Wilson, Historical Records of Ramses III, The Tests in Medinet Habu, Chicago. 1936, pls. 27-28, p. 22-23.

من عهد نفس الفرعون[١]، وأما آخر ذكر لآمور فقد كان فى مرسوم كانوبيس[٢].

وأما عاصمتهم فقد كانت «مارى»، وهى كلمة سومرية من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد «أمورو» و«مارتو» أى بلاد الغرب، وهى الآن «تل الحريرى» جنوب مصب نهر الخابور، بالقرب من «دير الروز» على مبعدة ميل واحد غربى الفرات، قرب بلدة «أبو كمال»، هذا وقد اكتشف «أندريه بارو» فى عام ١٩٣٣م، حوالى عشرين ألف لوحة فخارية، مكتوبة بالخط المسمارى من قصر الملك «زمرى ليم» آخر ملوك مارى، وهى محفوظة الآن بمتحف اللوفر فى باريس [٣] وتصور التوراة الأموريين فى سفر التكوين، وكأنهم من سلالة كنعان[٤]، وهو نوع من الاضطراب المعهود فى التوراة، ذلك لأنهم سوف يكونون طبقًا لذلك من الحاميين، وليسوا من الساميين، كما هو معروف، بل إن هناك من الباحثين المحدثين من يرى فى أرض آمور المهد الأول للساميين ويشمل فى رأيه بلاد الشام ومنطقة الفرات[٥]، وعلى أى حال، فإن التوراة تصور الآراميين من الأهمية بما يكفى لأن يطلق اسمهم فى بعض الأحايين على كل شعوب أرض كنعان بصفة عامة[٦].

وأيًا ما كان الأمر، فإن الأموريين يظهرون فى التوراة، وكأنهم يحتلون

---

(١) Ibid, pl. 95, p. 100.

(٢) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastian, 2, Oxford, 1947, p. 190.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ١/١١٩، وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 46.

(٤) تكوين ١٠ : ١٦.

(٥) A.T. Clay, Amurru, The Home of the Northern Semites, 1909.
وكذا: J. Hastings, op.cit., p. 350.

(٦) تكوين ١٥ : ١٦؛ يشوع ٧ : ٧، ٢٤؛ قضاة ٦ : ١؛ عاموس ٢ : ١٠؛ وكذا:
M.F. Unger, op.cit., p. 46.

جزءاً من بلاد يهوذا، كما يحتلون كذلك جزءاً من منطقة شرق الأردن[١]، ذلك لأن الأموريين كانوا منذ عصر إبراهيم (١٩٤٠-١٧٦٥ق.م) أهم قبيلة في الأرض الجبلية بجنوب فلسطين[٢]، وكانوا يسكنون في حصون «تامار» - وهي عين جدى، التي تقع على مقربة من حبرون[٣] - كما أنشأوا مدناً في «تل الحسى» - على مبعدة ٢٥ كيلا إلى الشرق من غزة - وفي «تل النجيلة» - على مبعدة ١٨ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من غزة - كما بنو مدينة «شعليم» شرق اللد، وجددوا مدينتي لخيش وجازر، وحصنوا جميع المدن وأحاطوها بأسوار.

هذا فضلاً عن إقامتهم لمملكتين أموريتين في شرق الأردن، الواحدة، مملكة سيحون، وتقع بجانب الأردن من أرنون (وادى مؤاب) إلى يبوق «وادى الزرقا» ومن الأردن إلى الصحراء[٤]، وأما الأخرى: فهي مملكة عوج ملك باشان من يبوق، حتى جبل حرمون (جبل الشيخ)[٥] وقد هزم العبرانيون هاتين المملكتين[٦].

(٢) الكنعانيون - الفينيقيون

قدم الكنعانيون إلى فلسطين مع الأموريين - أو في أعقابهم مباشرة - ومن ثم فهم الجماعة السامية الثانية التي لعبت دوراً رئيسياً في تاريخ فلسطين بعد الأموريين، هذا وتنتمي المجموعتان - الكنعانية والأمورية إلى أصل واحد، وتتحدث بلغتين تتشابهان في الكثير، حتى أدى ذلك التشابه إلى أن يطلق على لغة الأموريين «الكنعانية الشرقية»، تمييزاً لها عن لغة

(١) تكوين ١٤: ٧، ١٩؛ قاموس الكتاب المقدس ١/ ١١٩

(٢) A. Gardiner, op.cit., p. 187.

(٣) تكوين ١٤: ٧؛ أخبار ثان ٢٠: ٢؛ تكوين ١٤: ١٣؛ ثم قارن تكوين ١٣: ١٨.

(٤) قضاة ١١: ٢٢.

(٥) تثنية ٣: ٤، ٩، ١٩ وانظر: M.F. Unger, op.cit., p. 46.

(٦) قاموس الكتاب المقدس ١/ ١١٩

الكنعانيين التى عرفت بـ «الكنعانية العربية أو الفينيقية»، وذلك على أساس أن هاتين اللغتين تنتميان إلى أصل واحد

وتطلق على وثائق العهد القديم اليهوية على السكان السابقين للعبريين فى سكنى فلسطين اسم «الأموريين» (العموريين)، بينما يسميهم النص الألوهيمى[١] «الكنعانيين»، ومن الواضح أن هناك صلة قوية بين هذين الشعبين، فلغاتهما لا تختلفان إلا فى اختلاف لهجة الواحدة منهما عن الأخرى، بل ربما يبدو أن الأموريين «العموريين» اسم أطلقه العهد القديم على سكان المنطقة الجبلية فى فلسطين «هضبة يهوذا»، بينما أطلق اسم الكنعانيين على سكان السهول، بالرغم من أن كليهما شعب واحد، ويؤيد هذا الاحتمال أن الأصل العبرى لكلمة كنعان (ك.ن.ع) إنما يعنى انخفض أو منخفض، فالكنعانيون إذن اسم يعنى سكان المنخفض[٢]، وقد ظل اسم كنعان وأرض كنعان يطلق على ساحل فلسطين وسورية حتى بعد هجرة العبريين الذين قنعوا باحتلال هضبة يهوذا بفلسطين، أما أرض العموريين فهى الجانب السورى المتاخم للصحراء حتى أعالى الفرات[٣].

هذا وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ دخول الكنعانيين إلى المنطقة، وفى المواطن التى قدموا منها، وأما عن تاريخ الدخول، فإن «هيرودوت» (حوالى ٤٨٤-٤٣٠ق.م) إنما يروى - على لسان علماء صور - أنهم قدموا إلى

(١) المصدر الألوهيمى: ويرمز له بالحرف (E) وهو الحرف الأول من كلمة (Elohist)، وربما ألف حوالى عام ٧٧٠ق.م فى إسرائيل، لأنه يستعمل اسم العلم «إلوهيم» علماً على «الله» وقد أدمج مع المصدر اليهوى - والذى يرمز له بالحرف (J) وهو الحرف الأول من كلمة Jahwist وربما ألف حوالى عام ٨٥٠ق.م فى يهوذا - فى مجموعة واحدة (JE) حوالى عام ٦٥٠ق.م، ويقول «لوسيان جوتييه» إن هذين المصدرين القديمين كانا قد امتزجا قبل أن تنبثق بقية المصادر الأربعة (وهما المصدر الكهنوتى والمصدر التثنوى)

(٢) G.A. Barton, Semitic and Hamitic Origins London 1934 p 80

(٣) محمد السيد غلاب: الهجرات البشرية الكبرى، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية العدد السادس الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٥

فلسطين فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، بل لقد أثبتت الحفائر أن هذه الهجرة الكنعانية أقدم من هذا التاريخ بكثير، ذلك لأن مدن أريحا ونيسان ومجدو، أسماء سامية، وأنها كانت موجودة قبل عام ٣٠٠٠ ق.م، هذا فضلا عن أن هناك مدنًا أخرى قد كشف عنها، وهى مدن كنعانية ترجع إلى نفس العهد، وربما قبله بنصف قرن، وإن كان هناك من يرجعها إلى عام ٢٥٠٠ق.م.

وأما عن الموطن الذى قدموا منه، فإن «هيرودوت» يروى - نقلا عن الفينيقيين - أنهم مهاجرون من أريتريا، سواء قصد بهذه العبارة الجنوب العربى وساحل الحبشة، أم منطقة الخليج فى الشمال الشرقى للهضبة العربية[١] ، وأنهم قد وصلوا أولا إلى بلاد العرب الصخرية[٢] ، شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم «النقب» ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل إلى لبنان وسورية، وهناك حقيقة تاريخية قيمة نقف عليها من ملاحم «رأس الشمرا» ، إذ يفهم منها أن الكنعانيين عاشوا ردحًا من الدهر فى صحراء النقب جنوبى فلسطين، وأن الفضل يرجع إليهم فى تخطيط أهم المدن فى تلك المنطقة مثل «بئر سبع» و«أشدود»[٣] .

ويشير الجغرافى الرومانى «سترابو»(٦٣-٢١ق.م) فى الكتاب السادس عشر من مؤلفه Geographica[٤] - إلى أن مقابر البحرين فى الخليج الإسلامى، إنما تتشابه ومقابر الفينيقيين، وأن سكان جزر البحرين يذكرون

---

(١) ثروت الأسيوطى، المرجع السابق، ص ١٢٥ .

(٢) انظر عن بلاد العرب الصخرية، كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب» ، ص ٩٦، وكذا:

Diodrus Siculus, II, 48.

وكذا: W.Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 91.

(٣) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص ٥٧-٥٨.

(٤) The Geography of Strabo, Transtlated by Hamilton, London, 1912.

وكذا: The Geography of Strabo, Translated by H.L. Jones, London, 1949.

أن أسماء جزائرهم إنما هى أسماء فينيقية، وأن فى مدنهم هياكل تشبه الهياكل الفينيقية[١]، هذا فضلا عن أن «جيمس تيودور بنت» قد أجرى فى عام ١٨٨٩م تنقيباً فى مقابر البحرين، وبعث بشىء منها إلى المتحف البريطانى، فظهر أنها من مقابر الفينيقيين قبل هجرتهم إلى سواحل سورية[٢]، هذا إلى جانب أن «جيمس تيودور بنت» (١٨٥٢-١٨٩٧) إنما كان متأثراً برأى هيرودوت القائل بأن الفينقيين إنما كانوا يدعون فى عهده بأن أسلافهم من البحرين[٣].

هذا وقد عثر الرحالة «هارى سان جون بريد جرفلبى» (١٨٨٥-١٩٦٠) على مثل هذه المقابر فى الخرج والأفلاج من أعمال نجد، وهو يرى أن الفينيقيين ربما جاءوا من هاتين المنطقتين، ثم هاجروا منهما إلى منطقة الخليج العربى (الإسلامى)، كما أن هناك أسماء فى شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التى أنشأها الفينيقيون على الساحل الشامى مثل «صور» على ساحل عمان»، و«جبيل» على ساحل الإحساء، و«أرواد» وهو الاسم القديم لجزيرة «المحرق»، هذا فضلا عن أن هناك من رأى أن الفينيقيين قد انطلقوا من البحرين إلى البصرة، سالكين طريق الهلال الخصيب إلى الساحل السورى، حيث بنوا مدنهم هناك[٤].

وهكذا يرى «أمين الريحانى» أن المؤرخين والأثريين يجمعون على أن الفينيقيين ساميون، كالعرب تماماً، بل إنهم عرب الأصل، نزحوا من الشواطئ العربية الشرقية ومن البحرين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط فى

---

(١) Strabo, 16-2.

(٢) A. Grohmann, Arabian, Muachen, 1963, p. 251.

(٣) G. Bibby, Looking for Dimun, London, 1970, p. 29.

(٤) جواد علي، ٥٢٩/١؛ عز الدين إسماعيل، تاريخ فلسطين القديم، ص ٢٧؛ وكذا:
H. St. J. B. Philby, Shaba's Daughters, London, 1939, p. 373.

قديم الزمان[١]، إلا أن هذه النظرية إنما تحيط بها هواتف الريبة، ذلك لأن شواطئ الخليج العربى البابلية لا تصلح أمواهها للتربية الملاحية بالنسبة إلى ندرة الأخشاب هناك، وفى الناحية التى برز فيها الفينيقيون وبزوا غيرهم.

وأيا ما كان الأمر، فإن التعبير التوراتى «أرض كنعان» إنما يغطى كل فلسطين غرب الأردن[٢]، وأن الكنعانيين قوم ساميون وليسوا حاميين كما أراد سفر التكوين أن يجعلهم[٣]، وأنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية، سواء من شرقها أو شمالها أو حتى من جنوبها، وسكنوا فلسطين، وأقاموا بها حضارة راقية، كذلك فإن جزءاً من الكنعانيين إنما قد انتقلوا إلى الساحل السورى للبحر المتوسط، حيث عرفوا هناك بالفينقيين، وهم بهذا إنما يمثلون - على هذه الصورة - امتداداً كنعانياً نحو الساحل.

وهكذا حتى إذا ما أتى الإسرائيليون إلى فلسطين، كان الكنعانيون مستقرين فيها منذ أجيال وأجيال، وفى العهد القديم فإن القوم الذين سكنوا البلاد - فيما قبل الإسرائيليين - كان يطلق عليهم «الكنعانيون»، دون النظر إلى الاختلافات الجنسية بينهم، وقد تركز هولاء الكنعانيون فى عدد من المدن المحصنة، ولكنها لم تكن موزعة على طول البلاد، كما هو المفترض دائماً، وإنما كانت فى معظم الأحايين فى السهول التى هيأتها الطبيعة، بينما كانت هناك أحياناً مدن فى أكثر الجهات القاحلة والجبلية من البلاد، وهذه المدن كانت فى الواقع قلاعًا محاطة بأسوار، ذات منازل متلاصقة بجوار بعضها، ولها مناطق ملحقة بها تزودها بالأرض الزراعية الضرورية[٤].

وأيا كان الأمر، فقد بقى الكنعانيون فى بلادهم حتى القرن السابع

---

(١) أمين الريحانى، قلب لبنان، بيروت ١٩٥٨، ص ٤٢٣.

(٢) عدد ٣٤: ٢-١٢؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 171.

(٣) تكوين ١٠: ٦.

(٤) M.Noth, op.cit., p. 141.

قبل الميلاد[١] ، حيث يرد ذكرهم في سفر صفنيا[٢]، رغم المحاولات الإسرائيلية العديدة أحيانًا والهمجية أحيانًا أخرى، بل وعمليات الإبادة في أغلب الأحايين.

وقد اختلف المؤرخون في أصل كلمة «كنعان»، فهناك من رأى أن الكلمة سامية، وأنهم سموا بالكنعانيين، نسبة إلى جدهم الأول «كنعان»، على عادة العرب في تسمية قبائلهم، وأن بني كنعان إنما كانوا يقيمون في أرضهم السهلة على ساحل الخليج العربي (الإسلامي)، وقد نسبت إليهم وسميت بأرض كنعان، وعند نزوحهم حملوا معهم اسمهم واسم بلادهم الذي أعطوه لوطنهم الجديد[٣]، ومنهم من رأى أن كلمة كنعان مشتقة من أصل سامي (خنع ـ قنع ـ كنع) إشارة إلى الصفة، ومنها مجازًا، الأرض الخفيضة، على عكس مرتفعات لبنان، فسمي هؤلاء الساميون بالكنعانيين، أي سكان المنخفض، لانفرادهم بسكنى هذه السهول الساحلية التي تحف بشرق البحر المتوسط.

هنا وقد ذهب فريق ثالث إلى أن أصل كلمة «كنعان» إنما هو مشتق من كلمة حورية، هي «كناجي»، وتعني الصباغة القرمزية التي اشتهروا بها، عندما اتصل الحوريون بهذه البلاد في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد، ومنها اشتقت الكلمة الأكدية، كناخي، أو «كيناخي» ـ كما في رسائل العمارنة ـ وبالفينيقية «كنع» وبالعبرية «كنعان»، وكلها مسميات تدل على الحمرة الأرجوانية، ثم جاء الإغريق واتصلوا بهذه الشعوب السامية واتجروا معها، واحتكوا بهذه المجتمعات المدنية المتناثرة على الساحل، فأطلقوا عليها اسم «فينكس»[٤]، وهي كلمة تعني في بعض الآراء نوعًا من النخيل ينمو على شواطئ هذه النواحي، ويقابلها عند الرومان Palmyra التي أطلقت

(١) كتب سفر صفنيا في عهد ملك يهوذا «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ق.م) على قول ثقات الشراح، وإن رأى البعض أنه كتب في الجزء الأخير من عهد «يهوياقيم» (٦٠٩-٥٩٨ق.م).

(٢) صفنيا ٢: ١-٧. (٣) عز الدين إسماعيل، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٤) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٧.

على مدينة «تمر» أو «تدمر»[1] فى شرق البقاع.

وكلمة «تمر» هى الكلمة السامية التى تقابل كلمة Palm بمعنى النخيل فى بعض اللغات الأوربية حتى اليوم، وأن أصحاب هذا الرأى يرجحون أن الفينيقيين إنما نشأوا عند الخليج العربى، فى بلاد النخيل، وتحولوا عنه إلى فلسطين يوم أن كانت وطناً مشهوراً بكثرة ما فيه من النخيل[2]، ولكن هناك من يرى أن «فينكس» كلمة تعنى اللون الأحمر كذلك.

وعلى أى حال، فلقد اشتقت من هذه الكلمة، كلمة «فينيقيا» وبالتالى أصبحت ترادف كلمة «كنعان»، وأن الكلمتين أصبحتا تعنيان، على الأغلب، شيئًا واحداً، وهكذا اتفقت التسمية السامية القديمة، والتسمية اليونانية الحديثة فى أن تربط بين هذه الشعوب وبين اللون الأحمر، والواقع أن هذه المدن الساحلية على شواطئ شرق البحر المتوسط تخصصت منذ عرفت فى صناعة نوع من الصبغة الأرجوانية كانت تستخرج من حيوانات بحرية رخوة تكثر قرب شواطئها، ومن هنا جاءت نسبتها إلى اللون الأحمر[3]، وهكذا كانت تسميتهم السامية القديمة بالكنعانيين، وبالإغريقية الفينيقيين، وكلاهما علم على شعب سامى واحد، ينزل بسهول فلسطين الساحلية.

هذا وقد تغير اسم كنعان بتغير العصور، فهو ـ بادئ ذى بدء ـ اسم أطلق على الساحل السورى وغرب فلسطين، ثم سرعان ما أصبح الاسم الجغرافى المتعارف عليه لفلسطين، وقسم كبير من سورية، وكان هذا أول

---

(١) تقع تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلو متراً من حمص، ١٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من دمشق، فى منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات، وكانت عاصمة التدمريين (انظر عن تدمر بالتفصيل: محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم ٢/٤٠١-٤١١ (الطبعة الحادية عشرة، الإسكندرية ١٩٩٤).

(٢) عباس العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، ص ٢٢.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٨، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٧، وكذا:
M.F. Unger, op.cit., p. 170-171; W.F. Albright, op.cit., p. 87.

اسم لفلسطين، وجميع الأسماء الأخرى أقل أهمية، وفى وثائق العهد القديم الأول أطلق اسم كنعان بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد فى غرب الأردن، أى مدلول جنسى[١] هذا وقد كان تعبير «لغة كنعان»[٢] يطلق بصفة عامة على لغة فلسطين السامية[٣].

(٣) الآراميون

(١) موطنهم الأصلى وهجراتهم:

يذهب فريق من الباحثين إلى أن الموطن الأصلى للآراميين، إنما كان فى الصحراء العربية السورية[٤]، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى اعتبار منطقة الهلال الخصيب هى الموطن الأول للآراميين، غير أن هناك من يرى أن قيام دولة آرامية اتخذت من دمشق عاصمة لها، وبسطت نفوذها على شمال الشام، وإقليم الجزيرة، إنما كان من وراء هذا الاتجاه[٥].

ولكن المرجح ـ كما أشرنا من قبل ـ أن ذلك الموطن إنما كان فى شبه الجزيرة العربية[٦].

هذا وقد توصل «ب. مورتز» بعد دراسة لأسماء الآراميين إلى أن القوم ما كانوا إلا عرباً، حيث أن هذه الأسماء قد سبق أن عرفت بأنها كلمات عربية، ومن ثم فإن الأراميين عرب بالمعنى الواسع للاصطلاح الذى استعمله «سبرنجر» بصفتهم إحدى المجموعات السامية التى اتجهت إلى الهلال

---

(١) عدد ٣٤ : ٣-١٢.

(٢) إشعياء ١٩ : ١٨.

(٣) فليب حتى، المرجع السابق، ص ٨٧؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 171.

M.F. Unger, Israel and the Aramaeans of Damascus, London, 1957, p. 38.

(٤) وكذا: A.Dupont - Sommer, Les Arameeus, Paris, 1949, p. 15.

(٥) حسن محمود، حضارة مصر والشرق القديم، العبرانيون، ص ٢٤٦.

(٦) كارل بروكلمان، العرب والإمبراطورية العربية، ص ١٣؛ وكذا:

E.G. Kraeling, Aram and Israel, N.Y. 1918, p. 13.

الخصيب، وبدون شك فإن أسماءهم الفعلية لدليل على جنسهم السامى، كما أن هذا يشير إلى النطق البدوى فيما قبل الآرامية المبكرة، قبل انتشار اللغة الأرامية فى الهلال الخصيب[١].

وعلى أى حال، فإن الأراميين إنما يمثلون الموجة الثالثة من موجات الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية، بعد موجة الأراميين والكنعانيين ـ وكانوا، بادئ ذى بدء، يجوبون أنحاء وادى الجزيرة من ناحية الشمال، ويتحركون إلى الشرق من ناحية العراق، وإلى الغرب من ناحية سورية، حتى بدأ القوم يستقرون فى العراق الأوسط.

وهكذا كان الآراميون ـ قبل أن يستقروا فى مواطنهم الجديدة ويكونوا إمارات ودويلات صغيرة ـ منتشرين فى البادية انتشاراً واسعاً، حيث كانوا يتنقلون بين نجد فى الجنوب، وحدود الشام فى الشمال، ونهر الفرات فى الشرق وخليج العقبة فى الغرب[٢].

كانت الجزيرة العربية ـ كما قلنا آنفاً ـ تقذف بالموجة تلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة، وكان الآراميون إحدى هذه الموجات التى خرجت من بلاد العرب فى فترات من القحط، ربما كانت بالغة الخطورة[٣]، ثم اندفعت نحو الشمال وهبطت سورية وفلسطين، واستقرت فى البقاع والبلدان الخصبة التى تحيط بشبه الجزيرة العربية من الشمال، ثم سرعان ما بدأت القبائل الأرامية تتوغل فى العراق وسورية، وإن كان ذلك بدرجة بطيئة، بحيث استغرق هذا التوغل فترة طويلة، حتى تم للقوم الاستقرار فى نهايتها فى المناطق التى طابت الإقامة لهم فيها[٤].

---

(١) Paymond, A. Bowman, in JNES, 7, 1948, p. 66-67.

(٢) مراد كامل ومحمد حمدى البكرى، تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى الفتح الإسلامى، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٣؛ جرجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٤.

(٣) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ١٣.

(٤) يولس عياد، الآراميون فى مصر، القاهرة ١٩٧٥، ص ٧-٨؛ وكذا:
H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, London, 1963, p. 400.

وأما متى تمت هذه الهجرة الأرامية؟ فليس عند العلماء إجابة يمكن أن تصل إلى حد اليقين، ويؤكد «دوبون ـ سومير» أنه ليس هناك أي دليل قاطع يبين العصر الذي توغل فيه الآراميون من أراضي الهلال الخصيب أو المنطقة التي خرجوا منها[١]، وإن رأي أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل أنها تمت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد[٢].

(٢) بدء ظهور الأراميين:

كان الاعتقاد السائد من قبل أن نقش الملك الأشوري «أريك ـ دين ـ إيلو» (١٣١٧-١٣٠٦ق.م)، ثم نقش «تجلات بلاسر الأول» (١١٢٣-١٠٢٦ق.م) يحتويان على أقدم إشارة إلى الأراميين، ولكن ثبت الآن أن الأراميين يرجعون إلى أزمنة موغلة في القدم، إذ يذكر نقش للملك «نارام ـ سن» (٢١٩١-٢٢٥٥ق.م) ـ ويرجع إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ـ إقليمًا يدعى «أرام» ويبدو من النص أنه كان يقع في أعالي بلاد الرافدين، وإن كان تفسير هذا النص ليس مؤكدًا على وجه اليقين.

غير أن أرام سرعان ما تذكر من جديد بعد ذلك بقليل، على لوحة وثائق «درهم»[٣] التجارية التي ترجع إلى حوالي عام ٢٠٠٠ق.م، وتشير إلى مدينة أو دولة «أرام»، على مقربة من «أشنونا» (تل الأسمر الحالية) في وادي دجلة الأسفل، وثمة لوحة أخرى من لوحات «درهم» ترجع إلى بضع سنوات بعد ذلك، وقد جاء فيها «أرام» علمًا للشخص، وقد تكرر هذا الاسم العلم مرة أخرى، حوالي عام ١٧٠٠ق.م، في نصوص «ماري» وحوالي عام ١٤٠٠ق.م في نصوص «أوجاريت».

---

(١) A. Dupont, Sommer, op.cit., p. 15.

(٢) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ١٩١/٥، (الإسكندرية ١٩٦٣).

(٣) يرى «مرسكاتي» أن «درهم» مدينة سومرية قريبة من «نيبور» وكانت تسمى قديمًا «بزرشد جن» بينما يرى الدكتور محمد عبد القادر أن «درهم» أو «دريهم» اسم شخص. (سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٠٦-١٧٩، محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٢٠٠).

هذه أقدم ما لدينا من إشارات إلى الأراميين، وبدهى أنها لا تكفى لمعاونتنا على تتبع تاريخهم القديم، ولكنها تكفى لبيان الحاجة إلى تعديل الرأى الذى كان سائداً فى وقت من أن ذلك التاريخ إنما يبدأ فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد[1]، كما أشرنا من قبل، ومن الجائز أنه قبل استعمال اصطلاح «الأراميين» فإن هذا الشعب إنما كان يعرف بأسماء قبلية مختلفة، وفى الفترة الأشورية التى تبدأ من عهد «سرجون الثانى» (٧٢٢-٧٠٥ق.م) كان يوجد أكثر من خمسين اسماً لقبائل آرامية.

٣ - اسم أرام والآراء التى دارت حوله:

اختلفت الآراء حول معنى اسم «أرام» فقد ذهب بعض اللغويين إلى أن أصل الاسم مشتق من كلمة «إن ع ام ون» أى «مخلوقات، أو كما فسره أحد العلماء بأنه اسم أو لقب إله، ولكن «كريلنج» يذهب إلى أن اسم «أرام» إنما هو اسم لشعب، وليس اسم منطقة وأن أرام إنما يعنى سكان البلاد المرتفعة أو العالية، وحتى هذه التسمية (أى البلاد المرتفعة) إنما كانت موضع خلاف، فالبعض يرى أنها أطلقت على القوم باعتبارهم من «نجد» والبعض الآخر يذهب إلى أن الاسم لم يطلق عليهم حتى إبان إقامتهم فى منطقة «طور عبدين»، وأن تعبير سكان البلاد المرتفعة أطلق عليهم لإقامتهم فى أعلى الدجلة والفرات، باعتبار أن هؤلاء كانوا بالنسبة لسكان الوادى (دجلة والفرات) يعيشون فى أماكن مرتفعة[2].

ولعل علاقة الأراميين بالأخلامو والكلدانيين[3]، إنما كانت سبباً فى التوسع فى مدلول لفظ الأراميين، إذ يطلقها البعض على الشعوب السامية التى تناثرت وتتابعت فى منطقة الهلال الخصيب، ويعللون ذلك بأن بلاد

---

(١) P. A. Bowman, op.cit., p. 66-7.

(٢) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٨.

(٣) فيلب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ص ١٥٧، ١٧٥، ٢٣٨.

الأراميين يقال لها عند اليهود أرام، لأن أرام بن سام هو الذى تبوأها وعمّرها بنسله[١].

هذا ويتجه بعض الباحثين إلى أن الذين حملوا اسم «أرام» وأطلقوه على السكان الأراميين فى سورية إنما هم «الحيثيون» الذين كانوا على اتصال بأرامى أعالى الدجلة والفرات، ثم سيطروا على سورية، وفى تلك الأثناء نقلوا الاسم إلى سورية من أعالى الدجلة والفرات، ولعل هذا هو السبب فى أن اسم الأراميين أطلق على «الأخلامو» الذين دخلوا سورية بعد تدهور قوة الحيثيين، ويرجح «كريلنج» أن هذه القبائل لم تحمل اسم «أرام» حتى إقامتهم فى منطقة طور عبدين، وأن تعبير (أرام النهرين) ظهر حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد[٢] ولكن «مريل أونجر» يشير إلى حقيقة عامة، وهى أن الاسم لم يطلقه عليهم الأشوريون عندما سكن الأراميون فى منطقة طور عبدين، بل يرجع إلى عهد أسبق من ذلك[٣].

٤ - الأراميون والإخلامو:

هناك من الأدلة مايشير إلى أن الأراميين قد ذكروا مع الأخلامو، بصورة وثيقة فى شمال بلاد الرافدين[٤]، وكان تكرار الاسمين معًا مما لفت انتباه العلماء، فهناك نقش للملك الأشورى «أريك - دين - إيلو»، يتحدث

---

(١) تكوين ١٠ : ٢٢؛ إقليمس يوسف داود ، اللمعة الشهية فى نحو اللغة السريانية، الموصل ١٨٩٨، ص ٧.

(٢) بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٨ وكذا: Emil G. Kraeling, op.cit., p. 20-22.

(٣) M.F. Unger, op.cit., p. 39.

ثم قارن: تكوين ١٠ : ٢٢؛ أحمد فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١١٦ وما بعدها؛ وكذا:

Sabatino Moscati , Histoire et Civilisation de Peuples Semitiques, Paris, 1955, p. 164; E.G. Kraetling, op.cit., p. 21-22.

(٤) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٥٧.

فيه عن انتصاراته على جماعات «أخلامو»، كما يرد كذلك نفس الاسم في تاريخ خلفائه، حتى إذا ما وصلنا إلى عهد «تجلات بلاسر الأول»، فإننا نجد العاهل الأشورى إنما يعلن أنه قد هزم «الأخلامو الأراميين» الذين جاءوا من الصحراء مغيرين على ضفاف الفرات، وهكذا كان ذكر «الأخلامو» مع «الأراميين» سبباً في أن يظن البعض بأن الأراميين فرع من الأخلامو، وأن كلمة الأخلامو إنما تعنى «حلفاء»، لأن أصل الكلمة العربية «خلم» (بكسرٍ فسكون) إنما يعنى صديق أو صاحب، وجمعها «أخلام وخلماء»[1].

غير أن هناك فريقًا من العلماء، إنما يذهب إلى أن كلمة «خلم» لا تعنى فى هذا الموضع (حليف)، بخاصة، وأن صيغة الجمع «أخلامو» إنما ترجع إلى عصر أحدث[2]، هذا فضلا عن أن هناك أراميين آخرين يحملون اسمًا آخر أو أسماء أخرى، كما أن البدو الأسيويين إنما كانوا معروفين للمصريين منذ أيام الأسرة الأولى (حوالى عام ٣٢٠٠ق.م) تحت اسم (ستيو) Setiu هذا فضلا عن أنهم قد ذكروا فى النقوش الأكدية منذ حوالى عام ٢٧٠٠ق.م وأنهم قد استقروا على طول الفرات الأوسط فى منطقة تدعى Sutium[3].

ويفضل (سيتينو موسكاتى) أن يفسر اسم «أخلامو» على أنه إنما كان اسمًا يطلق على قبيلة من القبائل البدوية، ثم توسع فى استعمال الاسم، وهكذا يمكن اعتبار كلمة أخلامو، إنما تعنى المتحالفين، وهنا يبدو أن الأراميين إنما كانوا جزءاً من هذا التحالف، الذى تكون من «أريك ـ دين ـ إيلو)»، وأما بعد أيام «تجلات بلاسر الأول» فإننا نجد فى المصادر الأشورية

---

(١) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٧، ٣٤٤.

(٢) محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٣) R.A. Bowman, JNES, 7, p. 67.

عدة إشارات أخرى إلى «الأخلامو» و«الأخلامو ـ الأراميين»، ولكن الاسم البسيط «الآراميين» يزداد وروداً، وأخيراً ينفرد بالاستعمال[١].

٥ ـ الآراميون والعبرانيون:

إن العلاقة بين أرامي ما بين النهرين[٢] وبين العبرانيين ـ طبقًا لرواية التوراة [٣] ـ إنما هي جد وثيقة، وطبقًا لتقاليد الآباء الأوائل التي سجلت في سفر التكوين، فقد كان يعيش في «فدان أرام» وميزوبوتاميا وبيت إيل ولابان قوم يدعون الأراميون، ويعتبرون من سلالة «ناحور» (أخي إبراهيم الخليل)[٤] ، وينتسب إلى هؤلاء مجموعة الأراميين الذين أرسل إليهم إبراهيم يطلب زوجة لولده إسحاق[٥]، كما بعث إسحاق كذلك بابنه يعقوب ليتزوج من هناك ـ من ابنتي لابان «ليئة وراحيل»، وكذا من جاريتيهما «زلفة وبلهة»[٦].

وهكذا فمن المجتمع الأرامي في ميزوبوتاما جاءت النسوة الأراميات، زوجات يعقوب الأربعة، واللائي يعتبرن، على الأقل طبقًا لتقاليد التوراة، جدات القبائل العبرانية، ومن هنا فإننا نرى كاتبًا عبرانيًا يعترف بعد ذلك بهذه التقاليد، قائلا «أراميا تائهًا كان أبي»[٧]، وهكذا لم يكن هناك فرق كبير بين العبرانيين والآراميين، ومن المحتمل أن العنصرين كانا قد امتزجا

---

(١) موسكاتي ، المرجع السابق، ص ١٧٧، ٣٤٥.

(٢) المقصود بالنهرين هنا: الفرات ورافده الخابور، وليس الدجلة والفرات . هذا وليس هناك خلاف يذكر بين تعبير «آرام النهرين» و«فدان آرام» ، ذلك لأن التوراة تذكر أن عبد إبراهيم اليعازر الدمشقي أخذ عشرة جمال وذهب إلى آرام النهرين ، إلى مدينة ناحور (تكوين ٢٤ : ١٠ ؛ فليب حتى، المرجع السابق، ص ١٧٦).

(٣) تكوين ٢٤: ١١.

(٤) تكوين ٧: ١٠ ، ٢٤: ٤٠، ٢٥: ٢٠، ٢٨: ٢.

(٥) تكوين ٢٤: ٣-٤.

(٦) تكوين ٢٩: ٢٧-٣٥، ٣٠: ١-٢٤.

(٧) تثنية ١٦: ٥؛ وكذا:

R.A.Bowman, Arameans, Aramaic and the Bible, JNES, 7, 1948, p. 67-68.

عند التخوم بينهما من أول وهلة، وبذا أمكن للقبائل الإسرائيلية الشمالية - مثل نفتالى - أن تتحول بسهولة من قبيلة إسرائيلية إلى سورية أو أرامية[١].

ولعل هذا هو السبب الذى دفع البعض إلى أن يذهب إلى هناك اتفاق سلام قد عقد بين الأراميين والإسرائيليين منذ أيام يعقوب، ذلك أن جماعة من الأراميين قد استقرت لفترة ما، إلى الجنوب من يبوق، وإلى الشرق من جلعاد، ومن هنا كان اللقاء التاريخى الأول بين الإسرائيليين والأراميين، والذى انتهى باتفاق بين الطرفين على إقامة نصب حجرى على جبل جلعاد - ويقع غرب الأردن ويشرف على وادى يزرعيل - كحد فاصل بينهما، تعهد الطرفان بعدم انتهاكه لأغراض شريرة، وفى الرواية الشعبية عن هذا الاتفاق كان يعقوب ممثلا للإسرائيليين - أو بالأحرى للأفرايميين الجلعاديين - كما كان «لابان» خاله وأبو زوجتيه - ممثلا للأراميين[٢].

وتمر الأيام ويصبح العبرانيون أمة، ويقاسون المتاعب من جيرانهم الأراميين، ومن ثم يحاولون قطع الروابط القديمة منتهزين كل فرصة لإبعاد تفسير الاعتراف المنسوب لأبيهم يعقوب[٣]، الأمر الذى سوف نشير إليه بالتفصيل فيما بعد.

هذا ويستدل من نصوص بلاد النهرين على أن جماعات أرامية قد اجتاحت قسماً كبيراً من هذه البلاد، وشمال سورية ووسطها، فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وقد سادت العناصر الأرامية فيها، باستثناء بعض الجيوب القليلة التي كان يسيطر عليها الحيثيون، ولكن الأراميين إنما بلغوا ذروة سلطانهم السياسى فى القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد، نظراً لضعف الإمبراطوريات الكبرى فى ذلك الوقت.

---

(١) H.R. Hall, op.cit., p. 400.

(٢) تكوين ٣١: ٤٣-٤٥، وكذا: M. Noth, op.cit., p. 159-160.

(٣) R.A. Bowman, Arameans, Aramic and The Bible, p. 68.

(٦) الدويلات الأرامية:

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قوة توسع الأراميين، التى تبرز واضحة فى هذه الفترة، لم تصحبها القدرة على تنظيم فتوحاتهم، لو لم تصحبها بصفة عامة القدرة على تنظيم دولهم نفسها. ولم ينشئ الأراميون أبداً وحدة سياسية فعالة، وكان العامل الأساسى فى ضعفهم انقسامهم إلى ممالك محلية صغيرة، مع كثرة الأجناس المتباينة التى اختلطوا بها، وقد شهدت نهاية القرن العاشر قبل الميلاد نهوض آشور، واستيلائها على الدويلات الأرامية[١] ولعل من الأفضل هنا أن نقسم الإمارات أو الدويلات الأرامية تقسيماً جغرافياً، فنتحدث عن إمارات شمال العراق، ثم شمال سورية ثم وسطها وجنوبها.

(أ) فى شمال العراق:

غزت القبائل الأرامية الجزء الشمالى من أرض الرافدين، وأسست مجموعة من الدويلات الصغيرة يتكون اسمها من كلمة «بيت» مضافاً إليها اسم الجد الأعلى، لعل أهمها:

١ ـ دويلة بيت أدينى:

ومركزها «تل برسب»، وتقع على الفرات الأعلى، ومكانها الآن «تل الأحمر» وقد سماها «شلمنصر الثالث» (٨٥٩-٨٢٤ق.م) «كرشلمنشرد» (قلعة شلمنصر) بعد انتصاره على «أخونى» ملك بيت أدينى[٢] ، وكانت دويلة بيت أدينى (بيت عادينى) تمثل أقوى ولاية فى شمال العراق، وقد شغلت مركزاً استراتيجياً على الطريق فيما بين حران وسورية، ومن ثم فقد كانت تتدخل فى إشعال الثورات بين الدويلات الأرامية ضد آشور ـ كما

---

(١) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٨ .

(٢) H.Schmokel, Geschichte des alten vorderasien, Leiden, 1957, p. 254.

حدث فى ثورة بيت خالوب عام ٨٨٤ق.م، وفى ثورة لاق وخيندان وسوخو عام ٨٧٨ق.م - مما دفع آشور إلى تأديب بيت أدينى وإجبارها على دفع الجزية[١]، غير أن الأخيرة لم ترعو إلا بعد أن تمكن شلمنصر الثالث من القضاء عليها وضمها إلى الإمبراطورية الاشورية[٢] - كما أشرنا آنفاً -

٢ - دويلة بيت بخيانى:

ومركزها «جوزانا» (تل حلاف) هذا وقد وجدت ولايات أخرى على طول الفرات وروافده فهناك ضاحية سوخو وولاية خينداان الصغيرة، وإقليم «لاق» الذى به ولاية «بيت خالوب»[٣].

هذا وقد توسعت إلى الجنوب من ذلك عدة جماعات أرامية فى الجزئين الأوسط والجنوبى من أرض الرافدين، وهنا استولى المغتصب الآرامى «أدد - إبل - أدن» على عرش بابل فى القرن الحادى عشر (حوالى عام ١٠٥٠ق.م)[٤].

(ب) فى شمال سورية:

توغل الأراميون فى شمال سورية، مكونين عدداً من الولايات الصغيرة، منها «جرجوم» وعاصمتها «مرقاش» - وهى مرعش الحالية - و«سمأل» فى كليكيا، وعاصمتها «سنجولى»، و«خاتينا» وعاصمتها «كوتالوا» و«ياخان»، وعاصمتها «أرباد»، ثم «يمخد» وعاصمتها «خلبو» (حلب)[٥]، وفى

---

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٦. وكذا: E. G. Kraeling, op.cit., p. 54-59.

(٢) Ibid., p. 60-63.

(٣) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٧؛ بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٦؛ وكذا:

(٢) E.G. Kraeling, op.cit., p. 53.

(٤) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٧-١٧٨؛ وكذا: H.Schmokel, op.cit., p. 203-247. وكذا: G. Roux, op.cit., p. 247-249.

(٥) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٢٩/٣؛ بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٧؛ وكذا: E. G.Kraeling, op.cit., p. 63-66.

«حماه» كشفت حفائر «انجهولت» طبقة آرامية ترجع إلى حوالى عام ٢٠٠٠ق.م[١].

هذا وقد تعرضت هذه الدويلات للضغط الأشورى عدة مرات، حدث ذلك على أيام أشور ناصربال الثانى(٨٨٤-٨٥٨ق.م) الذى قام بحملة مظفرة على «خاتينا» وأجبر ملكها على الخضوع ودفع الجزية[٢]، ولكن سرعان ما انتهزت خاتينا - بالاتفاق مع قرقميش وجرجوم وسمأل وبيت أديني - فرصة وفاته، وانتقال العرش الأشورى إلى «شلمنصر الثالث» - فقامت بالثورة ضد أشور، إلا أن العاهل الآشورى الجديد تمكن فى عام ٨٥٨ق.م من القضاء على الثورة وإجبار العصاة على دفع الجزية[٣] ثم كتب له آخر الأمر - وفى عام ٨٣٢ق.م - نجحًا بعيد المدى فى القضاء نهائيًا على الثورة، وتولية أحد الموالين له عرش «خاتينا»، وسرعان ما اختفت خاتينا من النقوش وضعفت الولاية جدًا، واقتصرت على العمق لأنطاكية، وأصبحت تسمى «أونقى»[٤].

وفى القرن الثامن قبل الميلاد، عاودت أشور الهجوم، ففى عام ٧٤٠ق.م وبعد حصار دام سنوات ثلاث، وقعت فى يد «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥-٧٢٧ق.م) مدينة «أرفده»، وتدل النقوش المكتشفة فى «سوجين» - وتقع على مبعدة ٢٥ كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقى من حلب - على أنها كانت مركز المعارضة ضد آشور[٥].

وكانت دويلة «سمأل» آخر الولايات الأمورية التى ظلت تكافح من

---

(١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٢) E.G. Kraeling, op.cit., p. 66.

(٣) Ibid., p. 68-71.

(٤) Ibid., p. 71-72.

(٥) موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٨، وكذا: H.Schmokel, op.cit., p. 262.

أجل استقلالها حتى القرن الثامن ق.م، حين نجح «شلمنصر الخامس» (٧٢٧-٧٢٢ق.م) فى القضاء على استقلالها وضمها إلى إمبراطوريته الواسعة، ثم أقام «إسر حدون» (٦٨١-٦٦٩ق.م) شاهداً كبيراً عند مدخل المدينة مجد فيها حكمه، وعلى أى حال، فربما وجد فى «سمأل» من بقايا أثرية لهلاك بالنار، وانقطاع كل ذكر لها فى مصادرنا، يدلان، فيما يبدو على أنها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور زمن طويل[١].

(ج) فى وسط وجنوب سورية:

تحدثنا التوراة عن سبع ولايات أو دويلات أرامية فى سورية وشرق الأردن هى:

١ ـ دويلة أرام النهرين:

وتقع هذه الإمارة التى تسمى فى التوراة[٢] (فدان أرام) أو نهرين فى السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام، وكان مركزها مدينة «حران» التى أصبحت من أعظم مراكز الحضارة الأرامية[٣]، وفى هذا الإقليم تقع كذلك مدينتا «نصيبين» و«الرها» اللتين اشتهرتا كمركزين للثقافة والآداب السريانية[٤].

وتعتبر دويلة أرام النهرين أقدم الإمارات الأرامية فى سورية وشرق الأردن، وأما اصطلاح «أرام النهرين» فقد ظهر ـ فيما يرى كريلنج ـ فى القرن الثالث عشر ق.م، غير أن رواية التوراة[٥]، إنما ترجع به إلى عصر الآباء الأول ـ عصر إبراهيم وناحور وإسحاق ويعقوب ـ هذا فضلا عن أن

---

(١) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٩؛ وكذا: A. Dupont-Sommer, op.cit., p. 68.

(٢) تكوين ٢٤: ١٦.

(٣) فليب حتى، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ١/ ٤٣.

(٥) تكوين ٢٤: ١٠، ٢٨: ٢، ٥، ٢٩: ٤-٥.

الاصطلاح إنما استعمل في رسائل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد[١]، وأما النهران فكان المراد بهما من قبل الدجلة والفرات، ولكن الراجح الآن ـ كما أشرنا من قبل ـ أنهما الفرات ورافده الخابور، حيث تقع منطقة حاران التي استقر الأراميون فيها في عصر الآباء الأول، ومن هنا بدأت القوة الأرامية في الانتشار وقد دعا العبرانيون هذه المنطقة «أرام التي في عبر النهر» واستمرت هذه الدويلة حتى القرن التاسع قبل الميلاد[٢].

وكان الأراميون في فدان آرام قد اتخذوا من «حاران» ـ وتقع على نهر بلخ على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بنهر الفرات، إلى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعدة ٤٦٨ كيلا إلى الشمال الشرقي من دمشق ـ وكان المدينة مركزاً تجارياً على طريق القوافل التي تصل نينوى وآشور وبابل بدمشق وصور والمدن المصرية وقد اتخذت القمر إلهاً لها تحت اسم «تارح»[٣]، ثم اتخذها الآشوريون مركزاً لهم بعد سقوط «نينوى» في عام ٦١٢ق.م، تحت أيدى البابليين والميديين ولكن «نبوخذ نصر»(٦٠٥-٥٦٢ق.م) استطاع الاستيلاء عليها في عام ٦٠٩ق.م، والقضاء على بقية الجيش الأشورى، قبل وصول نجدات ملك مصر «نخاو» الثاني (٦١٠-٥٩٥ق.م) لإنقاذه[٤].

٢ ـ دويلة أرام دمشق:

وقد تأسست هذه الدويلة التي كانت عاصمتها دمشق في أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد، على رأى[٥] وأخريات القرن العاشر على رأى آخر[٦]، فكانت معاصرة على وجه التقريب لتأسيس مملكة للعبرانيين ـ

(١) Samuel A.B. Mercar, The Tell-Amarna Tablets, Toronto, 1939, Vol. 2, p. 898.

(٢) E.G.Kraebing, op.cit., p. 21.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢٨١/١. وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 455.

(٤) M.F. Unger, op.cit., p. 455; A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p.357-358.

(٥) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٦) مراد كامل، المرجع السابق، ص ٤.

طبقًا للرأى الأول، وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به ـ ثم سرعان ما تطورت حتى غدت دولة كبرى ـ بالنسبة إلى جيرانها ـ تمتد إلى الفرات من جهة، وإلى اليرموك من جهة أخرى، وكانت متاخمة لأرض الأشوريين فى الشمال، ولأرض العبرانيين فى الجنوب، وكانت سورية الداخلية شرقى جبل لبنان، وسورية الشمالية وباشان، تحت سلطانها فى حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وظل ملوكها يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم أفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الآشوريون من جهود لإخضاع سورية لحكمهم[١].

وأما علاقة أرام دمشق بالعبرانيين، فكل دارس للتوراة على معرفة بها وهى ـ على أى حال ـ قد بدأت أيام «شاؤل» (١٠٢٠-١٠٠٠ق.م) وإن كان «داود» (١٠٠٠-٩٦٠ق.م) هو الذى استطاع الاستيلاء على المدينة العريقة[٢]، هذا وقد روت التوراة بالتفصيل قصة الصراع بين الأراميين والإسرائيليين على أيام «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ق.م)، الأمر الذى وصل إلى أن يحاصر الأراميون «السامرة» عاصمة إسرائيل نفسها، وإن استطاع أخاب أن يصون آخر الأمر حدود إسرائيل الشمالية، وأن يشترك فى حلف ضد الأشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق، وأن يشارك معه فى حرب ضد آشور فى موقعة قرقار فى عام ٨٥٣ق.م[٣]، الأمر الذى سوف نناقشه بالتفصيل فى مكانه من هذه الدراسة.

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢-٣٣؛ فيليب حتى، المرجع السابق، ص ١٨١؛ مراد كامل، المرجع السابق، ص ٤؛ أدى شير، تاريخ كلدو وأشور، بيروت ١٩١٢، الجزء الأول، ص٦٦؛ وكذا:

R.H. Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, N.Y., 1941, p. 687.; JNES, 7, p. 70.

(٢) صموئيل ثان ٨: ٥-٦؛ أخبار أيام أول ١٨: ٥-٦؛ قاموس الكتاب المقدس ٣٧٥/١؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٣.

(٣) ملوك أول ٢٠: ١-٤٣، ٢٢: ٢-٣٨؛ وكذا: A. Dupont- Sommer, op.cit., p. 35.

وكذا: E.G. Kraeling, op.cit., p. 73, 75. وكذا: A. Lods, op.cit., p. 378.

على أن الصلات بين الأراميين والإسرائيليين لم تكن كلها حربية، وإنما كانت هناك صلات تجارية، وعلى أى حال، فلقد بقيت دويلة (أرام دمشق) تقاوم جبروت الأشوريين ـ على الرغم من أن طول منافستها مع جيرانها من الأراميين والبدو العبرانيين قد أرهقها كثيراً ـ إلى أن استطاع (تجلات بلاسر الثالث) (٧٤٥-٧٢٧ق.م)، أن يستولى عليها فى عام ٧٣٣ق.م، وأن يقتل ملكها (رصين) وأن يجعلها ولاية آشورية، ذلك أن العاهل الأشورى كان ـ وقت أن طلب أحاز ملك يهوذا النجدة منه لإنقاذه من قوات دمشق والسامرة ـ فى شمال سورية، وربما كان مع جيشه فى مكان ما فى مجاورات دمشق، ومن ثم فلم يكن فى حاجة إلى توسلات (أحاز) اليهودى ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين، وهكذا استطاع العاهل الأشورى أن يجتاح فى عدة حملات إلى الغرب دمشق، بعد حصار دام عامين، وبسقوط دمشق حان الوقت للأشوريين أن يضموا سورية بأكملها، وانتهت قوة الآراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الآرامية لآشور[١].

٣ ـ دويلة آرام صوبة:

وكانت مملكة أرامية قوية، تقع عاصمتها «صوبة» فى مكان بلدة «عنجر» فى البقاع جنوبى «زحلة»[٢]، وإن كنا للأسف ـ لا نعرف شيئاً حتى الآن عن ملوكها الأوائل، فيما قبل عهد «حدد عزر» وأما مدى اتساعها فقد وصل فى عهد ازدهارها إلى حدود حماة فى الشمال الغربى[٣].

---

(١) ملوك ثان ١٦: ٥-١٠؛ بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٤؛ وكذا:

M.Noth, op.cit., p. 259F; E.G. Kraeling, op.cit., p. 118-119.

(٢) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ٤٣/١.

وقد وصلت «صوبة» إلى ذروة قوتها فى عهد «شاؤل» ملك إسرائيل والذى كانت العداوة بين الدويلات الآرامية وإسرائيل فى أيامه على أشدها، ومع ذلك فإن التوراة لم توضح لنا علاقة شاؤل بالدويلات الأرامية، مما دفع «كريلنج» إلى القول بأن علاة صوبة بالعبرانيين فى عهد شاؤل كانت مبهمة[١] كما ذهب «ديبون - سومير» بأن ملوك الآراميين لهذه المنطقة لم يذكروا لأنهم كانوا توابع لصوبة[٢].

وعلى أى حال، فلقد استمرت صوبة فى عنفوان قوتها حتى السنوات الأولى من أيام داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م)، الذى نجح فى أن يضمها إليه مؤقتاً، إذ استمر الصراع بين الأراميين والعبرانيين على أيام داود - كما كان على أيام سلفه شاؤل - وهكذا قامت حروب بين داود و«حدد عزر» ملك صوبه، ساهمت فيها - إلى جانب حددد عزر - معظم الولايات التابعة لصوبة، كما اشترك فيها أراميو ما بين النهرين.

ذلك أن العلاقات بين العمونيين وداود عندما بدأت تسوء إلى الدرجة التى تهدد بدق طبول الحرب بينهما، طلبوا معونة جيرانهم الأراميين فى آرام بيت رحوب، وأرام صوبة ومعكة وطوب، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال لمساعدة «ربة» عاصمة عمون، ضد الهجوم الإسرائيلى الذى أمر به داود تحت قيادة يو آب، ونجح يو اب فى هزيمة الآراميين، ويعلم «حدد عزر» ملك صوبة بذلك، ويشترك فى حرب مع الإسرائيليين - بقيادة داود - ولكنه ينهزم فيها، ثم سرعان ما بدأت صوبة فى الاضمحلال وأخذت دمشق مكانها بالتدريج، حتى صارت أعظم الإمارات الآرامية[٣].

---

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٠؛ وكذا: E.G.Kraeling, op.cit. , p. 40.

(٢) A. Dupont-Sommer, op.cit., p. 26.

(٣) صموئيل ثان ١٠: ٦-١٤؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 194-195.

٤ ـ إمارة معكة:

وتقع شرق الأردن قرب جبل حرمون(١)، وامتدت نحو الأردن غرباً، كما امتدت نحو الجنوب والشرق فى البرية، وربما كانت «إبل بيت معكة» من بين مدن معكة أو عند حدودها، واشترك المعكيون مع الآراميين والعمونيين فى الحرب ضد داود، ولكنه انتصر عليهم(٢).

٥ ـ إمارة جشور:

وتقع بين حرمون وباشان، وإلى الشرق من نهر الأردن وبحر الجليل، وإلى الجنوب من معكة فى منطقة منسى(٣)، وكانت جشور عل أيام داود مستقلة، ومن ثم فقد هرب إليها ولده «أبشالوم» بعد أن قتل أخاه «أمنون»(٤).

٦ ـ إمارة أرام بيت رحوب:

وتقع بصفة عامة فى مجاورات جشور، وإذا وحد هذا المكان بالمكان الذى ذكر فى التوراة فى سفرى العدد والقضاة فإنها تقع قرب معكة ودان(٥)، وعلى أى حال، فمن المرجح أنها كانت تقع بالغرب من مدخل حماة(٦).

---

(١) يشوع ١٢: ١٣٥: ١١: ١١ صموئيل ثان ١٠: ٦، ٨: ١؛ أخبار أول ١٩: ٦-٧؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 673.

(٢) صموئيل ثان ١٠: ٦-٨؛ قاموس الكتاب المقدس ٢/٩٠٩؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 673.

(٣) تثنية ٣: ١٤؛ صموئيل ثان ١٥: ٨، ١٣ ٣٧.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ٢٦١/١.

(٥) عدد ١٣: ١٢؛ قضاة ١٨: ٢٨.

(٦) قاموس الكتاب المقدس، ٤٣/١؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 77.

٧ ـ إمارة طوب:

وطوب اسم عبرى معناة «طيب»، وتقع شرق الأردن، وربما توحد «بالطيبة» ـ على مبعد عشرة أميال إلى الجنوب من جدة أو جدار التى تسمى الآن مقيس أو أم قيس ـ ومن هناك استأجر «حانون» ملك عمون جنوداً لحرب داود، مما دل على أنها كانت وراء حدود بنى إسرائيل[١].

اللغة الأرامية:

استمر الأراميون كشعب، بعد أن قضت الدولة الكبرى عليهم ككيان سياسى، وبقيت لغتهم بعد سقوط دويلاتهم فى الشرق من غير أن تتأثر باللغات الأخرى، وانتشرت هذه اللغة فى دول الشرق الأدنى القديم، بدرجة لم تصل إليها واحدة من أخواتها من اللغات السامية[٢]، إلا إذا كانت تلك اللغة، هى اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، التى فاقتها بغير حدود.

ولعل من أهم أسباب انتشار اللغة الأرامية أنها كانت لغة التجار الأراميين الرحل، كما أنهما كانت لغة سهلة ببساطة أبجديتها وسهولة نحوها وصرفها، وربما فيها من سهولة ويسر[٣]، كذلك يلاحظ أن هذه اللغة

---

(١) صموئيل ثان ١٠ : ١٦؛ قاموس الكتاب المقدس ٥٨١/٢؛ وكذا: M.F.Unger, op.cit., p. 77

(٢) قسَّم العلماء فى عام ١٨٦٩م اللغات السامية إلى مجموعتين، الأولى: وتسمى المجموعة السامية الشمالية ، وتشمل اللغات : العبرية والفينيقية والآرامية والأشورية والبابلية والكنعانية ، وتسمى الأخرى المجموعة السامية الجنوبية، وتشمل اللغة العربية بلهجاتها والحبشية ولكن هناك من يقسمها إلى ثلاث مجموعات، أولها القسم الشرقى، ويضم اللغات البابلية والأشورية والكلدانية والآرامية، وثانيهما القسم الغربى: ويضم اللغات الكنعانية والأخلامية والفينيقية والبونية والآرامية والعبرية والسريانية والتدمرية والنبطية والمؤابية والأمورية وثالثهما، القسم الجنوبى: ويضم فصيلتين الأولى العربية، ويضم العربية القديمة والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية والعدنانية المضرية أو القرشية الفصحى والثانية وتضم الحبشية أو الأثيوبية والجعزية والتيجرية والتيجرينائية والأمهرية والهررية. (جواد على ٢٢٣/١؛ عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٦٢٦).

(٣) عبد المنعم حسنين، حضارة مصر والشرق الأدنى القديم، الإيرانيون القدماء، ص ٤٢٩.

كتبت على أوراق البردى كما كتبت على قوالب طينية، زد على ذلك أن انتشار الأراميين فى الشرق قبل سقوط دويلاتهم أو بعده، ثم اشتغالهم فى الجندية فى بعض الدول وازدياد عددهم المتواصل، إنما قد ساعد على انتشار لغتهم[١].

ويرى «جيمس هنرى برستد» أن الأبجدية الفينيقية الأرامية قد انتشرت فى جميع بلاد آسيا الغربية، ونقلت من الفرات إلى إيران وإلى حدود الهند[٢]، ومما يدل على انتشارها استخدام الأشوريين والبابليين والفرس والعبرانيين والمصريين لهذه اللغة، حتى اعتبرها البعض لغة دولية، فيما بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد[٣]، وهكذا ظلت اللغة الأرامية سائدة فى المنطقة حتى بعد زوال النفوذ السامى وبداية النفوذ «الهندو ـ أوربى» ذلك أنها قد بقيت لغة رسمية حتى عندما انتقل الحكم إلى الفرس، ولاسيما فى عهد «دارا الأول» (٥٢٢-٤٨٦ق.م)، فى ذلك الجزء من الإمبراطورية الفارسية الذى يقع بين مصر ونهر الفرات، والأمر كذلك بالنسبة إلى عهود السلوقيين والفريثين والساسانيين، وفى دولتى تدمر والبتراء.

بل إن عرب الشمال، إنما أخذوا أبجديتهم التى كتب بها القرآن من الآرامية التى استعملها الأنباط، وقد أشار العلماء إلى ظاهرة انتقال الكتابة النبطية من منطقة مدين إلى الحجاز، وإلى تطور الخط العربى عن الخط النبطى[٤] ومن ثم فإن الكتابة التى تكتب بها اليوم، إنما هى كتابة متطورة عن الخط النبطى، وهذا بدوره متطور عن الخط الآرامى، الذى استعمل فى شمال شبه الجزيرة العربية، منذ حوالى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد كان

(١) مراد كامل، المرجع السابق، ص ١٥؛ موسكاتى، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢) J.H. Breasted, Ancient Times, 1916, p. 146.

(٣) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤؛ وكذا:

G. R. Driver, Aramtic Documents of the Fifth Century, p. 19.

(٤) Martin Sprengling, The Alphabet, Its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, p. 52; UIE I, p. 198.

منذ القرن السادس قبل الميلاد خط كثير من دول الشرق الأدنى القديم[١].

هذا وقد استعملت الآرامية فى كتابة أجزاء من التوراة (العهد القديم) ذلك أن اليهود إنما بدأوا يتحدثون الآرامية تماماً أثناء السبى البابلى (٥٨٧-٥٣٩ق.م)، ربما لسهولتها، ولتشابه لهجتها بلهجة اللغة العبرية، حتى أنه كان من أكبر الصعاب فى وجه إحياء اللغة العبرية بعد العودة من المنفى، أن جانبًا من الشعب هجر فعلا لغته الأصلية، وحتى أن الآرامية حلت محل العبرية آخر الأمر بعد تنازع البقاء الذى وقع بين اللغتين، وهكذا كان أثر الآرامية واضحًا فى أسفار عزرا ونحميا واستير، وأسفار الأنبياء يونان وحجى وزكريا وملاخى ودانيال، وفى غير ذلك مثل سفر الجامعة وبعض المزامير التى أضيفت إلى مزامير داود، فضلا عن آيات معينة فى سفر التكوين (٣١: ٧) وارميا (١٠: ١١) وعزرا) ٤-٦) ودانيال (٣-٦)[٢].

وعلى أى حال، فلقد أدى توحيد الشرق الأدنى فى ظل الإمبراطورية الرومانية، ثم انتشار المسيحية بعد ذلك، إلى انتعاش حالة الآرامية، فمن ناحية استخدمتها دول صغيرة جديدة يسكنها أقوام من العرب (مثل دولة الحضر)[٣]، ومن ناحية أخرى فإن الآرامية لما كانت لغة السيد المسيح، فقد

(١) عبد الرحمن الأنصارى، لمحات عن القبائل البائدة فى الجزيرة العربية، ص ٨٩، فيلب حتى، تاريخ العرب ١٠٨/١-١٠٩؛ ديتلف نلس، المرجع السابق، ص ٤٠-٤١؛ سعد زغلول عبد الحميد، فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٣٧.

(٢) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٨١؛ محمد بدر، الكنز فى قواعد اللغة العبرية، ص ٣٧، (القاهرة ١٩٢٦).

(٣) قامت دولة الحضر فى أرض الرافدين إلى الشمال الغربى من مدينة أشور، وعلى مبعدة ١٤٠ كيلو متراً جنوبى غربى الموصل، وفى صحراء سنجار بأرض الجزيرة غرب تكريت، وقد قامت بعثة ألمانية بحفائر فى الحضر وأشور (١٩٠٣-١٩١٣) وقد كشفت عن نقوش آرامية ترجع إلى عهد البارثيين (القرن الثانى الميلادى)، وكانت المدينة تحمل الطابع العربى واليونانى والرومانى فى آن واحد. (موسكاتى، المرجع السابق، ص ٣٤٦؛ سعد زغلول، المرجع السابق، ص ١٥٩-١٦٢؛
R.Dussaud, Les Arabes en Syrie ayant l'Islam, p. 158.
وانظر: محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، ٤٧٣/٢-٤٨٩، (ط١١ _ الإسكندرية ١٩٩٤).

صارت اللغة الرسمية للكنيسة السريانية، وبهذه الصفة عاشت قروناً بعد ذلك، وانتجت أدباً دينياً ضخماً[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اسم «الأراميين» بعد ظهور المسيحية أصبح له مدلول وثنى غير مستحب، ومن ثم فقد سمّى القوم أنفسهم بالاسم اليونانى «سوريين» بالنسبة للشعب، و«سريانى» بالنسبة للغة، تمييزاً لها عن الأراميات الوثنية واليهودية، ويذهب البعض إلى أن هذه التسمية إنما ظهرت بعد المسيح على يد الرسل من هذه الديار، لأنهم كانوا جميعًا من سورية وفلسطين، وذلك لأن المتنصرين الأوائل كانوا شديد التمسك بالدين المسيحى، ومن ثم فقد أحبوا أن يسموا باسم مبشريهم، فتركوا اسمهم القديم، واتخذوا اسم «السريان» ليمتازوا عن بنى جنسهم الأراميين الوثنيين، ولذا أصبحت لفظة الأرامى مرادفة للفظة الصابى، والوثنى، ولفظة السريانى مرادفة للفظة المسيحى والنصرانى.

وهكذا ظهرت اللغة السريانية كلهجة آرامية قديمة فى إقليم مدينة «الرها» (أديسا عند الرومان، و«أورفا» الحالية جنوب شرق تركيا) ثم ظهر الخط السريانى المعروف «بالخط السرنجيلى» عقب الانشقاق المذهبى المسيحى بين سريان الرهان فى عام ٤٨٩م، ثم سرعان ما نشأت لهجتان من السريانية (غربية وتسمى اليعقوبية، وشرقية وتسمى النسطورية)، وعلى أى حال، فقد أصبحت السريانية لغة حية فى العلم والفكر فى الشرق حتى القرن العاشر الميلادى وإن استمرت لغة الكنائس حتى القرن الثالث عشر الميلادى[٢].

---

(١) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١١٠-١٢١؛ فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١٨٤/١-١٨٥؛ القس يعقوب الكلدانى، دليل الراغبين فى لغة الآراميين، ص ١١؛ إقليمس يوسف داود، المرجع السابق، ص ١١؛ حسن محمود، المرجع السابق، ص ٣٨٥.

(٤) الآدوميون

ينسب الآدوميون إلى «أدوم»، وهو «عيسو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل»، وتطلق التوراة عليهم عادة «أدوم» فقط [(١)]، وهناك من يعتبرهم - بالإضافة إلى المؤابيين والعمونيين - بدوا اشتركوا فى الهجرة الآرامية، ولكنهم سبقوا أقربائهم الإسرائيليين فى الرحيل من الصحراء، وهكذا فإن أدوم - أو عيسو - إنما ينظر إليه فى المصادر المبكرة كأخ أكبر ليعقوب - أو إسرائيل -[(٢)] ومن هنا فإن الأدوميين إنما يعتبرون أقرب العناصر دماً ولغة إلى آل يعقوب، إذ لم يكن بين الفريقين أقل فرق، قبل أن يعتنق بنو إسرائيل الموسوية[(٣)]، كما أن الأخيرين لم يكونوا من دم عبرانى أنقى من الأولين، فهم مزيج من المهاجرين العبرانيين، وسكان المنطقة الأصليين والعرب.

وأما موطن الآدوميين، فقد كان فى أقصى جنوب بلاد شرق الأردن، وجنوب وادى الحسا الذى ينساب إلى الطرف الجنوبى من البحر الميت، فى الجبال التى تقع شرق الصخرة العظيمة لوادى العربة[(٤)]، وتطلق التوراة على هذا الإقليم اسم «سعير» أحياناً[(٥)]، ونقرأ فى سفر التثنية أن الآدوميين قد طردوا الحوريين منها وسكنوا فى مكانهم [(٦)]، وهكذا كانت أدوم تقع فى نقطة بعيدة لا تتصل بالإسرائيليين بحدود مباشرة، وبالتالى فلم تكن هناك أسباب العدواة بينهما[(٧)]، هذا فضلا عن أن أرضهم - طبقاً لرواية التوراة - قد حرّمها ربُّ إسرائيل على شعب إسرائيل[(٨)].

ومع ذلك، فإن الإسرائيليين إنما كانوا يعدون الآدوميين من ألد

---

(١) عدد ٢٤ : ١٨ ؛ يشوع ١٥ : ١ ؛ صموئيل ثان ٨ : ١٤ .

(٢) تكوين ٢٥ : ٢٤-٢٦ ؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 58.

(٣) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية ، ص ١٠٤ .

(٤) M. Noth, op.cit., p. 154.

(٥) تكوين ٣ : ٣، ٣٦ : ٨ ؛ يشوع ٢٤ : ٤ ؛ حزقيال ٣٥ : ٣، ٧ : ١٥ .

(٦) تثنية ٢ : ١٢ .

(٧) M.Noth, op.cit., p. 156.

(٨) تثنية ٢ : ٤-٦ .

أعدائهم حتى أن المنازعات السياسية بين الفريقين قد استمرت عدة قرون، إلى أن انتهى الأمر بفناء الآدوميين وامتزاجهم باليهود من ناحية، وبالأنباط[١] من ناحية أخرى[٢] ولعل السبب فى ذلك ـ فيما أظن ـ يرجع إلى عوامل نفسية، أكثر منها عوامل سياسية، فالآدوميون يحسون أن الإسرائيليين قد سرقوا حقهم فى البركة أولاً، ثم فى البكورية ثانياً[٣]، هذا إن كانت رواية التوراة بشأنهما صحيحة، ومن هنا أتى موقف الآدوميين من الإسرائيلين أثناء التيه فى الصحراء[٤]، مما أثار عليهم حقد بنى إسرائيل، الأمر الذى تظهر آثاره بوضوح إبان التاريخ اليهودى القديم، ثم يستمر حتى السبى البابلى ليهوذا فى عام ٥٨٧ق.م، حيث يستولى الأدوميون عليها، حتى مدينة حبرون، وفى القرن الخامس قبل الميلاد يستولى النبط على جبل سعير، ويطردوا الآدوميين منه.

وكان الآدوميون يحكمون فى البداية بأمراء يشبهون رؤساء القبائل، ثم استطاعوا بعد ذلك تكوين مملكة ربما كان ملوكها منتخبين [٥]، وقد جلس على عرشها ثمانية ملوك، قبل أن يستطيع الإسرائيليون تكوين مملكة، وقبل أن يستولى داود على مملكة أدوم[٦]، وليس إلى أيام موسى، الذى يرى فيه «أوبجر» أول ملك لإسرائيل، طبقاً لتفسير خاص لبعض نصوص التوراة[٧]، الأمر الذى لا نوافقه عليه.

وكانت «سالع» عاصمة أدوم، ثم تغير اسمها إلى «البتراء» وهى واحدة من أشهر مدن العالم القديم، وقد أصبحت عاصمة للأنباط ـ بعد أدوم ـ

(١) انظر عن الأنباط: محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، الفصل الرابع عشر، الرياض ١٩٧٧، ص ٤٩٢-٥٢٣.

(٢) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩، ص ١٠٥.

(٣) تكوين ٢٥: ١٩-٣٤؛ ٢٧: ١-٤٥.

(٤) تثنية ٢: ١-١٤؛ عدد ٢٠: ١٨-٢١.

(٥) تكوين ٣١: ١٥-١٩؛ ٣٦: ٣١-٣٩؛ وكذا: M.Noth, op.cit., p. 154.

(٦) Ibid., p. 185.

(٧) تثنية ٣٢: ٥؛ خروج ١٨: ١٦-١٩؛ كذا: M.F. Unger, op.cit., p. 286.

وتقع إلى الشرق من وادى عربة فى منتصف المسافة تقريبًا بين رأس خليج العقبة والبحر الميت، أو على مبعدة ٨٠ كيلا إلى الجنوب من البحر الميت[١]، والبتراء ـ على أى حال ـ كلمة يونانية تعنى «الصخر» [٢] ولعلها ترجمة الكلمة العبرية «سلع» التى جاءت فى التوراة[٣]، كما تعنى كذلك «الشق فى الصخر» وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء يتم بوجود أخدود عميق بين جبلين، يعرف اليوم باسم «السيق» ولعله لفظ نبطى متوارث، حرفه الناس عن «الشق» فى السبئية القديمة[٤]، وأيًا ما كان الأمر فلقد عرّف العرب هذه التسمية كذلك، وقد ذكر «ياقوت الحموى» (١١٧٨-١٢٢٨م) بأن سلع حصن بوادى موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس[٥].

وأما الاسم العربى للبتراء فهو الرقيم، وربما كان هو اسم ثان للبتراء، كان الإغريق يعرفونها به، وهو Arke، فحرفه العرب إلى الرقيم، وربما أرادوا بالرقيم «خزنة فرعون» بالذات، وأما اسمها الحديث فوادى موسى[٦].

ونقرأ فى التوراة أن «أمصيا» (٨٠٠-٧٨٢ق.م) قد خلف أباه «يهواش» (٨٣٧-٨٠٠ق.م) على عرش يهوذا، وأنه حاول أن يسترد أدوم وسلع وقد نجح فى الاستيلاء على الأخيرة، ومن ثم فقد أطلق عليها اسم «يقتئيل» بمعنى «الخاضع لله»[٧].

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ٤٤٥/١-٤٤٦؛ جواد علي ٥٢/٣.

(٢) Pliny, 2, p. 447.

(٣) إشعياء ١٦: ١، ٤٢: ١١.

(٤) لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ترجمة: سليمان موسى، عمان ١٩٦٥، ص ١١٧.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٢١٦/٣، (بيروت ١٩٥٥).

(٦) جرجى زيدان، المرجع السابق، ص ٧٣؛ ياقوت، ٣٤٦/٥.

(٧) ملوك ثان ١٤: ١-٧؛ وكذا: F. Altheim and Ratiehl, op.cit., p. 283. وكذا: A.B.W. Kenwedy, Petra, its History and Monuments, London, 1925, p. 78. وكذا: A. Lods, op.cit., p. 385-6.

وعلى أى حال، فلقد استمرت البتراء مدينة هامة حتى سقطت فى أيدى الرومان فى عام ١٠٥م (أو ١٠٦م)، ثم سرعان ما أخذت أهميتها تتضاءل شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت فى ذمة التاريخ[١]، إلى أن كشف عنها «بورخاردت» (١٨٦٣-١٩٣٨) فى عام ١٨١٢م[٢].

ولعل من أهم مدن أدوم - بعد البتراء - مدينة «بصرة» - ومكانها الآن بصيرة الحديثة على مبعدة ٣٢ كيلا إلى الجنوب الشرقى من البحر الميت، ثم «تيمان» على مقربة من البتراء، ثم «عصيون جابر» - والتى كان يظن من قبل أنها كانت عند «عين الغديان» فى قعر وادى العربة، ثم اكتشفها «نلسون جلوك» فى موقع تل الخليفة، على مبعدة ٥٠٠ قدم من ساحل البحر على الطرف الشمالى لخليج العقبة بالقرب من ميناء «إيلات»[٣].

هذا وقد عرفت بلاد أدوم فى اليونانية باسم «أدوميا» وأما «برية أدوم» فهى الواقعة جنوب البحر الميت، وقد انتهت حياة الآدوميين فى القرن الثانى قبل الميلاد، وذلك حين استولى «يوحنا المكابى» على حبرون وغيرها من المدن التى كان الآدوميون قد استولوا عليها، ثم أجبرهم بعد ذلك على الختان واعتناق اليهودية، رغبة منه فى إزالة الفوارق الدينية بينهم وبين اليهود، وحباً فى نشر اليهودية بينهم[٤].

---

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢١٢-٣٢٤؛ مكابيين أول ٥: ٢٦-٢٨.

(٢) J. L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, London, 1822, p. 418-434.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ١٧١/١؛ جواد علي ٦٣٧/١؛ موسكاتي، المرجع السابق، ص ٢٨٠؛ وكذا: J.Finegan, op.cit., p. 181.

Nelson Glneck, The Other side of the Jordan, New Haven, 1945, p. 50-113.

(٤) إسرائيل ولفنسون، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٥) المؤابيون

ينسب المؤابيون - طبقًا لرواية التوراة - إلى مؤاب بن لوط عليه السلام[١] ويطلق عليه في التوراة أحيانًا «مؤاب»[٢]، وهم من الشعوب التي تتصل بالعبرانيين بصلة من قرابة عن طريق لوط ابن أخي إبراهيم الخليل، عليه السلام، كما أن راعوث جدة داود امرأة مؤابية[٣].

ويقع إقليم المؤاب شمال وادي الحسا - الذي يفصله عن أدوم، والمعروف في التوراة بوادي زاد - وقد امتدت مملكة مؤاب من ناحية الشرق من البحر الميت حتى الصحراء، واتسعت شمالا حتى وادي الموجب، وهو نهر أرنون في سفر العدد[٤]، ويتكون من وادي «وله» الذي يأتي من الشمال الشرقي، ووادي عنقيلة الآتي من الشرق، وسل الصعدة الآتي من الجنوب[٥].

وكانت مؤاب - مثل أدوم - حصينة قوية، ذات مواقع استراتيجية على الحدود وفي الداخل، ولهذا فقد اضطر الإسرائيليون أثناء التيه أن يكفوا عن الاستمرار في السير «في البرية التي قبالة مؤاب إلى شروق الشمس»، حتى وصلوا إلى الجانب الآخر من أرنون[٦]، هذا وتروي التقاليد الإسرائيلية أن منطقة مؤاب هذه، إنما كانت - بادئ ذي بدء - ملكًا للأيميين فطردهم المؤابيون منها[٧]، أما عربات مؤاب فهي وادي الأردن بين مصب يبوق والبحر الميت[٨].

وكانت فرصة مؤاب الوحيدة في التوسع، هي الاتجاه نحو الشمال، فيما وراء أرنون، ومن هذه المناطق اتصلوا بالإسرائيليين اتصالا مباشرًا، ومنذ

---

(١) تكوين ١٩ : ٣٧. (٢) عدد ٢٢ : ٣-٢٤ ؛ ملوك ثان ١ : ١. (٣) راعوث ١ : ٤.

(٤) عدد ٣١-١٣-١٤. (٥) قاموس الكتاب المقدس، ٥٧/١.

(٦) عدد ٢١ : ١١-١٣ ؛ وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 154.

(٧) تثنية ٢ : ١٠-١١ ؛ ثم قارن : تكوين ١٤ : ٥ ؛ وانظر: قاموس الكتاب المقدس ٩٢٨/٢ ؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 753.

(٨) قاموس الكتاب المقدس، ٩٢٨/١.

البداية فقد كانت رقعة الأرض شمال أرنون، تبدو كما لو كانت قد شغلت أثناء القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بكل مجالات النفوذ الصغيرة، مثل حشبون، حيث استطاع جيرانهم من قبيلة «جاد» إخضاعها فى النهاية.

وعلى أى حال فإن أقدم حالة يمكن أن نفطن إليها هى أن المؤابيين قد تقدموا بعيداً إلى شمال أرنون، على الأقل على طول الجبال التى كانت تمتد حتى حدود البحر الميت الشرقية، مفترضة أن المدن البعيدة إلى الشرق، فى وسط رقعة الأرض التى كانت ماتزال مستقلة حتى ذلك الوقت، وهناك تقع قمة بعور ـ بين حشبون والنهاية الشمالية للبحر الميت ـ ذلك المزار المشهور لـ «بعل بعور»، حيث الحدود بين مؤاب، وقبيلة جاد العبرانية، وعلى أى حال، فلقد كان أغلب الجزء الجنوبى من وادى الأردن فى وقت من الأوقات ملكاً للمؤابيين[1].

وأما لغة مؤاب، فهى من اللهجات التى كتبت بها التوراة، وهى المعروفة عادة بالعبرانية، والقرابة بين اللغتين ـ المؤابية والإسرائيلية ـ مؤكدة، وهى لغة سامية قريبة من العربية كذلك[2]، ولكنها أشد شبهاً ـ فى رسمها وقواعدها ـ باللغة العربية، كما يبدو ذلك واضحاً من النقش الموجود عل «الحجر المؤابى»[3]، والذى يقدم أقدم نقش تاريخى مكتوب على النمط

(١) M. Noth, op.cit., p. 155-157. (٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٣) كان المبشر الألمانى «الأب ف.أ. كلاين» أول من اكتشف هذا الحجر فى عام ١٨٦٨م عند العاصمة المؤابية «ديبون» ـ ذيبان الحالية على مبعدة ثلاثة أميال شمال نهر أرنون، وشمالى غربى عراعير ـ ولكنه فشل فى الحصول عليه، وتصادف أن كان الباحث الفرنسى «كليرمونت جانو»، فى القدس، فعلم بالأمر، وانطلق مباشرة إلى ديبون وأخذ الحجر المؤابى ونقله إلى متحف اللوفر بباريس ، والحجر المؤابى عبارة عن قطعة من صخور البازلت الأسود، عرضها قدمان وثلاث بوصات ونصف ، وطولها أربعة أقدام، وسمكها نصف بوصة، وعليها ٣٤ سطراً من الكتابة المؤابية، وقد أقامه «ميشع» ملك مؤاب حوالى عام ٨٥٠ق.م، تخليداً لانتصاره على إسرائيل وشكر الإلهه «كيموش» . ولكن هناك من يرى أنه ربما كتب بعد موت ملك إسرائيل «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ق.م) وربما بعد زوال بيت عمرى تماماً على يد «ياهو» (٨٤٢-٧٤٥ق.م) ودخول بنى إسرائيل فى زمن اليأس الذريع. (قاموس الكتاب المقدس ٢/٩٢٩). وكذا:
J. Fingean, op.cit., p. 188-189; M.F. Unger, op.cit., p. 755-756; S.A. Cook, op.cit., p. 372; W.F. Albright, ANET, p. 320; W. Keller, op.cit., p. 230-234.

السامى الشمالى القديم[١].

هذا ونعرف من الحجر المؤابى - وكذا من التوراة [٢] - أن إله المؤابيين إنما كان يدعى «كيموش»، وأن القوم قد عرفوا - كما عرف غيرهم من الساميين كالكنعانيين والفينيقيين والإسرائيليين - عادة التضحية البشرية بالابن البكر، ذلك أن «ميشع» ملك مؤاب كان قد قام بحملة مظفرة نجح فيها فى توسيع ملكه، على مدى خط العرض من الطرف الشمالى للبحر الميت، وإخضاع المستعمرات الإسرائيلية فى الهضبة الخصبة شمال عرنون[٣]، ثم نهب المعبد الإسرائيلى فى «بنو»، ووهب سبعة الالاف من سكانها إلى الآلهة «عشتار - كيموش»، مما اضطر ملك إسرائيل «يهورام» (٨٤٩-٨٤٢ق.م) إلى طلب العون من يهوذا وأدوم، ثم القيام بهجوم على مؤاب من الجنوب[٤]، الأمر الذى دفع الملك المؤابى «ميشع» إلى أن يضحى بولده البكر لإله «كيموش» حتى ينقذه من هذه القوات المتحالفة[٥].

هذا وقد كشفت آثار كثيرة فى مؤاب، لعل أشهرها ما كان فى «ربة مؤاب وكرك ومادبا ومعين وأم رصاص»[٦] وفى عام ١٩٥٠/١٩٥١م، قامت «المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية فى أورشليم» بحفائر فى «ديبون» - عاصمة مؤاب - أتت بنتائج كثيرة، وكشفت عن عدد من المبان والفخار الذى يرجع إلى عصر البرونز المبكر، وحتى العصر العربى المبكر، ولكنها فى الغالب لم تكشف شيئًا يتصل بعصر البرونز المتأخر، وعلى أى حال فلقد

(١) C.S. Clermont-Gannean, La Stele de Mess, 1887.
وكذا: G.A. Cooke, TBNSI, 1903, p, 1-14.

(٢) ملوك ثان ٣: ٩-٢٧.

(٣) M.Noth, op.cit., p. 244-245.

(٤) S.A. Cooks, CHA III, p. 372.

(٥) ملوك ثان، ٢: ٢.

(٦) قاموس الكتاب المقدس ٢/٩٢٩.

كشف عن عدد من اللوحات الصغيرة التي يمكن أن تؤرخ ـ مثلها في ذلك مثل الحجر المؤابي بالقرن التاسع قبل الميلاد[١].

(٦) العمونيون

تروي التقاليد الإسرائيلية في سفر التكوين أن العمونيين إنما ينسبون إلى «بني عمي» بن لوط[٢]، وأن المنطقة التي سكنتها «سكن الرفائيون فيها قبلا، لكن العمونيين يدعونهم زمزميين، شعب كبير وكثير وطويل كالعناقيين، أبادهم الربُّ من قدامهم، فطردوهم وسكنوا مكانهم»، وأن منطقتهم هذه قد حرمت على الإسرائيليين[٣]، كما كانوا ـ كغيرهم من سكن المنطقة ـ على عداء مع الإسرائيليين[٤]، كما كانوا دائماً أعداء لهم قبل السبي البابلي وبعده[٥].

هذا وقد كان العمونيون في صراع مستمر مع الأموريين إلى الشمال منهم، خاصة على الحدود الشمالية والشرقية، واشتهر «سيحون» الأموري بسلبه قسماً كبيراً من أراضيهم[٦].

وقد استقر العمونيون في الشمال الشرقي من المؤاب، في الإقليم الأعلى من يبوق، وكانت عاصمتهم «ربة» أو «ربة عمون» التي سميت في العصر الإغريقي «فيلادلفيا»، نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلادلفيوس» (٢٨٤-٢٤٦ق.م)، وهي في موقع تشغله حاليًا عاصمة

---

(١) J. Finegan, op.cit., p. 189-190.

وكذا: R.E. Murphy, BASOR, 125, 1952, p. 20-23.

وكذا: F.V. Winnett, BASOR, 125, 1952, p. 7-20.

وكذا: A.D. Tushingham, BASOR, 133, 1954, p. 6-126.

(٢) تكوين ١٩: ٣٨. (٣) تثنية ٢: ١٩-٢١.

(٤) قضاة ١٠: ١٣؛ صموئيل أول ١٠: ١-١٠؛ مزمور ٨٣: ٧؛ تثنية ٢٣: ٣-٧.

(٥) نحميا ٤: ٣؛ مكابيين أول ٦: ٣٠-٤٣؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 45.

(٦) عدد ٢١: ٢٤؛ تثنية ٢: ٢٧؛ قضاة ١١: ١٣، ٢٤.

المملكة الأردنية الهاشمية «عمان»، حيث يوجد في أسمها جزء من اسم العمونيين[١].

هذا وقد استطاع العمونيون أن يكونوا دولة مستقرة منظمة منذ فترة مبكرة، ومن ثم فقد كانوا يحكمون بملوك قبل أن تبرز فكرة الملكية في إسرائيل، هذا ويدل التحالف الذي أقاموه مع جيرانهم الشماليين من الآراميين على أيام داود[٢]، وكما حدث في موقعة قرقار في عام ٨٥٣ق.م، حينما اشترك ملك عمون في حلف يضم اثنى عشر ملكاً على رأسهم بنحدد ملك دمشق، ضد شلمنصر الثالث[٣] يدل هذا التحالف على أنهم كانوا أقوياء.

وأما معبود العمونيين القومي، فهو «ملكوم» وكانوا يقدمون أبناءهم ذبائح له[٤]، كما عبدوا كذلك كيموش إله المؤابيين في عهد يفتاح الجلعادي[٥]، أحد قضاة إسرائيل، هذا وتدل الأسماء العمونية ـ كما جاءت في التوراة ـ على أن لغتهم إنما كانت قريبة من العبرية[٦].

(٧) المديانيون

تحدث القرآن الكريم عن أهل مدين، وعن نبيهم الكريم شعيب عليه السلام[٧]، في مواطن متفرقة من سوره[٨]، ووفقا لما جاء في القرآن الكريم،

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 157-158.

(٢) صموئيل ثان ١٠-١٢.

(٣) S.A. Cook, op.cit., p. 363. وكذا: M.Noth, op.cit., p. 245-6.
وكذا: J. A. Montgomery, op.cit., p. 27.

(٤) ملوك أول ١١: ١٥، ٢٣. (٥) قضاة ١١: ٢٤. (٦) M.F. Unger, op.cit., p.

(٧) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «المديانيين» في كتابه «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» شغلت كل «الفصل الثامن» من الجزء الأول، من هذا الكتاب (الرياض ١٩٨٠)، ص ٢٨٩-٣٠٧.

(٨) انظر: سورة الأعراف والتوبة وهود والحجر والحج والشعراء والقصص والعنكبوت وق وغيرها.

فإن شعيبًا أتى مدين وأصحاب الأيكة، فنهاهم عن عبادة الأوثان، كما أمرهم أن يقيمون الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان[١]، ذلك لأن آفة مدين إنما كانت آفة كل المدن على مدرجة الطرق، ومن ثم فقد كانت قصتهم فى القرآن قصة التجارة المحتكرة، والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطرق، وهكذا كانت رسالة شعيب عليه السلام، رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع فى البيئة التى تعرضت لها بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم[٢].

وقد كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم «مدين» التى هى قرية من أرض معان فى أطراف الشام مما يلى الحجاز، قريبًا من بحيرة قوم لوط[٣]، هذا وقد كانت مدين هذه إنما تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء[٤].

ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المديانيين إنما كانت تقع إلى الشرق من العبرانيين، ويبدو أنهم قد توغلوا فى المناطق الجنوبية لفلسطين، متخذين منها مواطن جديدة، عاشوا فيها أمدًا طويلا، حيث يرد ذكرهم فى الأخبار المتأخرة، وقد ذكر بطليموس الجغرافى موضعًا يقال له «موديا» على سواحل البحر الأحمر، يرى العلماء أنه موضع مدين، وأنه يتفق وحدود أرض مدين المعروفة فى الكتب العربية[٥].

---

(١) انظر: سورة الأعراف (٨٥)؛ وهود (٨٤-٨٥)؛ والشعراء (١٨١-١٨٣).

(٢) عباس العقاد، مطلع النور، ص ٩٣-٩٤؛ تفسير روح المعانى، ١٧٦/٨-١٧٧؛ تفسير المنار ٥٢٥/٨-٥٢٦؛ تفسير الطبرى ٥٥٤/١٢-٥٥٥.

(٣) ابن كثير ١٨٤/١-١٨٥؛ ياقوت ٧٧/٥-٧٨؛ ١٥٣-١٥٤؛ تفسير المنار ٥٢٤/٨.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ٨٥٠/٢.

(٥) جواد علي ٤٥٥/١؛ وكذا:

J. Hastings , op.cit., p. 616; T.K. Cheyne, op.cit., p. 3081; Ptolemy, Geography, VI, 7, 27; EI, 3, p. 104.

وأما «يوسبيوس» فيذكر مدينة «مديم» ويقول أنها سميت باسم أحد أولاد إبراهيم من زوجه «قطورة»، وهى تقع وراء المقاطعة العربية فى الجنوب فى بادية العرب الرحل إلى الشرق من البحر الأحمر[1]، وأما «الويس موسل» فيذهب إلى أن أرض مدين يجب أن تكون إلى الشرق والجنوب الشرقى من مكان العقبة الحالية، فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجارى[2]، هذا ويظهر من التوراة أن المدينيين قد غيّروا مواضعهم مراراً بدليل ما يرد فيها من اختلاطهم بين قدم والعمالقة والكوشيين والإسماعيليين، ويبدو أنهم استقروا فى القرون الأخيرة قبل الميلاد فى جنوب وادى العربة، وإلى الشرق والجنوب من العقبة[3].

ويرجح بعض الباحثين أن عصر شعيب، إنما كان قبل عصر موسى، معتمدين فى ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيباً فى القرآن الكريم ـ كما فى سورة الأعراف ويونس وهود والحج والعنكبوت ـ بعد نوح وهود وصالح ولوط، وقبل موسى [4]، وإذا ما عدنا إلى عصر الخليل عليه السلام (١٩٤٠-١٧٦٥ق.م)، وتذكرنا أن لوطاً وقومه إنما كانوا معاصرين لأبى الأنبياء، لأمكننا القول أن شعيباً وقومه كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، بخاصة وأن التوراة تذكر أن مدين إنما كان من ولد الخليل من زوجه «قطورة» الكنعانية[5].

على أننا نستطيع من ناحية أخرى أن نقول ـ حدساً عن غير يقين ـ

---

(١) الويس موسل، شمال الحجاز، ص ٦٩.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٨٣-٨٤.

(٣) تكوين ٢٥ : ٦، ٢٧ : ٢٥، ٢٨؛ عدد ١٢ : ١؛ حبقوق ٣ : ٧؛ وكذا:

A. Mosil, op.cit., p. 287.

(٤) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ١٤٩، (القاهرة ١٩٦٦).

(٥) انظر: سورة الحجر (٥١-٧٧) والعنكبوت (٢٦-٣٥) والذاريات (٢٤-٣٧)؛ وانظر: تكوين ١٤ : ١-٢٤، ١٨ : ١-٣٣، ٢٥ : ١-٢؛ أخبار أيام أول ١ : ٢٢.

أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إذا ما كان صحيحًا ما ذهب إليه البعض من أن يثرون كاهن مدين وصهر موسى، إنما هو شعيب نبي مدين العربي، ذلك لأن رحلة الخروج من مصر، تحت قيادة موسى - وكذا لقائه مع صهره كاهن مدين - إنما كانت في هذا القرن الثالث عشر ق.م[١].

(٨) اليبوسيون

ينسب اليبوسيون في التقاليد الإسرائيلية إلى «يبوس»، وهو نفس الاسم الذي حملته مدينة «القدس» قبل أن تحمل الاسم العبري «أورشليم» [٢]، الذي حرفه العبرانيون عن اسمها «شاليم» - الأمر الذي سنناقشه بالتفصيل فيما بعد - واليبوسيون هم أحد الشعوب السبعة التي تزعم التقاليد العبرية في سفر التثنية أن ربَّ إسرائيل قد أعطى أرضهم لشعبه إسرائيل[٣]، وأنهم - في رأي التوراة - من سكان الجبال[٤].

وعلى أي حال، فلقد بقي اليبوسيون في مدينتهم «يبوس»، حتى بعد أن استولى عليها داود[٥]، وقد أخضع سليمان بقية اليبوسيين، وضرب عليهم تسخير العبودية، وفرض عليهم الجزية - فيما تروي التوراة [٦] - ومع ذلك فقد بقي القوم في بلاد اليهودية حتى عهد ما بعد السبي البابلي[٧].

---

(١) ياقوت ٥: ٧٧-٧٨؛ البكري ١٢٠/١؛ مروج الذهب ٦١/١؛ تاريخ ابن خلدون ٤٣/٢، ٨٢؛ العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ؛ ص ٨٠.

(٢) يشوع ١٥: ٨، ٦٢، ١٨: ١٦، ٢٨؛ قضاة ١٩: ١٠؛ أخبار ثان ١١: ٤؛ وكذا:
M.F. Unger, op.cit., p. 556.

(٣) تثنية ٧، ١، ٢٠: ١٧.

(٤) عدد ١٣: ١٩؛ يشوع ١١: ٣؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 557.

(٥) صموئيل ثان ٢٤: ١٦-٢٥.

(٦) ملوك أول ٩: ٢٠، ١١.

(٧) عزرا ٩: ١-٢.

واليبوسيون قبيلة كنعانية على رأي[١]، بل هم بطن من بطون العرب الأوائل، نشأوا فى صميم الجزيرة العربية، وترعرعوا فى أرجائها، واستوطنوا ديارها، وكان ذلك حوالى عام ٣٠٠٠ق.م، ثم نزحوا منها مع من نزح من القبائل الكنعانية[٢]، غير أن هناك من يرى أن اليبوسين ليسوا ساميين، اعتماداً على أن الاسم «يبوس» غير سامى، بل لقد ذهب صاحب هذا الرأى إلى أن الجزء الأكبر من سكان فلسطين ـ فيما قبل العهد الإسرائيلى ـ غير سامى، وإنما هو من القبائل الحورية[٣]، وبدهى أن تلك مبالغة غير مقبولة، والأمر كذلك فيما ذهب إليه «صموئيل أبرامسكى» من أن اليبوسيين قوم من أصل حيثى[٤].

(٩) العماليق

ينسب الأخباريون العماليق [٥] إلى «عمليق بن لوذ بن سام بن نوح»[٦]، وهو شقيق طسم، هذا ويبالغ الإخباريون فى أهمية العماليق وسعة انتشارهم بدرجة لا يمكن أن يقبلها منطق أو يقرها عقل، فيجعلونهم أمماً كثيرة تفرقت فى البلاد، فكان منهم أهل عمان والحجاز والشام ومصر، فضلا عن أهل المدينة وبنو هف وبنو مطر وبنو الأزرق وسعد بن عزان، وأهل نجد وبديل وراحل وغفار وتيماء، هذا إلى جانب شعبة منهم ذهبت إلى صنعاء قبل أن تحمل الأخيرة اسمها هذا، وأخيراً فقد كان منهم الجبابرة بالشام، وهم الكنعانيون، والفراعين بمصر، والأرقم ملك الحجاز بتيماء[٧].

(١) قاموس الكتاب المقدس ١٠٥٣/٢؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 557.

(٢) عبد الحميد السايح، بيت المقدس، القاهرة ١٩٦٥؛ ص ٤٩؛ عارف العارف، قبة الصخرة المشرفة، ص ١٨-٢٦؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٣) S. Yeivin, The Speulchers of the Kings of the House of David, JNES, 7, p. 41.

(٤) Samuel Abramsky, Ancient Towns in Israel, Jerusalem, 1963, p. 122.

(٥) انظر كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القديم»، ص ١٧٦-١٨٣، الرياض، ١٩٧٧م.

(٦) تاريخ الطبرى، ٢٠٧/١؛ الهمدانى، الإكليل ٤١٠/٢؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ١٣.

(٧) الإكليل، ٧٤/١-٧٧؛ تاريخ الطبرى، ٢٠٦/١؛ نهاية الأرب للقلقشندى، ١٥٠-١٥١؛ قاموس الكتاب المقدس، ١١١٢/٢؛ جواد على، ٣٤٦/١.

ولاشك فى أن الاضطراب إنما يبدو واضحًا فى روايات الأخباريين هذه، فضلا عن أثر التوراة الواضح فيها، فهم يرون أن حكام مصر من العماليق[١] والعماليق، فى رأيهم كجرهم من العرب العاربة[٢] ـ ولكنهم فى نفس الوقت يرو أن أهل مصر من أبناء «مصرايم بن حام بن نوح» [٣]، وتلك فى الواقع إنما هى رواية التوراة[٤]، وهكذا فإن المصريين ـ فى نظر المؤرخين المسلمين ـ ساميون وحاميون فى نفس الوقت، والأمر كذلك بالنسبة إلى الكنعانيين، فهم من العماليق، وهم فى نفس الوقت، أبناء «حام بن نوح» [٥] وتلك ـ مرة أخرى ـ رواية التوراة[٦] وإذا كان الحقد الدفين من يهود ضد المصريين والكنعانيين والبابليين، هو الذى دفع بكتبة التوراة إلى إخراج هذه الشعوب جميعًا من الساميين، وجعلها من أبناء حام، فإن النقل عن يهود ـ والغفلة كذلك ـ هى التى دفعت بالمؤرخين الإسلاميين إلى هذا الموقف الخاطئ.

وأما عن الانتشار غير المقبول للعماليق، فلعله فى أحسن الأحوال، إنما كان لأن العماليق قبائل بدوية، انتشرت هنا وهناك فى عديد من الأماكن بشبه الجزيرة العربية، ثم جاء الإخباريون وجعلوهم سكانًا لمناطق لا تقتصر على بلاد العرب وحدها، وإنما شملت غيرها من المناطق المجاورة.

وأما أصل الكلمة «عماليق» أو عمالقة، فمجهول، وإن غلب على

---

(١) انظر: محمد بيومى مهران، «حركات التحرير فى مصر القديمة»، القاهرة ١٩٧٦؛ دار المعارف، ص ١٣١ - ١٣٤؛ رشيد رضا، تفسير سورة يوسف، ص ٩٨، تاريخ الطبرى، ٢٣٥/١-٢٣٦، ٣٤٢ - ٢٦٣؛ تفسير القرطبى، ص ٣٤٧٢ (طبعة الشعب)؛ ابن كثير، قصص الأنبياء، ٣٠٦/١؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ١٠٠/١، ١٤١، ١٦٩، جرجى زيدان، المرجع السابق، ص ٦٠؛ وكذا: Josephus, Wars of the Jews, I, p. 19.

(٢) تاريخ الطبرى ٢٠٧/١.

(٣) ابن الأثير ٨١/١؛ تاريخ الطبرى ٢٠٦/١.

(٤) تكوين ١٠: ٦.

(٥) تاريخ الطبرى ٢٠٦/١.

(٦) تكوين ١٠: ٦.

الظن أنهم نحتوه من اسم قبيلة عربية كانت مواطنها بجهة العقبة أو شماليها، ويسميهم البابليون «ماليق» أو «مالوق»، فأضاف إليهم اليهود لفظ «عم» أى الشعب أو الأمة، فقالوا «عم ماليق»، أو «عم مالوق»، ثم جاءت العرب فقالت «عماليق» أو عمالقة»، ثم سرعان ما أطلقت الكلمة على طائفة كبيرة من العرب القدامى[١].

ويكاد يتفق الإخباريون على أن العماليق عرب صرحاء، ومن أقدم العرب زماناً، ولسانهم هو اللسان المضرى التي نطقت به كل العرب البائدة[٢]، بل ويذهب الطبرى إلى أن عمليقاً وهو أبو العمالقة كان أول من تكلم العربية حين ظعنوا من بابل، ومن ثم فقد كان يقال لهم وكذا لجرهم العرب العاربة[٣].

ومرة أخرى يظهر أثر التوراة فى هذه الرواية، فهى لا تتعارض مع الرواية المشهورة التى تجعل «يعرب بن قحطان» أول الناطقين بالعربية فحسب، وإنما تجعل السريانية أقدم من العربية، وذلك حين جعلتها لغة الناس جميعاً، غير أن القوم قد انحرفوا إلى عبادة الأوثان، خنوعاً، للنمرو بن كوش بن كنعان ابن حام، ملك بابل، وصاحب إبراهيم عليه السلام،، ومن ثم فقد أصبح القوم ذات يوم، وقد بلبل الله ألسنتهم، فلا يفهم الواحد منهم الآخر، إذ «أصبح لبنى سام ثمانية عشر لساناً، ولبنى حام ثمانية عشر لساناً ولبنى يافث ستة وثلاثون لساناً ففهم الله العربية عاداً وعبيل وثمود وجديس وعمليق وطسم وأميم وبنى يقطن بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح»[٤].

(١) جرجى زيدان، المرجع السابق، ص ٤٢-٤٣.

(٢) جواد على، ٣٠٦/١؛ وكذا: El. I, p. 325.

(٣) تاريخ الطبرى، ٢٠٧/١.

(٤) تاريخ الطبرى، ٢٠٧/١-٢٠٨؛ البكرى ٢١٩/١؛ الأخبار الطوال، ص ٢؛ المحبر، ص ٣٨٢-٣٨٥؛ أخبار الزمان للمسعودى، ص ٢٠٤، ٢٠٩؛ ثم قارن: تاريخ الطبرى، ٢٨٨/١-٢٩٠؛ ابن الأثير، ١١٥/١؛ تاريخ الخميس، ص ٩٥-٩٦.

وهكذا فالرواية إذن لا تجعل شرف السبق فى النطق بالعربية مقصوراً على «عمليق»، وإنما شاركه فيه آخرون، ثم إنها تؤرخ الحادث بعهد «نمرود» صاحب إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم كما هو معروف لا يعده الإخباريون من العرب العاربة، فضلاً عن أن يكون من أقدم العرب زماناً[١] ومن ثم فكل من ذكرهم الإخباريون على أنهم أصحاب السبق فى النطق بالعربية، تأتى هذه الرواية فتجعلهم لا ينطقون بها إلا على أيام النمرود، صاحب إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠-١٧٦٥ق.م)

وأخيراً، فالرواية تحريف لرواية توراتية، أراد كاتبها أن يقدم لنا تفسيراً لاختلاف اللغات والأجناس[٢] ـ كما فعلت الرواية العربية ـ فقدم لنا تفسيراً ساذجاً غير علمى، ذهب فيه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد رأى أن سلالة الناجين من الطوفان يبنون برجاً بغية الوصول إليه فى علياء سمائه، وكانوا يحسبون السماء أشبه بلوح زجاج يعلو بضع مئات من الأمتار، فخشى شرهم واحتاط لنفسه فهبط الأرض وبلبل ألسنتهم، فتفرقوا شذر مذر، ومن ثم فقد سميت المدينة «بابل»، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض، ثم بددهم على وجه الأرض[٣]»، أضف إلى ذلك كله أن الرواية العربية إنما هى متأثرة بروايات تذهب إلى أن الموطن الأصلى للساميين إنما كان فى بابل، بل ربما كانت أساساً لنظريات حديثة تنحو هذا النحو[٤].

وعلى أى حال، فالعماليق ـ فى نظر التوراة ـ من أقدم الشعوب التى

---

(١) انظر: الفصل الرابع من كتابنا «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، ١١٣/١-١٨٠ وكتابنا «إسرائيل»، ص ١٦٠-٢٣٤ (طبعة ١٩٧٣).

(٢) تكوين ١١: ١-٩.

(٣) عصام حفنى ناصف، محنة التوراة على أيدى اليهود، ص ٤٢؛ وكذا: سفر التكوين ١١: ١-٩؛ وكذا: J. Gray, Near Eastern Mythology, p. 104.

(٤) انظر: محمد بيومى مهران، «الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلى» مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض ١٩٧٤م، ص ٢٧٥-٢٧١.

سكنت جنوب فلسطين، وقد عدّهم «بلعام» أول الشعوب [١]، ربما لأنهم كانوا أول من اصطدم بالإسرائيليين أثناء التيه فى صحراوات سيناء، ومن ثم فليس صحيحًا ما ذهب إليه البعض - طبقًا لرواية توراتية [٢] - من أنهم من سلالة «اليعازر ابن عيسو» جد الآدوميين [٣] وحفيد إبراهيم، ذلك لأن هناك نصًا توراتيًا آخر يجعلهم يقيمون فى جنوب غرب البحر الميت على أيام الخليل إبراهيم [٤] وأنهم كانوا على أيام موسى الكليم منتشرين فى كل صحراء التيه حتى حدود مصر، وفى معظم سيناء، وجنوب فلسطين، كما كان هناك، جبل العمالقة فى أرض أفرايم [٥].

وليس هناك من شك فى أن الصدام الحقيقى بين اليهود والعماليق إنما بدأ فى المرحلة الأولى من التيه [٦]، ونقرأ فى التوراة أن العمالقة قد هاجموا بنى إسرائيل المنهكين عند خروجهم من مصر وأسروا جميع مقاتليهم [٧]، كما نقرأ كذلك فى التوراة [٨] أن العماليق قد أتوا لمحاربة بنى إسرائيل فى «رفيديم حيث ضرب موسى الحجر بعصاه، فانبثقت منه اثنتا عشرة عينًا، ويذهب «يوسف بن متى» المؤرخ اليهودى، إلى أن الإسرائيليين حينما وصلوا إلى «رفيديم» كانوا فى حالة يرثى لها من العطش، ومن ثم فقد كان هجوم العمالقة عليهم ناجحًا [٩].

وعلى أى حال، فإذا كانت «رفيديم»، والتى أطلق الإسرائيليون عليها «مريبة» - وكذا قادش القريبة منها - تقعان حول البتراء، فهما إذن فى جوار

---

(١) عدد ٢٤ : ٢٠.
(٢) تكوين ٢٦ : ١٢.
(٣) قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٢٦؛ وكذا: M.F.Unger, op.cit., p. 45.
(٤) تكوين ١٤ : ١٧.
(٥) قضاة ١٢ : ١٥.
(٦) The Jewish Encyclopaedia, I, p. 218; A. Musil, The Northern Hegas, p. 460.
(٧) تثنية ٢٥ :١٧-١٩
(٨) خروج ١٧ : ٧-١٦.
(٩) ألويس موسل، شمال الحجاز، ص ٣٣؛ وكذا:
W. M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 4.

أرض العماليق الذين كانوا يتمكنون في سهولة من أن يهاجموا بني إسرائيل، متنقلين من معسكر إلى آخر، ومن أن يأسروا مقاتليهم[١]، غير أن العمالقة قد أعانوا أعداء آخرين لبني إسرائيل، حتى بعد استقرارهم في فلسطين، ومن ثم فإننا نقرأ في التوراة [٢] أن العمالقة قد اتحدوا مع «عجلون» ملك مؤاب، الذي انتزع منهم مدينة النخل (أريحا)، كما كانوا كذلك حلفاء لأهل مدين وبني المشرق «بني قدم» الذين كانوا يسكنون في سهل يزرعيل، وهكذا استمر العماليق يغزون بني إسرائيل في فلسطين[٣]، تقول التوراة: «إذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق، ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل قوة الحياة، ولا غنماً ولا بقراً ولا حميراً»[٤].

وهكذا بدأ الإسرائيليون يفكرون في الانتقام من العماليق، وكان «شاول» (١٠٢٠-١٠٠٠ق.م)[٥] هو أول ملك إسرائيلي يحارب العماليق، ونقرأ في التوراة أن الربَّ أمر شاؤل أن يحارب العماليق ويبيد كل ممتلكاتهم من ثيران وماشية وجمال وحمير[٦]، ومن هنا نفهم أن العمالقة إنما كانوا يمتلكون عدداً من القرى والديار، وأنهم قد عنوا بحرث الأرض وزراعتها، فضلا عن تربية الماشية والأنعام[٧].

وطبقًا لرواية التوراة[٨]، فإن شاؤل قد نجح في مهمته وحقق

---

(١) ألويس موسل، شمال الحجاز، ص ٢٣، (الإسكندرية ١٩٥٢).

(٢) قضاة ٣: ١٢.

(٣) ألويس موسل، المرجع السابق، ص ٣٢-٣٤.

(٤) قضاة ٦: ٣، ٤.

(٥) انظر عن الخلافات في فترة حكم شاؤل، كتابنا «إسرائيل»، ص ٢٩٧، طبعة أولى.

(٦) صموئيل أول ١٥: ٣-٦.

(٧) ألويس موسل، شمال الحجاز، ص ٣٤.

(٨) صموئيل أول ١٥: ٧.

للإسرائيليين ـ ولأول مرة ـ نصراً على العماليق، كما يفهم من الرواية نفسها، أن العمالقة إنما كانوا يسيطرون على طرق القوافل فيما بين جنوب فلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية.

وكان هناك طريقان يقعان فى أرض العماليق، الواحد عن طريق برزخ السويس، والآخر عن طريق خليج العقبة(١)، ولماكانت العلاقات التجارية بين مصر وغزة من ناحية، وبين جنوب بلاد العرب من ناحية أخرى، فى غاية من الازدهار والنشاط، فقد كانت القوافل التجارية القادمة من غزة إلى العقبة تمر فى أرض العماليق، فليس من شك فى أنها إنما كانت تعترف بسلطتهم فى هذا الجزء من الطريق القادم من غزة متجهًا إلى مصر، والأمر كذلك بالنسبة إلى جزئه الآخر المتجه نحو الجنوب الشرقى، أو أنها على الأقل كانت خاضعة لسلطة العمالقة فى هذا الجزء المتاخم لساحل البحر من الطريق(٢).

وفى أيام داود عليه السلام(١٠٠٠-٩٦٠ق.م)(٣) تدق الحرب طبولها من جديد بين بنى إسرائيل والعماليق، وطبقًا لرواية التوراة(٤) فإن العمالقة قد غزوا بنى إسرائيل، وضربوا صقلع وأحرقوها بالنار وسبوا نساءها، إلا أن داود قد كتب له نجحًا بعيد المدى فى رد الغزاة، وفى استعادة الغنائم منهم، بل وفى استعادة بعض السبايا ـ ومنهم امرأتيه أخينوعم وأبجابل ـ كما تمكن قائده «يؤاب» من أن يخرجهم من ديارهم الأولى، وإن ظلت بقية منهم تسكن الجزء الجنوبى من جبل سعير، حتى أتى المهاجرون من قبائل

---

(١) M.F. Unger, Unger'sBible Dictionary, Chicago, 1970, p. 41.

(٢) الويس موسل، شمال الحجاز، ص ٣٥.

(٣) انظر : عن الخلافات فى فترة حكم داود ، كتابنا «إسرائيل» ، ص ٤١٧-٤١٨ ، طبعة ١٩٧٣ .

(٤) صموئيل أول ٣٠: ١-٣٠.

شمعون فاحتلوا ديارهم[١]، ومن ثم أصبحنا لا نجد للعمالقة بعد ذلك ذكراً في النصوص.

بقيت نقطة أخيرة تتصل بعدم ذكر العمالقة في جملة قبائل العرب، وهذا (أولا) لا يدل على أن العمالقة لم يكونوا عرباً، و(ثانياً) لأن العبرانيين لم يطلقوا لفظة «عرب» إلا على أعراب البادية، ولاسيما بادية الشام[٢]، و(ثالثًا) لأن العمالقة من أقدم الشعوب التي اصطدم بها بنو إسرائيل، ومن ثم فقد حملوا لهم حقداً دفيناً، واليهود ـ كما هو معروف ـ قد تأثروا بعواطفهم نحو الشعوب التي يكتبون عنها، وأخيراً (رابعاً) فإن العمالقة ـ في نظر اليهود ـ أقدم من القحطانيين والعدنانيين، سواء بسواء[٣].

(١٠) القينيون

القينيون: اسم سامي معناه «حداد»، والقين باللغة العربية معناه «الحداد»، وبنو القين: قبيلة من قبائل العرب، والنسبة إليها «قيني»[٤]، وربما كانوا من المشتغلين بالمعادن في منطقة التعدين بوادي عربة، والعلاقة بينهم وبين المديانيين وثيقة، وإن كانت غير واضحة في التوراة، فأصهار موسى مديانيون رعاة أغنام، على رأي، وبطناً قينيًا من البدو الحدادين، على رأي آخر[٥]، والقينيون ينحدرون من الميديانيين، على رأي، وفقط يسكنون في مدين عند خليج العقبة، على رأي آخر[٦].

وعلى أي حال، فإن النصوص التوراتية إنما تعود بأصول القبائل

---

(١) أخبار أيام أول، ٤-٣٣.

(٢) J. A. Hatings, A Dictionary of the Bible , Edinburgh, 1936, p. 77.

(٣) جواد علي، المرجع السابق، ص ٣٤٧.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٦/٢.

(٥) خروج ١٦/٣-٢١ وكذا: .Gray, op.cit., p. 108.

(٦) قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٦/٧، وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 627.

البدوية جميعًا إلى جد واحد بعينه هو «قابيل» ـ أو قايين كما تسميه ـ انتسابًا إلى أولاد حفيده «لامك»، ذريتهم شاملة لجميع الرحل من أقوام[١]، هذا فضلا عن اضطراب التوراة بشأن أصهار موسى هؤلاء: أهم مديانيون أم قينيون؟ وربما ذلك كله هو الذى دفعنا إلى القول ـ حدسًا من غير يقين ـ أن القينيين ربما كانوا بطنًا من بطون مدين، وطبقًا لما جاء فى التوراة[٢]، فإن القينيين كانوا أمة مجاورة للقدومنيين والقنزيين الساكنين فى أدوم، وقد تطلع «بلعام» من مرتفعات بعل فى مؤاب، فرأى مساكن القينيين، وشبه موضعهم بالعش فى صخرة[٣].

أما إذا كانت رواية التوراة ـ كما جاء فى سفر يشوع[٤] ـ صحيحة، فإن القينيين إنما كانوا يعيشون فى مكان ما، فى الجزء الجنوبى من غرب الأردن، لأن مدن القينيين ـ كما فى سفر صموئيل الأول[٥] ـ إنما تشير إلى علاقة ما بالأماكن الأخرى المعروفة فى الجزء الجنوبى من الجبال، كما أنهم يشتركون فى النجب (النقب) كذلك، هذا فضلا عن إشارة إلى نجب القينيين أو جنوب القينيين فى سفر صموئيل الأول: (٢٧: ١٠)

ويبدو أن القينيين إنما كانوا مستقرين تمامًا حتى فترة متأخرة نسبيًا وفى إشارات فى سفر القضاة[٦] نسمع عن البدو القينيين الذين كانوا يقيمون لهم خيامًا فى مكان أو فى آخر فى الجليل، وإن كان «جابر» القينى ـ طبقًا لنص فى سفر القضاة ـ إنما كان منفردًا بنفسه، بعيدًا عن القينيين الآخرين، بل ربما كان هناك عدد آخر من القينيين المنفصلين.

---

(١) تكوين ٤: ٢٠-٢٢؛ حسين ذو الفقار صبرى، إله موسى فى توراة اليهود، المجلة، يوليو ١٩٧٠، ص ٩.

(٢) تكوين ١٥: ١٩.

(٣) عدد ٢٢: ٤١، ٢٤: ٢١-٢٢؛ قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٦/٢.

(٤) يشوع ١٥: ٥٦-٥٧.

(٥) صموئيل أول ٣٠: ٢.

(٦) قضاة ١٤: ٧، ١١، ٥: ٢٤.

ومن ناحية أخرى، فطبقًا لما جاء فى سفر صموئيل الأول[1]، فإنه حتى عصر «شاؤول» (١٠٢٠-١٠٠٠ق.م) كان القينيون يعتبرون أنفسهم من البدو، وأقرباء العماليق، ومن هنا فقد استقرت جماعة قينية فى منطقة صغيرة، جنوب شرق الحدود بين الأرض الزراعية والمدرجات، بينما أصرت جماعة أخرى على الحياة بأسلوب البدو فى المدرجات (أو المنحدرات) وفى البرية[2]، فهناك مجموعة قينية فى وادى عربة، بل كان هناك قينيون فى «يهوذا» الجنوبية على أيام داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م) وسليمان (٩٦٠-٩٢٢ق.م) [3] وفى حالات متصلة، حتى فى قلب الأرض الزراعية، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن اسم القبيلة إنما قد يشير إلى أنهم كانوا من حدادى الصحراء، ولكن القينيين المستقرين إنما كانوا بالتأكيد مثل السكان الآخرين[4].

وأما عن علاقة القينيين ببنى إسرائيل، فإن جملة الآراء لتتوافق على الربط بين بنى إسرائيل، ثم بنى يهوذا بخاصة، وبين القينيين، بوشائج موثقة أشد التوثيق، فضلا عن أنهم ـ طبقًا لنصوص معينة فى سفر القضاة[5] ـ إنما حلفاؤهم الأقربون، بل إن التوراة لتبدو حريصة على إبراز الترابط الوثيق بين القينيين وبين الإسرائيليين، وبخاصة بنى يهوذا، فى صورة ربما أثارت دهشة، أو على الأقل، فإنها إنما تدفع بنا إلى تساؤلات، فمثلا إذا ما استنفرت «دبورة» النبية بنى إسرائيل فتصدوا لجيوش «يابين» ملك حاصور، فإن «ياعيل» امرأة حابر القينى هى التى تجهز على قائد تلك الجيوش، فتشدوا بها دبورة فى قصيدتها المشهورة، تبارك على النساء يا يعيل امرأة حابر القينى، على النساء فى الخيام تبارك»، وحينما دمر شاؤول العماليق، فإنه قد

---

(١) صموئيل أول ١٥: ٦.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 57.

(٣) M. Unger, op.cit., p. 627.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 57.

(٥) قضاة ١: ١٦، ٤: ١١، ٧: ٢٤، ٥: ٢٤.

عفا عن القينيين الذين كانوا يعيشون بينهم، بل إن القينيين إنما كانوا أعوانًا لبنى يهوذا فى زحفهم على أرض كنعان، ثم سكنوا مع الشعب[١].

وأما عن علاقة القينيين بإله اليهود «يهوه» فإن «قايين» الجد الأعلى للقينيين، هو الذى حمل ـ طبقًا لرواية التوراة[٢] «علامة يهوه»، بل الأخطر من ذلك كله، الإقرار بأن «الركابيين» وهم من أصول قينية إنما كانوا أشد الأقوام تمسكًا بالتعاليم اليهودية، حين تردت البلاد إلى درك أسفل من وثنية، ظلوا النواة الصلبة للديانة الحقةفى أورشليم، فسلفهم «يهو ناداب بن ركاب» هو الذى صاحب «ياهو» (٨٤٢-٨١٥ق.م) فى حملته على ذرية «آخاب» فيستولى على الحكم فى دويلة إسرائيل الشمالية، ويطهر «السامرة» من الأوثان[٣].

وهكذا يمكننا أن نقول أن القينيين ظلوا الشعب الوحيد الذى تعفف عن الانقياد ـ كما فعل حلفاؤهم الأقربون من بنى يعقوب ـ إلى حياة الدعة والاستقرار فظلوا متمسكين أبدًا بطريق المعيشة البدوية فى نقائها الأول ـ سواء أقاموا فى بلادهم على حدود الصحراء الأدومية، أو تنقلوا فى المنطقة الإسرائيلية لإطعام قطعانهم فى مواسم معينة من السنة، أو ليمارسوا الحدادة حرفتهم ـ فقد كانوا فى ذلك كله إنما يعيشون فى خيام، لا يبذرون حبًا، ولا يزرعون كرمًا[٤].

(١١) القنزيون

القنزيون قبيلة سامية كانت تعيش فى كنعان منذ أيام إبراهيم الخليل على الأقل، وقد ذكروا فى سفر التكوين[٥] بين القينيين والقدوميين وهم

(١) قضاة ١: ١٦، ٥، ٢٤؛ حسين ذو الفقار صبرى، المرجع السابق، ص ١٠.

(٢) تكوين ٤: ١٥.

(٣) ملوك ثان، ١٠: ١٥-٢٨؛ إرميا ٣٥: ١-١١؛ حسين ذو الفقار صبرى، المرجع السابق، ص١٠.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 388.

(٥) تكوين ١٥: ١٩.

ينسبون إلى القينيين، كما أنهم إنما كانوا مثلهم عمال مهرة في التعدين بمصانع النحاس الغنية في وادى الأردن والعربة، إلا أن هناك من يرى أنهم من الأدوميين اعتماداً على أن التوراة إنما تذكر (قناز) على أنه ابن «اليفاز» بن عيسو[١] جد الأدوميين هذا فضلا عن رواية توراتية[٢] أخرى يظهر فيها «قناز» على أنه أمير من أدوم[٣] وهناك رأى ثالث يذهب إلى أن القوم إنما كانوا أقرباء الكالبيين ذلك أن «كالب بن يفنة» إنما يوصف في عدة نصوص في التوراة بأنه «قنزى» [٤] وربما كان «كالب» هذا ينحدر من سلالة «قناز» الأدومى[٥] هذا وربما سكن القوم في مكان ما في الجزء الجنوبي من كنعان، وتحاول بعض التقاليد اليهودية [٦] أن تفسر كيف أتى القنزيون إلى حبرون التي يفترض أنها كانت تحت حيازة الكالبيين.

ولعل سائلا يتساءل: إلى أى مدى كان اتساع منطقة الكالبيين؟ وفي الواقع أن ذلك مالا ندريه على وجه اليقين، فليست هناك أدلة تحدد ذلك بالتأكيد، ولكن - طبقًا لرواية سفر صموئيل الأول[٧] - فإن هناك كالبيين في «معون» - وهي تل معون الحالية، على مبعدة ١٦ كيلاً إلى الجنوب من حبرون - هذا فضلا عن أنه - طبقًا لرواية أخرى في سفر صموئيل الأول كذلك [٨] - فإن قبيلة كالب إنما كان لها نصيب في «النقب»، وهي منطقة عبور محددة تمامًا، وتقع في المنحدرات الجنوبية لجبال غرب الأردن، والمنطقة التي كان يشغلها «الكالبيون» كانت على ما يبدو، تمتد نحو الجنوب من حبرون.

---

(١) تكوين ٢٦: ١١، ١٥.
(٢) تكوين ٣٦: ٤٦.
(٣) M.F. Unger, op.cit., p. 627.
(٤) عدد ٣٢: ١٢؛ يشوع ١٤: ٦، ١٤، ١٥: ١٧؛ وكذا: Martin Noth, op.cit., p. 58.
(٥) M.F. Unger, op.cit., p. 627.
(٦) يشوع ١٤: ٦؛ تثنية ١: ٢٢-٤٥.
(٧) صموئيل أول ٢٥: ١-٣.
(٨) صموئيل أول ٣٠: ١٤.

(١٢) الفرزيون

ربما كان الفرزيون قبيلة من الكنعانيين، كانت تسكن العراء فى قرى مسورة وربما كانوا ـ كالرفائيين ـ من أقدم السكان، ومن عنصر غير كنعانى، وقد ورد ذكرهم مراراً فى التوراة بين قبائل فلسطين[١]، وكانوا على أيام يشوع يسكنون المنطقة الجبلية فى بقعة أعطيت بعدئذ لإفرايم ومنسى ويهوذا[٢]، وخلافاً لما جاء فى شريعة موسى عليه السلام، فإنهم لم يعادوا، بل سمح لهم بالتزاوج مع غالبيهم، فجروهم إلى عبادة الأوثان، وقد وضع عليهم سليمان نير عبودية التسخير[٣].

(١٣) اليرحمئيليون

ذكرت مدن اليرحمئيلين فى التوراة بجانب مدن القينيين[٤]، وفى سفر صموئيل الأول (٢٧: ١٠) نرى «جنوبى اليرحمئيليين» بجانب «جنوبى القينيين»، وفى قائمة متأخرة يظهر «يرحمئيل» كأخ لكالب[٥] هذا، ورغم أنه يكاد يكون من المستحيل أن نحدد منطقتهم بدقة، فلعل من الأفضل أن نضع «اليرحمئيليين فى أقصى جنوب جبال اليهودية[٦]».

(١٤) العناقيون

تروى التقاليد الإسرائيلية أنهم قد وجدوا فى فلسطين بقايا لجنس قديم من العمالقة يعرف باسم «عناقين» أو «عناقيم» وقد وصفوا بالجبابرة، لطول قامتهم وشدة بأسهم فى الحرب، وأنهم كانوا يسكنون فى جنوب فلسطين فيما بين القدس والخليل، وقد أرهبوا العبرانيين بمجرد رؤيتهم، ومن ثم فقد

---

(١) تكوين ١٥ـ٧٠؛ خروج ٣: ٨؛ يشوع ٩: ١.
(٢) يشوع ١٧: ١٥؛ قضاة ١: ٤ـ٥.
(٣) أخبار الأيام الأول ٢: ٩، ٤٢.
(٤) صموئيل أول ٣٠: ٢٩.
(٥) M.Noth, op.cit., p. 57-58.
(٦) قاموس الكتاب المقدس ١٠٦١/٢.

جبنوا عن محاربتهم، إلى أن طردهم كالب واستولى على حبرون منهم، والتى يرى البعض أنها نسبت إلى جدهم، «عناق» فسميت «قرية أربع»[١].

هذا وقد بقى العناقيون فى «أشدود» - وتقع فى منتصف المسافة بين غزة ويافا - وعلى مبعدة ١٨ ميلا إلى الشمال الشرقى لغزة - حتى بعد الغزو العبرانى حيث أعطيت المدينة لسبط يهوذا الذى لم يستطع الاستيلاء عليها[٢].

(١٥) الإيميون

الإيميون: هم السكان الأقدمون للمنطقة التى سكنها المؤابيون فيما بعد، وتقع إلى شرقى الأردن، وقد هزمهم «كدر لعومر» فى سهل «قريتايم» وكانوا - كالعناقيين - طوال القامة، كما كانوا فى وقت ما، شعبًا كبير العدد وقويًا[٣]، وعلى أى حال، فهناك فى سفر التكوين ما يشير إلى أن كل منطقة شرق الأردن قد سكنت من قبل بمجموعات من السكان وصفوا فى الغالب، بأنهم مردة طوال الأجسام[٤].

(١٦) الرفائيون

الرفائيون - ويعنى اسمهم «ظلال الموتى» - عشيرة من الجبابرة سكنوا قديمًا فى فلسطين شرقى الأردن وغيره، حتى قبل وصول إبراهيم عليه السلام وعندما دخل العبرانيون كنعان يبدو أن بقية من الرفائيين قد عاشوا بين الفلسطينيين [٥]، هذا وربما كان الرفائيون أول من استوطنوا «وادى

---

(١) يشوع ١١ : ٢٢، ١٤ : ١٢-١٤؛ عدد ١٣ : ٢٨؛ قاموس الكتاب المقدس، ٦٤٢/٢.

(٢) يشوع ١١ : ٢٢، ١٥ : ٤٧؛ قاموس الكتاب المقدس ٧٧/١.

(٣) تكوين ١٤ : ٥؛ تثنية ٢ : ١١؛ قاموس الكتاب المقدس ١٤٥/١.

(٤) تكوين ١٤ : ٥-٧.

(٥) تكوين ١٤ : ٥، ١٥، ٢٠؛ تثنية ٢ : ١١، ٢٠، ٣ : ١١؛ يشوع ١٧ : ١٥؛ صموئيل ثان ٢١ : ١٦ - ٢٠؛ قاموس الكتاب المقدس ٤٠٧/١.

«رفائيين» والذى يرجح أنه وادى البقاع جنوبى غربى أورشليم، بين بيت لحم وأورشليم[١].

(١٧) الزمزميون

الزمزميون، ويعنى اسمهم «صانعو الضجيج أو الطنين» أو «متزمرون»، وهم شعب أقدم من الكنعانيين، طوال القامة، يسكنون شرق البحر الميت، والأردن،وهم الذين سطا عليهم «كدو لعومر»، وغلبهم ثم جاء العمونيون وأخذوا أرضهم، ثم طردوهم[٢].

(١٨) الجرجاشيون

وهم قوم تذهب التوراة إلى أنهم إحدى القبائل الكنعانية، التى كانت تعيش فى فلسطين قبل الغزو الإسرائيلى[٣].

هذا ويعلق المستشرق الفرنسى «أرنست رينان»[٤] (١٨٣٢-١٨٩٢م) على تلك الشعوب الصغيرة التى جاء ذكرها فى التوراة على أنها كانت تسكن كنعان، بأن هناك ظاهرة شائعة فى طفولة جميع الشعوب تتخيل الإنسانية الفطرية السحيقة القدم، على شكل بشر لهم أجساد خرافية الطول والعرض، ولهم قوة وبأس على مستوى هذه المقايس الجسمانية الأسطورية[٥].

---

(١) صموئيل ثان ٢٣: ١٣؛ يشوع ١٥: ٨، ١٨: ١٦؛ إشعياء ١٧: ٥؛ قاموس الكتاب المقدس١ :٤٠٧.

(٢) تكوين ١٤: ٥؛ تثنية ٢: ٢٠؛ قاموس الكتاب المقدس ١: ٤٢٣

(٣) تكوين ١٠: ١٦؛ تثنية ٧: ١؛ قاموس الكتاب المقدس ٢٥٥/١

(٤) Ernest Renan, Histoire et Systeme Compare des Langues Sometique, Paris. 1855, p. 97F

(٥) حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل. ١٩٧١، ص ١٥

وعلى أى حال، فربما يوجد فى هذه الأساطير، ذات الاتجاه المشابه فى بلدان أخرى، ذكريات غامضة عن جنس أقدم من الأموريين[١]، أصحاب أول هجرة سامية كبرية من شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين.



(١) A. Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eights Centurey, London, 1962, p. 53.

الفصل الثانى
العناصر غير السامية
(١) الحوريون

اختلف المؤرخون فى أصول الحوريين، فذهب فريق إلى أنهم شعب مازال أصله مجهولا، من العسير الجزم بأنه سامى أو هندو - أوربى[1]، وذهب فريق آخر إلى أن الحوريين إنما هم قوم «هندو - أوربيون»، وأن هناك ظلالا من شك حول انتماء القوم إلى «السوباريين» الذين ذكروا إلى جوارهم فى نصوص رأس الشمرا (أوجاريت) والذين ذكروا كذلك فى الألف الثالثة قبل الميلاد، على أنهم شعب كبير، يشغل مساحة واسعة[2].

هذا ويجمع العلماء - أو يكادون - على أن الحوريين إنما قد جاءوا من المرتفعات الواقعة بين بحيرة أورمية وجبال زاجروس، وقد غزوا شمال بلاد النهرين، ثم اتجهوا إلى سورية الشمالية، وأسسوا بها مملكة قوية، وربما كان مجيئهم متصلا بالحركات «الهندو - أوربية» العامة التى جاء بجماعات منهم إلى فارس والهند، وأدت إلى وصول الكاشيين إلى بابل، والحيثيين إلى اسيا الصغرى، والهكسوس إلى مصر[3].

وعلى أى حال، فلقد نجح الحوريون - أو نجح فريق منهم - فى تأسيس مملكة «ميتانى» التى امتد سلطانها من مرتفعات ميديا إلى البحر المتوسط، وكانت عاصمتها «واشوكانى»، والتى يظن أن موقعها «الفخارية» على نهر الخابور»، شرقى تل حلف وحران، وقد عرفت فى النصوص المصرية باسم «نهارينا»، والتى كانت تمثل فى فترة مبكرة من أيام فرعون مصر العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م)، حجر العثرة الحقيقى العام أمام

---

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٢) S.A.B. Mercer, The Tell El-Amarna Tablets, 2, Toronto, 1939, p. 846.

(٣) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ١٦١، وكذا:

W.F. Albright, The Horites in Palestine, in From the Pyramids to Paul, p. 9-26.

خطة التوسع المصرى، وإن انتهت الأمور بعد حملة مظفرة (حوالى عام ١٤٥٧ق.م) إلى فترة سلام طويل[١].

وقد انتشر الحوريون فى سورية المنخفضة الخصيبة، ووصلوا إلى فلسطين، حيث نزلوا البقاع الواسعة بين نهر الحسا وخليج العقبة، وهم الذين حلّ محلهم الأدوميون فى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ويبدو أن انتشار الحوريين فى بلاد الشام بلغ درجة دعت الحويوين إلى أن يطلقوا اسم «خورو» (خارو) على بلاد كنعان[٢]، ويبد أن الحوريين هم بعينهم - إذا أخذنا بالنص السبعينى لتوراة اليهود - الحويون حكام شكيم، أو على الأقل، فإن هناك فريقاً من الحوريين (أو الخوريين)، كان يعرف بالحويين[٣].

هذا وقد أقام الحوريون فى فلسطين، وطبقاً لنصوص التوراة، فقد كان ذلك فى شكيم، وفى عصر يعقوب (١٧٨٠-١٦٣٣ق.م) وظل لسلالتهم تأثير فى المدينة لعدة أجيال، كما سكن فريق منهم فى «جبعون» ومجاوراتها[٤]، هذا وربما كان مقرهم الرئيسى فى سطح جبل لبنان، من جبل حرمون إلى مدخل حماة[٥]، فى هذه المناطق الجبلية الشمالية كانت لهم قرى يملكونها حتى إلى وقت متأخر من عصر داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م)[٦].

---

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢١١-٢١٢؛ فليب حتى، المرجع السابق، ص ١٦١-١٦٥؛ وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 194.

J. H. Breasted, ARE, 3, No. 485-9; J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 241; R.O. Faulkner, JEA, 32, 1946, p. 39F.

(٢) انظر: لوح إسرائيل، حيث توصف كنعان (على لسان فرعون) «وأصبحت خارو أرملة لمصر» (انظر: A. Gardiner, op.cit., p. 274; J.A. Wislon, ANET, p. 376-8.

(٣) تكوين ٢٣: ١٧-٢٠، ٢٤: ١-٣١؛ قاموس الكتاب المقدس، ٣٢٩/١؛ وكذا:

S.A. Cook, op.cit., p. 359.

(٤) تكوين ٣: ١٨، ٣٤: ٢؛ قضاة ٩: ٢٨؛ قاموس الكتاب المقدس، ٢٢٩/١.

(٥) يشوع ١١: ٣؛ قضاة ٣: ٣

(٦) صموئيل ثان ٢٤: ٧؛ قاموس الكتاب المقدس ٣٢٩/١.

(٢) الحيثيون

إن اللفظ السلالي «حيثيون» جاء عن طريق التوراة، حيث يعني المجموعة البشرية التي وجدها الإسرائيليون تسكن فلسطين حين دخلوا أرض كنعان - أو أرض الميعاد كما يدعونها - وهذا ليس سوى خيط رفيع من سلسلة الأنساب التي تربطهم بالأمة الكبرى «خاتي»، التي سنتعرف عليها الآن، ومع ذلك فإن استخدام كلمة حيثيين ظل سائداً لدى الباحثين، ولم تقم محاولة للتخلص منها[١].

وتقع «خت» أو «خاتي» إلى شمال وشمال غربي سورية وميزوبوتاميا، وقد ورد ذكرها في النصوص المصرية - لأول مرة - من عهد «تحوتمس الثالث»، حيث الهدايا قد أرسلت من أمير خاتي إلى الفرعون، وحتى عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ق.م)[٢].

وتقع «خاتوشاش» - العاصمة الحيثية - على السفح الشمالي لأحد المرتفعات، حيث تبدأ الهضبة في الانخفاض نحو البحر الأسود، ويجري من هذه السلسلة شمالاً في مجرى صخري شديد الانحدار، تياران يتحدان عند نهاية المنحدر بالقرب من قرية «بو غاز كوي» تاركين بينهما نتوءاً مرتفعاً أقيمت عليه أقدم مستعمرة في «خاتوشاش»[٣]، على مبعدة ١٢٨ كيلا إلى الشرق من «أنقرة»، وتصف هذه المسافة إلى جنوب البحر الأسود، وكان من ثمار حفائر «هوجوفنكلر»، التي بدأها في عام ١٩٠٦، الكشف في هذا الحصن الجبلي بالقرب من قرية «بوغاز كوي» عن دار ملكية للمحفوظات

---

(١) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 231.

(٢) A.H. Gardiner, Onom, I.p. 127.

(٣) S.A.B. Mercer, op.cit., II, 1939, p. 830-831.

وكذا: O.R. Gurney, The Hittitas, 1969, p. 15.

وكذا: R.H. Hall, Cah, I, 1929, p. 312.

تضم قرابة عشرة الاف لوح أسفينى، كتبت بلغة ـ ثبت بعد بحث طويل ـ أنها من العائلة «الهندو أوربية»[1].

وأما عن علاقة الحيثيين ـ أو على الأصح خاتى ـ بفلسطين، فإننى أميل إلى أنها لم تبدأ إلا بعد نهاية دولة خاتى فى آسيا الصغرى على أيدى شعوب البحر، وتفرق سكانها فى جهات مختلفة من سورية وفلسطين، ذلك لأنه قبل حكم العاهل الحيثى «شو بيلو ليوما» (١٣٧٥-١٣٠٥ق.م)، لم تكن هناك أية دولة حيثية جنوبى جبال طوروس، وأن الدولة السورية التابعة للإمبراطورية الحيثية قد اقتصرت على المنطقة الواقعة شمال قادش على نهر العاصى، وأنه رغم أن الجيوش الحيثية قد وصلت حتى دمشق، فإنها لم تدخل فلسطين نفسها[2].

ولعل هذا الاضطراب فى نصوص التوراة مرده إلى أنها تجعل من «حث» ابناً لكنعان بن حام بن نوح، عليه السلام، إذ تقول فى سفر التكوين «وكنعان ولد صيدون بكره وحثا»[3]، والاضطراب هنا أن «صيدون» (صيدا) إنما هى مدينة على البحر الأبيض المتوسط، وأن «حثا» إنما هو شعب له دولة فى اسيا الصغرى، هذا فضلا عن أن الحيثيين شعب غير سامى، بعكس الكنعانيين الساميين.

وعلى أى حال، فإن هذه الإشارة لا تجد لها صدى من الحقيقة لدى المحدثين من الباحثين، بل إن هناك ما يؤكد أصولا منغولية كانت مواطنها الأصلية التى هجرتها بقعة «أرمينيا»، حيث يقترب الفرات من هاليس وليكوس، بل إن هناك من يؤكد أن الأرمن المحدثين هم سلالة أولئك الحيثيين الأقدمين.

---

(١) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 231.

(٢) O.R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books), 1969, p. 58.

(٣) تكوين ١٠: ١٥.

(٣) الفلسطينيون

الفلسطينيون: هم برست Prest، «بلستى» Pelesti، ويرى «بونفانت» أن «باليستنوى» كلمة يونانية ذات أصل أنثولوجى، مشتقة من اسم المكان Palaeste، بالإضافة إلى الزائدة الإليرية Imo التى تستخدم فى تكوين المعنى الأنثولوجى [١]، ويذهب «فيليب حتى» إلى أن Paleste إنما هو اسم مكان فى منطقة الليرية وهو «أبيروس»[٢].

وأما الاسم المصرى للفلسطينيين فهو «برست» Prst، وقد وجد فى مدينة هابو - أو حابو - من عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ق.م) حيث نجد أن القوم الذين يحملونه من «شعوب البحر» الذين غزوا مصر وسورية من جزرهم، وكانوا متصلين بصفة خاصة بقوم «ثيكر» الذين كانوا يماثلونهم فى المظهر والأسلحة، وكانوا يلبسون لباس الرأس المحلى بالريشة، مسلحين بالحراب، والدروع المستديرة، والسيوف الطويلة العريضة، والخناجر المثلثة التى كان يستخدمها الشردان[٣].

هذا وقد قام جدل طويل بن العلماء حول الموطن الأصلى للفلسطينيين، فلقد ذهب «هول» إلى أن التقاليد العبرية إنما تتفق على أن الإسرائيليين قد قدموا من مصر، والفلسطينيين من كفتور، وفى هذا تقول التوراة فى سفر عاموس «ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر، والفلسطينيين من كفتور»، غير أن الفلسطينيين لم يكونوا كفتيين أو مينويين، ذلك لأنهم لم يلبسوا ملابسهم، كما أنهم إنما يختلفون فى أسلحتهم، وفى غطاء رؤوسهم، ومن هنا فإن الفلسطينيين إنما كانوا مختلفين كثيراً فى المظهر عن المينويين أو الكفتيين من كريت[٤].

---

(١) G. Bonfants, Who Were the Philistines, in AJA. L, 1946, p. 251.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٦ (٣) A.Gardiner, Onom, I, p. 201.

(٤) H.R. Hall, CAH, II, 1931, p. 286-7.

وانظر عاموس ٩: ٧.

ثم يرى «هول» بعد ذلك أن الفلسطينيين قد أتوا - مع الشردان وتورشا من شعوب البحر - من زاوية جنوب غرب آسيا، وهناك ما يدعو إلى الاحتمال بأن القبائل الكارية - ومن بينهم الفلسطينين - قد احتلوا نهاية شرق كريت، وذلك عند سقوط «كنسوس» وانهيار الحضارة المينوية، ثم يقرر «هول» بعد ذلك أن موطن الفلسطينيين إنما كان حقيقة في ليسيا وكاريا[1].

ويقرر «بونفانت» - بعد دراسة لغوية لتغير اسم الفلسطينيين - أن الفلسطينيين شعب «هندو - أوربى» أتى من كريت، ولكنه لم ينشأ بها أصلا[2].

ويذهب «وينرايت» إلى أن الفلسطينيين من كفتور، ولكنه يرى أن كفتور ليست كريت، ذلك لأن فكرة أن كفتور هي كريت لا تعتمد على شيء أكثر من ترجمات التوراة، التي تتحدث عنها على أنها «جزر كفتور» ثم وجد بعد ذلك أن جزيرة كريت إنما هي جزيرة مناسبة وكبيرة وتصلح للغرض، ورغم ذلك فإن الكلمة العبرية التي ترجمت «جزر» إنما تعني أصلا «الأرض الساحلية»، وتستعمل مثلا لشاطئ فلسطين، وهناك أدلة أثرية تجعل الإصرار على الاعتقاد بأن كفتور هي كريت، يجرنا إلى اضطراب لا نهاية له[3].

ويرى «وينرايت» بعد ذلك أن الفلسطينيين قد أتوا من كفتور، وأن هناك أدلة على أن «سليسيا - تراشيا» بغرب سليسيا، أعلى وأسفل نهر كاليكادنوس، وأن نفس الوطن كان من «دومين» ثيكر، ودليلنا على ذلك أن الفخار الفلسطيني شبيه بالفخار المسيني، وأن هناك أدلة أثرية ولغوية على

---

(١) H.R. Hall, The Philistine Migration, CAH, II, 1931, p. 287-288.

(٢) G.A. Wainwright, Some Sea - People, in JEA, 47, 1951, p. 78-82.

(٣) Ibid., p. 82.

أن كفتور، إنما كانت بلداً عند نهر (كاليكادنوس) كما يظهر ذلك من ترجمة كفتور بقبادوقيا في الترجمة السبعينية للتوراة «سبتواجينتا Septna-ginta»[١] مرتين، ذلك لأن المترجمين ربما كانوا في عمل بمملكة «قبادوقيا» العظيمة، والتي كانت تمتد إلى الشاطيء، متضمنة جزيرة إليوسا، إلى الشرق قليلاً من مصب كاليكادنوس، كما أن «كابديروس» ـ طبقاً لترجمة يونانية ـ إنما كان لقباً للملك كفتور والتي تعادل هنا «سليسيا» ومن ثم فمن الواضح أن الفلسطينيين كانوا قد احتلوا «سليسيا» الغربية، والأكثر احتمالاً، المنطقة أعلي وأسفل نهر كاليكادنوس في الجزء الشرقي، حيث عاش قوم «ثيكر» وهناك ما يثبت أن غارة الفلسطينيين إنما كانوا من «سليسيا تراشيا» وسواحلها وينتهي «وينرايت» إلى أن مجموعة قبائل (الفلسطينيين وثيكرودنين) إنما يكونون مجموعة من القبائل في سليسيا، الفلسطينيون والثيكر في الجزء الغربي من البلاد، بينما (دنين)، في الجزء الشرقي منها[٢].

أما (جيمس هنرى برستد)، فالرأى عنده أن أهالي (بلست) ـ وهم الفلسطينيون ـ إنما أصلهم من جزيرة كريت[٣].

هذا ويذهب «سير ألن جاردنر» ـ بعد أن لخص البراهين التي تحاول أن تحدد موطن الفلسطينيين الأصلي إى أن التقاليد العبرية والإغريقية إنما تتفق على أن الفلسطينيين من جنس أجنبي، وأنهم لا يختتنون، ومن ثم فهم قوم يختلفون عن الساميين، وأن هناك قوماً يدعون «الكفتوريون» قد غزوا ساحل فلسطين، وسكنوا القرى حتى غزة، وأن الفلسطينيين هم المقصودون بذلك.

وهناك جدل طويل حول تحديد «كفتور» وتوحيدها بكريت، فهناك

(١) انظرعن الترجمة السبعينية للتوراة كتابنا «إسرائيل»، ص ٤٩-٥٠، (القاهرة ١٩٧٣)

(٢) G.A Wainwright, op.cit., p. 82.

(٣) J.H. Breasted, A Hitory of Egypt, from the Earliest times to persian Con-quest, N.Y., 1946, p. 477.

نظرية تذهب إلى أن Kftiw أو Kftyw إنما هى المعادل لكفتور، أو أنه الاسم المصرى لكريت، ولعل المعارض الرئيسى لهذه الفكرة، إنما هو وينرايت ـ ومن قبله ميلر ـ الذى يتمسك بأن كفتيو إنما هى سليسيا وجنوب شرق آسيا الصغرى.

ويرى «جاردنر» أن «كفتور» لو كانت كلمة مصرية فإن وجود النهاية (R) ليست عقبة كؤود للاشتقاق من «كفتيو» بسبب وجود مشابهات كثيرة لذلك، هذا فضلا عن أن البعض قد سلموا بأن «كفتيو» يمكن أن تعادل أو تدل على كل من كريت وشاطئ سليسيا، ويبدو أن ذلك مستحيلا، ومن هنا فإنه ـ أى «جاردنر» ـ يرى أنه على العلماء أن يختاروا بين كريت أو شاطئ سيلسيا[1].

ويذهب «جاردنر» بعد ذلك إلى أن هناك من الأدلة القليلة ما يشير إلى أن «بلستى» أو «فلسطينى» رعمسيس الثالث لم يهاجموا مصر من جبهة البحر فحسب، بل تدل الشواهد كذلك على أنهم قد ساروا براً مخترقين آسيا الصغرى قاصدين شمال سورية، والظاهر أنهم فى رحلتهم هذه إنما كانت نساؤهم وأطفالهم يستعملون العربات التى تجرها الثيران المسمنة، التى نراها فى الموقعة البحرية مصورة فى مدينة حابو بطيبة الغربية.

وأخيراً، فإننا لم نجد شيئًا يتعارض مع ما جاء فى النصوص المصرية بمدينة حابو، من أن الفلسطينيين قد بدأوا غزواتهم من جزر البحر المتوسط، كما أننا لم نجد ما يدحض التقاليد العبرية والإغريقية من أن الفلسطينيين قد أتوا إلى فلسطين عن طريق كريت، ولكن فروق التسليح بين المينويين والفلسطينيين، مضافًا إليها «قرص فياستوس» الذى كانوا يلبسونه، قد جعل من المحقق أن كريت ليست الوطن الأول لهم، مهما كانت فترة بقائهم بها فى طريقهم إلى فلسطين ومصر، أما وطنهم الأول فيمكن البحث عنه فى

(١) A.H. Gardiner, op.cit., p. 204-5.

مكان ما شمال بحر إيجة، وربما كان احتلالهم للجزر إحدى مراحل هجراتهم، وحديثًا أصبح من المألوف مرة أخرى أن يربط «بليستى» بـ «باليستتوى» أو «بلاسوى»، لما بين الاسمين من التشابه اللفظي[1].

أما عن النظرية التى شارك فيها «أولبرايت» فهى مخاطرة أكثر منها رأيًا، ذلك أن «وليم أولبرايت» يرى أن الفلسطينيين يتشابهون فى كثير من الحالات مع «البلاسجيين»[2]، وإن كانت لغتهم لغة لوية، كما رأى أن طروادة الجنوبية كانت مستوطنة بالجماعات البلاسجية ذات الحراب، هذا إلى أن هيرودوت ـ وهو مواطن من هاليكارناسوس فى كاريا ـ يعيد الإيونيين والإيوليين إلى أصل بلاسجينى، ولدينا عدة أسماء تؤكد نسب الفلسطينيين إلى المنطقة الجنوبية الغربية من أسيا الصغرى مثل «جليات وأشيش» وكذا جاء بقصة «ون آمون» أسماء ثلاثة من الفلسطينيين ـ وهم واركاتير، ووارت وماكامار ـ تأكد بعد الدراسات المختلفة أن أصل هذه الأسماء من جنوب غرب الأناضول[3].

وأما أسفار التوراة، فترى أن الفلسطينيين قد هاجروا من كفتور إلى فلسطين[4].

ويرى أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل أن كفتور هذه يظن أنها كريت، وقد يكون هذا الرأى صوابًا، مادام بعض بلاد الفلسطينيين يطلق عليها اسم «جنوبى الكريتيين» تميزًا لهم عن يهوذا وكالب، ولئن صح ذلك ـ وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به ـ فإننا أمام هجرة سامية راجعة مرتدة من

---

(١) Ibid., p. 205.

(٢) البلاسجيون: سكان بلاد اليونان الأصليين غير الهلينيين، وقد ظلت بقاياهم نقية فى العصور الكلاسيكية، وكانت لغتهم ـ فيما يرى هيرودوت ـ بربرية، أى غير هلينية

(٣) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٣٢٦٧-٣٦٩

(٤) عاموس ٩:٧، تثنية ٢:٢٣، إرميا ٤:٤٧، صموئيل أول ٢٠:١٤

كريت، ربما نتيجة ضغط من ناحية الهلينيين، هذا إلى أن أسماء الفلسطينيين وأسماء مدنهم تشير إلى أنهم ساميون، ولكن الإسرائيليين يشيرون إلى أنهم قوم لا يختتنون، وهو اصطلاح ينأى بهم عن الساميين والمصريين معًا، ورغم ذلك فإننا نراهم يمارسون فوراً عادات الكنعانيين ويتحدثون لغتهم، كما أن معبوداتهم تغلب عليها النزعة السامية، فمن بينها «داجون» إله الحبوب و«آثار جاتس» العسقلونى، و«بلعزيوب» العقرونى[1].

هذه مختلف وجهات النظر التى ارتأها العلماء عن الموطن الأصلى للفلسطينيين وهى تكاد تتفق جميعاً على أن الفلسطينيين قد أتوا من كريت (كفتور) أثناء غزوهم لفلسطين ومصر، ولكنها لم تكن الموطن الأول لهم، وإنما كانت مجرد استقرار مؤقت فى أثناء هجرتهم.

وأما قبل كريت فموضع خلاف بين العلماء، فمنهم من رأى أنهم قادمون من «ليسيا - كاريا» ومن رأى أنهم ينتسبون إلى القومية الإليرية، ومن رأى أنهم يتشابهون كثيراً مع البلاسجيين، وأن لغتهم إنما كانت لهجة لوية، ومن رأى أن احتلالهم للجزر إنما كان إحدى هجراتهم، وأما موطنهم فيجب أن يبحث عنه فى مكان ما شمال بحر إيجة، ومن رأى أنهم ساميون يمثلون هجرة سامية مرتدة من كريت.

وهكذا تتعدد وجهات النظر، حتى أصبح من العسير علينا إبداء رأى معين، أو تفضيل رأى على آخر، ورغم ذلك كله، فيبدو لى أن الذين يرجعون بهم إلى آسيا الصغرى، أقرب الآراء إلى الاحتمال، ذلك لأن أغلب شعوب البحر ترجع إلى هذه المنطقة، ولأن الأدلة العلمية فى صالح هذا الرأى أكثر من غيره.

وأما علاقتهم بمصر، فقد بدأت منذ أيام رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ق.م)، إذ اشتركوا - بصفة رئيسية - فى الغزو الذى قام به

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الإسكندرية ١٩٦٦، ٣٤٨/٣ - ٣٥٠

فى عهده، والذى انتهى بهزيمتهم هزيمة منكرة فى معركتين، الواحدة بحرية، والأخرى برية، وقد صورت المناظر المصرية رؤساءهم ملتحين، وجنودهم دون لحى، وأغطية رأس ذات ريش، وبسيوف طويلة عريضة وخناجر مثلثة، وتروس مستديرة وحراب.

هذا، وقد سمح لهم الفرعون ـ بعد هزيمتهم ـ بأن يستقروا بصفة دائمة فى ساحل فلسطين، فى المنطقة ما بين يافا وغزة، وكانت أهم مدنهم غزة وعسقلان ـ على مبعدة ١٩ كيلاً شمال غزة ـ وأشدود وعقرون وجت[١] وقد احتفظت بأسمائها السامية تحت حكمهم، وكانت جت أبعد مدنهم فى الداخل، وكانت سياستهم أن يظلوا قريبين من البحر حتى يمكنهم السيطرة على طرقه واستخدام التلال التى تغطيها الكروم فيما وراءه، وكان الكرمل الحد الفاصل بين بلادهم الشمالية وبين الفينقيين، هذا وقد نظمت مدنهم الخمس بشكل ممالك أو دويلات مدن، كل منها تحت إدارة «سيد» ولكنها جميعًا كانت تشكل اتحادًا، ويبدو أن السيادة على هذه المدن إنما كانت لمدينة أشدود[٢].

وقد احتفظ التاريخ باسمهم على فلسطين، وإن كان ذلك لا يرجع إلى أنهم قد أصبحوا غالبية السكان فيها، أو أنهم قد بسطوا نفوذهم عليها جميعًا، ولكن ربما لأنهم آخر من نزل بها، ولكثرة ترديد التوراة لاسمهم.

هذا وقد احتك الفلسطينيون باليهود الذين كانوا قد وجدوا لهم مكانًا فى أرض كنعان فى ذلك الوقت، ولكن الغلبة كانت دائمًا للفلسطينيين، ويرجع المؤرخون ذلك لأسباب عدة، منها (أولا) أن أرضهم كانت من

(١) أشدود : وتسمى حاليًا أسدود، وتقع على مبعدة ١٨ ميلا إلى الشمال الشرقى من غزة ، وفى منتصف المسافة ما بين غزة ويافا، وأما عقرون: فتقع إلى الجنوب من يافا باثنى عشر ميلا، وأما جت: فيظن أنها فى الموقع الحالى المعروف بـ «تل عراق المنشية»، على مبعدة ستة أميال ونصف ميل إلى الغرب من بيت جبرين.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٧.

أخصب البقاع فى فلسطين الغربية، ومنها (ثانيًا) أن الروابط بين مدنهم الخمسة كانت أقوى منها بين المدن الكنعانية، ومنها (ثالثًا) معرفتهم بصهر الحديد واستخدامه فى أسلحة الدفاع والهجوم، وهناك صورة تقدمها التوراة لمحارب فلسطينى مزود بالأسلحة المعدنية فى قصة «جليات»، تقول التوراة: «فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت، طوله ست أذرع وشبر وعلى رأسه خوذة من نحاس، وكان لابسًا درعًا حرشفيًا، ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس، وجرموقًا نحاس على رجليه، ومزارق نحاس بين كتفيه وقناة رمحه كنول النساجين، وسنان رمحه ست مئة شاقل حديد، وحامل الترس كان يمشى قدامه»[1].

ويرى «فيليب حتى» أن ذروة قوة الفلسطنيين إنما كانت فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر قبل الميلاد، فقد كسروا بنى إسرائيل على أيام القضاة، حوالى عام ١٠٥٠ق.م، وأخذوا منهم «تابوت العهد» وحملوه إلى أشدود، وفى نحو عام ١٠٢٠ق.م، كانوا يقيمون حاميات فى البلاد المرتفعة نفسها، وكانوا متسلطين فى عهد الملك شاؤل (١٠٢٠-١٠٠٠ق.م) على مدن بعيدة فى الداخل مثل «بيت شان» (بيسان)[2].

وهكذا تسلط الفلسطيتيون على الإسرائيليين، وبلغوا قمة تسلطهم فى أخريات عهد شاؤل، بل لقد عملوا على تجريدهم من أسلحتهم، بل لقد احتكروا صناعة الأسلحة نفسها، حتى لم يوجد ـ كما تقول التوراة ـ «صانع فى كل إسرائيل، لأن الفلسطينيين، قالوا : لئلا يعمل العبرانيون سيفًا أو رمحًا»[3]، وهكذا احتكر الفلسطينيون صناعة الحديد، وكانوا يضطرون الإسرائيليين الذين يريدون تجديد آلاتهم الزراعية القاطعة أن يذهبوا إلى الصناع الفلسطينيين، يقول سفر صموئيل الأول : «كان ينزل كل

(١) صموئيل أول، ١٧ : ٤-٧.
(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٨.
(٣) صموئيل أول ١٢ : ١٩.

إسرائيل إلى الفلسطينيين، لكى يجدد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله»[١]

وهكذا لعب الفلسطينيون دوراً هاماً، حتى ليرى «فيليب حتى» أنهم رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز إلى مرحلة أهم - وهى عصر الحديد - وكان ذلك أهم فضل لهم، وفوق ذلك، فإنه يمكن الاعتقاد بأنهم أعطوا جيرانهم وورثتهم من الفينيقيين ميلا إلى الأسفار البحرية البعيدة، كان من نتائجه استكشاف البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الأطلسى الشرقى[٢].

(٤) الثيكر

الثيكر: أو ثيكر (Tjekker- Tkr) أحد أقوام البحر الذين هاجموا مصر وسورية فى عصر رعمسيس الثالث، وربما كانوا من سكان الجزر الذين جاءوا فى الغزوة الكبرى، ذلك لأن التفسير العام - فيما يرى جاردنر - أنهم - وكذا الشردان - قد أمدونا بأدلة أثرية قد توحى بأنهم من القوقاز، وذلك لأن منظر «الثيكر» يبدو مميزاً لهم عن الفلسطينيين، الذين يلبسون ريشة رأس، ومن قصة «ون أمون»[٣] نعلم أن الثيكر إنما كانوا يحكمون بلدة «دور» الواقعة جنوبى الكرمل، وقد ذكر فيما بعد على أنهم قراصنة بحر، ثم اختفوا بعد ذلك من مسرح التاريخ، وقد عملت محاولات لتوحيد قوم تيكر بقوم أو مكان ذكره المؤرخون الكلاسيكيون - أو ذكرته التوراة - وهو مدينة «زكلاج»[٤].

---

(١) صموئيل أول ١٣: ٢٠ (٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٠

(٣) انظر عن قصة «ون أمون»؛ محمد بيومى مهران، مصر ٣٧٩/٣-٣٨٠؛ وكذا: الحضارة المصرية القديمة، ١٢٧/١-١٣٩؛

J. A. Wilson, ANET, p. 25-29, A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 306-314, A.H. Garinder, Late Egyptian Stories, Bruseis, 1932, p. 61-76; A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p. 174-188.

(٤) A.H. Gardiner, Onom, I, p. 199-200

هذا ويرى «هول» أن «زكارى» «ثيكر» و«وشوش» إنما يعتبرون قبائل كريتية أصيلة، وإن كان حلفاؤهم الفلسطينيون ليسوا كذلك [١]، وأما «جيمس هنرى برستد» فالرأى عنده أن الثيكر إنما هم قوم يونانيو الأصل من جزيرة صقلية [٢]، وأما «وينرايت» فيذهب إلى أن «ثيكر» قد عاشوا فى «سليسيا ـ تراشيا»، ولفترة مضت قبل عام ١٥٠٠ ق.م [٣].

ولعل رأى «وينرايت» أقرب إلى الصواب من غيره، على أساس أن الثيكر ـ كالفلسطينيين حلفائهم، والذين يذكرون معهم غالبًا ـ إنما قد أتوا من أسيا الصغرى أصلا، وإن بقوا لفترة ما فى جزيرة كريت، اشتركوا بعدها فى غزو فلسطين ومصر، ثم استقروا ـ بعد هزيمتهم ـ فى فلسطين، إلى الشمال من حلفائهم الفلسطينيين، كما يظهر من قصة «ون أمون» وربما فى مدينة «زكلاج» كما يرى البعض، وإن كان هذا موضع شك إلى حد ما.

---

(١) H.R Hall, op.cit., p. 288.

(٢) J.H Breasted, op.cit., p 477

(٣) G.A. Wainwright, op.cit., p 77

الباب السادس
الإسرائيليون والاستقرار في فلسطين



الفصل الأول
يشوع ودخول كنعان

(١) يشـــــوع:

آل أمر بنى إسرائيل بعد موسى ـ عليه السلام ـ إلى «هوشع بن نون»، من سبط أفرايم، وقد غير موسى اسمه إلى يشوع، هذا وقد ولد «هوشع» فى مصر، وكان فى بادئ الأمر خادماً لموسى[١]، ثم بدأ يظهر فى الأفق منذ موقعة «رفيديم» حيث كان موسى قد عينه وقتئذ لقيادة بنى إسرائيل[٢]، ثم اختير بعد ذلك ممثلا لسبطه أفرايم، مع الاثنى عشر، الذين أرسلوا ممثلين للأسباط جميعًا ـ لكى يتجسسوا أرض كنعان، ويتبينوا ما فيها من نقاط ضعف وقوة[٣]، ثم انتهى الأمر، بأن اختاره موسى، خليفة له وقائداً لبنى إسرائيل من بعده، وقد بارك الكاهن «اليعازر» هذه القيادة، وأقرها الإسرائيليون[٤].

وهكذا غدا يشوع خليفة لموسى، بل إن التوراة إنما تحاول فى سفر يشوع أن تضعه فى مكانة لا تقل عن مكانة موسى نفسه[٥]، فكما كلم الربُّ موسى من قبل، فقد كلم يشوع من بعد[٦]، وكما أجرى «يهوه» ربُّ إسرائيل المعجزات على يدى موسى، فإنه قد آثر يشوع بمثلها، فإن كان موسى قد أثر ربُّه بمعجزة شق بحر سوف فى مصر، فقد أثر يشوع بمعجزة

---

(١) خروج ٢٤: ١٣.
(٢) خروج ١٧: ٩.
(٣) عدد ٤٣: ١-٢٩.
(٤) عدد ٢٧: ١٧: ٢٣؛ تثنية ١: ٣٨.
(٥) يرى بعض المفسرين المسلمين أن «يشوع» (يوشع بن نون) قد بعث بعد موت موسى نبياً (انظر: تفسير الكشاف ٦٢٢/١؛ تفسير الطبرى ١٩٢/١٠؛ تفسير الطبرسى ٧٠/٦؛ تفسير ابن كثير ٧٤/٢)؛ وبدهى أن هذا من اجتهادات المفسرين، ولكن الذى يلزمنا هنا، هو كلام الله عزَّ وجلَّ وليس ما درج المفسرون أن يقدموا، فإنما هو اجتهاد، وفوق كل ذى علم عليم وليس فى كتاب الله الكريم دليل صريح على نبوة يوشع أو يشوع هذا.
(٦) يشوع ١: ١.

شق الأردن في كنعان[1]، هذا فضلا عن معجزة أخرى أكبر من ذلك، يتعطل فيها مسير الأفلاك بإشارة من يشوع، فإذا الشمس تتوقف عن مغيبها عند «جبعون»، وإذا القمر لا يبزغ في حينه على وادي إيلون[2].

ولعل هذا الإعلاء العجيب من شأن يشوع، في الوقت الذي حاول فيه كتبة التوراة تجريح موسى ـ في أخريات أيامه على الأقل ـ هو الذي دعا البعض إلى أن يتخذ من ذلك برهاناً على أن يهود اليوم، ومن نصوص التوراة نفسها، ليسوا موسويين على الإطلاق، وإنما يشوعيون في الصميم، وإلا فكيف يمكن أن يكون اليهود تباع موسى، وها هي ذي نظرة اليهود الحالية إلى موسى قد تكشفت من خلال كتابهم هذا المقدس نفسه[3].

(٢) التخطيط لغزو كنعان:

ويبدأ يشوع يمارس سلطاته بعد موسى، فيتجه بناظريه إلى كنعان، تلك الأرض التي تفيض لبناً وعسلا، وتقرأ في التوراة[4] أن الربّ قد ظهر ليشوع وأمره أن يعبر الأردن إلى الأرض الموعودة، وهنا يجب أن نلاحظ أن الموقف لم يكن أبداً، كما صورته «التوراة»، بأن يأخذ الإسرائيليون المنطقة من البرية ولبنان إلى نهر الفرات، وإنما كان عبور الأردن إلى ضفته الغربية فحسب.

ولعل هذا الخلط والتوسع في التحديد إنما كان متأثراً بما كان من وقائع متأخرة، كما أننا نلاحظ شجاعة مفاجئة هبطت على الإسرائيليين، وليس ذلك ـ بحال من الأحوال ـ لوعد الربّ لهم بامتلاك تلك المنطقة، فذلك أمر قد عرفوه من قبل، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً على أيام موسى نبيّهم، إلا أن يثوروا عليه المرة تلو الأخرى.

(١) خروج ١٤ : ٢١؛ يشوع ٣، ١٤-١٧

(٢) يشوع ١٠ : ١٢-١٤؛ وكذا:

J. Gray, Israel in Near Eastern Mythology, N.Y., 1969, p. III.

(٣) أبكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٦٥

(٤) يشوع ١ : ٢-٤

والرأى عندى، أن ذلك إنما كان نتيجة عوامل اقتصادية واجتماعية، كان نتيجة طول ضياع وتشرد فى صحراء مقفرة، كما كان نتيجة تأجج مشاعر الاستغلال والحسد والطمع فى الأرض الخصبة المثمرة، وربما كان كذلك نتيجة انقراض هؤلاء الذين تخلت عنهم صفات الرجولة الحقة، ونشأة جيل جديد لم يعش ما عاشه الآباء فى مصر، بل إنه لم يرتبط بمصر بأوهى رباط، فلا يعرف عن أرضها الخصبة شيئًا، حتى يطلب العودة إليها.

والخلاصة أن الإسرائيليين الجدد إنما وجدوا أنفسهم يعيشون فى صحراء مقفرة، لا ماء فيها ولا زرع، بينما هم أمام أرض خصبة، بل هى فى نظرهم جنة أحلام تجرى فيها أنهار من «اللبن والعسل»، هذا فى الوقت الذى كانوا يتكاثرون بأعداد كبيرة، دون أن يجدوا ما يسد لها رمقها فى هذه الصحراوات فبقوا إلى حين، متحملين الجوع، ذلك لأن سيناء - كما يقول جوستاف لوبون - كانت بالحقيقة فقيرة جدبة إلى الغاية، لم تصلح لإعاشة أهلها البدو، فضلا عن الإسرائيليين، فتوجه بنو إسرائيل إلى الشمال، وحاولوا دخول أرض الشعوب الكنعانية الصغيرة، وهم لما دنوا من هذه الأرض بهرهم خصبها، فاشتعلت نيران الحسد فى قلوبهم[1].

ثم يذهب «لوبون» بد ذلك إلى أن غزو بنى إسرائيل فلسطين، إنما كان ذلك النوع من القتال بين الزراع والرعاة، وبين الحضريين والبدويين وذلك مع الفارق القائل أن عدد بنى إسرائيل واحتياجهم وبؤسهم فى مصر، وحرمانهم الهائل فى التيه، إنما قد جمع بينهم وأقنطهم، فصاروا كقطيع من الذئاب الهزيلة، التى دفعها الجوع إلى الاقتراب، حتى من المدن[2].

ومن هنا لم تكن هزيمة الكنعانيين، إلا مثلا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين[3]، وهذا شأن البدو دائمًا وأبدًا، إذ يقومون

(١) جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٧، ص٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٣٥. (٣) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٢٦.

بهجوم متوالى على الأرض الزراعية الواقعة على امتداد حدود مراعيهم، وهكذا فما أن بدأت الولايات التى كانت تشغل المناطق المشتهاة تضعف حتى اندفع البدو إليها، إما للسلب والنهب، وإما للإقامة المؤقتة، وفى الغالب كان الاستيطان بها هدفاً نهائياً، وهكذا فعل الإسرائيليون[1].

ومن ثم فإن ما جاء بالتوراة - كتاب اليهود هذا المقدس - من صبغ ذلك الغزو بالصبغة الدينية، وتواريه خلف ستار من قول «تكلم الربّ»، و«قال الربّ»، و«أقسم الربّ»، فذلك نتيجة أضغاث أحلام راودت عقولا مريضة من يهود، يوم أن كتبوا توراتهم - بعد ذلك بقرون طويلة - على ضفاف الفرات، إبان السبى البابلى، فحاولوا حينئذ تبرير تلك الغارات البربرية، وإعطائها أنفاساً من قدسية، بعد أن فقدت حركتهم كل معانى القداسة، وضاعت منها هالة الدين، بعد أن انتقل الكليم - عليه السلام - إلى جوار ربّه، راضياً مرضياً عنه.

وأياً ما كان الأمر، فإن يشوع - قائد بنى إسرائيل الجديد - إنما بدأ يخطط لغزو كنعان، وكانت «أريحا»[2] أول المدن الكنعانية التى اتجهت

(١) A. Lods, op.cit., p. 180-181.

(٢) أريحا: ومعناها: مدينة القمر، أو مكان الروائح العطرية، وهى مدينة هامة تقع على مسافة خمسة أميال غربى نهر الأردن: وعلى مبعدة ١٧ ميلا شمال شرقى أورشليم، أما أريحا التى جاء ذكرها فى التوراة فموضعها تل السلطان، على مبعدة ميل واحد من مدينة أريحا الحديثة، والتى تدعى الآن «الريحا»، وتلول أبو العليق التى تقع على مسافة ميل غربى أريحا الحديثة، وقد أثبتت الكشوف التى أجريت فى «تل السلطان» على أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم، وقد اكتشف هنا فخار من أقدم فخار العالم (انظر: قاموس الكتاب المقدس ٥٩/١). وكان أول من حفر فيها «أرنست سيللين» و«كارل فاتزنجر» فى الفترة (١٩٠٧-١٩٠٩م)، ثم أعاد «جون جارستانج» الحفر فى الفترة (١٩٣٠-١٩٣٦م)، ثم «مس كاثلين كينون» منذ عام ١٩٥٢م. انظر:
E. Sellin and C. Watzinger, Jericho, 1913; J. and J.B.E. Garstang, The Story of Jeriche, 1940; K.M. Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62-82; 1953, p. 18-95; 1954, p. 45-63, 1955, p. 108-117; 1956, p. 67-82 and in Scientific American, 190, 1954, p. 76-82.

صوبها أنظار يهود، فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سراً قائلا: اذهبا انظر الأرض وأريحا، فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب واضطجعا هناك»[١].

ولعل سائلا يتساءل: وهل من المقبول أن يكون أعوان يشوع ـ والذى تكاد التوراة أن تضعه فى مكانة موسى ـ من العاهرات ؟ ثم وهل يتفق ذلك مع مزاعم يهود من أنه فتح مقدس؟ وأن تلك الأرض إنما أخذت بوعد من الله؟ ولكن : ما حيلتنا وهذا ما تريده نصوص التوراة؟

وعلى أى حال، فإن ملك أريحا ـ وطبقاً لرواية التوراة ـ ما أن يعلم أن هناك اثنين من جواسيس يهود عند امرأة خاطئة، حتى يصدر أمره إليها، أن «أخرجى الرجلين اللذين أتيا إليك، ودخلا بيتك، لأنهما أتيا يتجسسا الأرض كلها»[٢]، ونقرأ فى التوراة أن تلك التى فقدت كرامتها وحب وطنها، إنما تنكر أن الرجلين عندها، بل وتخدع قومها عنهما، ثم تأخذ المواثيق عليهما أن يكون ثمن خيانتها، ضمان أمان لها ولأسرتها، حين تقع الطامة، وينزل الخراب بالمدينة الآمنة[٣].

وأياً ما كان الأمر، فلقد عبر الإسرائيليون الأردن عند النقطة التى وصفت فى سفر يشوع، بأنها «مقابل أريحا»[٤]، والتى توحد تقليدياً بالمخاضة الحالية المعروفة بـ «المغطس» أو الحجلة ـ على مبعدة ٣ كيلاً إلى الجنوب من كوبرى اللنبى ـ ويبدو أن العبور تم فى الربيع عندما كان النهر ضحلا، كما نفهم من بعض نصوص التوراة[٥]، وإن كان هناك نص آخر، يقرر أنه فى هذا الموقف، إنما «وقفت المياه المنحدرة من فوق، وقامت نداً واحداً، بعيداً جداً عن أدام المدينة»[٦]، ومن ثم فقد ذهب القوم إلى الأرض

(١) يشوع ٢: ١-٢.
(٢) يشوع ٢: ٣.
(٣) يشوع ٢: ٤-١٩.
(٤) يشوع ٣: ١٦.
(٥) يشوع ٣: ١٥.
(٦) يشوع ٣: ١٦.

الجافة، وأما مدينة «أدام» هذه، فيمكن أن توحد، «بتل الدامية» ـ على مبعدة خمسة عشر ميلا أعلى النهر، وعلى مبعدة ميل واحد جنوبى اتصال يبوق بالأردن ـ وهناك يوجد جرف من الحجر الجيرى، يكوّن عند الزلزال شقا فى النهر بعده تماماً لفترة من الوقت، وهكذا فإن مثل هذا الحدث إنما يمنع تدفق الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، الأمر الذى حدث مثيل له فى عام ١٩٣٧م[١].

وعلى أى حال، فلقد عبر الإسرائيليون الأردن، وعكسروا فى «الجلجال» عند تخم أريحا الشرقى، وهنا يأمر يشوع بأن تنصب الاثنى عشر حجراً فى الجلجال[٢]، تذكاراً لعبور بنى إسرائيل إلى اليابسة، وإشارة إلى أن ما حدث مع موسى فى بحر سوف، إنما قد حدث مثله مع يشوع فى الأردن.

وهنا تفاجئنا التوراة بما لم نكن نتوقع البتة، ذلك أن سفر يشوع إنما يروى أن صاحبه قد ختن بنى إسرائيل، إذ «كان جميع الشعب الذين ولدوا فى القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختتنوا»[٣]، ولست أدرى كيف كان ذلك كذلك، ونصوص التوراة تفرض الختان على الإسرائيليين، والولد منهم لما يبلغ أيامًا ثمانية بعد، بل لقد فرض على المرأة أن تختن الطفل فى اليوم الثامن من مولده، حتى إن كان ذلك اليوم الثامن هو يوم سبت، وفى هذه الحالة فالمفروض عليها أن تقوم وحدها بختان وليدها، لأن الآخرين محظور عليهم القيام بأى عمل فى هذا اليوم[٤]، ومن هنا، فلعل هذا من نوع الاضطراب المعهود فى التوراة، وتضارب نصوصها بعضها

---

(١) J. Garstang, Joshus, Judges, The Foundations of Bible History, 1931, p. 136F.

وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 155.

(٢) يشوع ٤: ١٩-٢٤.

(٣) يشوع ٥: ٢-٩.

(٤) تكوين ١٧: ١٠-٢٧، ١٩: ٤؛ لاويون ١٢: ٣؛ قاموس الكتاب المقدس ٣٣٧/١، (بيروت ١٩٦٤)؛ جوزيف لويس، الختان، ترجمة عصام الدين حفنى ناصف، القاهرة، ص ٧٢.

بالبعض الآخر، إلا إذا كان صحيحًا ما ذهب إليه البعض من أن الختان وهو سنة مصرية - كما أشرنا من قبل - تركها الإسرائيليون بمجرد خروجهم من مصر.

(٣) سقوط أريحا:

وأيًا ما كان الأمر، فإن موكب الخراب، قد اتجه - بقيادة يشوع - نحو أرض كنعان بغية غزوها، وكانت أريحا بأسوارها المنيعة تقف عقبة كؤود فى سبيل تحقيق هذا الهدف، ولعل اليأس قد بدأ يدب فى قلب يشوع، فهو لم ينس أبدًا، أن الجيل السابق إنما فضل عبودية مصر - بل وحتى القبور فى البرية - على مواجهة أهوال المدن المحصنة، أو الأعداء الجبابرة، وخشى أن يفعل الأبناء ما فعله الآباء من قبل، إذ كان أهون على هؤلاء أن يحاربوا عماليق أو عوج أو سيحون، حين التقوا بهم فى الخلاء، ولكن الأمر جد مختلف عند مهاجمة مدينة محصنة تستطيع أن تصمد أمام الحصار الطويل، وكان من المستحيل تركها خلفهم دون إخضاع، كما كان الصمود أمامها حتى تستسلم نوعًا من الانتحار، هذا فضلا عن أنهم إن ظلوا طويلا، خارت عزيمة الشعب الإسرائيلى، وزادت قوة الأعداء[1].

وهنا كان على كاتبى التوراة أن يجدوا حلا لهذا المأزق، وهكذا نقرأ فى سفر يشوع، أنه «لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه، ونظر وإذا برجل واقف قبالته، وسيفه مسلول بيده، فسارع يشوع إليه، وقال له : هل لنا أنت أم لأعدائنا، فقال: كلا بل أنا رئيس جند الرب، الآن أتيت، فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض وسجد وقال له : بماذا يكلم سيدى عبده، فقال رئيس جند الرب ليشوع: اخلع نعلك من رجلك، لأن المكان الذى أنت واقف عليه هو مقدس، ففعل يشوع كذلك»[2].

(١) ف.ب. ماير، يشوع وأرض الموعد، ترجمة مرقس داود، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩٦.

(٢) يشوع ٥: ١٣-١٥

وهكذا تساوت الرؤوس، فغدا يشوع كموسى تماماً، إذ يطلب منه - كما طلب من موسى - أن اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس، ورغم أن النص صريح على أن الذى رآه يشوع كان رجلا، وكان يشغل منصب رئيس جند الرب، إلا أن بعضاً من شراح التوراة يصرون على أن الذى تحدث إلى يشوع على عتبة كنعان، لم يكن سوى «يهوه» إله إسرائيل[١].

ومهما يكن من أمر، فسرعان ما يدور الإسرائيليون حول المدينة مرة كل يوم، مدى سبعة أيام، وفى اليورم السابع يدورون دورتهم السابعة ويضرب الكهنة بالأبواق، وتسقط أسوار أريحا، وتحرق المدينة وكل من فيها وما فيها، «من رجل وامرأة من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير»، ما عدا «الذهب والفضة وآنية النحاس فقد جعلوها فى خزانة بيت الرب»، وأما «راحاب» الزانية التى خانت قومها ووطنها، فقد كافأها الإسرائيليون، بأن أبقوا عليها، هى وبيت أبيها وكل مالها، كما أسكنوها فى وسط إسرائيل، ولم يكتف يشوع بذلك، بل نراه يصب اللعنات على من يعيد بناء أريحا، وإلا «فبيكره يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها»[٢].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن سقوط أريحا لم يكن بسبب ضرب كهنة يهود بأبواقهم، ثم الدوران حول المدينة طيلة أيام سبعة، وإنما كان ذلك - فيما يرى الكثير من العلماء - بسبب زلازل وقعت فى المدينة[٣].

(٤) سقوط عاى:

كانت الضربة الثانية من نصيب «عاى» فأرسل يشوع من يتجسس له عليها، وعندما عاد إليه جواسيسه، «قالوا لا يصعد كل الشعب، بل يصعد

(١) ف.ب. ماير، يشوع وأرض الموعد، ص ٩٨.

(٢) يشوع ٦: ٢٤-٢٦.

(٣) J. Finegan, op.cit., p. 158; T.R. Glover, Ancient World, (Penguin Books), 1968, p. 134.

نحو ألفى رجل أو ثلاثة آلاف رجل ويضربوا عاى»، ولكن الإسرائيليين هم الذين ضربوا أمام عاى بسبب خيانتهم، وحين أحرق يشوع الخونة سقطت «عاى» عن طريق خدعة وكمين أعده اليهود للمدينة الآمنة، ثم «ضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منقلب»[١].

ومع ذلك فإن بعض الباحثين إنما يرى أن القصة كلها مجرد خيال، ذلك لأنه لم تكن هنا مدينة باسم «عاى» أثناء الغزو الإسرائيلي لفلسطين، حيث أن موقع «عاى» - وتقع مكان التل الحالية على مبعدة ٢٠ كيلاً إلى الشمال الغربي من أريحا - قد قامت بالحفر فيه «مدام جوديث ماركيت كروز»[٢]، فيما بين عامى ١٩٣٣، ١٩٣٥م فكشفت عن بقايا مدينة هامة من عصر البرونز المبكر، وأن هذه المدينة قد دمرت وهجرت تماماً حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، وأنها لم تسكن مرة ثانية، إذا استثنيا فترة قصيرة، فيما بين عامى ١٣٠٠، ١٠٠٠ق.م، هذا فضلا عن أن اسم «عاى» هذه، إنما يعنى «الخراب» ومن هنا يرى العلماء أن التفسير المحتمل لرواية التوراة هو الخلط بين عاى وبيت إيل، والمعروف باسم «بيتين» وتقع على مسافة تقل عن ميل ونصف من «عاى»[٣].

وعلى أى حال، وسواء أكانت هناك حقاً «عاى» أحرقها يشوع، وقتل من أهلها «اثنى عشر ألف جميع أهل عاى»[٤]، أم أن الأمر كله مجرد خيال، فلقد امتد هذا المد الإسرائيلى سعيراً، فأحرق بالنار المدن الكنعانية، وقتل أهلها برمتهم، من رجال ونساء وأطفال، بل وفى حمى لا واعية، انطلق هذا المد مجنوناً، فلم يسلم من يده شيء، حتى السائمة لم يستبق يشوع من البهائم واحدة، البقر والغنم والحمير أحرقها يشوع أحياء، كل ما

(١) يشوع ٧: ٢-٩، ٣: ١٢-٢٩

(٢) Judith Marquet - Krauss, Les Fouilles de Ay (et Tell), 1933-1935, 2Vols., 1910

(٣) W. F. Albright, AJA, 40, p. 158 and BASOR, 118, p. 31

وكذا J. Finegan, op. cit., p. 159-160

(٤) يشوع ٨: ٢٥

استولى عليه يشوع دمّره تدميراً، وقتله قتلا، وأحرقه حرقًا، أباد يشوع كل شيء باستثناء المعادن وسبائك الفضة والذهب[1]

ولعل سائلا يتساءل: لم فعل يشوع كل هذا الخراب؟ وكيف أجرى دماء القتل أنهاراً؟

والجواب على ذلك، أن هذا القتل - كما تقول نصوص الكتاب المقدس - «فريضة الشريعة التى أمر بها الربُّ موسى» و«زكاة للربِّ»، وفى الواقع أننا لا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل، والاستمتاع به، ومثل هذه السهولة فى تعداد القتلى، إلا فى تاريخ الآشوريين، ويقال لنا بعد ذلك «إن الأرض استراحت من الحروب أحيانًا، فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة، أما يشوع فلم يكن إلا جنديًا فظًا، وقد حكم موسى حكمًا سليمًا لم تسفك فيه دماء، وذلك بما كان يقضى به من أحاديث جرت بينه وبين الإله، أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثانى، وهو أن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا، وبهذه الطريقة الواقعية التى لا أثر للعواطف الإنسانية فيها، استولى اليهود على الأرض الموعودة[2]، هذا إن كان كل ما فى هذه النصوص التوراتية صحيح، وهو أمر تحيط به بواعث الشك وهواتف الريبة من كل جانب.

(٥) جبعـــون:

ونقرأ فى التوراة، أن سكان جبعون - وتقع على مبعدة ١٣ كيلاً إلى الشمال الغربى من أورشليم، وتعرف الآن باسم الجيب[3]، وقد بدأت فيها جامعة بنسلفانيا والمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية، حفريات منذ عام ١٩٥٦م[4] - نقرأ أن السكان ما أن سمعوا بما حدث من خراب ودمار فى أريحا و«عاى»، حتى خشوا بغية الاصطدام بالغزاة من بنى إسرائيل، وانضموا

(١) أبكار السقاف، المرجع السابق، ص ٣٦٢. (٢) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٢٦-٣٢٧

(٣) J. Finegan, op.cit., p. 160.

(٤) انظـــــر. James B. Pritchard, BA, 19, 1956, p. 65-75, and UMB, 21, 1957. p. 3-26, 22, 1958, p. 12-24.

تحت لوائهم، بعد أن خدعوهم بأنهم بعيدون عنهم، «فعمل يشوع لهم صلحًا وقطع لهم عهدًا لاستحيائهم وحلف لهم رؤساء الجماعة»، ولكنهم سرعان ما يعلمون «أنهم قريبون إليهم وأنهم ساكنون في وسطهم»، وهنا قرر بنو إسرائيل أن يحصلوا من الجبعونيين، محتطبي حطب، ومستقي ماء للجماعة ولمذابح الرب»[1].

وتستطرد رواية التوراة، فتذهب إلى أن «أدوني صادق» ملك أورشليم ما أن يسمع بخضوع جبعون لبني إسرائيل حتى يبعث إلى ملوك حبرون ويرموت ولخيش وعجلون، يطلب منهم أن يقيموا معه حلفًا ضد جبعون التي صالحت الإسرائيليين، وهكذا اجتمع الملوك الخمسة وحاربوا جبعون التي التمست عون يشوع، فأسرع لنجدتها وضرب الحلف ضربة عظيمة، وبينما هم يولون الأدبار، سلط الله عليهم حجارة من السماء، فمات منهم بسببها أكثر مما ماتوا بالسيف»[2].

ويتقدم يشوع بعد ذلك إلى «مقيدة» ـ وربما كانت خربة الخيشم الحالية شمال شرق تل زكريا ـ فأخذها وضربها بحد السيف، وكذلك فعل بمدينة لبنة[3] ولخيش[4] وجسازر[5] وعجلون[6]

(١) يشوع ٩: ٣-١٧. (٢) يشوع ١٠: ١-١١.

(٣) لبنة: وتقع بين مقيدة ولخيش، ويرجح أنها المكان المسمى «تل بورناط» على مبعدة ميلين شمال غرب بيت جبرين، ويظن البعض أنها تل الصافي أو الصافية. (قاموس الكتاب المقدس، ٨١٣/٢).

(٤) لخيش: كان يظن أنها تل الحصى على مبعدة ١٦ ميلا شمال شرق غزة، ولكن ثبت الآن أنها «تل الدوير» على مبعدة خمسة أميال جنوب غرب بيت جبرين، وقد بدأت الحفريات فيها عام ١٩٢٣م برئاسة ستاركي، ومنذ عام ١٩٣٨م تولاها «تشارلس إنج ولانكستر هاردنج»، وقد أثبتت أن المدينة قد سكنت منذ عصر البرونز المبكر. (قاموس الكتاب المقدس ٨١٣/٢)، وكذا:

J. Finegan, op.cit., p. 161-162.

(٥) جازر: وهي تل الجزر الحالية على مبعدة ١٨ ميلا شمال غرب أورشليم وخمسة أميال وثلثي الميل شرقي عقرون، ١٧ ميلا جنوب شرق حيفا (قاموس الكتاب المقدس ٢٤٢/١)، وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 401.

(٦) عجلون: وتقع على مبعدة ١٦ ميلا شمال شرق غزة، ويرجح أن مكانها اليوم تل الحسي، والاسم

=

وحبرون[1] و«دبير»[2]، ثم نقرأ بعد ذلك في سفر يشوع عن نصر صاحبه على تحالف ملوك عند مياه «ميروم»، وأنه قد احتل مدينة حاصور - وهي تل القدح في سهل الحولة، على مبعدة خمسة أميال جنوب شرق بحيرة الحولة، وتسعة أميال شمال بحر الجليل[3] - لأنها رأس هذه الممالك، ثم أحرقها بالنار، ثم أخذ بعد ذلك كل الملوك الذين حاربوه ومدنهم[4].

وهكذا يزعم يشوع أنه ملك كل الأراضي - الجبل، وكل الجنوب وجميع أرض جوشن، والسهل والغور، وجبل إسرائيل وسهلهم من الجبل الأملس الممتد جهة سعير، إلى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون - ولم تسالم إسرائيل إلا جبعون، وقد قسى الربُّ قلوب الباقين حتى يلبسهم بنو إسرائيل ويستأصلوهم، وجاء يشوع في ذلك الوقت وفرض للعناقيين من الجبل من بحرون ودبير وعناب، ومن سائر جبل يهوذا وجميع إسرائيل، ولم يبق عناقي إلا في غزة وجت وأشدود[5]، وبدهي أن المبالغة واضحة في ذلك.

= عجلون لا يزال في خربة عجلان التي تقع شمال تل الحسي بميلين وقرب أريد في الأردن. (قاموس الكتاب المقدس ٢/٦٠٨).

(١) حبرون: وتقع على مبعدة ١٩ ميلا جنوب غرب أورشليم، ١٣,٥ ميلا جنوب غرب بيت لحم، وحبرون هي الآن مدينة «الخليل» وفيها قبر إبراهيم وسارة وإسحاق ويعقوب، وقد أقيمت كنيسة في عصر «جستنيان» (٥٢٧-٥٦٥م)، وفي ذلك المكان يقوم اليوم مسجد كبير (الحرم الإبراهيمي)؛ انظر: M.F. Unger, op.cit., p. 465-466.

(٢) دبير: وكان يظن أنها في موقع قرية الظهرية، على مبعدة ١٢ ميلا جنوب غرب حبرون، ومثل هذه المسافة جنوب شرق لخيش، ولكن المرجح الآن أن مكانها هو «تل بيت مرسيم» على مبعدة ثلاثة أميال شمال غرب شامير، وعلى مبعدة ١٢ ميلا جنوب غرب حبرون. (قاموس الكتاب المقدس ١/٣٦٨)

(٣) J. Finegan, op.cit., p 164.

(٤) يشوع ١١: ١-٢٣.

(٥) محمد عزة دروزة. تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩، ص ١١٥.

(٦) الاستيطان الإسرائيلى فى فلسطين: بين الفتح والتسلسل:

لا ريب فى أن تقدم الإسرائيليين واستقرارهم فى فلسطين لم يكن فتحًا عسكريًا فحسب، وإنما كان تسربًا سلميًا كذلك، فهناك احتمال أن الإسرائيليين قد استخدموا وسائل أخرى غير السيف، لدخول أرض كنعان فربما استأجرهم أحد الملوك الكنعانيين لمساعدته فى حملة ضد مدينة مجاورة ـ الأمر الذى حدث فى عصر العمارنة ـ إذ كان لكل أمير فلسطينى أعوانه العايبرو، وربما كانت مثل هذه الأمور هى الأساس التاريخى لروايات كالمعاهدة مع «جبعون» والتى كان يشوع مجبرًا فيها على أن يدافع عنها ضد تحالف المدن الكنعانية ـ كما أشرنا من قبل ـ وكالاتفاق الذى كان بين الإسرائيليين وبين بطن «راحاب» فى أريحا، وربما وضع بنو إسرائيل أقدامهم بالتدريج فى أجزاء أخرى من البلاد بأسلوب البدو، على أنهم حلفاء وحماة الفلاحين[١].

ولكن المؤرخين الإسرائيليين بالغوا فى ذلك، وحسبوها وقائع حربية أهلكوا فيها الحرث والنسل لأعدائهم، كما بالغوا فى تجسيم الأفراد الذين اشتركوا فيها، إذ لم يكن هناك فتح بالمعنى الصحيح، على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخًا، ومن تعدد الانتصارات وتقتيل الأهالى وانهيار أسوار أريحا بالنقر على النواقير، ووقف يشوع الشمس إمعانًا فى الذبح، أجل لقد فتحت بعض الضياع عنوة، ويفسر انقسام العشائر الكنعانية الكبير حقيقة النجاح الذى ناله بنو إسرائيل القليلى الذوق، والضعيفى الأهلية للحرب والسيئ السلاح، غير أن استقرار العبرانيين بفلسطين تم بالتدريج على ما سوف نرى، فالعبريون قضوا زمنًا طويلا ليكون لهم سلطان ضئيل بفلسطين، لا أن يكونوا سادتها[٢].

(١) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٣٤.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 332.

ولعل سؤال البداهة الآن : هل صحيح أن يشوع قد استولى على فلسطين؟

يزعم يشوع أنه قد استولى على أملاك الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، حين أخضع ملوك أريحا وعاى وأورشليم وحبرون وبرموت وعجلون وجازر وبيت إيل وحاصور ومجدو وقادش ودور وغيرها من المدن التى ذكرها يشوع فى سفره، وزعم أنهم واحد وثلاثون ملكاً[١]، وما زعمه كذلك من أنه أخذ كل الأرض حسب ما كلم الربُّ موسى وأعطاها ملكاً لبنى إسرائيل[٢].

غير أن ذلك لم يكن صحيحاً، وذلك لأسباب كثيرة، منها (أولا) أن يشوع نفسه ـ وفى نفس سفره ـ إنما يقول: «وشاخ يشوع... وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك، هذه هى الأرض الباقية، كل دائرة الفلسطينيين، وكل الجشوريين، من الشيحور الذى هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين، أقطاب الفلسطينيين الخمسة... من التيمن كل أرض الكنعانيين ومغارة التى للصيدونيين إلى أفيق إلى تخم الأموريين..»[٣].

ومنها (ثانيًا) أن سفر يشوع نفسه، إنام يقدم الكثير من الأدلة التى تهدم كل ما قاله عن انتصاراته المزعومة، من ذلك ما جاء فى السفر من أنه «لم يطرد بنو إسرائيل الجشوريين والمعكيين، فسكن الجشورى والمعكى فى وسط إسرائيل إلى هذا اليوم»[٤]، ومنها (ثالثًا)، أن أورشليم إنما ظلت فى أيدى اليبوسيين، «ولم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم»[٥]، بل إن سفر القضاة إنما يشير بعد ذلك إلى أنها «مدينة غريبة حيث ليس أحد من بنى إسرائيل هنا»[٦]، بل إن التاريخ

(١) يشوع ١٢: ٢-٢٤.
(٢) يشوع ١١: ٢٣.
(٣) يشوع ١٣: ١-١٤.
(٤) يشوع ١٣: ١٣.
(٥) يشوع ١٥: ٦٣.
(٦) قضاة ١٩: ١٢.

ليحدثنا أن الإسرائيليين لم يستطيعوا الاستيلاء على أورشليم، إلا على أيام داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م)[١]، وبعد أكثر من قرنين من الزمان من عهد يشوع.

ومنها (رابعًا) أن بنى أفرايم لم يطردوا الكنعانيين الساكنين فى «جازر»[٢]، والتى لم يتم الاستيلاء عليها، إلا على أيام سليمان (٩٦٠-٩٢٢ق.م)، وبجيوش مصر[٣]، ومنها (خامسًا) أن سلسلة القلاع الهامة الواقعة بين «شين» عبر «وادى يزرعيل» [٤]، وبين سهل ازدرايلون (مجدو) غربًا، لم تقع فى أيدى الإسرائيليين، ومنها (سادسًا) أن بنى يوسف قد اشتكوا من ضآلة حصتهم وضيق نصيبهم، إذ حشروا فى رقعة ضيقة مع الكنعانيين الساكنين فى أرض الوادى، والذين لهم مركبات من حديد[٥].

ومنها (سابعًا) أن سفر القضاة إنما يروى أن «منسى لم يطردوا أهل بيت شان وقراها، ولا أهل تعنك[٦] وقراها ولاسكان دور وقراها، ولا سكان بيلعام وقراها، ولا سكان مجدو [٧] وقراها، فعزم الكنعانيون على السكنى فى تلك الأرض، وأن زبولون لم يطردوا سكان قطرون ولا سكان نهلول، فسكن

---

(١) صموئيل ثان ٥: ٦-٩. (٢) يشوع ١٦: ١٠.

(٣) ملوك أول ٩: ١٦.

(٤) وادى يزرعيل: سهل مثلث فى فلسطين الوسطى، يسميه المؤرخ اليهودى يوسف بن متى «السهل الكبير» ويمتد من البحر المتوسط إلى الأردن، ومن الكرمل وجبال السامرة إلى جبال الجليل، وطوله من الغرب إلى الشرق نحو ٢٥ ميلا، ومن الجنوب إلى الشمال نحو ١٢ ميلا، وتقع فيه مدينة بيسان (بيت شان).

(٥) يشوع ١٧: ١١-١٨؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٦) تعنك: (تاعاناخ، أو تاعاناقا): تقع على مبعدة ٨ كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقى من مجدو، على الطرق لجنوبى من سهل يزرعيل.

(٧) مجدو: تلم المتسلم الحالية، وتقع إلى الغرب قليلا من بحيرة طبرية، وعلى مبعدة ٣٢ كيلا جنوبى شرقى حيفا، فى الطرف الجنوبى من سلسلة الجبال التى تنتهى بجبل الكرمل فى الشمال.

الكنعانيون فى وسطه، ومنها (ثامنا) ما يقال عن سبط أشير «فسكن الأشيريون فى وسط الكنعانيين، سكان الأرض، لأنهم لم يردوهم، والأمر كذلك بالنسبة إلى سبط نفتالى، الذى «سكن فى وسط الكنعانيين سكان الأرض»[١].

ومنها (تاسعا) أن بنى دان إنما كان نصيبهم ضيقا، ومن ثم فقد بحثوا عن إقليم جديد فى أقصى الشمال، لأن الأموريين قدحصروهم فى الجبل، ولم يفسحوا لهم المجال للنزول فى الوادى[٢].

ومنها (عاشرا) أن سفر القضاة إنما يشير إلى أن هناك أرضا قد تركها ربٌّ إسرائيل، «ليمتحن بها إسرائيل»، وأنها إنما كانت تتكون من أقطاب الفلسطينيين الخمسة، وجميع الكنعانيين والصيدونيين والحويين سكان جبل لبنان، من جبل بعل حرمون إلى مدخل حماة، وهكذا سكن إسرائيل فى وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين واليبوسيين وتزوجوا منهم وعبدوا آلهتهم[٣].

وهكذا يبدو واضحا أن غزو كنعان إنما كان بعيدا عن التمام على أيام يشوع، ذلك لأن هناك كثيرا من المدن الحصينة فى طول البلاد، لم تخضع لبنى إسرائيل، هذا فضلا عن مجموعات من القبائل التى لم يستطيع يشوع إخضاعها، بل إن احتلال كنعان حين تم، إنما تم عن طريق الجهود الخاصة بكل سبط من الأسباط الاثنى عشر فى الدفاع عن منطقته، تحت قيادة قواد من أبنائه المختارين وأن ذلك قد استغرق فترة تزيد عن القرن من الزمان[٤].

---

(١) قضاة ١: ٢٧-٣٣.

(٢) يشوع ١٩: ١٧؛ قضاة ١١: ٣٤.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٤) L.Epstein, op.cit., p. 33.

وكذا: O.Roux, op.cit., p. 242.

ومن هنا فليس صحيحاً ما جاء في النصوص القديمة، من أن الغزو قد تم في جيل واحد، أو في خمسة أو سبعة أعوام[1]، وإنما استمر طوال عهد القضاة، وفي أثنائه سقطت لايش[2] «الخيش» وشكيم[3] في أيدي الإسرائيليين ولم تنته العملية حتى بداية عصر الملوك الأول، حيث تم الاستيلاء على أورشليم وإخضاع مجدو وتعنك وبيت شان ومنطقة دور، وضم جازر[4].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الاضطراب في وصف التوراة لطريقة الغزو، فسفر يشوع يروي أن الغزو إنما قد بدأ بدخول أرض كنعان عن طريق أريحا (مدينة النخل) [5]، ولكن هناك من الأسباب ما يدعو إلى الافتراض من أن الجزء الجنوبي على الأقل من شعب إسرائيل قد دخل كنعان من الجنوب مباشرة، وهذا صحيح بالتأكيد بالنسبة إلى القينيين والقنزيين والبرحمئليين والقبائل شبه البدوية التي أمتصتها يهوذا على أيام داود، وربما كان ذلك صحيحاً كذلك بالنسبة إلى سبط يهوذا، أو بقية سبط شمعون، لأن غزو «حرمون» الذي ينسبه إليهم سفر القضاة[6]، إنما يصور في سفر العدد[7]، على أنه قد وقع من الجنوب، ولابد أن هذه الجماعات العبرية قد تحركت ناحية الشمال من قادش، ولابد أنها قد توقفت بسبب سلسلة القلاع الكنعانية الممتدة من جازر إلى أورشليم[8].

ولعل السبب في هذا الاضطراب، فيما يتصل بأحداث الغزو الواردة في سفر يشوع، أن السفر إنما كتب على أيام السبي البابلي (٥٨٧-٥٣٩ق.م) وأن ما يرويه السفر على أنه قد تم في خمس سنوات، إنما قد استغرق قرنين

---

(١) يشوع ١٤: ١٠-١١.　　(٢) قضاة ١٨.

(٣) قضاة ١٤.　　(٤) A. Lods, op.cit., p. 229-230.

(٥) يشوع ٣: ١٦؛ تثنية ١١: ٢٩-٣١، ٢٧: ٢-٧.

(٦) قضاة ١: ١٧.　　(٧) عدد ٢١: ١-٢.

(٨) A. Lods, op.cit., p. 331.

ونصف من الزمان ليكتمل حدوثه فعلا، وذلك لأن الإخضاع الكامل لكنعان لم يحدث إلا فى عهد سليمان (٩٦٠-٩٢٢ق.م).

ولعل فى بعد الشقة ما بين الأحداث وتسجيلها ما يشفع فى هذا الخلط، بل ما يشفع فى المغالاة والتفاخر بما ارتكب من مجازر لم يكن لها من أساس إلا فى أذهان مؤلفيها الذين شهدوا بربرية الآشوريين والبابليين، فخيل إليهم أن أسلافهم مارسوا نفس اللون من القهر والإذلال[١]، ذلك لأن هؤلاء البدو الرحل، رغم ممارستهم الحرب باستمرار، لم تصبح الحرب فنًا ولا علمًا عندهم، فكانت تعوزهم التعبئة، وما كان ليكتب لهم فوز إلا بضرب من الصولة المشابهة لغارة البدو المعاصرين، وبنو إسرائيل إذ كانوا جبناء خوفًا بطبيعتهم، لم يبدو مرهوبين إلا بما كان يحاول إلقاءه زعماؤهم وأنبياؤهم فيهم من حماسة مؤقتة[٢].

ومن هنا، فكل ما تمتلئ به صفحات سفر يشوع من غزوات، لا تعدو ما اعتاده الرحل أن يمارسوه من غارات قبلية على السكان المستقرين الآمنين فى كنعان، الذين كانوا يعيشون فى تلك الفترة شيعًا وأحزابًا، لا تربطهم رابطة ولا يجمعهم حلف واحد، فإذا أضفنا إلى ذلك ظروف حروب رعمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ق.م) ضد شعوب البحر، وانشغال مصر بتلك الحروب، فضلا عن ضياع دولة الحيثيين على أيدى شعوب البحر هؤلاء، هذا فضلا عن أن الآشوريين فى العراق القديم إنما كانوا يمرون بفترة ضعف شبيهة بتلك التى كانت تمر بها مصر على أيام أخريات الأسرة العشرين.

وهكذا كانت الظروف التى كانت تمر بها دول الشرق الأدنى القديم وشعوبه والتخلخل الموجود فى فلسطين وسورية فى أعقاب غزو شعوب البحر، مما أعطى هؤلاء الرحل الهمج فرصة شن بعض الغارات البربرية الناجحة على

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢٢. (٢) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٤٧.

بعض مدن شرق فلسطين، بدرجة تكفى لأن يبدأ يشوع فى تنظيم حياة القوم السياسية والدينية، وأن يقسم المناطق المحتلة بين الأسباط جميعاً، طبقاً لعدد كل منها، وأن يشيد فى «شيلوه»[١] محراباً مركزياً يتخذه مركزاً للتابوت الذى كان يستخدم كرمز لوحدة القوم السياسية والدينية[٢].

---

(١) شيلوه: وتقع شمالى بيت إيل بتسعة أميال، فى منتصف المسافة بين بيتين وشكيم، ويرجح أنها هى المسماة «سيلون» على مبعدة ١٧ ميلا شمال أورشليم (قاموس الكتاب المقدس ١/٥٣٥)؛ وكذا:

M.F. Unger, op.cit., p. 1015.\

(٢) Isidere Epstein, Judaism, (Penguin Books), 1970, p. 33.

الفصل الثانى
عصر القضاة

(١) السمات العامة لعصر القضاة:

لم يكن التنظيم الفيدرالى الذى اتبعه يشوع فى ربط القبائل الإسرائيلية بعضها بالبعض الآخر، بقادر على أن يعيش إلا على أيامه فحسب، ومن ثم فقد تبع موته عصر من الفوضى، كان إبانه «كل واحد يعمل ما يحسن فى عينيه»[١].

ومن هنا فقد تفرقت وحدة بنى إسرائيل، ولم تتحد أسباطهم حتى عندما واجههم الخطر من عدوهم الذى لم يخضع بعد، ومن ثم فقد اضطروا إلى أن يلجأوا إلى التغلغل السلمى، وقد قادهم هذا إلى محاكاة ديانة جيرانهم[٢]، وارتد كثير منهم إلى وثنية الكنعانيين، فعبدوا الأصنام، وفى مقدمتها «بعل وعشتارت»، ومن ثم فقد تنبه لذلك عدد من الزعماء المحليين لبنى إسرائيل، كانوا جميعًا من المحاربين الأشداء، فأخذوا يدافعون عن الكيان المهدد، وهم الذين يسمون فى التاريخ الإسرائيلى بالقضاة[٣].

ويبدأ عصر القضاة بموت «يشوع بن نون»، وينتهى بقيام الملكية الإسرائيلية على يد «شاؤول بن قيس»، وتسجل التوراة أحداث هذا العصر فى السفر السابع منها، والذى يحمل اسم «القضاة»، هذا فضلا عن بعض إصحاحات من سفر صموئيل الأول - فيما تسميه الطبعة البروتستانتية - وملوك أول - فى الطبعة الكاثوليكية - وتستغرق هذه المرحلة من تاريخ بنى إسرائيل قرابة أربعة قرون ونصف القرن فى بعض الآراء، وثلاثة قرون ونصف[٤]، إن اعتمدنا على بعض نصوص التوراة[٥]، وقرنين من الزمان،

(١) قضاة ١٧ : ٧.

(٢) I. Epstein, op.cit., p. 33.

(٣) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٨٠.

(٤) أعمال الرسل ١٣ : ٢٠؛ شاهين مكاريوس، تاريخ الأمة الإسرائيلية، القاهرة ١٩٠٤، ص ١٨؛ باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٢٩٠-٢٩٤.

(٥) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ١٢٢.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

فيما يرى بعض الباحثين[١]، وقرن وثلاثة أرباع القرن فى بعض الآراء الأخرى[٢]، بل إن هناك من يذهب إلى أن عصر القضاة هذا لا يتجاوز القرن الواحد من الزمان[٣].

وربما كان الرأى الذى يوفق بين الرأيين الأخيرين هو الأقرب إلى الصواب، إذ أنها لا تعدو ـ فيما نظن ـ قرابة القرن ونصف القرن، إذ اعتمدنا على الرأى الذى يرجح الخروج فى عام ١٢١٦ق.م(أو ١٢١٤ق.م) على أيام الملك «مرنبتاح» (١٢٢٤-١٢١٤ق.م)، وقيام ملكية «شاؤل» فى أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد (حوالى عام ١٠٢٠ق.م) آخذين فى الاعتبار فترة التيه فى الصحراء، وعهد يشوع بن نون.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد بدأ العبرانيون يثبتون أقدامهم فى البلاد عن طريق الاختلاط بالسكان الأصليين بالمصاهرة، كما انضمت إليهم بطون من ذوى قربائهم، وكانت القبيلة أساس نظامهم الاجتماعى القديم، حيث تقص علينا التوراة أن الأرض المفتوحة، إنما كانت تقسم على إحدى عشرة قبيلة من قبائلهم الاثنتى عشرة، بينما وزعت القبيلة الثانية عشرة ـ وهى قبيلة لاوى ـ على القبائل الأخرى للخدمة الدينية، وهذه القبائل إنما كانت بدورها تقسم إلى عشائر، ولكنها تتجمع حول هيكل مركزى فى «شيلوه»[٤].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن بعض العلماء إنما قارن هذا النظام القبلى العبرانى بمجلس «الإمفكتيون» Amphictyony اليونانى،

(١) O.Eissfeldt, The Period of the Judges, in CAH, II, Part 2, 1976, p. 583.

وكذا:

M.B. Bowton, The Early, Period of the Judges in Israel, Cambridge, 1963.

(٢) J. Gray, op.cit., p. 112.

(٣) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٥؛ محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٤) يشوع ٨: ١، ٨-١٠؛ موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤٠.

والذى يقوم على مبدأ مماثل من المركزية الدينية[١]، وكانت سلطة الكاهن الأعظم عظيمة، ولكن من المبالغة أن نزعم وجود حكومة «ثيوقراطية»، فإن سلطته لم تكن سياسة، إذ كان يتصدر القوم فى أثناء الأزمات زعماء محليون هم «القضاة»، وقد ظل هؤلاء القضاة يحكمون العبرانيون طوال القرن ونصف القرن التاليين لدخولهم فلسطين، وكانت سلطة القضاة عارضة محدودة المدى والمدة، وهى فى هذا النظام تذكرنا بسلطة زعماء النظام البدوى الذى تتميز به الحياة السامية فى مراحلها الأقدم عهداً، وكانت سلطة القضاة تعتمد أساساً على رضا الله عنهم وتأييده لهم، ومن ثم فقد سميت هذه الفترة «عصر الرضا الربانى» Chrismatic Age[٢].

ولم يكن القضاة قضاة بالمعنى المفهوم اليوم، ولم يكونوا مشرعين بالمعنى القديم، وإنما كانوا طبقة من الأبطال المحاربين والمتقذين، أقامهم الربُّ، ليخلصوهم من يد ناهبيهم»، ولم يكونوا خلفاء لبعضهم البعض، بل إننا لنشهد أكثر من واحد فى وقت واحد، «ولم يكن فى إسرائيل ملوك فى تلك الأيام حتى إذا كانوا من الكهنة»، وكان الواحد منهم يطلق عليه أحياناً لقب ملك أو قاض[٣]، والحق أنك لا تجد واحداً من القضاة استطاع أن يبسط سلطانه على جميع بنى إسرائيل، فكل واحد من هؤلاء الحكام والشيوخ كان يتسلم قيادة زمرة واحدة، عندما تهدد هذه الزمرة تهديداً مباشراً، وهو إذا ما كتب له النصر، لم يحتفظ حتى بتلك القيادة[٤].

ومن هنا لم تتألف من الغزاة فى يوم من الأيام أمة واحدة متماسكة،

---

(١) موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤٠؛ وكذا:
Martin Noth, Das System der Zwolf Staemme Israels, 1930, p. 39-60.
وكذا: Merrill F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chciago, 1970, p. 1015.

(٢) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤٠-١٤١.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢٥.

(٤) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٣٥.

بل ظلوا زمناً طويلا يؤلفون اثنى عشر سبطاً، مستقلين استقلالا واسعًا أو ضيقًا، نظامهم وحكمهم لا يقومان على أساس الدولة، بل على أساس الحكم الأبوى فى الأسرة، فكان شيوخ العشائر يجتمعون فى مجلس من الكبراء، هو الحكم الفصل فى شئون القبيلة، وهو الذى يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى، إذا ألجأتهم إلى هذا التعاون الظروف القاهرة التى لا مفر من التعاون فيها[1].

وعلى أى حال، فإنه تبين من فحص الروايات الخاصة بهؤلاء القضاة فى التوراة، أنها تختلف فيما بينها بدرجة كبيرة، فبينما يبدو بعضها ذو أهمية تارخية كبيرة مثل شعر انتصار «دبورة» أو قصة «أبيمالك»، ويبدو بعضها الآخر، ذو وصفة أسطورية لا أقل ولا أكثر، وبينما تنتمى قصة شمشون إلى الأدب الشعبى، تبدو وكأنها ذات أصل أسطورى، وأما أبطال هذه القصص فلا يظهرون أبداً كمصلحين دينيين، بل إن شمشون لم يكن حتى زعيماً، كما أن هذه الروايات مستقلة تماماً إحداها عن الأخرى، ولم يعد ممكناً أن تقول بالتأكيد ما هو الترتيب التاريخى للأحداث المسجلة، والظنون المحتملة أن الحادثة المفصلة فى قصة «عيثيل» يجب أن توضع فى الجيل الثالث بعد موسى، وأن انجازات «جدعون» إنما كانت فى الجيل الرابع[2].

ونقرأ فى سفر القضاة أنه أعقب موت يشوع فترة زاغ فيها بنو إسرائيل من عبادة الواحد القهار، واتجهوا نحو عبادة «بعل وعشتار»، فسلط الربُّ عليهم من أذلهم، وهنا عادت خراف بيت إسرائيل الضالة إلى ربها تدعوه أن يكشف عنها الغمة، فأقام لهم قضاة كان الربُّ مع القاضى وخلصهم من يد أعدائهم كل أيام القاضى، لأن الربَّ ندم من أجل أنينهم بسبب

---

(١) ول. ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٢٧.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 335.

مضايقتهم وزاحميم، وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها، لم يكفوا عن أفعالهم وطريقتهم القاسية، فحمى غضب الربّ على إسرائيل وسلّط عليهم أعداءهم ليمتحنهم بهم»[1].

وهكذا تقدم التوراة صورة بشعة لما كان من ارتكاس بنى إسرائيل، وانحرافهم الدينى والخلقى بسرعة عجيبة، الأمر الذى تكرر منهم من قبل مع موسى الكليم، عليه السلام، والذى ظل طابعهم المميز، بل هو كذلك التعليل التقليدى الذى تقدمه التوراة دائماً وأبداً، حين تحل ببنى إسرائيل النوائب، وتقف فى طريقهم العقبات، أو ترفضهم القبائل، أو تشن الأمم عليهم الحروب وذلك نتيجة الطبع الملتوى، والخلق النهاز للفرص، ذلك التعليل هو أن الربّ قد غضب عليهم بسبب عصيانهم إياه وإشراكهم به، ولكن ربّ إسرائيل - ويا للعجب - فإنه سرعان ما يعود فيغفر لبنى إسرائيل ذلتهم، حين يريد بنو إسرائيل ذلك الغفران، مستغلين علاقتهم به. فيحارب عنهم وبهم، حتى يحقق لهم ما يبغون من نصر، وتلك لعمرى، فرية على الله لا يقبلها إلا بنو إسرائيل.

وأيًا ما كان الأمر، فإن التوراة إنما تشير فى سفر القضاة إلى أنه كان على بنى إسرائيل أن يقاموا أقطاب الفلسطينيين الخمسة (زعماء مدن غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت)، وجميع الكنعانيين، والصيدونيين المقيمين بجبل لبنان، فضلا عن الحيثيين والآموريين والفرزيين واليبوسيين الذين سكنوا مع بنى إسرائيل، وارتبطوا بهم برباط المصاهرة، واشتركوا معهم فى العبادة، مما يدل على أن سكان كنعان إنما ظلوا محتفظين بمراكزهم وكيانهم خلافًا لما زعمه يشوع من قبل، وأنهم كانوا - مع أهل البلاد المجاورة لكنعان - يتربصون ببنى إسرائيل الدوائر، ويجمعون على الوقوف

---

(1) قضاة ٢: ١٠-٢٣.

منهم موقف العداء والتجهم، وأنهم كانوا _ إلى جانب هذا كله _ أصحاب تأثير دينى واجتماعى فيهم[1].

(٣) قضاة إسرائيل:

حكم العبرانيون فى عصر القضاة هذا خمسة عشر قاضيا، كان أولهم «عثنيئيل» وآخرهم «صموئيل النبى».

١ _ عثنيئيل بن قناز:

كان «كوشان رعشتايم» ملك آرام النهرين، أول من جعله ربٌ إسرائيل سوط عذاب على شعب إسرائيل، فاستذلهم ثمانى سنوات، استطاع بعدها «عثنيئيل بن قناز» أخو كالب الأصغر، أن ينقذهم من هذا الهوان، ثم قضى لبنى إسرائيل أربعين سنة[2].

٢ _ إهود بن جبرا البنياميني:

تحدثنا التوراة أنه ما إن يموت «عثنيئيل بن قناز»، حتى يعود بنو إسرائيل إلى سيرتهم الأولى، فيسلط الربُ عليهم «عجلون» ملك مؤاب، الذى يجمع عليهم بنى عمون وعماليق، ويعبر الأردن، ويحتل «دولة المدينة أريحا»، ويجبر سكانها على دفع الجزية، ثم يستعبدهم «ثمانى عشرة سنة»، ينجح بعدها «إهود بن جبرا البنياميني» فى تخليصهم من «عجلون»، وذلك باغتياله فى حجرة نومه عن طريق خدعة، ثم يستغل الفوضى التى انتشرت بين المؤابيين، فيدمر مملكتهم فى الجانب الغربى من الأردن بمساعدة البنياميين والأفرايميين الذين استدعاهم بسرعة لنجدته، وبهذا يكون الهدف من القضاء على هجوم المؤاب فى غرب الأردن قد تم، ومن ثم فقد استقر الموقف إلى حين، أو كما تقول التوراة «استراحت الأرض ثمانين سنة»[3].

---

(١) قضاة ٣: ١-٨. (٢) قضاة ٣: ٧-١١.

(٣) قضاة ٣: ١٢-٣٠؛ وكذا: O.Eissfeldt, op.cit., p. 554.

٣ - شعجر بن عناة:

خلف «شعجر» - وأصل اسمه حورى فيما يرى بعض الباحثين - إهود بن جيرا، على إسرائيل، وطبقاً لرواية التوراة، فقد قتل ستمائة فلسطيني بمنساس البقر، وهو أيضاً قد خلص إسرائيل[١].

٤ - دبورة: النبيّة القاضية

عاد بنو إسرائيل يعملون الشر من جديد، فباعهم الربُّ بيد «يابين» الملك الكنعاني في «حاصور»[٢] - وهي تل القدح على مبعدة أربعة أميال غربي جسر بنات يعقوب[٣] - وقام «سيسرا» رئيس جيش يابين في رأي التوراة، وهو أمير مدينة «حروشة الأمم» - تل عمار قرب الحارثية على مبعدة ١٦ ميلا إلى الشمال الغربي من مجدو[٤] - ومن الممكن أن يكون اسمه Il-lyrian فإذا كان ذلك كذلك، فربما كان عضواً من الطبقة الحاكمة من «شعوب البحر» وربما مارس نوعاً من السيادة على مدن سهل يزرعيل، التي كان الكنعانيون يحتلون جزءاً منها، وتحتل شعوب البحر جزءاً آخر، وربما في سهل عكو (عكا)[٥].

وعلى أي حال، فلقد قام «سيسرا» بقطع الاتصال بين القبائل الإسرائيلية في الشمال، وقبائل الإقليم الجبلي في أفرايم، وهنا ساد الفزع وتوقف العمل في الحقول، ولم تجرؤ واحدة من القبائل العبرية على مواجهة خيول الحرب الشرسة لأمراء الكنعانيين في معركة، وكانت قبيلة «يساكر»

---

(١) قضاة ٣: ٣١. (٢) قضاة ٤: ٧-٢٠.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١، وكذا: O.Eissfeldt, op.cit., p. 554.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ٣٠١/١، وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 554.
وكذا:
W. F. Albright, Historical Geography of Palestine, AAOR, 1923, p. p. 1F.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 150.

أكثر القبائل الإسرائيلية تأثراً، وبطريقة مباشرة، بتجدد العداوة مع الكنعانيين، كما كانت كذلك أكثر القبائل معرفة بمزايا العمل الموحد، ولهذا كانت لها القيادة[١]، وإن كان «مارتن نوث» يرى أن القيادة إنما كانت لقبيلة نفتالى، فى تكوين حلف مضاد للكنعانيين[٢].

وكانت «دبورة» امرأة نبية، وزوجة لفيدوت، وهى فى نفس الوقت قاضية إسرائيل وقت ذاك[٣]، فقامت بالدعوة إلى العمل الموحد ضد الكنعانيين وكان «باراق» أول من لبّى نداءها، فقد كانت له دوافع شخصية تدفعه إلى الانتقام من سيسرا الذى كان قد أسره ذات مرة[٤]، وهكذا كان «باراق» وهو رجل نفتالى - من قادش فى نفتالى، وهى قرية قدس الحالية، على مبعدة عشرة أميال شمالى صفد، وأربعة أميال إلى الشمال الغربى من الحولة[٥] - القائد وبالرغم من أنه لم يكن له مركز رسمى، فإنه قد بدأ المهمة، ووجد له أتباعاً فانضمت إليه قبيلة نفتالى، وكذا القبيلة المجاورة (زبولون)، وقدمتا له عشرة آلاف رجل، وأرسلت كذلك قبيلتا يساكر ومنسى بمتطوعيها، ونظراً للقرابة الوثيقة مع القبيلة الأخيرة، فقد انضمت قبيلتا «بيت يوسف» (أفرايم وبنيامين)[٦].

ومن ناحية أخرى، فقد وقفت أربعة قبائل (راؤبين وجاد ودان وأشير بمعزل عن الأحداث، ربما لأن مصالحها لم تهدد، ويصف سفر القضاة ذلك بقوله: «على مساقى راؤبين أقضية قلب عظيمة، لماذا أقمت بن الحظائر لسمع الصفير القطعان، لدى مساقى راوبين مباحث قلب عظيمة، جلعاد (جاد) فى عبر الأردن سكن، ودان لما استوطن لدى السفن، وأشير أقام على البحر، وفي فرضه سكن»[٧].

(١) A. Lods, op.cit., p. 337-338.
(٢) M.Noth, op.cit., p. 150.
(٣) قضاة ٤ : ١ .
(٤) A. Lods, op.cit., p. 338.
(٥) قاموس الكتاب المقدس ٢ : ٧٠٩ .
(٦) A. Lods, op.cit, p. 338-339.
(٧) قضاة ٥ : ١٥-١٧ .

وهناك مدينة إسرائيلية، لم يستدل عليها بعد، رفضت أن تهب لمساعدة «يهوه»، فحلت عليها اللعنة، ومن الجدير بالملاحظة أن قبائل «يهوذا» وشمعون ولاوى»، لم تستدع للقتال، فقد كانت شمعون ولاوى قد تعرضتا للشتات من قبل، أما «يهوذا» فقد كانت فى عزلة، وكأنها ليست من القبائل الإسرائيلية[1].

وأيًا ماكان الأمر، فلقد اجتمعت القوات الإسرائيلية المتحالفة، عند جبل «تابور»[2] فى الركن الشمالى الشرقى من سهل يزرعيل، ولكن رحى الحرب إنما قد دارت بعيداً إلى الجنوب بين «تعناك ومجدو» على ضفاف نهر «فيشون»، وأنجز الإسرائيليون نصراً كاملا على عدوهم المخيف هذا، ثم عزوا نصرهم هذا إلى مساعدة ربّهم «يهوه» القوية، والذى دخل «باراق» المعركة باسمه، ويبدو أن عاصفة هوجاء ساهمت بدرجة كبيرة فى انتصار الإسرائيليين إذا لم تستطع العربات الحربية أن تقوم بمناوراتها على الأرض الرطبة.

وهكذا أجبر «سيسرا» على الهرب مشيًا على الأقدام، بعد أن تحطمت قوة عرباته الحربية، ثم سرعان ما قتل فى خيمة امرأة قينية تقيم فى الجهة المجاورة، ذلك أن «سيسرا» كان واثقًا كل الثقة من عادات البدو فى كرم الضيافة، التى تعتبر العدو ضيفًا لا يمكن الاعتداء عليه، ومن هنا فقد بحث عن ملجأ فى خيمة «ياعيل امرأة حابر القينى»، ولكن كراهية هذه المرأة

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 339.

(٢) جبل تابور، جبل فى أرض الجليل يسمى الآن «الطور» يشرف على مرج ابن عامر، ويقع على مبعدة خمسة أميال ونصف نحو الجنوب الشرقى من الناصرة، وعلى مبعدة ١٢ ميلا شمال جبال جلبوع، وقد ساد اعتقاد أنه جبل التجلى، ولذا أقيمت عليه عدة كنائس منذ القرون الأولى للمسيحية، وقبل نهاية القرن السادس بنيت عليه ثلاث كنائس تذكاراً للمظال الثلاث التى طلب بطرس أن تقام هناك، ومنذ عهد قريب أقيمت كنيسة فخمة للاتين على قمته. (قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢١٠-٢١١).

القينية لسيسرا الذى كانت ترى فيه عدواً لحلفاء قومها، إنما دفعها لأن تحطم جبهته بوتد الخيمة، وهو يشرب من لبن قدمته له بنفسها، وتثنى التوراة على عملها الوحشى هذا بقولها: «تبارك على النساء يا غيل امرأة حابر»[1].

٥ ـ جدعون:

عاد الإسرائيليون يفعلون الشر من جديد، فدفعهم ربُّ إسرائيل ليد المديانيين لسنوات سبع، أذاقهم المديانيون فيها العذاب ألواناً، حتى اضطروا آخر الأمر إلى ترك قراهم ومدنهم، والالتجاء إلى الكهوف والمغاور والحصون، وكان الإسرائيليون إذا ما زرعوا زرعاً، ينزل المديانيون، «ويتلفون غلة الأرض، إلى مجيئك إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل قوة الحياة ولا غنماً ولا بقراً ولا حميراً، لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم، ويجيئون كالجراد فى الكثرة، وليس لهم ولا لجمالهم عدد، ودخلوا الأرض لكى يخربوها، فذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين»[2].

وهنا يصرخ بنو إسرائيل إلى ربهم «يهوه» وكالعادة يرسل ربُّ إسرائيل إلى شعبه إسرائيل رجلا نبيلا منهم، هو «جدعون» من سبط منسى، وكان جدعون يدرك أنه من سبط مستضعف، ومن هنا نراه يخاطب ربه «يهوه» حين يطلب منه «أن اذهب بقوتك هذه، وخلّص إسرائيل من كف مديان» فيقول: «بماذا أخلص إسرائيل؟ ما عشيرتى هى الذلة فى منسى، وأنا الأصغر فى بيت أبى»، فيقول له الربُّ: «إنى أكون معك، وستضرب المديانيين كرجل واحد»[3].

---

(١) قضاة ٤: ١٥-٢٤؛ وكذا:

W.F.A. Albright, The Biblical Period, From Abraham to Ezra, N.Y., 1963, p.122.

وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 554.

(٢) قضاة ٦: ٦١.

(٣) قضاة ٦: ٧-١٦.

وكان أول ما عمله جدعون أن «بنى هناك مذبحًا للربّ ودعاه «يهوه شلوم» ثم هدم مذبح «البعل» الذى كان أبوه قد بناه من قبل، ولكنه «إذ كان يخاف من بيت أبيه وأهل المدينة أن يعمل ذلك نهارًا فعمله ليلا، فبكر أهل المدينة فى الغد، وإذا بمذبح البعل قد هدم، والسارية التى عنده قد قطعت، والثور الثانى قد أعد على المذبح الذى بنى»، وهنا ثار أهل المدينة، ولم يقبلوا إلا رأس جدعون جزاءً وفاقًا على ما قدمت يداه، ولكن الثورة سرعان ما تخمد، ويرسل جدعون رسله إلى أسباط منسى وأشير وزبولون ونفتالى[1].

ويجمع جدعون الجيوش عند «عين حرود»[2]، وكان عدد الجيش كبيرًا، اثنان وثلاثون ألفًا ـ فيما تروى التوراة ـ فطلب الربُّ منه أن ينقصه، حتى لا يغتر الإسرائيليون، فيظنون أن النصر ـ إن جاء ـ فبسبب كثرتهم وقوتهم وتجرى عدة اختبارات كان من نتيجتها أن ترك الجيش وتقاعس عن القتال جميع رجال إسرائيل، إلا أقل القليل ممن عصم الله، حتى لنرى أن نتيجة التصفية إنما كانت ثلاثمائة رجل من اثنين وثلاثين ألفًا[3].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم إنما قد صحّح هذا الحادث وأرجعه إلى صاحبه الأصلى «طالوت» (شاؤل فى التوراة)، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي، إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ

---

(١) قضاة ٦: ٢٤-٤٠؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 556.

(٢) عين حرود: هى عين جالود على الجانب الشمالى الغربى من جبل جلبوع نحو ميل شرقًا للجنوب من يزرعيل، بالقرب من بيسان. (قاموس الكتاب المقدس، ١/٣٠٠).

(٣) قضاة ٧: ٢-٨.

كَمْ مِنْ فِئَةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرة بإذنِ الله، واللهُ معَ الصَّابرينَ﴾[١]

هذا وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن عدد جنود طالوت، إنما كانوا ثمانين ألف مقاتل، بقى على العهد منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، عدة أهل بدر[٢].

وعلى أى حال، فإن التقاليد الإسرائيلية إنما تصور «جدعون» وقد جرؤ على أن يقابل الخطر على رأس هذه القوة من البقية الباقية من جيشه، فيغزو معسكر المديانيين وبعد كرة ناجحة من السلب والنهب فى الوادى، وقد أرعب هجوم جدعون ـ الذى كان فيما يبدو قد أعد جيداً ـ المديانيين كثيراً، لدرجة أنهم قد جروا إلى السهول المفتوحة على ظهور جمالهم، وهربوا إلى الأردن ـ عبر نهر جالوا ـ ثم عبروا الأردن إلى ناحية الشرق، كما يبدو كذلك أن نصر جدعون هذا إنما قد وضع حداً للرعب الذى كان يسببه المديانيون للإسرائيليين، أو أنه قد أثار تصميم السكان على الدفاع عن أنفسهم، لأننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن أى هجوم من قبل المديانيين، هذا فضلا عن أن ذكراه إنما قد بقيت فترة طويلة بين بنى إسرائيل، ومن ثم فإننا نقرأ فى سفر إشعياء عن «يوم المديانيين»[٣] أى يوم الانتصار على المديانيين، والإشارة هنا دون شك إلى نجاح جدعون المذهل، وانتصاره على المديانيين عند «عين حرود» عند السفح الشمالى الغربى من جبل جلبوع[٤].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٩، وانظر: تفسير الكشاف، ١/٢٩٤-٢٩٦؛ تفسير الطبرى ٥/٣٣٨-٣٥٣؛ تفسير المنار ٢/٢٨٢-٢٨٩؛ تفسير القرطبى، ص ١٠٥٨-١٠٦٢؛ تفسير ابن كثير ١/٤٤٦-٤٤٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥/٣٣٩، ٣٤٦-٣٤٨؛ تفسير الكشاف ١/٢٩٤-٢٩٦؛ تاريخ الطبرى ١/٢٤٢-٢٤٣؛ تفسير القرطبى، ص ١٠٦٢-١٠٦٣؛ تفسير ابن كثير ١/٤٤٦-٤٤٦؛ صحيح البخارى، ٨/٢٢٨؛ مسند الإمام أحمد ٤/٢٩٠.

(٣) إشعياء ٩: ٤.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 162.

غير أن فى قصة جدعون هذه ـ كما تقدمها التوراة ـ كثيراً من التناقضات والمبالغات، فالقصة ـ كما جاءت فى سفر القضاة[1] ـ تذهب إلى أن جدعون قد جمع جيشًا جراراً، تعداده اثنان وثلاثون ألفًا، لمحاربة المديانيين والعمالقة وبنى المشرق، الذين نزلوا فى وادى يزرعيل، لم يبق منهم مع جدعون ـ بعد اختبارات معينة ـ إلا مئات ثلاث، ومع ذلك فمن الغريب أن تفاجئنا التوراة بأن جدعون إنما قد استطاع بمئاته الثلاث، أن يقتل من أعدائه فى الكرة الأولى، مائة وعشرين ألفًا من مخترطى السيف، ثم خمسة عشر ألف، فى الكرة الثانية.

وبدهى أنه ليس لدينا من تفسير مقبول لكل ذلك، سوى أنه التناقض والمبالغة المنقطعة النظير، وإلا فخبِّرن بربِّك أيها القارئ الكريم: كيف استطاع جدعون بجنوده الثلاثمائة ـ مهما كانت شجاعتهم، ولا نقول مهما كانت أسلحتهم ـ أن يقتل من جيش المديانيين وحلفائهم من العمالقة وبنى المشرق، مائة وعشرين ألفًا فى الجولة الأولى؟ ثم خبِّرنى بربِّك ـ مرة أخرى ـ كيف استطاع جدعون بجنوده الثلاثمائة أنفسهم، أن يقتل خمسة عشر ألفًا، فى الجولة الثانية؟ ولا تسأل نفسك : ماذا فعلت هذه الآلاف المؤلفة من المديانيين بجيش جدعون؟

وعلى أى حال، فإننى لا أستطيع أن أتصور ذلك الذى ترويه توراة اليهود حتى فى أضغاث الأحلام، ولك أنت أيها القارئ الكريم، أن تتصور ما تريد وأن تصدق ما تشاء، ثم لك بعد ذلك أن تؤمن، أو لا تؤمن ـ كيفما تشاء ـ بأن حديثًا كهذا يمكن أن يكون وحيًا من الله ـ جلَّ جلاله ـ فى كتاب من عند الله.

وعوداً على بدء، إلى جدعون وقومه من بنى إسرائيل، فإننا نجد القوم يتظاهرون بحب جدعون، ويلتفون حوله، حتى أنهم ـ من شدة نفاقهم

---

(١) قضاة ٦ : ٧-٨ : ٢١.

للرجل أن سألوه أن يقيم ملكية وراثية، إذ «قال رجال إسرائيل لجدعون تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك، لأنك خلصتنا من يد مديان»، ولكن جدعون يأبى ذلك مكتفيًا بملكية «يهوه» على الإسرائيليين[1]، وربما رسمت هذه القصة الموجزة بعد أن ظهر الملوك فى إسرائيل بفترة طويلة، وربما كانت بطريق غير بماشر ضد نظام الملكية الإسرائيلية القائم وقت ذلك، ولكنها بالتأكيد تعكس الوضع السائد بين بنى إسرائيل على أيام جدعون، وقبل ظهور الملكية على أيام شاؤل، وأيًا ما كان الأمر، فإن جدعون قد مارس سلطته كملك، ومن ثم فقد وجدنا أبناءه يتنازعون على خلافته عند وفاته، وهل ستوزع السلطات عليهم جميعاً؟ أم أن واحداً سوف يرثهما دون الآخرين؟[2].

وعلى أى حال، فلقد كان جدعون أول من فكر فى إنشاء محراب ملكى، وذلك حين أقام «أفودا»[3] فى مدينته «عفرة» حدث ذلك عندما جمع من الإسرائيليين أقراط الذهب التى جمعوها من المديانيين، وصنع منهما «أفردا وجعله فى مدينته فى عفرة، وزنى كل إسرائيل وراءه هناك، فكان ذلك لجدعون وبيته فخاً»[4].

هذا فضلا عن أنه إنما تزوج من نساء كثيرات، رغبة منه فى رقامة صلات قوية مع عائلات كثيرة من المجتمعات التى كان يرغب فى

---

(١) قضاة ٨: ٢٢-٢٣.

(٢) قضاة ٩: ٢.

(٣) الأفود: ثوب يشبه الصدرة، كان يلبسه رئيس الكهنة الإسرائيلى أثناء خدمته للكهنوت، وكان يثبت على الجسم بواسطة شريطين للكتفين من فوق، وحزام من أسفل، وعلى شريطى الكتفين حجر منقوش عليه أسماء أسباط إسرائيل الاثنى عشر، ويتصل بالصدرة بسلاسل من ذهب، وكانت الصدرة تحتوى على اثنى عشر حجراً كريماً، فيها وسائل القرعة المقدسة التى تستخدم فى تبين إرادة الله لمن يطلبها. (قاموس الكتاب المقدس، ٩٦/١).

(٤) قضاة ٨: ٢٤-٢٧.

استرضائها، وكانت إحدى زوجاته من «شكيم» التى كانت ماتزال مدينة كنعانية، ومن هنا فقد قبلت شكيم ـ طوعًا لا كرهاً ـ حكم جدعون، المدافع الشهير عن حقوق السكان المستوطنين من البدو.

وعلى أى حال، فإن البلاد التى حكمها جدعون، وابنه من بعده ـ باستثناء شكيم ـ كانت لا تعدو منطقة منسى وإقليم سكوت وفنوئيل فيما وراء الأردن، وكانت أفرايم على عداء معه، وبئر خارج سلطته[1].

٦ ـ أبيمالك:

كان حب الإسرائيليين لجدعون فى حياته نوعًا من مداهنة الأقوياء، وتملق الحكام، ومن هنا نراهم بعد موت جدعون يتنكرون له ولأهله، «فلقد كان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه لأنه كان له نساء كثيرات»، وكان أبيمالك، ولد جدعون من امرأة من شكيم، وكان بطن «يربعل» أو «جدعون» الذين يعيشون فى عفرة، أصحاب الزعامة على منسى، وقد امتدت هذه الزعامة على دويلة المدينة فى شكيم، وكان أبيمالك، هو ذلك الابن الطموح الذى كان يرنو إلى هذه الزعامة، وكان قادراً على استغلال كره الحكم الارستقراطى الشكيمى القديم ليحكم بطن منسى فاستعان بأخواله ليكون له الأمر بعد أبيه دون بقية إخوته، وأجابه أخواله إلى مطلبه، وأعطوه مساعدة مالية «سبعون شاقل فضة»، من مال بيت ربهم «بعل بريت» استأجر بها عصابة من المغامرين، وقادهم إلى عفرة مدينة أبيهم، وقتل إخوته بنى يربعل ـ أى بنى جدعون ـ سبعين رجلا على حجر واحد[2].

ومبلغ علمى أن هذا الحادث إنما هو أقصى وأفظع حادث من نوعه فى التاريخ القديم، ذلك لأن التنافس على الملك بين الأخوة أمر قد حدثنا عنه التاريخ كثيراً، وأن القتل من أجل شهوة الحكم والسلطان أمر عرفناه

(١) قضاة ٨: ١-٣، ٩: ٢١؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 342.

(٢) قضاة ٨: ٣٠-٣٥، ٩: ٣١؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 745.

أكثر من بين صفحات التاريخ، ولكن أن يقتل واحد من الراغبين فى الحكم والطامعين فى السلطان، سبعين رجلا من إخوته، وعلى حجر واحد، على حد تعبير التوراة، فذلك ما لم نعرف له مثيلا فى التاريخ.

وأيًا ما كان الأمر فلقد نجا أخ له يدعى «يوثام» من المجزروة المروعة، ونادى فى قومه ينذرهم بسوء المصير، ثم فرَّ إلى «بئر» - بين شكيم وأورشليم - وأقام هناك هربًا من أخيه، ثم «اجتمع أهل شكيم وكل سكان القلعة وذهبوا وجعلوا أبيمالك ملكًا عند بلوطة النصب التى فى شكيم»[1].

وهكذا نصب أبيمالك نفسه ملكًا على شكيم، من قبل الأرستقراطية الشكيمية والتى هو نفسه ينتمى إليها من ناحية أمه، ولكنه لم يرد أن يكون مجرد ملك على مدينة كنعانية على الأسلوب الكنعانى القديم، فمد حكمه عن طريق الضغط إلى أسباط منسى وأفرايم، التى كانت تعيش على الجبال حول شكيم، وبذا أصبحت أملاكه خليطًا من الإسرائيليين والكنعانيين، الأمر الذى قضى عليه بعد فترة قصيرة، عندما أراد أن يمد حكمه على القبائل الإسرائيلية كذلك، ومن ثم فقد نقل مقر حكمه إلى «أرومة» - وهى الأرمة الحالية على مبعدة ستة أميال جنوبى شرق شكيم، عند الحدود الأفرايمية وأقام «زبول» كنائب عنه فى شكيم.

وهنا خاب أمل الأرستقراطية الشكيمية التى كانت تتوقع أن يترك لهم الملك الذى رفعوه إلى العرش سلطة الدولة فى أيديهم، ومن ثم فقد عارضوه، ثم اتهموه بالخيانة، وفى السنة الثالثة برز من بين المتمردين رجل كنعانى يدعى «جعل بن عابد» كان كبير الأمل فى أن يأخذ مكانة أبيمالك فى شكيم، ومن ثم فقد أخذ يثير النخوة فى كبرياء الشكيميين، قائلا: «من هو أبيمالك، ومن هو شكيم حتى نخدمه، أما هو ابن يربعل، وزبولون وكيله، أخدموا رجال حمورابى شكيم فلماذا نخدمه نحن؟ من يجعل هذا الشعب فى يدى، فأعزل أبيمالك؟»

(١) قضاة ٩: ٦، ٢٠-٢١.

ولكن أبيمالك سرعان ما هاجم شكيم على حين غرة، ودمرها وبذر الملح فى موقعها، ثم استولى على الحصن الذى كان يكون مدينة منفصلة تسمى «برج شكيم» ثم أحرق معبد الربّ بكل من لجأ إليه، غير أن أبيمالك إنما قضى نحبه، وهو يحاصر مدينة «تاباص» - وهو طوباس الحالية على مبعدة تسعة أميال شمال شرق شكيم - إذ ألقت عليه امرأة بقطعة من رحى فشجت جمجمته، فدعا حارس درعه، وطلب منه أن يقتله، «لئلا يقولوا قتلته امرأة»[1].

وهكذا يبدو أن محاولة أبيمالك، إنما قد انتهت بدون نتائج تاريخية، حتى بات من الصعب تسمية مغامرته هذه، مقدمة للملكية الإسرائيلية فيما بعد، وعلى أى حال، فلقد عادت العلاقات بين شكيم ومنسى بعد موته إلى وضعها القديم، ومع ذلك فإن قصة أبيمالك هذه إنما هى دليل على التوتر الموجود بين الأنظمة الإسرائيلية والكنعانية، والتى حاول أن يستفيد منها، ولكنها دمرته فى النهاية، وأخيراً، فإن أبيمالك - طبقاً للتقاليد - فقد كان الإسرائيلى الأول الذى ينادى بنفسه ملكاً[2].

٧ - تولع بن فواة بن دودو:

قام على قضاء إسرائيل بعد أبيمالك «تولوع بن فواة بن دودو»، رجل من يساكر، كان ساكناً فى «شامير» فى جبل أفرايم، وقد قضى ليفى إسرائيلى ثلاثاً وعشرين سنة[3].

٨ - يائير الجلعادى:

جاء يائير هذا على قضاء إسرائيل بعد «تولع بن فواة بن دودو» وتصفه التوراة بأنه كان له ثلاثون ولداً يركبون على ثلاثين جحشاً، ولهم ثلاثون

(١) قضاة ٩: ٢٨-٢٩، ٣٤-٥٤؛ وكذا:

A. Lods, op.cit, p. 344; M. Noth, op.cit., p. 125-153; O. Eissfeldt, op.cit., p. 557.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 153.

(٣) قضاة ١٠: ١-٢.

مدينة، منها واحدة ما تزال تدعى «حورث يائير»[١].

٩ ـ يفتاح الجلعادى:

عاد بنو إسرائيل من جديد يعملون الشر، ويعبدو الآلهة الأجنبية، وهو أمر ليس بالجديد ولا بالشاذ بالنسبة لبنى إسرائيل، لأن الصراع القائم ـ والدائم كذلك ـ بين الطبع الذى تأصل فى بنى إسرائيل، والتطبع الذى طبعهم عليه أنبياؤهم وقضاتهم، كان دائماً ينتهى بانتصار الطبع، لأن هذا الطبع، إنما يكاد يكون ملازماً لهم من يوم بدء تاريخهم.

وهكذا عاد بنو إسرائيل إلى عبادة الآلهة الأجنبية، فحمى غضبُ الربِّ على إسرائيل، وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بنى عمون، فحطموا ورضضوا بنى إسرائيل، ثمانى عشرة سنة، جميع بنى إسرائيل الذين فى عبر الأردن فى أرض الآموريين الذين فى جلعاد، وعبر بنو عمون الأردن ليحاربوا أيضاً يهوذا وبنيامين وبيت أفرايم، فتضايق إسرائيل جداً[٢].

وعلى أى حال، فلم تكن هناك صلات مباشرة بين الإسرائيليين وأقربائهم العمونيين، لأنهم كانوا يعيشون بعيداً عن المناطق الإسرائيلية، ثم بدأ الاتصال بينهما عندما أصبحت بلاد جلعاد القديمة ـ جنوب يبوق ـ مستعمرة لسبط أفرايم والأهم من ذلك أن العمونيين أصبح لديهم ميل نحو التوسع إلى الشمال الغربى، ومن ثم فقد بدأ النزاع بينهما، ثم سرعان ما عبر العمونيون الأردن لمهاجمة الإسرائيليين هناك، وبدأ الإسرائيليون يستصرخون ربَّهم ويطلبون عونه وإنقاذهم من محنته العصبية هذه، إلا أنهم لم يجدوا من بينهم من يصلح لقيادتهم فى هذه الأيام القاسية[٣].

---

(١) قضاة ١٠: ٣-٥.

(٢) قضاة ١٠: ٨-٩، وكذا: M. Noth, op.cit., p. 153.

(٣) قضاة ١٠: ٩، وكذا: M. Noth, op.cit., p. 157-158.

وهكذا اتجهت الأنظار إلى «يفتاح الجلعادى»، وكان - كما تصفه التوراة - «جبار بأس وابن امرأة زانية»[١]، ويقيم فى «طوب» مع عصابة من الأفاقين، بعد أن طرده إخوته الشرعيون، فطلب إليه الإسرائيليون أن يأخذ القيادة فى الحرب ضد العمونيين، فرضى يفتاح على شريطة أن يعين رئيساً على القوم، إن قدر له النصر، وجمع يفتاح الحرس الوطنى من الجلعاديين عند «المصافة» - وهى رشونى الحالية على مبعدة أميال قليلة شمال غربى جلعاد - حيث يوجد «مذبح روح يهوه»، التى حلت فى يفتاح[٢].

ومن ثم فقد أصبح يفتاح قائداً معترفاً به على رأس الجلعاديين ضد العمونيين بل وقد تمكن من أن يخضعهم وأن يطردهم من جلعاد، وقد كان نصر يفتاح هذا نصراً حاسماً وصل إلى درجة أننا لم نسمع بعد ذلك عن أية مجهودات أخرى من جانب العمونيين لاحتلال أرض جلعاد، حتى أيام شاؤل، أول ملوك إسرائيل.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى عادة التضحية البشرية من عهد يفتاح هذا، حيث تحدثنا التوراة فى سفر القضاة أن يفتاح إنما قد نذر للربّ «إن دفعت بنى عمون ليدى، فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون، يكون للربّ وأصعده محرقة»[٣]، وكما أشرنا من قبل، فإن الرجل عندما عاد من معركته منتصراً، فإن ابنته الوحيدة إنما كانت هى التى هبت للقائه، ومن ثم فقد اضطر أن يفى بنذره، وأن يقدمها ضحية لإلهه «يهوه»، بعد عودته بشهرين اثنين[٤].

وعلى أى حال، فإن التوراة إنما تذهب إلى أن الأفرايميين إنما قد تمردوا على يفتاح لأنه لم يدعهم إلى الاشتراك فى الحرب التى خاض

---

(١) قضاة ١١ : ١ .

(٢) M. Noth, op.cit., p. 158. وكذا: O. Eissfelt, op.cit., p. 557.

(٣) قضاة ١١ : ٣٠-٣١ . (٤) قضاة ١١ : ٣٤-٤٠ .

غمارها ضد بني عمون ومن ثم فقد أعلنوا عليها حربًا، كتب له فيها النصر عليهم، بل وتذهب رواية سفر القضاة إلى أنه قد قتل منهم اثنين وأربعين ألفًا، وهكذا أصبح يفتاح حاكمًا على البلاد بعد نصره على العمونيين، وبعد نجاحه في صراعه ضد الأفرايميين - الذين ربما كانوا يطالبون بنوع من الزعامة على سائر أسباط بني إسرائيل - واستمر يشغل منصب القاضي في بني إسرائيل - طوال ست سنين - حتى مماته[1].

١٠ - إبصان:

وقضى لبني إسرائيل إبصان من «بيت لحم»[2]، وتروي التوراة أنه «كان له ثلاثون ابنًا وثلاثون ابنة» أرسلهن إلى الخارج، وأتى من الخارج بثلاثين ابنة لبنيه، وقضى لبني إسرائيل سبع سنين، ومات ودفن في بيت لحم»[3].

١١ - إيلون الزبولوني:

وقضى لإسرائيل بعد إبصان عشر سنين، ومات ودفن في أرض زبولون[4].

١٢ - عبدون بن هليل الفرعتوني:

وقضى لإسرائيل بعد إيلون، وكان له أربعون ابنًا وثلاثون حفيدًا،

---

(١) قضاة ١١: ١، ١٢-١٧؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 158.

(٢) بيت لحم: وتقع على مبعدة ٨ كيلًا إلى الجنوب من أورشليم، وكانت مدفن راحيل أم يوسف وبنيامين، وفيها مسكن نعمي وبوعز وراعوث ومسقط رأس داود، ومدفن آل يؤاب، ثم فيها ولد المسيح عليه السلام، لأن أمه مريم العذراء والمولودة في الناصرة إنما كانت هناك للاكتتاب، فحان وقت ولادتها هناك، وقد بنت الإمبراطورية «هيلانة» في حوالي عام ٣٣٠م كنيسة هناك، فوق المغارة التي يظن أن المسيح قد ولد فيها، وهي أقدم كنيسة مسيحية في العالم (انظر: تكوين ٣٥: ١٩؛ راعوث ١: ١٩؛ صموئيل أول ١٧: ١٢؛ صموئيل ثان ٢: ٣٢؛ متى ٢: ٥؛ قاموس الكتاب المقدس ٢٠٥/١-٢٠٦؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 140-141.

(٣) قضاة ١٢: ٨-١٠.

(٤) قضاة ١٢: ١١-١٢.

يركبون على سبعين جحشاً، وقضى لإسرائيل ثماني سنين، ثم مات ودفن في «فرعتون»[١] في أرض أفرايم في جبل العمالقة[٢].

١٣ ـ شمشون:

عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الربّ، فدفعهم الربُّ ليد الفلسطينيين أربعين سنة[٣]، وقد برز خلال هذه المرحلة «شمشون بن متوح» من سبط دان، من «صرعه» ـ وتقع على الضفة الشمالية من وادي سورق (وادى الصرار) على مبعدة ١٤ ميلا غرب القدس[٤] ـ وصار قاضيا على إسرائيل عشرين سنة[٥].

ويبدو أن شمشون البطل المارد ـ كما يقول جيمس فريزر ـ كان ذا شخصية غريبة بين قضاة بنى إسرائيل الكبار، وقد ذكر الكتاب المقدس أن شمشون كان يشغل منصب القاضى فى بنى إسرائيل طيلة عشرين عاماً، ولكنه لم يذكر شيئًا عن أحكامه القضائية التى أصدرها وفقًا لشخصيته القضائية، وإذ كان لنا أن نصدر حكمًا على فحوى أحكام شمشون من خلال طبيعة أفعاله، فإنه يحق لنا أن نتشكك إذا كان هذا الرجل يعد مفخرة فى تاريخ القضاء الإسرائيلى ذلك أن موهبته كانت كثيراً ما تتمثل فى إحداث الشغب، والعراك وفى إحراق مؤن الذرة التى يختزنها الناس، وفى كثرة التردد على بيوت الدعارة، أى أن شمشون كان يبدو فى شخصية الطليق الفاجر الخليع، أكثر مما كان يبدو فى شخصية القاضى الكفء الصارم[٦].

(١) فرعتون: وهي فرعاثة الحالية، على مبعدة سبعة أميال ونصف الميل جنوبيغربى شكيم (نابلس). (انظر : قاموس الكتاب المقدس ٦٧٦/٢).

(٢) قضاة ١٢ : ١٣-١٥.

(٣) قضة ١٣ : ١.   (٤) قاموس الكتاب المقدس ٥٤٢/٢.   (٥) قضاة ١٥ : ٣١.

(٦) جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم ، الجزء الثاني، ترجمة نبيلة إبراهيم، القاهرة ، ١٩٧٤م، ص ١٣.

ومن ثم فنحن لن نعالج قائمة جافة من الأحكام القانونية، وإنما مغامرات مسلية غير لائقة فى الحرب والحب، ذلك أننا إذا قبلنا الحكايات التى دونت فى سفر القضاة عن هذا الطائش الفاجر ـ ونحن ملتزمون بها دون شك، لأننا لا نملك غيرها ـ فإننا نجد أنه لم يقم قط بحرب نظامية، كما لم يقم بعصيان وطنى مسلح ضد الفلسطينيين الذين استذلوا قومه، وإنما كان يقوم بمجرد هجوم مفاجئ عليهم بوصفه الفارس المتجول، ثم يضربهم بفك حمار، أو بأى سلاح آخر يقع فى يده، وحتى فى هذه الغارات التى كانت تقوم على السلب والنهب إذ أنه لم يتورع فى أن يسلب ضحاياه من ملابسهم، ومن المحتمل من ثروتهم كذلك، فإن فكرة تخليص قومه من العبودية ـ كما يتضح من كل الشواهد ـ آخر ما يتراءى له، وباختصار فإن قصته من بدايتها حتى نهايتها إنما هى قصة مغامر مخادع، تحركه ثورات عاطفية جامحة، ولا يكترث بشىء سوى إرضاء نزواته الوقتية[١].

وإذا ما رجعنا إلى قصته ـ كما تقدمها التوراة فى الإصحاحات من الثالث عشر إلى السادس عشر من سفر القضاة ـ لرأينا فيها الكثير من المبالغة والخيال فضلاً عما تقدمه عن شخصية صاحبها، وما فيها من عورات، إلى جانب الكثير من الأساطير التى تدور حول قوته الخارقة، فهو مرة يهجم على أسد فيشقه كشق الجدى، وليس فى يده شىء[٢]، وهو مرة أخرى يحرق محاصيل الفلسطينيين بأن يطلق عليها ثلاثمائة ثعلب (ابن آوى)، ربطت بالمشاعل فى أذيالها، فتحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون[٣]، وهو مرة ثالثة يهجم على الفلسطينيين فيقتل منهم ألف رجل بعظم من فك حمار ميت[٤].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٣-١٤.
(٢) قضاة ١٤: ٥-٦.
(٣) قضاة ١٥: ٤-٥.
(٤) قضاة ١٥: ٥-١٧.

وهو مرة رابعة يدخل عند امرأة زانية في غزة، ويعرف بذلك أهل المدينة من قومها، فيعدون كميناً لقتله عند باب المدينة، ولكن شمشون يقوم في نصف الليل، فيأخذ «مصراعي باب المدينة والقائمتين وقلعهما مع العارضة ووضعهما على كفته، وصعد بهما إلى رأس الجبل الذي في مقابل حبرون»[١].

ونقرأ في الإصحاح السادس عشر من سفر القضاة، عن قصة شمشون ودليلة، وكيف وقع في حبها وأسلم لها زمام قيادته، حتى قادته آخر الأمر إلى السجن بعد أن قصت شعره الذي يكمن فيه سر قوته، إذ «لم يعلو رأسه موسى، لأنه نذير الله من بطن أمه، فإن حلق شعره تفارقه قوته، ويصبح كأحد الناس» غير أنه سرعان ما يستعيد قوته بعد أن نبت شعره، فيقتل من الفلسطينيين ثلاثة آلاف قد اجتمعوا في بيت إلههم «داجون»[٢].

وهكذا تبدو روايات التوراة عن شمشون، وكأنها من نوع القصص الشعبي، أو الفولكلور البدوي، وحتى في هذا فهي ليست أصيلة، وإنما هي تقليد لأساطير شرقية، وأخرى غربية، فملا نرى أن العبريين إنما كانوا يعتقدون أن قوة شمشون المهولة إنما كانت تكمن في شعره، وأن مجرد حلق خصلات شعره الطويلة الشعثاء التي كانت تتدلى على كفتيه - ولم تحلق منذ نعومة أظافره - إنما كان كافياً لأن يسلبه قوته الخارقة للعادة، ومن ثم يصبح عاجزاً عن القيام بأعماله البطولية، وهذا الاعتقاد في أن بعض الأحياء من الرجال والنساء، وبخاصة هؤلاء الذين يعتقدون في امتلاكهم لقوة خارقة للعادة مثل شمشون، ينتشر في جهات كثيرة من أنحاء العالم، كما في جزيرة «أمبوينا» من جزر الهند الشرقية وغيرها[٣].

---

(١) قضاة ١٦ : ١-٣.

(٢) قضاة ١٦ : ٤-٣٠.

(٣) انظر: جيمس فريزر، المرجع السابق، ص ١٦-٣٠.

وأيًا ما كان الأمر، فالذى يقرأ قصة شمشون - كما ترويها التوراة - ليرى أمورًا تدعو إلى العجب والتساؤل، إن لم يكن الاستنكار كذلك، فرغم أن شمشون كان بطلان قوميًا لليهود، مهمه الأولى الحفاظ على الكيان القومى لبنى قومه، فإنه يتزوج من امرأة فلسطينية من «تمنة» - وهى تبنة الحالية على مبعدة ثلاثة أميال جنوبى غربى بيت شمس. وفى ذلك مخالفة لمركزه كزعيم قومى، فضلاً عن مخالفته الصريحة لنصوص التوراة التى تحرم الزواج من غير الإسرائيليات، هذا إلى جانب أن فى ذلك عصيانًا لوالديه اللذين رفضا هذا الزواج، ثم اضطرا إلى قبوله على غير رغبة منهما.

ثم هو نذير الربّ من البطن إلى يوم موته، ومع ذلك فهو - طبقًا لرواية التوراة - إنما يقضى أجمل أوقاته بين أحضان الغوانى من نساء غزة الوثنيات وحين تتعرض حياته للخطر من جراء ذلك، فإذا به ينتقل إلى أحضان امرأة أخرى - فى وادى سورق تدعى دليلة تكون نهايته على يديها.

وهو مكرس لتحرير قومه اليهود من نير الفلسطينيين، ولكنه لا يخوض المعارك من أجل ذلك، وإنما كانت مغامراته كلها من أجل النساء، فقصة الأسد الذى أخذه بين يديه ففسخه وقتله، إنما كانت وهو فى الطريق إلى المرأة التى فى تمنة، مع ما فى ذلك من مخالفة لربّه يهوه، ثم يقضى أوقاته معها فى الألغاز والأحاجى، ثم يحرق محاصيل الفلسطينيين حين تؤخذ منه تلك المرأة غصبًا، فيثور قومه اليهود على فعلته هذه، خوفًا من أن يأخذ الفلسطينيون بثأرهم منهم، فإذا بهم يوثقونه بحبلين ويسلمونه للفلسطينيين فتصوره التوراة، وكأن روح الربّ قد حلت به فيقتل منهم ألف رجل، بعظم من فك حمار ميت، وهو يقضى الليل إلى منتصفه عند امرأة زانية من غزة، وعند يحيط قومها به بغية التخلص منه فإذا به وقد أظهر كل قوته، وهو النذير الذى وضع سر قوته فى شعر رأسه، ولكنه لا يستطيع كتمان سره فيبوح به لدليله، وهو بين أحضانها فتكون نهايته المحزنة.

وهكذا انتهت حياة شمشون دون أن يغير من الأمر شيئاً، فلقد استمر الفلسطينيون أصحاب الكلمة العليا في البلاد، بفضل تفوقهم في السلاح وبراعتهم في استخدام الحديد، وفي صنع أسلحة الدفاع والهجوم، وهكذا أجبر الإسرائيليون على الخضوع للفلسطينيين، الذين تعودوا على الحياة الجبلية في مواطنهم الأصلية، ثم اقتفى الفلسطينيون آثار الإسرائيليين إلى المناطق القليلة الحصينة، التي لم يتمكن الكنعانيون ـ وكذا المصريون ـ من الوصول إليها.

ولقد كان لعظمة الأسلحة الفلسطينية ـ بما فيها من عجلات وتروس ضخمة مستديرة، وسيوف عظيمة ورماح ضخمة ـ التفوق على الأسلحة المتواضعة للساميين، مما كان له الأثر الواضح في إخضاع فلسطين، وتبين قصة «جالوت» (جليات) التأثير الشائع بين الإسرائيليين لمدى الأسلحة الضخمة لهؤلاء الذين أخضعوهم، وربما كان لامتلاك الأسلحة الأثر الطبيعي في النصر الكامل للفلسطينيين.

ومع ذلك لم يبذل الفلسطينيون أية محاولات للعمل على تأسيس مستعمرات فلسطينية في المرتفعات، وكانت «جت» أبعد مستعمراتهم في داخل البلاد على المنحدر الغربي، باستثناء اللد وزكلاج، وربما كان ذلك بسبب العداء الخطير للسكان العبرانيين المستقرين في الداخل، وربما لأن الغزاة الفلسطينيين فضلوا أن يؤسسوا مدنهم في أماكن قريبة من البحر، والتي يمكنهم عن طريقها أن يسطروا على الطرق البحرية وتلال الكروم، ثم الأراضي المرتفعة الداخلية[1].

١٤ ـ عالي الكاهن:

وفي حوالي عام ١٠٥٠ق.م، أصبح عالي الكاهن قاضياً لإسرائيل في

(١) R. Hall, op.cit., p. 115-116.

وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 558, 570-71.

«شيلوه»، ولمدة ٤٠ سنة[1]، لم يستطع بنو إسرائيل أثناءها أن يوقفوا قوة الفلسطينيين، ومن هنا اضطر الإسرائيليون أن يناضلوا من أجل حريتهم ومن أجل عقيدتهم، وبدأت القبائل تضطر لحسم الخلافات الداخلية، وأن تتحد كجبهة داخلية، وقد أدى هذا النضال، وأدى نجاحهم فيه، إلى قيام الملكية الإسرائيلية في فلسطين، بعد أيام عالى الكاهن، وفي أثناء حياة صموئيل النبي.

كانت أولى المعارك الكبيرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين في «أفيق» ـ ومكانها الآن تل المخمر الحديثة، قرب رأس العين، وعلى مبعدة ١٥ كيلو متراً شرق حيفا ـ والتي أدت إلى الغزو الفلسطيني لأواسط الأرض، وهي المنطقة التي كان يشغلها سبطا أفرايم وبنيامين، ذلك أن الإسرائيليين إنما كانوا قد جمعوا قواتهم في «أفيق» في المجرى الأعلى لنهر العوجه، الذي ينساب نحو البحر المتوسط شمالي يافا.

وتقع أفيق على الحدود الشمالية للمناطق الإسرائيلية، وهو مكان موات للهرب في أي هجوم على جبال وسط فلسطين، التي ترتفع بالقرب من شرق أفيق، حيث استقرت القبائل الإسرائيلية الرئيسية فيها، ومثل هذا الهجوم من الواضح أنه كان هدفهم، ذلك لأن الفلسطينيين بالتأكيد هم الذين أخذوا زمام المبادرة، وقد أتموا ـ ومعهم جماعات من شعوب البحر الأخرى ـ السيادة على السهل الساحلي، الذي كانت تحتله دويلات المدن الكنعانية، ومن ثم فقد كانوا مضطرين لإخضاع القبائل الإسرائيلية، إذا ما رغبوا في بسط سيادتهم على كل البلاد، وفي مواجهة هذا الخطر تجمع الإسرائيليون في مكان يدعى «إبنزير» Ebenezer على حافة الجبال في مواجهة أفيق.

---

(١) W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1953, p.104-108.

وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 571.

ومن المستحيل القول بالتأكيد، من اشترك فعليًا من الجانب الإسرائيلي، فربما كان المشتركون الأساسيون قوة الحرس الوطني من قبيلة أفرايم، التي كانت أكثر القبائل تهديداً من أفيق، ولكن القبائل الإسرائيلية المجاورة في جبال فلسطين الوسطى، لابد وأنها قد ساهمت بقدر ما، كما ساهمت بعض القبائل الأخرى لمواجهة هذا الخطر[1].

وقد بدا للإسرائيليين في هلعهم أن النصر ضد هذا العدو الذي لايقهر، لن يتحقق إلا عن طريق عون خارق للعادة، ومن هنا فقد أحضروا معهم «التابوت» المقدس من «شيلوه»، ليضمنوا وجود ربهم بينهم[2]، ولعل وجود التابوت بين معسكر الإسرائيليين، يعني أن كل تحالف للقبائل الإسرائيلية إنما كان موجوداً هنا ضد الفلسطينيين، وعلى قدر ما نعرف من القصة، فقد كانت المرة الأولى التي يتقدم فيها التحالف القبلي الإسرائيلي للدفاع عن إسرائيل، ولعل السبب في ذلك أنها المرة الأولى التي يتعرض فيها الوجود الإسرائيلي ذاته للتهديد بقوة الفلسطينيين.

وفي الحقيقة فلقد كانت هناك معركتان ضد الفلسطينيين، وعندما فشلت الفرق الإسرائيلية التي اشتركت في الدفاع عند «حجر المعونة» قريبًا من المصفاة، فإنها سرعان ما استدعت كل تحالف القبائل الإسرائيلية استعداداً للجولة الثانية وجاءوا معهم هذه المرة بتابوت عهد الربّ، إذ «أرسل الشعب إلى شيلوه، وحملوا من هناك تابوت عهد الرب الجنود الجالس على الكروبيم، وكان هناك ابنا عالي حفني وفينحاس مع تابوت عهد الله»، وكان الهدف من وراء ذلك أن يعمل «يهوه» صاحب التابوت في صفهم، وخاف الفلسطينيون من «هؤلاء الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات البرية»[3]

وهنا نادى مناد من الفلسطينيين، أن «تشددوا وكونوا رجالا أيها

---

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 571. وكذا: M. Noth, op.cit., p. 165-166.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 14.

(٣) صموئيل أول ٤ : ٤، ٨.

الفلسطينيون، لئلا تستعبدوا للعبرانيين، كما استعبدوا هم لكم، فكونوا رجالا وحاربوا»[1]، وحارب الفلسطينيون بشجاعة الرجال، وكتب لهم النصر على أعدائهم الإسرائيليين، وكانت الضربة عظيمة جداً، وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل، وأخذ تابوت الله، ومات ابنا عالى، حفنى وفينحاس، مما أثار فى نفوس بنى إسرائيل عظيم التشاؤم والذعر، وجعلهم يمزقون ثيابهم وينوحون فى كل بيت، ولما وصل الخبر إلى عالى الكاهن، «سقط عن الكرسى إلى الوراء، إلى جانب الباب، فانكسرت رقبته ومات، لأنه كان رجلا شيخاً وثقيلا، وقد قضى لإسرائيل أربعين سنة»[2].

وكانت نتيجة هذه الهزيمة مروعة، حتى أن النبىّ إرميا يقول ـ بعد أربعة قرون ـ «إن معبد شيلوه الذى كان مقر التابوت إنما قد دمر، وأنه حتى عصره (٦٢٦-٥٨٠ق.م) كان يمكن رؤية خرائب المعبد[3]، وفى كل الاحتمالات، فإن هذا الدمار، إنما قد قام به الفلسطينيون بعد انتصارهم فى «ابنزير» الذى أعطاهم الحيرة فى الهبوط إلى «شيلوه»، وبعد أن وقع التابوت نفسه فى أيديهم، فإنهم قد دمروا المبعد الذى كان مقراً له، وهاجر كهنة شيلوه إلى «نوب»[4] ويظن أنها على جبل المكبر، أى جعل سكويس، الذى يقع إلى الشمال الشرقى من القدس[5].

وهكذا دمر الفلسطينيون المعبد الرئيسى الذى كان يجمع القبائل الإسرائيلية جميعًا، كما أنهم أخضعوا قبائل بنى إسرائيل نفسها

---

(١) صموئيل أول ٤: ٩.

(٢) صموئيل أول ٤: ١١، ١٨.

(٣) إرميا ٧: ١٢، ١٤، ٢٦: ٦، ٩؛ وكذا:

W.F.Albright, Archaeology and the Religion of Israel, p. 103F, 202.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 166;

وكذا: H. Kjaer, in JPOS, Io, 1930, p. 87F.

(٥) قاموس الكتاب المقدس، ٢/٩٨١، (بيروت ١٩٦٧).

لسلطانهم[١]، وأقاموا الثكنات العسكرية فى المناطق العبرانية، والنصب فى «جبعة بنيامين»[٢] - وهى تل الفول التى تقع على مبعدة خمسة كيلو مترات شمالى أورشليم - وعلى أى حال فسواء أكانت هذه النصب تشير إلى حاكم، أو أنها فى أكثر الاحتمالات، إنما تشير إلى نصب تذكارى للنصر، فلقد أكد الفلسطينيون سيادتهم على أكثر مناطق إسرائيل أهمية[٣].

وأيًا ما كان الأمر، فلابد أن الفلسطينيين قد احتلوا الجبال الرئيسية فى غرب الأردن، ونزعوا سلاح إسرائيل، حين منعوهم من صناعة أسلحة جديدة، وذلك عن طريق منع الإسرائيليين من العمل فى المعادن، حتى يجبروهم على الذهاب إلى الفلسطينيين لطلب ما يحتاجون من الأدوات الخاصة حتى بالاستعمالات الزراعية والسلمية الأخرى، وهكذا قوى الفلسطينيون امتيازاتهم السياسية عن طريق تفوقهم فى السلاح، وضعف أعدائهم فيه، بل منعه عنهم، هذا فضلا عن القضاء على فكرة الثورة بين الإسرائيليين[٤].

---

(١) M.Noth, op.cit., p. 166-167.

وكذا: H. Kjear, The Excavation of Shilo, in JPOS, Io, 1930, p. 50.

(٢) صموئيل أول ١٠: ٥، ١٣: ٣.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 572.

وكذا: A. Lods, op.cit., p. 350.

(٤) صموئيل أول ١٣: ١٩-٢٢، وكذا: O.Essfeldt, op.cit., p. 571.

وكذا: G.E.Wright, Isamuel 13: 19-22, in Biblical Archaeologist, 6, 1943, p. 33F.

الباب السابع
الملكية الإسرائيلية



الفصل الأول

قيام الملكية الإسرائيلية

يرى «شتاد» أن إسرائيل لم يقدر لها يومًا أن تبسط سلطانها على الضفة الغربية من الأردن، ذلك لأن الشاطئ - فيما عدا شقة ضئيلة - ظل في أيدي الكنعانيين، الذين كانوا في فترة الخروج من مصر شعبًا منظمًا، ناجحًا مسيطرًا على التجارة، بل إن التأثير الثقافي والمادي لمدن عكا وصور وصيدا، على الأقاليم الداخلية، بلغ حدًا يعوق دون انتصاص الكنعانيين بواسطة المهاجرين الإسرائيليين، ويعوق بالتالي تكوين حلف من أسباط إسرائيل وقبائلهم في الشمال[1].

ومن هنا فقد كان الكنعانيون في ناحية، والفلسطينيون في ناحية أخرى، يضعون بني إسرائيل بين شقي الرحى، كذلك كان المديانيون والمؤابيون والعمونيون والآراميون لا يكفون عن الإغارة على حدود إسرائيل، وكانت الفرقة حينئذ تمزق إسرائيل من الداخل، وفي ختام الألف الثانية قبل الميلاد كانت إسرائيل في اضمحلال يكاد يكون تامًا[2].

ومن هنا كان لابد أن يتطلع بنو إسرائيل إلى الوحدة وأن يعتصموا بها، وإلا ذهبت ريحهم وطردوا من فلسطين، كان يجب القضاء على الفوضى الضاربة أطنابها بين بني إسرائيل وتحقيق الوحدة، كان غير مجد للتفكير في الحفاظ على البلاد من غارات الشعوب المجاورة، طالما كان كل سبط مكتفيًا بالحفاظ على كيانه، ويصد أعداءه وقتيًا، دون أن يبالي بحالة الأسباط المجاورة، فضلا عن حالة البلاد بصفة عامة، كان يجب أن تكون إسرائيل شعبًا واحدًا تحفزه غيرة مشتركة نحو استقلاله واستقامته[3].

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٤٧؛ وانظر:

B. Stads, Geschichte des Volkes Israel, Berlin, 1887.

(٢) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٤١؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 570.

(٣) ف. ب. ماير، حياة صموئيل النبي، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٧، ص ٦٥.

وهكذا تجمعت العوامل الضرورية لقيام الملكية الإسرائيلية، والتي كان منها (أولا) ضغط الفلسطينيين على الإسرائيليين والذى كان واحداً من أقوى العامل لتجميع قوى بنى إسرائيل، وإنشاء مملكة، وتنصيب ملك عليهم ومن ثم فقد اهتبل الإسرائيليون فرصة اشتداد الحرب بينهم وبين الفلسطينيين فأنشأوا لهم مملكة، وربما كان الأصح أن تهديد الفلسطينيين للكيان الإسرائيلى من أساسه، إنما كان هو السبب فى قيام الملكية الإسرائيلية.

ومنها (ثانيًا) أن الإسرائيليين إنما كانوا يعيشون بين أقوام يحكمون بملوك، فالآدوميون والعمونيون والمؤابيون كان لهم ملوك، والفلسطينيون كان لهم أقطاب أشبه بالملوك، كما كان للفينيقيين ممالك مدن، مما دفع بنى إسرائيل إلى المطالبة بملك يحارب حروبهم، ويكون لهم قاضياً كذلك.

ومنها (ثالثًا) أن الكهنوت الإسرائيلى إنما كان قد تسلمته أياد ضعيفة منذ أيام «فينحاس»، ومما يؤيد هذا أن «عالى» لم يكن من بيت «اليعازر» الابن الأكبر لسيدنا هارون عليه السلام، والذى يجب أن تستمر الخلافة فى نسله، بل من بيت الابن الأصغر «ايثامار».

ومنها (رابعًا) أن ولدى «عالى»، «حفنى» و«فينحاس»، لم يكتفيا بطمعهما الجشع، بل كانا يرتكبان أقذر أنواع العبادة الوثنية وسط غابات وكروم «شيلوه»، ذلك أن الطقوس الشهوانية الدنسة، إنما كانت تمارس فى الأعياد الوثنية منذ القدم، ولكنها لم تكن تدنس الكهنة من نسل هارون، غير أن هذين الشابين إنما قد تسفلا جداً، حتى أنهما - رغم أنهما كانا متزوجين - لم يترددا عن إفساد النسوة اللاتى كن يترددن على المعبد المقدس، للقيام بالخدمات التى كانت تتطلب عملا يليق بالنساء[١]، وسمع «عالى» بكل ما فعله بنوه بجميع بنى إسرائيل، وبأنهم كانوا يضاجعون

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢، ٣٥.

النساء المجتمعات فى خيمة الاجتماع[١]، ولكنه بدلا من إعلان الغضب الشديد، والتهديد العنيف اكتفى بهذا التوبيخ اللطيف، «فقال: لماذا تعملون هذه الأمور، لأنى أسمع بأموركم الخبيثة من جميع هذا الشعب، لا يبنى، لأنه ليس حسناً الخبر الذى أسمع، تجعلون شعب الربّ يتعدون»[٢].

ومنها (خامساً) أن الإسرائيليين ربما كانوا على علم بمحاولات سابقة عن قيام ملكية إسرائيلية، كما حدث على أيام جدعون وولده أبيمالك، ومنها (سادساً) أن هناك نصاً فى التوراة يجعل الحكم فى إسرائيل ملكياً، إذ جاء فى سفر التثنية، «متى أتيت إلى الأرض التى يعطيك الربُّ إلهك وامتلكتها وسكنت فيها، فإن قلت اجعل علىّ ملكاً كجميع الأمم الذين حولى، فإنك تجعل عليك ملكاً، الذى يختاره الربُّ إلهك، من وسط إخوتك تجعل عليك ملكاً، لا يحل لك أن تجعل عليك رجلا أجنبياً ليس هو أخاك»[٣]، ومن ثم فالملكية الإسرائيلية إذن هى: هبة من «يهوه» ربّ إسرائيل لشعبه إسرائيل[٤].

ومنها (سابعاً) التهديد العمونى لحدود إسرائيل الشرقية، ولعل هذا السبب بجانب التهديد الفلسطينى وتدميره الكثير من المدن الإسرائيلية - إنما كان السبب المباشر لقيام الملكية الإسرائيلية، ذلك لأن الملأ من شيوخ إسرائيل إنما كانوا فى خوف شديد، من أن يتفوق القوم مرة أخرى بعد موت «صموئيل النبىّ»، بخاصة وأن ولديه «يوئيل وأبيا» اللذين كانا قد اختارهما لمساعدته فى أقصى حدود المملكة من الجنوب فشلا فشلا ذريعاً فى مهمتهما، «فلم يسلكا فى طريقه، بل مالا وراء المكسب وأخذا رشوة

(١) صموئيل أول ٢: ٢٢.
(٢) صموئيل أول ٢: ٢٣-٢٤.
(٣) تثنية ١٧: ١٤-١٥.
(٤) S. Mowinckel, General Oriental and Specific Israeelite Elements in the Israelite Conception of the Sacral Kingdom, 1959, p. 66.

وعوجا للقضاء»[1]، وهكذا أدى التهديد الخارجي، والاضطراب الداخلي، إلى أن يضطر شيوخ إسرائيل إلى الاجتماع، والمطالبة بتتويج ملك على شعب إسرائيل.

وعلى أي حال، فإن تأسيس الملكية الإسرائيلية، إنما يعد بداية تاريخ الأمة الإسرائيلية، حيث أخذت صفات قومية واضحة تتكون لديهم احتفظوا بها وبفرديتهم، وقد ساعدتهم على الاتحاد والتعاون، وزادت من تصرفهم في شعورهم القومي، ذلك لأن عصر القضاة كان قد مضى، ولم يصبح بعد للإسرائيليين إلا شبه ظل من سلطان ضئيل في فلسطين، ولم تستطع فيه واحدة من القبائل، إلا أن تدافع بمشقة على ما استولت عليه من قطعة أرض صغيرة.

هذا فضلا عن أنه لم يكن واحد من هؤلاء القضاة بقادر على أن يبسط سلطانه على كل بني إسرائيل، وإنما كان يتسلم قيادة زمرة واحدة عندما تهدد هذه الزمرة تهديداً مباشراً، وهو إذا ما كتب له النصر لم يحتفظ حتى بقيادة تلك الزمرة، ذلك لأن مهمة القاضي إنما كانت تنتهي بانتهاء الضائقة الخاصة التي استدعت وجودها، ولم تدم إلا في حالتين أو ثلاث حالات، إذا دعت إلى بقائها أعمال بارزة قام بها القاضي، كما حدث في حالتي دبورة وجدعون.

ومع ذلك، فإن هذه الملكية الإسرائيلية الجديدة لم تستقر إلا على أسس مقتبسة من الخارج، فضلا عن أن الإسرائيليين إنما قد ظلوا محتفظين بالنظام القبلي فيما يختص بالشئون الإدارية، كما يبدو أن الإسرائيليين كانوا مكرهين بحكم الظروف على أن يتجهوا هذا الاتجاه، فلقد صورت لنا التوراة قبائلهم مترددة بين الحرية القديمة وبين الزعامة الجديدة، كانت تعز عليها حرية البدو القديمة، ويدفعها الخوف من العدو بالرضى بالأمر الواقع، يظهر

---

(1) صموئيل أول ٨: ١-٣.

هذا واضحًا من تحذيرات النبىّ صموئيل من الأضرار التى تنجمُ عن خضوعهم لحكم رجل واحد.

هذا فضلا عن أن هذه الملكية الإسرائيلية تكاد لا تملك شيئًا - باستثناء الاسم - مع الحكم الملكى للمدينة الكنعانية وفرسانها الشجعان الذين يمتطون العربات الحربية، كما أن نظام الحكومة الفلسطينى المؤسس على جيش محترف، وعلى نظام الجيوش المرتزقة، والذى أثبت فاعليته كعامل هام فى الصراع ضد الإسرائيليين، لا يمكن تقليده فى ليلة واحده[1].

كان صموئيل النبىّ، هو الذى اتخذ الخطوة الأولى لقيام الملكية فى إسرائيل، كان نبيًا كبقية الأنبياء الجوالين الذين عهدناهم من قبل، والذين كانوا يحملون لقب «الرائى»، قبل أن يظهر لقب «النبى»[2]، ولكنه كان يمتاز عمن تقدموه بشخصيته ومظهره[3]، به بدأت فكرة النبــوة فى بنى إسرائيل[4] فى التبلور بشكل واضح، كما تتحدد صفات النبىّ فى مفهومهم، وهى صفات زعامة سياسية ودينية امتدادًا للقضاة، وإن كانت لا تسعى إلى تسلم مقاليد الحكم رسميًا، بل تبقى لتدير هذا الحكم من وراء ستار، بينما الحاكم ملك يجلس على عرشه ويبايعه رعاياه بأمر من هذا النبى[5]، ومن هنا فلم تكن عند «صموئيل» النية فى إقامة ملك مستقل حقيقة، بل كان كل ما يرجوه أن يكون قائدًا حربيًا وزعيمًا وسندًا لكل الشعب يخلصهم من

---

(١) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 179.

(٢) صموئيل أول ٩: ٩؛ وانظر: م.ص. سيجال، حول تاريخ الأنبياء عند بنى إسرائيل، ترجمة حسن ظاظا، بيروت، ١٩٦٧، ص ٩-١٨.

(٣) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، ص ٢٥٥.

(٤) قدّم المؤلف دراسة مفصلة عن «تطور فكرة النبوة عند بنى إسرائيل» وذلك فى كتابه «النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل»، الإسكندرية، ١٩٧٨م.

(٥) حسن ظاظا، الفكر الدينى الإسرائيلى، القاهرة ١٩٧١، ص ٤٠.

الفلسطينيين، ثم بعد ذلك يخضع لصموئيل طوال حياته(١).

وهكذا كان «صموئيل» هو الوسيلة لقيام الملكية فى إسرائيل، ورغم ذلك نراه يتردد كثيراً فى إجابة شيوخ إسرائيل إلى ما يطلبونه، بل «لقد ساء الأمر فى عينى صموئيل»، وهنا تحدثنا التوراة أن الربَّ إنما خاطبه قائلا: «اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك، بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم»(٢).

وأنذر صموئيل الملأ من قومه بغضب الربِّ، إن هو رضى فملك عليهم ملكاً، ذلك أنه كان منتظراً أن تظهر فى ملوك إسرائيل كل مظاهر البذخ والإسراف التى كانت تقترن بها حياة الملوك السابقين، فضلا عن المجاورين لهم من الأمم التى لها ملوك، كان منتظراً أن يسخروا الشباب لصنع الأسلحة وحملها، والاشتباك فى الحروب، وخدمة العرش، وكان منتظراً كذلك أن يسخروا بنيهم لفلاحة أراضيهم، وأن يأخذوا من بناتهم وزوجاتهم «عطارات وطباخات، وخبازات»، وكان منتظراً أن تفرض الضرائب الثقيلة على الحقول والكروم وحتى البهائم والغنم(٣).

ولكن احتجاج صموئيل كان عديم الجدوى، فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل، وقالوا: لا بل يكون علينا ملك، فنكون نحن أيضًا مثل سائر الشعوب، ويقضى لنا ملكنا، ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا»(٤) واضطر صموئيل أن يخضع لإرادة شعب إسرائيل وأن يتكلم به فى أذنى رب إسرائيل، فقال الربُّ: اسمع لصوتهم، وملك عليهم ملكاً، فقال صموئيل لرجال إسرائيل: اذهبوا كل واحد إلى مدينته(٥)، ثم سرعان ما ينتهى الأمر إلى اختيار «شاؤل بن قيس» من سبط بنيامين، ملكاً على إسرائيل، كما سوف نرى فى الفصل التالى.

---

(١) H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, London, 1963, p. 424.

(٢) صموئيل أول ٨: ٦-٧.

(٣) صموئيل أول ٨: ١٠-١٥.

(٤) صموئيل أول ٨: ١٩-٢٠.

(٥) صموئيل أول ٨: ٢١-٢٢.

الفصل الثانى

شاؤل (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق.م)

(١) اختيار شاؤل ملكاً:

يحكى الإصحاحان التاسع والعاشر من سفر صموئيل الأول: قصة اختيار «شاؤل بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح»، من سبط بنيامين ملكاً على إسرائيل، من قبل النبىّ صموئيل.

وقد وصف «شاؤل» فى التوراة بأنه «شاب وحسن، ولم يكن فى بنى إسرائيل أحسن منه، من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب، وقد كان أن ضلت «أتن» أبيه، فأرسل معه غلامه ليبحث عنها، فلما بعدا عن خيام قبيلته بنيامين وأرضها، ودخلا فى أرض «سوف» فيما وراء حدود بنيامين، أيقنا أنهما ضلا الطريق، وطلب شاؤل من تابعه وفتاه أن يعودا، «لئلا يترك أبى الأتن ويهتم بنا» ولكن تابعه إنما أشار عليه أن يتقدما إلى صموئيل ليسألاه أن يدلهما على الطريق[١].

وهنا كان اللقاء الأول بين شاؤل وصموئيل، فى مكان غير مسمى فى مجاورات «جبعة»، حيث مسح صموئيل الرائى باسم «يهوه» شاؤل رئيساً على ميراثه إسرائيل، ثم استدعى صموئيل الشعب فى «المصفاة» - على مبعدة خمسة أميال إلى الشمال الشرقى من أورشليم - حيث أعلن اختيار الربّ لشاؤل، ووافق المجتمعون على هذا الاختيار، إلا ما كان من أمر «بنى بليعال» الذين ازدروه، «وقالوا: كيف يخلصنا هذا فاحتقروه، ولم يقدموا له هدية فكان كأصم»[٢].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرآن الكريم قد تعرض

---

(١) صموئيل أول ٩: ١-١٠.

(٢) صموئيل أول ١٠: ١١-٢٧.

لقصة اختيار «شاؤل» (طالوت في القرآن الكريم) ملكاً على بني إسرائيل، حيث يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم، والله عليم بالظالمين، وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾[1].

وفي الواقع فإن اختيار شخص بالذات ليكون ملكاً على إسرائيل ليس أمراً سهلا، ذلك لأن اختياره من إحدى القبائل القوية إنما كان فيه ما فيه من مساس بقدر القبائل الأخرى، وقد يثير حرباً أهلية، هذا إلى أن المعارك الأخيرة - والتي دارت رحى الحرب فيها بين الإسرائيليين والفلسطينيين - إنما قد حطمت من قوة «أفرايم» إلى حد كبير - وهي القبيلة التي كانت

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٦-٢٤٨؛ وانظر: تفسير الطبري ٥/٢٩١-٣٣٨، (دار المعارف، القاهرة ١٩٥٧)؛ تفسير روح المعاني ٢/١٦٦-١٦٨؛ في ظلال القرآن ٢/٢٦٦-٢٦٩، (بيروت ١٩٧٢)؛ تفسير القرطبي، ص ١٠٥١-١٠٥٨، (دار الشعب، القاهرة ١٩٦٠)؛ تفسير الكشاف ٦/٣٧٨-٣٧٩، (دار الكاتب العربي، بروت)؛ تفسير الفخر الرازي، ٦/١٨١- ١٩٢٥، (المطبعة البهية، القاهرة ١٩٣٨)؛ تفسير الطبرسي، ٣/٢٧٥-٢٧٩، (دار الكاتب العربي، بيروت)؛ تفسير الفخر الرازي، ٦/١٨١-١٩٢، (المطبعة البهية، القاهرة ١٩٣٨)؛ تفسير الطبرسي ٣/٢٧٥-٢٨٤، (بيروت ١٩٦١)؛ تفسير القاسمي ٣/٦٤١-٦٤٧، (طبعة الحلبي، القاهرة ١٩٥٧)؛ تفسير وجدي، ص ٥٠-٥١، (دار الشعب، القاهرة ١٩٦١)؛ تفسير الجلالين، ص ٤٣-٤٤، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ تفسير المنار، ٢/٣٧٢-٣٧٢، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣)؛ تفسير ابن كثير ١/٤٤٣-٤٤٦، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧١).

سيادتها حتى تلك الفترة لا نزاع عليها ـ هذا فضلا عن أن اختيار واحد من بين أبناء القبائل الأرستقراطية إنما كان أمراً لا يقبله الآخرون بسهولة[١].

ومن هنا كان اختيار «شاؤل» موفقاً، فبالإضافة إلى مميزاته الجسمانية ـ وكذا العلمية، كما جاء في القرآن الكريم ـ فقد كان من سبط «بنيامين» أضعف الأسباط الإسرائيلية، مما لا يسبب له حقداً من الأسباط الأخرى[٢] ذلك أن التوراة إنما تتحدث ـ في الإصحاحات من التاسع عشر إلى الحادي والعشرين من سفر القضاة ـ عن حرب استعر أوارها بين سبط بنيامين والأسباط الأخرى، مما أدى إلى قتل جميع أبناء بنيامين أو يكاد، ثم قدمت الأسباط على ما فعلت، فأباحت لهم الزواج، وسمحت البقية الباقية منهم بالعودة إلى مناطقهم الأولى، ورغم ما في القصة من مبالغات لا يقبلها عقل، وربما اصطنعت لتضييع سبطاً من الأسباط، وتقضي عليه بالفناء، ورغم ما فيها من تضارب قد يجعلها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة التاريخية[٣]، فالذي لا شك فيه أن سبط بنيامين إنما كان واحداً من الأسباط الضعيفة في بني إسرائيل، هذا فضلا عن أن خيامه إنما كانت تقع بين أفرايم ويهوذا، أي أنها تقع في مكان وسط إلى حد ما بين القبائل الشمالية والجنوبية.

وهكذا يبدو واضحاً أنه ليس صحيحاً ما ذهب إليه الحاخام الدكتور «أبشتين» من أن اختيار «شاؤل» ملكاً على إسرائيل، إنما كان نتيجة رضى عام من بني إسرائيل، كما أنه إنما يعتبر أول ملك دستوري في التاريخ[٤]، ذلك لأن الأحداث التاريخية لا تتفق وما ذهب إليه «أبشتين»، فالإسرائيليون لم يختاروا شاؤل، وإنما كان ذلك من صموئيل النبي، اعتماداً على سلطته

(١) W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 179.

(٢) W. Keller, op.cit., p. 179.

(٣) انظر كتابنا: إسرائيل، ص ١٣٢-١٣٤، (القاهرة ١٩٧٣).

(٤) I. Epstein, op.cit., p. 35.

الكهنوتية حيث فرضه على الشعب كممثل معتمد لربِّ إسرائيل، هذا فضلا عن القوم لم يقبلوه جميعًا، فلقد رفضه «بنو بليعال» - كما رأينا من قبل - بل إنهم، على حد تعبير التوراة «قد احتقروه ولم يقدموا له هدية»، كما أن اختياره كان تجنبًا للحرب الأهلية التى كان من الممكن أن تنشب بين القبائل القوية، لو وقع الاختيار على واحد من أبناء الواحدة دون الأخرى، ومن هنا كان اختياره من أضعف أسباط بنى إسرائيل.

وأما أن «شاؤل» كان أول ملك دستورى فى التاريخ، فمبلغ علمى أن الأمر لم يكن كذلك، ذلك أننا لو تذكرنا أن اختياره إنما كان قد تم فى أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد - أى قبيل الألف الأولى بأعوام قلائل - وتذكرنا فى الوقت نفسه أن هناك مبادئ ديمقراطية، قد بدأت فى العراق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، تشير إلى تواجد التفكير الديمقراطى فى بداية العصر التاريخى، وانتخاب الحاكم الذى يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتى تتكون من جميع المواطنين، وربما بما فيهم النساء كذلك[١].

هذا فضلا عن أن مصر الفرعونية، إنما قد عرفت منذ النصف الثانى من الألف الثالثة قبل الميلاد، أنماطا من الديمقراطية ومن العدالة الاجتماعية، هبطت كثيرا بالملكية المصرية من عليائها، حتى أصبح الملك يوصف، بأنه ليس أكثر من «ابن امرأة من تاستى، طفل من خن نخن»[٢] مرة، وبأنه «ابن الإنسان» مرة أخرى، لإقناع القوم بأن حاكمهم ليس من بيوت الإمارة والملك، وإنما هو من الشعب، وربيب الشعب، وصديق الشعب[٣].

(١) رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، ص ٢٥٢؛ محمد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص ١٧٨-١٧٩، وكذا:

T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotemia, JNES, II, 1943, p. 165, no. 35.

(٢) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1961, p. 120.

(٣) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، ص ٢٠٢، (الإسكندرية ١٩٦٦)؛ أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، ص ١٢٠.

بل إننا نرى في هذا العصر ـ عصر الثورة الإجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ـ واحدا من الناس، يتهم الفرعون الجالس على العرش وقت ذاك، بأنه سبب الفوضى والإضطرابات التى عمت البلاد، ثم سرعان ما يبلغ به العنف أشده، فيتمنى للفرعون أن يذوق من البؤس ما يذوق غيره من الناس فيقول : ليتك تتذوق هذا البؤس بنفسك»[1] ومع ذلك فلم ينزل الملك عقابه بهذا الناقد الجرئ؛ وإنما كان رده أنه حاول حماية شعبه بالوقوف في وجه الأجانب الذين كانوا يهاجمون البلاد، وهكذا سمحت روح الديمقراطية في مصر في ذلك العصر، بأن يتقدم رجل من العامة بمثل هذا النقد القاسي للملك[2].

وهكذا كان القوم في مصر يعتقدون في عصر الثورة الإجتماعية الأولى، أن يكون الجالس على العرش رجلا يخدم مصالح الدولة ويرعى شئونها، ويعمل على وحدتها، رجلا يمتلئ قلبه بحب رعاياه، والرغبة في العمل من أجل مصالحهم، ومن ثم فقد اقتربت الملكية من الشعب، وأصبحت تحس بإحساسه، وتهتم به وتتفانى في خدمته[3].

وهكذا ففي الواقع أننا لو تذكرنا ذلك كله، لتبين لنا أن ما ادعاه الحاخام «أيشتين» من تمجيد لقومه اليهود، إنما كان ادعاءا عريضا إلى حد كبير.

هذا وقد احتلف العلماء في فترة حكم شاؤل، فهناك من يرى أنها إنما كانت في الفترة (١٠٢٠-١٠٠٠ق.م)[4]، ومن يرى أنها في الفترة (١٠٣٠-١٠٠٤ق.م)، ومن يرى أنها في الفترة (١٠٢٥-١٠١٣ق.م)،

(١) J. A. Wilson, ANET, p. 415.

(٢) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 115-116.

(٣) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٤) O. Eissfeldt, op.cit., p. 575.

وكذا: W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, p. 120.

ومن يرى أنها فى الفترة (١٠٠٠-٩٨٥ق.م)، ومن يرى أنها فى الفترة (١٠٢٠-١٠٠٤ق.م)(١).

(٢) شاؤل والعمونيون :

وأيا ما كان الأمر، فإن أول عمل مارسه شاؤل، إنما كان زحفه على «ناحاش» ملك عمون، ذلك لأن الملك العمونى إنما كان قد زحف على «يابيش جلعاد»(٢) فى شرق الأردن، حيث كان يقيم هناك فريق من بنى إسرائيل، ولعل السبب فى ذلك أن ظروف إسرائيل وقتئذ قد شجعت جيرانها على توسيع حدودهم على حسابها، ومن ثم فقد اهتبل العمونيون الفرصة، واحتلوا أرض جلعاد القديمة، جنوب يبوق، ثم تخطوها شمالا حيث احتلوا مدينة «يابيش» وربما كانت قاعدة من قبيلة منسى، فى الأرض التى تحتلها الآن عجلون الواقعة فى منطقة وادى يابيش، بنفس الإسم الذى كان يحمله اسم المدينة القديمة(٣).

ونقرأ فى التوراة أن أهالى يابيش كانوا من الضعف بدرجة لا يستطيعون معها الدفاع عن أنفسهم، وحين طلبوا من ملك عمون أن يؤمنهم على

---

(١) Historical Atlas of the Holy Land, N.Y., 1959, p. 81.
وكذا: I. Epstein, op.cit., p. 35.
وكذا: W. Keller, op.cit., p. 181.
وانظر: فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) يابيش جلعاد : ومكانها الآن «تل أبو خرز» شمال وادى «يبيش»، على مبعدة خمسة كيلو مترات شرق الأردن، وقد وضعها «نلسن جلوك» على مبعدة عشرة أميال إلى الجنوب الشرقى من «بيت شان» ورأى «روبنسون» أنها فى مكان خرائب الدير فى وادى «يبيش»، وقد أطلق عليها المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» عاصمة جلعاد. (قاموس الكتاب المقدس، ١٠٤٣/٢)؛ وكذا:
O. Eissfeldt, op.cit., p. 572.
وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 546.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 572.
وكذا: M. Noth, op.cit., p. 167.

أنفسهم، في مقابل أن يكونوا له عبيدا، رفض طلبهم بازدراء، إلا أن يوافقوا على تقوير كل عين يمنى لهم، وجعل ذلك عارا على جميع إسرائيل وهنا طلبوا مهلة سبعة أيام يبحثون فيها طلب النجدة من القبائل الإسرائيلية[1]، والأمر هنا في غاية الغرابة، إذ كيف يتركهم «ناحاش» حتى ترسل لهم النجدات من إسرائيل ؟ أكان ذلك نتيجة استخفاف «ناحاش» بإسرائيل ونجدتها ؟ أم أنه وليد خيال كاتبي التوراة ؟ لسنا ندري على وجه التحقيق.

وعلى أي حال، فالحادث ـ كما تقدمه التوراة ـ يصور على الأقل الموقف في شرق الأردن، فهو إنما يدل على أن العمونيين ـ رغم أنهم كانوا شعبا صغيرا ـ إنما كانوا مطمئنين إلى غلبتهم على الإسرائيليين، وهو يدل كذلك على عجز المستوطنين من سبطي منسي وافرايم بشرق الأرض، وهو يدل أخيرا على أن قوة الإسرائيليين قد شلتها تماما يد الفلسطينيين، وإن كانت تدل كذلك على أن نفوذ الفلسطينيين لم يمتد حتى بلاد شرق الأردن.

وتستطرد التوراة في روايتها، فتذهب إلى أن شاؤل ما أن يسمع بمحنة الأهالي في شرق الأردن ـ وبخاصة في يابيش جلعاد ـ حتى يستنفر إسرائيل، التي لبت نداه وجمعت جيشا كبيرا في «بازاق» ـ وهي خربة أبزق أو بزقة على مقربة من جازر، أو إبرق على مقربة من ترزة ـ على الطريق الهابط من شكيم إلى «بيت شان» في مواجهة يابيش على وجه التقريب، وعند نقطة يمكن الوصول منها إلى وادي الأردن مباشرة، ثم تقدم إلى أبعد من عجلون، إذ كان «بنو إسرائيل ثلاثمائة ألف» ورجال يهوذا ثلاثين ألفا»[2].

وزحف شاؤل بهذه الجموع الغفيرة إلى جلعاد، وأحرز نصرا باهرا،

(١) صموئيل أول ١١ : ١-٣.

(٢) صموئيل أول ١١ : ٤-١١.

وخلص يابيش، غير أن هذه الرواية التوراتية إنما تقف فى وجهها عقبات : إذ أنه من الصعوبة بمكان القيام بهذه الحملة الضخمة ـ والتى تضم ثلاثمائة وثلاثين ألفا من المحاربين ـ فى وقت كانت فيه السيادة الكاملة على كل البلاد ـ بما فيها مدينة شاؤل نفسه ـ للفلسطينيين، ولهذا فمن الصعب جدا أن يسمح الفلسطينيون للإسرائيليين بأن يجمعوا قوتهم، وأن يكونوا أمة متحدة[1]، هذا فضلا عن أن الفلسطينيين كانوا قد نزعوا من قبل سلاح القبائل الإسرائيلية جمعاء[2].

ولعل هذا هو الذى دفع «مارتن نوث» ـ أستاذ كرسى العهد القديم فى جامعة بون ـ أن يحاول تقديم تفسير لذلك، ومن ثم نراه يذهب إلى أنه ربما لم تكن هناك حاميات فلسطينية، وبالتالى لا توجد إجراءات فعلية للسيادة الفلسطينية على الحدود الشرقية لجبال غرب الأردن، وكذا فى بلاد شرق الأردن حيث وقع الحادث، ومن ثم فإن نزع السلاح لم ينفذ هناك فعلا، هذا فضلا عن أن الفلسطينيين ربما لم يكونوا مهتمين بالمنازعات التى كانت تقع بين شعوب فلسطين الأخرى، بل ربما كانوا راغبين فى وقوع هذه المنازعات، بدليل أن قوة العمونيين لم تلق منهم ترحيبا حين ازدادت عن حدها[3].

(٣) تتويج شاؤل :

ونقرأ فى التوراة أن المعركة مع العمونيين ما إن تنتهى، حتى يسرع صموئيل النبى، فيستدعى القبائل الإسرائيلية إلى مذبح الجلجال القديم لتتويج شاؤل ملكا، لقد نودى به من قبل ملكا فى «المصفاة» وكان يجب أن يتوج فى «الجلجال» ـ على مبعدة ميل وثلث شرقى أريحا ـ، «فذهب كل

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 354.

(٢) صموئيل أول ١٢ : ١٩-٢٣، وكذا: G. Roth, op.cit., p. 145.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 170.

الشعب إلى الجلجال وملكوا هناك شاؤل أمام الرب»[١]، أى فى المعبد، ومع أن التتويج إنما قد تم فى المعبد، وفى جو من التكريس الدينى، فقد كانت إسرائيل تتصرف كشعب، ولم تعد كتحالف مقدس للقبائل[٢].

وأما اختيار «مذبح الجلجال» مكانًا لاجتماع القبائل، فلأن هذا المذبح ـ بعد اختفاء المذبح السابق الذى انتهى بفقد التابوت وتدمير شيلوه ـ إنما كان المكان الصالح لعدة أسباب منها (أولا) أنه المحراب القديم المشهور على الحدود بين أفرايم وبنيامين، ومنها (ثانيًا) أنه دون شك مزار قبائل إسرائيل الوسطى، وربما سبق له أن قام بدور المحراب الإسرائيلى المركزى لفترة ما، ومنها (ثالثًا) أن موقعه إنما كان موقعًا وسطًا نسبيًا بين القبائل الإسرائيلية ومنها (رابعًا) أنه كان خارج المنطقة التى كان يتحكم فيه الفلسطينيون، ذلك لأن الفلسطينيين بينما كانوا يحتفظون بموقع المذبح الإتحادى السابق فى شيلوه تحت الرقابة الدائمة، ويحتلون وسط فلسطين، ربما لم يكن وادى الأردن ومذبح الجلجال، محتلا بحاميات فلسطينية دائمة، ومن ثم فإن ما حدث هناك بشأن تتويج شاؤل ملكًا، ربما لم يكن معروفًا للفلسطينيين بطريق مباشر أو غير مباشر[٣].

وهكذا كان اختيار «الجلجال» مكانًا لتتويج شاؤل ملكًا على إسرائيل، اختيارًا موفقًا، كما كانت لحظة انتصاره على العمونيين، هى اللحظة التى اختارها صموئيل ليتنازل عن وظيفته كقاض، وبذلك كان آخر القضاة وأول الأنبياء[٤]، ومنذ تلك اللحظة، وببداية ملكية شاؤل، بدأ بنو إسرائيل يؤلفون أمة، فاستحقوا أن تفتح لهم صفحة صغيرة عن التاريخ الحقيقى الذى كان لهم فى العالم[٥].

(١) صموئيل أول ١١ : ١٥.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 170.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 170-171.

(٤) ليس من شك فى أن المقصود هنا أول الأنبياء فى فترة الاستيطان فى فلسطين، وليس قبلها بالتأكيد.

(٥) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٣٦.

ومع ذلك فإن اختيار ملك على هذه الصورية أمر حذَّر منه ربُّ إسرائيل شعبه إسرائيل، وحاول الحدَّ من رغبتهم فى تنصيب ملك عليهم، ولكنهم أصروا على ما يطلبون، فلم يسعه إلا التسليم بذلك منذراً متوعداً، حتى لنراه فى سفر هوشع، إنما يبرأ من تنصيب ملك عليهم، قائلا: «هم أقاموا ملوك وليس منى، أقاموا رؤساء ولم أعرف»[1]، ثم يسخر منهم بعد ذلك ـ وفى نفس السفر ـ بقوله : «فأين ملكك حتى يخلصك فى جميع مدنك وقضاتك حيث قلت: أعنى ملكا ورؤساء، أنا أعطيتك ملكا بغضبى، وأخذته بسخطى»[2].

والأمر بهذه الصورة بالغ الوضوح، ذلك أن إله إسرائيل رأى أنه يكفى أن يكون هو ملكا على إسرائيل، وأنهم ليسوا فى حاجة إلى أن يكونوا كغيرهم من الشعوب ولكنهم آثروا إغضابه، فأعطاهم ملكا بغضبه، وبذلك حلت عليهم نقمته، ولعل قيمة هذه القصة لا تظهر إلا بمقارنتها بما أورده «هوشع» (٧٥٠-٧٢٢ق.م) ومدرسته، فيما بعد بالنسبة للملكية الإسرائيلية ومركزها فى إسرائيل، ومسحة العداء التى تتم بها بالنسبة إلى «ربِّ الجنود» الذى سلبت منه إحدى صفاته لتمنح لرجل من الناس[3].

ولعل تجربة الملوك الشماليين فى السامرة فى نصف القرن الأخير من تاريخ إسرائيل، هو الذى يبرر هذا العداء السافر، إذا كان لإسرائيل ـ وكذا فى يهوذا ـ فى بعض الأحايين، ملوك جد فاسدون، ومن ناحية أخرى فإن القرن الثامن قبل الميلاد، إنما يتميز بأنبياء قدموا أفكاراً جديداً تتصل بمطالب «يهوه»، وقد أعلنت هذه الأفكار أن يهوه لا يهتم كثيراً بعظمة إسرائيل ـ أو حتى بوجودها ذاته ـ وأن ما ينشده حقًا إنما هو العدالة والرحمة، هذا فضلا عن أنه طلب أن يثقوا به وحده؛ وليس فى خيول

---

(١) هوشع ٨: ٤. (٢) هوشع ١٢: ١٠-١١.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٥٧.

الحرب وفي التحالف الأجنبي، ولكن الملكية بطبيعتها إنما وجدت لتعلى من شأن الدولة، عن طريق الحرب وفنون السياسة، ومن ثم فليس من الغريب أن نجد عند «هوشع» إدانة لمبدأ الملكية نفسه، «من أيام جبعة أخطأت إسرائيل»، ووفقًا لما جاء في سفره، فإن إسرائيل لن تتحرر من «الدعارة» ـ أى من عدم الثقة فى ربّها حتى اليوم الذى لا يكون لها فيه ملوك[1].

(٤) شاؤل والفلسطينيون:

كان انتصار شاؤل على العمونيين ذا أثر طيب فى نفوس الإسرائيليين البائسين، ومن ثم فقد بدأوا يعودون إلى أنفسهم، ويتصرفون بثبات نوعًا ما، والأمر كذلك بالنسبة إلى شاؤل الذى أثبت جدارته فى المعركة، بدرجة قضت على كل الشكوك التى كانت تحيط به.

وهكذا بدأ بنو إسرائيل يستعدون للصراع ضد الفلسطينيين الذين كانوا يسيطرون على البلاد منذ انتصارهم فى موقعة «أفيق»، منذ أكثر من نصف قرن، استطاعوا فيه أن يجردوا الإسرائيليين من السلاح، حتى لنقرأ فى التوراة أنه «لا يوجد صانع فى كل أرض إسرائيل، لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفًا أو رمحًا»[2]، وبذا أصبحت صناعة المعادن ممنوعة فى إسرائيل، كما أقام الفلسطينيون القلاع فى أماكن مختلفة من البلاد للسيطرة عليها تمامًا، وكان أهمها تلك التى عند «بيت شان» للسيطرة على الطريق الموصل بين نهر الأردن ووادى يزرعيل، والتى عند «مخماس» و«جبعة» بين جبل أفرايم وأورشليم، والتى فى جنوب القدس، عند بيت لحم، هذا فضلا عن تعيين موظفين من الفلسطينيين لجمع الضرائب المفروضة على الشعب المهزوم، كما كانوا يراقبونهم من مراكز المراقبة الثابتة[3].

---

(١) هوشع ٢ : ٤، ١٠ : ٩-١٣، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 356.

(٢) صموئيل أول ١٣ : ١١.

(٣) H. R. Hall, op.cit., p. 423.

وبدأت الاحتكاكات بين الإسرائيليين والفلسطينيين، حين «ضرب يوناثان نصب الفلسطينيين الذى فى جبع»[١]، مما أدى إلى تدميرها، وكان هذا التصرف بداية للتمرد العلنى من جانب إسرائيل، ونفخ شاول فى البوق ليستدعى مواطنيه لمؤازرته، وجمع الفلسطينيون بسرعة كل ما تسمح به التعبئة العامة لقواتهم فى جبال غرب الأردن، ونقرأ فى التوراة أن جيشهم «كان ثلاثون ألف مركبة، وستة آلاف فارس، ومشاة كحبات الرمل»[٢]، وعسكرت هذه القوات فى مخماس شرق «بيت أون»، على مبعدة خمسة أميال إلى الشمال الشرقى من «جبعة»، حيث عسكر الإسرائيليون.

وسرعان ما أدرك الإسرائيليون خطورة الموقف، فضاقت بهم الأرض بما رحبت، وملأ الفزع قلوبهم، حتى «اختبأ الشعب فى المقابر والغياض والصخور والصروح والآبار، وبعض العبرانيين عبروا الأردن إلى أرض جاد وجلعاد، وكان شاؤل بعد فى الجلجال، وكل الشعب ارتعد وراءه»[٣].

وبدأ الفلسطينيون يرسلون الطلائع من جيوشهم لمراقبة ما يحيط بهم، ففرقة توجهت فى طريق عفرة - وهى الطيبة على مبعدة أربعة أميال شرقى بيتين - إلى أرض شوعال، وأخرى توجهت فى طريق «بيت حورون»[٤]، وثالثة توجهت فى طريق التخم المشرف على «وادى صبوعيم» - وهو وادى أبو ضباع الحالى، شرقى مخماس[٥] - إلى البرية[٦].

وتردد شاؤل فى الهجوم على الفلسطينيى، ولكن ولده «يوناثان» قام -

---

(١) صموئيل أول ١٢ : ٣. (٢) صموئيل أول ١٣ : ٥.

(٣) صموئيل أول ١٣ : ٦-٧.

(٤) بيت حورون: اسم عبرى معناه «بيت الرحب» أو «بيت الشارع»، ويطلق الاسم على قريتين على مبعدة ١٢ ميلا شمال أورشليم، وكانتا تدعيان بيت حورن العليا وبيت حورن السفلى، مما يقابل تسميتها الحالية «بيت عور الفوقية وبيت عور التحتة. (يوشع ١٠ : ١٠-١١، ٦ : ٣-٥؛ قاموس الكتاب المقدس، ٢٠٢/١).

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٥٣٨/٢. (٦) صموئيل أول ١٣/١٧-١٨.

ومن ورائه حامل سلاحه ـ بهجوم مفاجىء على محلة الفلسطينيين، بدون علم أبيه، «وقتلا عشرين رجلا منهم»، مما أثار الرعب بين الفلسطينيين[١]، ولست أدرى كيف حدث ذلك، والتوراة نفسها تحدثنا عن الرعب الذى ملأ قلوب إسرائيل، حين ظهرت قوات الفلسطينيين، ففريق اختبأ بين المقابر والفياض والصخور وغيرها، وفريق ولى مدبراً نحو شرق الأردن، بل إن الشعب كله إنما قد ارتعد من وراء شاؤل، وهو ما يزال بعد فى الجلجال، بل إن التوراة إنما تصف حال إسرائيل، حين ظهر «ناثان» نفسه، بأن قال الفلسطينيون: « ها هو ذا العبرانيون، خارجون من الثقوب التى اختبأوا فيها»[٢].

وانطلاقًا من هذا كله، فإن الإسرائيليين ـ وهم فى حالهم هذا ـ ما كانوا بقادرين على أن يقدموا نماذج للعمل الفدائى، حتى تجىء التوراة، فتناقض نفسها، وتخلع على يوناثان ـ وكذا خادمه ـ بطولة خارقة للعادة، فتجعلهما يقتحمان على الأعداء مواقعهم، ثم يقتلون منهم عشرين رجلا.

وأيًا ما كان الأمر، وعلى فرض أن مغامرة يوناثان إنما كانت كذلك حقًا، فقد بات من المتفق عليه، أن المعركة الحاسمة ضد الفلسطينيين قد أصبحت وشيكة الوقوع، ذلك لأن شاؤل ـ وكذا قومه اليهود ـ لم يعد لديهم أدنى ريب، فى أن الفلسطينيين لابد وأن يقوموا بجولة حاسمة لاستعادة مراكزهم المفقودة، وأن القرار الحاسم لابد وأن يتخذ سريعاً.

ورغم ذلك، بل ورغم أن الحراس الإسرائيليين قد أرسلوا بتقاريرهم معلنين أن معسكر الفلسطينيين تسوده الفوضى، فإن شاؤل لم يرغب فى اتخاذ قراره، دون مشورة يهوه، ولكن شعائر الاستشارة طالت بين الأخذ والردّ مما زاد فى هياج الجنود، فاضطر شاؤل إلى أن يقطع مشورته، وأن يطبق على الفلسطينيين، بعد أن يأمر رجاله بألا يأكلوا خبزاً حتى المساء، ثم تنتهى رواية التوراة بنصر للإسرائليين على الفلسطينيين.

(١) صموئيل أول ١٤ : ١٥.

(٢) صموئيل أول ١٤ : ١١.

وهنا يلقى الإسرائيليون الجوعى بأنفسهم على الماشية التى غنموها من الفلسطينيين، وبدأوا يأكلون منها، دون أن يذبحوا للربَّ أولا، وفى هذا ما فيه من خرق شنيع للعرف القومى، مما اضطر شاؤل إلى أن يدحرج حجراً كبيراً ليذبح القوم عليه قرابينهم، ثم بنى مذبحاً للربّ(١)، بل وتستطرد الرواية التوراتية، فتجعل شاؤل يحارب كل من حوله من الأعداء، «مؤاب وبنى عمون وآدوم وملوك صوبة والفلسطينيين؛ وحيثما توجه غلب وفعل ببأس وضرب عماليق، وأنقذ إسرائيل من يد ناهبيه»(٢).

وبدأ الفلسطينيون يفكرون فى استعادة ما فقدوه من سيادة على الإسرائيليين، معتمدين فى ذلك على تفوقهم العسكرى الضخم، ومن هنا بدأ التفكير فى القيام بهجوم مضاد فى العام التالى، فى الربيع بعد نهاية موسم الأمطار كما هو العرف بالنسبة إلى الحملات الواسعة النطاق.

ونقرأ فى التوراة أن الفريقين كانا قد استعدا للجولة القادمة(٣)، وهنا برز «جليات» (جالوت فى القرآن الكريم)(٤) قائد الفلسطينيين، ويوصف فى التوراة بأن «طوله ست أذرع وشبر، وعلى رأسه خوذة من نحاس وكان لابساً درعاً حرشفياً، ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس، وجرموقا نحاس على رجليه، ومزراق نحاس بين كتفيه، وقناة رمحه كنول النساجين، وسنان رمحه ستة مئة شاقل حديد، وحامل الترس كان يمشى قدامه»(٥).

ونادى جليات فى ساحة الوغى : هل من مبارز؟، «اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلىّ؛ فإن قدر أن يحاربنى ويقتلنى نصير لكم عبيداً، وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا»(٦)، وظل جليات الفلسطينى يخرج إلى الميدان صباح مساء طيلة أربعين يوماً، دون أن يجرؤ واحد من بنى

(١) صموئيل أول ١٤ : ١٥-٣٥.
(٢) صموئيل أول ١٤ : ٤٧-٤٨.
(٣) صموئيل أول ١٧ : ١-٤.
(٤) انظر: سورة البقرة، آية : ٢٤٩-٢٥١.
(٥) صموئيل أول ١٧ : ٤-٧.
(٦) صموئيل ١٧ : ٨-٩.

إسرائيل على منازلته، بل إنهم كانوا حين يرونه يفرون من وجهه، حتى نادى منادى إسرائيل: إن من يقتل هذا الرجل، يغنيه الملك غنى جزيلا، ويعطيه بنته، ويجعل بيت أبيه حرًا في إسرائيل»[1].

ويخرج «داود بن يسى البيتلحمى» - وهو ما يزال بعد غلامًا - لمنازلة «جليات» ويتغلب عليه بسبب سخرية جليات به، وعدم تأهبه لمنازلته[2]،

(١) صموئيل ١٧: ٢٥.

(٢) يروى تاريخ النبوة الشريف، حادثًا يشبه ذلك تمامًا، فبينما كان المسلمون محاصرين في غزوة الأحزاب (غزوة الخندق = سنة ٥ هـ/ سنة ٦٢٧م)، وقد جاءتهم جنود من فوقهم ومن أسفلهم، حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنّ الناس بالله الظنونَ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدًا، وبدأ فريق من المنافقين يستأذنون النبيَّ في العودة إلى بيوتهم لأنها عورة، وما هي بعورة، ولكنهم يريدون فرارًا من المعركة، في هذا الجو المليء بالخوف والفزع، إذ بعمر بن عبدود العامرى - وكان أشجع قريش - ويحسب نفسه كفؤًا لألف رجل - يقتحم الخندق بجواده - ومعه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب بن مرداس وهبيرة بن أبي وهب - إلى صفوف المسلمين - وهو مقنع بالحديد، ثم ينادى: من يبارز؟ فلا يتقدم أحد غير الإمام عليّ بن أبي طالب قائلا: أنا لها يا نبيّ الله، فقال رسول الله ﷺ: اجلس: إنه عمرو، ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ ثم جعل يؤنبهم، ويقول: أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إلىّ رجلا؟ فقام عليٌّ، فقال: أنا يا رسول الله؟ فقال النبيُّ ﷺ: إنه عمرو. ثم نادى الثالثة، فقام عليٌّ - كرّم الله وجهه ورضى الله عنه - فقال: يا رسول الله أنا، فقال النبيُّ ﷺ: إنه عمرو، فقال عليٌّ: وإن كان عمرًا فأذن له رسول الله، ﷺ، فمشى إليه، فقال له عمرو: من أنت؟ عليٌّ بن عبد مناف؟. قال: أنا عليٌّ بن أبي طالب، فاستصغره الفارس الرهيب ورحم شبابه، وقال: والله ما أحب أن أقتلك لأن أباك كان نديمى، فأجابه عليٌّ: ولكنى والله أحب أن أقتلك، فاغتاظ عمر بن عبدود، فنبّهه عليٌّ بن أبي طالب، أنه وإن كان قد احتقر ضعف خصمه، فإنه لم ير حرجًا في ركوب فرسه أمام خصم مترجل، فقفز عمرو عن فرسه، فعقره لئلا يستعين به في القتال ولا في الفرار، ثم لطم وجهه بقبضته، وقد جنَّ جنونه أمام سخرية خصم صغير مثل هذا، ثم وثب على غريمه فضربه ضربة شديدة، ثم أصابته في جبينه إصابة خفيفة، بعد أن خرقت ترسه، غير أن عليًا تراجع كالبرق وباغت عدوه بوثبة فجائية، ففقد هذا الأخير توازنه، واستدار ليجابهه، ولم يفلت على الفرصة، فضرب عدوه ضربة بارعة، جعلت السيف يغوص بأكمله في صدر عمرو، بعد أن قطع أوداجه، وصار الدم غزيرًا من الجرح العميق، فترنح العملاق ساعة وهو يئن كالسكير، ثم خرّ كالبنيان، شاهقًا شهقة الموت بين يدى بطل الإسلام، سيدنا وجدنا الإمام

=

«فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر، وضرب الفلسطيني وقتله، ولم يكن سيف بيد داود»، وأثار قتل جليات الرعب في نفوس الفلسطينيين فهربوا، ولحق بهم بنو إسرائيل حتى أبواب «عقرون» وفتكوا بهم ونهبوا معسكرهم، وحمل داود رأس جليات الجبار، وأتى به إلى أورشليم[١].

وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ولما برزوا لجالوتَ وجنودِه، قالوا ربَّنا أفرِغْ علينا صَبْراً وثَبِّتْ أقدامَنا وانصُرْنا على القومِ الكافرين، فهزموهم بإذنِ اللهِ، وقتلَ داودُ جالوتَ وآتاه اللهُ الملكَ والحكمةَ وعلّمَه ممّا يشاء، ولولا دفعُ اللهِ النّاسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضُ، ولكنّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين﴾[٢].

وهكذا ــ ومنذ ذلك الحادث الخطير ــ أخذ داود يملأ أعين الناس

=

عليّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه وكرّم الله وجهه ــ ثم أقبل عليّ على رسول الله ووجهه يتهلل، فقال له عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ هلا سلبت درعه، فإنه ليس للعرب درع خير منها، فقال عليّ: ضربته فاتقاني بسوأته، فاستحييت ابن عمي أن أسلبه. (انظر: سورة الأحزاب، آية: ٩-٢٧؛ تفسير القرطبي، ص ٥٢١٠-٥٢٤٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ٢٠٢/٢-٢٠٧؛ عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ٢١٢-٢١٣؛ محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ٢٢٣/٢-٢٢٤؛ إيتين دينيه وسليمان إبراهيم، محمد رسول الله، ص ٢٥٦-٢٦٠؛ مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته، ص ١٦٧-١٦٩؛ ابن هشام، سيرة النبي، ص ٢٢٤-٢٢٦؛ تاريخ الطبري، ٥٧٣/٢-٥٧٤؛ الواقدي، كتاب المغازي، ٤٧٠/٢-٤٧٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٤٥/١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤٩/٧؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(١) صموئيل أول ١٧: ٢٠-٥٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٠-٢٥١؛ وانظر: تفسير الكشاف ٢٩٦/١؛ تفسير الطبري ٣٥٤/٥-٣٧٦؛ تفسير الطبرسي ٢٨٩/٢-٢٩٢؛ تفسير روح المعاني ١٧٢/٢-١٧٤؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٢٢٩/١-٢٣٠؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣١٨/١-٣١٩؛ تفسير النسفي ١٦٦/١؛ محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، ٣٨٢/٢-٣٨٣؛ تفسير المنار ٣٨٩/٢-٣٩٤؛ تفسير القرطبي، ١٠٦٤-١٠٦٩؛ تفسير ابن كثير ٤٤٧/١-٤٤٨.

وآذانهم وقلوبهم، ثم يصبح ذا مكانة عالية بين قومه اليهود، مما أثار عليه حقد شاؤل وأخذ يسعى إلى قتله، بينما هو فى مسيس الحاجة إليه، وإلى أمثاله من الشجعان من الرجال، ولم تشفع له صداقته لولده «يوناثان» ولا إصهاره للملك، بل إن الحقد المرير الذى أحسّ به داود من جانب الملك، إنما يكاد يورده موارد التلف، مما دفعه إلى أن يغدو طريداً فى البلاد المتاخمة لمدينة «حبرون»، حيث جمع فرقة لم تستطع أن تحميه من مطاردة شاؤل، فاضطر آخر الأمر إلى أن يلجأ إلى أعدائه الفلسطينيين - إلى «أخيش» ملك جت - ثم اصطنع الجنون خوفاً على حياته[1].

(٥) معركة جبل جلبوع ونهاية شاؤل:

انتهز الفلسطينيون فرصة الخلافات بين الإسرائيليين، وجمعوا قواتهم مرة أخرى فى «أفيق» ولكنهم هذه المرة لم يهاجموا جبال وسط فلسطين من هناك مباشرة، وإنما تقدموا نحو الشمال، عن طريق السهل الساحلى إلى سهل يزرعيل فمدينة يزرعيل - وهى زرعين الحالية بين جبلى جلبوع والدحى - ولعل فى هذا ما يشير إلى أن عناصر شعوب البحر الأخرى فى السهول الساحلية الشمالية، وفى سهل يزرعيل، قد انضمت إليهم، وبهذه الطريقة هاجم الفلسطينيون شاؤل فى نقطة مكشوفة داخل حدوده، حيث أنها منطقة من مناطق الاستقرار الإسرائيلى غير المنيعة إلى حد ما جغرافياً، وفى نفس الوقت فإنها محاطة بمناطق كنعانية، ولذلك فإن قبائل الجليل إنما كانت مرتبطة بقبائل وسط وجنوب فلسطين، بجسر ضيق من المنطقة الإسرائيلية...

وهكذا نجح الفلسطينيون فى أن يمنعوا شاؤل من أن يجمع قواته كلها، وفى الحقيقة - وطبقاً لرواية التوراة[2] - «فإن رجال إسرائيل الذين

(١) صموئيل أول ٢١: ١-١٥؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٦٠؛ وانظر: تفسير الطبرى، ٣٥٦/٥-٣٥٧.

(٢) صموئيل أول ٢١: ٧.

عبروا الوادى والذين فى عبر الأردن»؛ وكذا قبائل تلال الجليل، وبلاد شرق الأردن، لم تشترك فى المعركة ضد الفلسطينيين.

وأيًا ماكان الأمر، فلقد انطلق شاؤل بجيوشه، من قبائل وسط وجنوب فلسطين، من «العين التى فى يزرعيل» وربما بجوار «عين حرود»، جنوب شرق مدينة يزرعيل، عند سفح جبل جلبوع، حيث قام من قبل «جدعون» بهجومه الشهير على معسكر المديانيين، وكان الموقف لا أمل فيه منذ البداية، بل إن شاؤل كان قد يأس من النصر قبل أن يبدأ القتال، وهناك تقاليد خاصة فى الإصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل[١]، تروى أن شاؤل قد وصل به اليأس قبل بدء المعركة، إلى حد الاختفاء عند امرأة «عرافة» فى «عين دور» على مبعدة ستة أميال إلى الجنوب الشرقى من الناصرة ـ ليسأل روح «صموئيل النبىّ» عن مصيره، وكانت الإجابة أن حياته ـ وكذا مملكته ـ قد ضاعت[٢].

ودارت المعركة على «جبل جلبوع»، وانتهت سريعًا بهزيمة ساحقة للإسرائيليين، وفقدا ولدا شاؤل حياتهما، مع جانب كبير من الجيوش الإسرائيلية، وانتحر شاؤل حيًا، حتى لا يقع فى أيدى الفلسطينيين، ومثل الفلسطينيون بجثة شاؤل وولديه، وأخذت دروعه إلى معبد «فينوس» الفلسطينى ودق جسمه على أسوار بت شان (بيسان)، وبات مقدرًا ألا تدفن جثة شاؤل وولديه، لولا أن انتشلها بضع نفر من أهل يابيش جلعاد من على الأسوار التى علقت عليه «وجاءوا بها إلى يابيش جلعاد وأحرقوها هناك، وأخذوا عظامهم ودفنوها تحت الأثلة فى يابيش وصاموا سبعة أيام»[٣].

---

(١) صموئيل أول ٢٨: ٣-٢٥.

(٢) جيمس فريزر، المرجع السابق، ص ٤٣-٥١؛ وكذا:

Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 177-178.

(٣) صموئيل أول ٣١: ٨-١٢.

وأجبرت الأقلية الإسرائيلية التى كانت تسكن بيسان ومدن سهل يزرعيل الأخرى على الهجرة منها، وسقط وسط فلسطين تحت السيادة الفلسطينية مرة أخرى، وأصبحنا لا نسمع شيئًا عن حروب معها فى المرحلة التالية من التاريخ[١] وهكذا كان انتصار الفلسطينيين على الإسرائيليين كاملا، واحتل الفلسطينيون كل منطقة القبائل الإسرائيلية، والتى شملت هذه المرة الجليل وبلاد شرق الأردن، وبدت مشكلة السيادة على فلسطين، كما لو كانت قد استقرت لصالح الفلسطينيين هذه المرة، وفى كل المرات[٢].

(٦) شاؤل والملكية الإسرائيلية:

وهكذا كانت الملكية الإسرآئيلية الأولى فشلا ذريعًا، لأنها تطور من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، وكان الملك ضعيف الإرادة، حاد الطباع، يحيا كأى شيخ بدوى من شيوخ القبائل البدوية، وقد كان من المنتظر أن تكون تلك الشخصية التى وقع عليها اختيار صموئيل - أى شاؤل - جديرة بأن تكسب إعجاب الناس وولاء الجماهير، بما لها من مميزات طبيعية، فقد كان شاؤل بجسمه الفارع الذى ينبض بالهيبة، وشهامته وجسارته وقيادته الماهرة، وشجاعته الباسلة فى ميدان لحروب، أهلا لذلك كله، غير أن هذا الجندى الشعبى الجسور إنما كان يخفى من وراء مظهره الرائع، نقاط ضعف خطيرة فى شخصيته، فقد كان ينزع إلى الشك والغيرة، كما كان صفراوى المزاج، ضعيف الإرادة، مترددًا فى اتخاذ قراراته، وكان فوق هذا كله، مصابًا باكتئاب ألح على فكره، الذى لم يكن منظمًا على الإطلاق، وكان يصل به فى بعض الأحيان إلى مشارف الجنون[٣].

---

(١) R. H. Hall, op.cit., p. 359.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 178.

(٣) جيمس فريزر، المرجع السابق، ص ٤٣-٤٤.

وعلى أى حال، فلم تكن مملكة شاؤل ـ أو الملكية الإسرائيلية الأولى تتجاوز مضارب قبيلته بنيامين، ورغم ذلك، فليس هناك من ريب فى أن بنى إسرائيل إنما قد بدأوا بشاؤل يؤلفون أمة، بل إن تاريخ مملكة إسرائيل الموحدة إنما يبدأ بشاؤل هذا.

هذا، ويمكن أن يقال أن «شاؤل» إنما كان مهيئاً بطبيعته، وبتكوينه العقلى وظروفه الاجتماعية، إلى النجاح فى ظروف عصر القضاة، والفشل فى أحوال عصر الملوك، فقد كان شخصية محاربة متهورة طاغية، حظها من الروح الدبلوماسية قليل، وهذا هو السر فى مصيره المحزن، فقد وفق توفيقاً رائعاً فى توحيد القبائل تقريباً تحت زعامته ضد الفلسطينيين ـ وربما كان الأصح ضد العمونيين ـ وقادها إلى النصر، فكوفئ على ذلك بالملكية، ولكن عجزه على السيطرة على الفئات المتعارضة داخل مملكته منعه من توطيد انتصاراته، فضلا عن سلطته، وأدى إلى سقوطه، وكان نزاعه مع داود ـ زوج ابنته وقاتل جليات بطل الفلسطينيين ـ من أهم عوامل سقوطه، فانصداع ما بينه وبين داود أبعد عنه تأييد طبقة الكهنة القوية[1].

وعلى أى حال، فإن شاؤل فى إدارته لمملكته، لم يحرص على فرض ضرائب جديدة من أجل جيوشه، كما أنه استمر يعيش من عمله فى حقله الخاص، ولم يتخذ لنفسه قصراً أو بلاطاً مترفاً، وكان فى أول كل شهر، وعند مشرق كل قمر جديد، يقيم مأدبة فى منزله يدعو إليها ضباطه، ويجلس فى صدارتها على مقعد، مستنداً إلى الحائط، وإلى يمينه حربته، كما أنه اعتاد أن يعقد مجلساً للحرب فى ظلال الشجرة المقدسة فى «جبعة»، ومن المحتمل أن قواته كانت تتكون من محاربى قبيلة بنيامين، وقد عين ابن عمه الكبير «أبنير» قائداً لها، وكان يوزع الكروم والحقول المستولى

---

(١) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤٢.

عليها من العدو على شيوخ بنيامين، وظل حكمه فى مظاهر كثيرة ملكياً قبلياً، ولكنه كان أكثر تقدماً مما كان عليه أيام جدعون ويفتاح، وقد جمع حوله - إلى جانب قبيلته بنيامين - الرجال الأشداء من كل قبيلة، ومن بين هؤلاء الرجال، كان «داود» الذى ينتمى إلى قبيلة «يهوذا»[١].

وفى أخريات أيامه خيم عليه الاضطراب العقلى، إذ كانت تنتابه نوبات من الصرع، تتغير من الانهيار إلى الغضب الأحمق، حيث هيء له أن الخونة فى كل مكان، وربما كان الكهنة من وراء ذلك كله، لأنه قبض على صولجان الملك، بعد أن كانت أعنة الحكم فى أيديهم، فأتمروا به وزعموا له، أن الربّ كاشفهم بأنه قد سخط عليه لتقصيره فى الإيقاع بالأسرى، ومازالوا به حتى ألقوا فى روعه أن الجان قد ركبته، ورتبوا فى ذلك أنه لا محيص عن أن يهدئ من جأشها بالاستماع إلى دقات الطبول[٢].

ورغم ذلك كله، فإن «شاؤل» إنما كان أقوى مما يبدو فى هذه الروايات التى إما أنها تعكس الهوى اليهوذى لصالح منافسه وخليفته داود، وإما الانحياز ضد الحكم الملكى، وتأكيد نفوذ صموئيل النبى[٣].

ولعل من المناسب هنا، أن نشير إلى الحقيقة الجديرة بالاعتبار، التى تثبت مدى تأثر الإسرائيليين بنجاح ملكهم الأول، لدرجة أنه لم يكن هناك أى تفكير لإلغاء نظام الملكية[٤]، كما نشير كذلك إلى قلعة شاول التى اكتشف «وليم فوكسويل أو لبرايت» بقاياها فى عام ١٩٢٢/١٩٢٣م، فى «تل الفول» على مبعدة ٥ كيلاً إلى الشمال من القدس، والتى لم يبق منها فى الواقع، إلا جزء صغير، يتكون من برج فى أحد الأركان، وجزء من

---

(١) صموئيل أول ١٤: ٥٠-٥٢، ٢٢: ١٧؛ صموئيل ثان ٤: ٢-٢؛ وكذا:
A. Lods, op.cit., p. 356-357.

(٢) عصام الدين حفنى ناصف، محنة التوراة على أيدى اليهود، القهرة ١٩٦٥، ص ١٤٤.

(٣) S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, p. 356.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 359.

الاستحكام المسقوف المجاور له، وقد أمكن تأريخه بواسطة الفخار الذى وجد، بعصر «شاؤل» (١٠٢٠-١٠٠٠ق.م)[١].

---

(١) W. F. Albright, op.cit., p. 120-121.

الفصل الثالث

داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م)

(١) صورة داود فى التوراة

ليست هناك صورة تجمع بين النقيضين اللذين لا التقاء بينهما، كالصورة التى تقدمها التوراة عن داود ملك اليهود القدير، فهو الشجاع قاتل جليات الجبار بمقلاعه دون سيف فى يده[١]، وبذا يصبح مطارداً من الفلسطينيين يوماً ما، ولكنه سرعان ما يشترك معهم فى محاربة عدوهم يوماً آخر، بل ويضع سيفه تحت تصرفهم ضد مواطنيه اليهود[٢]، وهو يعمل حامل سلاح شاؤل الإسرائيلى يوماً ما، ثم حارساً لـ «أخيش» الفلسطينى يوماً آخر[٣].

وهو قد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ثم أنهاه وقد قضى على نفوذهم، وهو عدو شاؤل اللدود، ثم هو فى نفس الوقت زوج ابنته، وحبيب ولده يوناثان، وكثير من فتيات إسرائيل[٤]، وهو يعمل مغنياً فى بلاط شاؤل، لأنه يجيد الضرب على القيثار، ويغنى أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، ولكنه فى نفس الوقت الفارس المغوار، حامل سلاح الملك، وقاتل أعدائه[٥].

وهو قاس غليظ القلب - كما كان الناس فى وقته، وكما كانت قبيلته - وهى صورة مستحبة فى أذهان اليهود، خلعوها على إلههم «يهوه» من بين ما خلعوا عليه من صفات، ولكنه فى نفس الوقت، كان مستعداً لأن يعفو عن أعدائه، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح، يقتل الأسرى جملة، كأنه ملك من ملوك الآشوريين، بل إنه ليبالغ حتى فى القسوة، حين يأمر بحرق المغلوبين، وسلخ جلودهم ووشرهم بالمنشار[٦].

(١) صموئيل أول ١٧: ٥٠.
(٢) صموئيل أول ٢٩: ٢-١٢.
(٣) صموئيل أول ٣٨: ١-٧.
(٤) صموئيل أول ١٨: ١-٧.
(٥) صموئيل أول ١٦: ٢١-٢٣.
(٦) صموئيل ثان ١٢: ٢٩-٣١.

وعندما يطلب منه شاؤل مائة غلفة من الفلسطينيين مهراً لابنته «ميكال» إذا به يقتل مائتي رجل من الفلسطينيين ويقدم غلفهم مهراً لابنة شاؤل هذه[1]، وحين يوصى ولده سليمان - وهو على فراش الموت - بأن «يحدر بالدم إلى الهاوية»[2]، شيبة «شمعى بن جيرا» الذى لعنه منذ سنين طويلة.

وهو يأخذ النساء من أزواجهن غصباً، مستغلا فى ذلك جاهه وسلطانه، فهو يشترط لمقابلة «أبنير» قائد جيوش شاؤل - أن يأتى له بابنة شاؤل (ميكال) والتى كان قد خطبها من أبيها، ودفع مهرها رؤوس مائتين من الفلسطينيين - من زوجها «فلطيئيل بن لايش» الذى أدمى قلبه فراقها، ثم سار وراءها، وهو يبكى حتى «بحوريم» ولم يرجع من ورائها، إلا بأمر من أبنير، وخوف منه[3].

ثم هو يأخذ «بتشبع» امرأة قائده «أوريا الحثى» من زوجها، ويأتى بها إلى نسائه، فيضطجع معها وهى مطهرة من طمثها، وحين تحس المرأة بأن ثمرة اللقاء إنما بدأت تتحرك فى أحشائها، يرسل إلى زوجها فيستدعيه من ميدان القتال، حتى إذا ما ظهر الحمل ظن الناس أنه من زوجها، ولما رفض الرجل أن يدخل إلى فراش زوجته الدافئ، بينما أخوة له يقتلون ويقتلون فى ساحة الوغى وأصر على أن ينام على عتبة بيت الملك مع النائمين، وألا يضاجع امرأته أبداً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا، أو أن يسمح له الملك بأن يعود إلى حومة الوغى ليأخذ مكانه بين رجاله وجنوده هناك، فإذا به يرسل بالرجل إلى الصف الأول، مع أمر واضح صريح أن «اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيضرب ويموت»، وحين يتم له ذلك، يضم المرأة إلى حريمه، ثم هو بعد ذلك، يقبل فى ذلة زجر (ناثان)

---

(1) صموئيل أول ١٨ : ٢٥-٢٧.   (2) ملوك أول ٢ : ٩.

(3) صموئيل ثان ٣ : ١٢-١٦.

على فعلته هذه، ولكنه مع ذلك يحتفظ بـ «بتشبع» الجميلة[١].

وهو يعفو عن «شاؤل» مئات المرات، ولا يسلبه إلا درعه، حين كان في مقدوره أن يسلبه حياته، وهو يعفو عن «مفيبوشث» وهو حفيد شاؤل، وقد يكون من المطالبين بعرشه، وعرش عمه وجده من قبله - بل ويعينه على أمره [٢]، وهو يعفو عن ولده «أبشالوم»، بعد أن قبض عليه في ثورة مسلحة، وبعد أن دنس عرضه على ملأ من القوم[٣]، بل إنه ليعفو عن «شاؤل» الذى كان يسعى لقتله، بعد أن تمكن منه مرات، وفي أمان مطلق ومناعة تامة[٤].

ومن ثم يذهب «ول ديورانت» - طبقًا لأوصاف التوراة هذه لداود - إلى أن ذلك إنما هو وصف رجل حقيقي، لا رجل خيالي، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة، ينطوى على جميع بقايا الهمجية، وعلى كل معوقات الحضارة[٥].

وبدهي أن ذلك ليس رأينا، وإنما هو رأى توراة اليهود، ذلك لأن داود - فيما نعتقد ونؤمن به - الإيمان كل الإيمان - هو نبيُّ الله الكريم، قبل أن يكون ملك اليهود القدير، ومن ثم فنحن لا نرضى للنبيِّ الكريم، إلا ما ارتضاه له ربُّ العزة في القرآن الكريم، فلقد ﴿آتاه اللهُ المُلكَ والحِكْمَةَ وعلَّمه ممَّا يشاء﴾[٦] ﴿ولقد آتينا داودَ منَّا فَضْلاً يا جبَالُ أوِّبى معَه والطَّيرَ وألنَّا له الحَديدَ، أنْ اعمَلْ سَابغَاتٍ وقَدِّرْ في السَّرْدِ، واعملوا صالحًا إنِّي بما تعمَلُونَ بصيرٌ﴾[٧]، ﴿واذكُر عَبْدَنَا داودَ ذا الأيد إنَّه أوَّاب، إنَّا سَخَّرنَا الجِبَالَ معه

(١) صموئيل ثان ١١ : ٢-٣٩، ١٢ : ١-١٢. (٢) صموئيل ثان ٤ : ٤-٥.

(٣) صموئيل ثان ١٦ : ٣٣، ١٨ : ٣٣. (٤) صموئيل أول ٢٤ : ٢-٢٢.

(٥) ول ديورانت، المرجع السابق، ص٣٣١-٣٣٢؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص٣٦٢-٣٧٢.

(٦) سورة البقرة، آية : ٢٥١، وانظر: تفسير الطبرى ٥/٣٧١-٣٧٢؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١/٣١٩؛ تفسير النسفي ١/١٦٦؛ تفسير الطبرسي ٢/٢٩١-٢٩٢؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١/٢٢٩؛ تفسير روح المعاني ٢/١٧٣-١٧٤؛ تفسير القرطبي، ص ١٠٦٦-١٠٦٧؛ تفسير ابن كثير ١/٤٤٧؛ تفسير المنار ٢/٣٨٩.

(٧) سورة سبأ، آية : ١٠-١١، وانظر: تفسير القرطبي، ص ٥٣٤٦-٥٣٥٠.

يُسبّحن بالعشيّ والإشراق، والطّير محشورةً كلٌّ له أوابٌ، وشددنا مُلكَهُ وآتيناه الحكمةَ وفصلَ الخطاب﴾[١]، ﴿ولقد فضّلنا بعضَ النبيّين على بعضٍ وآتينا داودَ زبوراً﴾[٢]، ﴿ووهبنا لداودَ سليمانَ، نعمَ العبدُ إنّه أوّاب﴾[٣] ﴿ولقد آتينا داود وسليمانَ علماً، وقالا الحمدُ لله الّذى فضّلنا على كثيرٍ منْ عبادِه المؤمنين﴾[٤].

هذا هو رأى الإسلام فى داود، عليه السلام ـ كما جاء به القرآن الكريم ـ وليس هناك من ريب، فى أنه ليس لمسلم بعد رأى الإسلام رأى، ولكننا نقدم الصورة الأولى، ليعرف القارئ الكريم، رأى التوراة ـ كتاب اليهود المقدس ـ حتى فى أنبياء اليهود وملوكهم، ولأننا ندرس حياة داود الملك، وليس داود النبىّ، ذلك لأننا نقوم هنا بدراسة تاريخية، وليست دراسة دينية، نعتمد على التوراة، كمصدر لها فى الدرجة الأولى، ومع ذلك، فإننا نتفق معها فى الكثير، ولكننا نختلف معها فى الكثير كذلك، وبخاصة فيما يتعلق بالذات العلية، وبالأنبياء وعصمتهم ـ الأمر الذى سوف نناقشه بالتفصيل فى الجزء الثالث من كتابنا هذا «إسرائيل»[٥] ـ فضلا عن الحقائق التاريخية، ذلك لأن من كتبوا التوراة ـ كما أشرنا من قبل ـ كانوا بشراً مثلنا،وهم كمؤرخين ـ لا يختلف عن نظائرهم من معاصريهم فى الشرق، وبدهى أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة، بل لا يحتمل أن نخطئه.

(٢) داود فيما قبل الملكية:

تروى التوراة أن داود إنما كان حامل سلاح شاؤل، وأنه قد التحق

---

(١) سورة ص، آية : ١٧-٢٠، وانظر: تفسير القرطبى، ص ٥٦٠٢-٥٦٠٨؛ تفسير ابن كثير ٤٩/٧-٥١.

(٢) سورة الإسراء، آية : ٥٥.

(٣) سورة ص، آية : ٣٠.

(٤) سورة النمل، آية: ١٥.

(٥) محمد بيومى مهران، إسرائيل، ١٦٢/٣-٢١٨، (ط ١٩٧٩).

يلاطه بفضل مهارته الموسيقية، كى يزيح عنه الهمّ والأسى، وهو إلى جانب ذلك كان طلق اللسان فصيحًا، خفيف الروح، شجاعًا بل مقاتلا جبارا، وداود هذا، ابن «يسى البيتلحمى» أرسله الله حين غضب على شاؤل ليمسحه، مختارا إياه من بين أولاد «يسى» جميعا، وكان أشقر مع حلاوة العينين، وحسن المنظر[1]، وأصغر أخوته الستة على رأى، والسبعة على رأى آخر[2]، ولهذا فقد كلّف بالعناية بأغنام أبيه، وقد أظهر فى القيام بهذه المهمة إخلاصا نادرا، وشجاعة فائقة، فقد قتل أسدا ودبا هاجما القطيع[3].

وقد بدأ نجمه يسطع بين قبائل إسرائيل منذ أن قتل جالوت، فقرت به عين الملك ووعده بأن يزوجه ابنته الكبرى «ميرب»، ولكنه زوجها إلى «عدرئيل المحولى»، ولما أحبته أختها «ميكال» وعده بها، على أن يمهره إياها مائة غلفة من الفلسطينيين[4]، ولكن يبدو أن الشعبية التى اكتسبها داود قد جعلت الملك يعدل عن الإصهار إليه، أو لأنه ـ فيما يرى البعض ـ قد شارك فى مؤامرة، مع صموئيل النبىّ الذى كان قد أشار أنه المنتصر المقدر له الملك[5]، وأيا ما كان الأمر، فلقد بدأ شاؤل يخاف داود، «وصار شاؤل عدوا لداود كل الأيام»[6].

وهكذا اضطر داود للفرار معرضًا حياته للخطر، ولكنه لم يذهب إلى موطنه فى «بيت لحم» على مبعدة ٨ كيلا جنوب أورشليم ـ وإنما ذهب إلى «صموئيل» فى الرامة (رام الله)، ومن هناك إلى «نوب»، حيث يعيش «أخيمالك»، الكاهن، الذى دفع حياته ـ وكذا مدينته بما فيها من رجال ونساء وأطفال وماشية ـ ثمنا لإيوائه داود[7].

(١) صموئيل أول ١٦ : ١-٢٣.

(٢) صموئيل أول ١٦ : ١٠-١١، ١٧ : ١٢؛ أخبار أيام أول ٢ : ١٥.

(٣) صموئيل أول ١٧ : ٣٤-٣٦. (٤) صموئيل أول ١٨ : ٧-٢٩.

(٥) H.R. Hall, op.cit., p. 425-426. (٦) صموئيل أول ١٨ : ٢٩.

(٧) صموئيل أول ١٩ : ١-٢٢ : ٢٣.

واتجه داود بعد ذلك إلى الفلسطينيين ـ أعداء قومه اليهود ـ فهرب إلى «أخيش» ملك جت، ولكن يبدو أنه هناك لم يأمن مكر أعدائه، فخشى على حياته، وبالتالى فقد اصطنع الجنون[1]، ثم هرب إلى (مغارة عد لام) على مقربة من بيت لحم ـ وجمع حوله أربعمائة من المغامرين، وأودع أباه وأمه عند ملك مؤاب، أرض جدته راعوث[2].

وطبقاً لنصيحة النبىّ جاد، عاد داود إلى أرض يهوذا، وهناك سرعان ما كبرت دائرة أتباعه، وفى نفس الوقت فإنه قد بدأ فى إقامة علاقات طيبة مع القبائل التى كانت تسكن جنوب يهوذا، ووفقاً لما جاء فى سفر صموئيل[3]، الأول، فإنه قد تزوج من (أخينوعم) من مدينة يزرعيل ـ والتى ربما كانت خربة ترامة فى سهل دبلة ـ ومن المحتمل أنها كانت مكاناً قينياً، إلى الجنوب الشرقى من حبرون.

وهناك من برية يهوذا (يشمون = الخراب) التقى داود بامرأته الجميلة «أبيجايل» زوجة «نابال» من معون ـ تل معون الحالية، على مبعدة عشرة أميال جنوب حبرون ـ وربما كان نابال هذا قينيًا كذلك، وقد استطاعت «أبيجايل» أن تخفف من غضب داود، بسبب سوء تصرف زوجها معه، ثم لم تمض سوى عشرة أيام حتى كان نابال قد لفظ أنفاسه الأخيرة، ثم تزوجت امرأته من داود بعد ذلك[4].

وأخير استقر المقام بداود عند «أخيش» ملك جت، حيث قدم له داود خدماته، وخدمات رجاله، طبقًا للنظام الحربى الفلسطينى الذى كان يستخدم الجنود المرتزقة، وأعطاه «أخيش» مدينة (صقلغ) ـ وهى تل الخويلقة، على مبعدة عشرة أميال شرقى تل الشريعة، جنوب شرق غزة، بين

(١) صموئيل أول ٢١: ١٠-١٥. (٢) صموئيل أول ٢٢: ١-٥.

(٣) صموئيل أول ٢٥: ٤٣.

(٤) صموئيل أول ٢٥: ٢-٤٣؛ جيمس فريزر، المرجع السابق، ص ٣١-٣٢.

دير وبئر سبع - والإقليم المجاور لها، فى مقابل أن يقدم له خدماته الحربية، حين يحتاج إليهما[١].

وكان ذلك بالتأكيد مخاطرة من داود، أن يرتمى فى أحضان الفلسطينيين فى وقت كان الصراع على أشده بين الإسرائيليين والفلسطينيين، هذا فضلا عن أن داود قد انشغل فى هذه الفترة التى طالت إلى سنة وأربعة أشهر، بحملات السلب والنهب فى البلاد المجاورة، «وصعد داود ورجاله وغزوا الجشوريين والجزريين والعمالقة، لأن هؤلاء من قديم سكان الأرض من عند شور إلى أرض مصر»[٢].

وعلى أي حال، فلقد كان هذا هو أسلوب داود البسيط والمؤكد للهروب من شاؤل، إلا أن هذا إنما كان بالنسبة إلى القبائل الإسرائيلية خطوة مرتبطة بالخيانة لقضيتهم، وإن اعتبرها داود ليست طريقا لتحويل التحالف إلى الفلسطينيين، بل وسيلة لهدف خاص به، «وصدق أخيش داود قائلا: قد سار مكروها لدى شعبه إسرائيل فيكون لى عبداً إلى الأبد»[٣].

واستمر داود فى تقوية علاقاته بشيوخ القبائل اليهودية الجنوبية، وقام مع رجاله بكل حملات السلب والنهب فى الأقاليم المجاورة، وأرسل الهدايا من الغنائم إلى شيوخ الأماكن المختلفة التى كانت تحتلها القبائل الجنوبية[٤].

ولم يكن «أخيش» أمير جت فى حاجة إلى أن يعرف كل هذا، لأنه بقى معتقداً أن داود قد قطع ما بينه وبين شاؤل - بل والإسرائيليين - إلى الأبد، ولكن الفلسطينيين لم يثقوا بداود على الإطلاق، ومن هنا فلقد أصر الحكام الفلسطينيون جميعاً - ربما باستثناء أخيش - على ألا يسمحوا لداود

(١) صموئيل أول ٢٧: ١-٦.

(٢) صموئيل أول ٢٧: ٧-٨.

(٣) صموئيل أول ٢٧: ٩.

(٤) صموئيل أول ٣٠: ٢٦-٣١.

- وكذا رجاله - بالاشتراك في المعركة الحاسمة ضد شاؤل[١]، ورغم أنه كان من الطبيعي أن داود إنما كان مضطراً إلى المساهمة في هذا القتال، فقد كان يشكون فيه، ومن ثم فقد كانوا خائفين من أن يخونهم حين تدور رحى الحرب، وهكذا اضطر أخيش أن يعيده مرة أخرى إلى «صبقلج» وبالتالي فلم يقدر لداود أن يقوم بدور نشط في جانب الفلسطينيين ضد شاؤل والقبائل الإسرائيلية في معركة جبل جلبوع[٢].

(٣) اختيار داود ملكاً على إسرائيل:

سرت الأنباء في كل أرجاء البلاد، كما تسرى النار في الهشيم، بأن شاؤل قد مات، وأن ولديه لقيا نفس المصير، وأن الإسرائيليين قد هزموا شرَّ هزيمة في معركة جبل جلبوع (حوالي عام ١٠٠٠ق.م)، وأن البلاد قد عادت مرة أخرى تحت نير الفلسطينيين.

هذا وقد أدى موت شاؤل إلى قيام صراع مرير بين القبائل الإسرائيلية على السلطة، أو بالأحرى بين داود - الذي كان يتطلع إلى خلافة شاؤل، بخاصة وأن صموئيل النبي إنما كان قد مسحه أثناء حياته خليفة لشاؤل، وإن لم يناد به ملكاً على إسرائيل - وبين «إيشبعل» بن شاؤل، الذي اعتبر نفسه الخليفة الشرعي لوالده بعد وفاته، ويسانده في ذلك «أبنير» قائد جيش شاؤل، وأحد أمراء بيته[٣].

وكان الفلسطينيون - وقد سيطروا على البلاد من وراء هؤلاء وأولئك - يهمهم في الدرجة الأولى أن يبقى بنو إسرائيل على فرقتهم وضعفهم، ويبدو أن ما حدث لم يثر دهشة داود كثيراً، فقد كان قد أعد للأمر عدته، ومن

---

(١) صموئيل أول ٢٩: ٢-١١.

(٢) H.R. Hall, CAH, II, Cambridge, 1965, p. 426.

وكذا: M.Noth, op.cit., p. 180-181.

(٣) M. Noth, The History of Israel, 1965, p. 181.

هنا فإننا نراه ما أن يسمع بموت شاؤل ـ وكذا ولده يوناثان ـ حتى يحزن لموتهما حزناً عميقاً، فيرثيهما رثاء حاراً، بواحدة من أعظم المراثى فى كل الآداب[١] ثم يتحول إلى حبرون بكل أتباعه وحاشيته، ويستقر هناك.

وكانت «حبرون» الكالبية، لا تشكل المركز الطبيعى لجبال الجنوب الفلسطينى فحسب، ولكن كذلك إنما كان يقع فى مجاورتها مباشرة، وعلى مبعدة ميل ونصف ميل، «معبد الشجرة المقدسة» فى «ممرا» (رامة الخليل)، والتى ربما كانت المركز الدينى الرئيسى لكل قبائل الجنوب الفلسطينى، والتى يبدو أنها قد اتحدت حول هذا فى تحالف من ست قبائل (يهوذا وكالب وعنيئيل ونايين ويرحمئيل وشمعون)، مكونة مجموعة منفصلة ـ داخل وبجانب التحالف الإسرائيلى للقبائل الاثنى عشر الرئيسية ـ لها حياتها الخاصة التى أعطتها مركزاً خاصاً، وإن لم يكن فى عزلة عن الجميع، وهذه حقيقة أصبحت لها الآن أهمية تاريخية، ذلك لأن داود إنما قد حولها إلى واقع، هذا فضلا عن أن داود نفسه إنما كان يهوذياً، كما أنه بزواجه من امرأته «أخينوعم» و«أبيجابل» القينيتين، إنما قد أصبحت له قرابة بالمصاهرة من القينيين، كما أنه قد نجح أثناء إقامته فى «صقلع» من عقد صلات مع القبائل الجنوبية، أثمر غرسها الآن[٢].

وهكذا أتى رجال يهوذا إلى داود، وهناك فى «حبرون» أو فى «ممرا» مسحوه ملكاً على بيت يهوذا[٣]، وليس هناك من شك فى أن داود نفسه، إنما قد قام بدور هام فى إغراء القبائل الجنوبية لاتخاذ هذه الخطوة، فقد كان لتأثيره الشخصى أثر كبير، ما فى ذلك من شك، كما أنه كحامل لدرع شاؤل قد جعل منه شخصاً محبوباً لكل من حوله، وهو بالنسبة للقبائل

---

(١) صموئيل ثان ١ : ٩-٢٧.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 182.

(٣) صموئيل ثان ٢ : ٤.

الجنوبية رجل من دائرتهم، وقد برهن بنفسه - بعد انفصاله عن شاؤل - أنه بالتأكيد رجل من القبائل الجنوبية، وإن كان نظام الملكية قد انتهى سريعاً بالعار، فإن هذا البنيامى شاؤل، إنما هو الملام لفشله، وسوف يكون على داود اليهوذى أن يستغل مركزه، بطريقة أفضل، وقد ساهم المركز الخاص والثابت للقبائل الجنوبية بدور أساسى فى الموقف دون شك، وقد استغل داود هذا الموقف لصالحه(١).

وأيا ما كان الأمر، فلقد مسح داود فى المركز الدينى فى «ممرا» ملكاً، بعد اختياره من قبل رجال يهوذا، وأن هذا الاختيار لم يتم على أساس دينى كالتعيين عن طريق نبىّ، وإنما كان تصرفاً سياسياً صرفاً، وكانت شخصيته وعلاقاته وحاشيته الحربية، هى الأساس فى تنصيبه ملكاً على كل بيت يهوذا، هذا فضلا عن أن رجال الدين إنما كانوا موالين له، كما أن اختيار صموئيل النبىّ له من قبل، قد لاقى قبولا حسناً من أغلبية الشعب(٢).

وأما فى الشمال، حيث أدت كارثة جبل جلبوع إلى أن تعود البلاد ثانية تحت السيادة الفلسطينية، فقد عمل أبنير، الذى نجا من الكارثة، على نقل المقر الملكى إلى «محانيم» - وهى خربة منحنة شمالى عجلون بميلين ونصف ميل - حيث ذكرى أعمال شاؤل الجريئة منذ سنوات مضت ما تزال باقية هناك، وأقام إيشبعل بن شاؤل الوحيد الباقى على قيد الحياة، ملكاً على إسرائيل(٣).

وهكذا نودى بـ «إيشعبل» - أو إيشبوشث، كما تغيز الاسم فى صموئيل ثان(٤) - ملكاً فى شرق الأردن، فى أبعد مكان يمكن أن تصل إليه أيدى الفلسطينين فى محانيم، عاصمة منطقة أفرايم، فى أرض جلعاد جنوب يبوق، وكان هذا عملا تعسفياً صرفاً، كما كانت ملكية

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 182-183.

(٢) H. R. Hall, op.cit., p. 427.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 18

(٤) صموئيل ثان ٢ : ٩.

«إيشبوشث» (إيشبعل) بدون أساس دينى كلية، ولكن القبائل الإسرائيلية المرتبكة - والمهزومة كذلك - قد وافقت على هذا التعيين، فقد كانوا يعرفون عن نظام الملكية من القبائل المحيطة بهم، أنه نظام وراثى، كما أنه لا يوجد مرشح آخر مناسب، غير إيشبعل، ابن شاؤل الوحيد الباقى على قيد الحياة.

وعلى أى حال، فلقد شملت ملكية إيشبعل مناطق غير محددة، لقبائل الجبال فى شرق الأردن وفى الجليل والسامرة، كما جاءت فى سفر صموئيل ثان[١] هذا وقد أطلق إيشبعل على نفسه - كما فعل أبوه من قبل - لقب «ملك إسرائيل» وادعى أنه يحكم كل القبائل الإسرائيلية، ولكن بما أن القبائل الجنوبية قد انفصلت عن القبائل الأخرى، فإن التصور السياسى لإسرائيل تحت حكم إيشبعل، إنما يشمل فقط الجزء الأكبر من القبائل، باستثناء القبائل الجنوبية[٢].

وأما الفلسطينيون فقد كانوا يرقبون الموقف عن كثب، وكان يهمهم فى الدرجة الأولى أن تظل فلسطين تحت سيادتهم تماماً، وربما رأوا فى قيام هاتين المملكتين الإسرائيليتين تحقيقاً لأغراضهم، فما كان الفلسطينيون بكارهين أن يروا أعداءهم ضعافاً عن طريق الانقسام الداخلى، بل ربما كان الفلسطينيون أنفسهم هم الذين أقاموا هاتين المملكتين الإسرائيليتين تابعتين لهم، الواحدة فى حبرون، وعلى رأسها داود، والأخرى: فى الشمال، وعلى رأسها إيشبعل[٣] وربما كانت هذه المملكة الأخيرة تحت السيادة الفلسطينية[٤].

وأما مملكة داود، فليس هناك من شك فى أنهم إنما كانوا يباركون

---

(١) صموئيل ثان ٢ : ٨.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 183-184.

(٣) Kathleen, M. Kenyon, Arhcaeology in the Holy Land, London, 1970, p. 240.

(٤) The Jewish Encyclopaedia, N.Y., 1903, p. 452.

قيامها، ذلك لأن داود كان ما يزال تابعاً لهم، فهو كمستأجر لـ «صقلغ» إنما كان مجبراً على أن يقدم لهم خدماته الحربية، مع رجاله من المرتزقة، ومن هنا فإن الفلسطينيين لم يكن لهم أى اعتراض على قيام رجال يهوذا بانتخاب تابعهم ملكاً عليهم، وسواء وثق الفلسطينيون بداود، أم لم يثقوا به، فهم على أية حال، قد جلبوا لأنفسهم كسباً بإقامة مملكة يهوذا منفصلة ومتضمنة انشقاقاً بين الإسرائيليين، وهو يؤدى بالتأكيد إلى إضعاف إسرائيل، كما أنه فى الوقت نفسه إنما يقضى على تحالف القبائل الاثنى عشر، كوحدة سياسية وحربية، لأن القبائل الجنوبية إنما كانت تعمل على عدم استمرار هذا التحالف، ومن هنا فقد سكت الفلسطينيون مؤقتاً على ما يجرى من أحداث[١]، ذلك لأنهم لم يجدوا سبباً لمساعدة طرف على آخر، كما كانوا قانعين بترك مواليهم من بنى إسرائيل يحطم بعضهم البعض الآخر[٢].

(٤) داود وتوحيد إسرائيل:

كان طموح داود أعظم من أن تكفيه منطقة ضئيلة فى أقصى جنوب فلسطين، كالتى اعترفت بسلطانه، فبدأ يرنو بناظريه نحو الشمال، الذى استقل تحت حكم إيشبعل الضعيف، وكان الصدام بين الحزبين المتنافسين ـ فى الشمال والجنوب ـ أمراً لا مفر منه[٣].

وهكذا بدأ داود يعد عدته ـ سياسياً وعسكرياً ـ ومن ثم فإنه لا يكتفى بعلاقاته الودية مع القبائل الجنوبية، ولكنه يمدها إلى شرق الأردن، وبدون انتظار أو إنذار، فإنه قد تزوج من ابنة ملك «جشور» الآرامى، لأن مملكته كانت مجاورة ليابيش جلعاد، حيث لجأ إيشبعل وتحصن هناك، كما أنه دخل فى حلف مع ملك عمون، ليطبق كماشته على إيشبعل.

(١) M. Noth, op.cit., p. 183.

(٢) H.R. Hall, op.cit., p. 427.

(٣) C. Roth, op.cit., p. 17.

وتقرأ في التوراة أن داود إنما قد بدأ بعد ذلك يتفاوض مع رجال عدوه، ويدفعهم إلى خيانته عن طريق الإغراء، تقول التوراة . «فأرسل داود رسلاً إلى يابيش جلعاد، يقول لهم: مباركون أنتم من الربّ، إذ قد فعلتم هذا المعروف بسيدكم شاؤل فدفعتموه، والآن ليصنع الربّ معكم إحساناً وحقاً وأنا أيضاً أفعل معكم هذا الخير، لأنكم فعلتم هذا الأمر، والآن فلتشدد أيديكم وكونوا ذوى بأس، لأنه قد مات سيدكم شاؤل، وإياى مسح بيت يهوذا ملكاً عليهم»[1]، فداود هنا يثنى على أعدائه لأنهم فعلوا خيراً مع رئيسهم شاؤل، الذى كان عدو داود اللدود، وهو يعدهم بأنه سيعيد لهم هذا المعروف، غير أنه لا ينسى أن يعرض عليهم مشروع مؤازرته فى مسحه ملكاً على يهوذا، إذا أرادوا أن يحفظ لهم معروفهم[2].

ومن ثم فقد وجد داود فيما بعد أصدقاء مخلصين من أمثال «برزلاى» الجلعادى، و«شوبى بن ناحاش» العمونى، وبالتالى فقد أصبح الموقف العام فى يهوذا ضد إسرائيل، بل وقد استفادت يهوذا نفسها من المشاكل الإسرائيلية[3]، ثم ما لبثت يهوذا وإسرائيل - تحت حكم داود وإيشبعل - أن غرقتا فى اشتباكات عسكرية فى منطقة الحدود، وعندما قرر «أبنير» غزو مملكة داود الصغيرة، ثم ضمها لمملكة إسرائيل، فإنه هزم فى «جبعون» على يد «يوآب»، وهو واحد من حاشية داود، والذى يقوم بقيادة جيشه[4].

وهناك على مبعدة سبعة أميال إلى الشمال من أورشليم، اكتشفت البعثات الأمريكية فى عام ١٩٥٦، آثار أسوار مدينة «جبعون»، كما اكتشفت كذلك مشهد المعركة الدموية فى تلك الأيام الخوالى، من بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وطبقاً لما جاء فى التوراة، فلقد حدث قتال عنيف

(١) صموئيل ثان ٢: ٨.

(٢) إسماعيل راجى الفاروق، أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، القاهرة ١٩٦٤، ص ٤٤-٤٥.

(٣) S.A. Cook, CAH, II, 1931, p. 373.

(٤) W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 188.

فى هذه البقعة يداً بيد، بين أعوان المتنافسين[1]، وقتل «أبنير» أخا يوآب «عسائيل»، ومن ثم فقد أصبح هم «يوآب» بعد ذلك أن يأخذ بثأره من أبنير[2].

وجاء فرصة داود حين دبّ النزاع بين أبنير، وسيده إيشبعل، بسبب «رصفة» سرية شاؤل[3]، وبدأ أبنير يتآمر ضد سيده، وذلك حين أرسل إلى داود يعرض عليه أن ينضم إليه ـ ومعه القبائل التى تحت حكم إيشبعل ـ واستعد داود لاستقبال «أبنير» وإن اشترط أن يحضر معه «ميكال» ابنة شاؤل، لتكون له زوجة، وكان هذا الأمر بالنسبة لأبنير بمثابة وضع حد نهائى لعلاقته بإيشبعل، ونقل ولائه إلى داود، ووفى أبنير بهذا الشرط، وتفاوض مع داود فى حبرون ووصل إلى شروطه معه، ولكن الخطة لم تنفذ، إذ قتل أبنير بيد يوآب عند مدخل حبرون، بحجة الثأر منه لأخيه «عسائيل»، ولكن الأمر لم يكن كذلك، إذ كان يوآب يخشى على مركزه من أى اتصال بين أبنير وداود.

وسرعان ما قتل «إيشبعل» بيد أخوين من رجاله ـ هما بعنة وركاب ـ وناسب اغتيال إيشبعل أهداف داود تماماً، ولكن حضور القاتلين إليه فى حبرون، ومعهما رأس إيشبعل، لكى يتلقيا الجزاء والثناء، إنما قد أقلق داود كثيراً، فإذا كان قتل أبنير قد أثار الشكوك من قبل، فإنه يبدو واضحاً الآن أن داود إنما يحاول أن يشق طريقه بالجريمة، ومن ثم فقد أمر داود أن يقتل الرجلان فى الحال، وأن تدفن رأس إيشبعل فى مقبرة أبنير فى حبرون[4]، وبعد مقتل إيشبعل أصبح «مفيبوشث» بن «يوناثان» بن شاؤل ـ ذلك

---

(١) صموئيل ثان ٢: ١٢-٣٢، وكذا:

J. B. Pritchard, BA, 19, 1956, p. 62-75, UMB, 21, 1957, p. 3-26.

وكذا: W. Keller, op.cit., p. 188

(٢) صموئيل ثان ٢: ١٣: ١ (٣) صموئيل ثان ٣: ٦-١١

(٤) صموئيل ثان ٣: ١-٤: ١٢، وكذا M. Noth, op.cit., p. 180

الأعرج الصغير - إنما هو الآن الذكر الوحيد الباقي من نسل شاؤل[1].

وهكذا تخلص داود من معارضيه، وخلص له حكم إسرائيل وحده، ودانت له الأسباط جميعًا، «وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك، إلى حبرون، فقطع الملك داود معهم عهدًا في حبرون أمام الرب، ومسحوا داود ملكًا على إسرائيل، كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة، في حبرون، ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ملك ثلاثًا وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا»[2].

وأما متى كانت سنوات حكم داود هذه؟ فذلك موضع خلاف بين المؤرخين، فهناك من يجعلها في الفترة (١٠١٠ - ٩٥٥ق.م)[3]، ومن يجعلها في الفترة (١٠٠٤-٩٦٢ق.م)[4]، ومن يجعلها في الفترة (٩٨٥ - ٩٦٣ق.م)[5]، ومن يجعلها في الفترة (١٠١٢-٩٧٢ق.م)[6]، ومن يجعلها في الفترة (١٠٠٠-٩٦٠ق.م)[7]، وهكذا.

(٥) داود والفلسطينيون

كان الفلسطينيون ينظرون إلى التطورات الجديدة بقلق شديد، إذ أن فيها قلبًا لكل الموازين القديمة، فقد كانوا يعتبرون كلا من إيشبعل وداود من مواليهم، وبخاصة فقد كان داود قبل ذلك، قانعًا بدائرة ملكه الصغيرة

---

(١) The Jewish Encyclopaedia, 4, p. 451.

(٢) صموئيل ثان ٥: ٣-٥.

(٣) G. Roux, op.cit., p. 454.

(٤) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٥) Historical Atlas of the Holy Land, N.Y., 1959, p. 81.

(٦) Isidore Epstein, Judaism, 1970, p. 35.

(٧) W.F. Albright, op.cit., p. 120-122.

وسوف نتبع في هذا الكتاب التواريخ التي قدمها لنا «وليم فوكسويل أولبرايت»، في كتابه:
The Biblical Period, From Abraham to Ezra, N.Y., 1963.

فى حبرون، تاركًا لهم حرية الإغارة على القبائل الشمالية فى أى وقت يشاءون، ومن هنا فإن الفلسطينيين لم يتقبلوا عن رضى اتحاد قوى اليهودية وإسرائيل، تحت قيادة داود ـ البطل الجديد وتابعهم القديم ـ وهكذا بدأوا يفكرون فى مقاومة هذه الوحدة، التى كان من الواضح أنها تهديد لسيطرتهم على فلسطين[1].

ونقرأ فى التوراة : «وسمع الفلسطينيون أنهم مسحوا داود ملكًا على إسرائيل، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود، واحتلوا وادى الرفائيين»، ويرجح أنه وادى البقاع جنوب غربى أورشليم، وذلك لأن منطقة أورشليم هى التى تفصل المناطق التى تحتلها إسرائيل، عن تلك التى تحتلها يهوذا، وبهذا قطعوا اتصال داود بالأسباط الشمالية، أو على الأقل، عملوا على منع تجميع جيوش المملكتين، حتى اضطر داود ـ فيما يرى الدكتور ماير ـ إلى الالتجاء، برجاله وأتباعه الستمائة، إلى الحصن الذى لابد أن يكون هو «مغارة عدلام» الشهيرة[2].

وشرع داود يستعد لملاقاة الفلسطينيين بفرقته من الجنود المحترفين، وربما قام بهجوم مفاجئ، قرب «مذبح بعل فراصيم» على «جبل فراصيم» ـ قرب وادى جبعون، وربما مكانه الآن رأس البنادر ـ فقد أتى داود من الجنوب من حبرون، وربما اقترب من سهل رفائيم، فى الطريق الأصغر، ولهذا لم يتلفتوا إليه، وقد نجح فى قهر الفلسطينيين تمامًا وهزيمتهم باستخدام وسائلهم الخاصة، فقد كان قائدًا من المرتزقة الذين كانوا يعملون مع الفلسطينيين، وكان يعرف أسلوبهم فى الحرب، فلم يواجههم ـ كما فعل شاؤل ـ بالجانب الأكبر من قواته، وإنما بفرقة من المرتزقة، التى ربما كانت قد عززت وتطورت أثناء حكم الملك على يهوذا، وكانت لديها الفهم

(١) M. Noth, op.cit., p. 187.

(٢) ف.ب. ماير، حياة داود، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٥٨، ص ٢٠٩.

المحترف لفن الحرب، وهكذا هزم داود الفلسطينيين بهذا الجهاز السريع الحركة، وبمهارته المنقطعة النظير[1].

ولكن سرعان ما قام الفلسطينيون بمحاولة ثانية، بعد أن قدروا ـ نتيجة الجولة السابقة ـ القوة والمهارة الحربية لعدوهم، الذى كان تابعًا لهم منذ سنين عدداً، ولم يعدوا كل قوتهم لمواجهته، ومن ثم فسرعان ما ظهروا مرة ثانية فى وادى رفائيم، وهزمهم داود مرة أخرى، فى مكان تصفه التوراة هذه المرة بأنه «مقابل أشجار البكا»[2]، وربما أطبق داود هذه المرة بقواته على الفلسطينيين من جانب دولة إسرائيل ـ من الشمال ـ وبلا شك فقد كان ذلك فجأة، كما حدث من قبل، وعلى أى حال ـ وطبقًا لرواية التوراة ـ فقد قام داود «بضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر»[3]، وإن ذهبت رواية أخرى إلى أنها «من جبعون إلى جازر»[4]، مقتفيًا أثرهم حتى حدود بلادهم»[5].

وهكذا كتب لداود النصر المبين على أقوى أعدائه وأكثرهم أهمية، كما كتب له نجحًا بعيد المدى فى طردهم من المناطق الإسرائيلية، بل إننا لنسمع عن قتال دقت طبوله عند «جت» ـ وهى واحدة من المدن الخمسة الرئيسية فى الاتحاد الفلسطينى ـ ومن ناحية أخرى، فقد احتفظ داود بمدينة «صقلغ»، وأورثها لولده من بعده، بل وقد أصبحت مدينة «جت» مدينة إسرائيلية تحت حكم داود[6].

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 187-188.

(٢) صموئيل ثان ٥ : ٢٣.

(٣) صموئيل ثان ٥ : ٢٥.

(٤) أخبار أيام أول ١٤ : ١٦.

(٥) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 188-189.

(٦) Adolphe Lods, Israel, From its Beinnings to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, p. 360.

ومع ذلك كله، ورغم انتصارات داود على الفلسطينيين - والتى حدثتنا عنها التوراة فى سفر صموئيل الثانى[١] - والتى، وإن لم تجعل الفلسطينيين تابعين لداود سياسياً، فقد أجبرتهم على الاعتراف بسيادته على الجزء الأكبر من البلاد، ومع ذلك كله، فقد بقى الفلسطينيون فى إقليمهم الصغير، القوة الوحيدة التى لم يقدر لداود أن يخضعها إن عاجلا أو آجلا[٢].

ولعل السبب الرئيسى فى فشل داود فى إخضاع الفلسطينيين لنفوذه، إنما كان مصر؛ ذلك لأن مصر - رغم أنها كانت تمر بفترة ضعف فى هذه الآونة - فلقد أعطت الفلسطينيين من تأييدها، ما يمنع داود من ضمهم أبداً إلى نفوذه، بل إن السهل الساحلى الفلسطينى لم يصبح أبداً جزءاً من الأملاك الإسرائيلية، هذا فضلا عن أن الفلسطينيين سرعان ما يظهرون مرة أخرى كجماعة مستقلة فى القرن الثامن والسابع قبل الميلاد[٣].

(٦) داود ومؤاب

بدأ داود يقو بحملات ضد كل أعداء إسرائيل القدامى، ومع أن مملكة مؤاب قد قدمت الكثير من كرم الضيافة لوالدى داود، اللذين أودعهما هناك عندما هرب من غضب شاؤل، ورغم أن «راعوث» جدة داود - إنما كانت مؤابية كذلك، ورغم أن التوراة لم تذكر أية أسباب خاصة للحرب مع مؤاب، إلا أن مؤاب إنما كانت أول قوة هوجمت وهزمت، وذبح أكثر سكانها، وأخضع الثلث الباقى للسبى والإذلال[٤]، وهكذا أصبحت مؤاب ولاية تابعة لداود، وكما تقول التوراة: «وأصبح المؤابيون عبيداً لداود يقدمون هدايا»، وإن استمر النظام الملكى فيها، مع الاعتراف بالتبعية لداود[٥].

(١) صموئيل ثان ٥: ١٧-٢٥.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 194.

(٣) K.M. Kenyon, op.cit., p. 244.

(٤) صموئيل ثان ٨: ٢؛ وكذا: H.R. Hall, op.cit., p. 430.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 194.

(٧) داود والعمونيون والآراميون

ونقرأ في التوراة عن حروب ضد الآراميين[١]، وطبقاً لما جاء في سفر صموئيل الثاني[٢]، فقد اندفع الآموريون إلى هذه الحرب، بسبب تهور العمونيين، وبسبب عدم الاكتراث بالموقف الجديد في إسرائيل.

ولعل العمونيين إنما كانوا ما يزالون يخططون للتوسع على حساب الإسرائيليين في شرق الأردن، بالرغم من هزيمتهم على أيام شاؤل، وكان السبب المباشر لهذا الصدام هو إساءة العمونيين لرسل داود، الذين كانوا في مهمة ودية بمناسبة تغيير السلطة في عمون، حيث قام «حانون» ملك عمون «وحلق أنصاف لحاهم وقص ثيابهم من الوسط إلى أستاههم، ثم أطلقهم»[٣].

وأدرك العمونيون أن الحرب أصبحت أمراً لا مفر منه، ومن هنا بدأوا يطلبون معونة جيرانهم الآراميين في «آرام بيت رحوب» و«آرام صوبة»، وفي «معكة وطوب»، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال والمعدات، لمساعدة «ربة» عاصمة عمون، ضد الهجوم الإسرائيلي الذي أمر به داود تحت قيادة «يوآب بن صروية»، ونجح يؤاب في هزيمة هؤلاء الآراميين، ثم «رجع عن بني عمون، وأتى إلى أورشليم»[٤].

ويعلم «هدد عزر» ملك صوبة بذلك، ويستدعي «أرام الذي في عبر النهر» إلى حيلام - والتي ربما كانت عليم أو علمة في سهل حوران - ويتقدم قائده «شوبك» لملاقاة جيش إسرائيل، وينجح داود - الذي يبدو أنه كان على رأس جيشه هذه المرة - في إحراز النصر[٥].

---

(١) صموئيل ثان ٨: ٣-٨.

(٢) صموئيل ثان ١٠-٢٣.

(٣) صموئيل ثان ١٠: ١-٥.

(٤) صموئيل ثان ١: ٦-١٤؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 194-195.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 195.

وفي العام التالي يصدر داود أمره إلى قائده «يؤاب» بأن يدمر أرض العمونيين، وأن يحاصر عاصمتهم «ربة» أو «ربة عمون» - وتقع عند منبع يبوق، على مبعدة ٣٥ كيلا إلى الشرق من الأردن - وأخيراً أسرع داود بنفسه، بناء على طلب قائده، ليكون موجوداً عند الاستيلاء على قلعة المدينة، حيث عاقب العمونيين بقسوة، وطبقاً لرواية التوراة، فإن داود أمر بحرق المغلوبين، وسلخ جلودهم، ووشرهم بالمنشار، بعد أن وضعهم تحت نوارج وفؤوس من حديد، ثم وضع التاج العموني - بما فيه من ذهب وأحجار كريمة على رأسه، وبعبارة أخرى، فقد جعل نفسه ملكاً على عمون[1].

(٨) داود وأدوم

اتجه داود بعد ذلك إلى الجنوب - إلى آدوم - وكما نعلم من روايات التوراة - فإن مملكة أدوم لم تقم بأى عمل ضد داود بخاصة، والإسرائيليين بعامة، ومع ذلك فقد كانت - دائماً وأبداً - مكروهة من إسرائيل، وهكذا ودون أن نعرف السبب - كما كان الأمر بالنسبة إلى مؤاب - فقد هوجمت أدوم وأقيمت فيها مذبحة مروعة للذكور من أبنائها[2]، وطبقاً لرواية سفر الملوك الأول، «فإن يوآب وكل إسرائيل أقاموا فى آدوم ستة أشهر حتى أفنوا كل ذكر فى آدوم»[3].

ونقرأ فى التوراة - كما جاء فى سفر صموئيل الثانى[4] - أن داود قد هزم آدوم فى «وادى الملح» - والذى يظن أنه السنجة جنوبى بحر لوط - ويبدو أن ملك أدوم «حداد الثانى» - وهو الملك الثامن من هذه السلسلة - قد قتل فى هذه الموقعة، ولكن ولده (هدهد) - والذى ربما كانت أمه

---

(١) صموئيل ثان ١٢: ٢٦-٣١؛ وكذا: M.Noth, op.cit., p. 195.

(٢) H.R. Hall, op.cit., p. 431.

(٣) ملوك أول ١١: ١٥-١٦.

(٤) صموئيل ثان ٨: ١٣.

مصرية - قد استطاع الهروب إلى مصر، حيث تزوج هناك من أميرة مصرية، «أخت تحفنيس الملكة»، وعاش هناك ضيفاً على فرعون إلى أن مات داود، حيث بدأ الأمل يعاوده فى استعادة حقه الشرعى فى عرش أدوم[1].

وأما داود فقد استطاع أن ينظم أدوم كولاية تحت إمرة حكامه، وأن هذه الولاية البعيدة كانت مع ذلك مهمة بالنسبة إلى داود، فهى تمكنه من الوصول إلى خليج العقبة، ومن ثم إلى البحر الأحمر، هذا فضلا عن أنها إنما تحتوى على كثير من الرواسب المعدنية على حدود وادى العربة[2]، ومن هناك كانت أدوم ذات أهمية اقتصادية كبيرة بالنسبة إلى داود، ذلك لأن الصحراء العربية، والتى تمتد من نهاية جنوب البحر الميت، وحتى خليج العقبة، إنما كانت غنية بمعدنى النحاس والحديد[3]، وهكذا فإن داود سرعان ما استغل ذلك، «وهيأ داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب وللوصل، ونحاساً كثيراً بلا وزن»[4].

(٩) دولة داود ومدى اتساعها

لا ريب فى أن داود - عليه السلام - إنما قد كتب له نجحًا بعيد المدى فى أن يخلص قومه الإسرائيليين من النير الفلسطينى، وفى أن يحقق لهم الاستقلال التام، بل وأن يوجد لنفسه نفوذاً فى مؤاب وأدوم وعمون، وفى أن تقدم له الهدايا - وليس الجزى - من آرامى دمشق، هذا فضلا عما كتب له من نجح فى إقامة علاقات المودة مع «ترعى» ملك حماة، نكاية فى عدوهما المشترك «حدد عزر» ملك الآراميين فى صوبة.

---

(١) ملوك أول ١١: ١٤-٢٢، وكذا:

H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, p. 431;

وكذا: W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 65.

(٢) M.Noth, op.cit., p. 196.

(٣) W. Keller, op.cit., p. 188.

(٤) أخبار أيام أول ٢٢: ٤، وانظر: سورة سبأ، آية: ١٠-١١.

ومع ذلك فعلينا ألا نبالغ كثيراً في تقدير سعة مملكة داود، فنطلق عليها وصف «إمبراطورية» - كما أراد أن يصفها بعض المؤرخين الأوربيين[١] أو نبالغ في حدودها - كما فعل بعض الكتاب المصريين المحدثين - فنجعلها تمتد من نهر الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن دمشق إلى الخليج العربي[٢].

ومن ثم فربما كان ما حدده الحاخام الدكتور «ابشتين» ليس فيه من المبالغة الكثير، إذ رأى أنها إنما كانت تمتد من فينيقيا في الغرب إلى حدود الصحراء العربية في الشرق، ومن نهر العاص (الأورنت) في الشمال، إلى رأس خليج العقبة في الجنوب[٣]، ذلك لأن التوراة نفسها إنما تذهب إلى أن مملكة إسرائيل إنما كانت في أقصى اتساع لها «من دان إلى بئر سبع»[٤]، ومن ثم فالتوراة - كتاب اليهود المقدس، والتي اشتهرت بمبالغاتها فيما يتصل بمملكة إسرائيل - إنما تحدد لها من الشمال مدينة «دان» والتي تقع عند سفح جبل حرمون، عند تل القاضي، حيث منابع الأردن، على مبعدة ثلاثة أميال غربي بانياس[٥] - ومن الجنوب «بئر سبع» الحالية، ولم تشر التوراة إلى حدود لإسرائيل من الغرب أو الشرق.

هذا فضلا عن أن «فينيقيا» كانت - وبخاصة على أيام «حيرام» (أحيرام ملك صور ٩٨٠-٩٣٩ق.م)[٦]، سند الإسرائيليين الرئيسي في الاقتصاد والفن والعمارة - مستقلة، ولم تذكر التوراة نفسها أن «حيرام»

---

(١) O. Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, p.583.

(٢) علي إمام عطية، الصهيونية العالمية وأرض الميعاد، ص ٦٣.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 35.

(٤) قضاة ٢٠ : ١؛ صموئيل أول ٣ : ٢٠؛ صموئيل ثان ٢٣ : ٢؛ أخبار أيام ثان ٢١ : ٣١؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 236.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٣٥٦/١-٣٥٧.

(٦) ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، ص ٧١.

كان خاضعاً لداود أبداً، بل إن الذى يفهم من التوراة أن داود إنما قد حاول جاداً أن يوطد علاقاته الودية بحماه فى أقصى الشمال، فضلا عن الفلسطينيين فى الغرب، وأن السيطرة العبرية على أيام داود، لم تكتمل أبداً باستيلاء الإسرائيليين على كل فلسطين، وحتى الجزية فلم تكن ـ فيما يبدو ـ ترسل إلى القدس.

أضف إلى ذلك أن الرؤساء الفلسطينيين الجنوبيين إنما كانوا قد وضعوا أنفسهم ـ راغبين لا مكروهين ـ تحت حماية فراعين مصر الشماليين فى «تانيس» والذين يبدو أنهم كانوا يتبعون سياسة نشطة فى فلسطين فى تلك الأيام، ومن ثم يصبح هذا هو التفسير الصحيح لحقيقة أن «شيشنق الأول» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (حوالى ٩٤٥-٧٣٠ق.م) عندما غزا «يهوذا» بعد موت سليمان، فإنه قد سجل كل المدن التى استولى عليها، ولم يذكر من بينها هذه المدن الفلسطينية، ومن هذا يتضح أن هذه المدن كانت تحت الحكم المصرى، وفى عهد سليمان، فإن فرعون إنما كان يعتبر مدينة «جازر» من ممتلكاته، يمكنه أن يحرقها ويدمرها بدون اعتراض من العبرانيين[١]، بل إن فرعون كنص التوراة نفسها ـ إنما قدم هذه المدينة مهراً لابنته امرأة سليمان[٢].

ومن هنا رأينا «هربرت ويلز» (١٨٦٦-١٩٤٦ق.م) يقرر أن أرض الميعاد (المزعومة) لم تقع يوماً ما ـ ولن تقع ـ فى قبضة العبرانيين، هذا فضلا عن أن ما وطد ملك داود، وهيأ له شيئاً من الاتساع، أن أمور مصر كانت فى عهده مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور آشور مرتبكة كذلك، وقد منح هذا كله لداود شيئاً من الحرية والنشاط والتبسط وممارسة السيادة[٣].

وأياً ما كان الأمر، فإن حكم داود يمثل فترة الرخاء الوحيدة التى قدر

(١) H. R. Hall, op.cit., p. 431. (٢) ملوك أول ٩: ١٦.

(٣) H.G. Wells, The Outline of History, 1965, p. 279.

للشعوب العبرانية أن تعرفها على مر الدهر، وهى تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة «صور» الفينيقية، التى يلوح أن ملكها «حيرام» (٩٨٠-٩٣٦ق.م) كان رجلا قد أوتى نصيباً كبيراً من الذكاء والقدرة على عل المغامرة، وكان يبغى أن يكفل التجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال العبرانية، وكان الأصل فى التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر، بيد أن مصر كانت فى تلك الفترة فى حالة بالغة من الفوضى.

ولعل عقبات أخرى حالت دون مرور التجارة الفينيقية فى تلك الطريق، فذلك ليس موضوع دراستنا الآن، ومهما يكن من أمر، فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود ـ وكذا ولده سليمان ـ أوثق العلاقات، وعند ذلك أنشئت برعاية حيرام، أسوار أورشليم وقصرها ومعبدها، وفى مقابل ذلك، بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه، وأخذ سيل جسيم من التجارة يتدفق خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب[١]، بخاصة وأن داود قد سيطر تماماً على طرق القوافل القادمة من بلاد العرب الجنوبية[٣]، والتى كانت تمر فى مملكته من النهاية الشمالية لخليج العقبة على الجانب الشرقى لوادى عربة، وحتى غوطة دمشق، ثم ترتبط بالطرق المؤدية إلى شمال سورية فآسيا الصغرى، وتلك التى تمر بالصحراء الغربية إلى ميزوبوتاميا، مما كان له أكبر الأثر فى حالة دولة داود الاقتصادية، بل إن هناك من يذهب إلى أن حروب داود إنما كانت تهدف إلى هذا الغرض، على الرغم من أن المصادر المتبقية من عهده لا تعطى أهمية لذلك[٤].

---

(١) Herbert George Wells, A Short History of the World, p. 76.

(٢) انظر عن هذه الطرق فى بلاد العرب: محمد بيومى مهران، «دراسات فى تاريخ العرب القديم»، ص ١٢٣-١٣٦ (الرياض ١٩٧٧).

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 593.

(١٠) الأدب العبرانى فى عهد داود:

نمى الأدب اليهودى كثيراً فى عهد داود، كما بدأ الكهنة ورجال الدين يسجلون العقائد الإسرائيلية، وقد اعتمد كتاب العهد القديم (التوراة) على هذه المصادر جميعًا، فضلا عن الحوليات الملكية، وبهذا فقد صور لنا هذا العصر فى صور حية واقعية، على أنه من الجدير بالملاحظة هنا أن هذه الكتابات اليهودية لا تتحدث عن داود الملك، وإنما تتحدث عن داود الإنسان، وهى فى هذا لم ترتفع إلى مستوى داود النبى، الأمر الذى صوره القرآن الكريم فى جلاء ووضوح، وإن حاولت فى بعض الأحايين أن تتخلص من السقوط المريع الذى وصلت إليه بشأن النبيّ الأواب، فوصفته بما يتفق ومكان النبوة السامى إلى حد ما، كما نرى فى بعض آيات قليلة من أسفار صموئيل الثانى والملوك الأول والثانى وأخبار الأيام الثانى وإشعياء وهوشع[١].

وعلى أى حال فهى - فيما يرى بعض الباحثين - صورة لما يستطيع أن يكتبه الإنسان المعاصر[٢]، كما أنها تمثل أول محاولة عندهم لكتابة التاريخ، وأيًا ما كان أمر هذه الكتابة، فإن الشعر قد نمى على أيام داود، وكان داود نفسه يقرض الشعر، وقد بلغ من تضلعه فى الشعر والموسيقى أن الأجيال اللاحقة قد نسبت له وضع عدد من المزامير، التى بلغ من قيمتها الإنسانية العامة، وأهميتها الدائمة، أنها لا تزال تستخدم كمصدر روحى، وكوسيلة لرفع القوى الروحية[٣].

(١١) التنظيمات الإدارية والدينية والعسكرية فى عهد داود

لا ريب فى أن مملكة إسرائيل على أيام داود، إنما كانت تحتاج إلى

---

(١) صموئيل ثان ٨: ١٥، ٢٢: ٢١؛ ملوك أول ١١: ٣٨، ١٥: ٣، ١٠: ١٢؛ ملوك ثان ١٨: ٣؛ أخبار أيام ثان ٢٨: ٤-٥؛ إشعياء ٥٥: ٣-٤؛ هوشع ٣: ٥.

(٢) انظر: الإصحاحات من ٩ إلى ٢٠ من سفر صموئيل الثانى.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

عدد من الموظفين، أكبر عما كان الأمر عليه على أيام سلفه «شاؤل»، ومع ذلك فإن الهيئة الإدارية فى بلاط أورشليم، إنما كانت أقل تأثيراً بالنسبة إلى غيرها فى الدول المجاورة، فدولة إسرائيل الحديثة العهد، كانت ماتزال فى درجة من البداوة والفقر، مما يجعلها أقل من أن تصل إلى مستوى جيرانها، وإن حاولت أن تقلد ما عند الدول العريقة من نظم إدارية، وعلى سبيل المثال، فإن «المذكر» Mazkir والكاتب، إنما حاولت بهما إسرائيل تقليد بلاط الفراعين العظام ذلك لأن هناك ما يشير إلى أنهما إنما يشبهان اثنين من الموظفين فى البلاط المصرى[1].

وعلى أى حال، فإن مسجل داود - أو رئيس ديوانه - لابد وأنه كان موظفاً هاماً يوحى بالاحترام، وكانت وظيفته تدوين الحوادث الهامة، وحفظ الحوليات الملكية[2]، التى كانت دون شك، أساس كل الإشارات الحقيقية فى التوراة للنظام الإدارى والبناء الاجتماعى فى عهد داود، ومن بينها الإشارة إلى التعداد القومى الكبير[3]، الذى سار على الخطة التى اتبعت فى مارى، فضلا عن المعلومات التى وصلتنا عن حرس داود، والتى كان مكوناً من الكريتيين والفلسطينيين[4].

وليس هناك من ريب فى أن مدون الأخبار هذا، إنما كان أول من يدون الاسم الجديد لمليكه، ذلك أن داود - فيما يرى بعض الباحثين - لم يكن فى كل الاحتمالات يدعى «داود» على الاطلاق، وقد كان هذا الاكتشاف مدهشاً، وقد قام به حديثاً علماء حيرتهم عبارة فى نصوص معينة من قصر «مارى» على الفرات، فقد ظهرت فجأة الكلمة «دافيدم» -Davidi um مكررة فيه، وهى تعنى «وال» أو «قائد جيش»، ومن ثم فهى ليست

(١) O.Eissfeldt, op.cit., p. 584-585.

(٢) صموئيل ثان ٢ ١٦؛ ملوك ثان ١٨ ١٨، ٣٧.

(٣) صموئيل ثان: إصحاح ٢٤

(٤) صموئيل ثان ٨: ١٨، ١٥: ١٨، ٢٠: ٧

«اسم علم»، ولكنها «لقب» وقد أصبح فيما بعد اسم العلم «قيصر» لقباً، ومن قيصر هذا حصلنا على «كايزر» و«شيزار».

وفى حالة داود، فيبدو أن أسلوب الاشتاق سار فى طريق عكسى، فلقبه العسكرى - والذى من المحتمل أنه يرجع إلى عهد سابق أيام أن كان Con-dottiere - قد تحول إلى «اسم علم» له، ومن ثم فقد أصبح «دافيدم» هو (دافيد David) (داود) وأنه قد لصق به إلى يومنا هذا[١].

وعلى أى حال، فرغم أننا لا نعرف الكثير عن الشئون الإدارية فى إسرائيل على أيام داود، فليس هناك من شك فى أن داود إنما كان مسئولا عن بعض التغييرات الأساسية فى شئون الإدارة، والدليل على ذلك من قائمة الموظفين الكبار، والتى جاء فى التوراة - كما رواها سفر صموئيل الثانى [٢] - وكان كل منهم يدير هيئة من الهيئات الحكومية، يساعده فى ذلك دون شك هيئة من الموظفين الصغار، ومن الواضح أن هذا التنظيم قد أصبح تدريجيًا، ذلك لأن المقارنة بين القائمة التى قدمتها لنا التوراة فى سفر صموئيل الثانى[٣] - والتى ترجع على أية حال، إلى الجزء الأخير من عهد داود - وتلك التى قدمتها لنا التوراة كذلك - فى سفر الملوك الأول [٤] - عن موظفى عهد سليمان الكبار - تظهر المقارنة بوضوح تلك الزيادة المستمرة فى عدد الموظفين الرئيسيين[٥].

وأما فى الشئون الدينية، فقد بدأ داود يعمل على ضم رجال الكهنوت

---

(١) W. Soden, WO., I, 3, 1948, p. 197.

وكذا: W. Keller, op.cit., p. 192.

وكذا: M.Noth, op.cit., p. 179.

(٢) صموئيل ثان ٨: ١٦-١٨، ٢٠: ٢٣-٢٦

(٣) صموئيل ثان ٢٠: ٢٢-٢٦

(٤) ملوك أول ٤: ٢-٦

(٥) M. Noth, op.cit., p. 271.

إلى بلاطه، فبدأ بملء وظائف الكهنوت الشاغرة، بعد مذبحة (نوب) ـ على جبل المكبر، شرقى القدس ـ حيث قتل شاؤل كل نساء المدينة ورجالها وأطفالها وماشيتها، لإيوائها داود[١] ـ بواسطة مرشحيه هو، وبخاصة من أبنائه، وهكذا تمكن داود من أن يمنع احتمال التدخل الدينى فى سلطانه[٢].

وإذا كان الإله فى المزمور (٩٥: ٧) يعنى حقيقة الملك ـ كما يرى بعض الباحثين ـ فإن الملك إذن يتحدث كإله بطريقة تختلف تمامًا عن العادات والتقاليد الإسرائيلية القديمة[٣]، ويبدو أن داود قد حفظ فى ذاكرته كل تنظيمات الطقوس الدينية لعبادة (يهوه)، خاصة بشكل موسيقى كبير، وأنه فى هذه التنظيمات كذلك قد اتبع التأثير الأجنبى إلى حد كبير[٤].

وعلى أى حال، فقد كان داود فى تنظيمه لمملكته يستوحى المثل الشرقية العظمى من الممالك المجاورة له، ولكن من الطبيعى أن دولة داود إنما كان يغلب عليها الطابع العسكرى، أكثر مما يغلب على مصر وبابل، وكانت هناك شخصيات حربية مرموقة، مثل قائد الجيش (يوآب بن صروية)، ورئيس فرقة الجنود المرتزقة (بنايا هو بن يهو يا داع).

ومع ذلك فعلينا أن نتذكر أن مملكة داود، إنما كانت تبدو فى نظر المصريين والبابليين، كما لو كانت مملكة بربرية للغاية، ونظامها تقليد عقيم للإمبراطوريات الكبرى العظيمة فى مصر والعراق القديم، وربما لم يكن

(١) صموئيل أول ٢٢: ١٨-٢٣.

(٢) H.R. Hall, op.cit., p. 429.

(٣) O. Eisseldt, op.cit., p. 585.

وكذا:

S. Mowinckel, General Oriental and Specific Israelite Elemetns in the Israelite Conceptions of the Sacrad Kingdom, in Suppl, to Numen, IV, 1959, p. 283,F.

(٤) W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1953, p. 125F.

وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 585.

التعليم معروفًا وقت ذاك فى إسرائيل، ورغم أن بها - كما قلنا آنفًا - بعض الكتبة، ولكننا لا نعرف أى الحروف قد استعملت، ذلك لأننا لا ندرى إن كانت الأبجدية الفينيقية هى التى استعملت فى فلسطين الجنوبية، أم الآرامية، وإن كان من المحتمل أن المسمارية كانت ماتزال هى وسيلة المراسلات الأجنبية[١]، وأن داود إنما كان عنده كاتب بابلى يدعى «شوشا»[٢].

وكان الجيش الإسرائيلى على أيام داود، يتكون من عنصرين أساسيين: هما السبا والجيبوريم:

(أ) **السبا**: SABA، أى أفراد الحرس الملكى، وهم جماعة من رجال القبائل الأقوياء، كانوا يستدعون بصوت النفير، وبرفع الأعلام، أو إشعال النار على التلال، وهى قوات بدون زى موحد، كان تجميعها ووضعها تحت السلاح يعتمد على الإرادة الفردية الجيدة[٣]، وكان داود يستخدمهم ضد الشعوب المجاورة فى شرق الأردن، وكانوا يحملون معهم «تابوت العهد» إلى أرض المعركة، ومن الواضح أن داود إنما كان ينظر إلى «تابوت العهد» هذا، بأهمية كبيرة، لأنه يمثل تحالف القبائل الإسرائيلية جمعاء[٤].

(ب) **الجيبوريم**: Gibborim، وهى القوات الدائمة، وقد تكونت نواتها من ستمائة مقاتل، كانوا قد تجمعوا حول داود عندما نفاه شاؤل - أو بالأحرى عندما هرب منه - وكانوا يسمون «رجال داود الأقوياء»، وإن لم يكونوا جميعًا من الإسرائيليين، بل كان معظمهم فى الحقيقة من شعوب أجنبية[٥]، وعلى أى حال، فقد كانوا ينتمون إلى داود شخصيًا، وليس إلى

---

(١) H.R. Hall, op.cit., p. 429.

(٢) أخبار أيام ثان ١٨-١٦.

(٣) صموئيل ثان ١٩: ٨-١٠؛ ملوك أول ٢٢: ١٧؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 362.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 198.

(٥) A. Lods, op.cit., p. 362.

القبائل الإسرائيلية، وكانوا سلاحه فى خطواته الأولى نحو العرش الإسرائيلى وقد أحرز بهم انتصارات هامة، كانتصاره الحاسم على الفلسطينيين، وكاحتلال «دولة المدينة أورشليم»[١].

هذا وقد كان جيش إسرائيل وقت ذاك مقسماً إلى عدة فرق، فرقة من ألف، وأخرى من مائة، وثالثة من خمسين جندياً، وكانت كل فرقة تحت إمرة قائد خاص، أما اللواء الضارب فهو الذى يكوّن الحرس الملكى لداود[٢].

وكان داود مضطراً للحصول على مصادر مالية لإطعام جنده، ودفع أجورهم، ولتغطية مصاريف البلاط، وبخاصة نفقات أبناء الملك الذين كانوا يعيشون في ترف زائد[٣]، ويبدو أن داود قد حصل على ذلك من الحروب الناجحة التى كان يتبعها السلب والنهب، وفرض الجزية على المقهورين، وكان «أدورام» مسئولا عن جمع الجزية، ولايبدو أنه فى أثناء الاضطرابات التى صاحبت أخريات أيام داود، أن اشتكى الإسرائيليون من دفع الضرائب، وهى فريضة لا تطاق فى نظر البدو[٤].

(١٢) ورثة العرش والخلافات العائلية

لم تكن هناك قاعدة عامة قد وضعت بعد لخلافة العرش فى دولة إسرائيل الجديدة، ولكن مما لا شك فيه أن الابن الأكبر فى إسرائيل كان صاحب الحق فى ذلك، إلا أن مكانة الأم، وتحيز الملك، واختيار الشعب، وموافقة يهوه الصريحة، قد تكون سبباً فى اختيار أحد إخوته الصغار[٥].

وربما كانت فكرة داود عندما طلب من قبل «ميكال» لتكون له

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 198.

(٢) فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٣) صموئيل ثان ١٥ : ١؛ ملوك أول ١ : ٥.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 363.

(٥) A. Lods, op.cit., p. 364.

زوجة، إنما كان يبغى من ذلك، أن الابن الأكبر من هذا الزواج - وهو فى الوقت نفسه حفيد شاؤل - إنما سوف تكون له الأفضلية على بقية إخوته، من علات ميكال، وربما يستطيع كذلك هذا الابن المرتقب أن يجذب إليه عواطف هؤلاء الذين كانوا يؤيدون بيت شاؤل، ولكننا نقرأ فى التوراة أنه «لم يكن لميكال بنت شاؤل ولد إلى يوم موتها»[١]، وهكذا ضاع الأمل فى أن يكون خليفة داود، هو فى نفس الوقت حفيد شاؤل.

وأما بالنسبة لبقية أبناء داود، فطبقاً للقانون الإسرائيلي، كما قررته التوراة فى سفر التثنية[٢] - فإن للابن الأكبر نصيب الأسد من ميراث أبيه، بصرف النظر عن مكانة الأم بين علاتها من زوجات الأب، ومن هنا كان من الطبيعى أن يخلف داود على عرش إسرايل أكبر ولده، ولكن هنا فى حالة داود - مؤسس الملكية والبيت المالك - فإن الابن الأكبر، الذى ولد بعد اعتلائه العرش مباشرة، ربما كانت له أفضلية خاصة، ولكن أبناء داود أنفسهم ما كانوا يعيرون المظهر الأخير أية أهمية خاصة، وإنما كانوا يعتبرون أنفسهم جميعاً خلفاء محتملين للعرش، طبقاً لترتيب أعمارهم[٣].

وهناك فى التوراة قائمة بستة أبناء ولدوا فى حبرون، أثناء فترة ملكية داود على يهوذا، يقول سفر صموئيل الثانى: «وكان بكره أمنون من أخينوعم اليزرعيلية، وثانية كيلاب من أبيجايل امرأة نابال الكرملى، والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماى ملك جشور والرابع أدونيا ابن حجيث، والخامس شفيا ابن أبيطال، والسادس يثرعام من عجلة»[٤].

ولكن بما أنه كان لداود زوجتان، على الأقل، تعتبران أقدم من الأخريات (أخينوعم وأبيجال)، وطبقاً لرواية التوراة - فى صموئيل الأول[٥]

(١) صموئيل ثان ٦ : ٢٢.
(٢) تثنية ٢١ : ١٥-١٧.
(٣) M. Noth, op.cit., p. 200.
(٤) صموئيل ثان ٣ : ٢-٥.
(٥) صموئيل أول ٢٥ : ٤٢-٤٣.

- فربما كان البعض من هؤلاء الأبناء أكبر قليلا من الآخرين، وأن القائمة السابقة إنما كانت إضافة لإحصاء أبناء داود، الذين ولدوا فى أورشليم[1] وهم - طبقًا لإحدى روايات التوراة - «شموع وشوباب وناثان وسليمان ويبحار واليشوع ونافج ويافيع وأليشمع واليداع، واليفلط»[2].

وهكذا وبالرغم مما قام به داود من جهود فى سبيل إعلاء قومه اليهود، فإن حياته - أو النصف الثانى من فترة حكمه على الأقل - قد حفلت بالمآسى، وامتلأت بالصراعات الأليمة بين المطالبين بوراثة العرش من بنيه، ومن هنا كانت دسائس الحريم الملكى، إذ كانت كل واحدة من نسائه الكثيرات ترنو إلى أن يكتب لولدها التوفيق فى الوصول إلى عرش إسرائيل، دون غيره، من أبناء داود، ومن هنا نمت الغيرة القاتلة بين الأمراء الشبان، تزكيها عاطفة الشباب القوية أحيانًا والهوجاء أحيانًا أخرى.

ويوصف أمنون صراحة - فى سفر صموئيل الثانى[3] - بأنه ابن داود البكر، من زوجه الأولى «أخينوعم» اليزرعيلية، وهكذا اعتبر أمنون نفسه - كما اعتبره أخوته كذلك - ولى العهد، أو الملك القادم، ولعل الذى كتب قصة الوصول إلى العرش فى التوراة كان يشير إلى ذلك، بل إنه ليبدو واضحًا أن هذا هو السبب الوحيد الذى دفعه إلى أن يروى فى سفر صموئيل الثانى[4] قصة اغتيال «أبشالوم» لأمنون بمثل هذا التفصيل، كجزء من قصة اعتلاء العرش.

وعلى أى حال، فإن أمنون لم يكن حكيمًا بما فيه الكفاية، لأن يمد أبشالوم بحجة يعتمد عليها فى قتله، وذلك بالاعتداء على أخته غير الشقيقة «ثامار» ومن هنا بدأت أحداث قصة أبشالوم، حيث استطاع أن يثأر لعرض شقيقته المثلوم، كما استطاع كذلك أن ينجح فى إبعاد أمنون منافسه على

(١) M. Noth, op.cit., p. 200.

(٢) صموئيل الثانى ٥: ٣-١٦.

(٣) صموئيل الثانى ٣: ٢.

(٤) صموئيل ثان: إصحاح ١٣-١٤.

العرش، ووفقاً لرواية التوراة[١]، فإن «كيلاب» هو الابن الثانى لداود، ومن ثم فقد أصبح صاحب الحق فى العرش، ولكنه سرعان ما يختفى لسبب لا ندريه على وجه التحقيق، ومن ثم فقد أصبح أبشالوم - الابن الثالث - هو وريث داود الأول، ولكنه بدوره سرعان ما يختفى فى ثورة دامية، سوف نناقشها حالا، فتصبح ولاية العرش من حق الابن الرابع «أدونيا»، ولكنه لم يصل إلى العرش أبداً، حيث يكون ذلك من نصيب الابن العاشر «سليمان»، كما سوف نشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد.

(١٣) ثورة أبشالوم

بدأ أبشالوم يعد العدة لاعتلاء عرش أبيه، وكان أول ما فعله أن حصل - بمساعدة يوآب - على عفو أبيه المطلق، على قتله لأخيه «أمنون»، وربما كان ذلك العفو من داود بسبب عاطفته نحو بنيه بصفة عامة، وأبشالوم بصفة خاصة، ومن ثم فقد قام «يوآب» بالعمل على عودة أبشالوم من «جشور» حيث كان مختبئاً هناك عند أخواله، فذهب يوآب إلى جشور، وأتى بولى العهد إلى أورشليم.

وبدأ أبشالوم يبث الدعوة لنفسه بين قومه اليهود، وسرعان ما نجح فى اكتساب عطف وتأييد القبائل الإسرائيلية، وبخاصة يهوذا قبيلة أبيه، وحين استوثق من النجاح ذهب إلى «حبرون»، بإذن من أبيه، بحجة الوفاء بنذر كان قد نذره إبان إقامته فى «جشور»، وهناك فى تلك المدينة اليهوذية الملكية القديمة، أعلن عصيانه ونادى بنفسه ملكاً[٢].

وفى الواقع أننا لا ندرى تماماً الأسباب التى جعلت داود وقت ذاك غير مرغوب فيه من بنى قومه اليهود، لدرجة أن أبشالوم لم يجد صعوبة فى تنصيب نفسه ملكاً، بل إن ثورة أبشالوم سرعان ما ضمت إلى صفوفها

(١) صموئيل ثان ٣ : ٣.

(٢) صموئيل ثان ٣ : ٢٩، ١٤ : ١-٣؛ ١٥ : ٧-١٠

«أخيتوفل» وهو واحد من أخلص مستشارى داود، كما أن مشورته كانت تعد جزءاً من كلمة «يهوه»[١].

وانطلاقًا من هذا، فربما كانت القبائل الإسرائيلية غير راضية عن اتساع أملاك داود، التى بدأت تمتد إلى ما وراء مناطقها، ذلك لأن ضم إسرائيل لعديد من المدن المستقلة ذات المستوى المتقدم حضارياً، والتى تملك صناعات هامة، هذا فضلا عن سيطرتها على أراضى كبيرة وغنية، تمر خلالها طرق القوافل كل ذلك أدى إلى رخاء مفاجئ فى إسرائيل، تمتعت به طبقة خاصة صغيرة من رجال البلاط وكبار الموظفين وقادة الجيش والتجار، بينما كان معظم الناس يعملون جنوداً فى الجيش ويتحملون العبء الأكبر من الواجبات التى فرضتها عليهم حروب داود، دون أن يجنوا ثمار هذه الحروب، مما جلهم يحسون بعيوب هذه السياسة، وبمرور الوقت وتراكم هذه العيوب بدأ الناس يتبرمون بحكومة داود ويتقبلون دعاوى أبشالوم ضد أبيه[٢]، وأما أخيتوفل، فربما الذى دفعه إلى تيار المؤامرة ضد داود، أنه كان جد« بتشبع» الجميلة، وصاحبة القصة المشهورة[٣].

وعلى أى حال، فليس من الضرورى أن نفترض أنه فى بداية ثورة أبشالوم فى يهوذا ـ فى مدينة مولده حبرون ـ أن السبب الأساسى لهذه الثورة، إنما كان ذلك التوتر القائم بين إسرائيل ويهوذا، على الرغم من أن ذلك التوتر إنما ظل قائمًا أبداً، وأنه قد لعب دوراً هامًا فى هذه الثورة، بخاصة وأن يهوذا إنما بدأت تحس أن داود يفضل إسرائيل عليها[٤]، ومن

(١) ف.ب. ماير، حياة داود، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٦٢.

(٢) O.Eissfeldt, op.cit., p. 585-6.

وكذا:

A. Alt, Die Stastenbildung der Israeliten in Palstina Munchen, 1953, p. 56F.

(٣) ف.ب: ماير، المرجع السابق، ص ٢٦٢؛ وانظر: صموئيل ثان ١١: ٢-١٢: ١٢.

(٤) O. Eissfeldt, op.cit., p. 586.

ثم فربما استطعنا أن نضيف إلى أسباب الثورة الرئيسية، ذلك الاتجاه العدائي من القبائل الإسرائيلية ضد سياسته المركزية التي بدأت تسير عليها مملكة داود[١].

ومع ذلك، فإن وجهة النظر الخاصة بثورة أبشالوم، مازالت تنتظر مزيداً من الوضوح، ذلك لأن حركة السخط التي قام بها «شبع بن بكرى» ـ عن سبط بنيامين[٢] ـ بعد انتصار داود على أبشالوم ـ كما سوف نشير فيما بعد إنما قد استمدت قوتها الدافعة من المعارضة الدائمة بين قبائل الشمال والجنوب، ورغم أن داود قد نجح في القضاء على كليهما، وأن القضاء على الثانية كان أسرع من القضاء على الأولى، فالذي لا شك فيه أن الأمور في إسرائيل، ربما كانت سوف تتغير كثيراً بسبب هاتين الثورتين، لولا وجود شخصية داود القوية[٣]، ذلك لأن التنافس بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب كان أقوى عوامل هدم مملكة إسرائيل، وهو تنافس لم يقض عليه أبداً، بل هو نفسه الذي قضى على الدولة[٤].

وأيا ما كان الأمر، فإن ثورة أبشالوم هذه إنما كانت جد خطيرة، لدرجة أن داود لم يجد بجواره إلا جنوده المرتزقة، وحتى اضطر إلى أن يعبر الأردن إلى «محنايم» تحت حماية التابوت مع مرتزقته، حتى لا يفاجأ بأبشالوم وأتباعه في أورشليم.

وهكذا استطاع أبشالوم أن يستولى على أورشليم، وأن يغتصب عرش أبيه، بل إنه حتى لم يتورع عن أن ينتهك عرضه، بمشورة أخيتوفل، على مرأى من عامة الناس، «فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سرارى أبيه أمام جميع إسرائيل»[٥].

---

(١) W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 158.

(٢) صموئيل ثان ٢٠ : ١-٢٢.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 586.

(٤) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤١.

(٥) صموئيل ثان ١٦ : ٢٢.

غير أن بني إسرائيل إنما بدأوا بعد ذلك يعودون تدريجيًا إلى داود والانضمام إلى جيشه، ربما نتيجة لما بذله بعض المخلصين له من «حبرون»، وعلى رأسهم الكاهنان صادوق وأبياثار، هذا فضلا عما كان لغرور أبشالوم وأخطائه الكثيرة، وإصغائه للحمقى من المقربين له، من أثر سيء في نفوس الناس.

وقد حاول أبشالوم أن يمنع عودة أبيه إلى أورشليم، فجمع أنصاره قبل تفاقم الأمر، وزحف بهم إلى شرق الأردن، حيث كان أبوه في أرض جلعاد، وقد اجتمع إليه عدد كبير من الأنصار، ومن الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن التوراة قد أطلقت على أتباع داود اسم «الشعب»، وعلى أتباع أبشالوم اسم «إسرائيل»، وعلى أي حال، فلقد بدأ القتال في «وعر أفرايم»، قرب محنايم على الأرجح، حيث أثبت مرتزقة داود أنهم أعلى كعبًا من رجال القبائل الإسرائيلية الذين التفوا حول أبشالوم، ودارت الدائرة على أبشالوم، «فانكسر هناك شعب إسرائيل أمام عبيد داود، وكانت مقتلة عظيمة في ذلك اليوم» قتل عشرون ألف، وكان القتال هناك منتشرًا على وجه الأرض، وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب، على الذين أكلهم السيف في ذلك اليوم»[1]، وقتل أبشالوم أثناء هربه، على الرغم من أوامر داود الصريحة لجنوده بعدم قتله، مما أدى إلى حزن داود المرير على ولده، حتى «صعد إلى علية الباب، وكان يبكي ويقول هكذا وهو يتمشى: يا ابني أبشالوم، يا ابني يا ابني أبشالوم، يا ليتني مت عوضًا عنك، يا أبشالوم ابني يا ابني»[2]، وهكذا لم يعد أمام القبائل الإسرائيلية سوى المناداة بداود ملكًا عليها مرة ثانية.

---

(١) صموئيل ثان ١٨: ٦-٨.

(٢) صموئيل ثان ١٨: ٣٣.

(١٤) ثورة شبع بن بكرى

عاد داود مرة أخرى ملكاً على إسرائيل ويهوذا، غير أن هذه الأحداث التى مرت بها البلاد أثناء ثورة أبشالوم إنما كانت سبباً فى تفجير ثورة كامنة فى النفوس، وقد لعب داود نفسه، ولأول مرة ـ الدور الأول فى تفجيرها، ذلك أنه أثناء إقامته فى محنايم كان قد طلب من قبائل يهوذا أن تعيده إلى عرش يهوذا، كفرد منها، وحين فعل اليهوذيون ذلك، وعبر الملك إلى الجلجال، على مقربة من أريحا، ظهر ممثلوا قبائل إسرائيل، وأنبوا داود لعدم استدعائهم للاشتراك فى إحضاره إلى الجلجال، حيث أنهم يمثلون غالبية القبائل الإسرائيلية(١).

وكانت نتيجة ذلك الموقف الحرج، أن ظهرت بوادر تمرد من قبائل إسرائيل يتزعمه رجل بنيامى من سبط شاؤل يدعى «شبع بن بكرى»، ثم سرعان ما ضرب «شبع» هذا بالبوق، وقال: «ليس لنا قسم فى داود، ولا نصيب فى ابن يسى كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل، فصعد كل رجال إسرائيل من وراء داود، إلى وراء شبع بن بكرى»(٢).

وأما رجال يهوذا، فقد «لازموا داود ملكهم من الأردن إلى أورشليم، وكان أول واجبات داود بعد عودته إلى عاصمته أورشليم، أن يستدعى قواته من المرتزقة ومن حرس يهوذا، لإخضاع تمرد إسرائيل بقوة السلاح، وكتب لداود نجحاً بعيد المدى فى مهمته هذه، بفضل جهود قائده «يوآب» ذلك الرجل الذى كان يخشى على مركزه من اختيار «عماسا» لجميع قبائل يهوذا فى الجلجال، إذ يبدو أن «يوآب» إنما قد فهم من هذا الاختيار أن داود إنما يريد أن يحل «عماسا» فى مكانه فى قيادة الجيش، ربما لأنه لم ينس له قتله لولده أبشالوم ـ رغم أوامره الصريحة بعدم قتله ـ ومن ثم فقد انتهز «يوآب» الفرصة فقتل (عماسا)(٣) ـ كما قتل أبنير من قبل.

---

(١) صموئيل ثان ١٩ : ٩-٤٣.

(٢) صموئيل ثان ٢٠ : ١-٢.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 201-2.

وبدأ «يوآب» فى مطاردة «شبع بن بكرى»، ثم حاصره فى «آبل بيت معكة»[١] وطال الحصار حتى طلبت امرأة من المحاصرين أن تقدم لهم رأس شبع هذا فى مقابل فك الحصار، ومن ثم فقد «أتت المرأة إلى جميع الشعب بحكمها، فقطعوا رأس شبع بن بكرى وألقوه إلى يوآب، فضرب بالبوق فانصرفوا عن المدينة، كل واحد إلى خيمته، وأما يوآب فرجع إلى أورشليم إلى الملك».

غير أن هذا الصدام الذى كان بين مملكتى يهوذا وإسرائيل، الذى ظهر على أيام داود، وانتهى بالقضاء على شبع بن بكرى البنيامى، إنما كان فألاً سيئًا بالنسبة للمستقبل[٢]، وهكذا يبدو واضحًا أن ثورة أبشالوم إنما قد فجرت الخلافات العميقة بين إسرائيل ويهوذا، بل أنه نتيجة لذلك، إنما بدأ الأمل يعاود «مفيبوشث» - حفيد شاؤل - فى استعادة عرش جده، وطبقًا لرواية التوراة، فإن حفيد شاؤل هذا، إنما أعلن للقبائل الإسرائيلية: «اليوم يرد لى بيت إسرائيل مملكة أبى»[٣].

ولعل هذا هو السبب الذى جعل داود - طبقًا لرواية التوراة - ينتهز فرصة المجاعة التى انتشرت فى إسرائيل «ثلاث سنين، سنة بعد سنة»، وما أعقب ذلك من اضطراب للأمن، فيقضى على رهط شاؤل الأدنيين، ويشنق منهم فى أول أيام حصاد الشعير سبعة[٤].

---

(١) آبل بيت معكة: مدينة حصينة فى نفتالى، بمعنى «مرج بيت الظلم» أو «مرج بيت شخص يسمى معكة»، ومكانها الآن «تل آبل»، أو «تل القمح» وهى قرية غرب الأردن على ربوة تشرف على الوادى، على مبعدة ١٣ ميلا شمال بحيرة الحولة، مقابل دان. (قاموس الكتاب المقدس، ١/١).

(٢) صموئيل ثان ١٩: ٢-٢٠، ٤٤ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 202.

(٣) صموئيل ثان ١٦: ٣.

(٤) صموئيل ثان ٢١: ١-٩

(١٥) التعداد العام ونتائجه:

ونقرأ في التوراة أن ربَّ إسرائيل قد غضب على شعبه إسرائيل، «فأهاج عليهم داود قائلا: امض واحص إسرائيل ويهوذا، فقال الملك ليوآب رئيس الجيش الذى عنده: طف فى جميع إسرائيل، من دان إلى بئر سبع، وعدوا الشعب فأعلم عدد الشعب»، ويقوم «يوآب» بالمهمة التى تستغرق ستة أشهر وعشرين يوماً، و«كان إسرائيل ثمان مئة ألف بأس مستل السيف، ورجال يهوذا خمس مئة ألف رجل»[١].

وهنا يرسل «يهوه» ربُّ إسرائيل النبيَّ جاد، وطبقًا لرواية التوراة، فإن جاد النبيَّ إنما يخيِّر داود ـ بأمر من يهوه ـ بين «سبع سنى جوع فى أرضك، أم تهرب ثلاثة أشهر بين أعدائك، أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك»[٢]، ويترك داود الخيرة لربه، «الذى يجعل وباء فى إسرائيل من الصباح إلى الميعاد، فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع، سبعون ألف رجل، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم [٣] الربُّ عن الشر، وقال للملاك المهلك للشعب كفى، الآن رويدك»[٤].

ولعل من الغريب المدهش أن التوراة لا تقدم لنا هنا ـ كما قدمت سبباً للجوع بسبب الدماء التى أسالها شاؤل أنهاراً عندما قتل الجبعونيين[٥] ـ سببًا مقنعاً لغضب يهوه على شعبه، وإن أشارت أن ذلك إنما كان بسبب خطايا داود حيث يقول داود ملتمساً عفو ربِّه يهوه ورحمته بشعبه : «ها أنا

---

(١) صموئيل ثان ٢٤ : ١-١٧ . (٢) صموئيل ثان ٢٤ : ١٢ .

(٣) من الغريب المؤلم أن التوراة كثيراً ما تصور يهوه (الله) ليس معصوماً، وأنه كثيراً ما يقع فى الخطأ ثم سرعان ما يندم على خطئه، فهناك مثلا ندمه على اختيار شاؤل ملكاً (صموئيل أول ١٥ : ١١)، ثم ندمه على خلق الإنسان ـ وهو أشنع ما وقع فيه من أخطاء ـ (تكوين ٩ : ٦؛ إرمياء ١٨ : ٧-١٠؛ يونان ٣ : ٩-١٠؛ عاموس ٧ : ١-٦؛ رحمة الله الهندى، إظهار الحق، ترجمة عمر الدسوقى، ٢٥٣/١-٢٥٤).

(٤) صموئيل ثان ٢٤ : ١٥-١٦ . (٥) صموئيل ثان ٢١ : ١-٩ .

أخطأت، وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟، فلتكن يدك علي، وعلى بيت أبي»[1].

ثم تعود التوراة في سفر أخبار الأيام[2]، فتروى نفس الرواية، ولكنها ـ هذه المرة ـ إنما تقدم لنا أرقاماً لبنى إسرائيل وبنى يهوذا، تختلف عما قدمته في المرة الأولى، فتذهب إلى أن «إسرائيل كان ألف ألف ومئة ألف رجل مستلى السيف، ويهوذا أربع مئة وسبعين ألف رجل مستلى السيف»[3]. هذا بخلاف سبطى لاوى وبنيامين[4]، والتعارض هنا بين نصوص التوراة، ليس أمراً جديداً علينا، فنظائره كثيرة.

وعلى أى حال، فإن التوراة إنما تجعل التعداد الذى قام به داود ـ بأمر من يهوه ـ سبباً فى البلايا التى حاقت بإسرائيل من قبل ربها، وإن كنا لا ندرى لم يغضب ربُّ إسرائيل من قيام ملك إسرائيل بهذا التعداد، حتى يفرض عليه واحدة من بلايا ثلاثة: أقلها وباء يروح ضحيته «سبعون ألف رجل».

(١٦) ثورة أدونيا:

تختم التوراة حياة داود بثورة يقوم بها ولده الرابع «أدونيا بن حجيث» إذ يبدو أن شيخوخة داود وضعفه كانا سبباً فى أن ينقسم رجال بلاطه إلى حزبين، الواحد: يؤيد أدونيا، والآخر يناصر سليمان ـ الابن العاشر لداود ـ وذلك بفضل المساعى التى بذلتها «بتشبع» الجميلة، والأثيرة عند داود.

ويبدو أن «أدونيا» إنما قد أحس بالخطر الذى يهدده من زوج أبيه وحزبها، فقرر إعلان نفسه ملكاً على إسرائيل، قبل وفاة أبيه داود، معتمداً فى ذلك على حقه الواضح فى وراثة العرش، بصفته أكبر الأبناء سناً، بعد

---

(١) صموئيل ٢٤: ١٧.

(٢) أخبار الأيام الأول ٢١: ٥-٦.

(٣) أخبار أيام أول ٢١: ٥.

(٤) أخبار أيام أول ٢١: ٦.

مقتل أبشالوم - الابن الثالث لداود، وعلى تعضيد ومساندة رجال داود القدامى - وعلى رأسهم يوآب قائد الجيش، وأبياثار الكاهن من المعبد الملكى فى أورشليم - وعلى موافقة ضمنية من والده نفسه، ومن هنا «ترفع قائلا: أنا ملك، وعد لنفسه عجلات وفرسانا، وخمسين رجلا يجرون أمامه، ولم يغضبه أبوه قط، قائلا: لماذا فعلت هكذا»، ثم ذبح بقرا وغنما، ودعا جميع إخوته وجميع رجال يهوذا، وكان على رأس المدعويين يوآب قائد الجيش، وأبياثار الكاهن، ولكنه لم يدع إلى وليمته هذه «ناثان النبى» فضلا عن «بناياهو» رئيس فرقة الجنود المرتزقة، وسليمان[1].

وهنا بدأ الحزب المعارض - وعلى رأسه ناثا النبىّ، وبناياهو قائد الجنود المرتزقة ومنافس يوآب قائد الجيش، هذا فضلا عن اثنين من بطانة داود، وصادوق الكاهن الآخر من المبعد الملكى - يخطط لإبعاد أدونيا عن عرش أبيه، وهكذا انقسم رجال البلاط الملكى والجيش ورجال الدين فى مملكة داود إلى فريقين، كل منهما يسعى لتولية أمير من أبناء داود على عرش إسرائيل، ونجح الحزب المعارض لأدونيا فى الحصول على قرار حاسم من الملك المسن لإبعاده، واستخدوا فى ذلك «بتشبع» إحدى زوجات الملك، وانتقلت وراثة العرش من أدونيا إلى سليمان، وسمع أدونيا بما جرى، فذعر وانطلق إلى المذبح، حيث أخذ بقرونه، ولم يقبل أن ينفصل عنه، إلا إذا أمنه سليمان على حياته[2].

(١٧) وفاة داود عليه السلام

وتنتهى أيام داود، النبىّ الأواب، فى هذه الدنيا، وينتقل عليه السلام، إلى جوار ربه راضيًا، مرضيًا عنه من ربّه الكريم، واضطجع داود مع آبائه ودفن فى مدينة داود، وفى الواقع فإن دفن النبى الأواب فى مدينة أورشليم

(١) ملوك أول ١ : ٥-١٠.

(٢) ملوك أول ١ : ٤٩-٥٣.

(مدينة داود) لأمر غريب، ذلك لأن هناك عبارة طالما تكررت في التوراة، وهي أن فلاناً قد «انضم إلى قومه» أو «انضم إلى آبائه» [١]، وربما لا تعدو أن تكون إشارة عامة إلى العقيدة الإسرائيلية التي ترى : أن الموتى من أسرة ما، يجب أن يدفنوا في مكان واحد، ليبقوا كما كانوا على قيد الحياة[٢].

ومع ذلك، فهناك آيات خاصة لا تفصح فقط عن الرغبة في الدفن في مقبرة الأسرة، وتعتبر ذلك ميزة خاصة[٣]، وفي الوقت نفسه، إنما يعتبر الدفن بعيداً عن الأسلاف لعنة وكارثة كذلك[٤]، ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يدفن داود في مقابر أسرته في «بيت لحم»، وهو الحريص على التقاليد وبخاصة فيما يتعلق منها بأمور العبادة والدين، ويستطيع أي قارئ للتوراة أن يقدم الكثير من الأدلة على ذلك، بل إن داود لينقل عظام شاؤل ـ وكذا ولده يوناثان ـ من يابيش جلعاد، ليدفن «في أرض بنيامين في صيلع في قبر قيس أبيه»[٥].

ورغم ذلك، فإن داود نفسه الذي كان مخلصاً للعادات والتقاليد إلى هذا الحد، لم يدفن في مقبرة أسلافه في بيت لحم، وإنما في مقبرة جديدة في مدينة القدس، كما أشرنا آنفاً، وربما يقال أن ذلك ربما قد حدث بدون رغبة منه، أو أنه لم يترك تعليمات فيما يختص بمكان دفنه، ولكن هناك عبارات في التوراة يفهم منها أن الرجل المحتضر إنما كان يوصي أقرباءه بدفنه في مقبرة الأسرة[٦]، وأن داود الذي أعطى تعليماته النهائية لولده

---

(١) تكوين ٢٥ : ٨؛ قضاة ٢ : ١.

(٢) S. Yeivin, The Sepulchers of the Kings of the House of David, in , JNES, 7, 1948, p. 30.

(٣) قضاة ٨ : ٣٢؛ صموئيل ثان ١٩ : ٣٧-٣٨.

(٤) إرمياء ٨؛ وما بعدها، ٢٢ : ١٨ وما بعدها.

(٥) صموئيل ثان ٢١ : ١١-١٤.

(٦) تكوين ٤٩ : ٢٩ وما بعدها.

وخليفته سليمان فيما يختص بأعدائه لم ينس بطبيعة الحال التعليمات الخاصة بمكان دفنه[1].

ويذهب بعض العلماء إلى أن السبب فى دفن داود فى القدس - وليس فى بيت لحم - والأمر كذلك بالنسبة إلى خلفائه المباشرين، الاثنى عشر - طبقاً لرواية التوراة فى سفر الملوك - هو تقليد الملك داود لجيرانه من الملوك، ذلك أنه منذ القرن الثالث عشر، أو الثانى عشر قبل الميلاد، وحتى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد على الأقل، كان العرف السائد فى كل حوض شرق البحر الأبيض المتوسط، هو أن يدفن الملوك فى قصورهم، أو على مقربة منها، وليس داخل أسوار مدنهم فحسب[2].

وهكذا كان فراعين مصر، منذ أوائل القرن الحادى عشر على الأقل، وحتى النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد - أى فى أثناء الجزء الأكبر من العهد الملكى الإسرائيلى - كانوا يدفنون فى عاصمتهم «تانيس» فى فناء المعبد الكبير، وعلى مقربة من القصر الذى كانوا فيه يقيمون، وفى «جبيل» ليس بعيداً عن إسرائيل - اكتشفت مقبرة ملكها «حيرام» داخل فناء القلعة على مقربة من الشاطئ، وفى «بابل» كان من المعتاد أن يدفن الموتى داخل المنازل، وحتى فى فلسطين نفسها - قبيل أو أثناء عصر القضاة - كان ملوك دويلات المدن الصغيرة - كقاعدة عامة - يدفنون فى قصورهم، ومن هنا فقد عثر فى «مجدو» فى القرن الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد - فى القصر المركزى على قبر مقبب، وعلى أساس الآثار التى اكتشفت اعتقد المنقبون أنها مقبرة ملوك مجدو فى ذلك العصر[3].

---

(١) S. Yeivin, op.cit., p. 31.

(٢) S. Yeivin, op.cit., p. 36-37.

(٣) Ibid, p. 37-38.

الفصل الرابع

سليمان (٩٦٠-٩٢٢ق.م)

(١) السياسة الداخلية

ورث سليمان داود بعد تدبير محكم من أمه «بتشبع» جاء تفصيلاته في سفر الملوك الأول[١]، ومع ذلك فمن المستحيل أن نؤكد إلى أى حد كان الدور النشط الذى قامت به زوج النبيّ الأواب، وأم النبيّ الحكيم، فى الحصول على عرش إسرائيل لولدها، وإلى أى مدى نجحت فى استخدام «ناثان» - والذى كان من الواضح أنه زعيم الحزب المعارض لأدونيا منافس سليمان على عرش داود، ومن المستحيل كذلك - فيما يرى بعض الباحثين - أن نقرر أن ما قيل لداود، إنما كان هو الحق كل الحق، وعلى أى حال، وطبقاً لما جاء فى رواية التوراة، فإن من بين ما قيل لداود «أن ولده أدونيا قد نصّب نفسه ملكاً، بينما هو قد وعد «بتشبع» بأن يكون خليفته على عرش إسرائيل، ولدها سليمان، وهنا يتساءل ناثان النبيّ: «أأنت قلت أدونيا يملك بعدى، وهو يجلس على كرسى؟»، ولا ندرى تماماً، هل فوجئ داود بذلك؟ أم أن تأثير المحيطين به - وعلى رأسهم بتشبع وناثان هو الذى دفعه إلى أن يقول لزوجه: «إن سليمان ابنك يملك بعدى وهو يجلس على كرسى عوضاً عنى.. فخرّت بتشبع على وجهها إلى الأرض وسجدت للملك، وقالت: ليحى سيدى الملك داود إلى الأبد»[٢].

وهكذا حققت بتشبع وحزبها ما كانت نفوسهم تصبو إليه، ونطق داود أخيراً بقراره، وعين سليمان ملكاً بدلا عنه، وجعل «صادوق» الكاهن يمسحه بدون تأخير، وهكذا «نزل صادوق الكاهن وناثان النبيّ وبناياهو بن يهو ياداع والجلادون والسعاة، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود، وذهبوا

---

(١) ملوك أول ١: ١-٤٨.

(٢) ملوك أول ١: ٥-٣١.

إلى «جيحون» (وهو ينبوع أو مجرى فى ضواحى أورشليم) فأخذ صادوق الكاهن قرن الذهب من الخيمة، ومسح سليمان، وضربوا بالبوق، وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان، وصعد جميع الشعب وراءه، وكان الشعب يضربون بالناى، ويفرحون فرحًا عظيمًا، حتى انشقت الأرض من أصواتهم»[١].

وهكذا حلت السلطة المخولة لداود مشكلة الخلافة بضربة واحدة، وضاع أمل أدونيا إلى الأبد، وأصبح سليمان ملكًا فى أورشليم، وحاكمًا مع والده، ويمكن أن يعزى اختيار سليمان إلى كفاءته الشخصية، فهو لم يكن أبدًا أكبر أبناء داود الكثيرين، كما أنه لم يكن حتى أكبر الأبناء الذين ولدوا بعد اعتلاء داود لعرش يهوذا أو إسرائيل الموحدة، وأيًا ما كان الأمر، فلقد خلف سليمان أباه دون أية صعوبات أو ثورات داخلية.

ويبدأ سليمان عهده بالقضاء على كل منافسيه والتخلص من مؤامراتهم، وما قد يحيكون له من دسائس، وطبقًا لرواية التوراة[٢]، فإن ربه «يهوه» لم يغضب مما فعله، بل أحبه، ووهبه حكمة، لم يهبها لأحد من قبله ولا من بعده وبدأ سليمان بقتل أخيه «أدونيا»، صاحب الحق الشرعى فى العرش، ومن الغريب أن سليمان فيما تروى التوراة ــ قد أمنه على نفسه من قبل[٣]. ولكنها لم تشر إلى ثورة، أو حتى تمرد قام به أدونيا ليكون القتل جزاء وفاقًا لما صنع، وكل ما أشارت إليه أن أدونيا إنما لجأ إلى «بتشبع» أم سليمان لتكون شفيعته لدى ولدها، لكى يهبه «أبيشج» الشونمية، سرية أبيه داود، لتكون امرأة له، فإذا بسليمان يثور ثورة عنيفة، وكأن رجاء أدونيا هذا، إنما هو مؤامرة تهدد عرش سليمان، وجريمة يستحق من أجلها القتل، ومن ثم فقد أرسل سليمان بناياهو فبطش به فمات[٤] وإن كان البعض يذهب

(١) ملوك أول ١ : ٢٢-٤١.
(٢) ملوك أول ٢ : ١٢-١٣.
(٣) ملوك أول ١ : ٤٢-٥٢.
(٤) ملوك أول ٢ : ٣-٢٥.

إلى أن سليمان إنما قد رأى في هذه الخطوة، برهاناً على أن أخاه يتطلع إلى العرش، لأن العادة في إسرائيل وقت ذاك أن ينتقل حريم الملك إلى خليفته، ومن ثم فقد أعدم سليمان أخاه أدونيا

ويَبْدأ سليمان بعد ذلك يتجه إلى رجال البلاط من عهد أبيه وكان أولهم يوآب قائد جيش داود، الذى طالما نصحه بألا يتركه يذهب إلى شيول (يموت) في سلام، لأنه قد أراق من قبل دماء أبنير وعماسا في وقت السلم، ولأنه قد «خضّب منطقته التى على حقويه ونعليه» بالدماء[1]، ولم يجرؤ داود على معاقبته لاقترافه هذه الجرائم، لأنها كانت نافعة في تحقيق أهدافه، ولكن لابد للدم البرئ من الثأر له، لأن نتيجته ستكون خطيرة، حيث سيطالب يهوه بحساب عنه ذات يوم، كما انتقم من قبل من آل شاؤل لقتل الجيعونيين، وبهذا ألقى داود المسئولية على ولده سليمان، لإيجاد وسيلة للتخلص من خادم البيت الملكى القديم، ومع شناعة ما سوف يحدث، فقد بدا منطقياً، كما أوصاه كذلك بقتل شمعى بن جبرا البنيامى، الذى تابع داود بلعانته أثناء ثورة أبشالوم، ولكنه عفا عنه في لحظة كان الكرم فيها هو السياسة[2].

ونفذ سليمان نصائح أبيه داود، فقتل «يوآب» قائد جيش داود، وهو بجانب المذبح في خيمة الربّ، ثم قتل «أبيثار» الكاهن حتى لا يقف في وجهه إذا ما عن له أن يخالف شريعة يهوه، ثم جعل سليمان جلاده، وقائد الجنود المرتزقة «بنياهو» على الجيش، في مكان يوآب، كما جعل «صادوق» الكاهن في مكان (أبيثار)، وكان (شمعى بن جبرا) آخر رجال داود الذين كان سليمان يخشى بأسهم، فحدد إقامته - بادئ ذى بدء - في أورشليم، ثم اتهمه بأنه قد ترك مكان إقامته المحدد له بدون إذن منه، ومن ثم فقد أمر

(١) ملوك أول ٢: ٥

(٢) A. Lods, op.cit., p 366

«بناياهو»، «فخرج فبطش به فمات، وتثبت الملك بيد سليمان»، وهكذا أوفى سليمان بوصية أبيه، ومن ثم فقد قدر له أن «يحدر بالدم إلى الهاوية شيبة شمعي»[(١)].

ولست أدرى أكان ذلك حقًا من وصايا النبيّ الأواب، وأن سليمان الحكيم قد أراق حقًا كل هذه الدماء، أم أن كتبة سجلات سليمان قد كتبوا فيها ما كتبوا لتبرير مذابح خيل إليهم أنها قد حدثت فعلا، أم أن الأمر كله لا يعدو تحريفاً توراتيا، وهنا فهو ليس ذا خطر، فنظائره كثيرة.

واتجه سليمان بعد ذلك إلى تدعيم عرشه في الداخل، فاستخدم معظم موارد دولته في تقوية دعائم الحكومة، وتجميل العاصمة، ومن ثم فقد أقام سليمان كثيراً من الحصون، كما رم القديم منها، ووضع حاميات في المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، ليرهب بها الثائرين والغازين على السواء.

وعمل سليمان بعد ذلك على القضاء على طموح البطون والعشائر، التي كانت تطالب بضمان حياتها حياة كريمة، ذلك لأن الملك الجديد إنما يعرف تمامًا أن أخطر المشاكل التي واجهت أبيه داود من قبل، إنما كانت طموح بعض القبائل إلى التمتع بنوع من الحكم الديمقراطي الذي يضمن للشعب ابداء رأيه، فيما يتخذه الملك من قرارات، قد تؤذي الشعب جوعًاوعريًا ومرضًا، ولا شك أن هذه الرغبة إنما تتعارض كثيراً مع رغبة سليمان في الحكم المطلق، ومن ثم فقد ركز كل جهوده في تفتيت أي تحالف قد يقوم بين هذه القبائل، كما مزّق الحدود بينها ليخلق مشكلة دامية تفرق بين هذه القبائل، وتلهيها عن الانتباه إلى ما يرتكب من مخالفات الشريعة، وهكذا قسم سليمان مملكته إلى اثنى عشرة محافظة، على كل واحدة منها محافظ يتولى جمع الضرائب التي يحتاج إليها الملك،

(١) ملوك أول ٢: ٨-٩، ٢٦-٤٦

كما فرض على كل محافظة إعاشة الملك وحاشيته وجيشه وخيله شهراً فى السنة[1] ذلك لأن سليمان إنما كان فى حاجة إلى تزويد الجنود ـ وكذا الخيول ـ الموجودة فى الحصون التى أقامها بالمؤن والعلف، فضلا عن إعاشة القصر، الذى أصبحت متطلباته أكبر بكثير مما كانت على أيام شاؤل وداود[2].

وأيّا ما كان الأمر، فلقد كانت حدود المناطق الجديدة ـ باستثناء أربع أو خمس حالات ـ ليست متطابقة مع حدود القبائل الإسرائيلية، مما يتفق وهدف سليمان من تحطيم البناء الحكومى الإقليمى المستقل[3]، وإن كان هناك من يرى أن سليمان إنما كان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بين القبائل الإسرائيلية، وأن يؤلف منهم شعباً واحداً، ولكنه أفلس فى هذا وأفلست بلاد اليهودية معه[4].

وعلى أى حال، فلقد كان على كل منطقة من المناطق الجديدة «مشرفاً» أو «وكيلا»، عليه دون شك أن يوزع المسئولية الخاصة بالمؤونة بين الملاك المختلفين، وأن يراقب وصولها فى الوقت المحدد، وأن يجمعها فى مدن «الصوامع» ثم يسلمها فى أورشليم فى الشهر المعين، وكان على رأس هذا النظام موظفاً أعلى كان يسمى «رئيس الوكلاء» لم تظهر وظيفته على أيام داود، وإنما ظهرت ـ لأول مرة، بين الموظفين الكبار فى عهد سليمان، ومن هنا كان الصدام بحرية القبائل الإسرائيلية، وذلك عن طريق التصرف فى إنتاج زراعاتهم ونتاج مواشيهم بطريقتهم الخاصة، أو على حسب هواهم[5].

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٣٧؛ أندريه إيمار وجانين، بوابة الشرق واليونان القديمة (مترجم)، ص ٢٦٦، (بيروت ١٩٦٤)؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 591.

(٢) صموئيل ثان ٩ : ٩، ١٣ : ٢٣، ١٦ : ١ وما بعدها، ١٩ : ٢٥ وما بعدها، وكذا:
O. Eissfeldt, op.cit., p. 591.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 371.

(٤) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٥) M. Noth, the History of Israel, p. 212-213.

ويبدو أن المدن الكنعانية التي كانت قد احتفظت باستقلالها حتى ذلك الوقت، مثل دور ومجدو وتعناك وبيت شان - قد ضمت إلى مملكة إسرائيل، أما منطقة يهوذا - أو على الأقل الإقليم الجبلى منها - فلا يبدو أنها كانت تكون جزءاً من أى إقليم من الأقاليم الاثنى عشر، مما يدل على أن سليمان قد أعفى هذه القبيلة الملكية من الواجبات المفروضة على غيرها، وتساعد هذه الحقيقة على تفسير الكراهية المتزايدة التى نمت فى قبائل الشمال ضد ملك أورشليم، والتى اندلعت بقوة، للمرة الأولى أثناء حكم سليمان، عندما فرضت السخرة على رجال إسرائيل، من أجل تحصين العاصمة، وقد أخمد التمرد، وأجبر زعيمه «يربعام» على الهروب إلى مصر[1]، على أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن «يهوذا» لابد وأنها قد كلفت بعمل آخر، لأنه من غير المقبول أن تترك بدون أى التزام مالى نحو الدولة[2].

(٢) السياسة الخارجية

كان سليمان مختلفاً عن أبيه داود، ولعل الفرق بينهما يكمن فى أن داود كان محارباً، بينما كان سليمان يبتعد عن الحروب، قدر ما وسعه هذا الابتعاد، فهو لم يكن محارباً كداود، ولم تكن عنده خبرة بالحروب أو حياة المعسكرات منذ صباه، ولم تكن لديه الرغبة لمزاولة مثل هذه الأمور، بل إنه كان إذا ما أحاطت به المصاعب من كل جانب، إنما يحاول أن يتجنبها بالطرق الدبلوماسية والتى ورثها عن أبيه كذلك، وإن كان مع ذلك قد أدرك جيداً أنه من الضرورى أن يكون له جيش قوى يحمى مملكته[3].

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 371-372.

(٢) O. Eissfeldt, CAH, II, Part 2, 1975, p. 591.

(٣) وكذا: W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 1953, p. 140F.

O. Eissfeldt, op.cit., p. 589.

وعلى أى حالٍ فلقد أدرك سليمان بتفكيره السليم، أن مملكته الصغيرة لن تعيش إلا بالتفاهم مع جيرانها، وقد قضت عليه هذه السياسة أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الأمراء والملوك، ومن ثم فقد تزوج من بنات أمراء العمونيين والمؤابيين والآراميين والكنعانيين والحيثيين[١]. ثم ساعدته الظروف بأن كانت أحوال مصر وآشور فى أوائل عهده مرتبكة إلى حد كبير، فنعم فترة بالسلطان الذى وصل إلى حد أن يصاهر فرعون مصر، وأن تكون الأميرة المصرية السيدة الأولى فى مملكته، أو الزوجة الرئيسية، كما كانوا يسمونها[٢].

ويعلق «هوبرت ويلز» على هذا الزواج بقوله: كان من الجائز أن يتنازل فرعون مصر، فيقبل فى حريمه أميرة بابلية، ولكنه يرفض رفضًا تامًا أن يسمح لأميرة مصرية، لها ما لها من قداسة، أن تصبح زوجة لملك بابل - وهو أمر سبق لنا مناقشته من قبل - فما بالك بملك صغير كسليمان استطاع أن يتزوج من أميرة مصرية، إن هذا يدل دلالة واضحة على تدهور مهابة مصر ونفوذها فى هذه الأثناء[٣].

وعلى أى حال، فإننا نقرأ فى التوراة : أن فرعون «قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة، وأعطاها مهرًا لابنته امرأة سليمان»[٤]، ونطالع هذه الأمور، وكأنما هى تاريخ حقيقى، ولكننا لا نلتقى بما يؤكدها من الجانب المصرى، وأما الشك من الناحية التاريخية، فإنه، وإن حصر فى حدود ضيقة نسبيًا، إلا أنه يكفى للتشكيك فى أى الفراعين هو المقصود هنا، هذا إلى أن الاسم «تحبنيس» Tahpeness لا يستطاع مطابقته على نظير له بالهيروغليفية[٥].

---

(١) ملوك أول ١١ : ١-٢.

(٢) ملوك أول ٢ : ١، وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 601.

(٣) H. G. Wells, The Outline of History, p. 280.

(٤) ملوك أول ٩ : ١٦.

(٥) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 329.

وأيًا ما كان الأمر، فهناك من يقترح الملك «سي آمون» [١] ، ومن يذهب إلى أن صهر سليمان، إنما كان الفرعون «بسوسنس الثاني» [٢] ، ومن يرى أنه آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين [٣] (١٠٨٧-٩٤٥ق.م)، أو ما قبل الأخير من ملوك هذه الأسرة [٤] ، بل إن هناك من العلماء من يرى أن صهر سليمان، إنما كان «شيشنق الأول» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين [٥] (٩٤٥-٧٣٠ق.م) [٦] .

وعلى أي حال، فأيًا كان فرعون مصر هذا، الذي تنسب التوراة إليه مصاهرة سليمان، عليه السلام، فالذي لا شك فيه، أن الملك الإسرائيلي ـ فيما يرى سيسل روث ـ قد استطاع أن يقوي مركزه عن طريق التحالف مع مصر، بل إنه استطاع كذلك أن يضيف إلى مملكته إقليم جازر ـ القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية في الشرق الأدنى القديم، وهكذا اكتسبت المملكة الإسرائيلية موطئ قدم على البحر الأبيض المتوسط [٧] .

---

(١) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٨٩؛ وكذا:
O. Eissfeldt, op.cit., p. 588; A. Malamat, Aspects of the foreign Policies of David and solomon, JNES, 22, 1963, p. 1F.

(٢) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٢٩١؛ وكذا:
W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, p. 66.

(٣) من المفروض أن آخر ملوك هذه الأسرة هو بسوسنس الثاني، ولكن هناك من يشير إلى بسوسنس ثالث؛ انظر: A. H. Gardiner, op.cit., p. 447 وكذا:
H. Gauthier, Le Livre des rois d'Egypte, III, p. 301.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 368.

(٥) J. H. Breasted, A History of Egypt, N.Y., 1946, p. 529,; W.O.E. Oesterley, Egypt and Israel, In the Legacy of Egypt, Oxford, 1947, p. 226.

(٦) A.H. Gardiner, op.cit., p. 448.

(٧) C. Roth, A Short History of the Jewish People , 1969, p. 21.

(٣) التنظيمات العسكرية

يذهب المؤرخون إلى أن سليمان لا يمكن أن يقارن بأبيه داود من الناحية العسكرية، غير أن هذا لا ينفى أبداً جهوده فى النواحى العسكرية، ذلك أن خليفة داود، المحارب الشجاع، إنما قد أدرك جيداً ضرورة تكوين جيش قوى للدفاع عن دولته، فضلا عن تجارته، ومن ثم فإن المصادر التاريخية إنما تنسب إليه وحده استعمال «العربات الحربية» فى جيش إسرائيل.

ونقرأ فى التوراة[١] أن داود عندما هزم مملكة «آرام صوبة» قد استولى على مئات الخيول، غير أن داود لم يكن يملك عربة واحدة، بل إنه رأى أن استعمال «العجلة الحربية» فى جيشه أمر ضرورى، على الرغم من أنه قد أدرك بنفسه أهمية هذا السلاح أثناء حروبه مع الآراميين، هذا فضلا عن أن المصريين إنما كانوا قد استخدموا هذا السلاح منذ مئات السنين[٢]، وكذا فعل الكنعانيون.

وهكذا ما أن ورث سليمان ملك أبيه داود، حتى أدخل هذا السلاح فى جيشه، بل إنه إنما جعل منه القوة العسكرية الرئيسية فى هذا الجيش، وربما كان السبب المباشر فى ذلك، أن الآراميين فى دمشق إنما قد كتب لهم نُجْحًا بعيد المدى فى استرداد نفوذهم المفقود بعد موت داود مباشرة، ومن ثم فقد أضبحت دولة «آرام دمشق» - نتيجة استخدامها لهذا السلاح - إنما تمثل تهديداً مباشراً لإسرائيل[٣].

وطبقًا لما جاء فى التوراة[٤]، فإن سليمان إنما كان يملك ما بين

(١) صموئيل ثان ٨: ٤-٥.

(٢) انظر: كتابنا «حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ١٤٠-١٤٣، ١٩٧-١٩٨، (الإسكندرية ١٩٧٦).

(٣) O.Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part 2, Cambridge, 1975, p. 583-589.

(٤) ملوك أول ٥-١١.

١٤٠٠، ٤٠٠٠ حصاناً [١] ، وأما عن مبانى الثكنات العسكرية الخاصة بفصائل العجلات الحربية ـ طبقاً لما جاء فى سفر الملوك الأول [٢] ـ فقد اكتشف فى «مجدو» وغيرها اسطبلات للخيول، وحظائر للعربات مع بعضها، وكانت تلك التى فى «مجدو» تسع ١٥ عربة، ٤٥٠ حصاناً[٣].

هذا وقد كان قائد العربة الحربية يتلقى تدريبات طويلة شاقة، ويظل فى الخدمة طالما كان قادراً على آداء وظيفته، أو على الأقل لعدة سنوات، ومن ثم فإنه يصبح جندياً محترفاً، وعندما زاد عدد العربات أصبح من الضرورى استخدام عدد لا بأس به من الجنود المرتزقة، ذلك لأن عدداً قليلاً من الإسرائيليين الذين كانوا مكلفين بالخدمة العسكرية كانوا يصبحون جنوداً محترفين، وليس هذا يعنى ـ بحال من الأحوال ـ أن هؤلاء الإسرائيليين المجندين بالجيش، ولا يعملون فى سلاح العربات الحربية، قد أعفوا من القيام بالمهمات العسكرية، بل على العكس من ذلك، كان الواحد منهم إذا لم يستدع للخدمة فى الجيش، فإنه إنما يكلف بالعمل فى بناء التحصينات والحظائر الخاصة بالعربات، فضلا عن العمل فى مشاريع سليمان البنائية الأخرى، ومن ثم فلعل من الأفضل أن نطلق على العمل الذى اشتهر باسم «السخرة» Corvee خدمة الأعمال العامة لبناء وصيانة التحصينات الدفاعية وخدمة الجيش[٤].

---

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 589.

وكذا: W.F. Albright, op.cit., p. 135F.

(٢) ملوك أول ٩: ١٩، ١٠: ١٦.

(٣) W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, p. 127, 223;

وكذا: Y. Yadin, New Light on Solomon's Megiddo, BA, 23, 1960, p. 62F.

وكذا: C. Watzinger, Denkmaler Palastines, I, Lepizeg, 1933, p. 67F, Figs. 80-81.

(٤) O. Eissfeldt, op.cit., p. 590.

وهناك رواية فى التوراة، على الرغم من أنها تشير إلى أحداث تمت بعد موت سليمان، بحوالى عشرين عامًا، إلا أنها تمكننا من معرفة طبيعة هذه الخدمة فى الأعمال العامة، ذلك أن سفر الملوك الأول[1] يروى أن «بعشا» (٩٠٠-٨٧٧ق.م) بعد أن بدأ يحكم إسرائيل من «ترصة» - وهى ترزة فى مكان تل الفارعة الحالية، على مبعدة ١١ كيلاً شمال شرق شكيم - بنى حصنًا على حدود مملكته الجنوبية عند «الرامة» وهى تل الرامة الحالية على مبعدة ستة كيلو مترات شمالى أورشليم - لاتخاذها مركزًا عسكريًا، لتهديد يهوذا، غير أنه ترك هذا الحصن شاغرًا، بسبب هجوم الآراميين على منطقته، وعندئذ استدعى «أسا» (٩١٥-٩١٣ق.م) ملك يهوذا، كل جيشه لاستخدام الأحجار والأخشاب التى فى حصن بعشا فى حصونه التى أقامها فى «جبعة» - على مبعدة ثلاثة كيلو مترات شرقى الرامة - بغية الدفاع عن مملكته يهوذا، ضد أى هجوم يمكن أن تقوم به إسرائيل ضدها[2].

وكان الرجال المكلفون بالخدمة العامة فى عهد سليمان، يستدعون طبقًا لكشوف ثابتة، تحدد الأعمال التى يمكنهم القيام بها فى المجال الزراعى والصناعى وكانوا بطبيعة الحال يتأثرون من هذا الاستدعاء فى وسائل كسب عيشهم[3] وإذا كانت رواية التوراة عن السخرة صحيحة، فإن الشخص المسئول عن السخرة هذه، إنما كان «أدونيرام» والذى كان يقوم بنفس العمل على أيام داود[4]، كما أشرنا من قبل.

وليست هناك أدلة واضحة ومؤكدة على أن سليمان قد فرض السخرة على كل مملكته، وأن يهوذا - والتى كان لها مركز خاص عند بيت داود -

---

(١) ملوك أول ١٥ : ١٦-٢٢.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 590.

(٣) ملوك أول ٤ : ٦، ٤ : ٢٧-٣٠، ١١ : ٢٠-٣، ٣ : ١-١٨.

(٤) ملوك أول ٤ : ٦، ٥ : ١٤، ١٢ : ١٨.

قد أعفيت منها، وعلى أى حال، فإن التقاليد الخاصة بانقسام مملكة إسرائيل بعد موت سليمان ـ كما سوف نرى فيما بعد بالتفصيل ـ تشير إلى أن إسرائيل ـ وليست يهوذا ـ هى التى تحملت العبء الأكبر من هذه الخدمة العامة[١].

(٤) النشاط التجارى

امتاز عهد سليمان بنشاط تجارى عظيم، حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنه يمكن أن يطلق على سليمان «الملك التاجر»، فقد احتلت التجارة من اهتمامه وتدبيره مكاناً كبيراً، بل إن فصائل العربات التى أنشأها سليمان ـ كما أشرنا من قبل ـ إنما جعلها فى خدمة التجارة، عندما لا تكون فى خدمة الدفاع عن الحدود[٢].

هذا وقد ساعد على نجاح التجارة فى عهد سليمان، سيطرته التامة على الطرق التجارية فى سورية وفلسطين، والتى كانت قائمة منذ عهد أبيه، وليس هناك من شك فى أن سليمان إنما قد احتفظ بحقوقه كاملة على طرق القوافل، التى كانت تمر عبر أراضى «آرامى دمشق»، فضلا عن تلك التى كانت تمر عبر أراضى الآدوميين[٣].

ومن هنا نراه يهتم بتحصين المراكز التى كانت تسيطر على الطرق التجارية الهامة التى كانت تمر بمملكته، حتى أصبحت فلسطين قنطرة بين آسيا وأفريقيا، كما استغل سليمان شمالاً وجنوباً، علاقاته الودية من ناحية، ومهارته السياسية من ناحية أخرى، فضلا عن أن حدوده الجنوبية كانت آمنة بسبب صلاته الطيبة بمصر، هذا إلى أن تحالفه مع «حيرام» ملك صور، وهو فى نفس الوقت أقوى الأمراء الفينيقيين، قد حمى مواصلات سليمان مع

---

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 591.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 196.

(٣) Ibid, p. 587.

المدن الفينيقية وهكذا تمكنت القوافل التجارية من السفر بصفة دائمة من أراضى مصر إلى بلاد النهرين، ومن فينيقيا إلى الجزيرة العربية فى أمان وسلام[١]، وبذا نجح سليمان فى احتكار مصدر الثروة العائد من التجارة.

ولعل الذى دفع سليمان إلى الاتجاه إلى التجارة، أن كنعان كانت بلداً زراعية خاليًا من الصناعة، مما اضطره إلى أن يحضر الصناع من صور، والنجارين من بيبلوس، عندما أراد بناء معبده، كما أن التاجر الفلسطينى لا يملك سلعًا للتصدير يمكن أن تقوم عليها تجارة ناجحة، ولكنه فى موقع يمكن أن يتصرف منه كوسيط، وقد أدرك سليمان هذه الحقيقة فاشتغل بتجارة الخيول[٢].

ولم تفلت تجارة المرور التى كانت من قبل حرة من يد سليمان، ومن ثم فقد احتكرها وفرض عليها إتاوة، محتجاً ببعض الطرق التى عبّدها وزودها ببعض المحطات، وهكذا كانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية[٣]، والمحملة بالتوابل من تلك البلاد، خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمر بأراضى مملكة سليمان[٤].

ونقرأ فى التوراة ـ فى سفرى الملوك الأول والأخبار الثانى[٥] ـ أن

---

(١) H. R. Hall, op.cit., p. 433.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 370.

(٣) أهم طريق القوافل هذه طريقان، الواحد: الطريق الجنوبى الشمالى، ويبدأ من عدن وقنا فى بلاد اليمن وحضرموت ثم مأرب إلى نجران فالطائف ثم مكة ويثرب وخيبر والعلا ومدائن صالح، وهنا ينفصل، فيتجه فرع منه إلى تيماء صوب العراق، ويستمر الفرع الآخر إلى البتراء فغزة ثم الشام ومصر، وأما الطريق الثانى: فهو طريق: جرها ـ البتراء، ويبدأ من الهفوف، ثم إلى شمال اليمامة فى موقع مدينة الرياض الحالى، ثم يتجه غرباً إلى بريدة ثم حائل فتيماء ثم البتراء،... وهكذا. (انظر: محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، الرياض ١٩٧٧، ص١٣٣-١٣٦).

(٤) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٧؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٥) ملوك أول ١٠: ٢٦-٢٩؛ أخبار أيام ثان ١: ١٤-١٧.

سليمان كان شغوفًا بالخيل، رغم أن ربَّ إسرائيل كان - طبقًا لما جاء في التوراة[1] كذلك - قد حذَّر ملوك إسرائيل من الخيل والنساء والذهب، غير أن سليمان إنما كان يرى أن «الفرس معدة ليوم الحرب»، وإن «كانت النصرة من الربِّ»[2]، وسواء أكان ولع سليمان بالخيل لأنها أداة حرب، أم لأنها وسيلة كسب، وسواء أكانت زوجه المصرية، أو أن بعضًا من رجاله قد أشاروا عليه بالاتجار في الخيل، فالمعروف أن الخيل على أيام سليمان كانت سلعة تجارية تستحق الاهتمام، وأن إسرائيل في تلك الفترة إنما كانت تكاد تحتكرها تمامًا، ذلك لأن كل طرق القوافل الهامة بين مصر وسورية وآسيا الصغرى، كانت تمر بمملكة سليمان[3].

وكانت مصر المصدر الرئيسي للخيل والمركبات، ونقرأ في التوراة: «وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر، وجماعة تجار الملك أخذوا جليبة بثمن، وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بست مئة شاقل من الفضة والفرس بمئة وخمسين[4]، أي أن قيمة الحصان إنما كانت تساوي ربع قيمة العربة، وربما كان ذلك لأن سليمان كان يتمتع هناك في مصر بامتياز خاص عن طريق حميه الفرعون، ولأن صناع المركبات المصريين إنما كانوا على درجة عالية من المهارة في صنع المركبات السريعة ذات العجلتين الخاصة بالصيد والحرب، كما كانوا يستوردون الخشب المتين من سورية، وهذا يفسر لنا الفرق بين سعر المركبة والفرس، وطبقًا لنص التوراة الآنف الذكر، وكما أشرنا آنفًا، فإن المركبة الواحدة تعادل أربعة خيول[5].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى مصدر آخر للخيول، هو «Koa»

(١) تثنية ١٧: ١٤-٢٠. (٢) سفر الأمثال ٢١: ٣١

(٣) Werner Keller, The Bible as History, p. 207

(٤) ملوك أول ١٠: ٢٨-٢٩ (٥) Eissfeldt, op.cit., p. 593.

وكذا: J. H. Breasted, The Down of Conscience, N.Y., 1939, p. 355.

وكذا: W.F. Albright, Archaeology and the Religion, Baltimore, 1953, p. 153

وهو اسم لدولة في «سيلسيا» كانت تقع في السهل الخصب بين جبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط، وتشتهر بتربية الخيول، ويذكر «هيرودوت» أن الفرس كانوا يحصلون على أحسن خيولهم من سيليسيا[١]، وأما سوق هذه التجارة، فقد كانت عند ملوك الآراميين والحيثيين[٢].

ويبدو أن سليمان قد أقام حظائر للخيل في جهات متعددة من مملكته، وقد ألقت بعثات الحفائر الأمريكية في «مجدو» الضوء على هذه الحظائر، فلقد عثر المكتشفون هناك على بقايا من عدة أجزاء كبيرة من اسطبلات الخيول، والتي كانت دائماً تنتظم حول فناء دائري مبلط بملاط من الحجر الجيري، ويخترق وسط كل اسطبل ممر عرضه عشرة أقدام وقد رصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل، وقد وضعت على كل جانب وراء نتوءات الأحجار، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام، ومايزال الكثير من هذه الاسطبلات محتفظاً بمعالف طعام الخيل، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقي ظاهرة.

ولعل مما يثير الدهشة فخامة تلك الاسطبلات حتى بالنسبة لظروف الحياة الحاضرة، والعناية غير العادية التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات، والتي يمكن الحكم عن طريقها، بأن الخيول إنما كانت ـ وفي أحسن ظروفها ـ مرغوباً فيها في تلك الأيام، وعلى أي حال، فلقد كان يعتني بها أكثر مما يعتني بالإنسان وعندما تم الكشف عن المبنى بأكمله، قدّر بعض الباحثين ـ كما أشرنا من قبل ـ لكل اسطبل ٤٥٠ حصاناً، ولكل حظيرة، ١٥ عربة، هذا وقد اكتشفت نظائر لهذه الاسطبلات في بيت شان وحاصور وتعنك، وكذا في أورشليم[٣].

(١) Werner Keller, op.cit., p. 207. وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 1036.

(٢) ملوك أول ١١: ٢٩.

(٣) W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, p. 124; M. Burows, What mean these Stones, New Haven, 1941, p. 127F; W. Keller, op.cit., p. 195; C. Watzinger, op.cit., p. 67F, 87F.

وأما تاريخ هذه الاسطبلات، فلا يمكن تحديده على وجه اليقين، وعلى أى حال، فهناك من الباحثين من يذهب إلى أن هذه الاسطبلات إنما هى من عمل فرسان الملك «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ق.م)، أكثر منها من عمل الملك سليمان [١] (٩٦٠-٩٢٢ق.م)، إلا أن أكثر الدراسات فى تاريخ مدينة «مجدو»[٢]، إنما تضع الطبقة الرابعة التى وجدت بها هذه الاسطبلات جزئياً على الأقل، فى عهد الملك سليمان، وأن بقايا هذه المبانى المشهورة إنما ترجع حقيقة إلى عهد سليمان[٣].

(٥) سليمان وملكة سبأ

لم يكن نشاط سليمان التجارى مقصوراً على تجارة الخيول هذه فحسب، وإنما امتد كذلك إلى التجارة مع دولة سبأ، كما تشير إلى ذلك قصة ملكة سبأ التى تحدثت عنها التوراة [٤] والإنجيل[٥] والقرآن العظيم[٦]، وقد اختلفت الكتب المقدسة الثلاثة فى سردها للقصة، تبعًا للغرض من السرد نفسه، وإن اتفقت جميعها على عدم ذكر اسم ملكة سبأ هذه، أو الأرض التى كانت تقيم فيها، إلا إذا أردنا بكلمة «سبأ» هنا، تلك الدولة التى قامت فى الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية.

---

(١) J. W. Crowfoot, PEQ, 1940, p. 143-147.

(٢) مجدو : تل المتسلم الحالية، وتقع إلى الغرب قليلا من بحيرة طبرية، وعلى مبعدة عشرين ميلا جنوبى شرقى حيفا، فى الطرف الجنوبى من سلسلة الجبال التى تنتهى بجبل الكرمل فى الشمال. (قاموس الكتاب المقدس ٨٤٠/٢-٨٤١).

(٣) J. Finegan, op.cit., p. 181; W.F. Albright, op.cit., p. 124; AJA. 44, 1940, p.646-550; R.M. Engberg, BA, 4, 1941, p. 12F; G.E.Wright, BA., 13, 1950, p.44.

(٤) ملوك أول ١٠ : ١-١٣؛ أخبار أيام ثان ٩ : ١-١٢.

(٥) متى ١٢ : ٤٢.

(٦) سورة النمل، آية : ٢٠-٤٤.

وقد ذهب بعض النقاد ممن تعرضوا لقصص التوراة إلى أن قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان، إنما هي أسطورة من الأساطير، دونها كتبة التوراة لبيان عظمة سليمان وحكمته[١]، ولو تريث بعض هؤلاء النقـاد بعض الشيء لما وقعوا في هذا المأزق، نتيجة الأحكام المتسرعة، وربما خيل لهؤلاء المتحذلقين من أدعياء التاريخ الذين يجمحون التمحيص كله في الإنكار، إنه خبر قد يسهل إنكاره بغير حجة، وكأن المنكر لا يطالب بحجة، ولا يعاب على النفي الجزاف، والحق أن إنكارنا لأمر تجمع عليه الكتب المقدسة الثلاثة، لا يتفق ومنهج البحث العلمي، فضلا عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء.

على أن فريقًا آخر، إنما يرى أن هذه القصة لا يمكن فهمها فهمًا جيدًا، إلا إذا قدرنا أن السبئيين إنما كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب[٢]، ولعل أصحاب هذا الرأى ممن يذهبون إلى أن السبئيين، إنما ترجع أصولهم الأولى إلى شمال بلاد العرب - في بلاد الجوف أو قريبًا منها - وليس إلى جنوبها[٣] وأن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في بلاد العرب الجنوبية، إلا حوالى عام ٨٠٠ق.م[٤]، أى بعد هذه الأحداث بما يقرب من القرن ونصف القرن من الزمان.

---

(١) J. Hastings, A Dictionary of the Bible , Edinburgh, 1936, p. 843.

(٢) فريتزهومل، التاريخ العربي القديم، ص ٦٣ (مترجم).

(٣) انظر عن السبئيين والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي: كتابنا «دراسات في تاريخ العرب القديم»، ص ٣٦٥-٣٧٠، (الرياض ١٩٧٧).

(٤) يرى بعض الباحثين أن بداية عصر مملكة سبأ إنما كان حوالى عام ٨٠٠ق.م ويرى آخرون أنه كان حوالى عام ٧٥٠ق.م، بينما يرى فريق ثالث - وهذا ما نميل إليه ونرجحه - أنه كان في القرن العاشر ق.م، هذا ويجعله فريق رابع في القرن التاسع قبل الميلاد. (انظر: محمد بيومى مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٢٧١-٢٧٣؛ وكذا: جواد علي، ٢/٢٦٩؛ وكذا: A. Grohmann, Arabian, p. 122; H. Z, Bowen and W.F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, p. 37; BASOR, 137, 1955, p. 38.

ومن ثم فإن هذه الملكة التى زارت سليمان ـ عليه السلام ـ لم تكن ملكة سبأ الشهيرة فى اليمن، وإنما كانت ملكة على مملكة صغيرة فى أعالى شبه الجزيرة العربية، كان سكانها من السبئيين القاطنين فى الشمال، ويستدلون على ذلك بأدلة منها (أولا) العثور على أسماء ملكات عربية ـ مثل زبيبة وشمس[١] ويثعى (ياتى) وتلخونو (تعلخونو) وتاربو (نبوءة)[٢] وباثلة (با إيلو) وغيرهن ـ وعلى أسماء ملوك وأمراء عرب ـ مثل يثع أمر[٣] وكوب إيلو[٤] وغيرها ـ فى النصوص الآشورية[٥]، فى حين أن العلماء لم يعثروا على اسم أية ملكة فى النصوص العربية الجنوبية.

ومنها (ثانيًا) صعوبة تصور زيارة ملكة عربية من الجنوب لسليمان، وتعجبها من بلاطه وحاشيته وعظمة ملكه، مع أن بلاط أورشليم يجب ألا يكون شيئًا بالقياس إلى بلاط ملوك سبأ، ومن ثم فيجب ألا تكون هذه الملكة ـ فى نظر هذه الجماعة من علماء التوراة ـ إلا ملكة على مملكة عربية صغيرة، لم تكن بعيدة عن عاصمة دولة سليمان فى فلسطين، فقد

(١) N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, AJSL, 58, 1941, p. 4.
وكذا: A. L. Oppenheim, ANET, 1966, p. 288.
وكذا: A. Musil, The Northern Hegaz, N.Y., 1926, p. 477.

(٢) A. Musil, Arabia Deserta, N.Y., 1938, p. 480.
وكذا: D.D. Luckenbill, ARAB, 1927, 2, p. 518.
وكذا: A.L. Oppenheim, ANET, p. 291.
وكذا: D. Wiseman, The Vassal - Treaties of Esarhaddon, London, 1958, p. 4.

(٣) A.L. Oppenheim, ANET, p. 284.
وكذا: A.G. Zie, The Inscriptions of sargon, II, part I, 1959, p. 5.

(٤) BASOR, 137, 1955, p. 10.
وكذا: EB, p. 785.

(٥) عن علاقات العرب بالآشوريين. انظر: محمد بيومى مهران، العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، الرياض، ١٩٧٦، ص ٣٩٧-٤٣٠.

تكون في جبل شمر - وتقع بين الحافة الجنوبية للنفوذ الكبير وبين وادى الرمة، وتتكون من سلسلتي جبال أجا وسلمى - وقد تكون في «نجد» أو في الحجاز[١].

وليس من شك في أن في هذا الرأى بعضاً من صواب، ورغم أن هناك بعض الباحثين من يرى في تعجب ملكة سبأ ودهشتها البالغة من العظمة والفخامة والرفاهية في بلاط سليمان مما أثار دهشتها، أمراً غير حقيقى[٢]، فإننا لا نوافق الموافقين والمخالفين فيما عقدوه من مقارنة بين بلاط سليمان وبلاط ملوك سبأ، لأن الأول - فيما نرى - إنما كان يمثل معجزة نبيّ، أكثر منه صورة لعظمة ملك، والذى يقرأ الآيات الكريمة التى تحدثت عن القصة - كما جاءت في سورة النمل، والتى سوف نوردها هنا بنصها كاملا فيما بعد - ليعرف تماماً، أن الملك سليمان ما كان في استطاعته - مثلا - أن يفعل بعرشها ما فعل، وإنما الذى يستطيع ذلك، إنما هو سليمان النبيّ، ذلك لأن ما حدث إنما كان معجزة للنبيّ الكريم، الهدف منها معرفة تلك الملكة ﴿أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ وصدق الله العظيم حيث يقول - على لسان سليمان عليه السلام - عن هذا العرش ﴿فلما رآه مستقراً عنده، قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربى غنىٌّ كريم﴾.

ولنقرأ هذه الآيات - والتى تتحدث عن القصة كلها - يقول سبحانه وتعالى: ﴿وتفقّد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين،

(١) جواد عليّ، ١/٦٣٦، ٢٦٢/٢٠؛ عبد الفتاح شحاته، تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام، ٨٣/٢-٨٩، (القاهرة ١٩٦٠)؛ وكذا:

J. A. Montgomery Arabia and the Bible, p. 181.

وكذا: E. Dhorms, Revue Biblique, p. 105.

وكذا: R. Dussaud, Les Arabas en Syrie avant l'Islam, p. 10.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 601.

لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أحطتُ بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين، قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين، قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، وإني مرسلة إليه بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً عنده، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت رب إني ظلمت

نفسى وأسلمتُ مع سليمانَ لله ربِّ العالمين﴾[١].

ولعلنا نستطيع _ من خلال الآيات الكريمة الآنفة الذكر _ أن نضيف إلى حجج المنادين بأن ملكة سبأ هذه، ربما كانت عربية شمالية، أكثر منها عربية جنوبية، إن الذى يفهم صراحة من القصة القرآنية أن سليمان لم يكن يعرف عنها شيئًا، سواء من ناحية دولتها أو ديانتها _ ومن هنا فإنه يقول للهدهد : ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾، وليس من المقبول أن يكون سليمان وهو ملك عظيم _ كما هو نبىٌّ كريم _ لا يعرف شيئًا عن مملكة سبأ المشهورة فى اليمن، بخاصة وأن هناك علاقات تجارية بين سبأ وفلسطين، كما أن الأخيرة _ مقر دولة سليمان _ إنما كانت تقع فى نهاية طريق القوافل، التى كان السبئيون يقومون بها، أو يشرفون عليها، كما كانت «عصيون جابر» نقطة بداية أسطول سليمان التجارى، محطة هامة فى طريق القوافل التجارية القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى وادى عربة وشرق الأردن حتى سورية وهو طريق ذو أهمية خاصة لسليمان[٢].

وعلى أى حال، فإن المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» إنما يذهب إلى أن ملكة سبأ هذه إنما هى ملكة أثيوبية، زاعمًا أن «سبأ» Saba، هو اسم عاصمة الأحباش، وأن اسم هذه الملكة هو Maukalis، ومن ثم تكون ملكة سبأ حبشية الجنس، وليست ملكة عربية[٣].

---

(١) سورة النمل، آية : ٢٠-٤٤، وانظر: تفسير روح المعانى ١٨٢/١٩-٢١٠؛ تفسير القرطبى، ١٧٦/١٣-٢١٣؛ تفسير أبى السعود ١٢٧/٤-١٣٤؛ تفسير الطبرى ١٤٣/١٩-١٧٠؛ تفسير ابن كثير ٣٦٠/٣-٣٦٦؛ تفسير الطبرسى ٢٠٨/١٩-٢٢٠؛ تيسير العلى القدير لتفسير ابن كثير ٣٢/٣-٢٤٠؛ فى ظلال القرآن ٢٦٤٣١/١٩-٢٦٤٣؛ تفسير الكشاف ١٤٢/٣-١٥٤؛ تفسير البيضاوى ١٧٢/٢-١٧٨؛ تاريخ الطبرى ٤٨٩/١-٤٩٥؛ ابن كثير، قصص الأنبياء ٢٣٢/١-٢٣٦؛ البداية والنهاية ٢٤١٨/٢؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ٢٣٤/١-٢٣٨.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 593.

(٣) EL, I, p. 720.

وأما الروايات الحبشية نفسها، فتذهب إلى أن «منيلك» أول ملوك أثيوبيا فى القرن العاشر قبل الميلاد، إنما كان ابنًا لبطلة الشمس «بلقيس» (أو مكيدا أو مقيدة)، وبطل القمر سليمان الحكيم، ومن ثم فقد حمل ملوك الحبشة (أثيوبيا) من بين ألقابهم لقب أسد يهوذا، (أو الأسد الخارج من سبط يهوذا)[1]، حتى نهاية دولتهم فى التاسع من ربيع الأول عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥/٣/٣١) على أن الأمر بهذه الصورة جد مضلل، فمملكة «أكسوم» إنما قامت فى القرن الأول قبل الميلاد - وليس فى القرن العاشر ق.م - كما أن ملكة سبأ، إنما هى ملكة عربية، تحكم دولة عربية - فى شمال الجزيرة العربية أو فى جنوبها، على اختلاف فى الرأى - ومن ثم فليس هناك من شك فى أن تلك أسطورة نشأت بعد هجرة اليهود إلى الحبشة - سواء أكانت تلك الهجرة فى القرن السادس قبل الميلاد، أو فى القرن الأول أو الثانى بعد الميلاد - حتى أن «ليتمان» قد قرأ فى بعض نقوش الملك الحبشى «عيزانا» عبارة «ملك صهيون»، ورغم أن هذا الرجل - الذى اعتلى العرش حوالى ٣٢٥م - قد اعتنق النصرانية، فربما كانت هناك حركة تجرى للتبشير باليهودية - فضلا عن المسيحية - أو بمذهب يجمع بين الديانتين[2].

على أن هناك وجهًا آخر للنظر، فى تفسير تلك الروايات التى تذهب إلى أن ملكة سبأ إنما كانت حبشية، وليست عربية، أقدمه هنا بحذر،

---

(١) الحيمى الحسن بن أحمد، سيرة الحبشة، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٥٨؛ نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم ٣٧٨/٣-٣٨٥؛ وكذا:

J.B. Conelbeaux, Histoire de L'Abyssinie, I, p. 108.

وكذا:

E.A.W. Budge , A History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia, I, London, 1928, p. 193.

(٢) A. Kammerer, Essisr L' Histoire Antique d'Abyssinie, Paris, 1926, p. 68.

وأعتمد فيه على فرضين، لا أرجح الواحد على الآخر، أما الفرض الأول، فهو أن تلك الروايات ربما كانت نتيجة انتشار آراء التوراة المضطربة حول أصل السبئيين - فهم في رأيها مرة من الساميين[١] وهم مرة أخرى من الحاميين[٢]، ثم إن سبأ مرة من ولد يقطان[٣]، ومرة أخرى من ولد يقشان[٤] - ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين - اعتماداً على هذا الاضطراب - إلى أن هذا دليلا على انتشار السبئيين في آسيا (اليمن) وفي أفريقية (إرتريا والحبشة)[٥]، وأما الفرض الثاني، فربما كانت نفس تلك الآراء متأثرة بالرأي الذي ينادي بأن مملكة أكسوم[٦] نفسها، إنما أقامها العرب الجنوبيون[٧].

وتذهب الروايات العربية إلى أن مملكة سبأ هذه، إنما كانت تسمى «بلقيس» - أو كما يقول أهل الأنساب بلقمة أو يلقمة[٨] - ويرى أستاذنا الدكتور أحمد فخري - طيّب الله ثراه - أن أحد الاسمين - وربما كان يلقمة - نتيجة خطأ في النقل عن الآخر، وربما كان اسم الإله «المرقاه»

(١) تكوين ١٠ : ٢٨.　(٢) تكوين ١٠ : ٧؛ أخبار أيام أول ١ : ٩.

(٣) تكوين ١٩ : ٢٨.

(٤) تكوين ٢٥ : ١-٣؛ وانظر:

W. F. Albright, The Bible and the Ancient Near East, London, 1961, p. 300.

(٥) J. Hastings, op.cit., p. 40.

وكذا: EB., p. 2564.

(٦) تزعم الأساطير الحبشية القديمة أن «أثيوبيس» - أبا الأثيوبيين - هو والد الملك «أكسوماي» الذى حكم البلاد من مكان لاندريه على وجه التحقيق، وأنه هو الذى أسس مدينة أكسوم - والتى تقع على مبعدة ١٨٧ كيلا من ساحل البحر الأحمر. انظر: E. A. W. Budge, op.cit., p. 129.

(٧) جواد علي ٣/٤٥٢؛ جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندى، ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص ٨٥؛ وكذا:

F. Altheim and R. Steihl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964, I, p. 114.

(٨) تاريخ الطبرى ١/٤٨٩-٤٩٠؛ ابن الأثير ١/١٣٠-٢٢٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/٢٠-٢٤؛ البكرى ٤/١٣٩٨.

(بمعنى إيل قوى، أى الله قوى) يدخل فى تركيبه، أما اسم «بلقيس» - الذى تكرر ذكره فى كتب المؤرخين المسلمين - فلم يرد على الإطلاق بعد الأسماء السبئية، وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية، التى نقلته عن اليونانية، ومعناه «أمة» أو «جارية»[١].

وأما أستاذنا للدكتور حسن ظاظا، فالرأى عنده أن اسم هذه الملكة لم يكن يقيناً «بلقيس»، وربما كانت هذه صفة تنطق فى العبرية، وفى الآشورية «بلجاش» أو «قلجاش»، ومعناه العشيقة أو المرأة غير الشرعية، والراجح أن ملكة سبأ وصمت بذلك من الشعب اليهودى الذى لم يكن يستريح إلى مثل هذه الصلات بين ملوكه والنساء الأجنبيات[٢]، بخاصة - وأن الأمر - كما تصوره المراجع اليهودية - قد زاد بصورة ملفتة للنظر فى تلك الفترة، إذ تصور التوراة الملك سليمان نفسه وقد فاق كل أقرانه، فتزوج - كما أشرنا من قبل - من المصرين والمؤابيات والعمونيات والآدوميات والصيدونيات والحيثيات، وغيرهن من الأمم التى حرّم ربُّ إسرائيل على شعبه إسرائيل أن يتصلوا بها، وقد «التصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السرارى[٣].

وأيًا كان اسم هذه الملكة التى زارت سليمان، وأيًا كان السبب فى تسميتها بهذا الاسم أو ذاك - كما ترى الكتابات العربية والعبرية واليونانية والحبشية - فإن التوراة تذهب إلى أن ملكة سبأ، إنما كانت تهدف من وراء زيارتها هذه إلى البحث عن الحكمة وامتحان سليمان، وأن الملكة حينما تأكدت من حكمته وعظمة ملكه، سرعان ما قدست إله إسرائيل، الذى جعل سليمان ملكاً تجرى على يديه الحكمة وفصل الخطاب، ثم دعت إله إسرائيل أن يثبت عرشه إلى الأبد، ثم انتهى الأمر بأن تبادل الملكان الهدايا[٤]

---

(١) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٧٣.
(٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٣٣
(٣) ملوك أول ١١ : ١-٤.
(٤) ملوك أول ١ : ١-١٣.

غير أن بعض الباحثين، إنما يرى أن الهدف لم يكن كذلك، وإنما كان على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى الطرفين، كان توثيق العلاقات التجارية وتسهيل التعاون التجارى بينهما، ويذهب البعض إلى أن هذه الملكة لم تكن هى الحاكم الفعلى لبلادها، ولكنها هى التى قامت بالزيارة، ومن ثم فيمكن الاستنتاج من ذلك أنها هى التى رغبت فى القيام بأعمال تجارية مع سليمان، وربما كان ذلك لتنظيم سير القوافل التجارية والإشراف عليها[١].

على أن «إدوارد جلازر» و«إيرهارد شرادو»، إنما يذهبان إلى أن الملك سليمان هو الذى دعا ملكة سبأ لزيارته والإقامة فترة من الزمان فى مكان ما من هضاب أدوم، لمشاهدة عمال الملك وهم يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة من هناك.

وعلى كل حال، فلقد كانت إسرائيل فى نهاية طريق البخور، وكان وكلاء سليمان (تجار الملك) يقومون بالاجراءات الجمركية ـ إن صح هذا التعبير ـ على البضائع الثمينة، كما كانوا هم الذين يسمحون للقوافل بالاستمرار فى رحلتها إلى مصر وفينيقيا وسورية، عبر مملكة سليمان، ومن ثم فليس من الغريب أن تصل شهرة سليمان إلى ملكة سبأ[٢]، وهكذا «فقد أتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطيابها وذهباً كثيراً جداً، وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها»[٣].

وبدهى أن هناك الكثير لدى ملكة سبأ لتقوله لسليمان، فهى كرئيسة

---

(١) W.F. Albright, Achaeology and the Religion of Israel, p. 124.

وكذا: K.M. Kenyon, Excavation in Jerusalem, 1962, in PEQ, 95, 1963, p. 7F.

(٢) جواد علىّ ٢/٢٦٣؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 593.

وكذا: J. Hastings, op.cit., p. 843.

وكذا: W. Keller, op.cit., p. 213-214.

(٣) ملوك ثان ١٠: ٢.

لدولة لها تجارة خارجية ترتبط بدولة أخرى لأسباب جغرافية، يمكنها أن تناقش الكثير من الأمور مع ملك تلك الدولة، وليس ذلك بالأمر الشاذ أو الغريب فنحن فى أيامنا هذه ترسل المتخصصين إلى البلاد الأخرى، وهم يحملون فى حقائبهم الدبلوماسية الهدايا التى تظهر الاحترام اللائق برئيس الدولة، كما فعلت ملكة سبأ[١]، ومن هنا - ومع احتمال المبالغة فى الرواية التوراتية - فإننا لا نرى فى زيارة ملكة سبأ لسليمان أمراً مستحيلا، أو تصرفاً شاذاً يستوجب الاستنكار، كما يجنح إلى ذلك بعض الباحثين[٢].

والرأى عندى أن الزيارة لم تكن بهذه الصورة التى قدمناها من قبل، وإنما كان الأمر يتصل بدعوة النبىّ سليمان، أكثر منه بتجارة الملك سليمان، وإذا رجعنا إلى آى الذكر الحكيم، لرأينا الأمر كذلك، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة: ﴿وتفقّدَ الطير فقال ما لى لا أرى الهُدهدَ أم كان من الغائبين، لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينى بسُلْطان مبين، فمكثَ غيرَ بعيد فقال أحطْتُ بمَا لم تُحطْ به وجئتكَ مِنْ سَبأٍ بنبأٍ يقين، إنّى وجدتُ امرأةً تَملكُهُم وأوتيتْ مِنْ كُلِّ شىءٍ ولَها عرشٌ عظيم، وجدتُها وقومَها يسجدون للشمسِ من دونِ الله وزيّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصدّهُم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدُوا لله الذى يُخرجُ الخَبْءَ فى السّماوات والأرض ويعلمُ ما تُخفُون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو ربُّ العرشِ العظيم، قال سننظر أصدقْتَ أم كنتَ من الكاذبين اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت يا أيها الملأُ إنّى أُلقى إلىّ كتابٌ كريم، إنّه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاَّ تعلوا علىَّ وأتونى مُسْلمين﴾[٣].

وتجمع الملكة العربية الملأ من قومها وتعرض عليهم الأمر، تطلب مهم

---

(١) W.Keller, op.cit., p. 214-215.

(٢) محمد عزة دروزة، تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩، ص ١٦٢-١٦٣.

(٣) سورة النمل، آية : ٢٠-٣١.

الرأى والمشورة في هذه الأزمة التى أتت إليها من حيث لا تحتسب، ﴿يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾[١] ويأتيها الجواب سريعًا من المؤتمرين: ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾[٢] ، وليس هناك من شك فى أن هذه الآيات الكريمة إنما تدل بوضوح على أنها صاحبة السلطان الفعلى فى مملكتها، بعكس ما ذهب إليه بعض الباحثين[٣] ، كما أشرنا من قبل.

وهنا تلجأ الملكة إلى إعمال الحيلة والتدبير، وتضع النبىّ الكريم موضع الاختيار لتصل إلى رأى تطمئن إليه بشأنه، وهل هو من الهداة المرشدين؟ أم من الطغاة الطامعين؟ ومن ثم فإنها إنما تبعث برسل من عندها إلى صاحب هذه الرسالة التى يطلب منها ـ وكذا من قومها ـ ﴿ألاّ تعلوا علىّ وأتونى مسلمين﴾، كما أنها فى الوقت نفسه، إنما طلبت من رسلها أن يقفوا على ملك سليمان، ثم يعودوا إليها بتقرير واف عن حقيقة سليمان ـ وقوته فى ملكه، ومدى ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة، وهل يمكنه أن يهدد أمنها وأمن قومها، إن لم تخضع لأمره، وذلك لتكون على بينة من أمرها، فلما جاءت رسلها إلى سليمان بالهدايا رفضها، وقال: ﴿فما آتانى الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون﴾.

وهنا تتأكد الملكة أنها أمام واحد من المصطفين الأخيار، يطلب لها ولقومها الهداية إلى سواء السبيل، وليس رجلا غرته قوته، فأراد أن يجعل من دولتها جزءاً من مملكته، فتقرر الذهاب بنفسها إلى النبىّ الكريم، ويستعد سليمان لاستقبال الملكة العظيمة، ويعد لها أمراً يخرج عن قدرة الملك، ولكنه يتصل بعمل النبىّ، يخرج عن قدرة البشر العاديين، ويدخل فى عداد

(١) سورة النمل، آية : ٢٢.
(٢) سورة النمل، آية : ٣٣.
(٣) O.Eissfeldt, op.cit., p. 593.

معجزات، تلك الصفوة المختارة من أنبياء الله ورسله الكرام البررة، ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً عنده، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾[1] ثم مفاجأة أخرى، ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير﴾[2].

وهنا كانت الملكة العربية قد رأت كل ما يبعد عنها أية ريبة في أنها أمام نبي الله الكريم، سليمان عليه السلام، وليس كما كانت تظن - بادئ ذي بدء - أنها أمام ملك يطمع في دولتها، أو يبغي الاستيلاء عليها، ثم يجعل من أعزة قومها أذلة، وكذلك يفعل الطامعون المستعمرون، فتصرفت سيدة سبأ، تصرفاً تفخر به المرأة العربية على طوال العصور، تصرفاً لم يقدر عليه من قبل ملوك العراق مع الخليل، أو فراعين مصر مع الكليم، كما لم يقدر عليه من قبل جبابرة قريش، وطواغيت ثقيف وغيرهم من بعض رجالات العرب، مع المصطفى - ﷺ - أو قل إنما هي رحمة الله التي أرادت لها الهداية والرشاد، ومن ثم فقد أنهت الأمر كله، بأن ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[3].

هذه عجالة، نلخص بها قصة سليمان وملكة سبأ - كما أوردها ربي جل جلاله في القرآن الكريم - ومن أسف أن بعض المفسرين والمؤرخين

---

(١) سورة النمل، آية : ٣٨-٤٢.　　(٢) سورة النمل، آية : ٤٤.

(٣) سورة النمل، آية : ٤٤.

الإسلاميين، قد عالجوا هذه القصة الواضحة بطريقة عجيبة، فأضافوا إليها ـ ما شاء لهم الخيال أن يضيفوا ـ فذهب بعضهم إلى أن «بلقيس» إنما هى «بلقمة» ابنة «اليشرح ابن الحارث بن صيفى بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[١]، وذهب البعض الآخر إلى أنها «بلقيس» (تلقمة أو بلعمة) بنت السيرح، وهو الهدهاد بن شرحبيل، وأنها حكمت اليمن مائة وعشرين سنة[٢].

ومن عجب أن بعض الإخباريين إنما ذهب به الخيال إلى أن يرى أن أم «بلقيس» هذه إنما كانت «جنية» بنت ملك الجن، واسمها «رواحة» بنت السكر، أو «بلقمة» بنت عمر بن عمير الجنى[٣]، وأما كيف وصل أبو بلقيس إلى الجنّ وخطب ابنة ملكهم، فإنهم إنما يقدمون روايات من ذلك النوع من الخرافات، التى لا أدرى ـ علم الله ـ من أين أتى بها أصحابها؟، على أن أسوأ ما فى الأمر، وأشده خطورة أن يحاول بعض الرواة أن يعطوا لروايتهم هذه، سنداً من شرعية، أو نصيباً من صواب، فينسبون إلى سيد الأولين والآخرين، مولانا وسيدنا رسول الله، ﷺ، ـ عن طريق أبى هريرة ـ أحاديث تؤكد مزاعمهم هذه[٤]، أو قل أكاذيبهم الساذجة هذه.

وليت الأمر اقتصر على ذلك، وإنما يقدمون لنا كل دنىء عن القوم، فالملك السبئى يعتدى على الأعراض، ولا تفوته عروس إلا ويفتضها قبل

(١) تاريخ الطبرى، ٤٨٩/١، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ٢٣٠/١؛ وانظر: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم النيسابورى، المعروف بالثعلبى، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، ص ٢٧٨، (القاهرة ـ طبعة الحلبى).

(٢) ابن الأثير، ٢٣١/١؛ أحمد بن يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبى، ١٥٨/١، (بيروت ١٩٦٠)؛ الثعلبى، المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(٣) تفسير القرطبى، ص ٤٨٢٧-٤٨٩٨؛ الثعلبى، المرجع السابق، ص ٢٧٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢١/٢؛ قصص الأنبياء، ٢٩٠/٢-٢٩١.

(٤) ابن الأثير، ٢٣١/١-٢٣٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢١/٢؛ قصص الأنبياء، ٢٩/٢؛ الثعلبى، المرجع السابق، ص ٢٧٨.

زوجها، وبلقيس ـ وهى ابنة عمه فيما يزعمون ـ لا تنجو من هذا الإذلال، إلا بعد أن تثور على قومها، مؤنبة إياهم على قبولهم هذا الصغار، وتلك الدناءة: «أما فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته، ثم تعد له رجلين يقتلانه فى اللحظة التى يهم بها»[١].

ويبلغ الخيال بمؤرخينا أشده، حين يزعمون أن «بلقيس» إنما كانت عريضة الملك، إذ «كان لها اثنا عشر ألف قيل، تحت يد كل قيل مئة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، فى كل جيش سبعون ألف مبارز ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرين سنة»، وصدق عز الدين بن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ = ١١٦٠-١٢٣٢م)، حيث يقول: «وما أظن الساعة راوى هذا الكذب الفاحش عرف الحساب، حتى يعرف مقدار جهله، ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف، فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم، شبابهم وشيوخهم وصبيانهم ونساؤهم، هذا العدد»[٢].

ومن عجب، فإن الإخباريين إنما يجعلون أمر بلقيس كله بيد سليمان حتى فى الأمور الشخصية، فهى حين ترفض الزواج من أحد رعاياها، يزوجها سليمان من «ذى تبع»[٣] ملك همدان، بحجة أن ذلك لا يكون فى الإسلام، وكأن الملوك فيما قبل الإسلام ـ أو قبل عصر سليمان وكذا بعده ـ ما كانوا يتزوجون من غير أنداد لهم، وكأن التاريخ لا يعرف زواجًا بين الأمراء وغير الأمراء، ومع ذلك، فإن سليمان لم يزوجها بواحد من رعاياها، أو حتى من عظماء قومهما، وإنما زوجها من ملك همدان ـ الذى لا

(١) الديار بكرى، تاريخ الخميس، ص ٢٧٦، (القاهرة ١٣٠٢هـ)، ابن الأثير، المرجع السابق، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ٢٢٣/١-٢٣٤، (بيروت ١٩٦٥).

(٣) انظر عن لقب «تبع» والآراء التى دارت حوله، كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القديم، ص ٣٤٠-٣٤١، الرياض، ١٩٧٧.

يعرف التاريخ عنه شيئًا ـ وليت الذين كتبوا ذلك كله، يعرفون أن قبيلة همدان لم تصبح لها المكانة الأولى بين قبائل اليمن، ولم يحمل شيوخها لقب «ملك» متحدين بذلك سلطة ملوك سبأ الشرعيين[١] إلا منذ أيام «نصرم يهنعم» (ناصر يهأمن)، وشقيقه «صدق يهب»، حوالى عام ٢٠٠ ق.م[٢]، وأن «بلقيس» هذه، وقد عاصرت سليمان (٩٦٠-٩٢٢ق.م)، إنما كانت تعيش فى القرن العاشر قبل الميلاد، أى قبل ظهور ملوك فى همدان، بما يقرب من سبعة قرون ونصف القرن من الزمان، وعلى أى حال، فإن هناك رواية إخبارية، إنما تذهب إلى أن الزوج الذى ارتضته «بلقيس» إنما كان هو سليمان نفسه، ثم أضافت رواية ثانية أنه إنما جعل الجنّ تحت إمرتها، وعلى رأسهم «زوبعة» أمير جن اليمن[٣].

(٦) النشاط البحرى

بدأ سليمان بعد ذلك يتجه بنشاطه التجارى نحو البحر، ليتجر مع البلاد الواقعة على الأبحر، وليستورد ما يحتاج إليه هو بصفة خاصة، ورجال البلاط بصفة عامة من مواد الترف والسلع القيمة النادرة، ولكن قومه العبرانيين لم يكونوا قد ألفوا ركوب البحر من قبل، كما أنهم لم يكونوا على خبرة، أيًا كانت بشئون بناء السفن وملاحتها، ومن هنا فقد بدأ سليمان يعمل على تأمين الطرق عبر وادى عربة، ثم الاتفاق مع «حيرام» ملك صور، على إنشاء أسطول من السفن فى ميناء «عصيون جابر» تستغل فيه المهارة الفينيقية.

وفى الواقع فإن التوراة إنما ركزت كثيراً على تجارة سليمان البحرية، أكثر من تجارته البرية، ولقد أثبتت الحفريات مما يؤكد كثيراً من النصوص

(١) A. Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore, 1961, p. 278.

(٢) J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 142.

(٣) تاريخ الطبرى ٤٩٤/١-٤٩٥؛ ابن الأثير، ٢٣٧/١؛ الثعلبى، المرجع السابق، ص ٢٨٩-٢٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٢٤/٢؛ تفسير القرطبى، ص ٤٩٢٦، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ ابن دريد، الاشتقاق، ٣١١/٢، (القاهرة ١٩٥٨).

الخاصة بهذه التجارة البحرية[1]. ونقرأ في الملوك الأول: «وقد عمل سليمان سفناً في عصيون جابر، التي بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف في أرض آدوم»[2]، هذا وقد كشف في «تل الخليفة» مسامير كبيرة من الحديد أو النحاس الممزوج بالحديد، وقطع من حبال غليظة، وكتل من القار لضم السفن، وأخرى من الصمغ لطلائها، وكان من الممكن أن يقتطع الخشب اللازم للألواح من غابات البلوط التي كانت توجد في آدوم في ذلك الوقت[3]، ومع ذلك، ورغم وجود غابات كثيرة من النخيل في مجاورات هذا المكان، إلا أنه لا توجد الأخشاب الملائمة لأغراض البناء، ومن ثم فقد أرسل «حيرام» الصوري الأخشاب التي حملها ثمانية الآلاف من الرجال، بني بها أسطولا من عشر سفن، وقد عرفنا الكثير عن هذا الأسطول، حتى أسماء ربانية من الفينيقيين[4].

وهكذا استغل سليمان مهارته السياسية، وتحالفه مع ملك صور، في أن ينشئ هذا الأسطول بالخبرة الفينيقية، كما كان يديره فينيقيون كذلك، ونقرأ في التوراة أن حيرام «قد أرسل في السفن عبيده النواتي العارفين بالبحر، مع عبيد سليمان»[5]، ونقرأ كذلك عن أسطول منفصل لحيرام، أبحر مع أسطول سليمان إلى «أوفير» وأتى من هناك بالذهب والأخشاب النادرة والأحجار النفيسة، وكل ما هو نادر وغريب[6]، هذا وقد اكتشفت قرب «تل أبيب» Tel-Aviv أوستراكا، ترجع إلى ما بين عامي ٩٠٠، ٨٠٠ق.م، وعليها نص يقول: «ذهب أوفير من أجل بيت حورن»[7] أما

---

(١) O.Eissfeldt, op.cit., p. 593. (٢) ملوك أول ٩: ٢٦.

(٣) جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص ٢٤. (٤) W. Keller, op.cit., p. 201.

(٥) ملوك أول ٩: ٢٧. (٦) ملوك أول ١٠: ١١-١٢.

(٧) Syria, XXVI, 1949, p. 157; B. Mailer, Two Hebrew Ostraca From TellQu-sile, JNES, Io, 1950, p. 265F.

ولكن: أين تقع أوفير؟.

لقد قام جدل طويل بين العلماء حول «أوفير» هذه، وهناك دائماً من يزعم أنه قد وجدها في أفريقية، فهناك «كارل ماوخ»، والذي وصل إلى أنقاض مدينة أحد المعابد في عام ١٨٦٤م، على حدود روديسيا الجنوبية وموزمبيق في شرق أفريقية، وهناك «ستنبرج»، الذي اكتشف بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ـ وعلى مبعدة أميال قليلة إلى الجنوب من المكان الأول ـ محلات للتعدين من عصر ما قبل المسيحية، ظنّ أنها كانت تتصل بمعبد المدينة، وفي عام ١٩١٠م، سور الرحالة الدكتور «كارل بطرس» نقوشاً من هذا الموقع يزعم المتخصصون أنهم لاحظوا فيها ملامح فينيقية عربية[١].

ويقترح «وليم أولبرايت» أنها في الصومال، ويتفق هذا مع رواية التوراة ـ كما جاءت في سفر الملوك الأول ـ عن طول الوقت الذي يلزم للوصول إلى أوفير، حيث تروى «فكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنوات»[٢] ثم يقترح «أولبرايت» بعد ذلك أن الأسطول ربما كان يبحر من «عصيون جابر» في نوفمبر أو في ديسمبر من السنة الأولى، ويعود في مايو أو يونية من السنة الثالثة، وبهذا يتجنب الجو الحار، قدر استطاعته، وأن الرحلة في هذه الحالة لا تأخذ أكثر من ثمانية عشر شهراً، فضلاً عن ذلك فإن طبيعة السلع (الذهب والفضة والعاج والقرود) تشير إلى أفريقية كمكان من الواضح أنه الأصل[٣].

وهناك من يحاول أن يوحد أوفير ببلاد «بونت»[٤] ـ وصحة الاسم فيما يرى سير ألن جاردنر «بوينى» [٥] ـ والتي يرى كثير من العلماء [٦]

(١) قاموس الكتاب المقدس، ٢٠٣/١، (بيروت ١٩٦٤).

(٢) W. Keller, op.cit., p. 201-202. (٣) ملوك أول ١٠: ٢٢.

(٤) W. Keller, op.cit., p. 434.

(٥) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 37.

(٦) انظر الآراء المختلفة عن موقع «بونت»: محمد بيومي مهران، «العرب وعلاقاتهم الدولية في

أنها إنما تقع على الساحلين ـ الأسيوى والأفريقى البحر الأحمر، بالقرب من بوغاز باب المندب، أى الصومال وأرتيريا فى ناحية، وجنوب بلاد العرب فى الناحية الأخرى(١).

على أن هناك رأيًا قويًا يذهب إلى أن «أوفير» إنما تقع فى جنوب شبه الجزيرة العربية(٢)، وإن اختلفت الآراء فى هذا المكان من جنوب بلاد العرب، فذهب فريق إلى أنها فى الجنوب الغربى (فى اليمن)، متضمنًا الساحل الأفريقى المجاور(٣) وذهب فريق آخر إلى أنها فى الجنوب الشرقى، متضمنًا الخليج العربى وخليج عمان(٤) وفى الوقت الذى يتجه فيه فريق ثالث من العلماء، إلى أنها إنما تقع فى العويفرة(٥) القريبة من قرية «الفاو»(٦)

=

العصور القديمة»، ص ٣٠٧-٣٠٩، (مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، الرياض، ١٩٧٦).

(١) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٣٣؛ دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١٤٠؛ محمد مبروك نافع، عصر ما قبل الإسلام، ص ٥٢-٥٣؛ وكذا:

E. Naville, Le Commerce de L'Ancienne Egypte avec les Nations Voisinnes, Geneve, 1911, p. 7; P.K, Hitti, op.cit., p. 3; J. Wilson, op.cit., p. 176; M. Hilzheimer, ZAS, LXVIII, 1932, p. 112F.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 370; S.A. Cook, CAH, III, p. 357.

(٣) M. F. Unger, op.cit., p. 81; J. Hastings, op.cit., p. 669; M. Noth, op.cit., p.215.

(٤) J. Hastings, op.cit., p. 669; E. Glaser, Die Abessinier in Arabian und Africa, 1895, p. 368-373.

(٥) B. Thomas, Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia, N.Y., 1932, p. 163

(٦) قرية الفاو: تقع على مبعدة ٧٠٠ كيلو مترًا إلى جنوب الرياض، ٦٠ كيلو مترًا إلى الجنوب من مدنة الخماسين، وحوالى ٥٠ كيلو مترًا إلى جنوب المنطقة التى يتداخل ويتقاطع فيها وادى الدواسر مع جبال طويق، عند فوهة مجرى قناة «الفاو»، وتشرف عليالحافة الغربية الشمالية للربع الخالى وكانت الفاو قديمًا على طريق التجارة بين جنوب الجزيرة والخليج العربى، مارًا بمنطقة اليمامة، وعلى طريق التجارة بين جنوب الجزيرة وشمالها. (عبد الرحمن الأنصارى، مجلة كلية الآداب، المجلد الثالث، ص ٢٧؛ الرياض، ١٩٧٤؛ وكذا انظر: نشرة معرض الفاو عام ١٢٩٣هـ/١٩٧٣م؛ وكذا:

J.B. Philby, Two Notes From Central Arabia, GJ, 1949, p. 113.

السعودية، وأن الاسم القديم إنما هو «عفر»، وقد عرف بالنقل إلى اللغتين العبرية واليونانية، ومن ثم فقد أصبحت «أوفير» وأخيراً فهناك فريق رابع يرى أنها إنما تقع فى المنطقة ما بين مدينة «القنفذة» و«عتود»[١] فى المملكة العربية السعودية.

وهناك اتجاه ثالث يذهب إلى أن «أوفير» إنما تقع فى الهند، اعتماداً على أن كثيراً من أسماء بعض السلع التى كانت تأتى من «أوفير» إنما هى دخيلة في اللغة العبرية من بعض لغات أخرى مثل السنسكريتية[٢].

بل لقد وصل الأمر بالبعض إلى أن يرى أن أوفير، إنما تقع فى ولاية «الأمازون» البرازيلية فى أمريكا الجنوبية، ثم يحاول هذا البعض أن يدعم زعمه هذا، بأنه توجد حتى اليوم فى ولاية الأمازون أمكنة كثيرة حافظت على أسماء عبرانية وفينيقية، كما أن السلع التى نقلتها سفن سليمان وخليفته الصورى حيرام من أوفير إلى أورشليم وصور وصيدا، يوجد نماذج كثيرة منها هناك، كما أن أسماءها ليست عبرية وفينيقية وإنما هى من صميم لغة سكان الأمازون الأصليين، فضلا عن اسم «سوليموس» Soli-moes الذى يحمله أحد فروع الأمازون، إنما هو اسم الملك سليمان نفسه وقد أطلقه على النهر الكبير أحد أفراد الأسطول تيمناً بالملك العظيم[٣]، وهكذا يصل الخيال بالبعض إلى هذا الحد، إلى أن تكون «أوفير» فى أمريكا الجنوبية.

هذا وهناك من يرى أن أوفير إنما تقع فى «عسير»، ومن يرى أنها فى أرض «مدين»، ورجح كثيرون أنها على سواحل جزيرة العرب الغربية أو

---

(١) B. Moritz, Arabia, Hannover, 1923, p. 110.

(٢) J. Finegan, op.cit., p. 181.

وكذا، E. Renan, Histoire du Peuple D'Israel, Paris, 1887, p. 122.

(٣) الأب إميل أده، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٤-٢٥.

الجنوبية، على أساس أن هذه الأماكن إنما هى أقرب إلى الوصف الوارد فى التوراة من غيرها[1]، هذا وقد ذكر «الهمدانى» (م ٣٤٠/٩٥١) فى معادن اليمامة موضعًا سماه «الحفير»، فقال «ومعدن الحفير بناحية عماية،وهو معدن ذهب غزير»، ووجود الذهب بغزارة فى الحفير إنما ينطبق على وصف أوفير إلى حد كبير، إلا أن هذا الموضع بعيد عن البحر، ولكن من يدرى؟ فلعل كتبة التوراة لم يكونوا على معرفة بموقع أوفير، وإنما سمعوا بذهبه الذى يتاجر به العرب الجنوبيون، من الموانئ الساحلية، فأرسل سليمان سفنه إلى موضع بيعه فى سواحل جزيرة العرب لشرائه، ومن هنا ظنّ كتاب التوراة أن أوفير على ساحل البحر، والحفير كما يبدو اسم قريب جدًا من أوفير[2].

وأخيرًا فهناك من يرى أن أوفير، معناه «الأرض الحمراء» (أى الحمراء بلون الذهب)، وأنها لم تكن علمًا على بلد معين، وإنما كانت اسم جنس ينطبق على بلاد عدة كاليمن وشرق أفريقية وغرب الهند[3].

ويقدم الأستاذ الدكتور السيد يعقوب بكر، دراسة علمية جادة عن موقع أوفير» يناقش فيها كل النظريات المختلفة يخلص منها إلى أن الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية هو مكان أوفير[4]، فقد كانت بلاد العرب موطنًا للذهب، الأمر الذى شاع بين الكتاب القدامى من الأغارقة حتى أنهم يذهبون إلى أنه إنما كان يستخرج فى مواضع معينة منها، خالصًا

(١) جواد علي ٦٣٩/١، وكذا انظر:

B.F. Burton, The Gold Mines of Midian, Sikzze, II, p. 347; J.A. Montgomery, op.cit., p. 38; B. Moritz, Arabian, p. 7.

(٢) جواد علي ٦٢٩/١-٦٤٠؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٥٣.

(٣) J. Hornell, Sea-Trade in Early Times, Antiquity, 15, 1941, p. 361-364; J. Hornell, Naval Activity in the Days of Solomon and Ramses III, Antiquity 21, 1947, p. 239-240.

(٤) السيد يعقوب بكر، أوفير، ص ١١٦، ١٩٠ (من كتاب فضلو حوراني، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، القاهرة ١٩٥٨).

نقياً لا يعالج بالنار، لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته، ولهذا قيل له Apyron، ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن العبرانيين إنما قد أخذوا لفظ «أوفير» من كلمة «أبيرون» هذه(١).

وقد عثر في «مهد الذهب» والذي يقع إلى الشمال من المدينة المنورة، على أدوات استعملها القدامى في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح، فضلا عما تركه القوم من آثار في حفر للعروق التي يتكون منها الذهب، مما يدل على أن الموقع إنما كان منجماً للذهب في عصور ما قبل الإسلام، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب إلى سليمان(٢).

وهكذا كان من الطبيعي أن يطلب سليمان الذهب في بلاد العرب، وليس في مكان قصي كالهند وأفريقيا، وكان من الطبيعي كذلك أن يطلبه في الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب، لأنه أقرب أجزائها إليه، وبخاصة في «بيشه» وفي «خنكان»، وفي المنطقة ما بين القنفذة ومرسى حلج، فضلا عن وادي تثليث على مقربة من حمضة، وعلى مبعدة ٢٩٣ كيلا من نجران(٣)، وربما قد حدث ذلك بعد اتصال سليمان بملكه سبأ - إن كانت قد حكمت في العربية الجنوبية - وبعد أن أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وكان أمام سليمان للوصول إلى ذهب بلاد العرب طريقان، طريق البر عبر الصحراء، وطريق البحر على طول ساحل البحر الأحمر، ولكنه آثر الطريق

---

(١) J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, 1934, p. 39.

(٢) جواد علي ١/١٩٣.

وكذا: R.H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell, 1954, p. 20, 23.

(٣) B. Moritz, Arabien, Hanover, 1923, p. 110.

K.S. Twitchell, Saudi Arabia with an Account of Development of its Natural Resources, Princeton, 1943, p. 77.

البحرى، رغم أن قومه أهل زراعة ورعى لم يتمرسوا بالبحار، ذلك لأن طريق البر جد شاق، وقد تزيد نفقاته عن طريق البحر، بما يفرضه السبئيون المحتكرون لطريق الصحراء من أجور ومكوس، وثمة سبب آخر دعا سليمان إلى اختيار طريق البحر، هو أنه ربما أراد أن يشرك معه حليفه حيرام ملك صور، تودداً ورغبة فى الانتفاع بمهارة الفينيقيين فى الملاحة، وربما كان حيرام نفسه هو الذى ألح عليه فى ذلك.

وعلى أى حال، فلقد كان الجانب الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية، هو المصدر الذى يستقى منه سليمان الذهب، والذهب أهم السلع التى كانت تجلب من أوفير، فأوفير إذن فى الجانب الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية، ثم يلى الذهب فى الأهمية بين سلع أوفير خشب الصندل والحجارة الكريمة، وهما سلع عربية كذلك، هذا فضلا عن أن التوراة[1]، إنما تعد «أوفير» من أبناء يقطان (قحطان فى جنوب الجزيرة العربية)، وتضعه بين سبأ وحويلة، و«أوفير بن يقطان» هذا ـ أى شعب أوفير القحطانى ـ هو الشعب الذى يسكن أرض أوفير، فليس هناك «أوفيران» أوفير فى الجزيرة العربية، وأوفير فى مكان آخر، كما يزعم البعض[2].

وأما الفضة والعاج والقرود والطواويس، فالفضة كانت دائماً غالية فى الجزيرة العربية، ولهذا رأى بعض الباحثين أنها مقحمة فى النص[3]، ولكن من الممكن أنها كانت تستورد إلى أوفير، والأمر كذلك بالنسبة إلى العاج، إما من أفريقية القريبة، وهو الأرجح، وإما من الهند البعيدة، وأما القرود فهى مستوردة كذلك، إلا إذا كان المراد النسانيس، كما يقول «مونتجمرى»[4]،

---

(١) تكوين ١٠: ٢٩.

(٢) السيد يعقوب بكر، المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٤.

(٣) T.A. Richard, Man and Metals, vol. I, N.Y., 1932, p. 267.

(٤) J.A. Montgomery, op.cit., p. 39.

وهى ماتزال ترى فى مرتفعات اليمن وحضرموت، وعندئذ فهى سلعة عربية، وكذلك «الطيوب» التى يجعلها «جلازر» مكان القرود سلعة عربية كذلك، بل هى السلعة التى كان يتهافت عليها الشرق، والغرب وكانت مصدر غنى وثروة لعرب الجنوب، يتبقى بعد ذلك «الطواويس» وهى سلعة هندية فى الأصل، فلابد أن أوفير كانت تستوردها من الهند، وإذا صحّ ما يقوله «نيبور» من أن المراد «العبيد» كانت السلعة مستوردة أيضًا، ولكن من أفريقية[١].

أضف إلى ذلك أن هناك ما يثبت أن الاتصال البحرى بين شمال البحر الأحمر، والهند لم يتم إلا فى عصر قريب من القرن الأول الميلادى، أو على الأقل فى عصر لا يبعد كثيراً عن القرن الأول، وفى هذا زعزعة للنظرية الهندية[٢]، وكذا لنظرية جلازر (والتى تذهب إلى أن أوفير التوراة، إنما هى الساحل العربى من الخليج الفارسى، من الشمال حتى رأس مصندم)[٣]، ثم إن هذا يثبت كذلك أن السفن قبل القرن الأولى كانت تستطيع عبور باب المندب إلى عدن، وفى هذا زعزعة لرأي «موريتز»[٤] الذى يرى أن السفن فى عصر سليمان كانت أضعف من أن تتجاوز مضيق باب المندب، وإذن فإن سفن سليمان كانت تستطيع حمل سلع أوفير من ميناء عربى قبل باب المندب، كميناء «مخا» أو بعده كميناء عدن، ثم إن انتساب العاج والقرود والطواويس فى العبرية إلى أصول هندية، ليس دليلا على أن السلع كانت تستورد من الهند نفسها، فقد كان باب الاستيراد مفتوحًا

---

(١) السيد يعقوب بكر، المرجع السابق، ص ١٥٤-١٥٥.

(٢) CHI, I, p. 212; E. Renan, op.cit., p. 119-122; J. Hornell, Antiquity, 15, 1941, p. 244, Antiquity, 21, 1947, p. 72-73.

(٣) E. Glaser, Skizzer der Geschichte und geographie Arabiens, 2, Berlin, 1890, p. 368-373.

(٤) B. Moritz, Arabian, p. 86-9.

كذلك لا يصح الاستدلال على أن أوفير فى بلد ما، بورود أسماء مشابهة لأوفير فى هذا البلد، فكثيراً ما يكون التشابه اللفظى عارضاً[1].

ويناقش الدكتور يعقوب بكر بعد ذلك الاعتراضات التى وجهت إلى هذه النظرية، ومنها أن ذهب بلاد العرب كان قليلا بالقياس إلى المقادير الهائلة التى كانت تصل منه إلى سليمان، وأن السنوات الثلاثة التى كانت تستغرقها رحلة أوفير، يستحيل معها أن تكون أوفير فى مكان قريب من عصيون جابر. فهذان الاعتراضان يقومان على أساس التسليم بقصة أوفير حرفًا حرفًا، ولكن ألا تجوز المبالغة فى هذا المجال الأدبى، ولاسيما أن الأمر يتعلق بسليمان الذى سارت بذكره الركبان، والذى كان يحتاج فعلا إلى ذهب كثير لتزيين الهيكل وقصر الملك، ثم ألا يمكن أن يكون الغرض من المبالغة إظهار حملات أوفير، وكأنها أبهى من حملات الفراعنة إلى «بونت» أو بمنزلتها على الأقل.

وأما عن ذكر السنوات الثلاث التى كانت تستغرقها الرحلة إلى أوفير، فهى أولا قد وردت فى المصادر المتأخرة، ثم هى مبالغة أيضاً، فقد يجوز أن يكون المعنى أن سليمان كان يبعث بسفنه مرة كل ثلاث سنين، وعندئذ لا تكون الإشارة إلى زمن الرحلة، ولكن إلى المدة الفاصلة بين كل رحلة وأخرى[2]. أضف إلى ذلك أن وجهة نظر «وليم أولبرايت» التى سبق أن قدمناها بشأن الرحلة ربما كانت تتصل برحلة أخرى، غير رحلة أوفير، ذلك لأن «ستانلى كوك» يرى أن سليمان وحيرام قد امتلكا أسطول «ترشيش»، والذى يمكن الحكم عليه من اسمه أنه قد ذهب إلى ترشيش فى أسبانيا، وأما أسطول الفينيقيين فقد أبحر من عصيون جابر فى أدوم ليحضر الذهب من أرض أوفير[3] (من جنوب الجزيرة العربية)، وهكذا يبدو أن رحلة

(١) السيد يعقوب بكر، المرجع السابق، ص ١٥٦-١٥٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٤٨-١٦٠.

(٣) S. A. Cook, op.cit., p. 367.

السنوات الثلاث ربما لا تتصل بأوفير، ولكنهما تتصل بأسطول «ترشيش»[١] إلى أسبانيا، وإن كان ذلك سيجرنا إلى متاعب أخرى، علماً بأن هناك من يرى أن هناك علاقات تجارية بين حيرام من ناحية، وبين قبرص وأسبانيا من ناحية أخرى[٢].

(٧) النشاط الصناعي:

لم تكن «عصيون جابر» ميناء تجارياً فحسب، ولكنها كانت كذلك مركزاً صناعياً، وكان يظن من قبل أنها تقع عند «عين الغديان» في قعر وادي العربة[٣] وقد اكتشفتها بعثة أمريكية - برئاسة نلسون جلوك - في موقع «تل الخليفة»، على مبعدة ٥٠٠ متراً على ساحل البحر، على الطرف الشمالي من خليج العقبة، بالقرب من ميناء «إيلات»، وفي منتصف الطريق بين مدينة العقبة والطرف الشرقي من خليج العقبة، و«أم الرشراش» على الطرف الغربي[٤]، هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن المدينة قد عرفت بعد ذلك باسم Berencie[٥].

(١) ترشيش، يذهب بعض الباحثين إلى أنها في سردينيا، ويذهب آخرون إلى أنها ترتيسوس في جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق أو لعلها «قرطاجنة» المدينة الواقعة في شمال أفريقية. (قاموس الكتاب المقدس، ٢١٥/١-٢١٦؛ وكذا:

Frederic Thieberger, King solomon, London, 1957, p. 206; M.F. Unger, ٢٠٦, op.cit., p. 1070-1071.

(٢) ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ص ٧٤.

(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ص ٦٣٧، (بيروت ١٩٦٨).

(٤) Nelson Glueck, The Other Side of the Jordan, New Haven, 1940, p. 50-113; وكذا:

F. Thieberger, op.cit., p. 206; J. Hornell, Antiquity, 21, 1947, p. 66; W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, 1963, p. 44, 127-128;

وانظر: قاموس الكتاب المقدس، ٦٣١/٢، (بيروت ١٩٦٧)؛ وكذا:

K.M. Kenyon, op.cit., p. 257.

(٥) J. Hastings, op.cit., p. 253.

وكان اختيار موقع «عصيون جابر» اختياراً موفقاً، فى مكان لم يسكن من قبل، بين تلال أدوم من الشرق، وتلال فلسطين من الغرب، حيث يمكن الإفادة إلى أقصى الحدود من الريح التى تهب من الشمال، حيث تبلغ غاية سرعتها فى وسط وادى العربة، وذلك للانتفاع بها فى تأجج النار اللازمة للتكرر، هذا فضلا عن أن «أدوم» وكل المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة غنية بالنحاس والحديد[1]، ونقرأ فى التورة عن «أرض حجارتها حديد، وفى جبالها تحفر نحاساً»[2]، ومن هنا كانت عصيون جابر - بجانب وادى عربة والنقب - مركزاً لصهر النحاس والحديد فى عهد سليمان، الذى وصفه «نلسون جلوك» بأنه «ملك النحاس العظيم»، بل ربما كان واحداً من أعظم مصدرى النحاس فى العالم القديم[3].

وقد اكتشف «سير فلندرز بترى» فى (جمة) معامل لاستخراج الحديد، أصغر كثيرٌ من تلك التى فى عصيون جابر، ويبدو أن داود كان قد نازع الفلسطينيين حقهم فى احتكار الحديد، وأخذ عنهم طريقتهم السريةفى صهره كثمن لهزيمتهم، ومن ثم فإن مخزونات النحاس والحديد قد استخرجت وصهرت فى عهد سليمان بدرجة كبيرة، وعلى أى حال، فإنه لم يعثر حتى الآن فى أى مكان آخر فى العالم القديم على ما يضاهى معامل تنقية النحاس فى «عصيون جابر» ولعل أفضل هذه المعامل من جهة الإعداد والبناء ما وجد منها فى الطبقة (ط) التى تحوى مخلفات أقدم الفترات الخمسة الرئيسية لعمران هذا الموقع، هذا ويبدو أن (القينيين) هم الذين

---

(١) موسكاتى، المرجع السابق، ص ٢٨٠؛ وكذا:

J. Finegan, op.cit., p. 181; O. Eissfeldt, op.cit., p. 584.

(٢) تثنية ٨: ٩.

(٣) W.F. Albright, Archaeology andthe Religion of Israel, 1953, p. 133F.

وكذا: NGM, 85, 1944, p. 233-236; N. Glueck, op.cit, p. 89E.

علموا الأدوميين أتباع سليمان فنون استخراج المعادن[١] وصنعها، وهم الذين استخدموا معادن وادى العربة أولا[٢].

ويرى بعض الباحثين أن مناجم النحاس هذه، لم يكن يتبع فيها أى نظام للتهوية، وكان يعوزها الماء اللازم للإبقاء على حياة الرجال الذين كانوا يشقون فى هذه الحرارة المميتة، وكانوا يتساقطون كالذباب تحت أعين الملاحظين، ولم يكن لموتهم ثمن ما، إذ كانت قيمة حياة الإنسان ضئيلة فى مناجم سليمان، كما أن مناجم النحاس هذه إنما كانت هى المكان الذى ينفى إليه العبيد من أجل الديون الأميرية، كما كانت تنفى إليه الرهائن والعصاة، الذين كان عددهم يتزايد يوماً بعد يوم[٣].

كانت مشروعات سليمان التجارية والصناعية احتكاراً ملكيًا بدون شك، كما أنها قد حققت أرباحًا طائلة لسليمان ما فى ذلك من ريب كذلك، وتتحدث التوراة فى سفر الملوك [٤] ـ بإعجاب عن ثروة سليمان، وفى الحقيقة أن سليمان قد حقق من تجارته وصناعته ثراء واسعًا، وأن فريقاً من قومه العبرانيين إنما قد شاركوه فى هذا الجاه العريض، غير أن وجهة النظر العبرانية، بصفة عامة عن هذا العصر، بصفة عامة، إنما كانت تعارض النشاط التجارى بمداه الواسع معارضة شديدة، وكانوا ينظرون بريبة إلى ما قام به سليمان من مشروعات، وإن كانوا قد انساقوا قليلا ـ فيما يبدو ـ وراء الريح.

هذا وكان سليمان قد تعاقد مع حيرام على أن يدفع له ثمن المواد

---

(١) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكى إسكندر ومحمد عبد القادر، القاهرة ١٩٧١، ص١٢٨؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٧؛ وكذا: W. Keller, op.cit., p. 198-199

(٢) A.H. Sayce, in HDB, II, p. 834.

(٣) انظر: Hellmut Andics, Histoire de L'Antisamitisme.

(٤) ملوك أول ١٠: ١٤-٢٣.

وأجر العمال زيتاً وقمحاً، وليس ذهباً من أوفير، وأخيراً جاء الوقت الذى كان فى حاجة إلى ١٢٠ مثقالا (تالنت) من الذهب من حليفه الصورى، ومن ثم فقد اضطر أن يتنازل له عن عشرين مدينة فى الجليل[١]. ومن هنا ربما قد نعرف قيمة الأهمية التى يجب إضافتها إلى الفقرة التى تصف الثروات الطائلة التى تمتع بها الإسرائيليون أثناء عهد سليمان[٢]. حيث نقرأ فى التوراة: «وجعل الملك الفضة فى أورشليم مثل الحجارة»[٣].

وفى الواقع فإن سليمان لكى يغطى المصروفات الباهظة التى كان يتطلبها البلاط الملكى الذى فاق بلاط شاول وداود بدرجة كبيرة، فضلا عن النفقات التى كانت تحتاجها أعمال الملك وإدارات الدولة. التى حاول سليمان أن يجعلها كذلك على مستوى أكبر مما كانت عليه فى زمن داود فإنه اضطر أن يتنازل ـ كما أشرنا آنفًا ـ لحليفه الصورى إلى جزء من الجليل، وهى منطقة ظلت فترة تعتبر منطقة إسرائيلية، وكان يقيم فيها سبط أشير على الحدود بين فينيقا وإسرائيل، واضطر كذلك أن يفرض على رعاياه نوعاً من الضرائب، ألقى على شعبه عبئاً ثقيلا على أى تقدير، وزاد من ثقله واستنكار الشعب له، أن الضرائب من أى نوع لم تكن تتطرق إلى تفكيرهم إلا قبل ذلك بزمن قصير[٤]، وفى الواقع أنه بلغ من شدة هذه الضرائب أن البلاد ـ رغم مظاهر الرخاء، وتطور التجارة التى جاءت بالثروة لإسرائيل ـ كانت تسير نحو أزمة اقتصادية؛ ذلك لأن الثروة الجديدة إنما كانت من نصيب طبقة صغيرة من الشعب تتكون من موظفى البلاط والضباط والتجار، أما معظم الناس فلم يحصلوا على شيء، بل إنهم هم الذين حملوا على أكتفاهم التبعات الثقال، وهكذا بدا الاختلاف واضحاً بين الفقراء والأغنياء،

---

(١) ملوك أول ٩: ١٠-١٤.

(٢) A. Lods., op.cit., p. 371.

(٣) ملوك أول ١٠: ٢٧.

(٤) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٤٤ ؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 587

وبدأت العوامل الاقتصادية تلعب دوراً هاماً فى التمهيد للأزمة السياسية التى تلت موت سليمان، وكانت أحد عوامل الانقسام بين القبائل الإسرائيلية، كما كانت موضع لوم حاد من بعض أنبياء إسرائيل - مثل عاموس وإشعياء - بعد ذلك بقرنين[١].

(٨) مملكة إسرائيل فى عهد سليمان:

يجمع المؤرخون - أو يكادون - على أن المملكة التى ورثها سليمان عن أبيه داود - عليهما السلام - أكبر بكثير من تلك التى ورثها سليمان لمن أتوا بعده[٢] من ملوك بيت يهوذا وإسرائيل، وذلك لأن الأمور فى الخارج لم تكن تسير فى نفس المجرى الذى اتخذته فى الداخل[٣].

وقد بدأت المتاعب ضد دولة سليمان تظهر على الحدود، ذلك أن يوآب، قائد جيش داود كان قد اجتاح آدوم قبل ذلك بنصف قرن، وقتل كل ذكورها بحد السيف، وقد استطاع «هدد» - وهو طفل أدومى من الأسرة المالكة - أن يهرب إلى أرض الكنانة، وحين اشتد ساعده وجد رضاً فى عين فرعون، الذى زوجه من «تحبنيس» (تحفنيس) أخت زوجه الملكة، ثم عاد «هدد» إلى أدوم بغير موافقة فرعون وأصبح العدو اللدود لسليمان مدى الحياة[٤].

وتصور التوراة هذه الأحداث فى الآيات التالية: «وأقام الربُّ خصمًا

---

(١) J. Morgenstern, Amos studies, III, in HUCA 15, 1940, p. 59F; O. Eissfeldt, op.cit., p. 603.

(٢) انظر: سورة ص، آية: ٣٥ حيث يقول سبحانه وتعالى - على لسان سليمان عليه السلام - : ﴿ربِّ اغفرْ لِى وهبْ لِى مُلْكًا لا ينبغى لأحدٍ مِنْ بَعْدِى إنَّكَ أنتَ الوَهَّاب﴾.

(٣) H.R. Hall, op.cit., p. 433; M. Noth, op.cit., p. 250-6; C. Roth, op.cit., p. 23; A. Lods, op.cit., p. 368.

(٤) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 329.

لسليمانَ هددَ الأدومي، كان من نسل الملك في أدوم، وحدث لما كان داود في أدوم عند صعود يوآب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر في أدوم، لأن يوآب، وكل إسرائيل أقاموا هناك ستة أشهر حتى أفنوا كل ذكر في أدوم، أن هدد هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه، ليأتوا إلى مصر، وكان هدد غلامًا صغيرًا، وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران، وأخذوا معهم رجالا من فاران وأتوا إلى مصر، إلى فرعون ملك مصر، فأعطاه بيتًا وعين له طعام وأعطاه أرضًا، فوجد هدد نفسه نعمة في عيني فرعون جدًا، وزوجه أخت امرأته، أخت تحفنيس الملكة، فولدت له أخت تحفنيس: «جنوبث» ابنه، وفطمته تحفنيس في وسط بيت فرعون، وكان جنوبث في بيت فرعون بين بني فرعون، فسمع هدد في مصر بأن داود قد اضطجع مع آبائه، وبأن يوآب رئيس الجيش قد مات، فقال هدد لفرعون: أطلقني إلى أرضي، فقال له فرعون: ماذا أعوزك عندي حتى إنك تطلب الذهاب إلى أرضك؟ فقال: لا شيء، وإنما أطلقني.»[1].

وهكذا عاد الأمير الأدومي إلى بلاده بعد موت داود ـ ودون موافقة من فرعون الذي ربما كان لا يريد أن يفسد العلاقات الودية بينه وبين صهره سليمان، ـ إن صحت رواية سفر الملوك الأول ـ وأيًا ما كان الأمر، فلقد أصبح «هدد» العدو اللدود لسليمان مدى الحياة. هذا ويبدو أن موت داود ثم قائد جيشه «يوآب» الذى قتله سليمان في بداية حكمه، على أنه واحد من أعدائه كما أشرنا من قبل، إنما كان سببًا، لا في عودة «هدد» إلى وطنه فحسب، بل وفي نجاحه كذلك في استعادة مملكته المسلوبة جزئيًا، ونقرأ في التوراة أنه: «قد أصبح ملكا على أدوم»[2]، وربما قد حدث هذا في فترة مبكرة من عهد سليمان؛ ومع ذلك وطبقًا لرواية أخرى في سفر الملوك

(١) ملوك أول ١١: ١٤-٢٢.

(٢) ملوك أول١١: ٢٥.

الأول[١] - فقد كان لسليمان مدخل إلى خليج العقبة وميناء عصيون جابر، أى عبر الجزء الأساسى الهام من أدوم، وربما أمكننا أن نفترض أن سليمان قد عقد اتفاقًا على ذلك مع «هدد» بتوسط من فرعون، ولكنه قبل سيادة «هدد» على جبال سعير، وهكذا لم تعد لسليمان سيطرة على ولاية أدوم، كما أنه من الواضح أنه لم يتخذ من الخطوات ما يجعله يستعيد سيطرته عليها مرة أخرى[٢].

ونقرأ فى التوراة كذلك: «أن الله أقام لسليمان خصماً آخر، هو «رزون ابن اليداع» (رصين)، الذى هرب من عند سيده «هدد عزر» ملك صوبة، وأقام مملكة فى دمشق، وكان خصمًا لإسرائيل كل أيام سليمان مع هدد»[٣]. ومرة أخرى لم يعر سليمان الأمر ما يستحقه من الاهتمام، ولم يتخذ الخطوات الضرورية لاستعادة سلطته فى منطقة آرام، ولا نعرف متى حدث هذا على وجه اليقين، وإن كان من المظنون أن ذلك إنما كان فى أوائل عهده، وهكذا نمت المملكة الآرامية فى دمشق، ثم تطورت بعد فترة قصيرة، حتى غدت أقوى سلطة فى سورية وفلسطين لفترة ما، وكانت النتيجة الحتمية لذلك كله، أن ما أوجده داود من نفوذ فى دمشق قد ضاع الآن[٤].

وربما مما زاد خطورة الأمر على إسرائيل، أن مصر إنما قد بدأت حالتها فى الانتعاش؛ وبالتالى فقد عادت سيطرتها - الاسمية على الأقل - على فلسطين، فهناك ما يشير إلى حملة ضد الفلسطينيين وشعوب البحر فى جنوب غرب كنعان، فقد عثر فى «تانيس» على نقش بارز على جدران مبنى شيده «بسوسنس الأول» و«سيامون» (سى أمون) جنوب معبد أمون الرئيسى

---

(١) ملوك أول ٩ : ٢٦.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 368; M. Noth, op.cit., p. 206.

(٣) ملوك أول ١١ : ٢٣-٢٥.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 206.

يصور فيه الأخير وهو يضرب عدواً راكعًا أمامه وقابضًا في يده على فأس للحرب مزدوجة، من ذلك النوع الذى كان يتخذه الإيجيون من أسلحة الحرب[١]، هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى أن سيامون قد أرسل جيوشه لمحاربة الفلسطينيين فى جنوب غرب كنعان، وأن أسدود قد غزيت، وأن هناك آثاراً فى «تل فرعة» لنفس الفرعون[٢]، بل إن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن «سيامون» إنما قد فكر فى غزو إسرائيل نفسها[٣].

وسواء أصح هذا، أم لم يصح، فإن سليمان ـ كما أشرنا من قبل ـ إنما كان قد لجأ إلى صهره ملك مصر، لكى يعطيه منفذاً على البحر الأيض المتوسط الذى كان يتنازع السيادة على موانيه الفينيقيون الساميون والفلسطينيون الهندو أوربيون، ومن ثم ـ كما أشرنا من قبل ـ فقد خرج الجيش المصرى واستولى على «جازر» التى قدمها فرعون مهراً لابنته امرأة سليمان[٤]، وربما كان ذلك أحد الأسباب التى دفعت المؤرخ الأمريكى الكبير «جيمس هنرى برستد» (١٨٦٥-١٩٣٥م) إلى أن يذهب إلى أن سليمان إنما كان واليًا تحت النفوذ المصرى[٥]، وسواء أصح هذا أم لم يصح، فمما لا شك فيه ـ فيما يرى المؤرخ اليهودى سيسل روث[٦] ـ أن التحالف مع مصر هو الذى مكن دولة سليمان من أن يكون لها موطئ قدم على البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذى لم يتح لها بغير معونة فرعون.

أضف إلى ذلك كله، أن أعداء سليمان قد نشطوا كثيراً، ونجحوا فى استعادة بعض البقاع التى كانت خاضعة لأبيه، وانكمش ملك سليمان فى

---

(١) P. Montet, Osrkon II, p. 36, pl. I.

(٢) A. Malamat, JNES, 22, 1963, p. 12, No. 48-9.

(٣) Ibid., p. 13, 16F.

(٤) ملوك أول ٩: ١٦.

(٥) J. H. Breasted, A History of Egypt, N.Y., 1946, p. 529.

(٦) C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 21.

أخريات عهده، فأصبح في غرب الأردن فقط، وعادت حدود إسرائيل إلى ما قبل عهد داود - إلى عهد شاؤل[١]، وأصبح الفلسطينيون في غزة وما بعدها في نجوة من سلطانه، هذا فضلا عن أن ممالك وملوك شعوب شرق الأردن إنما كانوا يمارسون سلطانهم المحلي بعيداً عن قبضة سليمان، مما يدل على أن الممالك والشعوب التي كان داود قد أخضعها في شرق الأردن وسورية الآرامية تفلتت من سيادته، كما تفلت الفلسطينيون منها كذلك[٢].

وأخيراً، فلعلنا لا ننسى ما أشرنا إليه من قبل، من أن سليمان قد اضطر نتيجة ظروف اقتصادية معينة، أن يتنازل لملك صور عن عشرين مدينة في الجليل[٣]، وهذا يدل على أنه حتى فلسطين لم تخلص كلها للإسرائيليين، ولم تدن جميعها بالطاعة لهم، حتى في أيام سليمان، وهي أيام المجد التي كان بها بنو إسرائيل يعتزون.

ويشرح هربرت ويلز كيف لعب الخيال فصور مملكة سليمان في صورة تفوق الواقع بكثير، وأنه لمن الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور، فسليمان لم يكن في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً تابعاً، يحكم في مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى «شيشنق الأول» - أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥-٧٣٠ق.م) - على أورشليم، وأخذ معظم ما فيها من كنوز[٤].

وسواء أكانت هذه الحملة - فيما يرى سيسل روث[٥]، وأدولف لودز[٦]، وهول[٧] - بسبب استنجاد «يربعام» زعيم الثوار الإسرائيليين بمصر،

(١) H.R. Hall, op.cit., p. 435.

(٢) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) ملوك أول ٩: ١١.

(٤) H.G. Wells, A Short History of the World, 1965, p. 76-77.

(٥) C. Roth, op.cit., p. 31.

(٦) A. Lods, op.cit., p. 374-375.

(٧) H.R. Hall, op.cit., p. 436-437.

ضد بيت سليمان، أو أنها كانت لإعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الإمبراطورية المصرية[١]، فإن التدخل المصرى - كما سوف نفصل ذلك فيما بعد - فى إسرائيل ولم تمض على موت النبىّ الكريم سنوات، ثم احتلال العديد من المدن، والاستيلاء على خزائن معبد سليمان وقصره الملكى[٢]، لدليل واضح على مدى الضعف الذى وصلت إليه دولة سليمان بعد موته، بل إن الثورة نفسها[٣]، لتشير إلى خضوع «يهوذا» - والتى أصبحت من نصيب بيت سليمان - لمصر، أو على الأقل، فإن معظم المدن هناك إنما كانت تقوم بدفع الجزية لمصر[٤].

وأما الدويلة الأخرى - أى إسرائيل - فقد أصبحت تحت النفوذ المصرى، ولعل هذا كله إنما جعل كثيراً من النقاد يقف موقف المستريب إزاء مجد سليمان - كما جاءت به رواية التوراة - وهم يقولون إن الكبرياء القومى لدى الكتاب المتأخرين من اليهود، هو الذى دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة، فضلا عن المبالغة فيها[٥].

على أن الغريب من الأمر حقًا، أن تنافس المصادر العربية المصادر اليهودية فى الحديث عن اتساع ملك سليمان، بل إنها - فى أغلب الأحايين - إنما تزعم لهذه الدولة ما لم تزعمه المصادر اليهودية نفسها، ومن ثم نرى بعض المؤرخين العرب يذهبون إلى أن ملك سليمان إنما وصل إلى اليمن، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر، إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيداً فى إيران، حيث اتخذ من «إصطخر» - التى ينسبون إليه أو إلى جنّه أمر بنائها - مقراً لحكمه[٦].

---

(١) A.H. Gardiner, op.cit., p. 329-380. (٢) أخبار أيام ثان ١٢: ١٨.

(٣) H.G. Wells, op.cit., p. 77. (٤) ملوك أول ١٤: ٢٥-٢٧.

(٥) S.A. Cook, op.cit., p. 359.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية، ٣/٤٥٨-٥٦٩، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠)؛ على إمام عطية، الصهيونية العالمية وأرض الميعاد، ص ٧١-٧٢؛ وانظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، ١/٢١١، (بيروت ١٩٥٥).

وليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد يعرفون أن المدينة لم يبدأ الفرس فى بنائها إلا حوالى عام ٥٢٠ق.م، على أيام الملك الفارسى «دارا الأول» (٥٢٢-٤٨٦ق.م)، ولكن البناء لم يتم إلا فى عهد «أرتخششتا الأول» حوالى عام ٤٦٠ق.م[١]، فإذا تذكرنا أن سليمان عليه السلام إنما كان يحكم فى الفترة (٩٦٠-٩٢٢ق.م)، لتبين لنا أن المدينة إنما بدئ فى بنائها بعد وفاة النبىّ الكريم بحوالى أربعة قرون.

والحق، أننى لا أدرى لم تربط المصادر العربية بين هذا الملك الواسع وبين نبوة سليمان عليه السلام، وكأن مكانة النبىّ الكريم، لا تكون إلا بسلطان يفوق كل سلطان، حتى ذهب الخيال ببعض مؤرخينا أن يجعلوا من سليمان واحداً من أربعة (نمرود وبختنصر وذى القرنين وسليمان) ملكوا الدنيا بأسرها[٢]، بل إن سليمان ـ فيما يزعمون ـ كان «لا يسمع بملك فى ناحية من الأرض إلا أتاه ؛ حتى يذله»[٣]، ونسوا أن سليمان لم يكن جباراً فى الأرض وإنما كان هادياً ومبشراً ونذيراً، ونسوا كذلك أن النبوّة أشرف من ملك الدنيا وما فيها، كما نسوا ـ أو تناسوا ـ أن من هو أفضل من سليمان، لم يكن يملك هذا الملك الواسع العريض الذى زعموه لسليمان، بل إن سلطان الإسلام، حتى انتقال سيد الأولين والآخرين ـ محمد رسول الله، ﷺ ـ إلى جوار ربّه الكريم، لم يكن يتجاوز تخوم شبه الجزيرة العربية.

على أن هذا كله، لا يمكن أن يجعلنا ـ بحال من الأحوال ـ نوافق على ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن القصص والأساطير إنما تنسب إلى

(١) أحمد فخرى، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ٢٢٩؛ وانظر: آرثر كريستنسن، إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧، ص ٨٠.

(٢) تاريخ الطبرى ٢٢٣/١-٢٣٤؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ٩٤/١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤٨/١.

(٣) الطبرى، (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك، ٤٨٧/١، (القاهرة ١٩٦٠).

سليمان ـ عليه السلام ـ قوة وحكمة خارقتين، مما جعل اسم سليمان مرادفًا خلال العصور للقوة والفخامة والحكمة، وحتى الجن (وهى كلمة آرامية بمعنى مخبأ) كان يأتمر بأمره فى البرّ والجو، ويرى «هربرت ويلز» أن قصة سليمان وحكمته التى أوردها الكتاب المقدس (التوراة) إنما قد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر، وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحى، بل والإسلامى، على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة[١].

وهنا فإننى أعتقد أن الأمر جد خطير، فإنه إنما يتعلق بالنبىّ سليمان ـ وليس بالملك سليمان، فضلا عن الكتب المقدسة نفسها، ومن ثم فالرأى عندى ـ أو قل هو الإيمان كل الإيمان ـ أن نلتزم جانب الأدب مع أنبياء الله ورسله الكرام ـ عليهم السلام ـ الأمر الذى لم نحد عنه قيد أنملة طوال صفحات هذا الكتاب، بل وكل كلمة نكتبها، ومن ثم فعلينا ألا نتورط فننساق ـ دون أن ندرى ـ فى تيار كتاب التوراة، أو فى تيار قلة من المؤرخين المحدثين ممن يلقون التهم جزافًا على واحد من المصطفين الأخيار ـ وأعنى به سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام.

وانطلاقًا من هذا كله، فإننا سوف نقدم شهرة سليمان بالحكمة، وائتمار الجن بأمره، كما قدمه ربّى جلّ جلاله فى القرآن الكريم، وليس كما قدمتها عقول مريضة من يهود، لقد جاء فى القرآن الكريم ـ إلى جانب ما جاء عن قصته مع ملكة سبأ ـ قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ

---

(١) H.G. Wells, The Outline of Histry, p. 287.

وانظر الترجمة العربية (معالم تاريخ الإنسانية ٢/٢٩٤-٢٩٥).

(٢) سورة الأنبياء، آية : ٨١-٨٢.

وأسلنا له عينَ القطر ومنَ الجنِّ مَنْ يعمل بين يديه بإذن ربِّه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾[2].

(٩) مباني سليمان:

يرى بعض الباحثين أن سليمان، رغم أنه كان يلقب عن جدارة بلقب «الملك التاجر» فإن الروايات التى وصلتنا، عن مبانيه - إنما تضعه فى مرتبة البنائين المشهورين كذلك، ومن ثم فقد نسبت إليه مبان كثيرة فى منطقة الشرق الأدنى القديم، حتى إن بعض تلك المبان إنما كانت تقع بعيداً جداً عن منطقة نفوذه[3]، وقد نافست المصادر العربية المصادر اليهودية فى نسبة مبان كثيرة إلى سليمان، حتى إن ياقوت الحموى يقول: إن الناس كانوا إذا ما رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى جن سليمان[4].

ومع ذلك، فليس هناك من شك فى أن سليمان - عليه السلام - إنما قد بذل جهداً كبيراً فى البناء، وقد ذكرنا من قبل تشييده لكثير من الثكنات لفصائل عجلاته الحربية، والتى أطلقت عليها التوراة «مدن المركبات» و«مدن الفرسان»، هذا فضلاً عن «مدن المخازن»[5] التى كانت - فيما يبدو - قد أقيمت للمؤن والعلف التى تحتاجها المعسكرات والمحطات التى أقيمت

---

(١) سورة سبأ، آية: ١٢-١٣.

(٢) سورة النمل، آية: ١٦-١٧.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 594.

(٤) ياقوت الحموى، معجم البلدان، الجزء الثانى، ص ١٧، (بيروت ١٩٥٧).

(٥) ملوك أول ٩: ١٩.

على الطرق التجارية، وذلك «مدن المخازن التى بناها سليمان فى حماه»[١] إنما قد خدمت الهدفين، وبالتالى فربما أمكن القول: «أن الأماكن المحصنة التى أقيمت فى مجاورات مجدو وتدمر وحماة وأورشليم، إنما كانت «مدن مخازن»[٢].

هذا وقد كشف عن بقايا بعض مبان لسليمان فى مدينة «حاصور»[٣] - الواقعة على مبعدة خمسة كيلو مترات جنوب غربى بحيرة الحولة وتسمى الآن «تل قدح»[٤] - كما كشفت الحفائر كذلك عن بقايا مبان لسليمان لم تشر إليها التوراة، كما فى «عصيون جابر»، إذ أن، هناك ما يشير إلى أن الحصن الذى اكتشفه «نلسون جلوك» فى تلك المدينة إنما يرجع إلى أيام سليمان، والأمر كذلك بالنسبة إلى ما اكتشف فى «قادش برنيع» - والتى يرى البعض أنها ربما كانت «خربة القضيرات»[٥]، وإن رجح آخرون إنها «عين قديس» على مبعدة ٨٠ كيلا إلى الجنوب من «بئر سبع»[٦].

ونقرأ فى التوراة أن سليمان قد «بنى جازر وبيت حورون السفلى، وبعلة وتدمر فى البرية فى الأرض»[٧]، أما «جازر» فهى المدينة الكنعانية الواقعة على مبعدة ١٨ ميلا إلى الشمال الغربى من أورشليم، ١٧ ميلا جنوبى شرق حيفا، وطبقاً لما جاء فى سفر الملوك، وكما أشرنا من قبل، فقد استولى عليها فرعون وقدمها مهراً لابنته امرأة سليمان، ويبدو أن سليمان قد أعاد بناء المدينة بعد ذلك[٨].

---

(١) أخبار أيام ثان ٨: ٤.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 595.

(٣) ملوك أول ٩: ١٥.

(٤) O. Eissfeldt, op.cit., p. 595.

(٥) W. F. Albright, Recent Dicoveries in Bible Land, N.Y., p. 86F.; B. Rothenberg, Cades Barne, in Bible et Terre Sainte 32, p. 4F; O. Eissfeldt, op.cit., p.595.

(٦) قاموس الكتاب المقدس، ٧٠٨/٢-٧٠٩.

(٧) ملوك أول ٧٠٨/٢-٧٠٩.

(٨) ملوك أول ٩: ١٥-١٧؛ قاموس الكتاب المقدس ٢٤٢/١؛ وكذا:

M. F. Unger, op.cit., p. 401.

وأما «بيت حورن السفلي» فتقع على مبعدة ١٢ ميلا إلى الشمال من أورشليم ،وتسمى حاليًا «بيت عور السفلي» وهي أقدم من عصر سليمان، ومن ثم فيبدو أن سليمان قد حصن المدينة، ولكنه لم يبنها[١]، وأما «بعلة» فهي مدينة في منطقة قبيلة دان، لا يعرف الآن مكانها على وجه التحقيق، ويرجح أن سليمان لم يبنها، وإنما قام بتحصينها[٢] كذلك.

وأما مدينة «تدمر» فهي مدينة «تمر» التي قام سليمان ببنائها في البرية وتتصل بنشاطه التجاري الواسع، ذلك أن التوراة إنما تشير في سفري الملوك الأول وأخبار الأيام الثاني إلى أن سليمان قد بنى تدمر[٣]، والأمر كذلك بالنسبة إلى المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى»[٤]، وليس من شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن المدينة إنما ظهرت - للمرة الأولى - في التاريخ، على أيام الملك الآشوري «تجلات بلاسر الأول» (١١١٦-١٠٩٠ق.م) في صورة «تدمر أمورو»[٥]، أي قبل أن يولد النبيُّ الكريم، وبفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون[٦].

ومن هنا فإن العلماء يذهبون إلى أن الرواية التوراتية التي جاء في الملوك الأول والأخبار الثاني بشأن بناء سليمان لمدينة تدمر، إما أنها أرادت تعظيم مملكة سليمان كعادة الروايات اليهودية - وكأن مكانة النبيِّ الكريم لا تأتي إلا ببناء المدن واتساع الملك، وليست برسالته السماوية - ومن ثم فقد

---

(١) ملوك أول ٩ : ١٧؛ قاموس الكتاب المقدس، ٢٠٢/١.

(٢) ملوك أول ١١ : ١٨؛ قاموس الكتاب المقدس ١٨٢/١.

(٣) ملوك أول ٩ : ١٨؛ أخبار الأيام الثاني ٨ : ٤.

(٤) E. Dhrome, Palmyra dans les Textes Assyriens, RB, 1924, p. 106; EI, II, p. 1020.

(٥) EB, 17, p. 161; EI, III, p. 1020; E. Dhrome, op.cit., p. 106; D.D. Zuckenbill, ARAB, I, 1927, 287, 308.

(٦) انظر عن تاريخ كتابة أسفار التوراة كتابنا «إسرائيل»، ص ٣٣-٣٤، (الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣).

نسبت إليه بناء هذه المدينة، التى تقع فى منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل[1]. وإما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبرانى حين خلط بين «تامارا» (تمر) التى بناها سليمان، وهى موضع جاء ذكره فى سفر حزقيال[2]، ويقع إلى الجنوب الشرقى من «يهوذا»[3]، وربما كانت الشهرة التى اكتسبتها «تدمر»[4] على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هى السبب فى نسبة بنائها إلى النبىّ الكريم، ومن ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التى بناها سليمان ليست هى «تامارا»، وإنما «تدمر» والتى كانت مدينة عامرة بسكانها، وذات شهرة فى مجاوراتها، فيما بين عامى ٣٠٠، ٢٠٠ قبل الميلاد[5]، والأمر كذلك بالنسبة إلى الروايات العربية، والتى أتت إلى المسلمين عن طريق مسلمة أهل الكتاب، فأخذوها بغير تحقيق ولا تدقيق، فضلا عن أن ضخامة آثار المدينة وعظمتها، ربما أثارت دهشتهم، ومن ثم فقد نسبوا بناءها إلى الجنّ بأمرٍ من سليمان عليه السلام[6].

هذا وقد ناقش الأستاذ «إيسفلت» الموضوع حديثًا (عام ١٩٧٥م)

---

(١) جواد علي ٧٧/٣؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٣٢؛ وكذا:

EB, p. 4886; J. Hastings, op.cit., p. 889.

(٢) حزقيال ٤٧: ١٩.

(٣) جواد علي ٧٧/٣؛ قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١.

(٤) تدمر: هو النطق الآرامى لكلمة «تمر» العربية، ومعناها المدينة التى يكثر فيها التمر والنخيل، وإن كنا على غير يقين من اشتقاق كلمة تدمر وربما كان لها صلة بكلمة تدمورتا السريانية، ومعناها يحجب من، وأما الاسم اليونانى للمدينة فهو بالميرا Palmyra وهى ترجمة لكلمة (تامار) تمر، وتعنى مدينة النخل. (حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١١٥؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٣٣؛ وكذا: EI, III, p. 1020.

J. Hastings, op.cit., p. 889; F. Altheim and R. Stiehl, op.cit., p. 344.

(٦) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٣٢؛ جواد علي ٧٨/٣؛ الألوسى، بلوغ الأرب ٢٠٩/١-٢١٠؛ ياقوت، ١٧/٢-١٩؛ البكرى ٣٠٦/١-٣٠٧؛ ابن بلهيد، صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار، القاهرة ١٩٥١، ٦/٢-٧ لم تارن: المسعودى، مروج الذهب، ٢٤٤/٢-٢٤٥، (بيروت ١٩٧٢).

ورأى أن «تدمر» المشار إليها فى نصوص التوراة، إنما هى «تمر» وتقع فى أو بالقرب من «عين الرس» على مبعدة خمسة كيلو مترات إلى جنوب النهاية الجنوبية للبحر الميت[١]، وليست تدمر التى تقع على مبعدة ١٠٠ كيلو متراً من «حمص»، ١٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من دمشق، فى منتصف المسافة بين دمشق والفرات[٢]، وعلى أى حال، فإن بناء «تمر» إنما كان جزءاً من مشروع أكبر، الهدف منه خدمة الأغراض التجارية، التى كانت دولة سليمان ميداناً لها[٣].

هذا ومن البدهى أن أورشليم عاصمة دولة إسرائيل، إنما كان لها نصيبها الأكبر من المبانى التى شيدت على أيام سليمان فى مختلف أنحاء دولته، وطبقاً لما جاء فى التوراة، فقد شيد سليمان سور المدينة وقلعتها، وإن كان بناء هيكل سليمان وقصره، إنما هو أعظم إنجازات الملك المعمارية[٤]، الأمر الذى سوف نناقشه بالتفصيل فى الفصل التالى.

---

(١) O.Eissfeldt, Solmon's Buildings, in CAH, II, Part II, Cambridge, 1975, p. 592-593.

(٢) EB., 17, p. 161.

(٣) ملوك أول ٩ . ١٥ ؛ وكذا: O.Eissfeldt, op.cit., p. 592-593.

(٤) Ibid., p. 595-601.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الخامس

القـــــــدس

(١) موقع القدس وطبوغرافيتها

تقع القدس على خط عرض ٣١ْ ٤٦َ ٤٥ً شمال خط الاستواء، وعلى خط طول ٣٥ْ ١٣َ ٢٥ً شرق جرينتش، وعلى مبعدة أربعة عشر ميلا إلى الغرب من البحر الميت، وثلاثة وثلاثين ميلا إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط، وخمسة أميال إلى الشمال الشرقى من «بيت لحم»[١]، وهى هضبة غير مستوية تماماً، يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠، ٢٤٦٩ قدماً، وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠ْ صيفاً، وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء، كما أن التفاوت فى الحرارة كبير بين الليل والنهار، ومطرها شتوى متوسط، ورطوبتها متوسطة أيضاً، ويندر بها الثلج وليس بها أنهار، وإنما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت فى غزارة الماء وصلاحيته للشرب وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة عند هطول الأمطار، وكانت المدينة إلى عهد ليس ببعيد تعتمد أساسًا على تجميع مياه الأمطار فى صهاريج وآبار أعدت لهذا الغرض[٢].

وأعلى مرتفعات المدينة يوجد فى حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ومن ثم فقد اعتبرت منذ القدم موقعًا استراتيجيًا قويًا جداً، واشتهرت بأنها لا تظهر عند الزحف عليها من بعيد، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها، وهم ما يزالون على مسافة طويلة[٣].

هذا وقد اشتهرت المدينة بعدة جبال، أولها: جبل الزيتون (جبل الطور)

---

(١) M. F. Unger, op.cit., p. 576.

(٢) حسن ظاظا، القدس، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ١١.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١١-١٢.

ويقع إلى الشرق من القدس، مواجهًا لأسوار الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، ويفصله عنه واد عميق سريع الانحدار، هو وادى «قدرون» ويسميه التلمود «جبل المسح» أى جبل التتويج، لأن القوم إنما كانوا يستخدمون زيتونه المقدس فى تتويج ملوكهم من بنى إسرائيل، وعليه كانت تحرق بقرة حمراء قربانًا ليهوه ربّ إسرائيل، ثم يستخدمون رمادها فى تطهير الهيكل، وإعادة تكريسه إذا دنس، وهى عادة وثنية كانت منتشرة فى هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية.

وأما ثانى الجبال فهو «جبل بطن الهوا»، وهو امتداد جبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس ويفصله عنها «وادى سلوان» الذى يتصل فى هذه النقطة نفسها بوادى قدرون، ويسميه اليهود «الجبل الفاضح» (هارها مشحيت)، ويزعمون أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأُجنبيات وأنه المقصود فى رواية التوراة فى سفر الملوك الأول (١٩ : ١-٨)، وأما ثالث الجبال، فهو «جبل صهيون»، والذى سمّاه داود بعد أن احتل المدينة «جبل داود»، ويقع فى الجنوب الغربى للقدس القديمة، وهناك «جبل موريا» أو «جبل بيت المقدس»، ويقوم عليه مسجد الصخرة والمسجد الأقصى.

ثم هناك «جبل أكرا» حيث توجد كنيسة القيامة، ثم جبل رأس المشارف (سكوبوس)، والذى يسميه التلمود «جبل المراقبين» ويقع شمال شرقى المدينة وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقى إلى الشمال، ويفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة العمران» ثم هناك «جبل رأس أبو عمار» ويقع إلى الغرب من قرية «بتير» وهناك «جبل السناسين»، ويقع إلى الجنوب الغربى من «وادى فوكين» ثم «جبل النبىّ صموئيل» ويقع شمال غربى المدينة، على بعد قريب من غربى قرية «بيت حنينا»، وشمال قرية «بيت أكسا».

هذا، ويبدو أن هناك جبلا كان فى قديم الزمان، يقوم بين جبل

سكوبولس وبين هضبة الحرم الشريف (جبل موريا)، ذكره «يوسف بن متى» فى كتابه «حرب اليهود - الجزء الأول - الباب الخامس»، وسماه «بيزيتا» (أى بيت الزيتون أو «منبت الزيتون»)، ولما تولى أجريبا الأول» (٤١-٤٤م) من أسرة هيرودوس الكبير فردم ما بين الجبلين - جبل موريا، وجبل بيزيتا - ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير، بحيث أصبح حيًا من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة»[١].

هذا وتحاط القدس بعدة تلال، لعل أهمها «تل الفول» ويقع على مبعدة ستة كيلو مترات إلى الشمال من القدس، حيث كانت مدينة جبعة القديمة، والتى كشف «وليم أولبرايت» فيها عن بقايا قلعة شاؤل، فيما بين ١٩٢٢، ١٩٣٣م، والتى لم يبق منها فى الواقع إلا جزء صغير، يتكون من برج فى أحد الأركان وجزء من الاستحكام المسقوف المجاور له[٢]، ثم هناك تل الكابوس على مبعدة ثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقى من المدينة المقدسة، وتل النصبة على مبعدة اثنين من الكيلومترات جنوبى «البيرة» فى قضاء القدس، وهناك كانت تقع مدينة المصفاة الكنعانية - حيث نودى بشاؤل ملكًا على إسرائيل[٣] ثم هناك «تل القرين» ويقع شمال شرق المدينة بين «وادى الصوينت» شمالا، وفارة جنوبًا، وتل صرعة (تل صروع بالعبرية)، ويقع غربى جبال القدس، حيث توجد قرية تسمى باسمه، وإلى الشرق من قرية «دير رافات» وإلى غرب قرية «عرطوف» وأخيرًا فهناك «تل شلتا» (تل شيلات) ويقع فى جبال القدس غربى قرية «بلعين»، وعلى مقربة من قرية «شلتا»[٤].

---

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٢-١٥؛ عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٣-١٥.

(٢) W. F. Albright, The Archaeology of Palastine, (Penguin Books), 1949, p. 120-121.

(٣) صموئيل أول ١٠: ١١-١١: ٢٧.

(٤) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٥.

وأما الوديان المحيطة بمدينة القدس، فأهمها وادى قدرون: وهو اسم جدول الماء الذى يجرى فى قاعه عندما يسقط المطر، وقد اشتهر باسم «يهو شافط»، وطوله نحو كيلو مترين، و يفصل السور الشرقى للقدس عن جبل الزيتون ويعتقد كثير من الطوائف اليهودية والمسيحية أن الحشر يوم القيامة إنما سوف يكون فى هذا الوادى، اعتماداً على روايتين فى التوراة، تقول الأولى: «احمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادى يهو شافط وأحاكمهم هناك»، وتقول الثانية: «تنهض الأمم وتصعد إلى وادى يهو شافط، لأنى هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية»[1].

وهناك وادى سلوان: ويمتد على طول جنوب القدس، حتى الطرف الجنوبى الشرقى من جبل صهيون، وقد أطلق عليه العرب اسم «حقل الدماء»، وكان يسمى قبل مجىء العبرانيين «وادى هنّم» نسبة إلى قبيلة «هنّم» (بتشديد النون) وقد جاءت كلمة الوادى فى بعض اللغات السامية القديمة تحت اسم «جى» فكان يقال «جيهنم» ـ أى هذا الوادى ـ وكانت قبيلة «هنّم» تقدم الضحايا البشرية لإلهها «مولك» بذبحها وإلقائها فى النار، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنّم» على مكان العذاب فى الآخرة، للشبه القائم بينها.

ثم هناك وادى الجبانة أو «التيروبيون»، ويفصل جبال صهيون عن غرب القدس، حيث ينتهى وادى سلوان، وكان يسمى فى الجزء الجنوبى الغربى من القدس «وادى الزبالة» أو «وادى الدمن» أو «وادى القمامات»، وهناك كذلك وادى الأرواح (رفائيم، أو العفاريت)، ويدور حول غرب جبل صهيون، وأقصى الجنوب، هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الوديان، مثل وادى زيتا ووادى التعامرة ووادى النار ووادى مكلك والوادى الكبير[2].

---

(١) يوئيل ٣: ٢، ١٢؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٦.

(٢) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٥-١٧؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٧.

(٢) مكانة القدس الدينية:

تحتل القدس مكانة دينية فريدة بين مدن العالم، القديم منها والحديث، فهى المدينة الوحيدة فى العالم أجمع، التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت وما تزال - وستظل أبداً إن شاء الله - رمزاً للبشرية المتدينة على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، وهكذا رأينا اليهود يقدسونها، لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية، ففيها كان هيكلهم المشهور، كما أنها كانت عاصمة لدولتهم حيناً من الدهر.

ويقدسها المسيحيون لأنها موطن المسيح ومبعث هدايته، ومن ثم فقد اتخذوا عادة الحج إليها كما يفعل اليهود، وربما الأرجح لأن المسيح، عليه السلام - طبقًا لرواية إنجيل لوقا - قد حجَّ إليها فى صباه مع أبويه (مريم العذراء ويوسف خطيبها)، ولما كان فى الثانية عشرة من عمره، بقى فيها حيناً من الدهر يتعلم ويسأل ويعظ[١] ثم زاد الحجيج من المسيحيين إلى القدس، بعد أن بنت «هيلانة» أم الإمبراطور الرومانى قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م) - الذى لم يعترف بالمسيحية كديانة فحسب، بل إنه هو نفسه قد اعتنق المسيحية فى عام ٣١٢م، على رأى جماعة من المؤرخين، وإن رأت جماعة أخرى أنه بقى وثنياً طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض - بنت فى عام ٣٢٦م كنيسة القيامة، فسعى إليها الحجيج من كل حدب وصوب، لأنهم يعتقدون أن جثمانه الطاهر دفن فى مكان هذه الكنيسة، ثم رفع إلى السماء[٢].

ويقدسها المسلمون[٣] لأن الله تعالى شاءت إرادته أن يخصها بالعديد

(١) لوقا، ٢ : ٤١-٥٢.

(٢) عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٩، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٢٨٧، ثم قارن: Sozomenus, BK, I, Ch.4; Eusebius, Bk, IX, Ch. 9, 2.

(٣) انظر التفصيلات: محمد بيومى مهران، القدس حتى عصر داود، مؤتمر قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية عن «القدس - التاريخ والحضارة» فى الفترة (٢-٥ نوفمبر ١٩٩٦م).

من الأنبياء ابتداء من أبيهم إبراهيم، وحتى عيسى ابن مريم، عليهم السلام ـ ولأن فيها أولى القبلتين[١]، وثالث الحرمين الشريفين[٢]، ولأن بها مسرى جدنا النبيّ الأعظم مولانا وسيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله﴾[٣].

ويروى أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أن النبىّ ﷺ ـ قال: «فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفى مسجدى بألف صلاة، وفى مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة»[٤]، وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا»[٥].

(١) انظر: سورة البقرة، آية: ١٤٢-١٤٤؛ وكذا: تفسير الطبرى ١٢٩/٣-١٨٤؛ تفسير ابن كثير ٣٧٢/١-٣٨٠؛ تفسير القرطبى، ص ٥٣١-٥٥٠؛ تفسير المنار ٧/٢، ١٢-١٣؛ صحيح البخارى ٢٥/٦-٢٧، (دار الشعب ١٣٧٨هـ)؛ صحيح مسلم ١٦٠/٢-١٦٢، (دار الشعب القاهرة ١٩٧٠)؛ مسند الإمام أحمد ٢٤٦/٥-٢٤٧، (القاهرة، طبعة الحلبى)؛ الهيثمى، مجمع الزوائد ١٢/٢؛ السيوطى، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٤٣/١، ١٤٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية ٣٧٢/٢-٣٧٧؛ ابن هشام، سيرة النبىّ ﷺ، ص ٥٥٠، طبعة الحلبى، القاهرة ١٩٥٥.

(٢) انظر: صحيح مسلم، ٤١/٢، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٢)، الزركشى، كتاب إعلام الساجد، ص ٢٨٧؛ عبد اللطيف مشتهرى، المسجد الأقصى، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٣-٣٧.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١؛ وانظر: تفسير ابن كثير ١٣١/٥-١٢٧؛ تفسير القرطبى، ص ٣٨١٩-٣٨٢٨؛ عبد الله محمود شحاتة، تفسير سورة الإسراء، ص ٢١-٤٧، (القاهرة ١٩٧٥)؛ ابن هشام، سيرة النبىّ ﷺ، ٣٩٦/١-٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية ٩٣/١-١٠٨؛ صحيح البخارى ٦٩/٥، ١٠٤/٦؛ صحيح مسلم ٣٧٧/١-٤٠٢؛ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٥٩/٧-١٧٢؛ محمد الغزالى، فقه السيرة، ص ١٣٤-١٤٧، (القاهرة ١٩٦٥)؛ محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسُّنة، ٤٢١/١-٤٤٥؛ عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة، ص ١١٠-١٢٤.

(٤) أبو اليمن مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول، ص ٢٢٩؛ محمد محمود الفحام، المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ٩٧٠، ص ٢٢.

(٥) صحيح البخارى ٧٦/٢-٧٧، (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ)، تفسير القرطبى، ص ٣٨٢٧-٣٨٢٨، (القاهرة ١٩٧٠).

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: «البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء، ما فيه موضع شبر، إلا قد صلى فيه نبىٌ، أو قام فيه ملك»[١].

(٣) أسماء مدينة القدس:

عرفت مدينة القدس الشريف بأسماء كثيرة، غير أن الاشتقاق الأصلى لاسم المدينة غير مؤكدة على وجه التحقيق، وإن كان من الواضح أنه من أصل سامى، وأقدم النقوش التى ورد فيها اسم المدينة المقدسة، هو نقش مصرى يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد[٢]، على رأى، حيث ذكرت تحت اسم «أورساليموم» Ursalimum[٣]، وإلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (١٧٨٦-١٦٥٠ق.م)[٤] فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» Aushamum، على رأى آخر[٥].

ونقرأ فى رسائل العمارنة من عهد الملكين «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥-١٣٦٧ق.م) وولده إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م) فى رسالة من «عبد خيبا» أمير القدس - وكانت تدعى، على ما يبدو، أوروسالم - من قبل فرعون، يقول فيها: «لا أبى ولا أمى وضعانى فى هذا المكان، بل يد الملك القوية وضعتنى فى بيت آبائى»[٦]، وبقيت المدينة كذلك، وإن استقل بها «اليبوسيون» بعد فترة الضعف التى انتابت الإمبراطورية المصرية، وسموها

---

(١) مجير الدين الحنبلى، المرجع السابق، ص ٢١١.

(٢) هناك من يرى أن النقش إنما يرجع إلى أيام سنوسرت الثالث (١٩٧٨-١٨٤٠ق.م) أو بعده بقليل وربما قبله بقليل.

(٣) M.F. Unger, op.cit., p. 576.

(٤) انظر: كتابنا «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص ١٠٤، ١١٦.

(٥) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ٢٣٥؛ وكذا:

J.A. wilson, ANET, 1966, p. 329; W. Ward, Egypt and the East Mediterranean, in the second Millennium B.C. Orientalia, Vol. 30, Rome, 1961, p. 32.

(٦) S.A.B. Mercer, op.cit., II, L. 286-289; W.F. Albright, ANET, p. 487-489.

«يبوس»[١]، حتى جاء داود (١٠٠٠-٩٦٠ق.م)، وأخذها منهم، وأطلق عليها اسم «مدينة داود»[٢]، وربما لأن اسمها القديم، إنما كان غريباً على آذان العبريين، وربما لأن فيه تخليداً للاهوت أجنبي. وربما - وهو الأرجح لأن داود إنما أراد أن يخلد اسمه بإطلاقه على المدينة القديمة، أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة كذلك اسم «يوروشالايم» أو «أوروشالم»، بإضافة لاحقة عبرية، كى تصبح عبرية النطق.

وأيًا ما كان الأمر، وسواء أكان داود قد أطلق على المدينة اسماً عبرياً أو أنه أراد أن يخلد اسمه، فهو فى ذلك إنما كان مقلداً لغيره من الحكام الذين كانوا - وما يزالون - يطلقون أسماء جديدة على أماكن قديمة، كما أن الاسم الجديد الذى أطلقه داود على المدينة (مدينة داود) لم يحل محل الاسم القديم، ويفسر بعض العلماء ذلك على أنها حالة من حالات كثيرة فى التاريخ القديم والحديث أخفقت فيها الأسماء الجديدة التى فرضتها السلطات الحاكمة فى القضاء على الأسماء القديمة التى لها جذور عميقة فى الوعى الشعبى[٣].

وعلى أى حال، فلقد دعيت المدينة فى النقوش الآشورية باسم «أورساليموم» Ursalimum، وفى النقوش اليونانية الرومانية تحت اسم «هيروسوليما» Hierosolyma[٤]، هذا وقد أطلق على المدينة أسماء أخرى كثيرة - شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الهامة فى تاريخ العالم - ومن الأسماء التى أطلقتها التوراة اسم «أريئيل» (إشعياء ٢٩ : ١) ومدينة العدل (إشعياء ١ : ٢٦) والمدينة (مزمور ٧٢ : ١٦) ومدينة الله (مزمور ١٨ : ١) ومدينة الحق (زكريا ٨ : ٢) ومدينة القدس (إشعياء ٨ : ٢؛ نحميا ١١ : ١) وجبل القدس (إشعياء ٢٧ : ١) والمدينة المقدسة (متى ٤ : ٥)، وأما أسماؤها

---

(١) قضاة ١٩ : ١٠-١١.

(٢) صموئيل ثان ٥ : ٩.

(٣) S. Yeivin, JNES, 7, 1948, p. 40.

(٤) M.F. Unger, op.cit., p. 576.

العربية فهى بيت المقدس والمقدس والقدس الشريف، أما الاسم الغالب فهو «القدس»، والذى يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها.

هذا ولم يذكر المؤرخ اليونانى «هيرودوت» (٤٨٤-٤٣٠ق.م) فى تاريخه اسم «أورشليم» ولكنه ذكر مدينة كبيرة فى الجزء الفلسطينى من الشام، وسماها «قديتس» مرتين فى الجزء الثانى والثالث من تاريخه، ويقول المستشرق اليهودى الفرنسي «سالومون مولك» فى كتابه «فلسطين» أن هذا الاسم على الأرجح هو «القـدس»، محرفًا فى اليونانية عن النطق الآرامى «قديشتا»[١].

وأما معنى أورشليم» فمختلف فيه، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «أور» بمعنى موضع أو مدينة، ومن «شالم» وهو إله وثنى لسكان فلسطين الأصليين، هو إله السلام، فالمدينة إذن كانت مكرسة لإله السلام، حتى وصل العبرانيون، وهناك من يقول أن كلمة «أور» معناها «الميراث»، فتكون أورشليم»، بمعنى «ميراث السلام»، أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أى السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يرأه»، وهى بمعنى الخوف باللغة العبرية، فقرر الله أن يسميها بالاسمين جميعًا (يرأه ـ شلم) أى (أورشليم) بمعنى الخوف والسلام، وبنوا على هذه التخريجات الفولكلورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضًا أن (يرو) يمكن أن تكون فى اللغات السامية بمعنى «إله» ويكون اسم المدينة بكل بساطة «إله السلام»[٢].

وأيًا ما كان الأمر، فما أن يأتى الرومان وتحدث مذبحة هادريان (١٣٧-١٣٨م) الرهيبة فى عام ١٣٥م، حتى تكون ختامًا نهائيًا لليهود فى فلسطين سياسيًا وسكانيًا، ثم يغير الرومان اسم المدينة إلى «إيليا كابيتولينا»،

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٨؛ قاموس الكتاب المقدس، ١٣٩/١.

(٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٩.

أو «إيليا» فقط، وأصبح لفظ أورشليم لفظًا تاريخيًا، يطلق فقط على المدينة التي كانت في هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي.

وفي العام الخامس عشر من هجرة المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة نفسه، وأن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه (١٣-٢٢هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م) ذلك، ويأتي إلى القدس في عام ١٥هـ/٦٣٦م فيدخل المدينة التي يسلمها له البطريك اليوناني «صفر نيوس» ويمنح أهلها النصارى الأمان في دينهم وأموالهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شيء في أمره، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود[١]، وبينما كان الخليفة الراشد في كنيسة القيامة مع البطريق أدركته الصلاة، فطلب إليه أن يصلي بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم وخالفوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، وإنما صلى في مكان قريب، عند الصخرة المقدسة، وخط المسجد الذي عرف باسمه[٢].

---

(١) هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفاروق عمر بن الخطاب رفض الموافقة على استمرار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذرًا بأن القرآن الكريم قد حدّد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، ولكنه تعهد لنصارى القدس بألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم. (حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٠).

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٣/٦٠٧-٦١٣، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨)؛ الواقدي، فتوح البلدان، ٢/٢٦، ٢٤٤، ٢٥٧، ٣٦٧؛ محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية ٣/٥-٧، (القاهرة ١٣٧٠هـ)؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ١/١٨٨، (القاهرة ١٩٦٧)؛ محمد حسين هيكل، الفاروق عمر ١/٢٤٦-٢٦٣، (القاهرة ١٩٦٢)ك؛ علي محمد علي، ملف وثائق القضية الفلسطينية، ١/٤-١٢، (القاهرة ١٩٧٠)؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٠؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٧٣-١٧٥.

(٤) القدس فيما قبل عهد داود:

لاريب فى أن سكان القدس قبل الغزو الإسرائيلى لكنعان إنما كانوا من الكنعانيين، وربما أمكن القول أنهم كانوا من الرعاء المتواضعين، الذين كانوا يقطنون فى خيام أو فى أكواخ حول «ينبوع العذراء»، وأنهم لم يكونوا فى بادئ أمرهم فى حاجة إلى دفاع طبيعى أو صناعى، ولكنهم بمرور الوقت، سرعان ما تضطرهم الظروف إلى تشييد مكان بأعلى التل فوق ينبوع العذراء، وكان بمثابة موقع دفاعى على الأودية المنحدرة من كل الجهات باستثناء الجهة الشمالية التى حفروا فيها خندقًا يمتد عبر التل من فوق «قدرون»، إلى «التيروبيون» وقد كشف عنه فى يناير ١٩٢٤م «ستيوارت ماكاليستر» أثناء الحفريات التى قام بها، بالاشتراك مع بعثة «مؤسسة الحفائر الفلسطينية» و«صحيفة الديلى تلجراف»، ويدل الفخار الذى عثر عليه هناك، أنه لا يمكن أن يؤرخ بعد عام ٢٢٠٠ق.م، وربما أقدم من ذلك بكثير(١).

وفى حوالى عام ١٥٠٠ق.م، اتسعت المدينة بدرجة قليلة عابرة الخندق فى أحد الأماكن بحوالى عشرين قدمًا، وبمرور الوقت امتلأ الخندق، ولم يعد للسور متانته الكبيرة، إذا قورن بأسوار المدن الأخرى التى بنيت حولها فى نفس الفترة(٢)، وإن كانت الاكتشافات الحديثة إنما قد أثبتت أن مدينة «يبوس» التى استولى عليها داود إنما كانت أكبر بكثير مما كان يظن من قبل وأنها كانت محاطة بسور كبير وسميك جدًا، وأن كل ما فعله داود أنه قام بترميمه وإكماله(٣).

وفى حوالى عام ١٢٠٠ق.م، بنى سور آخر بسمك ٢٠ بوصة، وبأبراج

---

(١) R.A.S. Macalister, the Topography of Jerusalem, CAH, III, 1965, p. 342-343.

(٢) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 343.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 581.

حفرياته المشار إليها آنفًا، وقد كانت المدينة المصورة صغيرة جداً، إذ كان طولها من الشمال إلى الجنوب لا يتجاوز ١٢٥٠ قدماً، وعرضها ٤٠٠ قدماً، وفي داخل هذه المساحة كانت المنازل تحشر في هذا الفضاء الضيق[١]، كما كانت الشوارع ضيقة ومنحنية، وكان الاهتمام بتحسين الأحوال الصحية ينظر إليه على أنه أقل أهمية بالنسبة للفضاء الذي يمكن الانتفاع به اقتصادياً، عندما يكون من الضروري إيواء كل السكان في داخل السور الحصين[٢].

ونقدم لنا التوراة من هذه الفترة شخصية «ملكي صادق»[٣]، والذي وصف بأنه «ملك شاليم» (والتي يفترض أنها أورشليم) وأنه «كان كاهناً لله العليّ»، وأنه قد بارك الخليل، عليه السلام، وقال مبارك من الله العليّ، مالك السماوات والأرض»[٤] مما يدل على أن المدينة إنما كانت مباركة من الله العليّ منذ هذه الأزمنة العتيقة، التي تعود إلى ما قبل عصر إبراهيم الخليل، غير أن التوراة لم تقدم لنا أية معلومات طبوغرافية عن المدينة يمكن الإفادة منها[٥].

---

(١) أثبتت حفائر «كاثلين كنيون» أن مدينة يبوس أكبر بكثير مما يظن «ماكاليستر» وغيره. انظر:
K.M. Kenyon, Excavations in Jerusalem, 1961-1962, PEO, 94, 1962, p. 72, p. 95, 1963, p. 7F.

(٢) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 343-344.

(٣) اسم ملكي صادق مكون في اللغة الفينيقية من مقطعين : «ملك» و«صادق» أو عظيم ومقدس، وقد بقي اسم صادق في تاريخ أورشليم، ففي أيام داود وسليمان نجد طائفة من الكهنة تحمله وتسمى طائفة الصدوقيين ، وهم مميزون عن اللاويين، كما أن اسم ملكي صادق كان يشكل جزءاً من اسم حكام أورشليم من الكهنة، مما يدل على أهمية المدينة الدينية قبل العهد اليهودي لأن عجز الكلمة يعني الصدق والصلاح والاستقامة، وفي عهد يشوع كان ملك أورشليم يدعى أدوني صادق. (انظر: عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤٠).

(٤) تكوين ١٤: ٨-٢٠.

(٥) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 344.

هذا وتقدم لنا الوثائق المعاصرة من عهد (عبد خيبا) أمير (أوشاميم) (أوروسالم = أورشليم) من قبل الفرعون إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق.م) صورة للظروف السياسية والاجتماعية، ومنها نعرف أن أورشليم إنما كانت في تلك الفترة مدينة كنعانية تخضع للسيادة المصرية، التي كانت تشمل في ذلك الوقت كل سورية وفلسطين، وأنها قد تعرضت لغزو الخابيرو، ومن ثم فإننا نرى (عبد خيبا) يكتب للفرعون بأن «أرض الملك قد سقطت في أيدى الخابيرى»[(١)]، ثم يطلب منه في رسالة أخرى أن يرسل رماة الأقواس لتخليص أرض الملك من الخابيرى هؤلاء[(٢)]، ثم تتوالى بعد ذلك رسائل أمير أورشليم إلى فرعون، وكلها تقريبًا، تفيض بالولاء والخضوع من ناحية، وبالشكوى والفزع من جيرانه ومن الخابيرى، فضلا عن الاستغاثة بفرعون، من ناحية أخرى.

ونقرأ في رسالة من «عبد خيبا» إلى فرعون: «إلى الملك مولاى، هكذا يقول عبد خيبا خادمك، على قدمى الملك سبع مرات، وسبع مرات أجثو، انظر العمل الذى اقترفه ميكليكى وشواردانا ضد أرض مولاى الملك، لقد سقطت أرض الملك في أيدى الخابيرى، فليرسل لى الملك رماة أقواسه، لاسترجاع أرض الملك للملك..»[(٣)]، وفي رسائل أخرى يكرر أمير أورشاميم (أورشليم) شكواه، متمنيا أن يقابل سيده الفرعون، وأن يموت هو وإخوته عنده[(٤)]، وعندما يهمل فرعون الرد على مولاه في أورشليم، يكتب إليه: «إذا توانى الفرعون عن إرسال نجدة، فإن كل ممتلكاته سوف تقع فريسة في أيدى قبائل الخابيرى»[(٥)].

(١) S.A.R. Mercer, op.cit., II, p. 727; J.A. Knudtzon and O. Weber, Die El Amarna Tafeln, II, Leipzig, 1915, p. 877.

(٢) انظر: S.A.B. Mercer, op.cit., II, L. 19-28.

(٣) J.A. Knudtzon, op.cit., p. 877; S.A.B. Mercer, op.cit., II, p. 721.

(٤) S.A.B. Mercer, op.cit., p. 286-288.

(٥) S.A.B., Mercer, op.cit.,II, p. 721.

وفى عصر القضاة نرى أورشليم مستقلة عن اليهود فى أيدى أصحابها اليبوسيين، ذلك لأن يشوع لم يستطع الاستيلاء عليها، والانتصار على مليكها أدونى صادق، ومن ثم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم[1]، بل إنه ليشار بعد ذلك في سفر القضاة إلى أورشليم، على أنها مدينة غريبة، حيث لا يوجد أحد من بنى إسرائيل هنا»[2] بل إن التاريخ ليحدثنا أن الإسرائيليين لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، إلا على أيام داود، وبعد أكثر من قرنين من وصول الإسرائيليين إلى كنعان.

(٥) القدس على أيام داود:

استقر الأمر لداود، وأصبح ملك إسرائيل دون منازع، وهنا نراه يفكر فى ترك الجنوب إلى نقطة حصينة أكثر توسطاً من حيث الموقع، وقد كان حتى ذلك الوقت مازال مقيماً فى حبرون ـ وهى مدينة الخليل، على مبعدة ٣٠ كيلا إلى الجنوب الغربى من أورشليم ـ وكان فى إمكانه أن يجعل منها عاصمة لدولته الجديدة، ولكنه لم يفعل، لأسباب منها (أولا) أن حبرون قد تشكل مركزاً طبيعيًا بالنسبة إلى مملكة يهوذا، ولكنها لن تكون كذلك بالنسبة إلى مملكة إسرائيل ويهوذا معًا، فهى فى نقطة بعيدة إلى الجنوب، ومنها (ثانيًا) أن داود إنما كان ملكاً ليهوذا فى حبرون، وقبائل إسرائيل لن ترضى أن يحكمها ملك يهوذا، وإنما داود الذى اختاروه بأنفسهم ملكاً على إسرائيل[3]، ومن هنا فإن الإبقاء على حبرون كعاصمة للمملكة الجديدة سوف يجر على داود خطر الظهور أمام جماهير الأمة اليهودية فى صورة ملك قبلى، يحاول أن يفرض على إسرائيل حكماً أجنبياً يهوذياً، كما سوف

---

(١) يشوع ١٥ : ٦٣.

(٢) قضاة ١٩ : ١٢.

(٣) M.Noth, op.cit., p. 189-190.

يقال وقتئذ، ومنها (ثالثًا كان عليه أن يتجنب ما وقع فيه شاؤل من قبل، حين اختار موطنه «جبعة» كعاصمة لمملكته[١].

وأما اختيار مدينة في بنيامين أو أفرايم، فإن ذلك سوف يجر عليه غضب اليهوذيين، الذين كانوا أول من اختاروه ملكًا، وهم في نفس الوقت رهطه الأدنيين، ومن هنا فإنهم لن يتسامحوا معه إذا انتقل إلى واحدة من قبائل مملكة إسرائيل[٢].

وانطلاقًا من هذا كله، فإن داود لم يجعل من موطنه ومسقط رأسه في «بيت لحم» عاصمة لدولته الجديدة، كما أنه لم يختر هذه العاصمة في «حبرون» حتى لا يغضب قبائل إسرائيل، ولا في واحدة من مناطق قبائل إسرائيل، حتى لا يغضب قومه من سبط يهوذا.

وهكذا فكر داود ـ رغبة منه في الاستقرار، وفي إرضاء القبائل الشمالية التي قابلت اعتلاءه العرش بشيء قليل أو كثير من الفتور والتردد ـ في أن يتخذ «أورشليم» عاصمة لمملكته، وذلك لأسباب كثيرة، منها (أولا) أن أورشليم إنما هي في نظر قبائل الشمال والجنوب منطقة محايدة، ولم تشترك في الحروب التي اندلع لهيبها بين القبائل الإسرائيلية ـ أو قل بين مملكة إيشبعل الإسرائيلية، ومملكة داود اليهوذية[٣] ـ ردحًا من الزمن، ومنها (ثانيًا) أن أهل أورشليم لم يكونوا يهوذيين أو إسرائيليين، وإنما كانوا يبوسيين كنعانيين ـ وليسوا يبوسيين حوريين أو حيثيين كما زعم بعض الباحثين[٤] ـ ومن ثم فكان لابد من الإبقاء على سكان أورشليم اليبوسيين فيها، بل وإبقائهم على دينهم وشعائرهم الكنعانية الصرفة، حتى ماكان منها مخالفًا

---

(١) ف.ب. ماير، حياة داود، ص ٢٠٩؛ وانظر: قضاة ١٩ : ٢١.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 361.

(٣) صموئيل ثان ٢ : ١٣-٢٣. وكذا: W.Keller, op.cit., p. 188; S.A. Cook, p. 373.

(٤) S. Abramsky, op.cit., p. 122; S. Yeivim, op.cit., p. 41.

لدين يهوه وطقوسه[1]، ومنها (ثالثًا) أن أورشليم إنما كانت قريبة من ديار يهوذا سبط داود، ومنها (رابعًا) أن المدينة المقدسة لم تكن حصنًا صغيرًا، وإنما كانت واحدة من أقدم المدن الملكية في البلاد، كانت مدينة وعرة المسالك للقادم من نهر الأردن أو من البحر أو من الشمال على السواء، وهي حصينة غير مكشوفة للغزاة حتى أن اليبوسيين إنما كانوا يفاخرون بأن الأعمى والأعرج[2] في إمكانهما الدفاع عنها[3]، وأخيرًا (خامسًا) فإن أورشليم إنما كانت بعد كل هذا في وسط عشائر فلسطينية (كنعانية) قديمة، يبدو أنهم أكثر ميلا إلى المسالمة من أهل الشمال[4].

وهكذا بدأ داود يستعد للاستيلاء على أورشليم، ولسوء الحظ فإن تقدير الأسلاب قد واجهته كل أنواع مصاعب المادة النصية، ومن ثم فإن ترتيب الأحداث جد غامض، ولكن الفحص الطبوغرافي للموقع والحفريات الأثرية الحديثة، جعلت من الممكن تمييز طبيعة وامتداد جدران يبوس

---

(١) إسماعيل الفاروقي، المرجع السابق،ص ٤٦.

(٢) اختلف الباحثون في تفسير العميان والعرج، فذهب البعض إلى أن اليبوسيين أغلقوا أبواب المدينة عند ظهور داود ورجاله واحتموا بالاستحكامات ، تاركين لداود العرج والعميان ليعيقوا تقدمه، معتمدين على قوة حصونهم، وذهب «ياجل يادين»، إلى رأى آخر، فلقد اعتمد على الألواح الحيثية المسمارية التي عثر عليها في «بوغار كوي» والتي تشير إلى احتفالات سليمان التي أقسم فيها الجند الحيثيون بيمين الولاء له وللبلاد، وكان الكاهن يقوم فيها بشعارات رمزية يبث بها الخوف والرعب لمن يفشي السر أو يخون، وذلك لصهر الشمع أمام استعراض الجند، قائلا «كل من يحنث بهذا القسم، ليته يذوب أو يصهر مثل هذا الشمع»، وتعرض إحدى هذه الوثائق منظرًا لرجل أصم وامرأة عمياء، ثم تقول: «انظر هناك امرأة عمياء ورجل أصم كل من يفعل أذى بالملك والملكة، ليت القسم يأخذ بخناقه، ويصيره أعمى وأصم ويبيده ومعه زوجته وأطفاله وأقاربه، ومن ثم فربما فعل اليبوسيون كذلك ، فربما أوقفوا العرج والعمي، ثم قاموا بمثل تلك الطقوس لإخافة جند داود، وقد أتت هذه العملية بنتائجها حتى اضطر داود أن يعلن عن جائزة ثمينة لمن يقوم بعمل بطولي. (عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤٧-٤٨).

(٣) صموئيل ثان : ٥-٦.

(٤) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٧.

القديمة وكيف حافظ داود على قوة الحصون بعد الاستيلاء عليها، ومع ذلك فإننا لا نعرف الكثير عن الوسائل التى اتبعها داود فى الاستيلاء على يبوس[١].

وعلى أى حال، فرغم أن النص الوارد فى سفر صموئيل الثانى (٥ : ٦-٩) لا يعطى تفصيلات واضحة عن الغزو، فإنه يبدو من وصف المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» أن «يوآب» - قائد جيش داود - إنما تأثر بنداء داود المتضمن مكافأة سخية لمن يدخل المدينة أولا ويقتل اليبوسيين، ومن ثم فقد أسرع إلى قيادة رجاله إلى داخل المدينة عن طريق قناة مائية تجرى تحت الأرض، وتصل إلى وسط المدينة، وربما قد حفرها سكان البلاد من اليبوسيين تحت جبل صهيون لتوصيل الماء إلى الداخل.

وقد نجح «شارل وارن» فى الكشف عن هذه القناة، وهى على هيئة سرداب يبلغ طوله خمسين قدماً، يبدأ من الينبوع - الذى يعرف الآن بينبوع العذراء فى وادى قدرون - إلى كهف سفلى، وفى نهاية هذا الكهف حفرة رأسية تندفع منها الماء لتصل إلى مسطح من الحجر، تستقى منه نساء المدينة، وهناك سرداب آخر يمتد بانحدار من ذلك المكان إلى أن يصل إلى داخل أسوار القلعة حتى يتوفر الماء فى زمن الحصار، ولعل قوات داود قد اكتشفت مدخل الكهف وتتبعت مجراه حتى وصلت إلى القلعة واحتلتها[٢].

ويتشكك «ستيوارت ماكاليستر» فى القصة، ويرى أن أحد الخونة ربما قد أفشى سر «ينبوع العذراء» والذى خلفه، لجند داود أو لداود نفسه، وإن كان ليس من الضرورى افتراض مثل هذا الشخص، لأن الينبوع معروف تماماً بل إنه لمن المستحيل فى بلد صغير كفلسطين أن يبقى الأمر سراً، بخاصة وأنه يتعلق بشىء هام كوجود الماء[٣].

---

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 581.

(٢) جون إلدر، المرجع السابق، ص ٧٩؛ وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 178.

(٣) R.A. Stewart Macalister, op.cit., p. 343.

على أن هناك فريقًا من العلماء إنما يرى أن الاستيلاء على المدينة قد تم بطريق آخر، ذلك لأن بعض علماء اللغة العبرية إنما يرجحون أن الكلمة المترجمة «قناة» أو «ينبوع» في الإمكان استبدالها بكلمة «خطاف» ولعل المهاجمين قد تسلقوا جدران القلعة بواسطة الحبال والخطاطيف واستولوا عليها[١]، على أن هناك رأيًا ثالثًا يذهب إلى أن المهاجمين قد استطاعوا أن يصلوا إلى المدخل العلوى للنفق، ومن ثم فقد تمكنوا من قطع المياه عن المدينة وبالتالى فقد نجحوا فى الاستيلاء على أورشليم.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد كتب لداود وجنوده نجحًا بعيد المدى فى تحقيق النصر على اليبوسيين، والاستيلاء على مدينتهم «يبوس» (أوروسالم)، وبذا قضى على آخر أرض مسدودة المسالك فى البلاد الأجنبية، كما نجح فى القضاء على آخر حصن معاد له يقف حائلا بين قبائل إسرائيل الشمالية، ويهوذا الجنوبية[٢]، وسرعان ما غير داود اسم المدينة إلى «مدينة داود» وأصبح داود حاكمًا لأورشليم بوصفه الخليفة الشرعى لحاكم المدينة اليبوسى السابق، ومن اللافت للنظر أن المدينة المحتلة لم يسكنها يهوذيون أو إسرائيليون، وإنما بقى فيها سكانها الأصليون كما كانوا، وإن انتقل إليها الملك وحاشيته وآل بيته، فضلا عن المرتزقة من جنوده[٣].

وسرعان ما أعلن داود أن أورشليم هى قاعدة الملك، وعاصمة الدولة ولما كان داود، على طريقة أمراء بنى إسرائيل ورؤسائهم فى العصور القديمة - فضلا عن الحكام القدامى فى مجاورات إسرائيل - يستمدون سلطانهم فى الحكم من «الله»، فقد جعل «صهيون» مقر السلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعًا، ولم يجد غلاة المتعصبين من اليهود فى العصر الحديث

---

(١) جون إلدر، المرجع السابق، ص ٧٩.

(٢) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤٦-٤٨.

(٣) M.Noth, op.cit., p. 191.

تسمية أكثر سحراً فى أذهان فقراء اليهود وبسطائهم من «الصهيونية»، وما تقترن به من قوة داود وشدة شكيمته، وأبهة سليمان وبهاء عظمته، وفخامته على عرشه الأسطورى العجيب، فاختاروها اسماً وشعاراً[١].

ومع ذلك فعلينا ألا نبالغ كثيراً فى المدينة التى استولى عليها داود، صحيح أنها المدينة التى يقدسها أصحاب الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام - ولكنه صحيح كذلك أن أهميتها فى تاريخ العالم ليس له أدنى علاقة بموقعها، فهى لا تقع على مجرى مائى عظيم مثل بابل، وعواصم مصر المتتابعة، وليست على البحر مثل صيدا وصور أو قرطاجة، بل حتى لا يمكن الوصول إليها من البحر، مثل أثينا وروما، وذلك لأن طرقها إنما تتعرج بين الممرات الجبلية الوعرة، كما أنها ليست مثل دمشق مركزاً لملتقى طرق قوافل التجارة، وفى الحقيقة فإنه لا يمر بها إلا طريق هام واحد، ذلك الذى يبدأ من بئر سبع إلى حبرون ثم نابلس، فالجليل، ومع ذلك فإن أهمية هذا الطريق محلية صرفة، إذ أنه لا يربط بين الأسواق فى مختلف الأقطار.

وهكذا لم تجعل العوامل الطبيعية من أورشليم مركزاً تجارياً هاماً، ولا يمكن أن تكون كذلك، إلا فترة قصيرة أثناء عهد المملكة اللاتينية (١٠٩٩/٧/١٥-١١٨٧/١٠/٢م)، كما أن مجاوراتها لم تكن ذات جاذبية اقتصادية، فالسفوح الجبلية الوعرة قاحلة، حتى وإن قورنت بالجهات الأخرى من البلاد، ذات الخصوبة القليلة القيمة، فهناك نقص خطيرة فى المياه، كما أن الأودية العميقة المحيطة بالموقع تجعل الرحلات عبر البلاد مجهدة وغير محتملة، وإن كان هذا كله لا يجعلنا ننسى أن أهم مقومات موقع المدينة فى فلسطين القديمة (الماء والدفاع) كانت متوفرة[٢]، ولعل

---

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٨.

(٢) R.A.S., Macalister, op.cit., p. 333-334; M.F. Unger, op.cit., p. 567.

هذا ـ بجانب دوافع داود الخاصة ـ والتى سبق أن أشرنا إليها ـ هو الذى جعلها عاصمة فلسطين على أيام داود وسليمان، ولم يتح لها ذلك من بعد أو من قبل.

وعلى أى حال، فإننا نقرأ فى التوراة أن داود قد عمل ثغرة فى أسوار المدينة وأنها بقيت على حالتها هذه حتى أيام ولده وخليفته سليمان[١]، ومما يجعلنا نصدق نص التوراة هذا، أن الثغرة إنما قد اكتشفت فى حفريات عام ١٩٠٤م وقد وجد أنها سدت بفاصل من المحتمل أنه استخدم كسياج وقتى، ولكنها بقيت هكذا حتى العصر الرومانى، وإن كانت قد فقدت بعد ذلك وظيفتها الدفاعية[٢].

ولعل أهم ما يميز عصر داود بالنسبة إلى أورشليم أنها أصبحت مكاناً مقدساً بالنسبة إلى اليهود، فلقد كان الشيء الوحيد الذى ينقص العاصمة الجديدة هو أن يكون لها مكانة دينية، صحيح أن أورشليم الكنعانية كانت لها أماكنها المقدسة، والتى كانت ـ طبقاً لعادة هذا العصر ـ قد اقتبستهما الطقوس اليهودية، ومن ثم فقد أصبحت أماكن العبادة الكنعانية هذه، أماكن مقدسة ليهوه إله اليهود، ومن ثم فقد بدأ داود يفكر فى نقل «تابوت العهد» إليها، ذلك التابوت الذى لم يحفظ حتى ذلك الوقت فى معبد دينى، وإنما فى خيمة تذكر الإسرائيليين بالتيه فى الصحراء، وتبقى على العقيدة الخالصة لتعاليم موسى دون أن تمس.

---

(١) ملوك أول ١١ : ٣٧، هذا ويشير ـ سفر الأخبار الثانى (٢٢ : ٥) إلى أن سليمان بنى السور المتهدم وأعلاه إلى الأبراج، فضلا عن سور آخر، كما حصن القلعة وعمل أتراساً، وملأ الوادى الأوسط ليصل الحافة الشرقية بالغربية، وملأ الوادى الضيق المستعرض الذى يعتقد أنه كان يحد المدينة من الشمال، هذا وقد أوضحت الاكتشافات الحديثة احتمال أن تكون الشرفات التى ملئت بالحجارة قد تأثرت بهجوم داود على المدينة، خصوصاً إذا صح أن الهجوم كان من الجانب الشرقى، وكان متحداً مع الحصول على مورد المياه. (انظر: عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٥٥-٥٦؛ وكذا:

J. Siomon, Jerusalem in the Old Testament, Leiden, 1952, p. 132F.

(٢) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 345-346.

ومع ذلك فقد حدث تطور واضح فى العقيدة الموسوية، ففى سيناء، كان الربُّ إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فحسب، ولكنه أصبح الآن إله إسرائيل، ونظراً لأن إسرائيل كان شعباً بدوياً لا وطن له، فإن سلطانه لم يكن إقليمياً (جغرافياً)، بل كان شخصياً، أى على القبيلة ككيان قائم بذاته، وعلى الأفراد الذين يكونون هذه القبيلة، ثم أصبح للإسرائيليين بلد خاص بهم، وتلك كانت - رغم فقرها - جديرة بالاعتبار، فمن الناحية النظرية، على الأقل، اتحدت القبائل الاثنى عشر، وعن طريق هذاالاتحاد تم العمل المشترك الذى هزموا به ممالك معترفاً بها، وأبقوا على استقلالهم، وكان ذلك كله من عمل «يهوه» ربّ القبائل الاثنى عشر، ومع نمو شعب إسرائيل زاد اعتقادهم فى ربّ إسرائيل كذلك، ومن ثم فقد أصبح «يهوه» إلهاً قومياً، وأصبحت الفكرة (الروح) التى ستؤدى فى الوقت المناسب إلى جعل أورشليم المكان الذى يجب التعبد فيه على قدم وساق[1].

وينتهز داود الفرصة فى البحث عن التابوت، والذى كان فى كنف بيت يوسف فترة طويلة، ولكنه وقع فى أيدى الفلسطينيين عندما انهزم الإسرائيليون فى «أفيق»[2]، ويروى المزمور(١١٢) أن الملك أقسم أن لا ينام حتى يستعيده[3]، ثم وجد أخيراً فى «قرية يعاريم»[4] - ويرجح أنها قرية العنب التى تسمى أيضاً أبو جوش، على مبعدة تسعة أميال غربى القدس[5] - صندوقاً منقوشاً أكد أنه نفس «تابوت شيلوه» الذى استرجع من بلاد الفلسطينيين، ثم سقط بطريقة غير مفهومة فى غياهب النسيان[6]، ربما لأنه

---

(١) Sir Leonard Woolay, op.cit., p. 499.

(٢) صموئيل أول ٤: ١١، وكذا: M. Noth, op.cit., p. 166-167.

(٣) مزمور ١١٢: ١-٨.

(٤) صموئيل أول ٦: ٢١، ٧: ٢.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٢/٧٢٩.

(٦) A. Lods, op.cit., p. 362.

كان قد فقد مكانته بعد أن سلبه الفلسطينيون، ومن ثم فقد أصبح يعيش حوله عدد ضئيل من الكهنة أو الحفاظ الذين لا مكانة لهم[١].

وأراد داود أن ينقل التابوت في احتفال عظيم إلى قلعة صهيون، حيث أعدت هناك خيمة لاستقباله، وقد شارك داود بنفسه في هذا الاحتفال، حتى أنه حين أراد أن يعرب عن ابتهاجه بعودة التابوت إلى حاضرة ملكه، فنضى عنه ثيابه وجعل يرقص في الطرقات، بطريقة أثارت استياء زوجه «ميكال» ابنة مسيح الله شاؤل، فأنبته لهذا المسلك فأغلظ لها في الرد[٢].

وهكذا نجح داود في أن يجعل من «أورشليم» ليس مركزاً للحياة السياسية فحسب، بل مركزاً للحياة الدينية كذلك، ذلك لأن «تابوت العهد» إنما هو الأثر الرمزى الرئيسى لتحالف القبائل الإسرائيلية الاثنى عشر، ثم ربط داود ذلك كله، بالتقاليد الودية التى ربطت القبائل بعضها بالبعض الآخر، مستغلا ذلك كله لمصلحته الشخصية ومصلحة عرشه، وفى الحقيقة أن المركز الدينى العظيم الذى شغلته أورشليم فى التاريخ العالمى إنما يبدأ من ذلك الوقت، بل وينسب إلى نفس ذلك العمل، وأن داود ـ حدساً عن غير يقين ـ قد أقام التابوت فى مذبح المدينة، والذى ربما كان على قمة التل الدائرى المشرف على المدينة من الشمال، حيث شيد سليمان فيما بعد مبانيه، وعلى أى حال، فإن جبل صهيون، الذى جاء ذكره فى الكتاب المقدس، إنما هو غير الذى نعرفه الآن، وأنه إنما يقع إلى الشرق من الجبل الحالى الذى يحمل نفس الاسم، وفى هذا المكان كان منزل داود، وكذلك

---

(١) إسماعيل راجى الفاروقى، أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، القاهرة ١٩٦٤، ص ٤٦، صموئيل ٦-٧.

(٢) صموئيل ثان ٦ : ١٢-١٣؛ عصام الدين حفنى ناصف، محنة التوراة على أيدى اليهود، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٤٤؛ وكذا:

Leroy Waterman, The Treasuries of Solmon's Private Chapel, JNES, 6, 1947, p. 126.

أقيم المعبد، وكان من نتائج حفريات عام ١٩٦١م، أن المدنة القديمة إنما كانت تمتد على المنحدرات الشرقية فى اتجاه نحال قدرون، وأما الكهنة الذين كانوا يقومون بالخدمة فى مذبح المدينة، فقد كانوا موظفين ملكيين، بل إن بعضاً منهم إنما كان من أبناء داود نفسه[١].

وقد أظهر الكتبة كثيراً من الرضى بعملهم الجديد، ذلك لأن شاؤل إنما قد نفاهم من قبل فى قرية يحاريم، ربما لأنه كان يشك فى ولائهم له ومن ثم فقد كانت دعوة داود لهم بالعودة مع التابوت، والنزول فى العاصمة الجديدة، إنما رفعت من شأنهم كثيراً، ونتيجة لذلك فلقد أصبح الكهان من أكثر المؤيدين للملكية، بعد أن كانوا أعداءها، بل إن داود إنما قام بخطوة أخطر من هذه، وذلك حين جعل من الكهنة رجال دولة رسميين، وعينهم فى مجلس الدولة الأعلى، ودعاهم إلى حكم البلاد معه، أو بالأحرى إلى تدعيم حكمه بالوسائل التى يستطيعون تسخيرها لهذا الهدف[٢].

وعلى أى حال، فإنه من المتفق عليه أن التابوت إنما كان قد أقيم فى الأزمنة السابقة فى واحد أو آخر من المعابد المحلية، وأن القبائل الإسرائيلية قد كرست الآن محراب أورشليم كمركز دينى لها، وأن جبل صهيون - وهو اسم قمة التل الذى كان فيه مكان العبادة فى أورشليم - قد أصبح عقيدة فى فكر إسرائيل الدينى[٣].

(٦) القدس على أيام سليمان:

لا ريب فى أن الامتداد العظيم لمدينة القدس، إنما يرجع إلى عهد سليمان، الذى مكنه حكمه السلمى نسبياً من تنفيذ المشروعات الهامة التى كانت تراود أحلام والده العظيم، سيدنا داود عليه السلام.

(١) صموئيل ثان ٨: ١٧-٨، ٢٠: ٢٥-٢٦؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٥٦-٥٧؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 191.

(٢) إسماعيل الفاروقى، المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 191.

ولعل من الأهمية بكان الإشارة هنا إلى أننا، إن كنا نقرأ فى التوراة أن داود قد بنى، وربما أصلح سور مدينة داود[١] (القدس)، فإننا نقرأ كذلك أن سليمان قد بنى سوراً حول أورشليم[٢]، وإن كنا لا نملك تخطيطاً مفصلا عنه، كما نملك عن سور نحميا الذى حفظ لنا فى سفره، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقدم من الإشارات الواردة فى أسفار الملوك وأخبار الأيام، فكرة عن الأبواب الموجودة فى الجانب الشرقى وهى: (١) باب بنيامين: ويسمى كذلك الباب الأعلى، ويقع ناحية الشمال(٢) باب أفرايم: ويطلق على المشهد الشمالى(٣) باب الزواية، ويقع على مبعدة ٤٠٠ ذراعًا من باب أفرايم (٤) باب الوادى: ويقع فى جنوب المدينة، وربما قد أخذ اسمه من اتجاهه نحو وادى هنوم (٥) باب الخيل: ويتجه نحو الشرق ويطل على قدرون، وربما كان على مقربة من القصر الملكى[٣].

هذا وليس من شك كذلك فى أن بناء القصر الملكى والمعبد (هيكل سليمان) إنما يشير إلى أول عصر له أهمية كبرى فى تاريخ المدنة المقدسة، ومن ثم فلعل من الأفضل أن نتحدث بشىء من التفصيل عن هيكل سليمان وقصره الملكى.

(أ) **هيكل سليمان:** تقدم لنا التوراة معلومات مفصلة إلى حد ما عن معبد سليمان، وإن كانت ليست مفيدة فى كل الأحايين، وعلى أى حال، فإنه من غير المحتمل أن المعبد قد أقيم على مكان لبعض ما سبقه من أماكن العبادة فى «يبوس» الكنعانية، كما أن المعلومات التى عرفناها على وجه

---

(١) صموئيل ثان ٥: ٩.

(٢) ملوك أول ٢: ١، ٩: ١٥.

(٣) ملوك ثان ١١: ١٦، ١٤: ١٣، ١٥: ٣٥؛ أخبار أيام ثان ٢٦: ٩؛ إرميا ٢٠: ٢، ٣١، ٤٠؛ حزقيال ٩: ٢؛ نحميا ٢: ٣، ٢٣: ٢٨؛ زكريا ١٤: ١٠؛ وكذا:

R.A.S. Macolister, The Topography of Jerusalem, in CAH, III, 1965, p. 350.

التحقيق عن التاريخ السابق للموقع جد طفيفة، فهناك «بيدر» (أو جرن) فى أقرب نطاق، اشتراه داود كموقع لبناء المعبد، وطبقًا لرواية التوراة، فإن ذلك الموقع إنما كان على «جبل المريا»[1] فى بيدر «أرنان اليبوسى»[2]، والاسم غامض تمامًا وليس من المؤكد أنه نفس المكان المفترض، وهناك نظريات كثيرة تثير جدلا حول موقع المعبد، ولكنها فشلت فى أن تجد لها تأييدا إلا فى رؤوس مؤلفيها.

ومع ذلك فإن الإجماع منعقد ـ بناء على عنعنات، شفوية، يقال أنها متصلة متواترة ـ على أن مكان البناء إنما هو الهضبة المسطحة التى تتوج جبل «موريا» والذى كان مكانًا كنعانيًا قحًا فى أيدى اليبوسيين، رغم الضغط الإسرائيلى المتكرر، حتى جاء داود فوجده ملكًا لفلاح فلسطينى يبوسى[3] اسمه «أرونا»، وقد جعله جرنًا له فاشتراه منه، والظاهر أن اليبوسيين كانوا قد تعودوا على رذالات النهب والاغتصاب الإسرائيلى، مما جعل أرونا يندهش عندما وجد داود يدفع له ثمن الجرن، وكان قد عرض عليه ـ أن يأخذه بلامقابل، فرفض داود واشتراه منه ـ وكذا البقر ـ بخمسين شاقلا[4].

---

(١) جاء اسم «المريا» فى التوراة على أنه المكان الذى قدم فيه إبراهيم ولده إسحاق قربانًا لله، والموضع ما يزال حتى الآن محل خلاف كبير فى هذه القضية بين الباحثين، بل بين اليهود أنفسهم، فاليهود السامريون يرون أن الحادث إنما كان على جبل جرزيم القريب من نابلس حيث قام أقدم هيكل لبنى إسرائيل، حتى جاء داود فأبطله وعطّله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس، هذا فضلا عن أن الذبيح ـ كما أثبتنا من قبل ـ إسماعيل، وأن الحادث كان بمكة المكرمة (تكوين ٢٢: ١ـ٢؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٤).

(٢) يقرأ الاسم فى سفر صموئيل الثانى (٢٤: ١٦ـ٢٤) «أرونة».

(٣) من عجب أن هناك بعض الروايات التى تنسب إلى أُبىّ بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلى، وأن داود أراد أن يغتصبه منه فنهاه ربُّه عن ذلك، فاشتراه بتسعة قناطير من الذهب. (السمهودى، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ٣٤٣/١، القاهرة ١٣٢٦هـ)، والثمن جد مغالا فيه، بل إن رواية التوراة ـ رغم مبالغتها ـ جعلته ـ هو والبقر ـ بخمسين شاقلا فقط، (صموئيل ثان ٢٤: ٢٤).

(٤) صموئيل ثان ٢٤: ١٦ـ٢٤؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٧ـ٣٨.

وعلى أى حال - فلقد كانت بلاد اليهود جميعًا - حتى أورشليم نفسها - لم يكن فيها، على ما يبدو، قبل أيام سليمان هيكل كبير واحد، وكان الآهلون يقربون القرابين لربهم «يهوه» فى هياكل محلية، أو فى هياكل ساذجة فوق التلال[١]، ونقرأ فى التوراة أن داود كان أول من فكر فى إقامة بيت لربٍّ إسرائيل، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولا حسنًا من الربِّ الذى كان يدخر هذا العمل لولده سليمان[٢]، إلا أن هناك من يرى أن الهدف من إقامة بيت الربِّ، لم يكن لأن «تابوت الله ساكن داخل الشقق» - على حد تعبير التوراة - وإنما كان لتوحيد الطقوس الدينية بين اليهود جميعًا، وذلك عن طريق إقامة محراب وحيد يحل محل المحاريب الأخرى، التى كانت قد انتشرت فى جميع البلاد منذ تدمير «معبد شيلوه»، ومن ثم فقد أصبحت هذه المحاريب أماكن شرعية للعبادة[٣].

ولكن القوم سرعان ما خالطتهم الوثنية فى دينهم، ومن ثم فقد خيف عليهم الاختلاط والفناء فيمن حولهم من الشعوب فاجتمعت كلمة الحكماء على تحريم بناء المحاريب فى الأماكن الأخرى[٤]، وقصر العبادة والذبائح الحيوانية على معبد أورشليم دون غيره، وربما كانت هذه حركة سياسية فى الأصل تسعى من وراء ذلك كله إلى رفع مكانة المعبد والكهانة التى تقوم بالخدمة فيه[٥].

وهكذا يبدو أن سليمان عند إنشائه المعبد، إنما كان متأثرًا بعوامل سياسية ودينية، فلقد أراد أن يبهر أنظار الأمم المجاورة عن قوة وثراء دولته التى

---

(١) ملوك أول ٣ : ٢ ؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٢) صموئيل ثان ٧ : ١-١٧.

(٣) I. Epstein, Judaism, p. 36.

(٤) عباس العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٧٤.

(٥) C. Roth, op.cit., p. 22.

يرعاها «يهوه»، وأن يخلد ثراء أسرته، وأن يسبغ امتيازاً دينياً خاصاً على عاصمته أورشليم، وذلك بأن يشيد لتابوت العهد مكاناً لا يدانيه مثيل فى بهائه وفخامته، ومع ذلك فقد خابت آمال سليمان لأن جاذبية المعبد لم تكن نتيجة ما يدل عليه من ثراء. وإنما يقدر ما له من قدسية فى الإيمان الشعبى، كما أن تكاليفه الباهظة لم تكن فى نظر قبائل إسرائيل، إلا زيادة فى الجبايات والضرائب، وأخيراً فإن روعة المعبد وفخامته، كان فيهما من الإساءة، أكثر مما لهما من الجاذبية فى نظر هؤلاء البدو الإسرائيليين الذين جبلوا على تقاليد بسيطة فى عبادة يهوه الأصلية[١].

وعلى أى حال، فإن داود قبل أن ينتقل إلى جوار ربه - راضياً مرضياً عنه - أراد أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان فى إقامة الهيكل، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، وكان اليهود فى عصره ما يزالون فى بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وسنرى أن الاعتماد على الفينيقيين الأجانب كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الربّ، ونقرأ فى التوراة أن داود قد «أمر بجمع الأجانب الذين فى أرض إسرائيل فأتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، وهيأ داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلا وزن، وخشب أرز لم يكن له عدد، لأن الصيدونيين والصوريين أتوا بخشب كثير لداود»[٢] ثم يضيف داود مخاطباً ولده سليمان: «ها أنذا فى مذلتى هيأت لبيت الربّ، ذهباً مئة ألف وزنة، وفضة ألف ألف وزنة، ونحاساً وحديداً بلا وزن لأنه كثير، وقد هيأت خشباً وحجارة، فتزيد عليها وعندك كثيرون من عاملى الشغل، نحاتين وبنائين وكل حكيم فى كل عمل، الذهب والفضة والنحاس والحديد ليس لها عدد، قم واعمل وليكن الربُّ معك»[٣]. أما الأعمال التى لا تحتاج إلى مهارة فقد حشد لها،

(١) A. Lods, op.cit., p. 414.

(٢) أخبار أيام أول ٢٢ : ٢-٤.

(٣) أخبار أيام أول ٢٢ : ١٤-١٦.

«مئة وثلاثة وخمسين ألفًا وست مئة، فجعل منهم سبعين ألف حمال، وثمانين ألف قطاع على الجبل، وثلاثة آلاف وست مئة وكلاء لتشغيل الشعب». وفي الواقع، فإن الهيكل حسب أوصافه التي وردت إلينا بناء صغير، مما يدعونا إلى التساؤل: هل كانت كل مواد البناء التي أعدها داود، وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين، مخصصة للهيكل وحده؟ أم أن الأمر - على ما يذكر لويس براون - غير ذلك، وأن الهيكل لم يظفر من ذلك إلا بالنذر الأقل، بينما الجانب الأكبر قد خصص لمبان أخرى أقل اتصالا بتمجيد الربّ، منها القصر الملكي لسليمان، وقصر زوجه ابنة فرعون، والصروح البديعة والفيلات الأنيقة التي أعدها لنسائه الكثيرات جدًا، والأبنية الحكومية المختلفة، وحتى المعابد الوثنية التي أقيمت خصيصًا لمن رفضن التهود من النساء الأجنبيات اللاتي أحبهنّ سليمان[1].

وأيًا كان الأمر - وطبقًا لرواية التوراة - ففي ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالى عام ٩٥٦ق.م)[2] وضع الحجر الأساسي للمشروع الذي استمر العمل فيه قائمًا على قدم وساق سبعة أعوام. ليكون قصرًا فخمًا ليهوه مدى أربعة قرون، ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عامًا،

---

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٦-٣٨؛ أخبار أيام ثان ٢: ١٧-١٨.

(٢) يتفق المؤرخون على أن سليمان قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنهم يختلفون في تحديد هذه الفترة من هذا القرن، فهناك من يرى أنها في الفترة من ٩٧٤-٩٣٢ق.م (فضلو حوراني، المرجع السابق، ص ٢٤)؛ ومن يرى أنها في الفترة (٩٧٢-٩٣٦ق.م) (حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص ٨٤)، ومن يرى أنها في الفترة من ٩٧٠-٩٣٢ ق.م، ، ومن يرى أنها في الفترة من ٩٦٣-٩٢٣ق.م (فيليب حتي، المرجع السابق، ص ٢٠٥)؛ ومن يرى أنها في الفترة (٩٦١-٩٢٣ق.م) (موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٤٣؛ وكذا: W. Heaston, op.cit., p. 172. ومن يرى أنها في الفترة من ٩٧١-٩٣١ق.م (I. Epstein, op.cit., p. 36)، ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٠-٩٣٢ق.م) (W.F. Alberight, The Biblical Period from Abraham to Ezra, p. 120-122)، ومن يرى أنها في الفترة من (٩٦٣-٩٢٩ق.م) (Historical Atlas of the Holy Land , N.Y., Chicago, 1959, p. 81).

ليشيدوا صرحًا أكبر يسكن فيه سليمان ونساؤه، وكان جناح واحد من أجنحته وهو «بيت وعر لبنان»، أربعة أضعاف مساحة الهيكل كله، وتصفه التوراة بأن «طوله ستون ذراعًا، وسمكه ثلاثون ذراعًا». ويرسل سليمان إلى صديقه «حيرام» الصورى بأن يقطعوا له الأرز من لبنان، على أن يعطيه «عشرين ألف كر حنطة طعامًا لبيته، وعشرين كرزيت رض»[١]، هذا فضلا عن الأيدى العاملة لتجهيز هذا الخشب والحجارة، لأن الإسرائيليين لم يكونوا مهرة فى أعمال البناء، على حين كان الفينيقيون بنائين من الطراز الممتاز فى العمارة والفنون.

لم يقدم لنا موقع المعبد نفسه أى دليل يمكن الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، ومن هنا فإن أية محاولة فى هذا المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد[٢]، غير أن المعلومات التى توفرها التوراة فى سفر حزقيال(٤٠-٤٤) من وصف للمعبد الجديد، تجعل فى الإمكان استعادة تخطيطه بشكل مؤكد، كما يمكن قول شيء عن شكله الخارجى وتنظيمه الداخلى[٣].

وعلى أى حال، فإن المعلومات التى توفرها التوراة فى الملوك الأول(٦) تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد الرافدين، على الرغم من أن الكاتب يشيد بإعجاب على المساعدة الفينيقية، وعلى الإسراف والبذخ[٤]، وعلى أى حال، فيمكن القول - اعتماداً على استخدام المعماريين والبنائين

(١) ملوك أول ٦: ١-٢، ٧: ٢، ٥: ٦-١١؛ وانظر: تاريخ الطبرى ٥٠٣/١، دار المعارف، القاهرة ١٩٦١.

(٢) انظر:

P.L. Graber, Reconstruction Solomon's Temple, BA, 14, 1951, p. 2F; J.L. Myres, King solomon's Temple and Other Buldings and Works of Art, PEQ 80, 1948, p. 14F.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 598.

(٤) أندريه إيمار، وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

الفينيقيين، ومن بقايا أجزاء قصر سليمان ـ أنه قد اتبع النظام الفينيقى، الأمر الذى نادى به من قبل المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى»[١] (٣٧-٩٨ أو ١٠٠م)، وكذا المؤرخان Menander و Dios اللذان استخدما حوليات صور كمصدر لهما، ومن ثم فيمكن الاعتماد عليهما، ثم ربط يوسف اليهودى بعد ذلك بين صداقة سليمان لخليفه «حيرام» ملك صور، وبين اقتباسه لنماذج المبانى، خاصة فيما يتعلق بالمعبد، ولكن هذا التخمين لا يساعدنا فى إعادة التصميم، إذ أنه لا توجد أية بقايا أثرية لمعابد حيرام، وحتى إذا كانت هناك بعض البقايا التى يمكن العثور عليها، فإنها لم تكشف بعد، وكل الذى نعرفه من «يوسف اليهودى» أن حيرام قد بنى معابد، ولم يذكر لنا أى شىء عن مظهر هذه المعابد وشكلها[٢].

ولكن يبدو أن معبد سليمان إنما هو فينيقى الطراز فعلا، ومما يدل على أن الفينقيين هم الذين قامو بالعمل فى عمارة سليمان، العثور على جزأين من تاج عمود ـ سابق للأيونى Proto-Ionic، وأحياناً يسمى Proto-Aeotic فى أورشليم، فى القمة الشرقية للحافة الشرقية للمدينة المقدسة، ومعهما حجارة منحوتة مبعثرة كانت على الأرجح تشكل حائطاً يشبه ذلك الذى كان مقاماً فى «السامرة»، التى كشف فيها عن تيجان شبيهة بذلك، وغالباً أنها صنعت على الطراز الفينيقى، كما وجدت أمثلة لها فى مجدو وبيت شان، حيث توجد مبان من عهد سليمان[٣].

وفى عام ١٩٣٦م، اكتشف معبد فى «تل تعنات» فى سهل العمق بشمال سورية، يتطابق بصفة عامة مع معبد سليمان، فهو ـ مثله ـ يتكون

---

(١) Josphus, Antiquities of the Jews, VIII, 5, 3.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 598.

(٣) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٦٨-٧٠.

من مدخل وصالة يوجد أمامها عمودان، ومحراب مرتفع[١]، ومن الواضح أن هذا المعبد الذى يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، كان يتضمن الشكل المعتاد للمعبد فى سورية فى بداية الألف الأول قبل الميلاد، وطبقًا لذلك، فإنه يجب أن نفترض أن المعبد الفينيقى الذى يفترض أن سليمان قد سار على منواله فى بناء معبده ـ وكذا معبد سليمان نفسه ـ قد اتبع هذا الشكل المعتاد، والأمر كذلك بالنسبة إلى معبد «شيلوه»، ويؤكد هذا الافتراض أن هناك مبعدين «مصريين ـ كنعانيين» فى بيت شان، ويرجعان إلى الفترة ما بين القرنين ١٤، ١٢ق.م، كانا لهما نفس المحراب[٢]، هذا فضلا عن أن هناك كثيراً من المعابد التى ترجع إلى العصور الهلينستية والرومانية لها محراب من هذا النوع، وهى فى الواقع لا توجد فى سورية وفلسطين فحسب، ولكنها توجد أيضاً بعيداً فى الشرق والغرب، ومن الواضح أن عديداً من مظاهر العبادة الدينية التى انتشرت فى العالم المتحضر عن طريق سورية وفلسطين، قد تضمنت هذه الخاصية فى تصميم المعبد[٣].

وعلى أى حال، فإن سليمان إنما كان مضطراً إلى أن يتطلع إلى نماذج لمعبده خارج بلاده، فهو لم تكن لديه فى إسرائيل، إلا تقاليد وطنية قليلة ما كانت لتفيده كثيراً، ومع ما كان ينظر إليه بريبة تجاه الفن المصرى والبابلى، إلا أن ما كان يتميز به كل من الطابعين من زخرفة ونظام، أمر له حقيقته المعترف بها، وربما يرجع السبب فى التأثير المصرى المباشر هو مصاهرة سليمان للبلاط المصرى، وإن كان الأمر بالنسبة إلى التأثير البابلى أصعب من أن يفسر.

(١) W.F.Albright, Archaeology and the Religion of Israel , p. 140-142; C.W. Mc Ewan, The Syriaan Expdition of the Oriental Institute, AJA, 1937, p. 8F.

(٢) A. Rowe, The Topography and History of Beth-shan, Philadelphie, 1930, p. 19, 24, pls., 24, 56; O.Eissfeldt, op.cit., p. 599.

(٣) W.F. Albright, op.cit., p. 105-202; O. Eissfeldt, op.cit., p. 599.

وعلى أى حال، فلقد كان للطابعين المصرى والبابلى أثر كبير على الفينيقيين الذين اختلطت قدرتهم بفنون المصريين من ناحية، والبابليين من ناحية أخرى، وطالما تحدثت التقاليد الإسرائيلية عن نشاط الحرفيين الفينيقيين بكل وضوح وتأكيد، كما أن من فينيقيا أتت أشجار الأرز التى قام عليها «بيت وعر لبنان» ومن المحتمل أن استخدام الفينيقيين للأعمدة الخشبية كان يؤدى ما تقوم به الأعمدة الحجرية عند المصريين، ومن ناحية أخرى، فإن مصر وبابل قد استخدمتا ـ كفينيقيا تمامًا ـ أشجار الأرز كحوائط وأسقف أو عوارض من الداخل، كما أنه من المشكوك فيه أن البحر البرونزى المدعم باثنى عشر ثوراً هو تجديد للرمزية البابلية، ولكنه ربما بنى على أنماط فينيقية، إلا أن وجود المذبح فى مواجهة المدخل هو أسلوب بابلى، وكان يشيد فى بابل من الآجر، بينما كانت الحجارة أكثر ملاءمة فى فلسطين[1]، هذا إلى أن التوسع فى استخدام «الكروبيم»[2] والتخيل ذو أصل بابلى كذلك.

---

(١) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 348-9; K.M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, p. 247.

(٢) الكروبيم: جمع مفرده «كروب» وهم ملائكة فيما يرى البعض، ومخلوقات على رأى آخر لأنهم لا يقومون بعمل الملائكة من حمل رسالة الله، وإنما يقومون بوظائف أخرى، منها أنها تظلل تابوت العهد بتمثالين لها، ومنها تزين بصورها ستائر الخيمة التى كان موسى يتخذها هيكلا، والحجاب الذى كان يفصل بين القدس وقدس الأقداس حيث يوجد التابوت، ومنها أنها تحمل الربَّ أو عرشه، ومنها أنها تزين بصورها المحفورة هيكل أورشليم، ومنها أنها تحرس شجرة الحياة، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها تشبه تماثيل أبى الهول المجنحة فى مصر وفينيقيا والثيران المجنحة فى بابل وآشور، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها بالتأكيد تأثير قادم من الكنعانيين الفينيقيين، وإن كان هذا لا يمنع من القول أن أشكالها المركبة من جسم أسد ورأس إنسان إنما هو تأثير مصرى أكثر من واضح. (قاموس الكتاب المقدس، ٧٧٩/٢؛ موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤٠، ٢٨٦-٢٩٧؛ وكذا:

T.K. Cheyns, Charub, EB, I, 1899, Col. 741-743; W.F. Albright, op.cit., p. 148-216; O. Eissfeldt, op.cit., p. 600-601.

هذا ويقدم لنا سفر الملوك وصفًا للعمارة الداخلية وزخرفتها بالبرونز، أكثر وضوحًا من وصفه للمعبد من الخارج، وفي كلا الحالين فإن التأثير الخارجي في العمل يبدو واضحًا، وعلى ذلك فإن حشو الأخشاب في الجدران يذكر في تقرير يتطابق بصفة عامة مع ما تعوده القوم في سورية في تغطية الجدران الداخلية لمباني القصر والمعبد[1]، أما تأثيرات الزينة على الحشوى وعلى الأعمال المنحوتة والمطعمة والتي وضعت على الأبواب، فإنها تطابق تلك التي استخدمت في كل أنواع الفنون والمنتجات الصناعية خاصة في أعمال الحفر على العاج الذى اكتشف في غرب آسيا، وفي مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، والتي جاءت تحت تأثير الفينقيين والسوريين، وقد ظهر ذلك بوضوح في مصر وبابل وسورية وإيجه[2]، وينطبق ذلك على الأعمال البرونزية والتعشيقات التي زخرف بها عمال حيرام الصورى معبد سليمان، وقد عثر على عدد من الأحواض البرونزية ذات العجلات في قبرص حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وهي تشبه تلك التي عملها حيرام لسليمان[3].

وأخيرًا فإنه لا يقل أهمية فيما يتعلق بالنماذج الأجنبية التي أثرت في معبد سليمان تماثيل الكروبيم Cherubim وطبقًا لرواية سفر الملوك الأول، فإن «الكروبين» إنما يقف في المحراب، وقد صنع من خشب الزيتون، وغشى بالذهب وكان ارتفاع الواحد عشرة أذرع[4]، وفي هذه الحالة فإنه يمكن القول أن هذا التأثير من الكنعانيين الفينيقيين، ونظرًا لأن أشكال «الكروبيم» Cherubim إنما كانت تتكون من جسد أسد، ورأس إنسان، وأجنحة طيور،

(١) W.F. Albright, The Role of the Canaanites in the History of Civilization, London, 1961, p. 22F.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 600.

(٣) W.F. Albright, Arcaheology and the religion of Israel, p. 152F; O. Eissfeldt, op.cit., p. 600.

(٤) ملوك أول ٦ : ١٣-٢٨.

وتظهر هذه الأشكال على تابوت حيرام فى بيبلوس، وعلى قطعة عاجية من مجدو، فضلاعن نموذج صغير للعرش من مجدو مصنوع من العاج[١]، وقد وضع سليمان هذه التماثيل فى محراب معبده، كما وضع التابوت أسفل أجنحتها ومن الواضح أن سليمان قد نقل الطريقة التى وضع بها التابوت فى معبد شيلوه[٢] وهو المعبد الذى دمره الفلسطينيون قبل بناء معبد سليمان بحوالى قرن من الزمان، ومازالت أساساته واضحة تقدم لنا فكرة واضحة عن مظهره قبل التدمير[٣].

وأما العبادة فى الهيكل فكانت تقرب كثيراً فى مميزاتها العامة من الممارسات المألوفة فى هياكل مصر وفينيقيا ورأس الشمرة فى سورية، وإن صحّ هذا القول ـ ويحسبه حبيب سعيد صحيحاً ـ كما توحى بذلك فى رأيه أعمدة الهيكل والحلى التى ازدان بها، والعبادات الغريبة التى أدانها وفضحها كتاب الأسفار المدسة المتأخرون، فلابد أن طقوس عبادة الشمس المصرية، والذبائح والتقدمات الكنعانية وحفلات بلاد ما بين النهرين الدينية مثل المراثى على «تموز» وغيرها، قد مارسها القوم فى ذات المعبد الملكى، وقد أقام فيه الملك «أحاز» (٧٣٥-٧١٥ق.م) مذبحًا آشوريًا على النمط السومرى فى دمشق[٤].

وهكذا رغم أن المعبد كان مركزاً روحياً لليهود، ورغم أنه انتقل بدينهم من دين بدائى تتعدد فيه الآلهة، بعد أن ارتدوا عن ديانة موسى الكليم، عليه السلام، وهو ما يزال بين ظهرانيهم، إلى عقيدة تنادى بالوحدانية، رغم ذلك كله ابتعد عن العقيدة الإسرائيلية (اليهودية) بسبب الطقوس التى باشرها الإسرائيليون وحرص اليهودى على الإيمان بها وهذه الطقوس هى فى الواقع

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 600-601; W.F.Albright, op.cit., p. 148-216.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 166-167.

(٣) O. Eissfeldt, op.cit., p. 601.

(٤) حبيب سعيد، أديان العالم، ص ١٧٣، (القاهرة ، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية).

طقوس كنعانية مستمدة من عبادة «بعل» والفرق كبير بين العبادتين، عبادة «يهوه» الصحراوية المتبدية، وعبادة «بعل» الزراعية المستقرة المتحضرة، لذلك لم يكد يخبو نور الملكية، وتخبو معها أبهة الحياة العامة وأبهة الأعياد من قومية ودينية، حتى أخذت تتحلل هذه الرابطة التي جمعت بين الأسباط الإسرائيلية أولاً، والعقائد الدينية ثانياً، فأمحت فيها هذه الطقوس وريثة العقائد الوثنية القديمة، وأخذت الطقوس «اليهودية» تظهر إلى الوجود ثانيا[١].

غير أن «يهوه» رغم هذا التحول الظاهري لم ينجح في مطاردة «بعل» وبخاصة فالمجتمع الإسرائيلي قد أخذ يتذوق معنى الاستقرار والحضارة التي يمثلها «بعل» وديانته، وهنا نجد المجتمع يوفق بين العقيدتين «اليهوية» و«البعلية» فأصبحنا نجد «يهوه» محتفظاً برمز «بعل» ألا وهو «الثور»[٢]، هذا إلى جانب تماثيل الإلهة «عشتارت»[٣] وغيرها، والتي كانت توجد في البيوت الإسرائيلية[٤]، وأخيراً فهناك من يرى أن معبدسليمان هذا، إنما كان معبداً خاصاً، ولم يصبح مزاراً عاماً لليهود، إلا بعد فترة[٥]، وتلك ـ فيما أظن ـ مبالغة غير مقبولة.

---

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٢) كان يهوه في العصور القديمة يصور ويقدس في صورة «ثور» هذا فضلا عن أننا نجد قرنين في مذبحة ، (ملوك أول ١٢ : ٢٨ ؛ خروج ٣٢ : ٤ ؛ ملوك ثان ٢٢ : ١ ؛ هوشع ٨ : ٥).

(٣) كان «يهوه» وبعل وعشتارت، يكونون ثالوثاً مقدساً عند العبرانيين في عصر الملكية، وإن كانت عبادة «بعل» على أيام «أخاب» معاصر النبي «إيليا» ـ وهو إلياس عليه السلام، فيما نرجح ـ أوضح من غيرها (ديتلف نلسن: المرجع السابق، ص ٢٣٦، ملوك أول ١٦ : ٣٠-٣٤) وإلى عبادة بعل هذه يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وإنَّ إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدعون بعلا وتذرونَ أحسنَ الخالقين، الله ربكم وربَّ آبائكم الأولين﴾ (الصافات، آية : ١٢٣-١٢٦) ؛ وانظر: تفسير أبي السعود ٤/٢٧٦-٢٧٧؛ تفسير الفخر الرازي ٢٦/١٦٠-١٦١ ؛ تفسير الطبري ٢٣/٩١-٩٥؛ تفسير البيضاوي ٢/٢٩٩؛ تفسير القرطبي، ١٥/١١٥-١١٩ ؛ تفسير الألوسي ٢٣/١٣٨-١٤٠؛ تفسير القاسمي ١٤/٥٠٥٩-٥٠٦٠؛ تفسير الطبرسي ٢٣/٨٠-٨٢؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/٢٩٥-٢٨٦؛ تفسير ابن كثير ٧/٣١-٣٢؛ في ظلال القرآن ٢٣/٢٩٩٧-٢٩٩٨؛ تفسير النسفي، ٤/٢٧-٢٩).

(٤) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٥) L. Waterman, op.cit., p. 161-163.

ونقرأ فى التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حفلا كبيراً بمناسبة الانتهاء من العمل فى المعبد[1] دعا إليه شيوخ إسرائيل، وكل رؤوس الأسباط «لإصعاد تابوت عهد الربّ من مدينة داود»، وأن الجميع - وعلى رأسهم سليمان - قد اجتمعوا أمام التابوت، «يذبحون من الغنم والبقر ما لا

---

(١) يروى أن أبا ذر أنه سأل النبيّ، ﷺ، عن أول بيت وضع للناس، فقال: قلت يا رسول الله: أى مسجد وضع فى الأرض أولا؟ قال: المسجد الحرام، ثم قلت ثم أىّ؟. قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد» (صحيح مسلم ١٥٣/٢-١٥٤، دار الشعب، القاهرة ١٩٧١م، مسند الإمام أحمد ١٥٠/٥، ١٦٠-١٦٧، طبعة الحلبى؛ تفسير الطبرى ٢٢/٧؛ تفسير ابن كثير ٦٣/٢؛ تفسير القرطبى، ص ١٣٧٩؛ تفسير المنار ٦/٤-٧، القاهرة ١٩٧٣).

وقد أثار هذا الحديث الشريف جدلا، على أساس أن إبراهيم هو بانى البيت الحرام، وأن سليمان هو بانى المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوى، فى «شرح معانى الآثار» بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بنائهما فيحتمل أن يكون واضع المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بنياه بعد ذلك. (هامش ٢ صحيح مسلم ١٥٣/٢)، غير أن صاحب تفسير المنار (٧/٤) إنما يرى أن هذا التفسير ضعيف، لأنه سماه بيتاً، ولو جعل المكان مسجداً ولم يبن فيه، لما سمى بيتا بل مسجداً أو قبلة، ثم إن ذلك مبنى على القول بأن إبراهيم هو الذى بنى أول مسجد للعبادة فى أرض بيت المقدس وذلك معقول وإن لم يكن عندنا فيه نص صريح، هذا ويرى «ابن القيم الجوزية» أن الذى أسس بيت المقدس يعقوب، وأن سليمان كان مجدداً له.

وإننى لأميل - حدساً عن غير يقين - أن إبراهيم الخليل، عليه السلام، هو الذى وضع الأسس لبيت المقدس على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، وليس أول بيت، وهى العقبة التى احتج بها صاحب تفسير المنار وعلى أساس أن إبراهيم - طبقاً لرواية التوراة - إنما زار القدس، وقابل هناك «ملكى صادق» كاهن الله العلىّ، وأنه أقام الكثير من المحاريب فى فلسطين، وخاصة فى شكيم وبيت إيل وبلوطات ممرا عند حبرون، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون قد فعل الشيء نفسه فى القدس، هذا فضلا عن أنه إذا كان صحيحاً ما ذهبنا إليه من قبل فى هذه الدراسة، وفى دراسات سابقة لنا (دراسات فى تاريخ العرب القديم، «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» من أن إبراهيم قد عاش فى الفترة (١٩٤٠-١٧٦٥ق.م). وأنه قد بنى البيت الحرام حوالى عام ١٨٢٤ق.م، ومن ثم يصبح بناؤه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاماً (أى حوالى عام ١٧٨٤ق.م)، أمراً مقبولا؛ وانظر: دراسة تفصيلية عن «بناء المسجد الأقصى»: محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ١١٥/٣-١٢٨، بيروت ١٩٨٨.

يحصى ولا يعد من الكثرة، وأدخل الكهنة تابوت عهد الربّ إلى مكانه فى محراب البيت، فى قدس الأقداس، إلى تحت جناحى الكروبين، وهنا ملأ الغمام بيت الربّ، حتى أن الكهنة ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية، ويعلن سليمان أن الربّ إنما «يسكن فى الضباب»[1] ، ولعل هذا هو السبب فى أن «التابوت» قد وضع فى «قدس الأقداس» ليكون عرشًا للحضرة الربانية الخفية.

ونقرأ فى سفر الملوك الأول (٨: ٢٢-٥٣) دعوات سليمان الحارة إلى ربّه، والتى ينهض بعدها من أمام المذبح، ويداه مبسوطتان إلى السماء، ثم يقف ويبارك كل جماعة إسرائيل، ثم يعلن النبىّ الكريم أمام خراف إسرائيل الضالة ـ والتى اتهمته كذبًا وزورًا ـ أنه قد ارتد فى أخريات أيامه عن ديانة آبائه[2] ـ قائلا: «ليعلم كل شعوب الأرض أن الربّ هو الله، وليس آخر، فليكن قلبكم كاملا لدى الربّ إلهنا، إذ تسيرون فى فرائضه وتحفظون وصاياه»[3] ثم يشكر الربّ على أنعمه التى أسبغها عليه وعلى بيت أبيه من قبل، سائلا إياه سبحانه أن يجيب دعوات بنى إسرائيل، حين يدعونه فى هذا البيت، وأن يغفر لهم خطاياهم[4].

وتنتهى الاحتفالات بتقديم الذبائح لإله إسرائيل، والتى بلغت عددًا كبيرًا جدًا، وصل إلى «اثنين وعشرين ألفًا من البقر، ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألف، فدشن الملك وجميع بنى إسرائيل بيت الربّ»[5]، وهنا لست أدرى سببًا لكثرة هذه الضحايا التى تقدم من سليمان إرضاء لربّه يهوه، إلا أن يكون ذلك من قبل المبالغة المعتادة فى التوراة وليس ـ كما يرى لوبون[6] ـ إرضاء لميول إله سليمان الدامية، فمهما كانت هذه الميول الدامية،

---

(١) ملوك أول ٨ : ١-١٣.

(٢) ملوك أول ١١ : ٤-١١.

(٣) ملوك أول ٨: ٦٠-٦١.

(٤) ملوك أول ٨: ٢٥-٤٠.

(٥) ملوك أول ٨: ٦٢-٦٥.

(٦) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٧٠.

ومهما كان حب «يهوه» لإراقة الدماء ومطالبته بالقرابين البشرية ـ فضلا عن القرابين الحيوانية ـ فليس من المقبول منطقياً أن يستمر سليمان يذبح أو يأمر بالذبح، بلا انقطاع، لمدة أسبوع كامل.

وأيًا ما كان الأمر، فإن التوراة إنما تصف هيكل سليمان وقصره فى سفر الملوك الأول (٥-٨) وصفًا خياليًا، وتصورهما فى حالة من الجلال والعظمة ومع ذلك فيجب علينا أن نتذكر جيداً، أننا لو استخرجنا من قصة التوراة نفسها أطوال معبد سليمان، لوجدنا أنه فى الإماكن وضعهما داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى[١]، بل إن مساحة هذا المعبد أصغر بكثير من «قبة الصخرة»، ويكاد يقل عن نصف ارتفاعها[٢].

ومن هنا يرى «هربرت ويلز» أن سفر الملوك الأول قد أسهم فى تصوير مجد سليمان وأبهته وفخامته، ولكن الحق إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحوتمس الثالث أو رعمسيس الثانى، أو نفر من الفراعين الآخرين، أو سرجون الثانى أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينات[٣]، وكان العبرانيون الذين أقبلوا من جميع أنحاء البلاد اليهودية، ليعملوا فى إقامة الهيكل، يعتقدون أنه إحدى عجائب الدنيا، ولا لوم عليهم، فهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونينوى، التى لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئًا مذكورا[٤].

لم ير العبرانيون معبد الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠-١٤٦٨ق.م) فى الدير البحرى[٥]، ولم يروا معابد تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) فى

---

(١) H.G. Wells, A short History of the World, 1965, p. 77.

(٢) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 348.

(٣) H.G. Wells, The Outline of History, p. 287.

(٤) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٥) انظر: محمد أنور شكرى، العمارة فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٠٧-٤٠٩؛ جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد، ومراجعة محمد جمال الدين مختار، الجزء الثالث، ص ٨٩-١٠٦، (القاهرة ١٩٧٣). وكذا:

E. Naville, The Temple of Deir el-Bahari, 7 Vols., London, 1894-1908.

قفط ومدينة حابو وأرمنت، فضلا عن المعبد الكبير وصالة الاحتفالات والصرح السابع فى الكرنك، كما لم يروا معابده فى السودان وفى بلاد النوبة وفى جميع المدن الهامة فى الصعيد والدلتا، ولا رأوا مسلاته التى تزين الآن أهم ميادين المدن الكبرى فى أوربا وأمريكا - فى القسطنطينية وروما ولندن ونيويورك - هذا على الرغم من أن تحوتمس الثالث العظيم لم يشتهر فى التاريخ كبناء، بقدر شهرته كمقاتل لا يبارى، أقام لمصر أعظم إمبراطورية عرفتها فى تاريخها القديم، وكانت مملكة سليمان فيها، لا تعدو إقليماً من أقاليمها.

وأما «رعمسيس الثانى (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) فهو صاحب «بى رعمسيس»[١] والتى تنسب التوراة إليه تسخير اليهود فى بنائها، وأما عن آثاره، فيكفى أن نذكر معابه العظيمة فى أبيدوس وفى الرمسيوم وفى الكرنك وفى الأقصر، هذا فضلا عن أنه شاد فى النوبة أكبر وأروع معابدها، فهو الذى أمر ببناء أو حفر معابد وادى السبوع وجرف حسين وبيت الوالى والدر، وأما عن درته الرائعة فى «أبو سمبل» فلا أظن - وليس كل الظن إثماً - أن المقارنة بينها وبين معبد سليمان فى إمكان أى أثرى، أو مؤرخ أن يقوم بها، أو حتى أن يجد بينهما أوجه للمقارنة الجادة، يستطيع أن يدلى بدلوه فيها، ذلك لأن معبدى أبو سمبل، هما دون ريب، من أعظم معابد مصر القديمة، إن لم يكونا أروعها جميعاً، بل إن معبد أبو سمبل الكبير، ليعتبر الوحيد من نوعه فى تاريخ العمارة البشرية، وقد فتن به كل من شاهده، حتى لقد بلغ من تأثيره على النفس أن ترك الكتاب العنان لأقلامهم لتصف ما انطبع فى نفوسهم من مشاعر، وفى قلوبهم من أحاسيس[٢].

---

(١) انظر: محمد بيومى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٤٦-٦٢؛ وانظر للمؤلف: مصر، ٣/٢٧٧-٢٨٤.

(٢) نجيب ميخائيل، أبو سمبل، مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٦٢، ص ١٤.

وبدهى أننا لسنا فى حاجة إلى أن نقارن هيكل سليمان بأعمال البنائين العظماء من الفراعين، فكلنا يعرف أهرام خوفو وخفرع ومنقرع[١]، وما فيها، أو على الأقل، ما فى هرم خوفو من الاتقان المعجز فى هندسته، والدقة فى تخطيطه وجمال نسبه، حتى كان ـ وما يزال ـ إحدى عجائب الدنيا، بل إنه ـ كما يقول الدكتور جون ويلسون ـ وثيقة من وثائق تاريخ الذهن البشرى، فهو بينة رائعة على سطوة الإنسان فى قهر القوة المادية، لقد حقق مهندس الفرعون لنفسه ولمليكه قهر الخلود بسيطرته الخالصة على القوى المادية[٢]، وكلنا يعرف «لابرنت» أمنمحات الثالث (١٨٤٢-١٧٩٧ق.م)، والذى كان يحوى ثلاثة آلاف غرفة، نصفها تحت الأرض، بينما النصف الآخر فوق سطح الأرض، والذى يصفه «هيرودوت»، كشاهد عيان، بقوله: «لقد رأيته بنفسى، وهو عمل يعجز عن وصفه البيان، إذ لو قدر لامرئ أن يجمع معرضاً للمبان والآثار الفنية التى شيدها اليونان لبدت عملا أقل من هذا «اللابرنت»[٣].

(ب) قصر سليمان:

يبدو أن الهضبة الغربية إنما قد بدأ استيطانها على أيام سليمان، ذلك أن التوراة فى سفر الأخبار الثانى[٤] إنما تعتبر أنه من غير اللائق أن يقيم سليمان بيوت زوجاته الوثنية على مقربة من «بيت يهوه»، ومن ثم فإن الهضبة الغربية تصبح هى المكان المناسب لتهيئة وسائل الإقامة لهؤلاء

---

(١) انظر: أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٤٥-٢٤٠؛ محمد أنور شكرى، المرجع السابق، ص ٣٠٥-٣٤٧. وكذا:

L.E.S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1961, p. 116-169.

(٢) J.A. Wilson, in Before Philosophy, (Pelican Books), 1949, p. 105.

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، تقديم وشرح أحمد بدوى، ص ٢٨٠، (القاهرة ١٩٦٦)؛ محمد بيومى مهران، مصر، ٢/٣٧٤-٣٧٧.

(٤) أخبار أيام ثان ٨: ١١.

الزوجات[١]، وهكذا أقيم قصر سليمان الكبير على المنطقة الصخرية التى تدعى «تل موريا»[٢].

وكان القصر يتكون من عناصر ثلاث: «بيت وعر لبنان»، وكان يستخدم بالتأكيد كترسانة أسلحة[٣]، وربما كمكان للمالية فى نفس الوقت[٤]، ويحتمل كذلك أنه استخدم كحوش للاسطبلات، هذا وقد كان يؤدى نفس الغرض ثلاثة أو أربعة صفوف متوازية، صنعت من أخشاب أرز لبنان، أما «صالة الأعمدة» فلم يعرف الغرض الذى استخدمت من أجله، وأما «غرفة الاجتماعات الكبيرة»، فقد استخدمت كمكان للقضاء، فضلا عن الاحتفالات الملكية[٥].

هذا وقد وجد إلى جانب هذا القصر مباشرة من ناحية الغرب، قصر آخر، أحيط بجدار فاصل، وكان قد اتخذ مكاناً لسكنى الملك والحريم، هذا وقد وجد إلى الشمال مباشرة، وفوق هضبة مرتفعة، مبنى آخر أحيط بسور خاص، اتخذ كمعبد أمامه مذبح لحرق الأضاحى[٦].

ولقد رجع بعض الباحثين[٧] مقارنين لإعادة تصميم مبانى سليمان الدنيوية، فلقد كانت حجرات قصر العاهل الآشورى «سرجون الثانى» (٧٢٢-٧٠٥ق.م) فى «خورسباد» (دورشروكين) تتصل بمدخل عام، كما كانت الحجرات الخاصة بالملك وأهل بيته منفصلة، الواحدة منهما عن الأخرى، ولكنها تتجمع حول أفنية داخلية، وهى تشبه فى ذلك قصر سليمان، هذا ويوجد فى Zincirli صالة أعمدة يوجد أمامها بهو ذو مدخل،

(١) R.A.S. Macalister, op.cit., p. 350. (٢) أخبار أيام ثان ٣ : ١ .
(٣) ملوك أول ١٠ : ١٦-١٧ . (٤) ملوك أول ١٠ :١٧-٢ .
(٥) ملوك أول ١٠ : ١٨-٢٠ ؛ وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 590.
(٦) Ibid., p. 569.
(٧) انظر: Watzinger, Denkmaler Palastines, Leipzig, 1933, I, p. 96.

ثم ثبت السقف بواسطة أعمدة، وتشبه الواجهة النموذج السورى، ويبدو أن حجرة الاجتماعات فى أورشليم كانت تشبه نظيرتها فى قصر تل حلف (١).

وقد حاول بعض الباحثين إعادة تصميم «بيت وعر لبنان» على أساس نماذج الاسطبلات المكتشفة فى مجدو(٢)، وذلك بمقارنة ما كتب عن وسائل البناء، وما هو معروف من البحث الأثرى، وينصب ذلك بصفة خاصة على الجدار المحيط بالقصور حيث توجد طبقة من الكتل الخشبية بين كل ثلاثة مداميك حجرية، ولقد ظهر هذا الأسلوب فى البناء فى عدة أماكن فى غرب آسيا(٣).

وأنه لمن السهل نسبياً تصور العرش المصنوع من الذهب والعاج بدرجاته الست، كما وصف فى سفر الملوك الأول(٤)، ويمكن مقارنة وفرة استخدام الذهب بكرسى الفرعون «توت عنخ آمون» (١٣٤٧-١٣٣٩ق.م)، وبنماذج العروش السورية والفلسطينية المصورة على تابوت الملك الصورى أحيرام، وكذا على قطعة عاجية عثر عليها فى مجدو(٥)، هذا إلى جانب مقارنة المناظر المصورة على عرش سليمان وهى رؤوس الثيران من الخلف، والأسود التى تقف تحت الأذرع وبجانب الدرجات(٦)، كما توجد عناصر أخرى ذات أصول مختلفة، ترجع إلى مصر وسورية وفلسطين، والأمر كذلك بالنسة إلى الأشكال البرونزية المسكوبة للمعبد وإلى المنحوتات والأشياء المرصعة التى زينت بها أبواب وجدران معبد سليمان(٧).

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 597; K. Galling, BR, 1937, p. 411F.

(٢) O. Eissfeldt, op.cit., p. 579; N. Mohlenbrink, Der Tempel Solomon, 1932, p. 18.

(٣) S. Smith, Timber and Bricksand Masonry Contruction, P.E.Q., 83, 1941, p. 5F; ملوك أول ٦: ٣٦، ٧: ١١-١٢.

(٤) ملوك أول ١٠: ١٨-٢٠.

(٥) G. Loud, The Megiddo Ivoires, OIP, LII, 1939, p. 4; O. Eissfeldt, op.cit., p. 597.

(٦) O. Eissfeldt, op.cit.p 597.

(٧) Ibid., p. 13, 597.

(٧) القدس فی عهد حزقیا ومنسی:

یبدو أن ملك یهوذا «عزیا» (٧٨٣-٧٤٢ق.م) قد أصلح أسوار المدینة التی دمرها القتال الذی دار بین دولتی یهوذا وإسرائیل، ولکنه لم یضف شیئاً إلی مساحة المدینة، وقد اضطر «حزقیا» (٧١٥-٦٨٧ق.م) إلی تدعیم تحصیناتها لمواجهة التهدید الأشوری، إلا أن جل اهتمامه لم یکن موجهاً نحو مصدر الماء، إذا فکر الأشوریون فی قطعه عن المدینة، وذلك لأن «الصهاریج» کان قد بدئ فی إقامتها داخل المدینة نفسها، کما أن المدخل القدیم، والذی یرجع إلی ما قبل الوجود الإسرائیلی بالمدینة لم تعد له فائدة، وبالتالی فإن «عین العذراء»، لم یعد لها دور رئیسی فی حیاة المدینة، فیما یختص بإمدادها بالماء، بعد أن أصبحت تعتمد علی «الصهاریج» وأصبح «ینبوع العذراء» یستخدم فی ری حدائق الخضروات التی علی نهایة الطرف الأسفل لـ «قدرون»[١] کما أن النفق القدیم لم یعد صالحاً لأداء وظیفته بسبب تغیر جغرافیة المدینة، ومن ثم فقد أقیم بدلا منه نفق عبر «تل أوفل» The Hill of Ophel من منحدرات الشمال الشرقی إلی الجنوب الغربی، والتی کانت وقت ذاك داخل أسوار المدینة، وهکذا کانت میاه الینبوع تصب فی برکة السلوام Siloam، والتی مازالت تجری فیها المیاه[٢]، أضف إلی ذلك کله، أن حزقیا إنما قد أصلح من سور سلیمان وحصنه، فضلا عن إقامته سور آخر[٣].

وإلی هذا کله، تشیر التوراة فی سفر أخبار الأیام الثانی، «ولما رأی حزقیا أن سنحریب قد أتی ووجهه علی محاربة أورشلیم تشاور هو ورؤساؤه

(١) ملوك ثان ١٨: ١٧، ٢٥: ٤؛ أخبار ثان ٣٢: ٢-٤، ٣٠؛ وکذا:
R.A.S. Macalister, op.cit., p. 350-351.

(٢) K.M. Kenyon, op.cit., p. 287.

(٣) R.A.S. Macallester, op.cit., p. 351.

وجبابرته على طم مياه العيون التى هى خارج المدنة فساعدوه، فتجمع شعب كثير وطموا جميع الينابيع والنهر الجارى فى وسط الأرض، قائلين: لماذا يأتى ملوك أشور ويجدون مياهاً غزيرة»[١]، وتقول: «وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود، وأفلح حزقيا فى كل عمله»[٢].

هذا وقد كشف فى عام ١٨٨٠م عند السور الصخرى للمدخل السفلى للنفق، جنوبى المعبد، عن نص عبرى يرجع إلى أيام الملك حزقيا، ومنه نعرف أن العمال كانوا ينحتون فى جوف الليل من ناحيتين متقابلتين، واستمر العمل إلى أن تقابل العمال من الطرفين وسط النفق، وفى مكان التقائهما وضع هذا النقش، وفى حفريات أعوام ١٩٠٩-١٩١١م، أخلى النفق، ورغم أن النتائج لا تعطى تأكيدات دقيقة تتفق والرأى التقليدى، الذى ينسب هذا العمل إلى حزقيا، فإن «الأب فنسنت» قد أثبت كيف نفذ هذا العمل وكيف اتبع خط النفق مجرى متعرجاً بدرجة غريبة لم يقدم له تفسيراً كلياً بدرجة مقبولة تماماً، وإن كان من المفترض أنه فى أحد أجزائه يبتعد عن المقابر الملكية القديمة[٣].

وعلى أى حال، فلقد أثبتت الحفائر التى أجريت فى عام ١٩٦١م بشكل مؤكد أن الحافة الغربية، أو على الأقل نهايتها الجنوبية، كانت لا تدخل فى نطاق المدينة حتى القرن الأول الميلادى، ولكن إذا تأكد لنا ذلك، فعلينا أن نبحث عن تفسير لقيام حزقيا بعمل مورد المياه من ينبوع جيحون إلى سكان أورشليم، مع أنه كان فى إمكانه أن يأتى بالمياه من بركة سيلوام فى الوادى الأوسط، وإذا نظرنا إلى ذلك فى أيامنا هذه، فإننا نجد مصاعب

(١) أخبار أيام ثان ٣٢: ٢-٤.

(٢) أخبار أيام ثان ٣٢:٣٠.

(٣) Kathleen M. Kenyon, Archaeology in the Holy land, London, 1970, p. 287-288.

كبرى تقف في وجه تحقيق ذلك فالوادى الأوسط ضيق فى هذا الموضع، والحافة الغربية منحدرة انحداراً شديداً وإذا افترضنا أن هناك سوراً بنى بشكل دائرى من رأس الحافة الشرقية ليضم البركة، فإنه لابد من أن يمتد ليشمل أسفل الحافة الغربية فى مكان لا يشكل وجوده خطراً عسكرياً، بمعنى أنه لا يكون مرتفعاً بدرجة تمكن المهاجمين من رؤيته على الحافة الغربية.

والراجح أن المياه التى كانت تتدفق من ينبوع جيحون تنساب إلى حوض فى الوادى الأوسط داخل فتاة منحوتة فى الصخر، وكان يستمر تدفقها إلى الجنوب فى قناة على طول الجانب الغربى للحافة الشرقية، ولا يمكن قبول هذا الافتراض الأخير فى أيامنا هذه، لأنه من السهولة بمكان افتراض أن المياه تجرى وسط الوادى، والتفسير المعقول، هو أن الخزان نفسه كان مغطى بالصخر، وأنها فى الحقيقة لم تكن بركة، بل خزاناً للمياه، مع افتراض أنهم حين يبصرون تدفقها على السطح، فربما خدعوا أنفسهم بتمرير مياهها على كتل من الصخر لتنقيتها عند منحدر وادى قدرون، وإذا صح الافتراض الخاص بالحوض المغطى بالصخر، وأنه كان جميعه منحوتاً فى الصخر، عند ذلك سوف تختفى العقبات، وليس هناك أى داع لوجود خزان داخل حوائط، وكل ما كان يجب اتخاذه نحو المحافظة على هذا الخزان، هو حماية المدخل إليه بأية وسيلة من وسائل الدفاع.

وليس هناك من شك فى أن سقف هذا الخزان قد انهار، وقد اختفت كل الحقائق الدالة عليه فى أعماق البركة الحالية، كذلك اختفت أيضاً الاستحكامات الدفاعية التى كانت قائمة حول المدخل[1].

وأما فى عهد «منسى» (٦٨٧-٦٤٢ق.م) الطويل، فقد زادت المدينة من ناحية الشمال، كما بنى منسى كذلك سوراً، اشتمل على «باب

---

(١) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٨٦-٨٧.

السمك» الذى نسمع عنه لأول مرة، والذى يجب أن يكون فى الجانب الشرقى من المدينة، ومن ثم فإن منسى إنما يعتبر هو الذى أنشأ هذا السور[1].

(١) أخبار أيام ثان ٣٣ : ١٤ ؛ نحميا ٣ : ٣ ، ١٢ : ٣٩ ؛ وكذا:

R.A.S. Mecalister, op.cit., p. 351.

الباب الثامن
عصر الانقسام

الفصل الأول

الانقســـام وأســـبابه

في عام ٩٢٢ قبل ميلاد المسيح، عليه السلام، ينتقل سليمان إلى جوار ربه - راضيًا مرضيًا، عنه، ولو كرهت يهود - ولكنه في اللحظة التي دفن فيها ، إنما دفن معه، حلم إسرائيل، في أن تكون قوة لها كيان بين جيرانها من دويلات فلسطين وسورية، إذ سرعان ما تفشى الشقاق القبلي القديم بين الإسرائيليين، ومن ثم فقد انقسمت دولتهم إلى دويلتين، الواحدة في الشمال ، وتدعى «إسرائيل» والأخرى في الجنوب، وتدعى «يهوذا» .

وترجع التوراة في سفر الملوك الأول - دون أن تقيم أي اعتبار للنبيّ الكريم - أسباب انقسام المملكة الإسرائيلية إلى إقبال سليمان على ملذاته وحبه لنساء كثيرات، تزوج من بعضهن، واتخذ من البعض الآخر سرايا، هذا فضلا عن أن هؤلاء النسوة إنما كن من المصريات والمؤابيات والعمونيات والصيدونيات والحيثيات ممن قال ربُّ إسرائيل عنهن لشعبه إسرائيل: «لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاثة مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه»[1] .

وسواء أكان عدد نساء سليمان ألفًا، كما تقول التوراة، أوستين أو ثمانين على التوالي، كما يقول المؤرخون، وسواء أراد سليمان من وراء هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقيا، أو أن الباعث له على ذلك هو نفس الباعث الذى حمل رعمسيس الثاني على هذا العمل بعينه وهو رغبته

---

(١) ملوك أول ١١ : ١-١٣ .

فى أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو شخصيا[1]، فإن سليمان - رغبة منه فى مرضاة زوجاته وسراريه[2]، أو إرضاء للشعوب التى اتصل بها طبقًا لما أملته عليه الظروف السياسية والمحالفات الأجنبية والزواج والعلاقات الاقتصادية - أخذ يقيم هياكل صغيرة ودورا لعبادة الآلهة الأجنبية، بجوار هيكل يهوه، ومن ثم فقد بات إله إسرائيل، ليس الإله الواحد، أو الإله فحسب، وإنما مجرد إله قومى[3]، بل والأدهى من ذلك وأمر، أن القوم - فيما يرى البعض - قد مارسوا فى هيكل يهوه نفسه طقوس عبادة الشمس المصرية، والذبائح والتقدمات الكنعانية، وحفلات بلاد النهرين الدينية، مثل المراثى على «تموز»[4] وقد أدى ذلك كله إلى تمزيق الوحدة الدينية بين القوم، والتى كانت بدورها سببا فى تمزيق الوحدة الوطنية[5].

وأيا ماكان الأمر، فإن سليمان - فيما ترى التوراة[6] - يختم حياته، وغضب الربّ - والعياذ بالله - قد حلّ عليه، «لأن قلبه مال عن الربّ إله إسرائيل»، و«لم يحفظ ما أوصى به الربّ»، ومن هنا، ولأن سليمان لم ينفذ وصايا الربّ، حتى تحول من موحد إلى مشرك، وهو يدرك تمام الإدراك أن ربّ إسرائيل إنما هو إله غيور يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء، فى الجيل الثالث والرابع من مبغضيه[7]، لهذا كله فقد شاءت إرادة ربّ إسرائيل أن تمزق مملكة سليمان ليعطيها لعبد سليمان، ولكن تقديرا لعبده داود، ولأورشليم مدينته، يؤجل ذلك إلى ما بعد موت سليمان، بل ويعطى كذلك ولده من بعده واحدا من أسباط إسرائيل، ليكون ملكا على هذا السبط دون بقية الأسباط، وهكذا - وطبقا لرواية التوراة - ما أن انتقل سليمان إلى جوار

---

(١) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٣٣. (٢) ملوك أول ١١: ٤-٨.

(٣) I. Epstein, Judaism, 1970, p. 37.

(٤) حبيب سعيد، أديان العالم، ص ١٧٢، (دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة).

(٥) I. Epstein, op.cit., p. 37. (٦) ملوك أول ١١: ١-١١.

(٧) خروج ٢٠: ٥.

ربه، حتى حقت على نسله نقمة الربّ، فأنفذ وعيده ومزّق مملكته بين رحبعام ولده، ويربعام عبده[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه النصوص التي تجعل انقسام المملكة بسبب غضب الربّ على سليمان، لأنه لم يحفظ وصاياه لأن قلبه مال عنه، أقول هذه النصوص التوراتية جمعاء، إنما تتعارض تعارضًا تامًا، وما سبق أن روته نصوص توراتية أخرى، من أن ربّ إسرائيل نفسه قد منع داود، كما رأينا من قبل، من أن يقيم له هيكلا، لأنه سفك دماء كثيرة، وأن الذي سيقيم له ذلك هو ابنه سليمان ذلك لأنه ـ طبقًا لرواية سفر الأخبار الأول ـ «يكون لي ابنا وأكون له أبًا، وأثبت كرسي مملكته إلى الأبد»[٢].

ولست أدري أي نصوص التوراة نصدق؟ أتلك التي ترى أن الربّ سوف يثبت مملكته إلى الأبد؟ أم تلك التي ترى أن ربّ إسرائيل نفسه سوف يقسم مملكته بين ابنه وبين عبده، فيعطي عبده منها عشرة أسباط، ولا يترك لولده منها إلا سبطًا وبعض سبط، وليس ذلك إلا من أجل داود، لأن سليمان مال قلبه عن الربّ، أم أنه التعارض الذي عهدناه في نصوص التوراة، حتى جعلت داود مغضوبًا عليه في الأولى، مرضيًا عنه في الثانية، وجعلت سليمان مرضيًا عنه في الأولى، مغضوبًا عنه في الثانية.

ومن هنا ـ علم الله ـ أنني لا أدري أين الحقيقة في كل ذلك، وأيهما المغضوب عليه، وأيهما المرضى عنه؟ ذلك لأن التوراة إنما تكيل المديح للواحد منهما في نص، وتلقي عليه التهم جزافًا في نص آخر، حتى لقد بات من العسير علينا أن نتبين أي النصوص هو الصادق، وأيها هو الكذوب، وإن كان النبيّان الكريمان ـ فيما أومن به الإيمان كل الإيمان ـ براء من كل تهم بني إسرائيل، وشطط يهود، فهما من تلك الصفوة المختارة من أئمة

---

(١) ملوك أول ١١: ١١-١٣.　　(٢) أخبار أيام ٢٢: ٦-١٠.

البشرية، ممن حبّب الله إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، هذا فضلا عن أن التوراة إنما تمتلئ صفحاتها بمدح سليمان، حتى أنها تروى فى سفر الأخبار الأول[١]، أن الربّ قد اختاره ابناً له، بل وإن هناك من أسفار التوراة ما ينسب إلى سليمان كنيشد الإنشاد والأمثال والجامعة، هذا إلى جانب غيرها مما يطلق عليها علماء التوراة اسم «الأسفار الخفية»، مثل أسفار أمور سليمان وحكمة سليمان وغيرهما.

يذهب بعض المؤرخين إلى أن من أسباب الثورة على سليمان والتى أدت إلى انقسام دولته بعد مماته، من أن إسرائيل إنما كانت تئن تحت جور العسف، وكانت تترقب الفرصة للثورة، تخلصاً من السخرة والضغط اللذين نستطيع أن نتخيلهما من قول التوراة فى سفر الملوك الأول: «وسخّر الملك سليمان من جميع إسرائيل، وكانت السخرة ثلاثين ألف رجل، فأرسلهم إلى لبنان عشرة آلاف فى الشهر بالنوبة، يكونون شهراً فى لبنان وشهرين فى بيوتهم، وكان «أدونيرام» على التسخيرم، وكان لسليمان سبعون ألفاً يحملون أحمالا، وثمانون ألفاً يقطعون فى الجبل، ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف وثلاث مئة من المتسلطين على الشعب العاملين العمل، وأمر الملك أن يقطعوا حجارة كبيرة، حجارة كريمة، لتأسيس البيت، حجارة مربعة»[٢]، ثم تشير مرة أخرى إلى ذلك بعد وفاة سليمان، حين أتى شيوخ إسرائل إلى ولده «رحبعام» قائلين: «إن أباك قسى نيرنا، وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية، ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا فنخدمك»[٣].

هذا إلى أن هناك فريقاً من الباحثين، إنما يذهب إلى أن التذمر قد بدأ على أيام سليمان نفسه، عندما بدأ التناقض واضحاً بين ترف العاصمة

---

(١) أخبار أيام أول ٢٨ : ٩.
(٢) ملوك أول ٥ : ١٣-١٧.
(٣) ملوك أول ١٢ : ٤.

أورشليم، وبين الفقر النسبى الذى كانت تعيش فيه المناطق الأخرى، بسبب الضرائب الثقيلة التى كانت مفروضة عليها، والتى زادت كثيراً عندما ضاعت أدوم ومناجمها الغنية بالنحاس(١)، هذا فضلا عن أن سليمان إنما كان قد أعفى منطقة سبط يهوذا - أو على الأقل الإقليم الجبلى منها - من الإسهام بنصيبها فى تزويد موارد الملك، كغيرها من الاثنى عشر إقليماً، الأمر الذى أشرنا إليه من قبل، وقد أدى ذلك إلى تمرد قائده «يربعام» الذى فرّ إلى مصر(٢)، والتى كانت - على ما يبدو - ملجأ لأعداء سليمان، وربما أصبحت لم تعد تبادله الصداقة، كما أنه كان من الطبيعى، أنها ما كانت ترغب فى أن ترى فلسطين قوية فى عهده(٣)، وهكذا حدث الانقسام بعد وفاة سليمان مباشرة، والذى يعد مسئولا عنه بسبب تحيزه لأورشليم ويهوذا(٤)، والتى كانت رغم ذلك لا ترتبط بالأسرة المالكة برباط الدم، بقدر ما ترتبط بها برباط الرخاء الاقتصادى، الذى نتج عن السياسة الملكية إزاءها، وعن وجود العاصمة بها إلى حد ما(٥).

ويضيف المؤرخون إلى أسباب الانفصال كذلك، أن الشعب قد تحمل كارهاً جميع نفقات مبانى سليمان ونفقاته هو وحاشيته وجيشه، فكان الناس لا يفيقون من ضريبة، حتى تصرعهم إدارة الضرائب بأخرى وأخرى، هذا إلى جانب المبالغة فى الإنتاج للتصدير للحصول على الأموال الضرورية لهذا المجتمع الجديد، الذى لم يكن فى الواقع إلا الملك وحاشيته وجيشه وأعوانه الذين ابتدعوا مختلف الوسائل لإنماء الدخل وازدهار الاقتصاديات، كما أجبر سليمان القبائل الشمالية على شراء حاجاياتهم من تجاره الخصوصيين، وبالغ سليمان فى احتكار وسائل كسب العيش فلم يترك من وسائله وسيلة لرزق إلا وقبض عليها.

---

(١) K.M. Kenyon, op.cit., p. 258.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 370-371.

(٣) Stanley, A. Cook, CAH, III, 1965, p. 358.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 371-372.

(٥) C. Roth, op.cit., p.

وكانت النتيجة المنتظرة لهذا الاحتكار الملكى للاقتصاد العام للمملكية إثراء الحاشية، والطبقة الخاصة التى أسند إليها الملك هذه الأعمال الاقتصادية، فظهر فى المجتمع الإسرائيلى طبقة قوامها الحاشية والموظفون التجاريون، وقد أصبحت هى صاحبة الجاه والثروة، وسال الذهب فى خزائنها فتطورت الحياة الاجتماعية الصاخبة فى المدن التى أخذت تشتهر بلياليها الحمراء، أما السواد الأعظم من الشعب فقد انزوى، واكتفى بالزراعة والمهن الصغيرة التى لا تقوم بأوده وذلك لاضطراب الحياة الاقتصادية، وظهور طبقة غنية تشترى كل حاجياتها بأفدح الأثمان، بينما عامة الشعب تئن وترزح تحت نير ارتفاع الأسعار وتكاليف الحياة، فتمزق المجتمع الإسرائيلى داخلياً - وللمرة الأولى فى تاريخه - فأوجد هذا الوضع حالة تذمر ضد الحكم[1].

واستغلت المعارضة الساخطة الخانقة تعاون سليمان الدينى، وإقامة كثير من دور العبادة الأجنبية فى البلاد، وتكتلت معظم الأسباط الإسرائيلية ضد هذا الحكم السليمانى المطلق، فظهرت فى أخريات عهده فى مدينة «شيلوه» - والتى يرجح أنها سليون الحالية على مبعدة ١٧ ميلا شمال أورشليم - حركة ثورية عامة مناهضة لسليمان وسياسته، وقد تزعم هذه الثورة النبىّ «أخيا» الشيلونى[2].

وأخيراً فإن هناك من المؤرخين من يرى أن من أسباب الانفصال أن سليمان أنما قد تعجل حينما أراد أن يحول البلاد من دولة زراعية إلى أخرى صناعية، وقد تطلبت هذه المشروعات الضخمة كثيراً من الكدح، وفرضت على الشعب أبهظ الضرائب، ولما أن تمت بعد عشرين عامًا من العمل المتواصل، وجدت فى أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والفساد الاجتماعى فى فلسطين[3].

---

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) ملوك أول ١١: ٤-٨، ٢٩-٣٩؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٣) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٤٨.

وهكذا - ترى التوراة - وكذا كثير من المؤرخين والباحثين - أن سليمان مسئول عن انقسام مملكة إسرائيل، إلى دويلتين، الواحدة إسرائيل، والأخرى يهوذا - ناسين أو متناسين - أن سليمان العظيم، هو الذى جعل من إسرائيل شعبًا معروفًا فى التاريخ، وسليمان هو الذى مدّ شهرة الإسرائيليين، وصنع لهم كيانًا، وسليمان هو الذى أنشأ معبدًا ظل قرونًا طويلة، الهيكل الوحيد لهم، وملاذهم فى وقت الضيق، كان سليمان نقطة تحول فى حياة إسرائيل، ذلك لأنه علم شعبه فضل القانون والنظام، وبثّ فى النفوس مبادئ الوحدة، وأهمية الالتفات إلى الصناة، فزادت الثروة، وتضاعفت بفضل تشجيعه للتجارة والتجار الفينيقيين، بتسيير قوافلهم داخل أرض فلسطين وإنشاء أسطول البحر الأحمر، وإغرائه حيرام على استخدام هذا الطريق (بدلا من طريق مصر) للاتجار مع بلاد العرب وأفريقيا[١].

وانطلاقًا من هذا، فالرأى عندى أن أسباب انقسام دولة سليمان بعد موته مباشرة، إنما ترجع - فى الدرجة الأولى - إلى ظروف المملكة الإسرائيلية نفسها - وليس إلى التهم البذيئة تارة، والظالمة تارة أخرى، والمبالغ فيها جد المبالغة تارة ثالثة، التى تلصقها التوراة بالنبىّ الكريم - صلوات الله وسلامه عليه.

كان الانقسام الخاتمة الحتمية لظروف هذه المملكة، فمن المحقق - فيما يروى سيجموند فرويد - أن ثمة عناصر متباينة قد ساهمت فى تكوين الشعب اليهودى، غير أن الحقائق البارزة إنما تثبت أن الأمة اليهودية إنما تكونت من اتحادين لفريقين مختلفين، أو قل من اتحاد فريقين، وطبقًا لهذه الحقيقة فقد أقدمت الأمة اليهودية - بعد فترة قصيرة من الوحدة السياسية - على الانقسام مرة أخرى إلى جزأين، الواحد يهوذا، والآخر إسرائيل[٢]،

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٣/٢٧٧-٢٧٨، (الإسكندرية ١٩٦٦).

(٢) Sigmun Freud, Moses and Monotheism, N.Y., 1939, p. 44.

وهكذا كان اجتماع هذه المجاميع المتنافرة، فى بادئ الأمر، أمراً يثير العجب حقًا، وكان من الطبيعى بعد أن اختفى العنصر الذى يستطيع أن يضم بعضهم إلى بعض، أن يعودوا إلى ماكانوا عليه من قبل، كانت حاجيات الدفاع عن النفس سبباً فى إقامة وحدة سياسية بين القبائل العبرية فى وقت كان فيه الموقف التاريخى مواتياً على نحو فريد لإقامة مملكة وتوسيعها، ولكن تلك المملكة كانت قائمة على أساس غير ثابت.

ولم تستطع سياسة التركيز والتوطيد التى اتبعها ملوك إسرائيل العظام - كداود وسليمان، عليهما السلام - القضاء تماماً على عوامل الهدم داخلها، وكان أقوى عوامل الهدم هذه، التنافس بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب، وهو تنافس لم يقض عليه أبداً، بل قضى هو نفسه على دولة إسرائيل[١]، إذ لازمتهم آفتهم القديمة، الدائمة أبداً، بعد إقامة المملكة وتعاقب العروش، فلم يفارقوا نظام القبيلة، بعد محاكاتهم لجيرانهم فى نظام الدولة، ولبثوا فى دولتهم - كما لبثوا فى هجرتهم - قبيلة معزولة عن الأمم، بل سبطاً معزولا عن سبط فى داخل القبيلة وظلت لهم شريعة «العصبية القبلية» دستوراً يصلح لهم وحدهم فى تقديرهم، ولكنه لا يصلح لتنظيم الدولة التى تجمعهم فى كل تقدير، وظلوا يحصرون العصبية فى أضيق حدودها بين الأسباط فى القبيلة الواحدة، ويتشددون فى حصر كل سبط بميراثه إلى أعقاب الأعقاب[٢].

ونقرأ فى التوراة أنه «لا يتحول نصيب إسرائيل من سبط إلى سبط، بل يلازم بنو إسرائيل كل سبط نصيب سبط آبائه، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بنى إسرائيل، تكون امرأة لواحد من عشيرة أبيها، لكى يرث بنو

---

(١) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٤١ . وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 475, 585-586.

(٢) عباس العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، ص ٥٩-٦٠ ، (القاهرة ١٩٦٠).

إسرائيل كل واحد نصيب آبائه، فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر، بل يلازم أسباط بنى إسرائيل كل واحد نصيبه»[1].

أضف إلى ذلك الغيرة القديمة بين سبطى يهوذا وأفرايم، التى ترجع إلى وقت دخولهم أرض كنعان[2]، ومن هنا يتجه البعض إلى أن الأسباط التى انتسبت إلى يوسف - إلى «بيت يوسف» كما يقولون - أفرايم ومنسى، وأحياناً سبط بنيامين - ذرية يعقوب من زوجه الأثيرة راحيل - ربما كانوا أصلا الأقوام التى تفردت فتتمسك وحدها لأحقاب طويلة بلقب «بنى إسرائيل» مما دعى إلى أن يتصدى لهم شتيت من كهانة «بيت يهوذا» يستنزلون عليهم اللعنات، متهمين إياهم بالمروق عن صراط «يهوه» القويم، فينتزعوا انتحالا لبيت يهوذا ومن لف لفهم، مكانة «إسرائيل الصدق»؛ فهم شرعًا - دون شعوب الأرض جميعًا - أصحاب تلك الحقوق والوعود التى بذلها الربُّ لمن اصطفى وتخيّر[3].

بل إن العلاقات بين يهوذا وإسرائيل كانت تسودها دائمًا الشكوك والريبة وسرعان ما تجددت العداوة بينهما، وادعى رجال الشمال بأن لهم فضل البكورية على يهوذا، كما أن قصص القائد «يوآب» - ابن صروية أخت داود، ورئيس جيشه، وقاتل أبنير وعماسا - كانت رمزاً للغيرة الداخلية العميقة، التى هزّت مراراً وتكراراً المملكتين - الإسرائيلية واليهوذية - فى العصور التالية[4].

هذا فضلا عن أن المملكة إنما كانت تنقسم إلى قسمين متباينين الواحد فى الشمال، ويسكنه شعب مزارع، ويعيش فى أرض خصبة تجود

---

(١) عدد ٣٦: ٧-١٠.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٧٠/١.

(٣) حسين ذو الفقار صبرى، إنما الأمور بأصولها، «المجلة»، العدد ١٥١، يوليه ١٩٦٩، ص ٧.

(٤) S.A. Cook, CAH, II, 1931, p. 363.

بمحاصيل مختلفة، والآخر فى الجنوب، ويسكنه شعب رعوى يعيش بقطعانه فى المرتفعات الصالحة لرعى هذه القطعان، كانت إسرائيل تقيم علاقات تجارية نشطة مع فينيقيا وسورية، وقد أصبحت بحكم موقعها على مفترق الطرق المؤدية إلى آسيا وبلاد النهرين ومصر، بلدا تجاريًا، فى الوقت الذى بقيت فيه اليهودية الواقعة فى القسم الجبلى الأصعب منالا بلد الرعاة المتخلف[١]، وإن هذا فى الحقيقة أمر لابد منه، فقد كانت «إسرائيل» متصلة جغرافيًا بفينيقيا مباشرة، والأقطار الأخرى المتحضرة من ناحية الشمال كذلك، أما «يهوذا» فقد كانت بابًا مغلقًا بين إسرائيل - والتى عادة فى حالة حرب معها - وبين ممالك عبرالأردن المحاربة من ناحية الشرق، والصحراء من ناحية الجنوب[٢].

أضف إلى ذلك أن القبائل الشمالية إنما كانت أكثر تأثرًا بحضارة الكنعانيين ومزاولة طقوسها الدينية على نمط طقوسهم، وذلك لأنها كانت أكثر تقبلا لتأثيرات الشعوب غير العبرية، والتى كانت على اتصال مستمر بها، بينا ظلت يهوذا منعزلة فى تلالها تعيش عيشة بسيطة، وتزاول طقوسًا أكثر بساطة، بالرغم من أن عاصمة سلميان كانت فيها[٣].

وجاءت الأزمة الاجتماعية أكثر عمقًا وأشد خطرًا، كانت الحياة البدوية قد فرضت نظام حياة، وإن لم يكن ديموقراطيًا، بالمعنى الصحيح، فقوامه المساواة بين الشعب، وذلك بفضل اشتراكية الأموال والأملاك، فأزالته الحياة الحضرية رويدًا رويدًا، ثم أفضى الاقتصاد التجارى الذى شجعته الملكية إلى التفاوت الاجتماعى، وذلك بوضع الأغنياء والفقراء جنبًا إلى

(١) يورى إيفانوف، إحذروا الصهيونية، ص ١٣، وكذا:

V. Scranuizza and Mackendich, Ancient World, p. 85.

(٢) K.M. Kenyon, op.cit., p. 260.

(٣) أندريه إيمار، وجانين أوبواية، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

جنب، فهاج في النفوس الحنين إلى الحياة البسيطة، ولم تستطع تقاليد العبرانيين البدوية أن تكيف نفسها وفق الملكية في يسر، فعلى الرغم من أن الملكية كانت أمراً لا مناص منه، لكي تشغل إسرائيل مكاناً في الميدان السياسي في الشرق القديم، كانت روح أهلها الاستقلالية البدوية تعرقل الملكية، وتنال منها، وقد استعان معارضو السلطة الملكية بالسلطة الدينية، فأوجدوا داخل الدولة ثنائية أخرى، إلى جانب ثنائية الشمال والجنوب، ولم يلبث «شاؤل» - أول ملوك إسرائيل - أن اصطدم بالكهنة، وكان هذا هو السبب الأساسي لسقوطه، ومجيء داود بعده.

وقد أدرك داود وسليمان القوة المركزية الدينية وسلطة الكاهن الأكبر، فاتبعا السياسة التي يتبعها الأباطرة والملوك دائماً في مثل هذه الأحوال، وذلك أنهما قد بسطا «حمايتهما» على الدين، وألحقا الكاهن الأكبر بيلاطهما، وجاهدا ليجعلا الهيئة الدينية إدارة من إدارات الدولة، وكان أثر هذه السياسة هو ذلك الأثر الذي أورد لنا التاريخ أمثلة كثيرة أخرى له، فقد سلك الكهنة بطبقاتهم المختلفة مسلك موظفي الدولة، فانصبت الكراهية عندئذ على الدولة والدين الرسمي معاً، وحدث صدع بين الدين الرسمي والآمال الدينية لأولئك الذين كانوا ينظرون إلى الدين على أنه أكثر من شكل جامد، وتطور التوتر إلى معارضة، وكان الأنبياء بعد انقسام المملكة لسان هذه المعارضة، فقيام الأنبياء كان مظهراً تلقائياً لما كان يشعر به الناس من سخط على الصورة التي فرضها الحكم الملكي على الدين[1].

وأياً ما كان الأمر، فإن السبب المباشر لانقسام المملكة إنما يرجع إلى حماقة «رحبعام» بن سليمان، في مجتمع عام، حدث ذلك حين اجتمعت قبائل مملكة إسرائيل في «شكيم» - على مبعدة ٦ أميال إلى الشمال الغربي من السامرة، ٣١ ميلا شمال أورشليم - وأتى «رحبعام» إلى هناك، وأرادت

(١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٤١.

القبائل الإسرائيلية أن تجعله هي ملكاً وخليفة لأبيه سليمان، أى أن هذه القبائل إنما أرادت أن تناقش معه أمر التعيين، وأن يملوا شروطهم، وهذا يعنى أن القبائل الإسرائيلية لم تعترف بالوراثة التقليدية التى حدثت فى الحالات الضرورية، كالتى تبعت سقوط «شاؤل» بسبب نفوذ «أبنير» المهاب، ومرة أخرى عند وفاة داود، بسبب قوة سلطته الشخصية العظيمة، ومثلها كان من قبل فى حالة تتويج «شاؤل» ملكاً،وفوق كل شىء، عندما اختير داود ملكاً على إسرائيل، وهكذا فإنهم إنما أرادوا أن يمنحوا التاج بأنفسهم لرحبعام، وأن يعقدوا معه ميثاقاً، وقد أعطوه أفضلية على غيره، بصفته الابن الأكبر لسليمان العظيم، ولكنهم طلبوا منه تأكيداً بإنهاء الأعباء التى أصبحت لا تطاق منذ أيام سليمان، وبدهى أن من هذه الأعباء الجزية النوعية، طالما أن المدينة الكنعانية السابقة هى التى احتضنت الحركة والأمر كذلك بالنسبة إلى السخرة[١].

ويبدو أن فريقاً من المؤرخين قد وجد غرابة فى أن ملكاً، كان له الحق - كما كان لأبيه من قبل، ولابنه من بعد - فى أن يجلس على العرش بحق الوراثة، ومع ذلك فهو يرضى بأن يطرح حق وراثة العرش للتصديق الشعبى، ومن هنا فإن هذا الفريق من المؤرخين إنما يستنتجون أن «اجتماع شكيم» إنما كان اجتماعاً ثورياً قصد منه الملك محاولة استعادة الإسرائيليين الذين تمردوا من قبل، وليس لتنصيبه ملكاً، كما تقول التوراة[٢]، ولكن حكم الوراثة المطلق لم تكن قد ثبتت أقدامه بعد فى إسرائيل، حتى يستطيع الملك أن يعفى من متاعب الحصول على الموافقة الشرعية، سواء فيما يختص بتعاقب الملوك، وبخاصة فى أوقات المحن[٣]، أو حتى فى أمور التشريع الهامة[٤].

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 226-227.

(٢) ملوك أول ١٢: ١-١١.

(٣) صموئيل ثان ١٦: ١٨؛ ملوك أول ١: ٤٠، ٢: ١٥؛ ملوك ثان ١١: ٤-٢٠، ٢٣: ٣٠.

(٤) ملوك ثان ٢٣: ٢٣؛ إرمياء ٣٤: ٨-٢٢.

ومن هنا، فإنه من المسلم به أن الملك ـ وقد أدرك الحالة القلقة التى كانت تسود الشعور العام وقت ذاك ـ رأى أنه من الحكمة السياسية أن يبدى اهتمامًا خاصًا برعاياه الشماليين، وذلك بأن يجىء إليهم فى عقر دارهم، ليعلن نفسه ملكًا بينهم، ومع ذلك كله، فعلينا ألا ننسى أن «اجتماع شكيم»، كان يعنى مواجهة من المتمردين للملك، ومن هنا فعلينا أن نرفض بقية الرواية كلها[1].

وعلى أى حال فإن شيوخ القبائل حين تقدموا إلى «رحبعام» طالبين منه أن يخفف عنهم عبء الضرائب التى أثقل بها والده كاهلهم، فإنه قد ذهل عن هذه المطالب، وأمهلهم ثلاثة أيام قبل أن يرد عليهم، وحين انتهت المهلة لم يكن رحبعام موفقًا فى الرد عليهم، فقد كان الأحرى به أن يقابل الموقف الخطير بكياسة ولباقة، ولكنه ركب رأسه فى عناد يستره الضعف عادة، وأجاب شيوخ القبائل جوابًا غليظًا، رغم أن الشيوخ من مستشاريه نصحوه بالاستجابة إلى مطالب الشعب، غير أنه لم يستمع إلا إلى نصيحة الأحداث من أقرانه، الذين أوغروا صدره ضد الشاكين، ومن ثم فقد كان رد «رحبعام»: «إن خنصرى أغلظ من متن أبى، والآن أبى حملكم نيرًا ثقيلا، وأناأزيدكم على نيركم، إن أبى أدبكم بالسياط، وأنا أؤدبكم بالعقارب»، وكانت تلك هى اللحظة التى أعلنت فيها القبائل الشمالية انفصالها عن «بيت داود»، وهكذا عادت إلى الحياة، مرة أخرى، كلمة سادت يومًا ما موقفًا خطيرًا فى عهد داود، من أن إسرائيل لم يعد لها دور فى عهد أسرة داود اليهوذية، أو على حد قول التوراة: «أى قسم لنا فى داود، ولا نصيب لنا فى ابن يسى، إلى خيامك يا إسرائيل، الآن انظر إلى بيتك يا داود، وذهب إسرائيل إلى خيامهم»[2].

(١) A. Lods, op.cit., p. 372-373.

(٢) ملوك أول ١٢: ١-١٦؛ صموئيل ثان ٢٠: ١؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٩١-٣٩٢؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 227.

وهنا، فلسنا ندرى شيئًا على وجه التحقيق عن الدور الذى قام به «يربعام» من وراء الستار، وإن كانا ندرى تمامًا ـ طبقًا لرواية التوراة فى الملوك الأول ـ أن رحبعام قد أرسل «أدورام» ـ مسئول التسخير ليمسك بزمام الموقف، ولكنه دفع حياته ثمنًا لهذا الموقف رجمًا بالحجارة، وعندئذ هرب رحبعام فى عربته إلى أورشليم، «وعصى إسرائيل على بيت داود»[١]، كما أننا ندرى كذلك، وطبقًا لرواية أخرى فى التوراة، أن رحبعام رفض أن يمنح رعاياه طلباتهم العادلة، لأن «يهوه» إنما أراد أن يحقق وعيده بانشقاق الوحدة القومية[٢].

ويحاول «رحبعام» بعد ذلك أن يستعيد سلطته على كل إسرائيل، ومن ثم فقد «جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين، مئة وثمانين ألف مختار محارب، ليحاربوا بيت إسرائيل، ويردوا المملكة لرحبعام بن سليمان»، ولكن «شمعيا» ـ رجل الله ـ يتصدى لرحبعام ويعلمه أن تلك إرادة ربّ إسرائيل، فيصدع رحبعام بالأمر، وتنتهى المشاكل عند هذا الحد[٣]، وتنقسم إسرائيل الموحدة إلى دويلتين، الواحدة إسرائيل، وعليها «يربعام» الأفرامى، الذى كان رئيسًا للتسخير على أيام سليمان، والآخرى يهوذا، وعليها رحبعام بن سليمان، غير أن مركز النشاط منذ هذه اللحظة، وحتى سقوط السامرة فى عام ٧٢٢ق.م، إنما سوف ينتقل إلى الشمال، بينما تبدأ يهوذا تغيب نسبيًا فى غياهب الظلمات[٤].

وهكذا يصدق التاريخ إلى حد كبير، ما ذهب إليه «فرويد» من أن تاريخ بنى إسرائيل إنما يقوم على الثنائية، كان هناك شعبان اندمجا معًا فى أمة واحدة ولم تلبث هذه الأمة أن انقسمت إلى مملكتين، وهناك اسمان للإله فى أصل التوراة الواحد يهوه، والآخر إلوهيم ـ بل كانت هناك

---

(١) ملوك أول ١٢ : ١٨-١٩.

(٢) ملوك أول ١٢ : ١٥.

(٣) ملوك أول ١٢ : ٢١-٢٤.

(٤) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٣٩٣.

عقيدتان فى الواقع؛ طردت الأولى بواسطة الثانية، ولكنها لم تلبث أن ظهرت منتصرة فى النهاية[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى تناقض نصوص التوراة بشأن الأسباط التى تكونت منها كل من دويلتى يهوذا وإسرائيل؛ فهى تشير مرتين[٢] إلى أن يهوذا، إنما أصبحت تتكون من سبط يهوذا وحده، ولكنها تشير مرة ثالثة[٣] إلى أنها تتكون من سبطى يهوذا وبنيامين، وأن إسرائيل إنما تتكون من الأسباط العشرة الباقية[٤]، وفى الواقع أن الأمر ليس كذلك، لأن إسرائيل إنما كانت تتكون من الأسباط التسعة الشمالية فقط (راؤبين وجاد وأفرايم ومنسى وأشير ويساكر وزوبولون ونفتالى ودان)؛ وأن يهوذا إنما كان من سبطى يهوذا وبنيامين، فضلاً عن سبط «شمعون»، والذى كانت دياره تقع إلى ما وراء حدود يهوذا من جهة الجنوب، ولم يقل أحد أن دويلة إسرائيل كانت لها ممتلكات إلى الجنوب من يهوذا، وحتى لو صدقنا ما ذهب إليه «مارتن نوث»، من أن قبيلة شمعون كانت تعيش على هامش القبائل الإسرائيلية، وأنها لم تحتل المكانة التى تجعلها تقوم بدور مستقل فى العصر التارخى المعروف لنا[٥]، فإن هذا لا يغير شيئًا من الصورة التى قدمناها من قبل.

وأخيراً، فلعل من المفيد أن نشير إلى أن انضمام بنيامين مع يهوذا، ضد أفرايم، إنما كان أمراً غير منتظر من هذا السبط بالذات، ذلك لأن بنيامين من «بيت يوسف» (أفرايم ومنسى وبنيامين)، أبناء «راحيل»، وليس من «بيت يهوذا» أبناء «ليئة»، هذا فضلاً عن أن أبناء سبط بنيامين كان من المنتظر أن يكونوا هم المنافسون لبيت يهوذا، على أساس أن عرش إسرائيل

---

(١) S. Freud, op.cit., p. 64.

(٢) ملوك أول ١١: ٣٦، ١٢: ٢٠.

(٣) ملوك أول ١٢: ٢٣.

(٤) ملوك أول ١١: ٣٥.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 58.

إنما كان لهم قبل أن يكون لبيت يهوذا، وذلك منذ اختيار «شاؤل» كأول ملك لإسرائيل، ثم ولده «إيشبعل» من بعده، بل إن الكثيرين من البنياميين إنما كانوا يعتقدون أن «آل داود» إنما قد اغتصبوا حقهم في العرش، ومن ثم فقد كانوا من أكثر القبائل الإسرائيلية معارضة لبيت داود، ويذهب المؤرخ اليهودي «سيسل جوزيف روث» إلى أن الفضل في ذلك إنما يرجع إلى المهارة السياسية لداود وولده سليمان، تلك المهارة التي جعلت بنيامين الآن تلقي بكل ثقلها - وبمفردها مع البقية الباقية من سبط شمعون - في جانب يهوذا، ضد رهطهم الآدنيين من الأفرايميين[1].

وأيا ما كان الأمر، فلقد بدأ عصر جديد في تاريخ اليهود، عصر لم يعرف فيه بنو إسرائيل الأمن والسكينة، اللتين طالما تمتعوا بهما على أيام سليمان، فقد كان موقع فلسطين بين عواصم النيل والدجلة والفرات، والذي جاء إلى اليهود، بالتجارة على أيام سليمان، هو نفسه الذي سيجيء إليهم بالحرب في البقية الباقية لهم من أيام في فلسطين، وكم من مرة ضيق على اليهود، فلم يجدوا لهم مخرجًا من ضيقهم إلا بالانضمام إلى أحد الطرفين في الصراع القائم بين الإمبراطوريات الكبرى - في مصر والعراق القديم - أو بأداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وكم من مرة اجتاح المصطرعون بلادهم، وكان من وراء التوراة، ومن وراء صراخ أصحاب المزامير والأنبياء، وعويلهم وطلبهم الغوث من ربِّ السماء، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذي تتهدده الأخطار، بين شقي الرحى، من فوقهم دول أرض الجزيرة، ومن تحتهم أرض النيل[2].

وأما عن جيرانهم المباشرين، فإن الإمارة الآرامية التي ظهرت في «دمشق» على أيام سليمان، سرعان ما أصبحت مركزًا لقوة جديدة بمدنها

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 23.

(٢) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٢١.

القديمة التى انضمت إليها سريعًا، وهكذا أصبحت دمشق عدواً صعب المراس بالنسبة لإسرائيل، بل وطالما فرضت نفوذها عليها، وأما «عمون» فقد ضاعت هيبة إسرائيل فيها، ولم يعد لملك إسرائيل الجديد أية رابطة من أى نوع كان مع مملكة عمون، والتى اعتبرها داود ذات مرة من أملاكه الخاصة، وإن كانت مملكة «أدوم» بقيت على صلة لفترة ما بمملكة يهوذا.

وأما مملكة إسرائيل نفسها، فقد غدت مسرحًا لكثير من الفتن، فشهد القرن الذى أعقب الانفصال أكثر من أربعة أسر (يربعام وبعشا وعمرى وياهو) تداولت الملك فيما بينها، وهكذا نجد المجتمع الإسرائيلى لا يخرج من دوامة إلا وتتلقفه أخرى، وتتحول إسرائيل إلى مسرح للانقلابات السياسية، فلا يكاد يتربع على عرشها ملك حتى يقتله آخر ويحل محله، معتقداً أو مدعيًا أنه يحرر الشعب، ويأخذ بيده إلى العزة والرفاهية، وبينما تسود هذه الأحوال فى داخل إسرائيل، إذا بجيرانها يهتبلون الفرصة وينتقصون من حدودها، فتستولى دمشق على الجليل وجلعاد، وهكذا أخذت إسرائيل تنكمش وتتضاءل بعد أن فقدت نصف مساحتها، وشرد نصف سكانها، وتحولت إلى مستعمرة صغيرة ممزقة الأوصال، تنتظر مصيرها المحتوم، ألا وهو الموت[1]، وقد كان ذلك فى عام ٧٢٢ق.م، على يد «سرجون الثانى» ملك أشور (٧٢٢-٧٠٥ق.م).

وأما «يهوذا» فقد غدت دويلة أهميتها السياسية ضئيلة، وعزلتها بين تلالها فى الجنوب، جعلتها ترقب تيارات الإمبراطوريات دون أن تتحرك، ولم تجد القوى الأجنبية أية صعوبة فى إقامة علاقات معها، وأما التجار الأجانب فقد تحولوا عنها بازدراء، وقد وجد النفوذ الأجنبى ـ سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الديانة ـ فرصة ليمتد إلى كل شئونها[2]، ثم ليقضى عليها

---

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 40.

آخر الأمر في عام ٥٨٧ق.م، على يد العاهل البابلي «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ق.م).

هذا، ولم يكن هناك وفاق بين الدويلتين (إسرائيل ويهوذا)، فقد كانت الواحدة منهما تريق دماء الأخرى في نزاع إثر نزاع، من أجل الحدود تارة، ومن أجل سيطرة الواحدة على الأخرى تارة أخرى، وهكذا منذ البداية، «وكانت حروب بين رحبعام ويربعام كل الأيام»، وقد ظلت الحروب مشتعلة الأوار بينهما، يرثها خلف عن سلف، وكانت حرب بين أسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامهما»[1]، ومن ثم فقد اضطرت يهوذا أن تقيم «قلعة المصفاة» على الطريق الاستراتيجي الرئيسي من أورشليم إلى الشمال، كما اضطرت كذلك إلى تحصين «جبع» - والتي تقع في نهاية حدودها الشمالية، وعلى مبعدة ٦ أميال شرقي أورشليم - وهكذا فقد «حملوا كل حجارة الرامة وأخشابها التي بناها بعشا، وبنى بها الملك أسا جبع بنيامين والمصفاة»، وكانت تلك هي الحدود النهائية بين الدويلتين اليهوديتين - إسرائيل ويهوذا -[2].

وقد كشفت بعثة أمريكية من «مدرسة الباسفيك للديانة» تحت إشراف «الدكتور وليم فردريك بيد» في الحفريات التي قامت بها فيما بين عامي ١٩٢٦، ١٩٣٥م في «تل النصبة» - على مبعدة سبعة أميال إلى الشمال من أورشليم - بقايا حصن الحدود القديم في «المصفاة»، وكان سمك الحائط ٢٦ قدمًا، ولعل هذا الحائط الدفاعي الهائل يرينا كيف كانت الحرب الأهلية التي استمر أوارها بين إسرائيل ويهوذا، قاسية مريرة[3].

(١) ملوك أول ١٤: ٣٠، ١٥: ١٦.

(٢) ملوك أول ١٥: ٢٢.

(٣) W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 224-225; J. Muilenburg, in Studia Theologica, 1955, p. 2-42; G.E. Wright, BA, Io, 1947, p. 69-77; J. Finegan, Light from the Ancient Past, 1969, p. 175.

وعلى أى حال، فإن هذه الحروب بين القبائل الشمالية والجنوبية لم تكن مقصورة على فترة دون أخرى ذلك لأننا نسمع دائمًا عن اقتتال إسرائيل ويهوذا بين الفينة والفينة، بل إن التوراة نفسها كثيراً ما تختم حديثها عن كل ملكين متعاصرين فى يهوذا وإسرائيل بهذه العبارة «وكانت بينهما حرب كل الأيام»، وصدق الله العظيم، حيث يقول فى سورة الحشر: ﴿بأسُهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى، ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون﴾[1]، والتاريخ يحدثنا أن نتيجة هذه الحروب إنما كانت دائمًا فى جانب قبائل الشمال، بل إن دخول ملوك أورشليم فى طاعة أهل الشمال - من الوجهة السياسية - إنما كان تاماً - أو يكاد - قرابة عام ٨٦٠ قبل الميلاد[2].

---

(١) سورة الحشر، آية : ١٤؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٦٥١٤-٦٥١٥، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠؛ تفسير ابن كثير ١٠٠/٨، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٣)؛ تفسير النسفى، ٢٤٣/٤؛ فى ظلال القرآن، ٣٥٢٨/٦-٣٥٢٩؛ صفوة التفاسير، ٣٥٤/٣؛ تفسير البحر المحيط، ٢٤٩/٨؛ تفسير البيضاوى، ٤٧٨/٣.

(٢) تيودور روبنسون، تاريخ العالم - إسرائيل فى ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، ص ١١٢.

الفصل الثانى

دويلـــة إســـرائيل

أولا - أسرة يربعام (٩٢٢-٩٠٠ق.م)

(أ) يربعام الأول (٩٢٢-٩٠١ق.م)

ويربعام هذا هو : ابن «ناباط» من زوجه «صروعة»، وهو أفرايمى من «صردة» - وتقع فى وادى الأردن وربما كانت «دير غسانة» على مقربة من عين صردة، على مبعدة ٢٤ كيلا إلى الجنوب الغربى من شكيم - وقد اكتشفه سليمان أثناء عمليات البناء فى هيكل وقصور أورشليم، ثم وثق فى إدارته لبيت يوسف[١].

غير أن الرجل - على ما يبدو - إنما كان فى موقف حرج، فقد تنازعه أمران، الواحد ولاؤه لسيده الملك، والآخر ولاؤه لعشيرته، ولكنه سرعان ما فضل ولاءه لعشيرته على ولائه للملك، ثم صاحب ذلك أمر آخر جد خطير، ذلك أن «أخيا الشيلونى» «قد تنبأ بأن يربعام سوف يخلف سليمان على عشرة أسباط من أسباط إسرائيل الاثنى عشر وسرعان ما اشتم سليمان رائحة النبوة فسعى إلى قتل يربعام، ولكن الأخير استطاع الهروب إلى مصر[٢]، والتى يبدو أنها كانت قد غيرت من سياستها نحو سليمان، أو على الأقل فإنها قد بدأت ترى أنه لا تعارض البتة بين صداقتها لسليمان ومصاهرته، وبين أن تكون فى نفس الوقت المأوى الذى يلجأ إليه أعداؤه، فضلا عن الثائرين عليه، وهكذا استقبل يربعام بترحاب من فرعون الذى أعطاه الأمان والحماية، وربما وعده بمساعدته على تحقيق نبوءة «أخيا

---

(١) ملوك أول ١١ : ٢٦-٢٨ ؛ قاموس الكتاب المقدس، ٥٤١/٢، ١٠٥٩.

(٢) ملوك أول ١١ : ٣١-٤٠.

الشيلونى» عندما تسنح الفرصة، ويعود إلى فلسطين[١].

وأيًا ما كان الأمر، فما أن ينتقل النبيُّ الكريم إلى جوار ربِّه ـ راضيًا مرضيًا عنه ـ حتى تقوم الفتن الهوجاء بين قبائل الشمال الجنوب وحتى يقرر الشماليون فى «اجتماع شكيم» المشهور، انفصال إسرائيل عن يهوذا، واختيار «يربعام» ملكًا على إسرائيل، وكما أشرنا من قبل، أننا لا ندرى شيئًا على وجه التحقيق، عن الدور الذى قام به «يربعام» من وراء ستار فى المفاوضات التى دارت بين «رحبعام» وشيوخ إسرائيل، كما أننا لا ندرى كذلك مدى استعانة يربعام بحلفائه المصريين ـ أو سادته على الأصح ـ فى تثبيت دعائم عرشه الجديد، بخاصة وأن هناك من يزعم أن الرجل إنما كان من أم مصرية ـ كما كانت زوجه كذلك ـ بل ويزعم كذلك أن الغزو المصرى ليهوذا، تحت قيادة «شيشنق الأول»، وسقوط أورشليم تحت أقدام الجيوش المصرية، إنما كان فى فترة سابقة لثورة إسرائيل على يهوذا[٢].

وعلى أى حال، فلقد اختير «يربعام» ملكًا على إسرائيل، بقرار من مجلس شكيم، الذى اجتمع لمبايعة «رحبعام» على شروطهم، فضلاعن اختيار سابق من «يهوه» ـ رب إسرائيل ـ على لسان نبيه «أخيا الشيلونى»، ثم اختيار «شكيم» ـ والتى يحتمل أنها تل بلاطه، شرقى نابلس الحالية ـ مقرًا للعرش الجديد ونقرأ فى التوراة «وبنى يربعام شكيم فى جبل أفرايم وسكن بها»[٣]، ولعل المقصود بذلك أنه نظمها كمدينة ملكية، فالمدينة أقدم من يربعام بآلاف السنين بل إن التوراة نفسها، إنما قد أشارت من قبل إلى قيام ملكية «أبيمالك» فيها على أيام القضاة[٤].

---

(١) يرى بعض الباحثين، دون أن يقدم دليلا صحيحًا أن «سيامون» كان ينوى غزو إسرائيل، لولا أن روع بقوة سليمان، الأمر الذى جعله يتساهل فيعطيه مساحات من أرض فلسطين.

(A. Malamat, JNES, 22, 1963, p. 16F)

(٢) H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, p. 436-7.

(٣) ملوك أول ١٢ : ٢٥.

(٤) قضاة ٩ : ٦، ٢٠-٢١؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 344; M. Noth, op.cit., p. 152.

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى ترك «يربعام» شكيم إلى مكان بعيد فى شرق الأردن، حيث اتخذ مقره فى يبوق العمق، فى «فنوئيل» - تلول الذهب الحالية، وإن كانت «حفائر نلسون جلوك» تثبت أن «تل الذهب الشرقى»، كان هو الموقع القديم لفنوئيل، وكان هذا التحول السريع من «شكيم» فى غرب الأردن إلى «فنوئيل» فى شرقه، يرجع دون شك إلى اضطراب الأمور فى إسرائيل، وقد حاول البعض أن يرى فيه تهديداً لشكيم من قبل «رحبعام» [١] بينما يرى آخرون أنه بسبب تهديد الجيوش المصرى لفلسطين، وإن كان هذا الاتجاه إنما يتعارض تماماً، وتعضيد مصر ليربعام، ومساندتها لثورته.

وعلى أى حال، فسرعان ما يدرك يربعام أن «فنوئيل» لا تصلح كعاصمة إسرائيل، فيعود مرة أخرى إلى غرب الأردن،ولكنه لا يعود إلى «شكيم» وإنما إلى موقع آخر من جبل أفرايم، حيث اتخذ من مدينة «ترزة» (ترصة) عاصمة له - وهى تل الفارعة الحالية، على مبعدة ١١ كيلاً شمال شرق شكيم - وقد استمرت «ترزة» هذه عاصمة لملوك إسرائيل، حتى السنة السادسة من حكم «عمرى» (٨٧٦-٨٦٩ق.م)[٢].

كانت أورشليم بتابوتها المقدسة ومعبدها الرئيسى تقع ضمن مملكة يهوذا، ومن ثم فقد استمر المعبد الملكى الرئيسى فى أورشليم (هيكل سليمان) يجذب إليه أبناء القبائل التى كانت تعيش فى مملكة إسرائيل، للحج إليه وتقديم القرابين هناك، على أساس أنه المحراب الرئيسى للقبائل الإسرائيلية، حتى وإن نبذت سلطة آل داود الملكية، وبدهى أن يربعام الأول هذا لم يكن ينظر إلى هذا الأمر بعين الرضا، لأن ذلك إنما يعنى أن هناك

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 374.

(٢) هـ.هـ. ورلى، أطلس الكتاب المقدس، ص ١٥، ٢٢، (مترجم، بيروت، ١٩٦٨)؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 843, 1102; H.C. Kee and L.E. Toombs, BA, 20, 1957, p. 82-10; J. Finegan, op.cit., p. 183-184; C. Ernest Wright, BA, 20, 1957, p. 1-32, BASOR, 148, 1957, p. 11-28.

رابطة غير مباشرة تربط القبائل الإسرائيلية بأسرة داود، وخشى يربعام أن «ترجع المملكة إلى بيت داود، إن صعد هذا الشعب، ليقربوا ذبائح فى بيت الربّ فى أورشليم، فيرجع قلب هذا الشعب إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلوننى»[1].

وهنا فكر يربعام فى وسيلة يحتفظ بها بولاء شعبه، وفى نفس الوقت يوجد نوعاً من التوازن الدينى بين مقدسات القبائل الشمالية، وبين هيكل سليمان الرائع، وهكذا هداه تفكيره إلى أن يعيد للمكانيين المقدسين القديمين مكانتهما، وكان الواحد منهما فى «بيت إيل» - وهى برج بيتين، على مقربة من بيتين الحالية، على مبعدة ١٦ كيلاً شمالى أورشليم - وكان الآخر فى «دان» - وهى تل القاضى الحالية، على مبعدة ٥ كيلاً أميال غربى بانياس، عند منابع الأردن فى أقصى شمال المملكة - وزود كل منها بـ «العجل الذهبى» ويبدو أن مدينة السامرة قد زودت فيما بعد بمحراب ملكى، وربما بعجل ذهبى كذلك، وعلى أى حال، فإن النبىّ «هوشع» قد ذكر عجل السامرة[2].

وهكذا عمل يربعام على تقويض الاحترام الذى كانت تتمتع به أورشليم فى أعين القوم عن طريق تحويل الحجيج إليها، وفى نفس الوقت ليحوز بعضاً من هذا الولاء الذى كانت تتمتع به العاصمة القومية[3]، ومع ذلك فإن مراكز العبادة الإسرائيلية كانت غير قادرة على منافسة تابوت أورشليم، ومكانته التقليدية الفريدة فى الحياة القبلية، حتى لو أمدها ملوك إسرائيل بكل المقومات اللازمة، وبكهنة يعينهم الملك، وبنظام من الاحتفالات كان تقليداً لمثيله المرعى فى أورشليم[4]، وإن كانت عجول

---

(١) ملوك أول ١٢ :٢٥-٢٧.

(٢) ملوك أول ١٢ : ٢٧-٣٣؛ هوشع ٨: ٥-٦؛ وكذا: M.Noth, op.cit., p. 232.

(٣) C. Roth, op.cit., p. 24-25.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 232.

يربعام الذهبية قد فتحت الطريق للنهضة المرتقبة لعبادة «البعل» بعد أن غابت عن البلاد منذ أيام صموئيل النبى[١].

وعلى أى حال، فلقد استمر يربعام فى إجراءات الانفصال عن يهوذا، فاختار كهانته من غير اللاويين، كما اعتنى عناية شديدة بالأماكن المقدسة المقامة على المرتفعات، مما دفع الكثير من اللاويين وغيرهم من المتدينين إلى مغادرة البلاد والهجرة إلى يهوذا، هذا فضلا عن التغيير الذى أحدثه فى «عيد المظال»، واحتفالات الحصاد الدينية من الشهر السابع إلى الشهر الثامن، وإن كان هناك من يرى أن هذا التغيير إنما قد حدث فى يهوذا ـ وليس فى إسرائيل ـ ذلك لأن عيد المظال إنما كان يتم بمجرد أن تجمع أخر ثمرة من محصول العام فى إسرائيل ويهوذا، على أيام الوحدة بينهما، وعندما تم الانفصال فقد كان من الطبيعى أن يعقد هذا الاحتفال فى يهوذا قبله فى إسرائيل، لأن الثمار إنما تنضج فى يهوذا قبل أن تنضج فى إسرائيل، أى فى الجنوب قبل الشمال[٢].

وأيا ما كان الأمر، فإن يربعام كان ـ على ما يبدو ـ قويا للدرجة التى مكنته من أن يقبض على زمام الأمور فى إسرائيل على مدى اثنين وعشرين عاماً، وإن كان يبدو كذلك أن البلاد قد تعرضت فى أخريات أيامه لفترة من القلق وعدم الاستقرار.

(٢) ناداب (٩٠١-٩٠٠ق.م):

جلس «ناداب» على عرش إسرائيل بعد أبيه يربعام الأول، ولم يستمر حكمه أكثر من عامين، فى أيام حكم «أسا» (٩١٣-٨٧٣ق.م) فى يهوذا، ثم قتل فى «جبثون»، وتعرف اليوم بتل الملات على مبعدة كيلين جنوب

---

(١) I. Epstien, op.cit., p. 38.

(٢) ملوك أول ١٢ : ٣١-٣٣؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 416.

تمنة، وشرق عقرون مباشرة - فى منطقة دان، وتصفه التوراة بأنه قد عمل الشر وأخطأ إلى الله مثل أبيه[1].

ثانياً - أسرة بعشا (٩٠٠-٨٧٦ق.م):

(١) بعشا (٩٠٠-٨٧٧ق.م): استطاع «بعشا بن أخيا»، من سبط يساكر أن يجلس على عرش إسرائيل، فى ترصة أربعاً وعشرين سنة»، بعد أن نجح فى اغتيال «ناداب» - ثانى ملوك أسرة يربعام - أثناء حصاره للفلسطينيين الذين انتهزوا فرصة الانشقاق بين الإسرائيليين، وهاجموهم فى «جبثون» فى منطقة دان، غربى أورشليم، ثم نجح «بعشا» (أى يهل شمس، بمعنى الشمس بعل أو الشمس رب) بعد ذلك فى أن يبيد من بقى من نسل يربعام على قيد الحياة، تصديقاً لنبوءة «أخيا الشيلونى»[2]، وأن يقوم من عاصمته «ترزه» بمهاجمة «أسا» ملك يهوذا فى «الرامة»، وطبقاً لرواية التوراة، فإن الملك الإسرائيلى بعشا، قد نجح فى احتلال مدينة الرامة[3] - والتى تقع فى وسط منطقة بنيامين على الطريق الرئيسى المودى إلى أورشليم، وعلى مبعدة ٨ كيلاً إلى الشمال منها - وأن يجعل منها حصناً إسرائيلياً منيعاً.

ويضطر «آسا» ملك يهوذا إلى أن يقدم البقية الباقية فى خزائن الكهنوت بمعبد أورشليم لملك دمشق «بن هدد»، ليقوم بمهاجمة إسرائيل من الشمال، وقد أجابه الملك الآرامى إلى رغبته، فهاجم إسرائيل، «وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كنروت مع كل أرض نفتالى»[4]، وكان التجار الدمشقيون يرغبون فى هذه المناطق الشمالية من إسرائيل لتأمين

---

(١) ملوك أول ١٤: ١٠-١٢، ١٥: ٢٥؛ قاموس الكتاب المقدس، ٩٤٦/٢.

(٢) ملوك أول ١٥: ٢٧-٣١؛ قاموس الكتاب المقدس ١٨١/١.

(٣) ملوك أول ١٥: ١٧-٢٠.

(٤) ملوك أول ١٥: ٢٠.

اتصالاتهم مع المدن الساحلية[١] ويضطر «بعشا» إلى الانسحاب من الجنوب للدفاع عن جبهته الشمالية، وينتهز «أسا» الفرصة، ويحتل الرامة ويحصن المصفاة، ويشيد حصناً جديداً في «جبع» - على مبعدة ٥ كيلاً إلى الشرق من الرامة - والتي أصبحت منذ الآن حداً ثابتًا بين المملكتين، ذلك لأننا نعرف أنه في أثناء حكم الملك «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٩٠ق.م) أن «جبع» مازال - على ما يبدو - مدينة الحدود الشمالية ليهوذا، حيث نقرأ في التوراة : «من جبع إلى بئر سبع»؛ وعلى أي حال، فإن العلاقات بين إسرائيل ويهوذا سرعان ما تتغير بوضع حد للنزاع على الحدود حيث تصبح التلال في منطقة الطريق الرئيسي، الذي يسير متوازياً مع خط تقسيم المياه، وتحتفظ يهوذا بجزء هام من منطقة بنيامين، لحماية المدينة الملكية أورشليم[٢].

(٢) أيلة (٨٧٧-٨٧٦ق.م)

يخلف «أيلة» أباه «بعشا» كملك على إسرائيل - أو أفرايم كما يقال أحيانًا - ولمدة عامين، ثم تنتهي الأسرة بنفس الطريقة التي انتهت بها أسرة يربعام - وهي نفس الطريقة التي قام بها حكم هذه الأسرة، وستقوم بها غيرها من بيوت ملوك إسرائيل - فيغتاله «زمري» أحد قواده الصغار، «وهو يشرب ويسكر في بيت أرصا الذي على البيت في ترصه»، وينتهي الأمر - كالعادة - بقتل جميع أفراد العائلة المالكة، حتى لم يبق منها - على حد تعبير التوراة - «بائلا بحائط» وكالعادة كذلك عند بني إسرائيل، فإن ذلك إنما كان تصديقًا لنبوءة نبيّ - هو «ياهو» هذه المرة - وإن كانت خيانة «زمري» هذه المرة قد أصبحت مضغة في الأفواه[٣]، لسبب لا ندريه على وجه التحقيق.

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 376.

(٢) ملوك ثان ٢٣ : ٨؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 235-236.

(٣) ملوك أول ١٦ : ٨-١٤؛ ملوك ثان ٩ : ٣١؛ وكذا: S.A. Cook, CAH, III, 1965, p. 360.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد مضت سبعة أيام - إن لم تكن سبع سنين، طبقًا للترجمة السبعينية - وقام الجيش الذى كان فى ذلك الوقت يحاصر «جيثون» الفلسطينية، وأعلن «عمرى» ملكًا لإسرائيل[١].

ثالثًا - أسرة عمرى (٨٧٦-٨٤٣ق.م):

(١) عمرى (٨٧٦-٨٦٩):

أسرع عمرى - بعد أن أعلنه الجيش ملكًا فى جيثون - إلى «ترزة» وحاصرها، وسرعان ما أصبح الموقف ميئوسًا منه بالنسبة إلى «زمرى»، ومن ثم فقد أشعل النار فى القصر، وأحرق نفسه داخل قلعته، وكان عمرى يظن أن الجو قد خلا له، غير أن «تبنى» و«يورام» ولدا «جينة»، ومن ورائهما نصف إسرائيل، قد اتخذوا جميعًا موقفًا معارضًا من تعيين «عمرى» ملكًا على إسرائيل، وأخيرًا - وبعد صراع دام أربعة أعوام - أحرز عمرى انتصاره التام، ومن ثم فقد أصبح مؤسسًا لأسرة حكمت إسرائيل فترة تجاوزت الثلاثين عامًا، كما أن إسرائيل قد عرفت فى الوثائق الآشورية «بأرض عمرى» أو «أرض بيت عمرى»، وحتى بعد سقوط أسرته، فقد كان ملك إسرائيل بالنسبة إليهم هو «ابن عمرى»، وربما يعزى هذا بدرجة ما إلى أن الإسرائيليين قد اتصلوا، لأول مرة، بآشور أثناء عهد أسرة عمرى - وربما أثناء عهد عمرى نفسه - ولعله هو نفسه الملك الإسرائيلى الذى أرسل بهداياه إلى «أشور ناصر بال» الثانى (٨٨٣-٨٥٩ق.م)، عندما تقدم هذا الأخير حتى نهر الكلب، على مقربة من بيروت[٢].

وفى الواقع أننا لا انعرف شيئًا عن أسرة عمرى قبل توليته العرش، وهو أمر لا يمكن أن يكون مجرد صدفة، هذا إلى أن اسمه - وكذا اسم ولده أخاب - لا يبدو أنه إسرائيلى، وربما كان اسم عمرى ذا أصول عربية، كما

---

(١) ملوك أول ١٦: ١٥-١٧.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 377.

يمكن تفسير اسم أخاب على أنه تسمية عربية كذلك[1]، فضلا عن أسماء زمرى وعمرى، لها أسماء عربية مماثلة[2]، ومن هنا فربما كان اسم عمرى، يدل على أصل عربى أو بالأحرى نبطى[3]، وإن ذهب البعض إلى أنه اسم عبرى، بمعنى «مفلح»[4]، وعلى أى حال، فإن عمرى كقائد «للمليشيا» لابد وأنه قد ظهر من بين صفوف المرتزقة، والتى كانت دائمًا تتكون من عناصر مختلفة الأصول كلية[5].

هذا وقد استمر «عمرى» يحكم إسرائيل من «ترزة»، ولكنه فى عامه السادس اشترى تلا فى قلب الهضبة السامرية ممن يدعى «شامر» بوزنتين من الفضة، وأقام عليه عاصمة إسرائيل الجديدة - ولمدة قرن ونصف بعد ذلك - وسماها «السامرة» - وهى سبسطية الحالية على مبعدة ١٠ كيلاً إلى الشمال الغربى من شكيم - نسبة إلى «شامر» صاحب التل القديم[6] وإن كان هناك من يرى أن الاسم يعنى «مركز المراقبة»[7] أو «جبل المراقبة أو الحراسة»[8].

وقد قامت عدة هيئات علمية بحفريات فى السامرة، لعل أهمها ما كان فى أعوام ١٩٠٨-١٩١٠[9]، ١٩٣١/١٩٣٣، ١٩٣٥م[10]، أثبتت أن موقع المدينة إنما قد كشف عن خبرة من اختاره بالاعتبارات

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 230. (٢) S.A. Cook, op.cit., p. 361.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٩. (٤) قاموس الكتاب المقدس، ٦٣٨/٢.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 230.

(٦) ملوك أول ١٦: ٢٣-٢٤؛ قاموس الكتاب المقدس ٤٤٨/١-٤٤٩.

(٧) A. Lods, op.cit., p. 378.

(٨) J. Finegan, op.cit., p. 185.

وكذا: جون إلدر، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٩) G. A. Reisner, C.S. Fisher and D.G. Zyon, Harvard Excavations at samaria, 1908-1910, 2 Vols., 1924.

(١٠) W.F. Albright, BASOR, 150, 1958, p. 21-25; J.W. Crowfrot, K.M. Kenyon and E.L. Snkenik, The Buildings at Samaria, 1942.

الاستراتيجية، فالسامرة تقع على تل منعزل يقرب ارتفاعه من ٢٠٠ قدم، ويرتفع تدريجيًا من واد متسع خصب، وتحيط به شبه دائرة من الجبال العالية، كما أن هناك ينبوعًا محليًا يجعل المكان مثاليًا فى حالة الدفاع[١].

هذا فضلا عن أن «عمرى» إنما كان يهدف إلى أن يقيم مقرًا ملكيًا فى مدينة ليست على مثال «شكيم» مرتبطة بقبيلته خاصة، وليست تحت رحمة هجوم مفاجئ، كما كان الأمر بالنسبة إلى «ترزة»، التى استولى عليها فى أقل من أسبوع[٢]، أضف إلى ذلك أن «السامرة» إنما كانت تقع على الطريق الرئيسى من الشمال إلى الجنوب، وفى حماية من أى هجوم يقع عليها من ناحية يهوذا، وعلى اتصال بسهل فينيقيا فى وقت كان فيه عمرى راغبًا فى إقامة علاقات مع مدن فينيقيا، وأقوى الأدلة على ذلك زواج ولده «أخاب» من الأميرة الصورية «إيزابيل»، والأمر كذلك بالنسبة إلى الغرب، حيث تقع أغنى أراضى مملكته، وهكذا كانت السامرة مصدر قوة، أكثر مما كانت عليه «ترزه» بكثير، وأخيرًا فقد كانت السامرة - مثلها فى ذلك مثل أورشليم - تتحكم فى الطريق الرئيسى، من الشمال إلى الجنوب على امتداد خط تقسيم المياه، كما أن هناك ممرات صالحة بدرجة مقبولة تؤدى إلى الأردن من ناحية الشرق، وأخرى تؤدى إلى الساحل والبحر الأبيض المتوسط من ناحية الغرب[٣].

وقد تم تخطيط قمة التل على أن تكون الحى الملكى، وهى سنة جديدة فى تخطيط المدن الفلسطينية، وجد لها مثيل دون شك فى تخطيط أورشليم على أيام سليمان، إلا أن الدليل الأول والمؤكد على ذلك، إنما قد جاء إلينا من السامرة، ويبدو أن الحى الملكى فى مدينة عمرى هذه إنما

---

(١) W. Keller, op.cit., p. 227.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 378.

(٣) K. M. Kenyon, op.cit., p. 261-271; G. E. Wrigh, Samaria, BA, 27, 1959, p. 67-68; J. Finegan, op.cit., p. 185.

كانت منطقة يمكن الدفاع عنها، ذلك لأنها إنما قد أحيطت في المرحلة الثانية - على الأقل - بسور قوى كما أن تخطيط الحى لا يجعل منه مركزاً لتجمعات مدينة بقدر ما يجعل منه منطقة ملكية مقصورة على الملك وحاشيته[1].

وأما في السياسة الخارجية، فقد كتب لعمرى نجحًا بعيد المدى تجاه «مؤاب» غير أنه إنما قد منى بفشل ذريع تجاه الآراميين في دمشق، فلقد أصبحت الآن مملكة دمشق الآرامية أقوى القوى الموجودة في سورية وفلسطين على الإطلاق، كما أنها أصبحت تحيط بإسرائيل من الشمال والشرق على السواء، فقد كانت تجاورها على الحدود شمال شرق «عجلون» - وتقع في مكان خربة عجلان الحالية إلى الشمال من تل الـ- ، بميلين، وعلى مقربة من إربد في الأردن - والحدود الشرقية لوادى الأردن الأعلى، كما أنها أصبحت تتحكم في البقاع الغنية بالمعادن، وعلى أى حال، فلقد انتهت الأمور بين عمرى والآراميين، بأن اضطر عمرى مرغمًا على أن يتنازل عن مدن كثيرة في شرق الأردن غالبًا، وأن يخصص أحياء معينة في السامرة للتجار الآراميين، كما أن ضغط الآراميين هذا من أهم الأسباب التي دفعت عمرى إلى أن يرتمى في أحضان الفينقيين[2].

وأما من الناحية الإدارية فلقد أوجد عمرى - وربما ولده أخاب - أقسامًا إدارية جديدة، ذلك لأن سياسة «بيت عمرى» إنما كانت تهدف - كما فعل سليمان من قبل - إلى القضاء على النظام القبلى، وتقوية النفوذ المركزى للسلطة الحاكمة[3].

---

(١) K.M. Kenyon, op.cit., p. 263.

(٢) ملوك أول ٢٠: ١٤-١٥، ٣٤؛ قاموس الكتاب المقدس ٦٠٧/٢، وكذا:

A. Lods. op.cit., p. 377-378.

(٣) Ibid., p. 378.

(٣) أخاب (٨٦٩-٨٥٠ق.م):

خلف «أخاب» أبا عمرى على عرش السامرة بعد وفاته فى عام ٨٦٩ ق.م، ولعل من اللافت للنظر أن التوراة إنما تتحدث عن أخاب هذا، أكثر مما تتحدث عن أى واحد آخر من أسلافه منذ أيام سليمان[١]، مما يشير إلى أهمية الرجل، غير أن أكثر عناصر هذا الحديث - فيما يبدو - إنما أتى من التاريخ الشعبى لبيت عمرى وسقوطه، ورغم أنه مصدر ذو قيمة تاريخية، إلا أنه يميل كثيراً إلى الخلط بين المادة التاريخية والأسطورة، ومن ناحية أخرى، فيجب أن نكون على حذر من سيرة «إيليا» و«إليشع»[٢] بالرغم من قيمتها فى تاريخ الدين، فربما نعتبرها من الأجزاء الرائعة فى العهد القديم (التوراة)، ولكنها مع ذلك شعر قصصى، وليس تاريخيا[٣].

وعلى أى حال، فلقد كان «أخاب» يدرك تماماً أن موطن الخطر على دولته إنما يربض هناك فى دمشق، بخاصة وأن أورشليم إنما قد أصبحت الآن طرفًا فى الصراع بجانب دمشق، وضد إسرائيل، ومن هنا فقد عقد العزم على إقامة روابط وثيقة مع مدن الساحل الفينيقى، التى كانت قد بدأت فى هذه الفترة فى الشروع فى استعمار ناجح فى منطقة البحر الأبيض المتوسط[٤]، وهكذا اتجه «أخاب» نحو «إيشبعل» ملك صور، الذى مكنه من أن يمنع أعداءه من الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق فينيقيا، وساعد على ذلك أن الصوريين من جانبهم قد وجدوا لهذا التحالف مع الإسرائيليين مزايا فائقة، هم فى حاجة إلى قمح ومنتجات شمال فلسطين الأخرى، فضلا عن أنه سوف يمنع منافسيهم من التجار الآراميين من

---

(١) ملوك أول ١٦: ٢٨، ٢٢: ٤٠.

(٢) ملوك أول ١٧-١٩، ٢١.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 378.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 241, W.F. Albright, in Studies in the History of Culture, 1942, p. 40F.

الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق «عكو» (عكا) عبر المنطقة الإسرائيلية[١].

وفي نفس هذا الاتجاه السياسي، اتخذ «أخاب» كذلك عدة خطوات لتحرير مملكته من القلق الذي يعترى حدوده الجنوبية مع يهوذا، وتحقيقاً لهذا الهدف الواضح، فإن الرجل إنما جاهد كثيراً لأن يضع حداً للكوارث والضغائن العقيمة مع حكام أورشليم، وهكذا ـ وبتحالف مازالت بنوده مجهولة ـ تم الصلح بين «أخاب» و«ويهو شافط» ملك أورشليم (٨٧٣-٨٤٩ق.م)، وإن كان ملحق التحالف يقضى بأن تتعهد يهوذا بمساعدة إسرائيل بكل ما تستطيع من قوة في حالة نشوب حرب ما، وهكذا أصبحت المملكة الجنوبية هي الأضعف، ثم سرعان ما قويت روابط هذا الحلف بزواج «يهورام» بن «يهو شافط» ملك يهوذا، من «عثليا» ابنة أخاب وإيزابيل ابنة إيشبعل أمير صور، وربما أقيم في هذه المناسبة معبد «للبعل» في أورشليم، وهو إله ملك صور، العضو الثالث في الحلف[٢].

وبدأ الصراع بين أخاب والآراميين، وإن لم يكن من السهل علينا ترتيب الأحداث الحربية، أو تتبع خطى العلاقات الخارجية، فإننا نستطيع أن تستنتج من رواية التوراة في سفر الملوك الأول أن ملك دمشق استطاع أن يحاصر أخاب في السامرة، إلا أن الأخير تمكن من التغلب على الآراميين، بل وانتصر عليهم مما كان سبباً في عقد معاهدة بين الملكين الإسرائيلي والآرامي، أصبح لأخاب بمقتضاها الحق في استرجاع المدن التي كانت دمشق قد استولت عليها من إسرائيل في عهد سلفه، كما أصبح له الحق في أن يكون له سوق في دمشق، كما كان لملك دمشق سوق في السامرة أثناء حكم عمرى، وفي العام التالي هزم أخاب الآراميين مرة أخرى في معركة مريرة عند «أفيق»[٣].

(١) A. Lods, op.cit., p. 379-80.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 380.

(٣) ملوك أول ٢٠: ١-٤٣.

ورغم ذلك، فيبدو أن إسرائيل قد لاقت الأمرين من الهزائم التي منيت بها على أيدى الآراميين، وهكذا نقرأ في التوراة عن المحاولة العقيمة التي قام بها أخاب لاسترداد «راموت جلعاد» التي احتلها الآراميون، وعن الهزائم الساحقة فيها[١]، والأمر كذلك بالنسبة إلى تلك الغارات المفاجئة التي كان يقوم بها الآراميون على إسرائيل، حتى أن السامرة نفسها قد حوصرت[٢].

ومع ذلك، فقد استطاع «أخاب» أن يصون حدود إسرائيل الشمالية، وأن يشترك في حلف ضد الآشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق، ذلك لأن الآشوريين إنما كانوا قد بدأوا في القرن التاسع قبل الميلاد يظهرون من جديد على مسرح الأحداث في غربي آسيا، ولأول مرة، منذ عهد «تجلات بلاسر الأول» (١١١٢-١٠٧٦ق.م) يصل ملك أشورى إلى البحر الأبيض المتوسط، وذلك حين اندفع «أشور ناصر بال الثاني» (٨٨٣-٨٥٩ق.م) إلى شمال سورية، ووصل إلى الساحل الفينيقي وتلقى الجزية من عدد من المدن الفينيقية ويقول الملك الآشورى: «لقد استوليت على كل جبال لبنان المترامية الأطراف ووصلت إلى البحر الكبير في بلاد «أمورو» وغسلت أسلحتي في البحر العظيم، وقدمت قرابيني من الماشية للآلهة جميعا»[٣].

ولكن العاهل الأشورى لم يستطع - رغم ذلك - أن يقترب من دمشق والولايات الجنوبية، وقد جاهد - ومن بعده خليفته شلمنصر الثالث - أن يكسر شوكة الممالك الآرامية، ولكن دمشق - تحت قيادة بن حدد - قد وقفت تمنع تقدمهم نحو الجنوب[٤]، وأخيراً وفي عام ٨٥٣ق.م، يتقدم «شلمنصر الثالث» (٨٥٩-٨٢٤ق.م) إلى وسط وجنوب سورية، ولم تكن الولايات الصغيرة في سورية وفلسطين حينئذ بقادرة على أن تقف أمام هذا

---

(١) ملوك أول ٢٢: ٢-٣٨. (٢) ملوك ثان ٦: ٨-٣٣.

(٣) محمد بيومى مهران، تاريخ العراق القديم، ص ٣٦٩-٣٧٠، (الإسكندرية ١٩٩٠)؛ وكذا:

A. L. Oppenheim, ANET, 1966, p. 276.

(٤) S.A. Cook, CAH, IV, 1965, p. 362.

الخطر الداهم طويلا، وكل ما كان فى قدرتها أن تقوم به هو أن توحد قواتها ضد الخطر المشترك، وفى الواقع فإن حكام الولايات جميعاً سرعان ما تناسوا خلافاتهم الشخصية واتحدوا من أجل الدفاع عن أنفسهم، وهنا يدرك الإسرائيليون والآراميون أن الخلاف بينهم، إذا ما قورن بمقاومة الغزو الآشورى، فلن يعدو أن يكون خلافًا على الحدود وإن عادت الخلافات مرة أخرى، بمجرد انسحاب شلمنصر الثالث[1].

وعلى أى حال، فلقد تجرأ شلمنصر الثالث وهاجم دمشق، والتى لم تكن صيداً سهلا، على الرغم من طول منافستها مع جيرانها من الآراميين، والبدو والعبرانيين، فعزمت على الوقوف فى وجه جبروت الآشوريين[2]، ومن ثم فقد عملت على تكوين تحالف قوى، انضم إليه أمير ولاية «موصرى» فى الشمال الغربى من بلاد العرب، فضلا عن أمير عربى آخر يدعى «جندب» (جنديبو) شارك فى المعركة القادمة بمدد محمول على ألف بعير، إلى جانب ما شارك به أمراء عمون وحماة وارقنانا وأرواد وإسرائيل وغيرهم[3].

وهكذا، وفى صيف عام ٨٥٣ق.م، تجمع فى قرقر (قرقار) حلف من الملوك السوريين والعرب، يضم اثنى عشر ملكًا، على رأسهم «بن حدد» ملك دمشق، حيث حدثت الموقعة الشهيرة، ورغم تفاخر شلمنصر بالنصر فى موقعة قرقر هذه، فإن الحقائق التاريخية تقول أن نصره لم يكن حاسماً، ولم يؤد أبداً إلى استسلام دمشق وإسرائيل[4].

(١) M. Noth, op.cit., p. 245-246.

(٢) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٥١٥، (القاهرة ١٩٦٧).

(٣) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم ، ٥/٢٥٩-٢٦٠؛ وكذا: محمد بيومى مهران، تاريخ العراق القديم، ص ٣٧٣-٣٧٤؛ وكذا:

ANET, p. 278; S.A. Cook, op.cit., p. 263.

(٤) J. Montogomery, op.cit., p. 27; J. Finegan, op.cit., p. 24; A.L. Oppenheim, ANET, p. 279; Daniel David Luckenbill, Ancient Records of Assyria and

=

ومن عجب أن شيئًا من ذلك لم يرد له ذكر فى التوراة، وعلى أى حال، فإن كان زمان ذلك يقع قبل هزيمة «بن حدد» فى «أفيق» ، فإن هذا يعنى أن «أخاب» إنما كان تابعًا لأمير دمشق فى «قرقر» ، وأما إن كان ما يشار إليه قد تم فى المرحلة ما بين موقعتى أفيق وراموت جلعات ـ وهو الأرجح ـ فإن إخاب إنما يكون قد انضم إلى ولايات سورية أخرى ضد الآشوريين، حين أدرك أنهم خطر عام مشترك[١].

وعلى أى حال، فإن المسلة السوداء ـ والتى اكتشفت فى قصر شلمنصر فى مدينة نمرود عام ١٨٤٦م، وموجودة الآن بالمتحف البريطانى[٢] ـ تمثل على وجهها الثانى من أعلى حاملى الجزية الإسرائيليين وموظفيهم، فى ملابس مشغولة ذات أكمام قصيرة، وعمامة تشبه غطاء الرأس، والشكل العام يبعدهم عن أن يكونوا «حيثيين قحًا» وتشهد للتأثير القوى للحيثيين الآراميين، حيث يمثل نصب «شيشنق» شكلا آخر، ينظر إليه كأمورى[٣].

ونقرأ فى التوراة عن «بيت العاج» ، الذى بناه أخاب[٤] ، غير أن البعض إنما يتشكك كثيرًا فى ذلك، وعلى أى حال، فإن «أخاب» لم يبن هذا القصر كله، وإن كان له فيه بعض حجرات قد ملئت بأثاث قد حلى بالعاج[٥] ، وترى الأثارية «مس كاثلين كنيون» أن معظم اللوحات المصورة مصرية فى موضوعها وفى طريقة معالجتها الأساسية، وإن لم تكن واحدة منها مصرية صرفة، وإنما هى أعمال لرجال شاهدوا الأصول المصرية وقلدوها بأسلوبهم الوطنى[٦] ، وقد نقشت على ألواح العاج صور عديدة كزهور

=

Bablonia I, Chicago, 1926, No. 611; James B. Pritchard, The Ancient Near East Princeton, 1950, p. 188.

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣/٤١٠.

(٢) C. J. Gadd, The Stones of SAssyria, 1930, p. 48; A. H. Layard, Nineveh and its Remains, 1849, I, p. 181; S.A. Cook, op.cit., p. 363.

(٣) J. Finegan, op.cit., p. 264-265.

(٤) ملوك أول ٢٢ : ٣٩.

(٥) W. Keller, op.cit., p. 228-229.

(٦) K.M. Kenyon, op.cit., p. 267.

اللوتس والزنبق وأوراق البردى، وصور الحيوانات كالأسود والثيران والغزلان، وصور لآلهة أشورية مجنحة وصور لأبى الهول وبعض الآلهة المصرية، مما يدل بوضوح على تأثير مصر القوى على إسرائيل فى تلك الفترة، ولعل من أجل الصور، ذلك النقش الذى يمثل الإله «حور»، وهو يجلس على زهرة من زهور اللوتس[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الأثاث العاجى لم يكن فى تلك الفترة من تاريخ الشرق الأدنى القديم، وحوض البحر الأبيض المتوسط، مقصوراً على أخاب وحده، فقد اكتشفت بعثة فرنسية فى عام ١٩٢٨م، بقايا سرير من العاج فى شمال سورية بمنطقة «أرسلان تاش» شرق قرقميش، تحمل اسم «حزائيل» ملك دمشق، الذى اعتلى العرش فى عام ٨٤٢ق.م، كما اكتشف «سير أوستن ليارد» (١٨١٧-١٨٩٤م) فى عام ١٨٤٩م، أشياء مشابهة لها، وتنتمى إلى نفس العصر، فى قصر «نمرود» (كالح فى التوراة) بآشور، وكان هذا القصر قد جدده «سرجون الثانى» وينتمى معظم ما به إلى هذا العصر، وعاجياته غير آشورية فى أسلوبها ولابد أن معظمها قد أتى من نفس المكان، الذى أتت منه مثيلاتها التى فى «السامرة» وأنها ربما كانت قد نهبت أو دفعت كجزية للعاهل الآشورية «سرجون الثانى» عند استيلائه على السامرة فى عام ٧٢٢ق.م هذا وقد اكتشف Mallowan، حديثاً مجموعات ضخمة من العاجيات فى نفس قصر نمرود، تنتمى إلى نفس مجموعات عاج السامرة[٢].

هذا وقد وجدت «جذاذات» فى كريت، وفى أنحاء مختلفة من شرق البحر الأبيض المتوسط، بينما قد كشف عن عدد كبير منذ أكثر من نصف قرن فى «قرمونة» فى جنوب غربى أسبانيا، وبالرغم من أنه لم يوجد فى

---

(١) جون إلدر، المرجع السابق، ص ٨٨.

(٢) K. M. Kenyon, op.cit., p. 268.

الواقع أية نماذج فى فينيقية نفسها، إلا أنه مما لا شك فيه أن أغلبها قد جاء من «ورش» فينيقية، أما النماذج الآشورية فقد جاء أغلبها من دمشق وشمال سورية، وكان التأثير المصرى غالبًا، وأما عاجيات السامرة فتنتمى إلى مجموعتين، يمكن تأريخهما فى الوقت الحالى من القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد، على التوالى، وإن كان بعض الأدلة تشير إلى أنها من عصر واحد، والوحدات الزخرفية اقتباس مصرى بحت(١).

وتقدم التوراة لنا صورة قاتمة لآخاب، فهى تشير إلى أنه قد اقترف كل أنواع الشرور، التى اقترفها أسلافه من قبل، ولعل السبب فى ذلك أن «أخاب» قد تزوج من «إيزابيل» ابنة «إيشبعل» ملك صور، والتى كانت ذات شخصية قوية، ومن ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها تمامًا، ولقد أثار هذا الزواج معارضة قوية فى إسرائيل نفسها، تزعمها النبىُّ «إيليا»، ذلك لأن «إيزابيل» لم تأت فى الواقع لإسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغريبة عن التصور العبرى التقليدى عن الملكية فحسب(٢)، وإنما حاولت كذلك إحلال آلهة الفينيقيين شيئًا فشيئًا محل عبادة الله فى مملكة إسرائيل(٣)، وليس هناك من ريب فى أن إيزابيل وحاشيتها الصورية كانوا يمارسون دياناتهم الصورية فى معبد أنشئ فى السامرة نفسها من أجل هذا الغرض(٤) - كما كان الأمر حين بنى سليمان، كما تقول التوراة، محاريب لعبادة زوجاته الأجنبيات على جبل الزيتون فى شرقى أورشليم(٥).

وعلى أى حال، فلم تكن هذه الديانات هى طقوس الدولة الرسمية، ذلك لأن «يهوه»، إنما بقى بالتأكيد ربَّ إسرائيل بالنسبة لأخاب ومملكة

---

(١) W.F. Albright, The Archacology of Palestine, p. 136-137.

وانظر: الترجمة العربية، ص ١٢٤-١٣٥.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 25.

(٣) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٧٤.

(٤) ملوك أول ١٦ : ٣٠-٣٤.

(٥) ملوك ثان ٢٣ : ١٣.

إسرائيل، وأن الملك نفسه - فيما تروى التوراة - «قد عبد البعل وسجد له»[1]، إلا أن وجود هذه الديانة الأجنبية وعبادتها فى السامرة، إنما قد أثار مقاومة التقاليد القديمة الصارمة للقبائل الإسرائيلية، التى كانت خدمة «يهوه» هو هدفهاالنهائي[2]، وقد تزعم «إيليا» النبىّ الثورة ضد أخاب وزوجه إيزابيل اللذين جهدا لإلغاء عبادة «يهوه» وإحلال عبادة «البعل» فى مكانها، فهدما مذابح ربّ إسرائيل وقتلا أنبياءه، فاندفع إيليا فى طول البلاد وعرضها كالإعصار مهدداً متوعداً، بأنه لا طل ولا مطر فى هذه السنين، وفى السنة الثالثة يقول الربُّ لإيليا: «اذهب وتراءى لأخاب فأعطى مطراً على وجه الأرض»[3].

ومع أن المجاعة كانت شديدة فى كل مكان، إلا أنها كانت فى السامرة أشد قسوة وأعنف ضراوة، وأخيراً يطلب إيليا من أخاب أن يدعو كل إسرائيل إلى «جبل الكرمل»، حيث يتلقى هناك بأنبياء البعل وعددهم ٤٥٠ نبياً - وكذا أنبياء السوارى الذين يأكلون على مائدة إيزابيل وعددهم ٤٠٠ نبياً - وأصدر أخاب أمره الملكى باستدعاء «جميع بنى إسرائيل وجميع الأنبياء إلى الكرمل»، ويعقد إيليا مباراة بينه وبين أنبياء البعل، تنتهى بغلبة «يهوه» على «البعل»، وهنا يأمر إيليا النبىٌّ قومه أن «امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل، فأمسكوهم، فنزل بهم إيليا إلى نهر «قيشون»[4] وذبحهم» وتسمع

---

(١) ملوك أول ١٦: ٣١.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 241-242.

(٣) ملوك أول ١٧: ١-١٨: ١، ١٩، ٢١؛ إنجيل لوقا ٤: ١٥؛ رسالة يعقوب ٥: ١٧.

(٤) نهر قيشون: ويسميه العرب «نهر المقطع»، ويجرى فى وسط سهل مرج ابن عامر، بمجرى ملتو ومعرج، متجهاً إلى الشمال الغربى، فيدخل سهل عكا ويصب بقرب حيفا فى جهة الشمال، وأما مياهه فتأتى من جبل طابور وتلال الناصرة وجبل حرمون الصغير، وجلبوع، وأكثر مياهه من جهة الجنوب، وأما مياه عيونه السعادية، التى تنبع من سفح جبل الكرمل الشمالى عند طرف سهل عكا، فتلتقى بقيشون على مبعدة ثلاثة أميال من شرقى حيفا. (قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٣/٢-٧٥٤).

إيزابيل بما حدث، وفي غضب مرير تنذر قتل إيليا، انتقاماً منه لقتله كهنة البعل، وفي يأس قاتل يهرب إيليا إلى «حوريب»[١]، ثم يعهد إلى حواريه «اليشع» ليمسح - باسم يهوه - حزائيل ملك دمشق[٢]، رغم أنه ليس إسرائيلياً، ولم يكن عابداً، «ليهوه»، ذلك لأن ربَّ إسرائيل - فيما يرى أبشتين - أراد أن يجعله صوت عذاب على شعبه إسرائيل، الآثم الشرير[٣].

هذا ويرى بعض الباحثين أن هذه الصفحات التي وردت في التوراة عن «قصة إيليا»، ربما كانت تقاليد شعبية، أكثر منها حقائق تاريخية، وذلك لأسباب منها (أولا) أننا نستطيع أن نستخلص من التوراة نفسها، أن أخاب وإيزابيل إنما كانا أول حاكمين إسرائيليين - بعد داود عليه السلام - أعطيا أبناءهما أسماء بها مقاطع من اسم الربِّ القومي (أخزيا ويهورام وعثليا) ومنها (ثانياً) أن «الأوستراكا» التي اكتشفت في قصر أخاب بالسامرة تبين أن هنا أسماء من هذا القبيل كانت شائعة بين موظفي الملك أخاب، ومنها (ثالثاً) أن الزوجين الملكيين لم يقوما باغتيال كل أنبياء يهوه، ذلك لأن هناك نصوصاً تشير إلى أنه قد استمع إليهم بعد ذلك، «وكان يحيط به عشية وفاته أربعمائة نبيٌّ تنبأوا له بالنصر، إلا واحداً، ومنها (رابعاً) أن إيليا لم يلغ عبادة «بعل» في عهد أخاب، وإنما كان الملك «ياهو» (٨٤٢-٨١٥ق.م) هو الذي فعل ذلك بعد سنوات عدة، وطبقاً لتقاليد أخرى، إنما كان ذلك هو «حزائيل» وعلى أي حال، فإن الذي مسح «ياهو» إنما كان هو النبيُّ «اليشع»، وليس إيليا[٤].

---

(١) جبل حوريب: وهو جبل سربال في وادي فيران على رأي، وهو في أدوم على رأي آخر، وهو جبل موسى على رأي ثالث (قاموس الكتاب المقدس).

(٢) ملوك أول ١٨: ١-١٩: ١٧.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 41.

(٤) ملوك أول ٢٠-٢٢، ملوك ثان ٨: ٧-١٥، ١٩: ١٦-١٦؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 421.

ولعل من الأفضل هنا -وقبل متابعة الحديث عن بقية عهد أخاب، وفترة حكم ولديه أخزيا ويهورام - أن نشير إلى النبيين الإسرائيليين «إيليا» و«اليشع» فأما «إيليا» - وهو صيغة مختصرة من «إلياهو»، بمعنى «الله يهوه» فربما استطعنا القول - ولكن بحذر شديد - أن إيليا التوراة هذا، إنما هو إلياس القرآن، معتمدين في ذلك على قصة هذا النبيّ الكريم، كما جاءت في التوراة والقرآن الكريم، فقصة التوراة تشير إلى عبادة «بعل» في إسرائيل على أيام أخاب وزوجه إيزابيل الصورية، ثم معارضة إيليا العنيفة لهذه الوثنية الصورية، ودعوته إلى عبادة يهوه ربّ إسرائيل[1] - كما أشرنا من قبل -.

وأما القرآن الكريم، فقد ذكر «إلياس»، عليه السلام، مرتين، الواحدة في سورة الأنعام، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ منَ الصَّالحين﴾[2] والثانية في سورة الصافات، حيث يقول عزّ من قال: ﴿وإنَّ إلياس لَمِنَ المُرْسَلينَ، إذْ قال لقومه ألاَ تتَّقُونَ، أتدعونَ بَعْلاً وتذَرونَ أحسنَ الخالقينَ، الله ربّكم وربَّ آبائكمُ الأولين، فكذَّبوه فإنَّهم لَمحْضَرونَ إلاَّ عبادَ الله المُخْلَصينَ، تركنا عليه في الآخرينَ، سلام على إلْ ياسين، إنَّا كذلك نجزى المُحْسنينَ، إنَّه من عبادنا المؤمنينَ﴾[3] وأما متى كان عصر هذا النبيّ الكريم فالثابت من نصوص التوراة أنه إنما أرسل إلى بني إسرائيل على أيام الملك «أخاب» والذى كان حكمه في الفترة (٨٦٩-٨٥٠ق.م)، أى

(١) ملوك أول ١٦: ٢٩-١٩: ٢١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٨٥؛ وانظر: تفسير الطبرى ٥٠٨/١١-٥١٠؛ تفسير القرطبي، ص ٢٤٦٧-٢٤٦٨؛ تفسير ابن كثير ٢٩٠/٣؛ تفسير المنار، ٤٨٧/٧-٤٩٠.

(٣) سورة الصافات، آية: ١٢٣-١٣٢؛ وانظر: تفسير البيضاوى ٢٩٩/٢؛ تفسير روح المعانى ١٣٨/٢٣-١٤٢؛ تفسير ابن كثير ٣١/٧-٣٢؛ تفسير القرطبي، ص ٥٥٥٤-٥٥٥٩؛ تفسير وجدى، ص ٥٩٤-٥٩٥؛ تفسير الجلالين، ص ٣٩٨؛ تفسير القاسمي ٥٠٥٩/١٤-٥٠٦١؛ تفسير مجمع البيان ٨٠/٢٣-٨٢؛ تفسير الطبرى ٩١/٢٣-٩٢؛ تفسير الفخر الرازى ١٨٠/٢٩-١٩١؛ وانظر: (الثعلبي، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، ص ٢٢٣-٢٢٩؛ أبو الحسن علي الماوردى، أعلام النبوة، القاهرة ١٩٧١، ص ٥٢).

أن إلياس عليه السلام، إنما كان يعيش في القرن التاسع قبل الميلاد، وربما كان أكثر تحديدا أنه كان في النصف الأول من هذا القرن التاسع.

وأما «اليشع»، فربما كان هو نبيُّ الله الكريم «اليسع» عليه السلام، المذكور في القرآن الكريم، في سورتي الأنعام و«ص» حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وإسماعيلَ واليسع ويونس ولوطًا وكلاً فضَّلْنا على العالمين﴾[1]. ويقول ﴿واذكر إسماعيلَ واليسعَ وذَا الكِفْلِ وكُلٌّ مِنَ الأخيارِ﴾[1]، ويذهب بعض المفسرين إلى أن «اليسع» معرب الاسم العبراني «يوشع»، فهو اسم أعجمي، دخلت عليه لام التعريف على خلاف القياس، وذهب آخرون إلى أنه اسم عربي منقول من «يسع» مضارع «وسع»، وأنه من ولد إسماعيل، وذهب صاحب «تفسير المنار» - وهو الأرجح فيما نعتقد - إلى أنه تعريب «اليسع»، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، وكان خليفة «إلياس» (إيليا)، ومن المعهود في نقل الاسم العبري إلى العربي، إبدال الشين المعجمة بالمهملة[2].

(٣) أخزيا (٨٥٠-٨٤٩ق.م):

تروي التوراة أن أخاب قد أصيب - رغم تنكره، - بسهم طائش في «حملة راموت جلعاد»، فمات في عربته، ثم نقل إلى السامرة، حيث «غسلت المركبة في بركة السامرة، فلحست الكلاب دمه»، ومن ثم فقد خلفه ولده «أخزيا» على عرش إسرائيل، ولمدة عامين[3]، كانت فيها الأم

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٦؛ سورة «ص»، آية: ٤٨؛ وانظر: تفسير الطبري ١١/٥١٠-٥١٢، ٢٣/١٧٢؛ تفسير الكشاف ٢/٣٤؛ تفسير الفخر الرازي ١٣/٦٤-٦٥، ٢٦/٢١٦؛ تفسير روح المعاني ٧/٢١٨-٢١٩، ٢٣/٢١١-٢١٢؛ تفسير البيضاوي ٢/٣١٢؛ تفسير أبي السعود ٢/٢٤٥؛ تفسير الطبرسي ٢٣/١٢٠-١٢٤؛ تفسير القاسمي ١٤/١١٢؛ تفسير الجلالين، ص١٣٢، ص ٤٠٤؛ تفسير المنار ٤٨٧-٤٩١؛ تفسير القرطبي، ص ٢٤٦٧-٢٤٦٩؛ ٥٦٦٢- ٥٦٦٣؛ تفسير وجدي، ص ١٧٦، ٦٠٣؛ تفسير ابن كثير ٣/٢٩٠-٢٩١، ٧/٦٦-٦٧.

(٢) تفسير المنار ٧/٤٩٠-٤٩١؛ تفسير القرطبي، ص ٢٤٦٨-٢٤٦٩.

(٣) ملوك أول ٢٢: ٣٩-٥٣.

الملكية «إيزابيل» هى التى تدير دفة الأمور فى السامرة[1].

(٤) يهورام (٨٤٩-٨٤٢ق.م):

ورث يهورام عرش إسرائيل بعد وفاة أخيه «أخزيا»، كما ورث كذلك مشاكل إسرائيل التى بدأت منذ أخريات أيام أبيه أخاب، وهكذا نرى العناصر المناوئة مستمرة فى تمردها، ويقوم الآراميون بالإغارة على إسرائيل، وحصار السامرة، وفى نفس الوقت تصاب البلاد بقحط شديد، فتنتشر المجاعة فى العاصمة، «حتى صار رأس الحمار بثمانين من الفضة، وربع القاب من زبل الحمام بخمس من الفضة»، وحتى بدأ القوم يأكلون أطفالهم[2].

ونقرأ فى التوراة أن ملك إسرائيل، بينما جائزاً على السور، صرخت امرأة إليه تقول خلّص يا سيدى الملك، فقال لا يخلصك الربّ، من أين أخلصك، أمن البيدر أو من المعصرة؟ ثم قال لها الملك: مالك، فقالت: إن هذه المرأة قد قالت لى هاتى ابنك فنأكله اليوم، ثم نأكل ابنى غداً، فسلقنا ابنى وأكلناه، ثم قلت لها فى اليم الآخر، هاتى ابنك فنأكله فخبأت ابنها، فلما سمع الملك كلام المرأة مزّق ثيابه وهو مجتاز السور، فنظر الشعب، وإذا مسح من داخل على جسده، فقال هكذا يصنع لى الله وهكذا يريد...»[3].

ويهم «يهورام» بقتل النبىّ «اليشع» الذى كان قد حمله مسئولية كل هذه المصائب، رغم أن اليشع كان قد تنبأ بأن القحط سوف يزول فى الأيام

---

(١) ليس صحيحاً ما ذهبت إليه بعض المراجع العربية من أن هذه الملكة الصورية «إيزابيل» (أربيل كما يدعونها) ابنة ملكة سبأ وأنها قد تزوجت بعد أخاب (لاجب أو آجب كما يدعونه) سبعة من ملوك إسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال، وأنها ولدت سبعين ولداً، وكانت معمرة، وأنها هى التى قتلت يحيى ابن زكريا عليهما السلام. (الماوردى، أعلام النبوة، ص ٥٢؛ الثعلبى، قصص الأنبياء، ص ٢٢٤)؛ ولست أدرى من أين جاءوا بكل هذا، ثم إن الفرق بين عهدها وعهد يحيى إنما يقرب من ثمانية قرون ونصف قرن، ثم إن الذى تسبب فى قتل يحيى إنما هى «هيروديا» وابنتها «سالومى» (إنجيل متى ١٤: ٣-١١؛ تاريخ يوسفيوس، ص ٢١٤؛ فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٤٢، ٤٢٢).

(٢) ملوك ثان ٦: ٢٤-٢٥.

(٣) ملوك ثان ٦: ٢٧-٣١.

القادمة، وكما تقول التوراة، «فإن جندياً للملك كان يستند على يده»، إذ كان ـ فيما يبدو ـ يشك في النبوة، وعلى أي حال، فقد انتهت الأزمة أخيراً، وفك الآراميون الحصار على السامرة، بسبب أنباء مفاجئة عن هجوم آشوري على بلادهم[١].

وتنتهز موآب فرصة هذه الاضطرابات العنيفة، والمجاعات القاسية، فتعلن الثورة على إسرائيل، وترفض دفع الجزية، بل وتستولي على الهضبة الخصبة شمال عرنون، تلك المنطقة التي كانت مثارنزاع، ولعدة سنوات، بين إسرائيل وموآب، ولكنها أصبحت منذ أيام داود وسليمان تابعة لإسرائيل.

وفي عام ١٨٦٨، رأى المبشر الألماني الأب «ف.أ. كلاين» F.A. Kelin حجراً كبيراً ناعماً في «ديبون» ـ وهي ذيبان الحالية، على مبعدة ٥ كيلاً شمال نهر أرنون وشمال غربي عراعير ـ ولكنه فشل في الحصول عليه، وكان الباحث الفرنسي «كلير مونت جانيو» في القدس، فعلم بالأمر، فانطلق مباشرة إلى «ديبون» وأخذ الحجر المؤابي، ونقله إلى متحف اللوفر بباريس في عام ١٨٧٣م، والحجر عبارة عن قطعة من صخور البازلت الأسود، عرضها قدمان وثلاثة بوصات، وارتفاعها أربعة أقدام، وسمكها نصف بوصة، وهو أقدم نقش تاريخي مكتوب على النمط السامي الشمالي القديم، ويعد أكثر الآثار قيمة عن تاريخ فلسطين، ولغته قريبة الشبه في رسمها وقواعدها باللغة العبرية القديمة، كما أن أسلوب النقش يدل على أن مؤاب لم تكن بلداً بدائياً ـ كما أشرنا من قبل ـ والأمر كذلك بالنسبة إلى عمون وأدوم والولايات الأخرى بدون شك[٢]، وأما تاريخ هذا الحجر، فربما كان فيما بين عامي ٨٤٠، ٨٢٠ق.م، وربما حوالي ٨٣٠ق.م[٣].

(١) ملوك ثان ٦: ٨-٢٣-٧: ١-٢٠، وكذا: W. Keller, op.cit., p. 230.

(٢) S.A. Cook, op.cit., p. 372; W. Keller, op.cit., p. 230-234; J. Finegan, op.cit., p. 188; M.F. Unger, op.cit., p. 755-6; C.S. Clermont - Ganneau, La Stele de Mesa, 1887.

(٣) W.F. Albright, Palestinian Inscriptions, The Mobite Stone, ANET, Princeton, 1966, p. 320.

هذا ويمكن ترجمة النص الذى جاء على الحجر المؤابى كالتالى: «أنا ميشع ابن كيموش ملك مؤاب الديبونى، حكم أبى موآب ثلاثين عامًا، ثم حكمت بعده، وبنيت مكانًا عاليًا «لكيموش» فى فورخا، لأنه أنقذنى من جميع الملوك، وجعلنى أتحمل أعبائى، وكان «عمرى» ملك إسرائيل قد اضطهد موآب سنوات عدة، كان «كيموش» غاضبًا على بلاده إبانها، ثم جاء من بعده ولده (أخاب) على أيامى، وقال: سوف أستذل مؤاب، ولكننى أهلكته وبيته، بينما إسرائيل قد أهلكت إلى الأبد، والآن فإن عمرى قد احتل أرض «ماديا»، وأقامت بها إسرائيل على أيامه، وفى النصف (الأول) من عهد ولده «أخاب» ولمدة أربعين سنة، غير أن كيموش قد سكن هنا فى أيامى».

«لقد شيدت «بعل معون»[١] وعملت فيها خزانًا، وبنيت Qaryatem[٢] وكان رجال جاد قد سكنوا فى أرض «عطروث» وقد بنى لهم ملك إسرائيل المدينة من قبل، ولكنى حاربت المدينة واستوليت عليها وقتلت جميع سكانها إرضاء لكيموش، ومؤاب، وأحضرت من هناك مذبحًا وسحبته أمام كيموش فى قريوت Kerioth[٢]، ثم أسكنت هناك رجال «شارون» و«ماخاروت» وقد قال لى كيموش: اذهب وخذ «نبو» من إسرائيل، فذهبت إليها ليلا وحاربتها من الفجر حتى الظهر، وتغلبت عليها وذبحت كل سكانها، سبعة آلاف رجل وطفل وامرأة وفتاة وخادمة، ووهبتهم للإله «عشتار - كيموش» وأخذت مذابح «يهوه»، وجررتها أمام كيموش، وقد بنى ملك إسرائيل «جهاز» Jahaz وسكنها إبان حربه معى، لكن

(١) بعل معون: وتدعى الآن معين، وتقع على مبعدة تسعة أميال إلى الجنوب الغربى من حسبان.

(٢) قرياتين: وجاء فى التوراة تحت اسم «قريتايم» وهى «خربة القريات»، الحالية، والتى تقع شمال نهر أرنون، وعلى مبعدة ميلين ونصف الميل شرقى «عطاروت» ، والتى جادت هنا تحت اسم «عطروث» (خربة عطاروس الحالية)، على المنحدر الغربى من جبل عطاروس، وعلى مبعدة ثمانية أميال شمال غرب ذيبان. (قاموس الكتاب المقدس، ٢/٦٣١-٦٣٢، ٧٣٩).

كيموش هزمه أمامي، فلقد أخذت مائتي رجل من المحاربين الممتازين ووضعتهم أمام «جهاز» فأخذتها وضممتها إلى ديبون».

«أنا الذى بنيت فورخا والسور الخشبي والمتاريس، وأعدت بناء بواباتها وأبراجها، وشيدت قصر الملك، وحفرت خزانات المياه فى المدينة، ولم يكن فى فورخا صهاريج، فأمرت جميع الناس: ليعمل كل منهم صهريجًا فى بيته وحفرت أقبية فورخا بواسطة الأسرى الإسرائيليين، وقد أعدت بناء «عروعير»[1] وعبّدت الطرق فى وادى أرنون، وشيدت «بيت - باموث»[2] لأنها كانت قد دمرت، وبنيت «بيزر» التى خربت بمساعدة خمسة عشر رجلا من ديبون، لأن كل ديبون إنما كانت تخضع لسلطانى، وحكمت المائة مدينة التى ضممتها إلى مملكتى بسلام، وأعدت بناء «مادبا» و«بيت ديلاتون» و«بيت بعل معون»، وأخذت إلى هناك أصحاب الماشية والقطعان، وسكن الدبونيون فى «حورونين» Hauronen[3] وقد قال لى كيموش: اذهب وحارب المدينة (حورونين) وخذها، وكن كيموش هنا فى عهدى»[4].

(١) عروعير: وتسمى الآن عراعير، وتقع على مبعدة ١٢ ميلا شرقى البحر الميت، جنوبي ذيبان بقليل.

(٢) بيت باموت: ربما هى «خربة القويقية» الحالية، على مبعدة ميلين ونصف إلى الجنوب من «نبو» . (قاموس الكتاب المقدس، ١/٢٦٠).

(٣) حورونين: كلمة مؤابية بمعنى : كهفان أو هدنان، وقد جاءت فى التوراة تحت اسم «حورونايم»، وهى اسم لمدينة مؤابية غير بعيدة، من «صوعر»، ولاشك أنها مدينة «أورناى» التى أخذها «الإسكندريانوس» من العرب، وردّها ولده هيركانوس إلى الحارث النبطى . (قاموس الكتاب المقدس ١/٣٢٦).

(٤) انظر عن ترجمة نص الحجر المؤابي: نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٣/٣٩٧-٢٩٩؛ وكذا: محمد بيومى مهران، بلاد الشام، ص ٣٧٢-٣٧٣، الإسكندرية ١٩٩٠؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 756; S.A. Cook, op.cit., p. 372-3; J.B. Pritchard, ANEA; 1958, p. 209F; W.F. Albright, ANET, 1966, p. 320-321; G.A. Cooke, The Text Book of North0-Senitic Inscriptions, Oxford, 1903. p. 1 14; R. Dussaud, Le Monuments Palestiniens et Judaiques (Musee du Louvre), 1912, p. 4, 22; J. Finegan, op.cit., p. 188-189.

ونقرأ في التوراة أن «ميشع ملك موآب كان صاحب مواش فأدى لملك إسرائيل مئة ألف خروف، ومئة ألف كبش بصوفها، وعند موت أخاب عصى ملك موآب على ملك إسرائيل»[١]، وأما نص «الحجر» المؤابي، فيذهب كما ـ رأينا ـ إلى أن «عمرى» وولده «أخاب» قد اضطهدا مؤاب أربعين عامًا، كان «كيموش» ـ إله مؤاب ـ غاضبًا على بلاده أثناءها، ولكن ما أن يعتلى «ميشع» العرش حتى يسرع بخلع نير إسرائيل ثم يقوم بحملة مظفرة ينجح فيها في توسع الحكم المؤابي على مدى خط العرض في الطرف الشمالي من البحر الميت وإخضاع المستعمرات الإسرائيلية، والمدن الخاضعة لإسرائيل في الهضبة الخصبة شمال عرنون[٢]، ثم نهب المعبد الإسرائيلي في «نبو» ـ وهي خربة المخيط جنوبي شرقي حسبان ٨ كيلاً ـ ووهب سبعة آلاف من سكانها للإله «عشتار ـ كيموش» وتخليدًا لانتصاره فقد كرّس المكان العالي للإله «كيموش» في «فورخا»[٣].

وهنا تضطر إسرائيل إلى طلب المعونة من يهوذا وآدوم، ثم القيام بهجوم على مؤاب من الجنوب، وهذا يستدعي الدوران حول البحر الميت، اعتمادًا على نبوءة في التوراة، تقول: «لا ترون ريحًا ولا ترون مطرًا، وهذا الوادي يمتلئ ماء، فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم»[٤]، وهكذا خاطر الحلفاء بالمسير في هذا الإقليم القفر، «وداروا مسيرة سبعة أيام، ولم يكن هناك ماء للجيش والبهائم التي تبعتهم، وطبقًا لنصيحة النبيّ «اليشع» فقد ملأوا الوادي حفرًا وخنادق، وعند الصباح، وإذا مياه آتية عن طريق أدوم فامتلأت الأرض ماء»، ورأى جواسيس مؤاب المياه حمراء كالدم فظنوا أن الأعداء بدأوا يضربون بعضهم البعض، وهكذا تمكن الحلفاء من نشر الخراب في مؤاب، «وهدموا المدن وكل واحد يلقى حجره في كل حلقة جيدة حتى

---

(١) ملوك ثان ٣: ٤-٥.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 244-245.

(٣) S.A. Cook, op.cit., p. 372.

(٤) ملوك ثان ٣: ١٧.

ملأوها وطموا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة»، وهنا يضطر ملك مؤاب إلى أن يقدم ولده البكر محرقة على أسوار قلعة المدينة، استرضاء للإله كيموش، وبهذه الوسيلة اضطر ملك إسرائيل وحلفاؤه إلى الانسحاب[1]، وإن كان هذا يعني ـ في الوقت نفسه ـ أن الغزاة في الحقيقة إنما قد ردوا وطردوا.

وهكذا يبدو واضحاً، أن النصين ـ المؤابي والتوراتي ـ جد مختلفان، إذ أن كلا منهما يزعم أن النصر كان حليفه، وأن الخراب والدمار إنما كانا من نصيب أعدائه، مما يدل على أن ما ذهب إليه البعض، من أن ما ورد في حجر مؤاب، إنما يؤيد قصة الكتاب المقدس تماماً[2]، أمر يحتاج إلى إعادة نظر، بل إن رسالة النصر المؤابية هذه إنما قد أثارت اهتماماً كبيراً في الدوائر التي وجدتها، تخالف ما جاء في التوراة، حتى رأينا كثيراً من الباحثين لا يخفي شكه في أن الرسالة مزيفة، ولكن الاختبارات الدقيقة أثبتت أن الحجر المؤابي ونقوشه بعيدة عن الشك تماماً، وأنها وثيقة تاريخية لا ريب فيها، وأن النص سجل معاصر للملك «ميشع» ملك مؤاب الذي جاء ذكره في التوراة، كما أنها وثيقة مكتوبة بكتابة فلسطينية قديمة، تؤرخ بحوالي عام ٨٤٠ق.م ـ وربما كان الأرجح عام ٨٣٠ق.م ـ كما أشرنا من قبل ـ وبلهجة مؤابية قريبة الصلة بالعبرية التوراتية[3].

وعلى أي حال، فإننا إذا ما أردنا أن نقف موقف المحايد بين النصين ـ المؤابي واليهودي ـ لرأينا أن كلا منهما إنما يعبر عن وجهة نظر أصحابه، وإن اتفق النصان على أن الحملة قد انتهت بهزيمة إسرائيل وحلفائها، ولكنهما يختلفان في أن النص التوراتي قد أطنب فيما أحرزته إسرائيل من

---

(١) ملوك ثان ٣: ٩-٢٧.

(٢) يسى منصور، عصمة الكتاب المقدس، الإسكندرية ١٩٦٨، ص ٢٧-٢٨.

(٣) W. Keller, op.cit., p. 233.

نجح - بادئ ذى بدء - بينما يمرُّ النص المؤابى على ذلك مرَّ الكرام ، وأن التوراة تشير إلى النتيجة النهائية باختصار، بينما يطنب فيها نص مؤاب، وأما قول النص المؤابى أن إسرائيل قد أبيدت إلى الأبد، فربما كان يعنى الإبادة الدموية لأسرة عمرى[1] ، هذا إلى أن التوراة تجعل ثورة مؤاب بعد وفاة آخاب[2]، بينما الذى يفهم من النص المؤابى أن ذلك إنما كان منذ النصف الثانى من حكم أخاب، أضف إلى ذلك أن النص المؤابى إنما هو وثيقة تاريخية، تتحدث بوضوح عن جهود الملك المؤابى «ميشع» فى كفاحه المرير ضد إسرائيل وحلفائها من يهوذا وأدوم، وتخليصه لكثير من المدن المؤابية من النير الإسرائيلى، فضلا عن الإنشاءات المدنية والدينية التى أقامها فى هذه المدن بعد طرد يهود منها، بينما النص التوراتى لا يعدو أن يكون واحداً من نصوص التوراة، يسجل - كما يسجل غيره - أمجاد يهوه ربّ إسرائيل، ورعايته لشعبه ومن تحالف معهم، عن طريق نبوءات لواحد من أنبياء يهود، تبشر برعاية يهوه لهم فى صحراوات شرق الأردن، ومع ذلك فهذه الرعاية لم يكتب لها أى نجح - طويل المدى أو قصيره - أمام قوات مؤاب.

رابعاً - أسرة ياهو (٨١٢-٧٤٥ق.م):

(١) ياهو (٨٤٢-٨١٥ق.م):

تحدثنا التوراة فى سفر الملوك الثانى - أن الإسرائيليين بينما كانوا فى حومة الوغى فى «راموت جلعاد» - تل راميث الحالية فى شرق الأردن - يحاولون استعادتها من بين أنياب الأسد الآرامى القوى، إذا بالنبى «اليشع» يرسل بواحد من «بنى الأنبياء» ليمسح «ياهو» - أحد ضباط يهورام - ملكاً على إسرائيل، ومبيداً لبيت أخاب، ورغم ما فى ذلك من خيانة قومية، من جانب الأنبياء والقائد، سواء بسواء، ورغم ما فى ذلك من خطورة على الكيان القومى، وما فيه من القضاء على تماسك الجبهة الداخلية، إبان قيام

(١) Ibid, p. 234. (٢) ملوك ثان ١ : ١ .

المعارك الضارية بين إسرائيل وأعدائها، فإن القائد الإسرائيلي (ياهو) سرعان ما يندفع في وحشية ليطيح بآخر ملوك أسرة عمري، ويعتلي العرش الإسرائيلي بنفسه (٨٤٢-٨١٥ق.م)، فيتقدم على رأس كوكبة من أتباعه إلى «يزرعيل»[1] - حيث كان يهورام بن أخاب يستشفي من جرح أصيب به من ملك آرام (حزائيل) - فيقتله ويطرح جثته في حقل «نابوت» اليزرعيلي»[2].

ويرى «أخزيا» ملك يهوذا - حليف يهورام وابن أخته عثليا - ما حلّ بخاله ملك إسرائيل، فيحاول الهرب، ولكن «ياهو» يأمر واحداً من رجاله بأن يلحق بملك يهوذا الهارب، ويفعل الرجل ما أمر به، ويطعن أخزيا طعنة قاتلة، يموت بسببها في «مجدو» بعد ذلك بفترة قصيرة، وهكذا يستولي «ياهو» على يزرعيل، حيث يجد هناك «إيزابيل» - أم يهورام، وجدة أخزيا، وزوج أخاب - في انتظاره، وقد جملت نفسها لتزف إلى الموت، فيأمر أن يقذف بها من نافذة القصر الملكي في يزرعيل، ثم يطؤها تحت حوافر خيوله، ويختم «ياهو» المأساة المروعة بأن يدبر مذبحة همجية، تراق فيها دماء اثنين وأربعين من أمراء بيت آل داود، أتوا من أورشليم في زيارة ليزرعيل، ولكنها - رغم بشاعتها - لا تروي ظمأه المتعطش إلى الدماء، فيرسل إلى «السامرة» يطلب من نبلائها أن يأتوا إليه برؤوس سبعين أميراً من ولد أخاب[3].

---

(١) يزرعيل: مدينة في سهل يزرعيل بين جلبوع وجبل الدحي، اختارها أخاب مقراً له، وبقربها هيكل لعشتارت كان يأكل فيه ٤٠٠ نبياً (كاهناً) على مائدة إيزابيل، وكان قصر أخاب في الجهة الشرقية من المدينة، وربما كان فيه «بيت العاج»، ويرجح أن حقل نابوت إنما كان على تل في شرقي المدينة، وقد أصاب المدينة تدهور كبير بعد عهد أسرة أخاب، ويرجح أن مكان يزرعيل الآن، هو قرية «يزرعين»، وحولها صهاريج وآبار، وإن لم توجد آثار للقصر الملكي. (انظر: ملوك أول ١٨ : ١٩، ٢١ : ١-٢٢ : ٣٩؛ ملوك ثان ١٠ : ٣٩؛ قاموس الكتاب المقدس، ١٠٦٤/٢).

(٢) ملوك ثان ٩ : ١-٢٦.

(٣) ملوك ثان ٩ : ٢٧-٣٧، ١٠ : ١-١٧؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 383.

واتجه «ياهو» بعد ذلك إلى السامرة وبصحبته - وفي عربته الحربية ذاتها - «ياهوناداب» بن ركاب القيني، المتحمس ليهوه ضد البعل، وهناك «قتل جميع الذين بقوا لأخاب في السامرة»، ثم تقدم إلى معبد البعل، وادعى أنه أكثر إيماناً بالبعل من أخاب، ليجمع إليه «جميع أنبياء البعل، وكل عابديه وكل كهنته، وفي لحظة من التعصب الديني البغيض ذبح «ياهو» كل من اتخذ البعل رباً، ودمّر معبده[١]، وهكذا كانت ثورة ياهو دينية، كما كانت سياسية كذلك، فقد قضى على أسرة عمرى تماماً، كما أبيد أتباع البعل في مذبحة بقيت في ذاكرة القوم مروعة، ولفترة طويلة بعد ذلك[٢].

وبدأ «ياهو» يتخذ سياسة جديدة، فهو لم يعتنق المبدأ القائل بأن سورية «دولة حاجزة» Buffer State، بين إسرائيل ودولة أشور القوية، وأن بقاءها قوية إنما هو خير لإسرائيل، كما هو خير لدمشق، ومن هنا نراه حين يقوم «شلمنصر الثالث» (٨٥٩-٨٢٤ق.م) بحملة جديدة على دمشق في عام ٨٤٢ق.م، لم يرسل بقواته لمساعدة «حزائيل» ملك دمشق، بل إنه يسرع فيرسل بجزيته إلى العاهل الآشوري المنتصر، كما يبدو ذلك واضحاً في المسلة السوداء، حيث نرى «ياهو» راكعاً أمام شلمنصر، يقبل الأرض عند قدميه في ذلة وخضوع، ويدفع الجزية على هيئة أوان من الفضة والذهب والرصاص[٣].

وزاد الطين بلة، أن علاقاته بجيرانه كانت سيئة، فقد أدت ثورته التي راح ضحيتها أفراد البيت المالك - وبخاصة إيزابيل - إلى قطع العلاقات الودية مع صور، ومن ورائها المدن الفينيقية الأخرى، كما أن وجود «عثليا»

---

(١) ملوك ثان ١٠: ١٥-٢٨.

(٢) هوشع ١: ٤؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 26.

(٣) A. Loe Oppenheim, ANET, p. 281; A.H. Layard, op.cit., p. 282.

ـ ابنة أخاب وإيزابيل، وأم أخزيا ملك يهوذا الذى ضربه ياهو فى يزرعيل ضربة قاتلة ـ تمسك بزمام الأمور فى يهوذا، أفقد إسرائيل عطفها وحولها إلى دولة معادية، ولم تكن إسرائيل وقت ذلك قوية بالدرجة التى تستطيع معها أن تجعل يهوذا مجرد تابع لها، وهناك فى شرق الأردن كانت مؤاب ماتزال تدق طبول انتصارها على إسرائيل[١].

وهكذا وجد «ياهو» نفسه وحيداً فى الميدان، فاتجه إلى أشور يطلب عونها أو حمايتها، ولكن آماله خابت حين أرسلت أشور فى عام ٨٣٩ق.م، حملة إلى دمشق، ثم غابت عن الميدان فلم يشعر بوجودها أحد فى الغرب قرابة ثلاثين عاماً، إما بسبب ضعف ألمّ بأشور نفسها، وإما لانشغالها بحروب على الحدود الأخرى[٢]، وهكذا بدأ «حزائيل» ملك دمشق يتجه نحو إسرائيل، ليعيد سيادة الآراميين عليها، وليحقق «نبوءة اليشع» النبىّ الإسرائيلى من حرق مدن إسرائيل وقتل الشباب والأطفال، وبقر بطون الحوامل من النسوة، ومن أسف فإنه لا توجد تفصيلات عن هذه المعارك فى التوراة، ومع ذلك فإن النبىّ عاموس حين تطلع إلى الوراء، فإننا نراه يذكر أن الآراميين قد خرّبوا أرض جلعاد[٣].

ونقرأ فى التوراة أن إسرائيل قد فقدت كل ممتلكاتها فى شرق الأردن، حيث استولى، حزائيل، على جميع أرض جلعاد الجاديين والراؤبين والمنسيين من عروعير التى على وادى أرنون وجلعاد وباشان»[٤]، وقد شجعت انتصارات دمشق أعداء إسرائيل القدامى على مهاجمتها، وأيد حزائيل الفلسطينيين فى نزاعهم مع إسرائيل ويهوذا على السواء، واستغل العمونيون الفرصة فى غزو أرض جلعاد ـ جنوب يبوق ـ لتوسيع حدودهم،

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 34.

(٢) A. Lods, op.cit, p. 384.

(٣) ملوك ثان ٨: ١٢؛ عاموس ١: ٣.

(٤) ملوك ثان ١٠: ٣٢-٣٣.

وطبقًا لما جاء فى سفر عاموس، فقد دمروا جلعاد وبقروا بطون الحوامل هناك[١].

(٢) يهو أحــاز (٨١٥-٨٠١ق.م):

وصلت إسرائيل فى عهد «يهو أحاز» هذا إلى الحضيض فى ذلتها إلى مجرد التابع لآرام[٢]، ثم حوصرت «السامرة» ولم ينقذها إلا رعب فجائى فى معسكر العدو[٣]، وهكذا أصبحت أحوال إسرائيل على أيام «يهو أحاز» أسوأ مما كانت على أيام أبيه، وأذاقها حزائيل من الذلة والمهانة، ما لم تتعرض لمثيله من قبل، ونقرأ فى التوراة أن جيش إسرائيل قد ضعف على أيام يهو أحاز، حتى أنه «لم يبق له شعبًا، إلا خمسين فارسًا وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل، لأن ملك آرام قد أفناهم، ووضعهم كالتراب للدوس»[٤]، ويبدو أن حزائيل قد أخضع كل البلاد أثناء قيامه بحملة ضد يهوذا، لأنه قد استولى على «جت» عند حدود يهوذا الجنوبية الغربية، وكان على وشك أن يهاجم أورشليم نفسها، ما لم يغره «يهوآش» (٨٣٧-٨٠٠ق.م) ملك يهوذا ـ حفيد وخليفة عثليا ـ بإعطائه كل كنوز خزائنه[٥].

وهكذا أصبحت دمشق تسيطر على كل من مملكتى العبرانيين ـ إسرائيل ويهوذا ـ وإن تعرضت الأولى للذلة والمهانة أكثر من الثانية، ويتوغل الآراميون إلى تخوم السامرة ذاتها، وخيل يومئذ أنها وشيكة الانحلال، ولكن ساعة إسرائيل لم تكن قد دنت بعد، وكان مقدراً لها أن تصحو مرة أخرى من هذه الإغفاءة إلى أن يجيء يوم دمارها وفنائها[٦].

---

(١) عاموس ١ : ١٣.
(٢) I. Epstein, op.cit., p. 42.
(٣) C. Roth, op.cit., p. 27.
(٤) ملوك ثان ١٣ : ٧.
(٥) ملوك ثان ١٢ : ١٧-١٨ ؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 385.
(٦) حبيب سعيد، الأنبياء الأقدمون يتكلمون، ص ١٤.

٣ _ يهو آش (٨٠١-٧٨٦ق.م):

خلف «يهوآش» آباه «يهو أحاز» على عرش إسرائيل، وسرعان ما يقوم «أدد _ نيرارى» الثالث (٨١٢-٧٨٢ق.م) ملك أشور بحملة على دمشق، ليجبرها على الخضوع ودفع الجزية، وتنتهز إسرائيل الفرصة ويتمكن «يهوآش» من هزيمة الآراميين ثلاث مرات فى «أفيق» ويسترد المدائن التى فقدها أبوه فى غرب الأردن[١].

٤ _ يربعام الثانى (٧٨٦-٧٤٦ق.م):

جاء «يربعام الثانى» بعد أبيه «يهو آش» وظل يحكم إسرائيل نحواً من أربعين عاماً، كانت عودة قصيرة للأيام الهادئة فى حياة إسرائيل، فقد كانت أشور فى شغل عن فلسطين بمشاكلها الداخلية، ولم تعد دمشق منافساً خطيراً، واهتبلت إسرائيل الفرصة لاستعادة الأقاليم المفتوحة واستغلال الموقف لصالحها، ونقرأ فى التوراة أن يربعام «رد تخم إسرائيل من مدخل حماة إلى بحر العربة»[٢] (البحر الميت)، ورغم ما فى هذا النص من غموض ومبالغة، فإن إسرائيل على أيام «يربعام الثانى» كانت دون شك من أقوى الولايات الفلسطينية.

وهكذا بدا فى الأفق أن يربعام هو المخلص الحقيقى لإسرائيل (أفرايم) فقد كانت القوة والرخاء فى عهد مصحوبين بانتعاش دينى، وبدت روح الورع وكأنها تسود فى كل مكان، واحتشدت المحاريب، وتدفقت القرابين، وحوفظت على الأعياد بدقة، ولكن كل هذه المظاهر الخارجية للديانة قد نوثت بالوثنية، فلم تتجه إلى عبادة «يهوه» النقية، وإنما للتوفيق بينها وبين عبادة العجول الذهبية[٣]، ومن هنا نرى عاموس يقول بغضب على لسان

---

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤١٢؛ ملوك ثان ١٣ : ٢٥.

(٢) ملوك ثان ١٤ : ٢٥.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 42.

ربّه يهوه: «بغضت كرهت أعيادكم، ولست ألتذ باعتكافاتكم، إنّي إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضي، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها، أبعدعني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع، وليجر الحق كالمياه، والبر كنهر دائم»[١].

هذا وقد سار الانحطاط الخلقي في نفس الطريق الذي سار فيه الانحطاط الديني، ونقرأ في سفر عاموس عن المقر الملكي - الشتوى والصيفي - في منازل من عاج، وأخرى من أبنوس، وعن قصور فخمة، جاورتها أخصاص خشنة[٢]، وعن الأغنياء الذين أكلوا خرافًا وعجولاً، وشربوا كئوس الخمر على أصوات الرباب والات الغناء، ودهنوا أجسادهم بأفضل الطيب والأدهان، ولكن هذه المتع وأسباب الرفاهية والنعماء قد اقتنصوها بالظلم والاغتصاب، وإرهاق الفقراء والمعوزين، الذين كانوا يباعون كما تباع السائمة وفاء لحقوق دائنين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا، وباقتراف الغش في التجارة والموازين الباطلة والسلع التافهة، وأخذ الهدايا والرشوة، وهكذا اضمحلت الفضائل في الحياة العامة والخاصة، وحتى العدل قد اعوج في المحاكم والقضاء، فيصرخ عاموس النبيّ (٧٦٠-٧٤٦ق.م) صرخته الداوية: «رؤساء متمردون وشركاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون لليتيم، ودعوى الأرملة لا تصل إليهم».

هذا وقد بلغت الإباحية حدًا شنيعًا مخزيًا حتى ليذهب «رجل وأبوه إلى صبية واحدة، فيدنسوا اسم قدسي»، ولم يخف التجار خياناتهم ومطامعهم، لكي «يبيدوا بائسي الأرض»، وتجاهل القوم كل الشرائع الإنسانية، فتمددوا على ثياب مرهونة، وشربوا «خمر المغرمين في بيت آلهتهم»[٣].

---

(١) عاموس ٥: ٢١-٢٤.

(٢) عاموس ٣: ١٥؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 27.

(٣) عاموس ٢: ٦-٨، ٣: ١٠، ٦: ٤-٨؛ ٦: ٤؛ حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ١٥-١٧؛ القس عاموس عبد المسيح، دراسات في عاموس، ترجمة حارث قريصة، القاهرة ١٩٦٦، ص٦٦-٧٣.

ويبدو أن أساس المجتمع الاقتصادى بأسره قد تعرض لثورة صامتة إبان القرن السابق، فلم تعد الأرض يملكها ويفلحها «التوابيت» وهم فلاحون أحرار يتوارثون حقول أجدادهم ويكفلون بعملهم المتواصل عيشًا شريفًا لأنفسهم وأسرهم، بل تحولت الملكيات الصغيرة إلى ضياع واسعة، وكان معظم من يفلحونها من العبيد، وهى صورة تبدو لنا بعد ذلك بجيل من أقوال «إشعياء الأول» (٧٣٤-٦٨٠ق.م)، و«ميخا» (٧٤٠-٧٠١ق.م) وتعرض لنا بين حين وآخر إشارات تدل على الوسائل التى حدث بها هذا التحول ويلوح لنا أن ما فعلته «إيزابيل»، زوج أخاب، مع «نابوت» اليزرعيلى[1] قد حدث بعد ذلك مرارًا وتكرارًا، فأصبح المالك - وقد أثرت فيه الحروب القاسية التى نشبت على الحدود فأفقرته وأفلسته - فلاحًا يستأجر الأرض من مالكها، ثم أصبح فى آخر الأمر مسترقًا، وارتفع مستوى الترف بين الأغنياء، وهبط مستوى المعيشة بين الفقراء، وأخذت الفجوة بين هاتين الطبقتين تتسع على مرِّ السنين[2].

هذا وتظهر لنا أحداث التاريخ أن أحوالا كهذه لا يمكن أن تنتهى إلا بأحد أمرين، فإما أن تحتفظ بالطبقات الدنيا بشىء من الرجولة يثير حفيظتهم ويدفعهم فى النهاية إلى الانتفاض على استبداد الأقلية، فيحدثون انقلابًا يزعزع كيان النظام الاجتماعى الداخلى، وإما أن يفقدوا روحهم المعنوية فتتفكك أوصال الأمة، وتقع فريسة سهلة لكل فاتح جرىء قوى، والهلاك نهاية كل من الأمرين، وليس من الواضح أن عاموس فكر فى الأمر على هذا النحو، أو أنه كان يفكر فى عدو بعينه يريد أن يغتصب البلاد، ولكنه كان يرى أن الحضارة ممثلة فى «السامرة» و«بيت إيل» مقضى عليها بالزوال، ولم يكن يجد فى الدين - وقت ذاك - سندًا لأنه كان فى أحسن وجوهه طائفة

---

(١) ملوك أول ٢١: ١-١١.

(٢) تيودور روبنسون، المرجع السابق، ص ١٢١.

من الشعائر لا تقوم على وازع خلقى، وفى أسوئها لا يبيح المفاسد التى يشكو النبىُّ منها فحسب، بل يشجع عليها أيضاً[1].

٥ ـ زكريا (٧٤٦-٧٤٥ق.م):

خلف زكريا أباه على عرش إسرائيل، غير أنه لم يحكم أكثر من ستة أشهر قتله بعدها مغتصب للعرش يدعى «شلوم بن يابيش» (٧٤٥ق.م)[2]، وهكذا انتهت الأسرة، كما بدأت، بدم مسفوك، تحقيقاً لنبوءة عاموس[3].

خامساً ـ أخريات أيام إسرائيل:

أعقب الانهيار سقوط أسرة «ياهو»، وكان انهياراً سريعاً متلاحقاً متصل الحلقات، لم يستغرق أكثر من ربع قرن من الزمان، أو قريب من هذا، وقد توالت الأحداث فى هذه الفترة القصيرة من الزمن فى عنف وسرعة، وهى لم تكن على أية حال، أحداثاً داخلية، رغم ما تشير إلى ذلك التوراة، لم تكن بسبب نجاسة أفرايم (إسرائيل)، وغضب الربِّ بسبب تخليهم عنه وعكوفهم على عبادات أخرى، بل إن هناك عوامل خارجية كانت الأداة الفعليةلهدم إسرائيل والقضاء عليها، كانت هذه العوامل تتصل بدمشق وأشور، دمشق بحلفها مع إسرائيل ضد يهوذا وأشور، ثم أشور باهتمامها بشئون الغرب ـ تحت قيادة ملكها «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥-٧٢٧ق.م)[4].

كانت أشور ترى أن امتلاكها لسورية وفلسطين، هو الشرط الأساسى لنجاح إمبراطوريتها، فهو لم يكن بالنسبة لحكام بلاد النهرين بسبب ثروة سورية وفلسطين من أخشاب نادرة فى الشرق، وبسبب ثروتها المعدنية وساحلها الطويلعلى البحر الأبيض المتوسط، وتجارتها الغنية فحسب، ولكنه ان كذلك ـ وفى نفس الوقت ـ المدخل إلى جنوب شرق اسيا الصغرى من

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢١.　(٢) ملوك ثان ١٥: ٨-١٢.

(٣) عاموس ٧: ٩.

(٤) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤١٤؛ وانظر: هوشع ٧: ٨-١٣؛ عاموس ٥: ١، ٢-٣٥.

ناحية، ومصر من ناحية أخرى، ولهذا كله فقد اتخذ «تجلات بلاسر» الخطوات الجادة مباشرة وتثبيت سيادة أشور على فلسطين وسورية، ومن هنا، فإنه لم يقنع - كغيره من الحكام الآشوريين - بقبول الجزية ممن يخضعهم من الأمراء السوريين والفلسطينيين[1].

١ - شلوم (٧٤٥ق.م):

انتهت أسرة «ياهو» - كما أشرنا آنفًا - على يد «شلوم بن يابيش» الذى اغتصب العرش بعد ذلك، ولكن هيهات للغاصب أن يحتفظ طويلا بما سلب واغتصب، ومن ثم فقد قتل بعد شهر من قتل زكريا بن يربعام[2].

٢- منحيم بن جادى (٧٤٥-٧٣٦ق.م):

هو مغتصب آخر من «ترزة» نجح فى قتل «شلوم» واغتصاب عرش إسرائيل بعده، ونقرأ فى التوراة عن فظائع الحرب الأهلية التى أعقبت ذلك، والانتقام المرير الذى صبه «منحيم» على الذين لم يرضوا مسايرته، حتى أنه فى «تفصح» - وهى تفسح الحالية على مبعدة ١٠ كيلاً إلى الجنوب الغربى من أورشليم - يقر بطون الحوامل من نسوتها، ورغم ذلك كله، فلم يستطع «منحيم» توطيد عرشه بدون عون من الخارج، فلما غزا تجلات بلاسر الثالث (فول) إسرائيل، أحنى له منحيم رأسه، وخفض له جناح الذل، وابتاع معونته بالمال، «ألف وزنة من الفضة» فرضها ضريبة على بنى قومه من أصحاب الأملاك، ليقدمها هدية أو رشوة لعاهل أشور، استرضاء له واستجداء لمعونته على صيانة العرش[3].

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 253.

(٢) ملوك ثان ١٥ : ١٣-١٦.

(٣) ملوك ثان ١٥ : ١٧-٢٢؛ حبيب سعيد، المرجع السابق، ص ٣٢-٣٦

٣ - فقحيا (٧٣٦-٧٣٥ق.م):

جاء «فقحيا» هذا على عرش إسرائيل بعد موت أبيه «منحيم» ولمدة سنتين، وعمل الشر فى عينى الرب، لم يحد عن خطايا يربعام بن نباط، الذى جعل إسرائيل يخطئ ففتن عليه «فقح بن رمليا» وضربه فى السامرة فى قصر بيت الملك مع أرجوب ومع أريه ومعه خمسون رجلا من بنى الجلعاديين، قتله وملك عوضاً عنه»[١].

٤ - فقح (٧٣٥-٧٣٣ق.م):

تروى التوراة أن «فقح» هذا، إنما جلس على عرش إسرائيل لمدة عشرين عاماً[٢]، على أن المؤرخين المحدثين إنما يرون أنها لم تتجاوز أعواماً أربعة، كانت فى الفترة (٧٣٥-٧٣٢ق.م[٣]، وربما أقل من ذلك (٧٣٤-٧٣٣ق.م)[٤]، وعلى أى حال، ففى هذه الفترة تقوم دمشق بدور قيادى ولآخر مرة، إذ تكونت كتلة سياسية بزعامة «رصين» ملك دمشق - ومن ورائه كل تحالف الدويلات الآرامية - ضد الآشوريين، ثم سرعان ما انضم إلى «رصين» الفينيقيون والدويلات العربية والمدن الفلسطينية، وكذلك الآدوميون، ثم أخيراً انضمت إسرائيل إلى هذا التحالف ولم يبق خارجه إلا «أحاز» ملك يهوذا[٥]، ومن ثم فإننا نقرأ فى التوراة أن أورشليم قد هوجمت بقوات دمشق والسامرة بغية إزاحة «أحاز» (٧٣٥-٧١٥ق.م) عن عرشها، وتتويج واحد من الآراميين فى مكانه، ليضم يهوذا إلى الحلف القائم ضد أشور[٦]، كما نقرأ كذلك أن «رصين» أرجع «زيلة» للآراميين، وطرد

(١) ملوك ثان ١٥ : ٢٣-٣٦. (٢) ملوك ثان ١٥ : ٢٧.

(٣) W.F. Albright, The Biblical Period, p. 117; Historical Atlas of The Holy Land, p. 82.

(٤) P.K. Hitti, The Near East in History, Princeton, 1961, p. 99.

(٥) W. Keller, op.cit., p. 241-242.

(٦) ملوك ثان ١٦ : ٥؛ إشعياء ٧ : ١-١٤ وكذا:

Emil G. Kraeling, Aram and Israel, N.Y., 1918, p. 116.

اليهوذيين منها[١]، هذا ويسجل لنا مؤرخ أخبار الأيام الثانى تلك المذابح العظيمة التى وقعت فى يهوذا، والنفى إلى دمشق لعدد كثير من أسرى اليهود[٢]، مما أثار النبىّ إشعياء إلى حد كبير[٣].

وهكذا هدد الجيش المهاجم بيت داود وأثار فيه الهلع، فارتجفت قلوب القوم - كما ترتجف أشجار الغابة فى مهب الريح - وحاول إشعياء النبىّ - بكلمات ملؤها الأمل - أن يشجع أهل يهوذا، بتحقيره لضعف «فقح» و«رصين» ثم تشبيههما بالأطراف البالية من فرع شجرة محترقة، وبما له من قدرة على التعبير طالب بالثقة فى يهوه «إن لم تؤمنوا فلا تؤمَّنوا» ولكن «أحاز» الذى كان مضيقاً عليه الخناق، وقلقاً فى أورشليم، قد فقد الثقة فى نفسه، وفى ربّه يهوه كذلك، ومن ثم فقد قرر أن يستدعى قوات أشور لحمايته، ثم يرسل الهدايا من خزائن المعبد والقصر لـ «تجلات بلاسر» (تغلث فلاسر)، سائلا إياه - بل وملحًا فى سؤله - أن ينقذه من ملكى دمشق والسامرة، على شريطة أن يكون له «عبداً وابناً»)[٤].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الملك الأشورى لم يستجب سريعاً لنداء «أحاز» غير أن هناك ما يشير إلى أن «تجلات بلاسر» إنما كان فى تلك الآونة فى شمال سورية، وربما كان مع جيشه فى مكان ما فى مجاورات دمشق، وعلى أى حال، فمن الواضح أن الأحداث - بدأت تتحرك سريعًا، وبفضل التدخل الأشورى السريع - والحاسم كذلك - أنقذ أحاز من موقفه الصعب، قبل أن تسقط أورشليم فى أيدى المهاجمين من الآراميين والإسرائيليين، وإن كان «تجلات بلاسر» بالتأكيد، ماكان بحاجة إلى توسلات أحاز اليهودى ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين، فقد كان هدفه

---

(١) ملوك ١٦ : ٦؛ ثم قارن: قاموس الكتاب المقدس، ١٤٣/١.

(٢) أخبار أيام ثان ٢٨ : ١-١٧. (٣) إشعياء ٧ : ١-١٧.

(٤) ملوك ثان ١٦ : ٧-٨؛ وكذا: S. A. Cook, op.cit., p. 363.

فى هذه الفترة، على أى حال، هو الإخضاع التام لسورية وفلسطين، ومنذ عام ٧٣٨ق.م، وقد أصبحت حماة من أملاكه، فقد كان يرنو بناظريه نحو دمشق ـ بادئ ذى بدء ـ ثم إسرائيل فيما بعد[1].

وفى عام ٧٣٣ق.م، تقابل الملك الآشورى مع ملك دمشق، فهرب «رصين» إلى عاصمته «دمشق»، ومن ثم فقد قام العاهل الأشورى بمحاصرة العاصمة الآرامية وإتلاف ما حولها من حدائق ومدن، هذا فضلا عن الإغارة على حلفاء الآراميين والانتصار عليهم، مما جعل دمشق تصبح فى عزلة تامة[2].

ونقرأ فى التوراة أن «تجلات بلاسر» قد أخذ عيون وابل بيت معكة ويأنوج وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى، وسباهم إلى أشور[3]، هذا وتشير إحدى حوليات العاهل الأشورى أنه قد استولى على كل مدن إسرائيل، ما عدا السامرة، ومن ثم فإننا نستنتج من ذلك ـ ومن قوائم الأقاليم الأشورية ـ أن تجلات بلاسر قد ترك لملك إسرائيل «فقح» جبل أفرايم والمدينة الملكية (السامرة)، وأما بقية المناطق الإسرائيلية فقد أدمجت فى نسق الولايات الآشورية[4].

وأيا ما كان الأمر، فإن الممالك الصغيرة فى سورية وفلسطين، والتى كانت على مدى قرنين من الزمان قبل ذلك، قادرة على حفظ كيانها دون تدخل من الخارج تقريبًا، وجدت الآن نفسها أمام أشور القوية الطامعة الطاغية، وقد نجح «تجلات بلاسر» فى أن يحتاج فى عدة حملات إلى الغرب دمشق، بعد حصار دام عامين، ويقتل ملكها «رصين» وبسقوط

(١) M. Noth, op.cit., p. 259-260.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 260261; E.G. Kraeling, op.cit., p. 118-119.

(٣) ملوك ثان ١٥ : ٢٩ ؛ وكذا: E.G. Kraeling, op.cit., p. 118.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 261.

دمشق حان الوقت للآشوريين أن يضموا سورية بأكملها، وانتهت قوة الآراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الآرامية لآشور، وبالتالى فقد زال الحاجز الذى كان يحول دون سقوط السامرة[١].

٥ - هوشع بن أيلة (٧٣٢-٧٢٤ق.م):

ونقرأ فى التوراة أن فقح فقد عرشه وحياته فى مؤامرة على رأسها هوشع بن أيلة، وأن الأخير قد نصّب نفسه ملكاً فى السامرة على ما بقى لإسرائيل، وإن كنا لا ندرى أكان ذلك برضى من تجلات بلاسر[٢] أم أن الأخير إنما كان بريئًا من دم فقح فحمل هوشع مسئولية الحادث وفرض عليه جزية ثقيلة[٣].

وأيًا ما كان الأمر، فإن «هوشع» قد أصبح ملكاً على إسرائيل فى السامرة من قبل الأشوريين يدين لهم بالولاء، ويدفع لهم الجزية صاغراً، ومصادرنا عن هذه الأحداث وعن غيرها من الأحداث التى تقع فى نصف القرن التالى مستقاة من التوراة، ومن الكتابات المسمارية (الإسفينية)، ولا تشير النصوص المصرية إلى أشور، وإن تعرضت العاصمة المصرية طيبة، لتصبح فريسة مؤقتة لتلك القوة الآسيوية البعيدة، ومع ذلك فقد كان من الواضح بالنسبة إلى مصر أن الحكام الصغار فى فلسطين كانوا يلتمسون عونها ومساعدتها ضد الغزاة الشماليين[٤].

---

(١) E.G. Kraeling, op.cit., p. 118-119; A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 341.

(٢) ملوك ثان ١٥ : ٣٠، وكذا:

A. L. Oppenheim, ANET, p. 284; A.H. Gardiner, op.cit., p. 341.

(٣) S.A. op.cit., p. 382.

(٤) A. H. Gardiner, op.cit., p. 341-342.

سادساً - نهاية إسرائيل والسبي الآشوري:

مات «تجلات بلاسر» وخلفه على عرش آشور ولده «شلمنصر الخامس» الذي لم يعش طويلا (٧٢٧-٧٢٢ق.م)، وفي عهده أعلن هوشع ملك السامرة العصيان والثورة ضد آشور[١]، ونقرأ في التوراة أن «ملك أشور وجد في هوشع خيانة، لأنه أرسل رسلا إلى «سوا» ملك مصر، ولم يؤد جزية إلى ملك آشور حسب كل سنة[٢]، والمعروف تاريخياً أنه لا يوجد ملك في هذه الفترة من تاريخ مصر يحمل اسم «سوا»، ومن هنا حاول بعض الباحثين أن يقرنوا هذا الـ «سوا» بـ «سيبه» (توريان مصر) الذي تشير إليه حوليات «سرجون الثاني» (٧٢٢-٧٠٥ق.م) بأنه خرج من «ربيحو» (رفح على حدود فلسطين)، مع «هنو» ملك غزة، لكي يقوما بمعركة حاسمة، وكان «هنو» هذا قدهرب في عهد «تجلات بلاسر» أمام جيشه، «متجهاً إلى مصر»[٣].

ويرى سير ألن جاردنر» أنه ليس من الممكن أن يكون «سوا» أو «سيبه» من الناحيتين اللغوية والتاريخية، هو الملك الأثيوبي «شبكو»، ومن ثم فهذه في أغلب الأمر أسماء قواد، ولعل هذا يبدو أكثر احتمالا، مادام النص الآشوري يشير بعد ذلك إلى قول العاهل الآشوري: «تلقيت الجزية من بيرو صاحب موصرو» التي لا يمكن أن تعني شيئاً سوى «من فرعون صاحب مصر»[٤]، هذا فضلا عن أن «شبكو» هذا لم يحكم مصر إلا في عام ٧١٥ق.م، وأن طلب المساعدة من مصر، إنما تم قبل ذلك بعقدين من الزمان (أي في حوالي عام ٧٢٥ق.م)[٥]، ويرى «أوسترلي» أن «سوا» هذا

(١) Ibid. p. 342. (٢) ملوك ثان ١٧: ٤-٥.

(٣) ANET, p. 283; A.H. Gardiner, op.cit., p. 342.

(٤) A.H. Gardiner, op.cit., p. 342; ANET, p. 286.

(٥) K.A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, p. 373.

ربما كان واحداً من أمراء الدلتا[١]، بل ربما كان ـ فيما يرى جيمس هنرى برستد»[٢]، وهوجوفنكلر وغيرهما[٣] ـ حاكماً لولاية «موصرو» التى تقع فى شمال غرب بلاد العرب، وتحمل اسماً مشابهاً لاسم «مصر».

ويذهب «كتشن» إلى أن طلب «هوشع» ملك إسرائيل المساعدة من «سوا» ملك مصر، إنما يقع فى عهود «أوسركون الرابع» (٧٣٠-٧١٥ق.م) ملك تانيس وبوباسطه (من الأسرة الثانية والعشرين) و«إيو بوت الثانى» (٧٣١-٧٢٠ق.م) ملك لينيتوبوليس Leontopolis (من الأسرة الثالثة والعشرين) و«تف نخت» (٧٢٧/٨٢٨-٧٢٠ق.م) ملك سايس (من الأسرة الرابعة والعشرين)، وأن كل الأسس التاريخية والنصية والجغرافية والسياسية، إنما تجعل من «أوسركون الرابع» أفضل المرشحين لأن يكون «سوا» التوراة هذا[٤].

ويدل لقب «سوا» هذا، وكذا اسمه، على أنه بالتأكيد ليس هو «سيبه» (تورتان مصر، أى قائد جيش مصر) فقائد الجيش ليس هو الفرعون، هذا فضلا عن أن اسم القائد إنما يقرأ Re'e وليس سيبه SiB'e[٥]، وأخيراً فإن النص العبرى لا يمكن أن يقرأ «وزير ملك مصر»، كما اقترح بعض الباحثين[٦].

هذا ويعترض «كتشن» كذلك على أن يكون «سوا» هو «إيوبوت الثانى» وأما «تف نخت» فهناك من يراه «سوا» على أساس أن فترة حكمه كملك (٧٢٧/٧٢٨-٧٢٠ق.م) إنما تناسب والحادث موضوع المناقشة[٦]،

(١) W.O.E. Oesterley, op.cit., p. 228.

(٢) J.H. Breasted, History of Egypt, p. 549.

(٣) Von Bissing, RT, 34, 1912, p. 125F; A.T. Olmstead, Western Asia in the Days of Sargon of Asayria, 1908, p. 56, 70.

(٤) K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, p. 182, 372, 373.

(٥) R. Borger, JNES, 19, 1960, p. 49, 53. (٦) S.Yeivin, VI, 2, 1952, p. 164.

(٦) K.A. Kitchen, op.cit., p. 273.

كما أن هناك من يقترح توحيد الكلمة العبرية «سوا» So' بـ SeWe ، وتفسر على أنها الأصل للاسم الحورى Si-ib للملك «تف - نخت»(١)، إلا أن ذلك خيالا عريضاً إلى حد كبير، كما أنه غير مقبول بصفة عامة، فضلاعن أن الحكام والكتاب الأجانب لا يشيرون إلى الفراعين المصريين إلا بأسمائهم ا لتى ترد فى خراطيشهم، وفى العصر المتأخر (من الأسرات ٢١ إلى ٢٥) بأسمائهم الشخصية فحسب، ومن ثم فإن «سوا» لا يمكن أن يكون Si, ib(٢) هذا وهناك من يقترح القراءة التالية لنص التوراة (ملوك ثان ١٧ : ٤): «أن هوشع قد أرسل رسلا إلى سايس، إلى ملك مصر»، ومعنى هذا أن هذه القراءة تشير إلى ملك مصر دون أن تسميه، أى أنها لا تذكر «تف نخت» بالاسم(٣) وأن «تف نخت» كان أقوى من كل من «أوسركون الرابع» و«إيوبوت الثانى»، ورغم أن ذلك ربما كان صحيحاً إلى حد ما، فإن إمارة «تف نخت» الكبيرة فى غرب الدلتا، ليست أكبر بكثير من المساحة التى يحكمها «أوسركون» الرابع، كوريث للأسرة الثانية والعشرين(٤).

وأما عن محاولة معادلة «سايس» مع «تف نخت» فهناك عدة عقبات تقف أمامها، منها (أولا) أن «سايس» من الناحية الجغرافية إنما هى بعيدة جداً بدرجة لا تسمح للملك «تف نخت» بتقديم العون لملك فى فلسطين، ومنها (ثانيًا) أن قراءة «سوا» فى سفر الملوك الثانى (١٧ : ٤) على أنها «سايس» إنما يستدعى تنقيحًا فى النص لا مبرر له، بل ليست هناك أية ضرورية تطلبه على الإطلاق، ذلك لأن «سوا» اسم شخص و«سايس» اسم مكان(٥).

---

(١) Ramadan Sayed, VI, 17, 1967, p. 116-118. (٢) K.A. Kitchen, op.cit., p. 273.

(٣) H. Geodick, BASOR, 171, 1963, p. 64-66. (٤) K.A. Kitches, op.cit., p. 273.

(٥) سايس: هى «صا الحجر الحالية» وتقع على مبعدة سبعة كيلو مترات شمال غرب مدينة بسيون بمحافظة الغربية، ورغم أن المنطقة الأثرية ومساحتها حوالى ١٠٠ فدان، موزعة فى مناطق تعرف بأسماء: تل صا الحجر وتل الربوة وتل الكوادى، ومعزولة عن منطقة السكن الحالية، فإن رجال الآثار يؤكدون أن أجزاء من البلدة الحالية تقع فوق أجزاء من المدينة الأثرية.

ومنها (ثالثًا) أن هنا تحالفًا قائمًا - أو يكاد - بين العبرانيين والأسرة الثانية والعشرين، منذ أيام، أوسركون الثانى، و«تكلوت الثانى»، ولم تكن مملكة «سايس» معروفة وقت ذاك فى البلاط العبرانى[١].

ومنها (رابعًا) أن الأنبياء العبرانيين فى تلك الأيام الخوالى إنما قد هاجموا بعنف أولئك الرسل الذين كانوا يذهبون إلى شرق الدلتا، وليس إلى سايس البعيدة[٢]، فإشعياء النبىّ (٧٣٤-٦٨٠ق.م) يعلن: «أن رؤساء صوعن أغبياء»[٣]، ثم يندد بالحكام العبرانيين، «الذين ينزلون إلى مصر، ولم يسألوا فمى ليلتجئوا إلى حصن فرعون، ويحتموا بظل فرعون»[٤]، و«لأن رؤساءه صاروا فى صوعن[٥]، وبلغ رسله إلى حانيس»[٦]، وحانيس هذه ربما كانت «هيراقليوبوليس» فى شرق تانيس، وربما كانت Herakieous Mikra Polis فى منتصف الطريق بين تانيس وبلوزيوم[٧] وهكذا كان النبىُّ العبرانى إنما يؤكد فى القرن الثامن قبل الميلاد عدم جدوى التحالف مع فرعون، وأن هذا الفرعون ومستشاريه إنما كانوا فى «تانيس» - والتى كانت عاصمة مصر فى الغالب فيما بين الأسرتين الحادية والعشرين والخامسة والعشرين - وليس فى «سايس» عاصمة «تف نخت»، ومنها (خامسًا) أنه ليس هناك واحد يمكن أن يكون أكثر ملاءمة من «أوسركون الرابع» ملك تانيس وبوباسطة[٨]، لأن يكون «سوا» التوراة هذا، كما أشرنا من قبل.

(١) K. A. Kitchen, op.cit., p. 373-374. (٢) Ibid., p. 374.

(٣) إشعياء ١٩: ١١. (٤) إشعياء ٣٠: ٢.

(٥) صوعن: هى تانيس اليونانية، و«زعنت» (جعن أو زعنتى) المصرية، وهى الآن «صان الحجر» على مبعدة ٢٠ كيلو مترًا إلى الجنوب من مدينة المنزلة الحالية، ١٤ كيلو مترًا إلى الشمال الشرقى من تل فرعون (نبيشة).

(٦) إشعياء ٣٠: ٤.

(٧) A. H. Gardiner, JEA, 50, 1964, p. 94; A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomestica, II, Oxford, 1947, p. 176.

(٨) K.A. Kitchen, op.cit., p. 372-374.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد تقدم الملك الآشورى «شلمنصر الخامس» نحو السامرة، واستمر فى حصارها أعوامًا ثلاثة ـ من السنة السابعة للملك هوشع حتى التاسعة ـ وإذا أمكننا أن نضع سقوط السامرة فى أخريات السنة التاسعة، فإن هذا الحدث التاريخى الخطير، إنما يكون قد تم فى ربيع عام ٧٢٢ق.م فى وقت كان فيه «شلمنصر» مازال ملكًا على أشور، هذا ويقرر سفر تاريخى بابلى ـ يؤرخ بالسنة الثانية والعشرين من عهد الملك دارا الأول الفارسى (٥٢٢-٤٨٦ق.م) ـ أى فى حوالى عام ٥٠٠ق.م ـ ويتحدث عن الفترة من عهد «تجلات بلاسر الثالث» إلى أيام «أشور بانيبال» ـ (أى من عام ٧٤٥ق.م إلى ٦٢٦ق.م ـ أن موت «شلمنصر الخامس» (٧٢٧-٧٢٢ق.م) إنما كان فى شهر Tebetu، وأن اعتلاء سرجون الثانى العرش إنما كان فى اليوم الثانى عشر من نفس الشهر، وهذا يتأخر به إلى ديسمبر ٧٢٢ق.م، كما يعتبر هذا السفر تدمير مدينة «الشامريين» ـ والتى يمكن أن توحد بالسامرة ـ من الأحداث الهامة فى عهد «شلمنصر الخامس» وتؤرخ المعركة بعام ٧٢٢ق.م، وفى الغالب فيما بين الربيع والخريف من هذا العام، وإن كان هناك من يقرأ اسم المدينة على أنها «الشابريين» بدلا من «الشامريين»، ويرى أنها ليست مدينة «السامرة» وإن كان هذا الاحتمال ضعيفًا(١).

وعلى أى حال، فإننا نقرأ فى حوليات العاهل الأشورى، سرجون الثانى (٧٢٢-٧٠٥ق.م) قوله : «فى بداية حكمى، وفى السنة الأولى منه حاصرت السامرة واستوليت عليها، ونقلت من أهلها ٢٧,٢٩٠ مواطنًا، واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكى، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان فيها، فأحللت بها مواطنين جددًا من بلاد كنت قد استوليت

---

(١) J. Finegan, op.cit., p. 208; A.T. Olmstead, Wester Asia in the Days of Sargon of Asayria, p. 45; E.R. Thiele, The Mysterious Numbers of the Hebrew Kings, 1951, p. 122-128; A.T. Olmstead, AJSL, 21, p. 181F.

عليها، وعينت حكاماً عليها، وفرضت عليها الجزية والضرائب، كما يفعل الآشوريون»[١].

وانطلاقاً من هذا، فإن سقوط السامرة إنما قد تم فى أوائل السنة الأولى من عهد «سرجون الثانى»، وأن ذلك قد حدث بعد فترة ما من ديسمبر عام ٧٢٢ق.م، ومن ثم فربما كان ذلك فى عام ٧٢١ق.م، وهذا يتناقض مع رواية «شلمنصر الخامس» التى ينسب فيها سقوط السامرة إلى أيامه[٢]، بل إن هناك رأياً يذهب إلى أن عاصمة إسرائيل هذه إنما قد سقطت فى عام ٧١٥ق.م[٣] وآخر يذهب إلى أنها قد سقطت فى عام ٧١١ق.م[٤].

وعلى أى حال، فإذا كانت السامرة قد سقطت فى ربيع أو حتى خريف عام ٧٢٢ق.م، فقد بقيت شهور قليلة من هذه السنة حتى وفاة شلمنصر فى ديسمبر من تلك السنة، وأن ذلك ربما قد جعل الأمر سهلا بالنسبة إلى سرجون الثانى فى نقوش كتبت فى فترة من عهده من أن ينسب إلى نفسه ـ تيهاً وتفاخراً ـ الفتح الذى قام به سلفه فى الواقع، هذا فضلا، عن أنه فى الشهور القلائل التى سبقت وفاة شلمنصر الخامس، إنما كان قد بدئ بالكاد فى نفى سكان السامرة، وأن الإنجاز الفعلى لهذا النفى، ربما كان من عمل سرجون دون غيره[٥]، أضف إلى ذلك أن سرجون الثانى، ربما كان قد اشترك فى احتلال السامرة مع أخيه «شلمنصر الخامس» قبل اعتلائه العرش، ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن التوراة إنما تقول أن شلمنصر قد حاصر السامرة، وأنهم قد «أخذوها»، فربما تشير صيغة الجمع

---

(١) A.L. Oppenheim, ANET, p. 234; A.G. Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part I, The Annalas, p. 5.

(٢) J. Finegan, op.cit., p. 210.

(٣) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 342; Bull Inst. For, L1, p. 27.

(٤) A.H. Gardiner, op.cit., p. 342.

(٥) J. Finegan, op.cit., p. 210; A. T. Olmstead, AJSL, 47, p. 262F.

هنا إلى اشتراك «سرجون الثانى» مع «شلمنصر الخامس» فى نهاية الحصار، ولكنها من ناحية أخرى، قد تشير ببساطة إلى «الجيش الآشورى» فى صيغة الجمع كذلك[١].

وأيا ما كان الأمر، فإن سرجون الثانى قد هجر أكثر عناصر السكان أهمية ربما النبلاء والأغنياء - إلى «حلح وخابور نهر جوزان وفى مدن مادى» وبعد سنوات قليلة - وربما فى عام ٧٢٠ أو ٧١٥ق.م - وبعد قلاقل فى سورية وفلسطين، ساهم فيها معظم سكان الولايات المختلفة، بما فيها دمشق والسامرة، تكررت العملية على درجة كبيرة، ثم سرعان ما شارك سكان غربى الجزيرة العربية فى هذه الاضطرابات بنصيب كبير أو قليل، وحين نجح العاهل الأشورى فى القضاء على هذه الاضطرابات، عمل - كما تقول التوراة - على أن يأتى بقوم آخرين، وأن يسكنهم هذه الأقاليم، ومن بينهم مجاميع من العرب، حددهم النص الآشورى «بقبائل تامودى وإيباديدى ومرسيما نو وجبايا[٢] والعرب الذين يعيشون بعيداً فى الصحراء، والذين لا يعترفون برؤساء وموظفين، والذين لم يكونوا قد جاءوا بجزاهم لأى ملك، سبيت الأحياء منهم، ونقلتهم إلى السامرة»[٣].

ونقرأ فى التوراة فى سفرى الملوك الثانى وعزرا[٤] - أن العاهل الأشورى قد جاء كذلك بقوم من بابل وكوت (تل إبراهيم على مبعدة ٢٤ كيلاً إلى الشمال الشرقى من بابل) ومن عوا وحماه روسفر وايم (وهما بلدتان على ضفتى الفرات، على مبعدة ٢٥,٥ كيلاً جنوب غرب بغداد، ويرى «رسام»

---

(١) J. Finegan, op.cit., p. 210, No. 29.

(٢) انظر عن هذه القبائل العربية الشمالية: الويس موسل، شمال الحجاز، ترجمة عبد المحسن الحسينى، الإسكندرية ١٩٥٢، ص ٩١-٩٥؛ محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، ص ٢٦٣-٣٠٧، الرياض ١٩٨٠م.

(٣) A. L. Oppenheim, in ANET, 1966, p. 286.

(٤) ملوك ثان ١٧: ٢٤؛ عزرا ٢٤: ٩.

أنها «أبو حبه» الحالية، بينما يرى آخرون أنها «شومورية» شرقي بحيرة حمص) ومن سوسة وعيلام، وربما كان الآشوريون يهدفون من وراء ذلك إلى كسر التحالفات القديمة، بإدخال أجانب في البلاد، ربما كانوا في بعض الحالات من الآشوريين أنفسهم، وبداية لظروف جديدة أكثر ملاءمة للإمبراطورية الآشورية الطموح، ومن الصعب أن نقدر أهمية هذا التهجير، وإن كان على الأقل قد عمل على تحطيم الروابط الاجتماعية والسياسية والدينية، بدرجة أكثر فاعلية عما سبقه من إجراءات، وبدون شك فإن الغزوات الآشورية قد عجلت بنهاية الدويلات السامية المنهارة، كما أن الأحوال القديمة قد تغيرت، واختفت المعالم القديمة، واضمحلت المشاعر المحلية والقومية، ودمرت الدويلات الحاجزة وأدى سقوط الممالك الآرامية إلى إضعاف أفرايم، وكشف سقوط الأخيرة يهوذا[١].

وأياً ما كان الأمر، فإن الآشوريين قد أعادوا تنظيم مملكة السامرة على أساس أنها إقليم أشوري يخضع لإمرة حاكم أشور وعززوا الحامية العسكرية الآشورية بجنود من مستوطنين أتوا بهم من بلاد بعيدة، حدث لها ما حدث لفلسطين، وأخيراً فإن هؤلاء قد تزاوجوا مع السكان الأصليين،وهجروا تقاليدهم إلى حد ما، وظهر جنس جديد هم «السامريون» ـ نسبة إلى السامرة عاصمتهم ـ قريب الشبه بجيرانه اليهوذيين دماً وثقافة، وإن اختلفوا عنهم في ميولهم السياسية[٢]، وقد أدى ذلك كله إلى ظهور نظرة جديدة للأمور ـ بعد العودة من النسبي البابلي ـ تتجه إلى أن إسرائيل الشمالية ليست نقية، وأن يهوذا إنما هي الوريث الوحيد للتقاليد الإسرائيلية، ومن هنا فإن الشمال ليس كفؤاً لها ومقاسمتها مميزاتها[٣].

---

(١) S.A. Cook, CAH, III, 1965, p. 383-385.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 28-29.

(٣) أخبار ثان ١٢ : ٨، ٢٥ : ٧؛ عزرا ٤ : ٣.

وانطلاقاً من هذا، فمن الضرورى أن نعترف أننا ننظر إلى التاريخ - من خلال التوراة - بعيون رجال يحفظون ذكرى النفور العميق للسامريين، وليس هذا فحسب، بل إن «اليهوذيين» إنما كانوا يشعرون أنهم أرقى أرومة من الآخرين، ولما كانت إسرائيل قد أزيلت من فلسطين، فإننا نجد أن مصادرنا معتمدة على مملكة يهوذا، وحيث أن السامرة بعيدة عن منطقة الكتاب (كُتّاب التوراة)، فهى غالبًا ليست موجودة، وأنه منذ ازدهار النقد الحديث فحسب بدأ العلماء يبحثون فيما وراء النظرة اليهوذية للأحداث، معترفين بأن طبيعة الأشياء المتعلقة بائنتين لن تنتهى، وأن هذا التاريخ لجنوب غربى آسيا - بعد عام ٧٢٢ق.م - ليس إلا وجهة نظر ناقصة تمامًا للتطور المتتابع فى فلسطين نأخذها من سجلات يهوذا غير الكافية، والتى تتطلب الحذر منه[١].



(١) S.A. Cook , op.cit., p. 386-387.



الفصل الثالث

دويلة يهـــــوذا

(١) رحبعام (٩٢٢-٩١٥ق.م)

قامت دويلة يهوذا - كما قامت دويلة إسرائيل - بعد وفاة سليمان، ثم جلوس ولده «رحبعام» على عرشها، وإن اختلف عرشها هذا، عن عرش إسرائيل في أنه لم يكن دائمًا مثار نزاع داخلى، ولم ينتقل من بيت إلى آخر، بين آونة وأخرى، كما كان الأمر هناك في إسرائيل، وهكذا فإن الأسرة المالكة في «يهوذا» قد نالت نفوذًا على الشعب الذى لم يقدر له أبدًا أن يستأصل شأفتها، حتى حين أصبح الاستقلال حلمًا بعيد المنال، ولكن تاريخها تميز - في الغالب الأعم - بعلاقات العداء مع إسرائيل.

ونقرأ في التوراة أنه «في السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب، وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء، وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان، فعمل الملك رحبعام عوضًا عنها أتراس نحاس[١]، ومن الواضح أن الكاتب العبرانى لم يفزعه تدنيس المدينة المقدسة، بقدر ما ضايقه ضياع دروع الذهب التى صنعها سليمان والتى استبدلت بمثلها من نحاس، وليس هناك ذكر لمدينتى «جازر» و«أورشليم بين الأسماء الباقية التى تصحب المنظر الكبير في البوابة البوباستية، وهى الأسماء التى تقدم بالصورة التقليدية، التى اعتدناها فيما يتصل بحروب فرعون مصر العظيم «تحوتمس الثالث»، بمعنى أنها ملحقة بصدور أسرى تقودهم صورة فرعون العملاقة إلى الأمام، كمقدمة لأبيه «آمون رع»[٢].

---

(١) ملوك أول ١٤ : ٢٥-٢٧.

(٢) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 229-230.

وأما الحصر العددى فمدعاة لليأس، ذلك أنه من بين ١٥٠ مكاناً ذكرت، لا نلتقى إلا بالقليل محفوظاً ليمهد لنا تحديد طرق تدور فى النواحى حول المنطقة الجبلية للسامرة، دون الوصول إلى مركز المملكة الإسرائيلية، بل إنه ليست هناك أية إشارة إلى أنهم قد اقتربوا من اليهودية إطلاقاً - وإن كان هناك من يرى عكس ذلك، كما سوف نرى - ومع ذلك فهناك ما يشير إلى غارة على الإقليم الأدومى، وأما الفكرة التى ظلت قائمة طويلا من أنه يمكن قراءة «حقل أبراهام» فى القائمة، فقد صرف النظر عنها نهائياً اليوم[1].

وعلى أى حال، فإن حملة شيشنق هذه، إنما قد وصلت إلى شرق الأردن - حيث فر رحبعام، حتى وصل إلى فنوئيل ومحانيم، التى لجأ إليها جده داود من قبل، كما وصلت فى الشمال إلى سهل يزرعيل والجليل، وأما فى الجنوب فقد وصلت إلى «عصيون جابر» على خليج العقبة، وإلى حبرون وبئر سبع وغيرهما من مدن جنوب يهوذا، وإلى سهل عكا وغزة فى الغرب[2].

هذا ويعزى إلى شيشنق» تدمير مدينة «تل بيت مرسيم» من الطبقة B وقد كان تدميراً عنيفاً، حتى اقتلعت المدينة القديمة تماماً من جذورها، وحلت مكانها أبنية تدين بالقليل فى تخطيطها إلى ما سبقه من مبان فى نفس الموقع [3] وأما المدينة الأخرى التى ينسب تدميرها إلى الفرعون فهى «بيت شمس»، حيث وجدت مبانى الطبقة الثانية (أ)، مغطاة بطبقة من الرماد نتيجة حريق هائل، ورغم أن هناك من يؤرخ هذا الحريق بحوالى عام ٩٥٠ق.م، فالأكثر احتمالا أنه كان فى عام ٩٢٦ق.م، ومن جراء غزوة

---

(١) Ibid., p. 230.

(٢) Y. Aharoni, The Land of the Bible, 1966, p. 288-289.

(٣) K.M. Kenyon, op.cit., p. 272-273; G.E. Wright, Biblical Archaeology, 1957, p. 149.

«شيشنق»، لأن الحريق لو تم في منتصف القرن العاشر، فلابد أن يكون قد حدث بطريق الصدفة، وليس بفعل عدو للمدينة، ذلك لأن سلطة سليمان في تلك الفترة إنما كانت جداً قوية[١] وعلى أى حال، فإن غزوة شيشنق إنما تركت أثراً كبيراً في عدة مدن، مثل مجدو وشكيم وغيرهما[٢].

وأما متى كانت هذه الحملة، فإن هناك من يراها في السنوات الأخيرة من حكم شيشنق[٣]، ومن يراها في عام ٩٣١ق.م[٤]، ومن يراها في عام ٩٢٦ق.م[٥]، ولعل السبب في هذا الاختلاف إنما يرجع إلى الاضطراب في التاريخ لملوك إسرائيل، أكثر منه للفراعين المصريين، وعلى أى حال، فإننا نفضل الاتجاه الأول، بخاصة وأننا قد ارتضينا من قبل أن سليمان قد انتقل إلى جوار ربه الكريم في حوالى عام ٩٢٢ق.م، وبما أن هذه الحملة قد حدثت بعد وفاة سليمان، فلابد إذن من أن تؤرخ بتاريخ لاحق لوفاته.

وأياً ما كان الأمر، فإن الكشف في «مجدو» عن قطعة جاء بها ذكر «شيشنق» لا يدع مجالا للشك في صحة الحملة، وإن ظل الأمر غامضاً تماماً فيما إذا كانت هذه محاولة لإحياء الأمجاد المصرية القديمة، أو هى خطة لتدعيم مركز يربعام، أو هى غارة سلب ونهب، وليس أكثر من ذلك[٦].

والرأى عندى أن الحملة إنما كانت تهدف إلى الأمرين الأولين معاً،

(١) G.E. Wright, JBL, 75, 1956, p.216; K.M. Kenyon, op.cit., p. 273-274.

(٢) D.W. Thomas, Archaeology and Old Testament Study, 1967, p. 333, 366; G.E. Wright, B.A., 1957, p. 148-149.

(٣) J. Bright, A History of Israel, Philadelphia, 1959, p. 213.

(٤) A. H. Gardiner, op.cit., p. 229.

(٥) K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, p. 272.

(٦) A. T. Olmstead, History of Palestine and Syrin, 1931, p. 355; A.H. Gardiner, op.cit., p. 230; J. Bright, op.cit., p. 213F.

فمصر إنما كانت قد بدأت فى هذه الفترة تسترد أمجاد الأجداد العظام، وأن «شيشنق» إنما كان يريد استعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الإمبراطورية المصرية من جديد، بل إن الأمور، إنما قد بدأت تسير فى هذا الاتجاه منذ أيام الأسرة السابقة (الأسرة الحادية والعشرين)، وذلك حين آوت مصر الفارين من «داود»، ولكنها فى عهد ولده سليمان إنما كانت أكثر حسماً، فهى تطلق سراح ابن ملك أدوم، وهى تأوى «يربعام» الذى فرّ من وجه سليمان، ثم هى مرة ثالثة تحاول ألا تصل الأمور معه إلى حد الاشتباك المسلح، فتحتل جيوشها مدينة «جازر» ثم تقدمها مهراً لابنة فرعون، وزوج سليمان، بل إن «برستد» ليذهب إلى حد القول أن سليمان نفسه إنما كان وقت ذاك والياً تحت النفوذ المصرى فى فلسطين[1] وتلك مبالغة لا ريب فيها.

وينتقل سليمان، عليه السلام إلى جوار ربّه راضياً مرضياً عنه، وترى مصر ـ على ما يبدو ـ فى ذلك ساعة الصفر، فتطلق سراح يربعام، أو بالأحرى تسمح له بالعودة إلى فلسطين، ليقود الثورة ضد رحبعام، وحين يتم له الاستقلال بدويلة إسرائيل، تقف من ورائه تعضده وتسانده، ولكن يبدو أن «يربعام» ـ رجل مصر فى فلسطين ـ لم يجد الأمور تسير، كما يحب ويهوى، فربما اعترضته عقبات كؤود، وربما تعرض لغزو من «رحبعام»، ومن ثم فقد استنجد ـ فيما يرى سيسل روث [2]، وأودلف لودز[3]، وهول[4] ـ بشيشنق، فيهتبل الأخير الفرصة، فيقوم بحملته التى أراد بها ـ بجانب مساعدة يربعام ـ إعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الإمبراطورية المصرية[5]، الأمر الذى تابعه فيه الكثيرون من خلفائه، قدر

---

(١) J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 529.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 31.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 374-375.

(٤) H. R. Hall, op.cit., p. 436-437.

J. Bright, op.cit., p. 213F; E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1956, p.525.

(٥) H. R. Hall, op.cit., p. 439.

طاقتهم، وليس - كما يقول هول - لإحضار الدروع الذهبية من معبد سليمان والبقية الباقية من خزائن كهنوت «يهوه» ليضمن بذلك ثراء لآمون، الذى لم يكن فى ذلك الوقت على ميسرة، كالتى كانت فى الماضى القريب[١].

ومع ذلك، فلعل من الجدير بالملاحظة أن «شيشنق» لم يحاول المضى فى فتوحاته إلى سورية، كما أن الرجل إنما قد اعترف على جدران معبد الكرنك، بأن الغنائم والجزى التى جاء بها من فلسطين، إنما قد وهبها لربّه آمون، وأن النقوش التى تزين معبد الكرنك الكبير، إنما توضح إلى حد بعيد مدى التضرع والتوسع من الفرعون لربّ طيبة[٢].

وعلى أى حال، فإن التدخل المصرى فى إسرائيل، ولم تمض على موت سليمان سنوات خمس، فضلا عن احتلال العديد من المدن، والاستيلاء على خزائن معبد سليمان وقصره، لدليل واضح على مدى ضعف الإسرائيليين، بل إن التوراة إنما تنوه بخضوع دويلة يهوذا لمصر، أو على الأقل، فإن معظم المدن هناك إنما قامت بدفع الجزية لمصر[٣].

(٢) أبيام (٩١٥-٩١٣ق.م):

ورث أبيام أباه رحبعام على عرش يهوذا، ولمدة سنوات ثلاث، وإن كانت التوراة مضطربة بالنسبة للملك الجديد، فهو أبيام بن رحبعام من زوجه معكة ابنة أبشالوم على رواية[٤]، وهو أبيام بن رحبعام من زوجه ميخايا بنت أوريئيل من جبعة على رواية أخرى[٥]، وعلى أى حال، فلقد وجد ملك يهوذا الجديد، أنه لا مخرج له من اعتداءات جارته إسرائيل، إلا

(١) Barguet, Temple d'Amon- Re a Karnak, Paris, 1962, p. 122-123;

(٢) G.R. Hughes, Relifes and Inscriptions at Karnak, Vol. III, The Bubastie Portal, Chicago, 1945, p. 2.

(٣) أخبار أيام ثان ١٢ : ٨؛ وكذا: S.A. Cook, op.cit., p. 359.

(٤) ملوك أول ١٤ : ١، ١٥ : ١-٨.

(٥) أخبار أيام ثان ١٣ : ٢١.

بالتحالف مع دمشق[١]، ويقص علينا كاتب الحوليات العبرانى أن «أبيام» قد انتصر على «يربعام الأول» ملك إسرائيل، واحتل بيت إيل وبعض مدن أفرايم الجنوبية[٢].

(٣) أســا (٩١٣ - ٨٧٣ق.م):

وجاء بعد أبيام ولده «أسا»، و«ملك إحدى وأربعين سنة»[٣]، ونقرأ فى التوراة[٤] أنه كان «يهويا» مخلصًا، أخرج من معبد سليمان، الإله الأنثى التى كانت تقطن بجوار «يهوه» وطرد العاهرات المقدسات، وأزال المأبونين من أرض يهوذا، وسحب من أمه معكة ابنة أبشالوم[٥]، لقب «الملكة الأم»، لأنها كانت تؤيد الوثنية[٦]، وتتعبد إلى إله الإخصاب الكنعانية «عشتارت» ومن المعروف أن هذه الأمور قد انتقلت إلى الإسرائيليين من ديانة «بعل» الذى اشتهر بشرب الخمر والانغماس فى الجنس[٧]، وأما المرتفعات التى كانت قد أسست على نمط كنعانى بأعمدة وسوارى مقدسة، فقد بقيت كما كانت، لأنهم إنما كانوا يظنون أن ذلك كان مجرد عادة، ولا يحمل بين طياته أية أهداف وثنية[٨].

وأما عن علاقة «أسا» بإسرائيل، «فقد كانت حرب بين أسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامهما، ومن ثم فقد اضطر «أسا» أن يرشو «بن حدد»

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 31; A. Lods, op.cit., p. 376.

(٢) أخبار أيام ثان ١٣ : ٣-٢٢.

(٣) ملوك أول ١٥ : ١٩؛ أخبار أيام ثان ١٦ : ١٣.

(٤) ملوك أول ١٥ : ٩-١٥؛ أخبار أيام ثان ١٤ : ١-٥.

(٥) لعل هذا نوعًا من الاضطراب المعروف فى التوراة، فكما أشرنا من قبل -وفى نفس الإصحاح- أن معكة ابنة أبشالوم، إنما هى أم أبيه وليست أمه هو (ملوك أول ١٥ : ٢؛ ثم قارن ١٥ : ١٠).

(٦) باروخ سبينوزا، رسالة فى اللاهوت والسياسة، ص ٤٢٤.

(٧) ثروت أنيس الأسيوطى، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، الجماعات البدائية، بنو إسرائيل، القاهرة، ١٧٤.

(٨) I. Epstein, op.cit., p. 46.

ملك دمشق للقيام بحركة تحول بين قوات إسرائيل وبين الغارة على يهوذا، وقد استجاب الملك الآرامى لتوسلات أسا، مما اضطر إسرائيل إلى أن تتخلى عن مشروعاتها تجاه يهوذا[١].

(٤) يهو شافط (٨٧٣-٨٤٩ق.م):

خلف «يهو شافط» أباه «أسا» على عرش يهوذا، ولمدة ربع قرن، نهج إباتها نهج أبيه وأكمل بعض مشرعاته، ونقرأ فى التوراة أنه أزال «بقية المأبونين الذين بقوا فى أيام أسا أبيه»، إلا أن المرتفعات لم تنتزع، بل كان الشعب لا يزال يذبح ويوقد على المرتفعات[٢]، هذا وقد عمل العاهل الجديد على إعادة تنظيم الجهاز اليهوذى الكامل للبلاد، فعين قضاة فى كل المدن، لإقامة العدالة كما يطلب القانون التثنوى - وللوصول إلى مدى بعيد فى إصلاحه القضائى، فقد عمل «يهو شافط» على فصل القانون الدينى، عن القانون المدنى، كما وضع على رأس القضاء الكاهن الأكبر «أمريا» وفوق الجميع كان ممثله الشخصى، وأخيراً فلقد وضع الإجراءات الكفيلة بنشر «سفر شريعة الربّ بين الناس فى كل مدن يهوذا»[٣].

ولعل أهم ما يميز عهد «يهو شافط» تلك العلاقة الودية بين إسرائيل ويهوذا، وإن كانت تبعية الثانية للأولى إنما هى جد واضحة، وقد تزوج ولى العهد «يهورام» من «عثليا» - ابنة أخاب وإيزابيل[٤] - كما اشترك «يهو شافط» مع ملكى إسرائيل وأدوم فى حملة فاشلة ضد مؤاب[٥]، وعلى أى

(١) ملوك أول ١٥: ١٦-٢٤؛ أخبار أيام ثان ١٦: ١-٦.

(٢) ملوك أول ٢٢: ٤٢-٤٦.

(٣) تثنية ١٦: ١٨-٢٠؛ أخبار أيام ثان ١٧: ٩، ١٩: ٥-١١؛ وكذا:

I. Epstein, op.cit., p. 46-47.

(٤) ملوك ثان ٨: ١٨؛ أخبار أيام ثان ٢١: ٦.

(٥) انظر عن هذه الحملة: ملوك ثان ٣: ٤-٢٧؛ وكذا:

S. A. Cook, op.cit., p. 372; M.F. Unger, op.cit., p. 756-7; J.Finegan, op.cit., p. 188-189; W. Keller, op.cit., p. 230-234.

حال، فلقد كان التحالف مع إسرائيل مثمراً بالنسبة لملك يهوذا، إذ ساعد ذلك على أن يصون البقية الباقية له من نفوذ فى أدوم، وفى أن يبنى فى «عصيون جابر» أسطولا، ونقرأ فى التوراة - فى سفر الملوك الأول[1] - أنه قام ببناء السفن بمفرده، وحين عرض عليه «أخزيا» ملك إسرائيل الاشتراك فى المشروع رفض، ولكننا نقرأ فى سفر الأخبار الثانى أنه «اتحد مع أخزيا» فى عمل سفن تسير إلى ترشيش، فعملا السفن فى عصيون جابر»[2].

وسواء أكان نص التوراة الأول هو الصحيح، أم كان الثانى، فإن «يهو شافط» إنما أراد من عمل الأسطول استعادة نشاط البعثات التجارية التى كانت على أيام سليمان غير أن السفن قد تحطمت فى ميناء عصيون - جابر، وباءت المحاولة بفشل ذريع، ولم يكن السبب - كما تروى التوراة -[3] اتحاده مع أخزيا، وإنما كان لأن قومه العبرانيين لم يكونوا على دراية ببناء السفن، ولأن مشروع سليمان قد نجح من قبل بسبب مهارة البحارة الفينيقيين وخبرتهم فى المجال البحرى والتجارى، وأياً ما كان الأمر فلم نسمع بعد ذلك عن أية محاولات إسرائيلية لإقامة مشروعات بحرية تهدف إلى الإتجار مع البلاد الواقعة على مسافات بعيدة عن فلسطين[4].

(٥) يهـــورام (٨٤٩-٨٤٢ق.م):

جاء «يهورام» بعد أبيه «يهو شافط» فى السنة الخامسة ليهورام (أو يورام) ابن أخاب ملك إسرائيل، «وملك ثمانى سنين فى أورشليم»[5]، وقد ظهرت آثار المصاهرة بين إسرائيل ويهوذا فى عهده واضحة، فقد أدت -

---

(١) ملوك أول ٢٢: ٤٨-٤٩.
(٢) أخبار أيام ثان ٢٠: ٣٥-٣٧.
(٣) أخبار أيام ثان ٢٠: ٣٧.
(٤) جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/ ٦٤٠-٦٤١، (بيروت ١٩٦٨م)؛ وكذا:
James A. Montgomery, Arabia and the Bible, p. 179.
(٥) ملوك ثان ٨: ١٦-١٧.

ولأول مرة - إلى إدخال عبادة «البعل» فى يهوذا، كما جعلت القتل وسيلة من وسائل سياسة الدولة، وأثبتت «عثليا» حقيقة أنها ابنة أمها، فتحت نفوذها القوى ونتيجة لتأثيرها غير المحدود على زوجها «يهورام» لم يحتضن يهورام عبادة «بعل» صور فحسب، ولكنه كذلك عقد العزم على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد، وربما لكى يزيل المعارضة عن هدفه فى سياسة عبادة الأوثان، فقد قتل إخوته الستة، كما قتل كذلك بعض النبلاء، وإن كان من المحتمل كذلك أن التنافس على العرش كان السبب فى هذه المجزرة المروعة[١].

ولكن الأمور فى الخارج استدعت حملة على أدوم، التى انتهزت فرصة هزيمة إسرائيل ويهوذا على يد مؤاب، وأطاحت بولائها ليهوذا، وحاول يهورام - كما فعل أبوه من قبل - أن يستعيد نفوذه هناك، ولكنه لقى هزيمة منكرة كان من نتائجها ضياع أدوم ولبنه[٢] - بين مقيدة ولخيش، والتى يرجح أنها المكان المسمى الآن تل بورناط على مبعدة ميلين إلى الشمال الغربى من بيت جبرين، وإن ظن البعض أنها تل الصافى أو الصافية[٣] - .

ونقرأ فى التوراة أن الفلسطينيين والعرب - الذين بجوار الكوشيين - قد هاجموا يهوذا فى عهده، واستولوا عليها، وعلى أموال القصر، وسبوا بنيه وبناته، ولم يبق له إلا أصغر بنيه (يهو أحاز)[٤]، ويرى «مرجليوت» أن المراد بالعرب هنا سكان اليمن، وأن الهجوم كان بحرًا، بدليل أنهم سرعان ما تراجعوا إلى منازلهم بغنائمهم، وبما حصلوا عليه من أموال، دون أن يفضلوا البقاء فى أورشليم (القدس)، والاستيلاء على دولة يهوذا، بمساعدة

(١) ملوك ثان ٨: ١٨-١٩؛ أخبار أيام ثان ٢١: ١-٧؛ وكذا: I. Epstein, op.cit., p. 47.

(٢) ملوك ثان ٨: ٢٠-٢٢؛ أخبار أيام ثان ٢١: ٨-١٠.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ٨١١/٢.

(٤) أخبار أيام ثان ٢١: ١٦-١٧ (لاحظ تناقضه مع ٢٢: ١) الذى يرى أن الذى بقى حيًا هو «أخزيا».

الفلسطينيين الذين كانوا يسكنون السواحل الفلسطينية[١]، وسواء أكانت كلمة «العرب» هنا تعنى سكان اليمن، أو تعنى - فيما يرى الويس موسل[٢] - العرب النازلين في الأقسام الجنوبية والغربية من سيناء - وكانت موطناً قديماً للعرب - فإن هذه الهزائم التى منيت بها «يهوذا» على أيدي العرب والفلسطينيين (وهم عناصر غير سامية) لأكبر دليل على ضعف يهوذا، وقوة أعدائها.

وأخيراً أصيب «يهورام» بمرض فى أمعائه، وبأمراض أخرى خبيثة، «وذهب غير مأسوف عليه ودفنوه في مدينة داود، ولكن ليس فى قبور الملوك»[٣]، تاركًا بلاده، وقد أنهكها خصام مرير، وأفقرها ضياع أدوم، وبالتالى ضياع حركة مرور قوافلها فيها، فضلا عن تجارة البحر الأحمر، ومناجم المعادن، التى لعبت دوراً هامًا فى اقتصاديات الدولة اليهودية الضعيفة[٤].

(٦) أخزيا (٨٤٣ق.م):

خلف يهورام على عرش يهوذا ولده «أخزيا» من «عثليا» ابنة أخاب وإيزابيل الصورية، وسار على نهج أبيه فى فترة حكمه التى لم تتجاوز العام[٥]، فاشترك مع خاله «يهورام» (يورام) ملك إسرائيل فى حملة ضد «حزائيل» ملك أرام «راموت جلعاد»، حيث أصيب بطعنة من أحد رجال «ياهو» الإسرائيلى، لقى حتفه بسببها فى «مجدو»[٦].

---

(١) D.S. Margoliouth, The Relations Between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London, 1924, p. 52.

(٢) A. Musil, The Northern Hegaz, N.Y., 1926, p. 274.

(٣) أخبار أيام ثان ٢١: ١٨-٢٠.

(٤) Isidore Epstein, op.cit., p. 47.

(٥) أخبار أيام ثان ٢٢: ١-٤.

(٦) ملوك ثان ٩: ٢٧-٢٩؛ أخبار ثان ٢٢: ٥-٩.

(٧) عثليا (٨٤٣-٨٣٧ق.م):

وتصل الأخبار إلى أورشليم، وتعلم عثليا بموت ولدها «أخزيا»، وقد كانت شديدة الرغبة في العرش، فتقتل أبناء الأسرة المالكة، وتعلن نفسها ملكة على يهوذا، وتعلن عبادة «بعل» الصورى، عبادة رسمية[1]، بل إن «سيسل روث» إنما يذهب إلى أن هذه المرأة القوية، إنما كانت تخطط لإقامة أسرة ملكية جديدة في أورشليم من موطنها صور[2] - أو بالأحرى من موطن أمها «إيزابيل» ذلك لأن عثليا إنما هي ابنة أخاب ملك إسرائيل، ولعل «سيسل روث» إنما نظر إلى هذه المرأة من ناحية أمها، طبقًا للتقاليد اليهودية، التي ترى أن من كانت أمه يهودية فهو منهم، لا يعنيهم على أي دين كان أبوه، هو يهودي صميم، حتى وإن ظل أقلف غير مختتن[3]، والأمر بالنسبة إلى «عثليا» إنما هو عكس ذلك، فهي من أم صورية، وأب إسرائيلي.

وعلى أي حال، فقد انتهى حكم «عثليا» بعد سنوات ست (٨٤٣-٨٣٧ق.م)[4]، إما بمؤامرة من الجيش، أو بتمرد عام ضد عبادة «البعل» الذي جعلت منه عبادة رسمية في يهوذا، وعلى أي حال، فإن كلا الرأيين قد وردا في التوراة - في الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الثاني - كما أن قصة «عثليا» بأكملها ماتزال غامضة، فطبقًا للتقاليد التي أشرنا إليها، فإن عثليا قد بدأت عهدها بقتل كل أمراء الأسرة المالكة، بما فيهم أحفادها جميعًا وأن واحدًا منهم مجهول من عثليا قد أنقذ من المذبحة المروعة، وخبئ في المعبد، وفي الواقع أنه ليست هناك بواعث كافية لهذه

---

(١) ملوك ثان ١١ : ١؛ أخبار ثان ٢٢ : ١٠؛ وكذا: I. Epstein, op.cit., p. 47.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 32.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 168.

(٤) قارن: W. F. Albright, The Biblical Period, p. 116.

المجازر البشرية، ذلك لأن عثليا إنما كانت تستطيع أن تقبض على زمام السلطة، بصفتها أم الملك المتوفى، ووصية على واحد من أحفادها أثناء صغره[١].

(٨) يهو آش (٨٣٧-٨٠٠ق.م):

نجح «يهو ياداع» الكاهن الأكبر، وصهر البيت المالك (زوج «يهو شبعة» ابنة يهورام، وأخت أخزيا، وعمة يهوآش في أن يجلس «يهوآش» (يوآش) - الطفل الذى كان قد خبئ في المعبد - وهو ما يزال في السابعة من عمره، على عرش يهوذا، وأن يقتل عثليا، وأن يدخل جميع الشعب، «إلى بيت البعل وهدموا مذابحه وكسروا تماثيله تماماً، وقتلوا «متان» كاهن البعل أمام المذابح»[٢].

وهكذا أصبح «يهو آش» ملكاً على يهوذا، ولمدة أربعين سنة تالية، فيما ترى التوراة[٣]، وسبع وثلاثين سنة (٨٣٧-٨٠٠ق.م) فيما يرى «وليم أولبرايت»[٤]، واستمر «يهوْ ياد ع» يباشر نفوذه الديني - وربما السياسي كذلك - على الملك والشعب سواء بسواء، طوال الأيام الباقية بعد ذلك من حياه، ثم سرعان ما تتغير الأمور بعد وفاته، فيعيد الملك والنبلاء عبادة البعل، مرة ثانية، ويهدد «حزائيل» ملك دمشق يهوذا، فيقدم له «يهوآش» «كل الذهب الموجود في خزائن بيت الربِّ وبيت الملك... فصعد عن أورشليم وقد أدى ذلك كله - إلى جانب ردته، وانتهاك حرمة المعابد، وتدخل القصر في ضرائب المعبد - إلى اغتياله بيد اثنين من عبيده[٥].

---

(١) A. Lods, op.cit., p. 384-385.

(٢) ملوك ثان ١١ : ١-٢١؛ أخبار أيام ثان ٢٣ : ١٥.

(٣) ملوك ثان ١٢ : ١؛ أخبار أيام ثان ٢٣ : ١.

(٤) W.F. Albright, op.cit., p. 166.

(٥) ملوك ثان ١٢ : ١-٢١؛ أخبار أيام ثان ٢٤ : ٤-٢٦؛ وكذا: I. Epstein, op.cit., p. 47-48.

(٩) أمصيا (٨٠٠-٧٨٣ق.م):

ويخلف أمصيا أباه يهوآش على عرش يهوذا، ويعاقب الجناة على ما اقترف أيديهم ولكنه لم ينل بالأذى أولادهم، ونقرأ فى التوراة[١] أنه عمل المستقيم فى عينى الرب، وإن ظلت المرتفعات كما كانت يذبح القوم لها، ويوقدون عليها، وأنه حاول أن يسترد أدوم، ونجح فى الاستيلاء على سالع (البتراء)، ومن ثم فقد أطلق عليها اسم «يفتئيل» بمعنى «الخاضع لله»[٢] وطبقًا لما جاء في التوراة فإن أمصيا قد أحضر معه آلهة أدوم، وسجد أمامها وأوقد لها[٣].

ويبدو أن أمصيا قد انبهر بانتصاره على أدوم، ومن ثم فقد تحدى «يوآش» (يهوآش ٨٠١-٧٨٦ق.م) ملك إسرائيل، وتلاقى الخصمان فى معركة عند «بيت شمس»، كتب فيها النصر لملك إسرائيل على أمصيا وأسره كذلك، ثم اتجه يوآش إلى أورشليم، وهدم جزءًا من السور الشمالى، وغنم ما فى القصر والمعبد، ثم حمل الرهائن إلى السامرة، وإن سمح لأمصيا أن يحتفظ بالعرش وربما كتابع له ـ وقد أدى ذلك كله إلى أن تظل يهوذا تابعة لإسرائيل، وإلى أن تقوم فتنة ضد أمصيا يهرب من جرائم إلى لاخيش، وهى تلك الحسى على مبعدة ٥٦ كيلاً جنوب غرب أورشليم ـ فيتجه المتآمرون إلى هناك ويقتلونه[٤].

(١٠) عزيا (٧٨٣-٧٤٢ق.م):

تبع «عزيا» أو «عزريا» أباه أمصيا على العرش، وكان موفقًا فى تقوية مملكته، وقد حدثت بينه وبين الفلسطينيين عدة احتكاكات تمكن فيها من

(١) ملوك ثان ١٤ : ١-٧؛ أخبار أيام ثان ٢٥ : ١-١٦.

(٢) A.B.W. Kennedy, Petra, History and Monuments, London, 1925, p. 78; . Hastings, op.cit., p. 853.

(٣) أخبار الأيام الثانى ٢٥ : ١٤.

(٤) ملوك ثان ١٤ : ٨-٢٠؛ أخبار أيام ثان ١٥ : ١٧-٢٨؛ وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 35-386; S.A. Cook, op.cit., p. 376.

تهديم بعض مدنهم، كما شيد أبراجًا للدفاع عن أورشليم، وأعاد تنظيم الجيش، وقد تجاوز اهتمامه الشئون العسكرية، فنشط الزراعة بحفر الخزانات، وحمى قطعانه فى البرية ببناء أبراج لاتزال بعض آثارها حتى اليوم، ويمكن معرفتها بقطع الخزف المؤرخ، غير أننا نشهد فى أخريات أيامه نزاعًا حادًا بينه وبين كهنوت يهوه، ثم يصاب الملك بالبرص حين أراد اغتصاب وظائف الكهنوت، ويظل كذلك حتى وفاته، ورغم وصف التوراة له بأنه قد عمل المستقيم مع الربّ، إلا أن المرتفعات ظلت كما هى، يذبح الشعب ويوقدون عليها[١].

وفى عهد عزيا هذا تجدد النزاع بين اليهود والعرب الساكنين فى «جوربعل» والمعونيين[٢]، وأما «جور بعل» فهو مسكن بعل، فيما يرى بعض علماء التوراة، ومن ثم فإن «الويس موسل» إنما يضعها فى الزاوية الشمالية الغربية من أرض حسمى[٣]، بينما يرى آخرون أنها بمعنى «صخرة بعل»، ومن ثم فهى «البتراء»[٤]، وأما المعونيون، فهم المعينيون[٥] سكان المستعمرات المعينية فى «ديدان» [٦]، وربما سكان «معين مصرو»[٧].

(١) ملوك ثان ١٥ : ١-٧؛ أخبار أيام ثان ٢٦ : ٩-١٩؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٢) أخبار أيام ثان ٢٦ : ٨؛ وكذا:

J. Hastings, op.cit., p. 401; E.B., p. 5240; A. Musil, op.cit., p. 244.

(٣) J. A. Montgomery, op.cit., p. 30; A. Musil, op.cit., p. 274.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ٣٦٢/٢ (بيروت ١٩٦٧).

(٥) انظر عن «المعينيين»: محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، الفصل السابع، ص٢١٣-٢٣٣، (الرياض ١٩٧٧).

(٦) ديدان: وهى العلا الحالية، وتقع فى وادى القرى جنوب شرق حرة العويرض، بين سلسلة الجبال من الشرق والغرب، وعلى مبعدة ٣٧٠ كيلو مترًا من المدينة المنورة، ٢٤ كيلو مترًا إلى الجنوب من مدائن صالح، وكانت تسمى على أيام النبىّ ﷺ «وادى القرى»، وأما الاسم «ديدان» (أو ددن) فهو الاسم القديم للموقع، وإن حاول البعض أن يربط بينه وبين اسم الإله «دد» الذى كان يعبد لدى الساميين الشماليين، وقد قامت بعض دويلات المدن فيما بين القرنين السادس والثالث ق.م، لعل أهمها «ديدان» و«لحيان». (انظر: عبد الرحمن الأنصارى، مجلة الدارة، العدد الأول، ص ٧٩، (١٩٧٥)؛ موسكاتى، المرجع السابق، ص ٢٠٣؛ محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٥٢٥-٥٢٦؛ وكذا: W. Caskel, Libyan and Libyanisch, Koln, 1954, p. 44.

(٧) H. Winckler, AOF, 29, p. 337; EB., p. 3065; J. A. Montgomery, op.cit., p. 51.

(١١) يوثام (٧٤٢-٧٣٥ق.م):

كان «يوثام» يقوم بوظيفة نائب الملك أثناء مرض أبيه عزيا، فلما مات جلس على العرش من بعده، ومن هنا نراه يتابع سياسته، فيدعم حصون أورشليم، ويبنى القلاع والأبراج فى الغابات، فيما وراء الأرض، ويخمد ثورة قام بها بنو عمون، ولم تسمع دمدمة العاصفة المقبلة إلا فى أخريات أيامه، وذلك حين «ابتدأ الربُّ يرسل على يهوذا رصين ملك آرام» و وفقح بن رمليا، بهدف ضمها إلى الكتلة السياسية الجديدة التى بدأت تتكون ضد أشور، ولكن الملكين الآرامى والإسرائيلى ـ فضلا عن محاولتهما، على أنها كانت فى الواقع نذيراً أبطنته الأيام لخلفه على عرش يهوذا[١].

(١٢) أحاز (٧٣٥-٧١٥ق.م):

ورث أحاز عرش أبيه يوثام، ورفض الدخول فى الحلف المضاد لآشور، وقاد النبىُّ أشعياء الحركة ضد هذ الحلف، وكان يرى أن الأمرفى حقيقته نزاع بين آشور ومصر، وأن يهوذا يجب أن تقف منه موقف الحياد، ومن ثم فقد بدأ يحرض الملك والشعب على السواء بأن يقفوا بعيداً عن هذه الأحلاف الخطرة، وأن يضعوا ثقتهم فى ربِّهم «يهوه» الذى اتخذ من أورشليم موطناً خاصًا به، ومن ثمَّ فإنه لا يرضى بأن تكون مدينته فريسة للغازى الأجنبى، فلتثق يهوذا بربِّها يهوه، فلا يستطيع أحد لها ضراً ولا نفعًا، ولن تجد لسمعتها خيراً من الترفع وسياسة العزلة، كما أن النبىَّ العبرانى إنما قد تنبأ كذلك بتدمير الآشوريين لمملكتى دمشق وإسرائيل[٢].

ومع ذلك كله، فلقد رفض «أحاز» أن يسمع لتحذيرات إشعياء وتأكيداته أو يشاطره ثقته فى «يهوه»، فقدم جزيته إلى آشور، طالباً حمايتها ـ الأمر الذى ناقشناه من قبل ـ وأخيراً فقد كان على أحاز، أن يذهب إلى

---

(١) ملوك ثان ١٥: ٣٢-٣٨، أخبار أيام ثان ٢٧: ١-٩؛ حبيب سعيد، المرجع السابق، ص٥٣-٥٤.

(٢) إشعياء ٧: ١-١٧؛ تيودور روبنسون، المرجع السابق، ص ١٤٢.

دمشق ليقدم بنفسه فروض الولاء لملك آشور (تجلات بلاسر الثالث)، ونقرأ في التوراة أن أحاز قد ضحى لآلهة دمشق، وطلب عونها، لأنها في رأيه الآلهة الأقوى، وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل أنه قد شيد مذبحاً في معبد أورشليم على النمط الذى رآه هناك فى دمشق، كما أدخل في يهوذا طقوس التضحية بالطفل التى كان يمارسها الآشوريون، حتى أنه قدّم ابنه الوحيد لنيران مردوخ[1]، وفى نفس الوقت فلقد أدخل فى نطاق المعبد صوراً للخيول المقدسة تكريماً لإله الشمس، وذلك كتعبير لولائه لمعبودات آشور القديمة، كما هى فى نفس الوقت تعبير عن الولاء لملك الملوك نفسه[2]، ومن ذلك الحين أصبحت دويلة يهوذا تابعة لهؤلاء الأباطرة الذين يتسلمون جزية أورشليم فى نينوى.

(١٣) حزقيا (٧١٥-٦٨٧ق.م):

خلف حزقيا أباه عزيا على عرش يهوذا، ولكنه كان مختلفاً عنه، فلم ينهج نهجه، ولم يتبع سياسته فى الدين والسياسة، فقد كان العاهل الجديد ـ فيما ترى التوراة ـ مصلحاً دينياً، ومن ثم فقد أمر بإخراج النجاسة من بيت الربّ وتطهيره، فضلا عن تقديم الذبائح والقرابين والمحرقات، هذا إلى جانب إزالة المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى، وهى أمور حاول أسلافه القيام بها دون جدوى، بل لقد ذهب إلى حد الإعلان بأنه لن يدمر ما هو أقل قداسة من تمثال حية النحاس (نَحُشْتَان)، والتى كان محفوظاً داخل المعبد، ومحسوباً على أنه من صنع موسى نفسه، كما أنه «قد عصى على ملك آشور ولم يتعبد له»[3].

هذا وقد عمد حزقيا وأنصاره ـ فى نفس الوقت ـ إلى إرسال البعثات

---

(١) ملوك ثان ١٦ : ٧-٢٠؛ أخبار أيام ثان ٢٨ : ١-٢٥؛ وكذا: I. Epstein, op.cit., p. 48-49.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 34.

(٣) ملوك ثان ١٨ : ١-٧؛ أخبار أيام ثان ٢٩ : ١-٣٦

التبشيرية النشطة إلى إسرائيل الشمالية للاشتراك فى «عيد الفصح» فى أورشليم، وقد لقيت دعوته قبولا حسنًا فى «الخليل» وفتورًا فى «أفرايم»، التى كانت قد أعادت تنظيم «بيت إيل» تحت رعاية الآشوريين، ليكون منافسًا لمعبد أورشليم فى تقديم الخدمات الدينية لأهل أفرايم[1]، وقد لا يكون الخطأ أن المظاهر السياسية لهذه الدعاية التبشرية لم يدركها حكام السامرة من الآشوريين، الذين كانوا يجدون مشقة وعنتًا فى السيطرة على السكان الأصليين، كما نعرف ذلك من المصادر الآشورية، والواضح أن يهوذا لم تذهب إلى أبعد من التخطيط للثورة فى المستقبل فى زمن «سرجون الثانى» (٧٢٢-٧٠٥ق.م).

وعلى أى حال، فإننا نعرف من النقوش الآشورية أن ملك أشدود قد حاول الحصول على العون من يهوذا فى خططه للتمرد، وعلى فرض صحة ذلك، فإن القائد الآشورى العام قد هاجم أشدود وأخضعها، ثم جعل منها إقليمًا أشوريًا وإذا كان «حزقيا» قد اشترك فى هذا التمرد، فإنه انسحب منه فى الوقت المناسب حفاظًا على يهوذا من خطر الوقوف ضد آشور، الأمر الذى لا جدوى منه أمام هذه القوة الساحقة المسيطة[2]، فهو - على أى حال - إنما كان رجلا حذرًا، بصيرًا بالعواقل، فهو يعلم تمامًا أن هناك على مبعدة ٤٨ كيلا إلى الشمال من أورشليم، كان الحاكم الآشورى يقف مفتوح العينين تمامًا، فإن خطوة واحدة غير حذرة من «حزقيا» تتبعها إيماءة من «نينوى» تجعله يفقد عرشه إلى الأبد[3].

وهكذا بقيت الأمور على حالها قرابة عقد من الزمان، مات فيها «سرجون الثانى» وخلفه ولده «سنحريب» (٧٠٥-٦٨١ق.م) وكانت تلك

(١) ملوك ثان ١٧: ٢١-٢٨؛ أخبار أيام ثان ٣٠: ٣١-٢١.

(٢) William Foxwell Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, N.Y., 1963, p. 77.

(٣) W. Keller, op.cit., p. 251.

اللحظة هي الإشارة للثورة التي انتشرت كالنار في الهشيم بين الولايات الموالية لآشور، وفي هذه الأثناء تدخل «مردوخ بالادان» ملك بابل الذي كان يقود الثورة في الأراضي الغربية، بطريقة أكثر حزمًا في السياسة اليهوذية، ونظراً لشفاء «حزقيا» من مرضه الخطير الذي كان قد أصيب به، وللثقة في التخلص من قبضة الآشوريين، فإن حزقيا استقبل بعثة من قبل ملك بابل، طبقًا للتقاليد الملكية القديمة، تحمل إليه السلام، وتحضر إليه الهدايا، وقام حزقيا بفتح خزائنه، ومحتويات مخازنه الحربية، وتم بهذا التحالف مع بابل الذي اشترك فيه العرب مع آخرون، وأما «مصر» فقد كان لها هناك في أورشليم حزب قوى يبغى التحالف معها، ويطلب الحماية منها، وينجح الآن فيما فشل فيه من قبل، فلا يسمع «حزقيا» لنصائح إشعياء النبيّ، ولا يضيع على نفسه فرصة موت سرجون، ومن ثم فإن ملك يهوذا إنما يطلب من مصر التدخل في شئون فلسطين لتدعيم مركز الثائرين، ومساعدتهم على التخلص من النير الأشوري، وهكذا تكون حلف يضم فينيقيا وفلسطين ومؤاب وأدوم وعمون، فضلا عن بعض القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية، على رأسها «تعلخونو» ملكة «أدوماتو» (دومة الجندل) وفوق الجميع كانت مصر، وأخيراً «حزقيا» ملك يهوذا حيث «عصى على ملك آشور ولم يتعبد له»[1].

وهكذا انتهزت بابل ومصر فرصة قيام ملك جديد في أشور لإثارة المتاعب في طريقه، كانت بابل تسعى لرفع نير أشور عن كاهلها، وإن لم يكتب لها نجحًا في مسعاها، وكانت «تعلخونو» (تلخونو) - التي امتدت سلطتها من دومة الجندل، وحتى حدود بابل - قد وقفت إلى جانب الثوار البابليين ضد سنحريب وعندما كتب للعاهل الآشوري نجحًا كبيراً في القضاء على مقاومة البابليين، اتجه إلى دومة الجندل، وفرض الحصار

(١) ملوك ثان ٢٠ : ١-١٩، وكذا: M. Noth, op.cit., p. 267-268.

عليها[١]، ثم استولى عليها بعد أن دبَّ النزاع بين ملكة «دومة الجندل»، وقائد جيوشها «حزائيل» سيد قبيلة قيدان[٢]، ويبدو أن سنحريب قد حقق نجاحاً كبيراً على الأعراب في البادية، كان سبباً في أن يفرض نفوذه عليهم بدرجة كبيرة، ومن ثم فقد رأينا «هيرودوت» يطلق عليه لقب «ملك العرب والآشوريين»[٣].

وأما مصر، فقد كانت تستهدف إعادة نفوذها على فلسطين، وهكذا تجددت العداوة الكامنة بين القوتين الكبيرتين - مصر وآشور - في عهد «سنحريب» وبدأ الجيش الآشوري في غزو فلسطين في عام ٧٠١ق.م، وإخضاع مدن فلسطين الساحلية، الواحدة تلو الأخرى، وبينما كان «سنحريب» يقوم بذلك كله، ظهرت قوة مصرية في الجنوب الغربي من فلسطين قرب «التقية» (المذكورة في سفر يشوع ١٩ : ٤٤) أو «التكة» - وهي خربة المقنع الحالية، على مبعدة ١٠ كيلاً جنوبي العقير (عقرون)، ١١,٥ كيلاً شمال تبنة (تمنة) - وإن كان من غير المحتمل أن المصريين قد استخدموا قوة كبيرة، وعلى أي حال، فإن «سنحريب» يصف منافسيه بأنهم «ملوك مصر» أي حكام المدن، وربما كانوا من أمراء الدلتا، وكذلك النبالة وفرسان الفرعون الأثيوبي، ومن الواضح أن الإشارة في التوراة عن تدخل «ترهاقة» (طهراقا) ملك كوش ضد سنحريب خطأ، ذلك لأن «شباكا» إنما كان ما يزال في عام ٧٠١ق.م ملكاً، وأن ابن أخيه «طهراقا» لم يخلفه على العرش إلا في عام ٦٨٩ق.م[٤].

---

(١) A. Musil, Arabia Deserta, N.Y., 1930, p. 460; D.D. Luckenbill, ARAB, 2, p. 518.

(٢) جواد علي، ٥٩٢/١؛ وكذا: British Museum Tablets, K, 3087, 3405.

(٣) Herodotus, II, 141.

(٤) قاموس الكتاب المقدس، ١٠٣/١؛ والتر إمري، مصر وبلاد النوبة، ترجمة تحفة حندوسة، ص ٢٢٧، (القاهرة ١٩٧٠)؛ وكذا:

A. H. Gardiner, op.cit., 450; M. Noth, op.cit., p. 268.

وأيًا ما كان الأمر، فإن قوات سنحريب قد اخترقت بلاد يهوذا، وفتحت حصونها واحداً إثر الآخر، ثم احتلت ستًا وأربعين مدينة مسورة مع عدد من المدن الصغرى، أو بمعنى آخر، فإن بلاد اليهودية كلها تقريبًا قد سقطت فى أيدى الآشوريين، وكل ما استطاع «حزقيا» الحفاظ عليه إنما كان أورشليم، كما أن واحدة أو اثنتين من القلاع الحصينة فى الجبهة الغربية استمرت تقاوم الآشوريين، ومنها «لاخيش» Lachish[1]، التى اتجه إليها سنحريب وأحكم جنوده الحصار حولها، وهنا لم يكن أمام حزقيا شيئًا يفعله فى هذا الموقف الميئوس منه، إلا الخضوع لسنحريب، وإلا جزية كبيرة يدفعها له صاغراً ذليلا، ومن ثم فقد أرسل حزقيال للعاهل الآشورى فى «لاخيش» يقول: «قد أخطأت ارجع عنى، ومهما جعلت على حملته، فوضع ملك أشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة، وثلاثين وزنة من الذهب، فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة فى بيت الربِّ، وفى خزائن بيت الملك»[2].

ويبدو أن سنحريب قد أدرك أنه من خرق الرأى أن يترك أورشليم الحصينة من ورائه فى يد حزقيا، ومن هنا فقد أرسل قسمًا من جيشه تحت إمرة ثلاثة من قواده لحصار أورشليم والاستيلاء عليها، وهكذا بدأ حصار أورشليم، وأرسل ضباط سنحريب رسالة سخرية إلى حزقيا الذى بدأ فى مدينته «كالطير فى القفص» وانتشر الرعب بين القوم، الذين خيل إليهم أن ساعة أورشليم الأخيرة قد دنت ويفتح سنحريب لاخيش بعد ذلك، ثم يتجه إلى «التكة» لمهاجمة الجيش المصرى الذى كان يقوده «طهراقا»، وفى أثناء

(١) لخيش أو لاكيش: كان يظن أنها «تل الحصى» على مبعدة ١٦ ميلا إلى الشمال الشرقى من غزة، ١١ ميلا إلى الجنوب الغربى من مدينة جبرين، ويرجح الآن أنها «تل الدوير» على مبعدة ٥ أميال غرب بيت جبرين.

W.M.F. Petrie, Tell el-Hesy (lachish),1891; M.F. Albright, ZAW, 6, 1929, p. 3.

(٢) ملوك ثان ١٨: ١٣-١٦.

ذلك حدث ما يدعو سنحريب إلى العودة إلى «نينوى»، وأنقذت أورشليم، وسمح لحزقيا بأن يحتفظ بعرش يهوذا، كتابع لآشور، وإن أجبر على دفع الجزية المتأخرة، وأن يرسل بناته ومحظياته إلى سنحريب فى نينوى، ومن المتفق عليه أن سنحريب قد أوقع على حزقيا عقاباً قاسياً، وأنه جعل سلطانه مقصوراً على دولة المدينة الصغيرة أورشليم (مدينة داود)، واستولى منه على كل بلاد يهوذا، التى وهبها للملوك الفلسطينيين الموالين له، وهم «متنى» ملك أشدود، و«سلبيل» ملك غزة، و«بادى» ملك عقرون، الذى استعاد سلطانه القديم[١].

هذا وقد سجل «سنحريب» كل هذه الأحداث فى حولياته، ومن ثم فإننا نقرأ فى هذه الحوليات : «... أما بالنسبة لحزقيا اليهودى، فإنه لم يخضع لنيرى، ومن ثم فقد حاصرت ٤٦ مدينة من مدنه القوية، وكذا القلاع المسورة والقرى الحصينة، التى لا تحصى فى مجاوراتها، وفتحتها بواسطة منحدرات ترابية وكباش (آلات حربية لهدم الأسوار) جعلتها قريبة من الأسوار، هذا إلى جانب هجمة المشاة الذين استخدموا المقاليع والمدكات، واستوليت منهم على (٢٠٠١٥٠)[٢] نسمة، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، وأخذت منهم خيلا وبغالا وحميراً وجمالا وماشية لا تحصى، كغنيمة، وأما هو فقد جعلته سجيناً فى أورشليم مقر ملكه كطير فى قفص، وحاصرته بأكوام من التراب، حتى أضايق من يتركون بوابة مدينته، وأما مدنه التى نهبتها فقد نزعتها من بلاده، وأعطيتها لـ «متنى» ملك أشدود، و«بادى»

---

(١) ملوك ثان ١٨ : ١٧-٣٧، وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 268-269; P.R. dougherty, JBL, XLIX, 1930, p. 160-171; K. Kullerton, AJSL, XLII, 1925, p. 1-25.

(٢) يرى بعض الباحثين أن ما يدعيه «سنحريب» من أنه قد أخذ من سكان يهوذا (٢٠٠١٥٠ نسمة)، إنما يشير إلى عدد سكان يهوذا، كما يقدر فى تلك الأيام، وأن العاهل الآشورى إنما قد اعتبرهم جميعاً أسرى حرب . (فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٩٧).

ملك عقرون، و«سلبيل» ملك غزة، وهكذا اختزلت بلاده، ومع ذلك زدت الجزية «كاترو» Katru التى يجب دفعها لى بوصفى سيداً له، بالإضافة إلى الجزية السابقة، على أن تسلم لى سنوياً، أما حزقيا نفسه الذى ذعر من بهائى وعظمتى، والذى هجرته النخبة الممتازة من الجيوش التى جاء بها إلى أورشليم لتدعيم قواتها، فأرسل إلىّ فيما بعد إلى نينوى، مدينتى الملكية ٢٠٠ وزنة من الذهب، ٨٠٠ وزنة من الفضة، أحجاراً كريمة، كحل ألواح كبيرة من الحجر الأحمر، مخادع مطعمة بالعاج، ومقاعد مطعمة بالعاج، جلود فيلة، أبنوس خشب صناديق، وكل الذخائر الثمينة، ثم بناته ومحظياته، وعازفين وعازفات، ولكى يسلم الجزية ويقدم الخضوع كعبد، أرسل رسوله الشخصى[١].

هذا وقد اختلفت الآراء فى الأسباب التى دعت سنحريب إلى العودة المفاجئة إلى بلاده، بخاصة وأن العاهل الآشورى لم يشر إلى ذلك، فهناك من يرجع ذلك ـ إلى اضطراب خطير فى «نينوى» نفسها، وهناك من يرجعها إلى وجود جحافل من الفيران أكلت قسى الغزة وجعابهم وحمائل دروعهم، فكانت النتيجة أنهم قد أصبحوا عزلا من السلاح، ومن ثم فقد ولوا الأدبار، وسقط الكثيرون منهم[٢]، وأخيراً ترجعها التوراة إلى أن «ملاك الربّ قد خرج وضرب من جيش أشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألف، ولما بكروا صباحًا إذا هم جميعًا جثث ميتة، فانصرف سنحريب ملك أشور وذهب راجعاً وأقام فى نينوى»[٣].

وهكذا أصبح من الصعب علينا أن نعرف أسباب عودة سنحريب على

---

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٥/٢٨٠–٢٨١، (الإسكندرية ١٩٦٣)؛ وكذا:
A. Leo, Oppenheim, ANET, 1966, p. 288.

(٢) هيرودوت، يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر، خفاجة، مراجعة وتقديم أحمد بدوى، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٨٠–٢٨٢.

(٣) ملوك ثان ١٩: ٣٥–٣٦؛ إشعياء ٣٧: ٣٦.

وجه التحقيق، ذلك لأن كلا من روايتى التوراة وهيرودوت، إنما ترجعها لأسباب غير عادية، فالأولى ترجعها إلى قدرة «هيفايستوس» (بتاح) الإله المصرى والثانية ترجعها إلى قدرة «يهوه» ربّ إسرائيل، وهى فى ذلك إنما تعبر عن وجهة النظر اليهودية من هذه الأحداث[١]، وعلى أى حال، فلئن صدقت إحدى الروايتين - أو حتى الروايتين معاً - فذلك نوع من المعجزات، وإن كان الأمر غير ذلك، فربما كانت هناك أسباب داخلية فى نينوى دعت سنحريب إلى العودة إلى بلاده، ليكون على مقربة من الأحداث، وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به، وأيًا ما كان الأمر، فالذى لا شك فيه أن حزقيا إنما استمر على ولائه لآشور، ما بقى حيًا فى هذه الدنيا.

(١٤) منسى (٦٨٧-٦٤٢ق.م):

جاء «منسى» إلى عرش يهوذا بعد أبيه حزقيا، و«كان منسى ابن اثنتى عشرة سنة حين ملك، وملك خمسًا وخمسين سنة»[٢]، وقد تميز عهده الطويل هذا بأن فلسطين أصبحت تحت النفوذ الآشورى المباشر، وأن حكمه - طبقًا لهذا - يمكن أن ينظر إليه كعلامة مميزة فى التطور الداخلى للبلاد[٣].

وأما من الناحية الدينية فقد كانت له شهرة سيئة، ذلك لأن «منسى» إنما كان كافرًا بدين «يهوه»، متبنيًا لطقوس سادته الوثنية، بما فيها من عبادة الكواكب والتضحية بالأطفال، ومن هنا فقد اعتبرت هذه المرحلة أسوأ وأقسى ردة وثنية فى تاريخ يهوذا، وأما ما هو أكثر دهشة فى هذه المرحلة، فإن هذه الأهوال إنما كان يمارسها هؤلاء القوم الذين ادعوا أنهم عبّاد يهوه، إنما كانوا يعتقدون أنهم بممارستهم مثل هذه الأعمال، يصبحون

---

(١) J. Laessoe, People of Ancient Assyria, London, 1963, p. 114.

(٢) ملوك ثان ٢١: ١.

(٣) S. A. Cook, op.cit., p. 391.

(٤) I. Epstein, op.cit., p. 51.

جديرين برعاية ربّ إسرائيل[٤]، ونقرأ فى التوراة أن منسى قد «بنى المرتفعات التى أبادها حزقيا أبوه، وأقام مذابح البعل، وعمل سارية كما عمل أخاب ملك إسرائيل، وسجد لكل جند السماء وعبدها، وبنى مذابح فى بيت الربّ، الذى قال الربّ عنه: فى أورشليم أضع اسمى، وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى بيت الربّ، وعبر ابنه فى النار، وعاف وتفاءل واستخدم جانًا وتوابع، وأكثر عمل الشر فى عينى الربّ لإغاظته، ووضع تمثال السارية التى عمل فى البيت، الذى قال الربّ عنه لداود وسليمان ابنه فى هذا البيت، وفى أورشليم التى اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمى إلى الأبد»[١]، وهكذا جددت المحاريب المحلية القديمة، ومارس القوم الضحايا البشرية، وقدموا الطقوس الأجنبية المألوفة حتى فى معبد أورشليم نفسه[٢]، وأعترف القوم رسميًا بعبادة البعل، كما اعترف كذلك بممارسة العرافة والسحر، ولعل هذا كله هو الذى دعا بعض الكتاب المتأخرين إلى أن يروا فى منسى وما تم فى عهده سببًا فى سقوط أورشليم ونفى يهوذا[٣].

ونقرأ فى التوراة أن «منسى» قد سبى إلى «بابل»، ثم أعيد مرة أخرى إلى عرشه، وليس هناك من المستندات الآشورية ما يدعم ذلك، وإن كان هناك ما يشير إلى أن «إسر حدون» (٦٨٠-٦٦٩ق.م) قد استدعى مجموعة من مواليه الصغار - ومنهم منسى - للمساهمة فى بناء القصر الملكى، ولكن ليست هناك أية إشارة إلى إعادة «منسى» إلى عرشه[٤]، وعلى أى حال، فإن هذا الأمر الأخير إنما قد حدث مع «نخاو» أمير سايس[٥]، ومن ثم فليس من الغريب أن يحدث مثل ذلك مع «منسى» حين تأكد الآشوريون من ولائه لهم، ولكن الشىء المميز للنص التوراتى يعزو حرية منسى وعودته إلى

---

(١) ملوك ثان ٢١: ٣-٧.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 35.

(٣) ملوك ثان ٢٣: ٢٦-٢٧؛ إرمياء ١٥: ٤؛ وكذا: W. F. Albright, op.cit., p. 79.

(٤) جون إلدر، المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

(٥) A. Leo Oppenheim, ANET, p. 295.

عرش يهوذا، إلى خضوعه لربّ إسرائيل «يهوه»، وبدهى أن هذا ليس صحيحاً[١] كما أنه لا يتفق وسيرة منسى وأعماله الدينية.

(١٥) آمون (٦٤٢-٦٤٠ق.م):

خلف آمون أباه منسى على عرش يهوذا، وكان ابن اثنين وعشرين سنة حين ملك، وملك سنتين فى أورشليم، وعمل الشر فى عينى الربّ كما عمل منسى أبوه»، ثم سرعان ما ذبح فى فتنة قام بها عبيده من خدم القصر، فاقتص الشعب لهذه الجريمة، ونصب ولده «يوشيا» على العرش، وهو ما يزال بعد صبياً فى الثامنة من عمره[٢]، وفى الواقع أننا لا ندرى على وجه التحقيق السبب فى اغتيال آمون، فربما كان تصرفًا لانتقام شخصى، وربما كان نتيجة مؤامرة فى الحاشية، وإن كان من غير المستحيل والحدث يرتبط بانهيار آشور - أن النزاع بين مؤيدى آشور والمعادين لها - إنما كان مسئولاً إلى درجة ما عن هذا الأمر[٣].

(١٦) يوشيا (٦٤٠-٦٠٩ق.م):

جاء يوشيا إلى عرش يهوذا فى وقت كانت فيه آشور تدنو إلى النهاية المحتومة، وفى هذه الأثناء كان يجلس على عرش آشور «أشور بانيبال» (٦٦٨-٦٢٦ق.م)، وكانت ظواهر الأمور تدل على أن إمبراطوريته وطيدة الأركان، وخاصة بعد أن قضى على ثورة أخيه «شمش شوم أوكين»، وحلفائه من الأعراب مثل «باتاع» الذى فرّ إلى البادية على أيام سلفه «إسرحدون»، وإن انتهى أمره الآن إلى أن يقبض عليه - وكذا زوجه أديا «عدية» - وأن يضعه «أشور بانيبال» فى قفص ليعرض على الناس عند أحد أبواب نينوى[٤].

---

(١) S.A. Cook, op.cit., p. 293-4.

(٢) ملوك ثان ٢١: ١٩-٢٦، ٢٣: ٢٠-٢٥؛ أخبار أيام ثان ٢٣: ٢١، ٢٥.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 272.

(٤) A. Musil, op.cit., p. 48-65; D.D. Luckenhill, op.cit., p. 819.

وتمضى الأيام، ويحدثنا العاهل الأشورى نفسه أن أياماً سوداً قد حلت فى أرجاء مملكته، وأنه كان يقاسى آلامًا جسمية وروحية سلبت روحه، ثم حدثت بعد وفاته فى عام ٦٢٦ق.م، مشاكل واضطرابات أدت فى نهاية الأمر إلى سقوط العاصمة الآشورية نفسها فى أيدى البابليين والميديين فى عام ٦١٢ق.م، وبعد ذلك تم نهبها فى صورة كاملة[١]، وإن كان هناك من العلماء من يرى أن المدينة قد سقطت فى أغسطس ٦١٣ق.م، بعد معركة دموية ضد الحلفاء، بدأت فى شهر يونيه ٦١٣ق.م[٢]، وعلى أى حال، فلقد اقتسم الفريقان المنتصران مملكة آشور، فاستولى «الميديون» على قسمها الشرقى، وأخذ البابليون جنوبها، واضطرت الحكومة الآشورية أن تجعل من «حران» مركزاً لها، ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ق.م) ابن «نبوبولاسر» (٦٢٦-٦٠٥ق.م) ملك بابل، استطاع أن يستولى عليها، وأن يقضى على الجيش الأشورى فى عام ٦٠٩ق.م[٣].

وفى هذه الأثناء كان «نخاو الثانى» (٦١٠-٥٩٥ق.م) يجلس على عرش الكنانة، فيتابع سياسة أبيه «بسماتيك الأول» (٦٦٤-٦١٠ق.م) فى مساندة أشور - وإلى أبعد الحدود - ولم يكن نخاو يريد من ذلك أن يجعل لمصر صوتًا مسموعًا فى سياسة الشرق الأدنى القديم فحسب، ولكنه أراد كذلك أن يحتفظ بأشور الضعيفة كحماية ضد القوى الخطيرة فى الشرق، والتى تهدد الآن آشور فى المقام الأول، ولكنها على العموم ربما تجاوزت فى الغد القريب كل الشرق القديم، وأخيراً لكى يسترجع لمصر الإمبراطورية المصرية المفقودة فى سورية وفلسطين، وهكذا أسرع نخاو الثانى بقواته لمساعدة «أشور أوبالط الثانى» القابع فى «حران» أملا فى عون السماء، يأتيه عن طريق مصر، ويا للعجب، فإن البلد الذى بقى لمدة جيلين هدف

(١) A. H. Gardiner, op.cit., p. 258.

(٢) محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 273.

الآشوريين، فإذا هو يصبح الآن العون الأكبر - والوحيد لهم - ولست أدرى أكان ذلك نتيجة طبيعية لحسن نية المصريين، وطبيعة نفوسهم النبيلة ونسيانهم الإساءة دائماً وأبداً؟ أم أن الدوافع السياسية كانت وراء ذلك كله؟

وأياً ما كان الأمر، فلقد كان على الفرعون المصرى لكى يصل إلى حران أن يعبر كل سورية وفلسطين، وأن يقبض بيديه على زمام الأمور فى هذه البلاد بعد أن انتهى الحكم الآشورى فيها، وكان الموقف بالنسبة إلى «يوشيا» ملك اليهود مختلفاً، كان انهيار أشور فرصته التى كان يحلم بها، لاستعادة حكم بيت آل داود فى مملكة إسرائيل السابقة،والتى كانت فى هذه الفترة مقسمة بين أربع ولايات آشورية، ولما لم يكن هناك ملك على إسرائيل منذ سقوط السامرة، فقد رأى أن الطريق ممهد للمحاولة فى تعزيز الادعاء القديم لبيت داود، واستعادة الحكم الملكى على أيام داود وسليمان(١).

هذا فضلا عن أن «يوشيا» إنما كان يميل إلى بابل - كما كان حزقيا من قبل - أكثر من ميله إلى أشور، بل إن محاولات يوشيا لإعاقة الجيش المصرى فى «مجدو» وهو فى طريقه إلى حران، ربما تدل على قاعدة عريضة من خطة استراتيجية لمعاهدة عسكرية بين يهوذا وبابل، وإن لم تكن لدينا أية معلومات عنها، ومما يؤيد ذلك أن الجيش المصرى، تحت قيادة بسماتيك الأول (٦٦٤-٦١٠ق.م)، كان قد أسرع فى عام ٦١٦ق.م، لمساعدة الأشوريين ولم يعترضه يوشيا، لأن بابل كانت ماتزال فيما وراء الأفق السياسى لمملكة يهوذا ولكن الموقف الآن قد تغير تماماً، وقد أصبح الجيش البابلى على مقربة من الفرات(٢)، وتلك فيما أظن طبيعة اليهود، فهم تحت أقدام القوى دائماً وأبداً، ويؤيد ذلك ما كان يظنه يوشيا من ضعف الجيش المصرى.

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 273-274.

(٢) A. Malamat, The Last Wars of the Kingdom of Judah, JNES 9, 1950, p. 219.

وعلى أى حـال، ورغم ذلك، فليس هناك من شك فى أنه كـان فى أورشليم حزب مصرى قوى ـ كما كان من قبل على أيام حزقيا، وكما سيكون من بعد على أيام خلفاء يوشيا ـ وأيًا ما كان الأمر، فمن الواضح تمامًا أن يوشيا كان يؤيد بابل ضد آشور، وأنه لم يكن أبدًا راغبًا فى طلب مساعدة مصر ضد عدوه، كما أنه لم يكن راغبًا كذلك فى أن يمكن مصر من الإفادة من ضعف هذا العدو[1].

وفى عام ٦٠٩ق.م، تقدم الفرعون «نخاو الثانى» نحو «حران» لنجدة ملك أشور، وهناك فى «مجدو» ـ تل المتسلم على مبعدة ٣٢ كيلا جنوبى شرقى حيفـا، فى الطرف الجنوبى من سلسلة الجبال التى تنتهى بجبل الكرمل فى الشمال[2] ـ اعترض يوشيا الجيش المصرى ومنعه من التقدم، فأنذره «نخاو» بالحسنى، ولكنه لم يرعو، ونقرأ رسالته فى التوراة ـ كما جاءت فى أخبار الأيام الثانى ـ حيث يقول فيها: «مالى ولك يا ملك يهوذا، لست عليك أنت اليوم، ولكن على بيت حربى، والله أمر بإسراعى، فكف عن الله الذى معى فلا يهلكك، ومع ذلك : «لم يحول يوشيا وجهه عنه، بل تنكر لمقاتلته، ولم يسمع لكلام «نخو» (نخاو) من فم الله، بل جاء ليحارب فى بقعة مجدو»[3].

ويبدو أن «يوشيا» قد خيل إليه أن الموقف فى صالحه، فقد كانت بعض المميزات العسكرية الهامة فى مجدو إلى جانب يوشيا، كالمبادأة بالهجوم والفرصة لهجوم سريع مذهل على عدو بعيد عن قواعد عملياته العسكرية، ومهدد بخطر الانفصال، والانقطاع عنها، ومع ذلك فإن يوشيا لم يكن بقادر على هذه الخطوة، ما لم يكن يمتلك جيشًا قويًا مدربًا يمكن الاعتماد عليه، ومع ذلك فيمكن أن نفترض ـ على أساس مقدرة يوشيا

---

(١) S.A. Cook, op.cit., p. 395-396. (٢) قاموس الكتاب المقدس ٢/٨٤١.

(٣) أخبار الأيام الثانى ٣٥: ٢١-٢٣.

السياسية ـ أنه قد أولى اهتمامًا كبيرًا لتطوير الجيش اليهوذى ورفع مستواه[١].

وعلى أى حال، فسرعان ما يلتقى الجيشان ـ المصرى واليهودى ـ ويكتب النصر للمصريين، والذلة على اليهود، ويدفع يوشيا حياته ثمنًا لهذه المغامرة الفاشلة، كما يدفع اليهود ثمن خطيئتهم فى تقدير قوة المصريين الحقيقية، وبسبب سياستهم المناوئة للسياسة المصرية، وتصبح فلسطين بالتالى خاضعة للسيادة المصرية[٢]، ومع ذلك، فإن محاولة «يوشيا» هذه فى «مجدو» إنما يمكن أن ينظر إليها على أنها النموذج الوحيد فى التاريخ الإسرائيلى من ناحية القيام بهجوم على جيش ذى قوة عالمية عظيمة[٣]، وكانت هذه القوة، هى مصر بالذات، التى قدر لها أن تذيقهم الذلة على مدى الدهور القديمة، وأيًا ما كان الأمر فإن «نخاو» قد تابع مسيرته فى أواسط سورية وشمالها ليقوم بمحاولة أخيرة لمساعدة أشور، ورغم أن المصريين لم يوفقوا فى إنقاذ آشور، فإنهم استمروا يسيطرون على منطقة عبر النهر وتخوم الفرات، بعد أن استولوا فى عام ٦٠٦-٦٠٥ق.م، على معقل «كيموخو» وهزموا البابليين فى «فوراماتى» وهما موقعان على الفرات إلى جنوب قرقميش[٤].

وعلى أى حال، فلقد نجح «نخاو» فى أن يخضع المدن الساحلية مثل أشدود وعسقلون، كما أثبتت ذلك أوراق البردى، وطبقًا لرواية فى التوراة فقد استولى على غزة كذلك، وهناك نص بالهيروغليفية عثر عليه فى «صيدا» يشير إلى سيطرة نخاو على الساحل الفينيقى، وقد يسر له ذلك امتلاكه لأسطول فى البحر الأبيض المتوسط[٥].

(١) A. Malamat, JNES, 9, 1959, p. 222.

(٢) ملوك ثان ٢٣ : ٢٩-٣٠؛ أخبار أيام ثان ٣٥ :٢٠-٢٥؛ وكذا: S. A. Cook, op.cit., p. 296.

(٣) A. Malamat, JNES, 9, 1950, p. 222.

(٤) A.H. Gardnier, op.cit., p. 358; D.J. Wiseman, Chronicles of Chaldacan Kings, London, 1956, p. 23, 67.

(٥) إرمياء ٤٧ : ٨؛ وكذا: A. H. Gardiner, op.cit., p. 358.

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير هنا، قبل أن نختم عهد يوشيا، إلى أن هذا العهد إنما قد تميز بعدة إصلاحات دينية، كان أساسها الحصول على نسخة من «سفر الشريعة» فى العام الثامن عشر من حكم هذا الرجل (عام ٦٢٢ق.م) على يد الكاهن حلقيا فى معبد أورشليم[١]، وقد قام جدل طويل حول حقيقة هذا الكشف، وسواء أكان «حلقيا» قد أوجد نسخة سفر «التثنية» هذه، أم أنه قد وجدها حقيقة[٢]، وسواء أكانت النسخة أصلية، أم أنها لم تكتب إلا قبيل اكتشافها هذا المزعوم بما لا يتعدى عشرات السنين[٣] ـ الأمر الذى سوف نناقشه بالتفصيل فى الجزء الخاص بالتوراة فى كتابنا عن الحضارة اليهودية ـ فالذى يهمنا هنا أن النصوص إنما تنسب إلى يوشيا أنه قد أصلح المعبد، وطهره من الطقوس الأجنبية، وأزال المحاريب المحالية من المرتفعات، ودمّر مذبح «بيت إيل» المنافس لمذبح أورشليم منذ أيام يربعام الأول ملك إسرائيل (٩٢٢-٩٠١ق.م)، واحتفل بعيد الفصح الذى يذكر القوم بالخلاص من مصر[٤]، ومن المدهش أن سيطرة مصر قد جاءت إليهم بجيوشها فى أورشليم نفسها هذه المرة، وفى نفس العهد الذى احتفل فيه بالخلاص منها.

(١٧) يهو أحاز (٦٠٩ق.م):

كان موت يوشيا بعد معركة مجدو صدمة قاسية على الحزب البابلى فى أورشليم، ومع ذلك فقد «أخذ شعب الأرض يهو أحاز بن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضاً عن أبيه، وكان يهو أحاز ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم»، كان «نخاو» أثناءها مشغولا فى الشمال،

(١) ملوك ثان ٢٢ : ٣-١٣ ؛ أخبار أيام ثان ٣٤ : ٨-٣٣.

(٢) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٥٦؛ وكذا:

(٣) W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, p. 225.

(٣) A.P. Davies, The Ten Commandment, N.Y., 1956, p. 35.

(٤) ملوك ثان ٢٢ : ٢٣ ؛ وكذا: C. Roth, op cit., p. 35-36.

متخذاً من «ربلة» - وهى هرمل الحالية عند منابع العاصى - ثم أمر «يهو أحاز» بالحضور إليه، وهناك قبض عليه وأرسل إلى مصر مقيداً فى الأغلال، حيث بقى هناك إلى وفاته، وتقاضى نخاو من يهوذا تعويضاً كبيراً، «مئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب»[1].

(١٨) يهوياقيم (٦٠٩-٥٩٨ق.م):

جاء يهوياقيم إلى عرش يهوذا - بأمر من الفرعون المصرى نخاو الثانى - بعد أخيه غير الشقيق «يهو أحاز»، ثم سرعان ما غير نخاو اسم الملك اليهوذى الجديد من «الياقيم» إلى «يهوياقيم»، ورغم أن نقطة التغير هذه ليست واضحة، فربما تعنى إشارة ما إلى السيادة المصرية، وعلى أى حال، فمن الواضح أن الملك الجديد إنما كان مرضيًا عنه من مصر[2]، وأن الفرعون المصرى إنما كان قد هبط كثيراً بممتلكات «بيت داود» إلى الحدود التى كانت عليها قبل يوشيا، وجعلها مقصورة على «دويلة المدينة أورشليم»، ومملكة يهوذا القديم، كما طلب الاعتراف بسلطانه عليها، فضلا عن أن تكون له أقاليم مملكة إسرائيل الشمالية، والتى أصبحت تدار فعلا كأقاليم مصرية تماماً[3].

وما أن يمضى حين من الدهر قليل، حتى استقرت الأمور تمامًا لـ «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ق.م)، وفشلت كل محاولات مصر للإبقاء على الإمبراطورية الآشورية المنهارة، وهناك ما يشير إلى تجدد العداوة بين القوتين الكبيرتين - مصر وبابل - ذلك أن «نبوخذ نصر» - على ما يبدو - لم يتخل مطلقًا عن الوصول إلى الحدود المصرية، ومن هنا نراه فى عام

---

(١) ملوك ثان ٢٣: ٣-٢٣؛ أخبار أيام ثان ٣٦: ١-٣؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 280.

(٢) ملوك ثان ٢٣: ٣٤-٣٧؛ أخبار أيام ثان ٣٦: ٤-٥؛ وكذا:

S.A. Cook, CAH; III, 1965, p. 397.

(٣) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 280.

٦٠١ق.م، يتجه إلى مصر، ولكنه ردّ عنها بعد أن تحمل الكثير من الخسائر، بل واضطر إلى أن يعود إلى بلاده، وأن يبقى هناك عامًا يسترد فيه أنفاسه ويستعيد قواه، ويعيد تنظيم جيشه، كما أن هزيمة العاهل البابلى هذه إنما قد أنهت العداوات المباشرة بين البلدين لبضع سنوات تالية[١]، ومن ثم فقد تجمدت السياسة الحربية الشمالية لمصر بقية عهد «نخاو» ويشير «هيرودوت» إلى عقد معاهدة بين البلدين، وأن الفرعون المصرى قد زوّج ابنته أو أخته من «نبوخذ نصر»، فصارت ملكة على بابل، وهى رواية لم تتأكد بعد[٢].

وأيًا ما كان الأمر، فإن «نبوخذ نصر» إنما كان يتلقى الجزية من الأقاليم العربية التى وافقت مصر على أن ترث بابل أشور فيها، غير أن يهوذا إنما بقيت فترة تفاضل بين مصر وبابل، وأى الدولتين أحق بخضوع اليهود لها، وفاز الحزب المصرى آخر الأمر باليد العليا، وثار «يهوياقيم» ضد سيده البابلى «نبوخذ نصر» [٣]، وربما ساعده على ذلك هزيمة البابليين أمام المصريين، ومن ثم فقد انضم إلى مصر، رغم تحذيرات النبى «إرميا»[٤] ونقرأ فى التوراة أن «يهوه» ربّ إسرائيل قد أرسل إلى يهوياقيم جماعات من الكلدانيين والآراميين والمؤابيين والعمونيين لإبادة يهوذا[٥]، والواقع أن «نبوخذ نصر» لم يتدخل بنفسه فى هذا التمرد الذى قام ضده فى عام ٥٩٨ق.م، لأنه رأى أن إمبراطورية عظيمة مثل إمبراطوريته لا تخلو من الثورات المحلية الصغيرة، ولكن سرعان ما غيّر رأيه وأسرع بنفسه إلى يهوذا، وبينما كان فى الطريق إليها مات «يهوياقيم» وخلف ولده «يهوياكين» على عرش يهوذا[٦].

---

(١) D. J. Wiseman, op.cit., p. 29-31, 70-71; K.A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, p. 407; A. H. Gardiner, op.cit., p. 359.

(٢) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٢٧٧-٢٨٧؛ وانظر: Herodotus, I, 184-186.

(٣) A. Malamat, op.cit., p. 223.

(٤) إرميا ٤٦ : ٤ وما بعدها، وكذا: A. H. Gardiner, op.cit., p. 359.

(٥) ملوك ثان ٢٤ : ٢ .

(٦) A. Malamat, op.cit., p. 223-224.

(١٩) يهوياكين (٥٩٧/٥٩٥ق.م):

جاء «يهوياكين» بعد أبيه يهوياقيم، وكان عمره ثماني عشر سنة على رواية توراتية[١]، وثماني سنين على رواية أخرى[٢]، وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام[٣]، وعلى أى حال، فلقد وصل «نبوخذ نصر» مع قواته الرئيسية وأطبق الحصار على أورشليم، ولم يقاوم «يهوياكين»، أو حتى يفكر فى المقاومة، وإنما خرج ومعه أمه وزوجاته وآل بيته، وسلموا أنفسهم إلى الفاتح الكلدانى فى مارس ٥٩٧ق.م، وتم نقلهم إلى بابل، وتنظر التوراة إلى هذا النفى على أنه مرحلة حاسمة فى تاريخ نهاية يهوذا، فلقد تم فيه إبعاد حوالى عشرة آلاف رجل يكونون هم وأسرهم قرابة الثلاثين ألفًا من الناس معظمهم من أورشليم، والبقية الباقية من الجنوب[٤].

على أن سبى «يهوياكين»، ومن معه، لا تقاس أهميته فى الواقع بعدد المسبيين ولكن بنوعيتهم، فقد سبيت العائلة المالكة، والطبقات الحاكمة وكبار رجال الدولة والوزراء والأرستقراطيون والكهنة والأنبياء، وفوق كل هؤلاء الجنود والصناع والحرفيون[٥]، وهذه المجموعة الأخيرة تكون الجيش ومعداته، ولهذا فإن لذكرها أهمية خاصة[٦]، وإذا كان النص التوراتى الأخير (ملوك ثان ٢٤ : ١٦) صحيحًا، وإذا أمكن توحيد كلمة «الجنود» (أصحاب البأس) بـ «الجيش» فإن الجيش النظامى يمكن أن يكون عدده فى ذلك الوقت سبعة آلاف، والأمر كذلك فى توحيد الاحتياطى بالصناع والحرفيين، فإن عددهم ألفًا، وبذا فهم يكونون سبع الجيش النظامى، وقد أضيف إلى هؤلاء الأخارى عدة كتائب تركها «نبوخذ نصر» فى الخطوط الخلفية،

(١) ملوك ثان ٢٤: ٨، ١٢.
(٢) أخبار أيام ثان ٣٦: ٩.
(٣) أخبار أيام ثان ٣٦: ٩؛ ثم قارن ملوك ثان ٢٤: ٨.
(٤) ملوك ثان ٢٤: ١٠؛ إرمياء ٢٤: ١، ٢٧: ٢٠، ٢٩: ١-٢.
(٥) ملوك ثان ٢٤: ١٥-١٦؛ وكذا: A. Malamate, op.cit., p. 224.
(٦) ملوك ثان ٢٤: ١٦.

فضلا عن عدد كبير من المتطوعين حشدوا أثناء الحرب[١]، وأخيراً فلعل مما يشير كثيراً إلى أهمية المنفيين قول التوراة أنه «لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض»[٢].

وفي عام ١٩٥٥م نشر «وايزمان» إحدى اللوحات المحفوظة في المتحف البريطاني، وقد جاء فيها «في السنة السابعة للملك «نبوخذ نصر» في شهر Chister، جمع الملك جيشه وتقدم نحو أرض حاتي (سورية)، وعسكر أمام مدينة اليهودية، واستولى عليها في اليوم التالي من Ader، (مارس ٥٩٧ق.م) وأخذ الملك «يهوياكين» أسيراً، وعين مكانه «صدقيا» ملكاً بحسب قلبه (برغبته)، وفرض عليه جزية ثقيلة، وأحضره إلى بابل»[٣]، ولعل هذا التقرير البابلي الرسمي لا يختلف كثيراً عن نظيره التوراتي، كما جاء في سفري الملوك الثاني (٢٤: ٨-٢٠) والأخبار الثاني (٣٦: ٩-١٠).

(٢٠) صدقيا (٥٩٧-٥٨٦ق.م):

تروي التوراة أن العاهل البابلي «نبوخذ نصر» قد أصدر أوامره بتعيين «متنيا» ملكاً على يهوذا، بدلا من «يهوياكين»، وغير اسمه إلى «صدقيا»، وهو عمّ يهوياكين على رأي نص توراتي[٤]، وأخوه على رأي نص آخر[٥]، وأما «يهوياكين» فقد بقي أسيراً في بابل حوالي الأربعين عامًا،ولكنه في نفس الوقت ظل محتفظاً بلقبه الرسمي حتى عام ٥٩٢ق.م، كما تدل على ذلك نقوش اكتشفت في قصر «نبوخذ نصر» ونشرها «فيدنر» E. E. Veid-ner، وكذلك أختام من «بيت شمس» و«تل بيت مرسيم»، وربما من «لاخيش» و«تل النصبة»، وكلها تؤكد مركز «يهوياكين» الملكي أثناء سبيه[٦].

(١) A. Malamate, op.cit., p. 224.
(٢) ملوك ثان ٢٤: ١٤.
(٣) W. Keller, op.cit., p. 280.
(٤) ملوك ثان ٢٤: ١٧.
(٥) أخبار أيام ثان ٣٦: ١٠.
(٦) H. G. May, Three Hebrew Sealsand Status of Exited Jehoiatkin, AJSL, LVI, 1939, p. 146-148; J. Finegan, op.cit., p. 226; A. Malamat, op.cit., p. 224; W. F. Albright, King Joiachin in Exile, BA. 4, 1942, No. 4.

ولعل هذا كله إنما يلقى ضوءاً جديداً على سياسة «نبوخذ نصر» نحو يهوذا، فهو يعين ملكاً جديداً، ولكنه فى نفس الوقت يحتفظ للملك السابق بمركزه الملكى، كنوع من التهديد لخليفته فى الأرض المحتلة، ولعل هذا هو السبب فى سلوك صدقيا المتردد، والمتناقض كذلك، والذى انتهى به آخر الأمر إلى الثورة على القوة التى وصل إلى الحكم عن طريقها، فلقد كان أعداؤه فى يهوذا من ناحية، والملك البابلى «نبوخذ نصر» من ناحية أخرى يهددونه عن طريق الإشارة إلى بديله الملكى يهوياكين[١].

ومع ذلك فلقد انتهى الأمر بثورة صدقيا على بابل، مما أدى فى نهاية الأمر إلى السبى البابلى، فى عام ٥٨٧ق.م - الأمر الذى سنناقشه بالتفصيل فى الفصل التالى - .

وهكذا انتهى تاريخ بنى إسرائيل، وبدأ تاريخ اليهود، ويصف «هربرت جورج ويلز» [٢] (١٨٦٦-١٩٤٦م) نهاية الدولتين - يهوذا وإسرائيل - بقوله: «لم يتمتع الشعب العبرانى بخفض العيش إلا أمداً قصيراً، فما أن انقطع عون صور، الذى كانت تقوى به أورشليم، ثم قويت شوكة مصر ثانية، حتى أصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقى الرحى تعركهما على التوالى سورية وأشور وبابل من الشمال، ومصر من الجنوب، وهى قصة نكبات وتحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية، هى قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ق.م (٧٢٢ق.م) محت يد الأسر الآشورى مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالا تامًا، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حلَّ بها عام ٥٨٦ق.م أو عام ٥٨٧ق.م على أيدى البابليين، ما حل بإسرائيل على أيدى الآشوريين.

---

(١) A. Malamat, op.cit., p. 224.

(٢) H. G. Wells, A Short History of the World (Pelican Book), 1965, p. 77.

الباب التاسع
السبى والعودة

الفصل الأول
الســـبى البابلى

(١) سقوط يهوذا:

كانت السياسة المصرية فى تلك الفترة أكثر نشاطاً، فقد قام «بسماتيك الثانى» (٥٩٥-٥٨٩ق.م) فى السنة الرابعة من حكمه بحملة إلى فينيقيا، كما تشير إلى ذلك بردية ديموطيقية متأخرة، وإن كان هناك من يرى أنها لم تكن لأغراض حربية، مادام الفرعون قد استدعى كهنة كثير من المعابد ليسهموا فيها، ومات «بسماتيك الثانى» فى عام ٥٨٩ق.م، ترك لولده «واح إيب رع» (إبريس ٥٨٩-٥٧٠ق.م)، أن يأخذ على عاتقه القيام بمجهودات نشطة لاستعادة فلسطين[١].

وهكذا بدأت سياسة مصر فى عهد «واح إيب» (وهو الفرعون حفرع فى التوراة)[٢] تتجه إلى ممارسة القوة فى الشمال، وكان سر تغيرها أمران وهما رغبة مصر فى الإفادة من إمكانيات قوتها البحرية النامية فى مراقبة موانئ الشام، لتعطيل مصالح البابليين بها، وحتى لا يستغلوها ضدها، ثم عودة البابليين إلى التوسع الحربى فى فلسطين وحصارهم لأورشليم فى عام ٥٨٨ق.م[٣].

وأما يهوذا نفسها، فقد انقسم أهلها إلى فريقين، الواحد، ويتزعمه «حننيا» ويعلن أن قبضة البابليين الخشبية يجب أن تكسر، والآخر، ويتزعمه «إرمياء» ويعلن أن «نبوخذ نصر» هو «خادم يهوه»، وأن القبضة حديدية ولن

---

(١) A.H. Gardiner, op.cit., p. 360;

ثم قارن : عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٢٧٨.

(٢) إرميا ٤٤ : ٣٠.

(٣) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٧٩.

تتمزق، وفي الواقع أن إرمياء إنما كان من أشد الأنبياء حقداً على قومه، يدافع عن بابل، ويعلن في الملأ أنها سوط عذاب في يد الربّ، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى «نبوخذ نصر»، حتى ليكاد من يقرأ أقواله في تلك الأيام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين، انظر إلى قول إرميا (٢١: ٥-١٠) على لسان ربّه يهوه: «إنّي أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوتى العظيمة وبذراعى الممدودة، وأعطيتها لمن حسن فى عينى والآن قد وقعت كل هذه الأراضى ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدى وأعطيته أيضًا حيوان الحقل ليخدمه، فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه حتى يأتى وقت أرضه أيضًا فستخدمه شعوب كثيرة وملوك عظام، ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل، إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء، يقول الربُّ حتى أفنيها بيده، فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرّافيكم وحاليكم وعائفيكم وسحرتكم الذى يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل، لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب».

ثم أخذ يتنبأ بعد ذلك بأن ملك مصر سوف يعود إلى بلده، وأن البابليين سوف يستولون على أورشليم ويحرقونها، وأنه يجب وضع أعناق الأمة تحت نير ملك بابل بأمر الربّ أيضًا، وهكذا كان شأن من يدعون النبوة من بني إسرائيل إلا من عصم الله، وأما المنفيين فى بابل منذ أيام «يهوياكين» فقد كانت لديهم الآمال الكبار بفجر الحرية[1].

وأما «صدقيًا» ملك يهوذا، فقد استمر على إخلاصه لبابل فترة من حكمه، كانت مصر فيها مهتمة كل الاهتمام بالعلاقات بين يهوذا وبابل، باذلة جهودها لأحداث ثورة فى يهوذا ضد العاهل البابلى «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ق.م) ومن ثم فقد بثت الموالين والمشايعين لها بين الشعب

(١) إرميا ٢٨: ١-١٤؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٧٩؛ ول ديورانت، قصة الحضارة: ٣٥٨/٢؛ وكذا: S.A. Cook, op.cit., p. 399-400.

وقواده، مما أدى إلى زيادة التوتر بين الأحزاب المعارضة في يهوذا، وحذّر الأنبياء الحزب الموالي لمصر، ولكن تحذيراتهم ذهبت أدراج الرياح، وأرسلت بعثة عسكرية إلى مصر - فيما ترى التوراة وتروى أوستراكاالاخيس - وعقد تحالف سرى بين يهوذا وأدوم ومؤاب وعمون وصيدا وصور، بحضور صدقيا في أورشليم[١]، وهناك إشارة في التوراة على أن صدقيا إنما قد استدعى إلى بابل لتقديم تفسير عن ذلك كله، وعلى أية حال، فإن «إبريس» ملك مصر، قد قام بدور رئيسي في اتخاذ القرار بالثورة، ولابد - والأمر كذلك - أن الفرعون قد أعطى تأكيدات بمساعدة عسكرية، ومن ثم فقد «تمرد صدقيا على ملك بابل»[٢].

وهكذا وجد «نبوخذ نصر» نفسه مضطراً إلى القيام بحملة إلى فلسطين وبدأ يحتل مدن يهوذا الواحدة تلو الأخرى، - ما عدا أورشليم، فضلاً عن مدن الحدود في لاخيش وعزيقة (تل زكريا) في الجنوب[٣] - وقد ساعده على ذلك، أن يهوذا كانت في عام ٥٨٩ق.م غيرها منذ عشر سنوات مضت، حيث كانت تحت إمرتها القلاع الحصينة، والقواد الأكفاء، والخبراء العسكريون والمهندسون، الذين أرسلوا إلى المنفى، أضف إلى ذلك أن الأمة الآن - وعلى رأسها إرميا النبيّ - لم تكن تؤيد إعلان الحرب ضد البابليين، هذا إلى جانب وجود فريق من القوم لا يمكن التغاضي عنه كان يؤمن بسياسة المسالمة، فضلا عن بعض عناصر الجيش، التي كانت تعرف أكثر من غيرها، أن فرص النجاح العسكري كانت ضئيلة للغاية[٤].

---

(١) إرميا ٢٦: ٢٢-٢٤، ٢٧: ٣٠؛ حزقيال ١٧: ١٥؛ وكذا:

K. M. Kenyon, op.cit., p. 294-296.

(٢) إرميا ٥١: ٥٩؛ ملوك ثان ٢٤: ٢٠؛ وكذا:

W.Keller, op.cit., p. 281; S.A. Cook, op.cit., p. 400.

(٣) إرميا ٣٤: ٧.

(٤) A. Malamat, JNES, 9, 1950, p. 225.

وأخيراً استسلمت «لاخيش»، وتشير حفريات أعوام (١٩٦١-١٩٦٧) إلى آثار الحملتين البابليتين، لعامى ٥٩٦، ٥٨٨ق.م، فقد دمرت الطبقة الثالثة تماماً فى الحملة الأولى، وهناك ما يشير إلى المجهود الأخيرالذى بذل لإعداد المدينة لمواجهة الهجوم القادم، وهناك فتحة فى الصخر لا يعرف الغرض منها، وإن كان من المظنون أنها كانت متصلة بمصدر المياه عن طريق ماسورة إلى الينبوع أو كخزان للمياه، ولابد أن الغزو البابلى قد جاء قبل أن يبدأ استخدامه، هذا ويوجد على يمين القاع كميات من فخار القرن السادس قبل الميلاد، وقد تركت الحفرة مفتوحة لكى تمتلئ تدريجياً على مرّ القرون المتلاحقة، ويشير رديم الأنقاض الذى يعلو بقايا مدينة الطبقة الثالثة إلى أن التدمير إنما كان تاماً وعنيفاً،وفى البوابة فقد فصلت أرضية هذه الفترة عما يليها بثمانية أقدام من رديم الأنقاض المحترق، وقد دمرت قلعة القصر، وتراكمت كمية من الطوب الهش على الأساسات الحجرية، وقد كشفت على مقربة من القصر عن صف من الحوانيت، وقد وجدت الحجرات مملوءة بأشياء كانت مستخدمة فى وقت التدمير، ولم يجد السكان الوقت الكافى لإنقاذها، وهى كميات كبيرة من جرار تخزين الحبوب، وأنوال النسيج، تمثل صناعة وتجارة طبق الأصل من مدينة العصر الفلسطينية[1].

هذا وقد وجد خارج المدية حوالى ألفى جثة ملقاة فى قبر قديم، وقد وجدت بعض عظامها هشة، ولابد أن الجثث قد أنقذت من المبانى المحترقة، ويعتقد «ج.ل. ستاركى» أن هذه البقايا إنما تمثل إخلاء المدينة بعد المجزرة الوحشية التى قام بها البابليون، ويتبين من بعض الجماجم إصابات المعركة، غير أن أكثر الاكتشافات غرابة إنما كانت ثلاثة جماجم أجريت لها عمليات «تربنة» Trephine، وفى حالتين منها أزيل مربع من العظام بواسطة

---

(١) K.M. Kenyon, op.cit., p. 291-293.

منشار قاطع، وكانت العملية الجراحية بدائية جداً لم يعش بعدها الشخص الذى أجريت له، فهل يصور هذا تجارباً أجراها الغزاة على الأسرى - على طريقة النازى - أم أنها محاولات يائسة من الناجين لإنقاذ حياة شخص أصيب فى المعركة؟ وربما كان هذا التفسير الأخير أكثر احتمالا، وفى الحالة الثالثة حيث حفر الثقب بواسطة الكشط فقد عاش المريض فترة طويلة، لأن العظام كانت مندملة، وقد تكون عملية قديمة وليست السبب المباشر للموت، ولابد أن عملية «التربنة» كانت إجراء جراحياً إسرائيلياً معترفاً به، وأجرى على حالات أخرى من ضحايا الحرب[١].

هذا وقد أضاف «إرميا» فى الهجوم البابلى الأخير مدينة «لاخيش» إلى قائمة تتكون منها مدن المقاومة، فضلا عن أورشليم، وعزيقة، على أساس أن «لاخيش» إنما هى واحدة من مدن الاستحكامات المنيعة فى يهوذا، لأن «لاخيش» و«عزيقة» بقيتا فى مدن يهوذا مدينتين حصينتين»[٢].

وبقيت أورشليم وحدها تقاوم الغزاة، واتجه البابليون إليها بكل قوتهم، وفرضوا الحصار عليها، ولكنها ظلت تقاوم قرابة ثمانية عشر شهراً (أى من اليوم العاشر فى الشهر العاشر من السنة التاسعة من حكم صدقيا، إلى اليوم التاسع من الشهر الرابع من العام الحادى عشر من حكمه، ما عدا فترة قصيرة سببها الهجوم المصرى) بالرغم من انتشار المجاعة فى المدينة، والمكوس الثقيلة[٣]، هذا فضلا عن نصائح «إرميا» بالخضوع لبابل، لأن يهوه نفسه إنما كان يحارب ضد أورشليم، المدية المنكوبة، السيئة المصير، ولهذا فليس من العجيب أن نبىَّ الويل هذا قد ألقى به فى غياهب السجون لمجاهرته بالخذلان[٤]، بعد أن فشل الكهنة - مراراً وتكراراً - أن يثنوه عن عمله هذا

---

(١) Ibid., p. 293.

(١) إرميا ٣٤ : ٧؛ وكذا: K. M. Kenyon, op.cit., p. 294.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 286; W. Keller, op.cit., p. 383.

(٤) S.A. Cook, op.cit., p. 401.

بوضع رأسه فى الدهق، ولكنه وهو فى هذا الوضع ظل يشهر بهم، فما كان منهم إلا أن استدعوه إلى الهيكل وأرادوا أن يقتلوه غير أنه استطاع أن يفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة، ثم قبض عليه الأمراء وربطوه فى حبال وأنزلوه فى بئر مملوة بالوحل، ولكن «صدقيا» خفّف هذا العقاب بأن سجنه فى فناء القصر، الذى وجده البابليون فيه حين سقطت أورشليم فى أيديهم[1].

ومن الواضح أن المدينة البائسة قد تحملت كل تلك الصعاب الجسام، أملا فى وصول المساعدة العسكرية القادمة من مصر، وفعلا ما أن وصلت، «وسمع الكلدانيون المحاصرون أورشليم بخبرهم حتى صعدوا عن أورشليم»، ورغم أن الوثائق المصرية صامتة تمامًا فى هذا الصدد، إلا أنه ـ على ما يبدو ـ فإن الجيش المصرى قد بقى فترة يحمى أورشليم؛ ولكنه تركها بعد ذلك متجهًا إلى احتلال مدن الساحل الفينيقى، بعد أن حول اهتمام البابليين عنها، وبعد أن ترك فيه رجالا أقوياء من الحزب المصرى[2].

وما أن يمضى إلا قصير وقت، حتى يعود «نبوخذ نصر» إلى حصار أورشليم ويحث «إرميا» قومه على الاستسلام للعاهل البابلى، ومع أن النبىّ العبرانى إنما كان دائمًا متهماً بإضعاف الروح المعنوية بين الجنود والشعب على السواء، فمن الثابت أنه لم يكن فى ذلك كله وحيداً، كما أن الجوع كان «قد اشتد فى المدينة، ولم يكن خبز لشعب الأرض، فثغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا، من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك، وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين فذهبوا فى طريق البرية»[3].

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ٢/٣٦٠، (القاهرة ١٩٦١).

(٢) إرميا ٣٧: ٥؛ وكذا:

W.O.E. Oesterley, op.cit., p. 233; W. Keller, op.cit., p. 384; M. Noth, op.cit., p. 285.

(٣) ملوك ثان ٢٥: ٣-٤؛ إرميا ٢١: ٩، ٣٨: ٤.

وفعل اختلاف الرأى بين المحاصرين وانتشار المجاعة فعلهما، وأخيراً، وفي اليوم التاسع من الشهر الرابع من العام الحادى عشر من حكم صدقيا (أى فى شهر أغسطس من عام ٥٨٧ق.م)، حدثت الثغرات فى جدران المدينة، وحاول «صدقيا» الهرب مع حرسه إلى الشرق، عبر «برية يهوذا»، ثم إلى بلاد شرق الأردن، ولكنه أسر وهو يعبر وادى الأردن قرب «أريحا»، وأخذ أسيراً إلى نبوخذ نصر» فى «ربلة» التى اتخذها مركزاً لقيادة جيشه - كما فعل نخاو فرعون مصر فى عام ٦٠٩ق.م - وهناك ذبح أبناؤه أمام عينيه، وقاسى ما فيه الكثير من المتمردين، وسملت عيناه، وقيد مسلسلا فى الأغلال إلى بابل حيث مات هناك بعد فترة قصيرة[١].

ونهب الغزاة أورشليم، وأشعلوا فيها النيران، وأحرقوا القصر الملكى، والمعبد، وطبقًا لرواية التوراة، فإن ذلك إنما تم فى اليوم السابع من الشهر الخامس من نفس السنة، وضاع معبد سليمان، ومعه البقية المفترضة أنها باقية من التابوت الذى كفت الروايات عن ذكره بعد نقله إلى معبد سليمان، وكان قد أقيم فى مكان خفى من المعبد كهدف تقليدى خاص بالعبادة، مع أنه لم يلعب دوراً هامًا فى العبادة العامة[٢]، هذا ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن حفريات (١٩٦١-١٩٦٧م) لم تكتشف أطلال منازل القرن السابع على المنحدرات الشرقية، التى دمرت فى هذه الفترة[٣].

(٢) السبى البابلى:

وهكذا انتهت دويلة يهوذا، وأدمجت فى التنظيم الإدارى للإمبراطورية البابلية، واتباعًا للعرف الآشورى، فإن الغازى الجديد (نبوخذ نصر) قد أبعد

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 286;

ملوك ثان ٢٥ : ١-٧، أخبار أيام ثان ٣٦ : ١١-٢٠.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 286-287.

(٣) K.M. Kenyon, op.cit., p. 291.

البقية الباقية من الطبقة العليا الحاكمة من اليهودية، فلقد أسر بعضًا من حاشية «صدقيا» المقربين، وعديداً من الرجال البارزين فى أورشليم وبلاد يهوذا، وأرسلوا إلى «ربلة» حيث لقوا حتفهم جميعًا، وأما بقية السكان فقد اقتيد الجزء الأكبر منهم ـ وقد قدره بعض الباحثين بأربعين ألفًا [1]، وقدّره آخرون بخمسين ألفًا[2] ـ أسرى إلى بابل، وكان «إرميا» من بين الأسرى، وقد منحه الجنرال «نبوزرادان» حريته، ولكن طبقًا لرواية أخرى، فإن «نبوخذ نصر» نفسه هو المسئول عن المعاملة اللينة لشخص يعد قبل كل شيء، أنه قد لعب دوراً فى مساعدته على النصر الذى أحرزه على يهوذا، وعاصمتها أورشليم[3].

على أن العاهل البابلى ـ من ناحية أخرى ـ إنما أبقى السكان المزارعين فى أماكنهم، ولم يفعل ـ كما فعل الآشوريون من قبل ـ بجلب سكان جدد إلى يهوذا كما أنه لم يقم بأى تنظيم مستقل فى المملكة الصغيرة، ولم يفعل البابليون بيهوذا ما فعله الآشوريون بإسرائيل، بل إنهم حتى بعد إخضاعهم ليهوذا فقد تركوا الإدارة لواحد من يهوذا، وهكذا عين «جداليا بن أخيقام بن شافان» ـ وهو ابن موظف يهودى كبير، معروف منذ أيام الملكين يوشيا ويهوياكين ـ حاكمًا على يهوذا، ولا نعرف من الذى أوصى به «نبوخذ نصر» ليشغل هذا المنصب الجديد، وعلى أى حال، فلقد اتخذ «جداليا» من المصفاة ـ على مبعدة ٨ كيلاً من الشمال الشرقى لأورشليم ـ مركزاً له، ربما احتقاراً لأورشليم الثائرة، وربما لأن «المصفاة» لم تتعرض لسوء مثل المدن اليهودية الأخرى فى معارك ٥٨٩، ٥٨٧ق.م،

---

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٣٢٠/٥، (الإسكندرية ١٩٦٣).

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٢٠؛ ، باقر، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، ٢٩٦/٢، (بغداد ١٩٥٦).

(٣) ملوك ثان ٢٥: ١١-٢١؛ إرميا ٣٩: ١١-١٤؛ وكذا: W. Keller, op.cit., p. 402.

وكان إرميا، الذى أصبح عجوزاً فى ذلك الوقت،واحداً من أكبر مستشاريه الجديرين بالثقة، وتمتع «جداليا» بإخلاص جزء من السكان، وتعهد بأن يتصرف كوسيط بينهم وبين البابليين، وتغلبت سياسة المهادنة على جماعات حرب العصابات ـ وهم بقايا الجيش اليهودى ـ ورجع الفارون من الأراضى المجاورة، واستؤنفت الحياة الزراعية[١].

ومع ذلك فإن الدسائس لم تنته تماماً، وداعبت الآمال الكاذبة بعضاً من أفراد البيت الملكى اليهوذى الذين لم يهاجروا، وسرعان ما وجدوا لهم حليفاً فى «بعليس» ملك عمون، وانتهت المؤامرة بأن قامت فرقة ـ ربما كانوا من الضباط الذين هربوا من الكارثة إلى عمون، وعلى رأسهم «إسماعيل بن نثنيا» من النسل الملكى ـ بقتل «جداليا» أثناء وليمة عامة وأصبح هذا اليوم ـ الثالث من الشهر السابع ـ كارثة قومية رئيسية، واعتبر من أيام الصيام الرئيسية عند اليهود واستطاع «يوحانان بن قاريح» إحباط مؤامرة قام بها إسماعيل وعصابته لأسر الأميرات ومن كان فى المصفاة مع جداليا[٢].

وأدرك القوم مدى الكارثة التى حلّت بهم، وخوفاً من انتقام «نبوخذ نصر» لقتل نائبه، بل وبعض القوات البابلية نفسها التى كانت فى المصفاة، إلى جانب مجموعة من الرجال أتوا من شكيم ومن شيلوه، ومن السامرة لتقديم قرابينهم إلى بيت الربّ، ومن ثم فقد كان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم[٣] ولدينا تقرير شبه مفصل عن هذه الأحداث فى

(١) ملوك ثان ٢٢ : ١٢-١٤؛ إرميا ٢٦ : ٢٤؛ وكذا:

M. Noth. op.cit., p. 288; S.A. Cook, op.cit., p. 402-403.

(٢) إرمياء ٤٠ : ٧-١٦-٤١ : ١٨؛ زكريا ٧ : ٥؛ وكذا:

S. A. Cook, op.cit., p. 403; M. Noth, op.cit., p. 288.

(٣) إرميا ٤١ : ٣-٧؛ وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 288; W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, 1911, p. 90-93; H.

التوراة (إرميا ٤٠: ٧-٤١: ٧) ولكن لا توجد تفصيلات عن كل ما حدث، وربما أمكن القول أن اليهوذيين قد عينوا كموظفين إداريين حتى بعد قتل «جداليا» ولم تصبح ولاية يهوذا المحدودة المساحة ولاية مستقلة على الإطلاق، وربما أدمجت فى ولاية السامرة المجاورة، ذلك لأن السكان اليهوذيين ورؤساءهم إنما كانوا يخضعون لوالى «السامرة»، و«نائب الحاكم» الذى كانت له سلطات محدودة، وأما الحدود الإدارية ليهوذا فقد كانت تتفق مع حدود المملكة فى عصرها الأخير، إذا ما كان صحيحاً أن فصل الجزء الجنوبى من يهوذا، إنما قد حدث من قبل فى عام ٥٩٨ق.م، ومن ثم، فهى تتضمن الحدود القديمة الفعلية لقبيلة يهوذا من جبال غرب الأردن، وتبدأ من شمال حبرون، وحتى دويلة المدينة السابقة أورشليم، وإلى الجزء الجنوبى لحدود قبيلة بنيامين(١).

ونقرأ فى التوراة «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير، ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين، وهكذا لم يجد اليهود ملجأ يحتمون به سوى مصر التى خرجوا منها، واعتبروا يوم خروجهم عيداً، بل أكبر أعيادهم، وأعنى به «عيد الفصح»، ومن الواضح من نصوص التوراة أن بلاد اليهودية قد أخليت من سكانها، فقد سبى الصفوة منهم إلى بابل، وفرت البقية، ـ ومنهم إرميا ـ إلى مصر، وتبعثرت قبائل إسرائيل فى شرق الأرض وغيرها، ومع ذلك فهناك بعض العلماء من نقاد التوراة ـ ومنهم ستانلى كوك وتورى ـ ينكرون صحة قصة الأسر، كما جاءت فى التوراة ـ فى أسفار الملوك وحزقيال وإرميا وعزرا ـ ويرون أنه لم يكن هناك نفى ضخم من اليهودية، وإنما كل ما حدث أن بعضاً من الأشراف قد سجنوا فى بابل، وأنه بعد صدمة الغزو البابلى عاد الأهالى من مخابئهم المؤقتة إلى بيوتهم القديمة التى أعيد بناؤها(٢).

---

(١) R. Hall, op.cit., p. 564; M. Noth, op.cit., p. 288-289.

(٢) ملوك ثان ٢٤: ١٤-١٦، ٢٥: ١١-٢٦؛ إرميا ٢٤: ١، ٢٧: ٢٠، ٢٩: ١-٢، ٤٣: ١-٧؛ وكذا: S.A. Cook, op.cit., p. 403-404.

وتدل الاكتشافات التي تمت في عدة مواقع بفلسطين أن عدداً من المدن قد تم تدميره في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، ولم تسكن بعد ذلك إطلاقًا والبعض الآخر دمر في نفس الوقت ثم عاد إليها العمار جزئيًا بعد فترة، أما البعض الآخر فقد دمّر ولم يعد العمار إليه إلا بعد فترة طويلة من الهجر، تتميز بتغير ملحوظ في الطبقة، وبأدلة خارجية تثبت استعمالها لأغراض غير مدنية ولا تعرف حالة واحدة كانت فيها بلداً من يهوذا الأصلية مسكونة بصفة مستمرة خلال فترة النفي[1]، فالبابليون قد دمّروا اليهودية وأخلوها من سكانها تمامًا وبهذا تحققت التحذيرات والتهديدات النبوية، وأتى قضاء الله الذي أعلنه إرميا النبيّ: «ها أنذا آمر بقول الربّ وأردهم إلى هذه المدينة فيحاربونها ويأخذونها ويحرقونها بالنار، وأجعل مدن يهوذا خربة بلا ساكن»[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة تذهب إلى أن السبي البابلي ليهوذا إنما كان بسبب الانحلال الداخلي وانتشار الفساد الخلقي والاجتماعي بين القوم فضلا عن الانحرافات الدينية، فلقد حنث بالأقسام المقدسة، ودنست أيام السبت، وكانت القوانين الخاصة بالصلوات والأخلاق الشخصية قد وصلت إلى الحضيض «طوفوا في شوارع أورشليم، وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون إنسانًا أو يوجد عامل بالعدل، طالب الحق، فاصفح عنها،... كيف أصفح عن هذه، بنوك تركوني وحلفوا بما ليست آلهة، ولما أشبعتهم زنوا وفي بيت زانية تزاحموا، صاروا حصنًا معلوفة، سائبة، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه».

هذا إلى جانب الابتعاد قليلا أو كثيراً عن عبادة يهوه، ربّ إسرائيل والاتجاه إلى عبادة آلهة الشعوب المجاورة، وبخاصة «بعل» ربّ صور - كما

(١) W.F.Albright, The Archaeology of Palestine, p. 141-142; W. Keller, op.cit., p. 205.

(٢) إرمياء ٣٤: ٢٢.

رأينا فى الصفحات السابقة ـ وهكذا اعتبر النبيان إرميا وحزقيال أن «نبوخذ نصر» إنما هو وسيلة «يهوه» ضد أورشليم ـ الأمر الذى سوف يتكرر فيما بعد مع مؤرخ اليهود المشهور «يوسف بن متى»، عندما يعتبر الرومان كذلك ـ وأن الله (يهوه) سوف يحارب فى صفّ البابليين ضد أورشليم التى حان وقت مصيرها المحتوم فى الدمار والخراب، بسبب بعدها عن يهوه، وبسبب جرائمها فى قتل الأخوة والأخوات، وهكذا تنسب التوراة فى كثير من نصوصها أسباب السبى البابلى إلى حالة الانحلال والانحراف عن عبادة يهوه اللتين سادتا فى أورشليم فى الفترة التى سبقت هذا السبى، مما يدل على أن كتبة هذه النصوص إنما يخلطون كثيراً بين السياسة والأفكار الدينية، ويصبغون السياسة بالطابع الدينى، وتلك بالأفكار السياسية[١].

وفى الواقع أن ما حدث فى عام ٥٨٧ق.م (أو فى ٥٨٦ق.م على رأى كثير من الباحثين) لم يكن إلا نتيجة طبيعية لأحداث تاريخية طويلة، بدأت منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ولا يدل، بحال من الأحوال، على تغير مفاجئ فى الموقف التاريخى لإسرائيل، وكان التدخل المستمر من القوى الأجنبية العظمى فى تاريخ إسرائيل لفترة طويلة، عاملا يجب أن يشار إليه دائماً، ولكن من المرجح أن سقوط ودمار أورشليم قد أظهر أولا كل الحقيقة عن الموقف الفعلى بالنسبة لإسرائيل، والتى اعتبرت هذا الحادث نقطة تحول حاسمة فى تاريخها، وتحت ضغط هذا الحدث يصف مؤرخ العهد القديم تاريخ قومه على أساس من المصادر التى فى متناول يده، وكأنه تاريخ لعصيان دائم ومتكرر أدى إلى هذا الحدث المتفاقم، وكأن نبوءات التهديدات التى بدأت منذ القرن الثامن والسابع قبل الميلاد قد تمت فى هذا الحدث، وأن الحكم الإلهى الذى كان يتنبأ به الأنبياء قد وقع الآن[٢].

---

(١) إرميا ١ : ١٥-١٦، ٢ : ٢-٨، ٥ : ١-١٩؛ وكذا: S.A. Cook, op.cit., p. 400.

(٢) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 280.

وفى الحقيقة بينما اعتبرت نهاية يهوذا ليست ذات قيمة تاريخية عالمية، حتى أن نبوخذ نصر لم يذكرها فى نقوشه، نظر إليها اليهود على أنها أمر هام وجد خطير، حيث أنها إنما كانت ـ فى نظرهم ـ تعنى نهاية الاستقلال السياسى فى تربة إسرائيل، ومن المتفق عليه أن يهوذا كانت منذ قرن ونصف قرن مضيا ـ باستثناء فترات قصيرة ـ ليست إلا ولاية فى إطار أملاك القوى المختلفة فى الشرق ولم تشمل إلا جزءاً صغيراً من القبائل الإسرائيلية، وإن كانت ـ على أية حال ـ تعيش حياة سياسية خاصة بها، أى أن القوم كان لهم ملك ونظام إدارى خاص بهم، وكان الأمل أن هذا الجزء المحدود، والباقى لهم من الاستقلال، ربما يصبح يومًا ما سبيلا إلى عودة الاستقلال السياسى لإسرائيل، وقد ضاع هذا الأمل الآن تمامًا، فضلا عن اختفاء حكم بيت داود فى أورشليم[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن وجود البابليين فى اليهودية ـ كحكام وكحامية ـ قد أدى إلى قيام المعبودات البابلية والاعتراف بها، حتى لنرى إرميا يحتج ـ وهو فى مصر ـ على عبادة «ملكة السماوات» (عشتار)، ويشير حزقيال ـ وهو أحد أفراد سبى يهوياكين فى عام ٥٩٧ق.م ـ إلى مجرى سير الأمور فى المعبد قبل عام ٥٨٦ق.م، فيحدثنا عن «تمثال الغيرة» (وربما كان لعشتار كذلك)، بينما كان هناك «تموز» الذى تجلس عنده النساء الباكيات، هذا فضلا عن عبادة الحيوان التى كانت تمارس فى قاعة سرية، وفى نفس الوقت كانت «السامرة» تشجع على عبادة «بعليم» (بعل) الكنعانى[2].

على أن هذا كله، لا يعنى، بحال من الأحوال، أن القوم قد انصرفوا

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 289-290.

(٢) إرميا ٤٤: ١٧-١٩؛ حزقيال ٨: ٣، ١٤؛ إشعياء ٥٧: ٣-٨، ٦٥: ٣-٥، ٦٦: ٣، ١٧؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٥٧.

عن عبادة ربهم «يهوه»، وإنما يعنى أن هناك محاولة للربط بين رب إسرائيل، وبين مختلف معبودات الشعوب الأخرى، وبدهى أن الاحتجاجات التى أثيرت ضد محاولات التوفيق هذه، إنما توحى بأن أولئك الذين كانوا يعبدون «يهوه» حقيقة قد ظلوا فى اليهودية، كما يشير إلى ذلك الوصف الذى يقدمه الثمانون حاجًا القادمون من شكيم وشيلوه والسامرة ـ والذين قتلهم إسماعيل بن نثنيا، كما أشرنا من قبل[١] ـ إنما كانوا قادمين إلى أورشليم لتقديم القرابين إلى بيت الربّ الذى خرُبَ، وفى هذا دليل على أن عبادة يهوه إنما قد استمرت فى مكان المعبد حتى بعد عام ٥٨٧ق.م، وتقدم لنا نبوءات إشعياء ـ فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفره ـ مدى توافق التفكير بين عباد يهوه فى اليهودية وإسهامهم فى الأفكار والآمال مع إخوانهم فى بابل، وهى تشير إلى توقع سقوط بابل[٢] حيث تختم نبوءات إشعياء بقوله «سقطت سقطت بابل، وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض»[٣].

(٣) الحياة فى السبى:

ذهب اليهود إلى بابل كأسرى على ثلاثة مراحل، كانت الأولى فى عام ٥٩٧ق.م، عقب سبى «يهوياكين»، والذى تم فيه إبعاد حوالى عشرة آلاف رجل، يكوّنون هم وأسرهم قرابة الثلاثين ألفًا من الناس معظمهم من أورشليم والبقية من مدن الجنوب[٤]، وأما السبى الثانى ـ أو السبى الكبير ـ فقد كان فى عام ٥٨٧ق.م، وقد تم فيه إبعاد أربعين ألفًا على رأى [٥]، وخمسين ألفًا على رأى آخر[٦] ـ كما أشرنا من قبل ـ ويعد هذا السبى ـ

---

(١) إرميا ٤١: ٤-٧؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 288.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢/٤٥٧.

(٣) إشعياء ٢١: ٩.

(٤) ملوك ثان ٢٤: ١٠-١٤؛ ثم قارن: إرميا ٥٢: ٢٨.

(٥) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٥/٢٢٠.

(٦) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٢؛ طه باقر، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

على أى حال ـ بمثابة التشريد لمن سمح لهم بالإقامة فى أورشليم، ومن لم يؤخذ إلى «ربلة» أو بابل، فقد هاجر إلى مصر هرباً مما قد يتعرض له من أذى، وأما السبى الثالث فقد كان عام ٥٨٢ق.م، ويظهر أن المجموع النهائي للسبى كان أقل بكثير مما تركوا فى يهوذا، وكانت يهوذا، على أية حال، أبعد من أن تكون قد أفرغت كالسامرة ـ من أهلها أو أتلفت أو دمرت أو تركت دون أن تزرع، بل إن هناك ما يشير إلى استقدام وفود جدد إليها ليحلوا مكان من أخذوا للسبى من الفينيقيين والقنزيين والكلبيين الذين كانوا يتعرضون لضغوط الآدوميين، بل إن لدينا ما يشير إلى اتصال العمونيين بيهوذا فى هذه المرحلة، لأن ذبح «جداليا» ـ كما أشرنا من قبل ـ إنما كان بإيعاز، أو على الأقل بتعضيد من ملك عمون[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن البابليين لم يعاملوا أفراد السبى من اليهود معاملة قاسية، ولم ينزلوا بهم إلى مرتبة العبيد، وإنما كانوا ـ كما يبدو بوضوح فى سفر حزقيال، والذى كتب بصفة عامة فى مرحلة السبى هذه ـ بمثابة شعب خاضع، ومنفى إجبارياً، ولكنه كان بمستطيع أن يتنقل بحرية فى حياته اليومية وإن كان من المفروض أنه مضطر أن يقوم بالخدمة الإجبارية[٢]، وقد ساعد ذلك على إعطاء القوم حرية نسبية إلى حد ما، نستطيع أن نتلمسها فى الخطاب الذى بعث به النبى إرميا من مصر، يحرضهم فيه على الاستقرار، وعدم إثارة المتاعب أمام سادتهم من البابليين، وأن يعيشوا فى منفاهم الجديد فى سلام، كما يعيش غيرهم من الناس، «ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها، خذوا نساء، ولدوا بنين وبنات، وخذوا لبنيكم نساء وأعطوا بناتكم لرجال، فيلدن بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقلوا، واطلبوا سلام المدينة التى سبتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام»[٣].

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ٣/٤٥٥-٤٥٦.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 296.

(٣) إرميا ٢٩: ٥-٧.

وهكذا لم يجد الواحد من أفراد السبى البابلى صعوبة فى أن يكيف نفسه طبقًا للظروف الجديدة، وأن يحافظ على حريته، وأن يعيش فى أى مكان يختاره، وأن يشتغل الفلاح منهم بالزراعة فى الأرض الجديدة، وأن يعمل الحرفى فى حرفته السابقة[1].

وهكذا كانت الأوساط البابلية اليهودية من وجهة تركيبها الطبقى لا تتميز ـ فيما يرى كثير من الباحثين ـ عن المجتمع الذى تعيش فيه، ومن ثم فقد كان بين اليهود فى بابل مزارعون وحرفيون وأصحاب أراضى وتجار.

وهكذا سمح البابليون، لأهل السبى، أن يمارسوا لون الحياة التى كانوا يحبونها فى بلادهم، ويحتفظ سفرا حزقيال وعزرا بما يشير إلى وجود سجلات للعائلات مما يوحى باستمرار استقرار الحياة العائلية لأفراد السبى، وكان لهذا اللون من المعاملة أثره من غير شك، فأهل السبى هنا يختلفون عن أندادهم فى السامرة، إذ شرد أهل السامرة وبعثروا وضاعوا، وأما أهل أورشليم فإن حياتهم على الصورة التى قدمناها استطاعت أن تكون منهم وحدة فى المنفى تحافظ على شعائرهم وتصونها وتدفع بهم إلى الأمام، بل إن اعتدال «نبوخذ نصر»، وأخذه إياهم بالرفق، يسر لهم حياة تعادل ـ إن لم تكن تفوق ـ حياتهم فى أورشليم[2].

ولما كان البابليون تجارًا، فإن اليهود قد أخذوا عنهم هذه الحرفة دون شك، وإن كان هذا لا يعنى أن بنى يهوذا كانوا جددًا فى ميدان التاجرة، فقد كانت لهم خبرة منذ أيام سليمان، عليه السلام، حيث أصبحت أورشليم من أنشط الأسواق التجارية فى الشرق الأدنى القديم، وإن لم تكن على الطرق التجارية الكبرى، على أن الخبرة اليهودية فى التجارة إنما كانت فى حدود ضيقة نسبيًا، بسبب اشتغل القوم بالزراعة فى فلسطين، وربما

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 51.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٥٩.

بسبب الاضطرابات التى سادت معظم أيام دولتهم فى اليهودية، وعلى أى حال، فلقد كانت تجربتهم التجارية فى بابل نواة لنشاطهم المعروف فى العالم فيما بعد فى هذا المضمار، فإذا تذكرنا أن هناك أعداداً كبيرة من اليهود فى العراق القديم منذ أيام السبى الآشورى فى عام ٧٢٢ق.م، وإذا كان صحيحًا ما ذهب إليه البعض من أن اليهود - شأنهم فى ذلك شأن الصوريين والفينيقيين - كانوا منذ أيام سليمان، ينشئون لهم مراكز تجارية فى مناطق مختلفة من الشرق الأدنى القديم، فإن المنفيين الجدد إنما قد رأوا فى المنفى أسباطًا يهودية كثيرة العدد وحسنة الحال، نشأت هناك فى القرن الثامن قبل الميلاد، وقد أكمل القادمون الجدد صفوف هذه الأسباط[١].

وبمرور الزمن استطاع المنفيون أن يكونوا مستعمرة كبيرة فى «تل أبيب» Tel Aviv عرفت بفلسطين الجديدة، إلى جانب عدة مستعمرات أخرى فى مجاوراتها، واستمر المنفيون فى عملهم، وبدأوا يكدسون الثروات وهناك أساس للاعتقاد بأن التجار والمرابين كانوا من الأسباط اليهودية فى بابل الفئة الأكثر نفوذاً اقتصادياً ذلك لأن النصوص المكتوبة بالحروف المسمارية - فيما يرى الباحث الألمانى لوجو برانتانو - إنما تشهد على أن النزاحين اليهود قد اشتركوا اشتراكًا نشطًا فى الحياة التجارية، ومارسوا عملية التسليف بالربا[٢]، وقد كانت هذه العملية متبعة بشكل واسع بين سكان بابل[٣] - ولاشك أن ما نالوه من حرية نسبية مهّد طريق الثراء لبعض

(١) N. Ausubel, The Book of Jewish Knowledge , p. 126.

(٢) كان بنو إسرائيل أول من ابتدع الرِّبا فى التاريخ ، ومن المعروف أنه محرّم بين بنى إسرائيل، وهو فى الوقت نفسه شريعتهم تجاه الآخرين، وسفر التثنية من التوراة قاطع فى تشريعه للرِّبا، لأنه محرم على إسرائيلى أن يقرض إسرائيلى بربا، بينما يشرع الرِّبا تشريعًا قاطعًا على غير اليهود، تقول التوراة: «لا تقرض أخاك بربًا ، ربا فضة أو ربًا طعام، أو ربًا شيء مما يقرض بربًا، للأجنبى تقرض بربا، لكى يباركك الربُّ إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها» (تثنية ٢٣ : ١٩-٢٠).

(٣) L.Brentano, Das Wirtschaftsleben der antiken Welt, 1929, p. 80.

أفرادهم، حتى لنراهم يسهمون فى حرية مطلقة فيما بعد فى ترميم المعبد، بل نراهم بعد عشرين عامًا يسهمون فى إرسال فضة وذهب لعمل تيجان توضع على رأس «يوشع بن يهو صادق الكاهن العظيم»[١].

هذا وقد حاز بعض المنفيين على ثقة البابليين، كما وصل البعض الآخر إلى مناصب خطيرة وحساسة فى القصر الملكى فى بابل، ونقرأ فى التوراة أن «نبوخذ نصر» ملك بابل (٦٠٥-٥٦٢ق.م) إنما قد أمر رئيس خصيانه «بأن يحضر من بنى إسرائيل فتيانًا لا عيب فيهم، حاذقين فى كل حكمة، ولهم قدرة على الوقوف فى قصر الملك، فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم، وعين لهم الملك وظيفة كل يوم بيومه من أطايب الملك ومن خمر مشروبه لتربيتهم ثلاث سنين وعند نهايتها يقفون أمام الملك، وكان من بينهم من بنى يهوذا : دانيال وحنيا وميشائيل وعزريا، فجعل لهم رئيس الخصيان أسماء: دانيال بلطشاصر، وحننيا شدرخ - وميشائيل ميشخ، وعزريا عبد نغو»[٢].

وتذهب رواية التوراة بعد ذلك إلى أن «دانيال» إنما قد أصبح يقوم بتفسير الأحلام لملك بابل، التى عجز عنها المجوس والسحرة والعرّافون، [٣] - الأمر الذى قام به يوسف الصديق من قبل لملك مصر[٤] - ولكن الأمر الغريب فى رواية التوراة أنها تذهب بعد ذلك إلى أن الملك البابلى «نبوخذ نصر» إنما قد «خرّ على وجهه وسجد لدانيال، وأمر بأن يقدموا له تقدمة وروائح سرور، فأجاب الملك دانيال، وقال حقًا إنّ إلهكم إله الآلهة وربُّ الملوك وكاشفُ الأسرار، ثم عظّم دانيال وسلّطه على كل ولاية بابل، وجعله رئيس الشحن على جميع حكماء بابل»[٥].

ولست أدرى كيف قبل كاتب نص التوراة هذا أن يسجل فى توراته،

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٥٨. (٢) دانيال ١ : ٣-٧.

(٣) دانيال ٢ : ١-٤٥. (٤) Isidore, Epstein, Judaism, p. 83.

(٥) دانيال ٢ : ٤٦-٤٨.

أن العاهل البابلي إنما «قد خرَّ على وجهه وسجد لدانيال»، وهو واحد من عبيده الذين استولى عليهم بحد سيفه، ثم كيف قبل أن يسجل لنا أن العاهل البابلي قال لدانيال: «إنَّ إلهكم إله الآلهة وربُّ الملوك وكاشف الأسرار»، فإذا كان ذلك كذلك، فلم لم يؤمن نبوخذ نصر بإله دانيال هذا، ويعتنق ديانة يهود؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون تحريفًا توراتيًا، ومن ثم فلا خطر منه، فنظائره كثيرة.

وعلى أي حال، وأيًا كان نصيب هذه النصوص التوراتية من الصواب أو الخطأ، فالذى لا شك فيه أن الحياة فى بابل إنما قد أصبحت مقبولة عند المنفيين، وأصبحت لهم قرى يعيشون فيها[1]، كما كان فى استطاعتهم بناء منازل لهم وغرس حدائق بها والتمتع بإنتاجها، فضلا عن حقهم فى الزواج وتسجيل عقوده، وطبقًا لرواية التوراة: «فلم يكونوا مجبرين على عبادة أى نوع من العبادات البابلية»[2].

وبدأ الأمل يداعب يهود السبى فى عودة الاتصال بمقرهم الأول، وقد أعطى مجد بابل وقوة إمبراطوريتها المنفيين أفقًا أوسع، مما جعلهم يحسون بأنهم أعلى منزلة، وأكثر تساميًا من مواطنيهم فى اليهودية، وأخذت طائفة منهم مطردة الزيادة تعبد الآلهة البابلية، وتألف الأساليب الشهوانية الشائعة فى العاصمة القديمة، على الرغم مما بذله حزقيال من جهد جبار فى إبقاء القوم على عقيدتهم وفى عناية يهوه بمدينته ووطنه وشعبه ومع ذلك فإن الجيل الثانى من أبناء المنفيين كانت ذكرى أورشليم قد محيت - أو كادت - تمحى من أذهانهم[3].

(١) أهم هذه القرى - كما أشرنا من قبل - «تل أبيب» وهو اسم بابلى بمعنى «كومة أو تل سنابل القمح»، وتقع عند بابل على نهر الخابور (نهر كيبار Chabar)، وربما كانت تقع فى مكان «تل إيان» الحالية. (قاموس الكتاب المقدس، ٢٢١/١).

(٢) دانيال ٣: ١-٣٠؛ حزقيال ٣: ١٥؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 296.

(٣) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٦٢؛ وكذا:

S.A. Cook, op.cit., p. 407-408; C. Roth, op.cit., p. 51-52.

على أن هذا كله لا يعنى، بحال من الأحوال، أن المنفيين لم يحافظوا على عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، فضلاً عن لغتهم وشخصيتهم الدينية، وقد حمل المنفيون معهم مجموعة ضخمة من الآداب ـ سواء عن طريق الرواية الشفوية أو فى سجلات مكتوبة ـ ومن ذلك مجموعة القوانين التى تنسب عن طريق التقاليد إلى موسى، والشعر الدينى الذى ارتبط باسم داود ـ الملك المحبوب من بين ملوكهم ـ فضلاً عن مجموعة من حوليات الأسرة الملكية القديمة، إلى جانب مجموعات تتطلع إلى العدالة، وتحذر من الأعمال الخاطئة الفردية أو الجماعية، بل وحتى إن كانت من هؤلاء الرجال الملهمين الذين يدعون «أنبياء»[١].

هذا وقد بدأ هؤلاء المنفيون من أجل إراحة أنفسهم من جراء فقدانهم لموطنهم بدراسة هذا الأدب بشغف زائد عن طريق انتقاء أجوده، ثم تنظيمه ونسخه، بل وربما قراءته فى بعض الأحايين بصوت مرتفع عندما يجتمعون معاً، ولما كان معبد أورشليم ـ مركز حياتهم الدينية فيما قبل السبى ـ قد دمر الآن، فإنهم قد فكروا فى إقامة بديل له فى أرض المنفى، ومن ثم فقد أخذت العبادة عندهم مكان التضحية، واجتماعات الصلاة عن طريق قراءة الأدب القديم ومناقشته، وفيما بعد أصبح المعبد مؤسسة دينية منظمة[٢]، وتطورت الطقوس فيه من تراتيل فيّاضة وأدعية وتطبيق لمبدأ التنبؤ على الحياة اليومية، وهكذا أصبح المعبد نواة فعلية لأسس المذهب الإسرائيلى الموضوع بما جد فيه من فلسفة الحشر، والحياة بعد الموت[٣].

وقد عزّز إنشاء المعبد (أو الكنيس) ـ الذى ظهر فى بابل بالذات، حيث فرضت أهداف حكام الأسباط المفروضة بشكل أعنف من أى مكان

---

(١) قدّم المؤلف دراسة مفصلة عن هؤلاء الأنبياء فى بحثه «النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل»، الإسكندرية ١٩٧٨. تمثل الجزء الخامس من هذه الدراسة.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 52.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦١.

آخر - عزز مراراً عديدة الطابع السبطى لطقوس الدين اليهودى، وحصرت الأسباط اليهودية بين كماشة طقوس أكثر تزمتاً، ومن البدهى أن نفوذ «الكنيس» استخدم كلياً لمصلحة الأقلية الغنية، وجرت بالتدريج عملية تحويل «الكنيس» إلى مركز دينى وروحى للأسباط اليهودية، مع العلم بأنها لم تعرقل، بل بالعكس ساعدت التجارة والعمليات المالية لغلبة الأسباط أو نخبتهم[١].

على أن المنفيين لم ينسوا - كما تروى توراتهم - أورشليم أبداً، ومن ثم نقرأ فى المزمور (١٣٧):

«على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون، على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا، لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحاً، قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون، كيف نرنم ترنيمة الربّ فى أرض غريبة، إن نسيتك يا أورشليم تنسنى يمينى، ليلتصق لسانى بحنكى، إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى»[٢].

بل إن يهود إنما يصبون - فى نفس المزمور - لعناتهم على بابل، ويطلبون لها الخراب والدمار: «يا بنت بابل المخربة، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك، ويضرب بهم الصخرة»[٣].

هذا ولم يكن تعلق اليهود بأورشليم بصفة خاصة، وفلسطين بصفة عامة تعلقاً دينياً ومعنوياً فحسب، وإنما تجاوزه إلى التعلق المادى كذلك، ذلك لأن المكان المقدس فى أورشليم، حيث كان التابوت محفوظاً، إنما يمثل المركز الدينى للقبائل الإسرائيلية، قد أصبح المكان المختار لسكنى

---

(١) J. Parkes, End of an Exile, London, 1954, p. 92.

(٢) مزمور ١٣٧: ١-٦.

(٣) مزمور ١٣٧: ٨-٩.

يهوه[١]، والمكان الذى اختاره ليحمل اسمه[٢]، ورغم أن المعبد الذى بناه سليمان فى هذا المكان قد أتت عليه النيران، إلا أن قدسية المكان، لم ترتبط ببناء المعبد فحسب، ومن ثم فإنه كخرائب مايزال مكاناً مقدساً، وسكناً لربِّ إسرائيل (يهوه)[٣].

وأما من ناحية تعلق اليهود المادى بفلسطين، فلقد أصدر رجال الدين اليهودى ـ لأول مرة فى بابل ـ مرسوماً يستطيع بموجبه كل يهودى أن يعلن عن امتلاكه أربعة أفدنة وهمية فى فلسطين[٤]، ذلك لأن المنفيين ـ رغم كل ما ذكرناه ـ فإنهم قد ظلوا يشعرون بالغربة فى هذه البلاد الجديدة (أرض المنفى) لأنها إنما كانت بالنسبة إليهم أرضاً غريبة، غير طاهرة، فهى البلاد التى كان من المستحيل عليهم أن يمارسوا فيها عبادتهم التى كانت مرتبطة بوطنهم القديم ـ وبتحديد أدق فى معبد أورشليم المقدس ـ وهكذا كان المنفيون يقاسون كثيراً من أجل أورشليم التى لم يستطيعوا أبداً نسيانها[٥]، وهكذا رأينا الإسرائيليين على مدى ثلاثة آلاف سنة، وفى مختلف الأوطان التى انتشروا فيها بعد الشتات النهائى من فلسطين، يحيون بعضهم بتلك التحية التى تعنى دلالتها عن البحث فى كثير من الأدلة والبراهين، فالإسرائيلى كان يحيى صاحبه الإسرائيلى عند الافتراق «إلى اللقاء فى أورشليم»، وهى تحية تجدد الأمل الذى ظل حلماً يراود الأجيال المتعاقبة من الإسرائيليين فى منفاها دائماً وأبداً[٦].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المنفيين لم يكونوا متمسكين

---

(١) إشعياء ٨ : ١٨.

(٢) تثنية ١٢ : ١١.

(٣) M. Noth, The History of Israel, p. 291.

(٤) Salo W. Baron, A Social and Religions History of the Jews, Vol. V, p. 27.

(٥) M. Noth, op.cit., p. 297.

(٦) عبده الراجحى، الشخصية الإسرائيلية، الإسكندرية ١٩٦٨، ص ١٠٧.

بشعائرهم الدينية تمامًا، ومن ثم فقد تنازلوا عن بعض ما جاء في وصايا موسى العشرة وبخاصة تقديس يوم السبت (وأصل الكلمة سباتو أو شباط، وهي كلمة عبرية ربما بمعنى راحة)، وهي عادة قديمة جدًا لم يتمكن الباحثون من اكتشاف الهدف منها على وجه اليقين[١]، ورغم أن الاحتفاظ بها إنما يعتبر تعبيرًا عن الإيمان القديم وإشارة إلى الانفصال عن البيئة الأجنبية، ورغم أن حزقيال قد أشار مرارًا وتكرارًا إلى «سبت يهوه» كإشارة إلى الوحدة بين رجال يهوه ومريديه، إلا أن المنفيين إنما قد نسوا حفظ السبت في بابل، ومن ثم فقد بدأ رجال الدين يشددون على حفظه بعد العودة إلى كنعان[٢].

والأمر كذلك بالنسبة إلى سنة الختان[٣] الذى تركه أفراد السبى البابلى، رغم أن التوراة جعلت منه «علامة عهد بين يهوه وشعبه إسرائيل»[٤]، ومن ثم فإن تقاليد البنتاتوك - فيما يدعى بالقانون الكهنوتى - إنما تربط بين راحة السبت وخلق العالم[٥]، وتجعل من الختان التزامًا بين يهوه وأبراهام (إبراهيم عليه السلام)، وركنًا أساسيًا في تاريخ إسرائيل، ولا يكاد في الإمكان إثبات أكثر من احتمال أن القانون الكهنوتى إنما كتب

---

(١) تصور التوراة أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض فى ستة أيام، واستراح من جميع عمله (تكوين ٢ : ١-٣)، وهكذا تصور التوراة الله الخالق - جلّ جلاله - فى صورة بشر يعملون فيمسهم لغوب، ومن ثم يستريحون، ويرد القرآن الكريم على دعواهم الكذوب هذه بقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسّنا من لغوب﴾ (سورة ق، آية ٣٨).

(٢) حزقيال ٢٠ : ١٢-٢١، ٢٢ : ٨، ٢٦ : ٢٣ : ٣٨؛ نحميا ١٠ : ٣١، ١٣ : ١٥-٢٢؛ قاموس الكتاب المقدس ١/٤٥٣-٤٥٥؛ وكذا:

J. Lugol , Israel at la Civilsation, 1939, p. 28; M. Noth, op.cit., p. 297.

(٣) انظر : الجزء الأول من هذه الدراسة، ص ٣٥٧-٣٥٩، (ط ١٩٩٧). ص ٢٩٣-٢٩٦.

(٤) تكوين ١٧ : ١١.

(٥) تكوين ٣ : ١-٣.

فى أوساط المنفيين فى بابل وتفترض التأكيدات القوية فى مراعاة السبت والختان بأنهما منذ اكتسبا أهمية أساسية فى كل إسرائيل، ومن الناحية الأخرى، وطبقًا لما جاء في القانون الكهنوتي والبنتاتوك فإنهما قد انتشرا بدرجة عظيمة فى كل إسرائيل[١]، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن من انحرافات فترة السبى هذه، إنما كان ظهور الأنبياء الكَذبة[٢]، ذلك لأن هذه المرحلة من تاريخ إسرائيل إنما تميزت بظهور كثير من الأنبياء ومعظهم من مدعى النبوة، وكلهم لقى آذانًا صاغية لأنهم جميعًا كانوا يأملون الخلاص، وحذّرهم يهوه مرة أخرى من اتباع الكذبة والمضللين من الأنبياء[٣]، يقول سفر حزقيال: «ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئًا، أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب فى الحرب، لم تصعدوا أكثر، ولم تبنوا جدار البيت إسرائيل للوقوف فى الحرب في يوم الربّ، رأوا باطلا وعرافة كاذبة، القائلون وحى الربّ، والربُّ لم يرسلهم، وانتظروا إثبات الكلمة، ألم تروا رؤيا باطلة، وتكلمتم بعرافة كاذبة، قائلين: وحى الربّ وأنا لم أتكلم»[٤].

وعلى أى حال، فليس هناك من شك فى أنه إلى فترة السبى البابلى هذه (٥٨٧-٥٣٩ق.م) إنما ترجع عملية الجمع لنصوص العهد القديم، ويقول «هربرت جورج ويلز» (١٨٦٦-١٩٤٦ق.م) أنه من الراجح أن العهد القديم قد جمع لأول مرة فى بابل، ثم ظهر فى التاريخ فى القرن الرابع أوالخامس قبل الميلاد، ذلك لأن اليهود قد جمعوا هناك أثناء السبى البابلى تاريخهم بعضه إلى بعض، وطوروا تقاليدهم ونمُّوها، ومن ثم فقد أصبح

(١) M. Noth, op.cit., p. 298.

(٢) عن الأنبياء الكذبة، انظر: محمد بيومى مهران، النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص ٦٩-٧١.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٠.

(٤) حزقيال ١٣: ٣-٧.

الذين آبوا إلى أورشليم بأمر كيروش الثانى شعبا يختلف اختلافاً عظيماً فى الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذى خرج منها مأسوراً، وذلك لأنهم تعلموا الحضارة هناك من البابليين»[1].

ويزيد «ويلز» الأمر وضوحًا ـ فى كتاب آخر له ـ بقوله : «إن الحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هى أن اليهود ذهبوا همجًا وعادوا منهما ممدنين، خرجوا جمهوراً مختلطاً منقسماً على نفسه لا يربطه وعى ذاتى وطنى، وعادوا بروح قومية شديدة، وجنوح إلى الاعتزال، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة، وليس هناك ما يدل على تعودهم تلاوة أى كتاب، وعادوا إلى وطنهم ومعهم شطر أكبر من مادة العهد القديم (التوراة)، ومن الواضح أن اليهود بعد أن تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين، وبعدوا عن السياسة وعاشوا فى ذلك الجو الباعث على النشاط الذهنى فى العالم البابلى، فإن العقل اليهودى ما لبث فى أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة»[2].

وعلى أى حال، فرغم انهيار كثير من المبادئ الدينية لعبادة يهوه فى أيام السبى هذه، ورغم إحساس المنفيين بانحرافهم، فإن إسرائيل إنما كانت تعيش على تقاليد الماضى، وكانت النظرة إلى الخلف ـ إلى تقاليدها وتاريخها ـ تملأ كل حياتها، ورغم أن إسرائيل قد شاركت غيرها من شعوب سورية وفلسطين فى ضياع استقلالها السياسى، فإنا ـ على قدر ما نعلم ـ لا نعرف شعبًا آخر غير إسرائيل، قد احتفظ بأسلوب حياته وتقاليده القديمة، فضلا عن أن تلك التقاليد التى كانت تتطلع بها إسرائيل إلى الخلف، إنما كانت تحتوى أيضاً على إشارة إلى المستقبل فى أن يهوه يحفظ إسرائيل، ورغم أن الضغط المباشر للمحنة الأخيرة كان من الصعب أن يبقى

(١) Herbert George Wells, A Short History of the World, 1965, p. 73-78; Martin Noth, The History of Israel, 1965, p. 298.

(٢) H.G. Wells, The Outline of History, p. 290.

على قيد الحياة أى أمل فى المستقبل، وأن الغالبية العظمى من المنفيين إنما كانت عاجزة عن تصديق تحقيق ذلك، ومع ذلك لم يمت هذا الأمل حينما كانت الظروف الخارجية هى الأكثر قسوة، أنعشها هذه أكثر فأكثر، وأن الأمل فى مستقبل جديد قد ساعد دون شك فى أن تبقى إسرائيل معًا، وأن تصون إدراكها لمستقبلها بتفردها بين شعوب الإمبراطورية الأخرى وكانت تحتاج إلى توقع معقول عن تغير جوهرى فى الموقف التاريخى العالمى ليحرك شعلة الأمل المتوهجة إلى الحياة مرة أخرى[١].

(١) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 298-299.

الفصل الثانى
العــــودة من الســـبى

(١) كيروش الثانى (٥٥٨ - ٥٣٠ق.م)

لم تدم الإمبراطورية البابلية الجديدة طويلا، فقد سارت فى طريق الإنهيار السريع بعد موت «نبوخذ نصر» فى عام ٥٦٢ق.م، وكان «نبونيدس» (٥٥٥-٥٣٩ق.م) ـ ذلك الملك المثقف والذى اشتهر فى التاريخ القديم بحبه للآثار وعنايته بها ـ آخر ملوكها، قد سمح للتنظيم السياسى أن ينهار، ويسقط مع كهنة إله الإمبراطورية «مردوك»، ومن سوء الحظ فقد كانت الأحداث تأخذ مجرى آخر فى المرتفعات الإيرانية المجاورة، التى أصبحت بعد فترة قصيرة ذات تأثير حاسم على كل تاريخ الشرق الأدنى القديم، ومن المعروف أن السلطة الميدية قد ساهمت بطريقة حاسمة فى الإمبراطورية الآشورية ـ كما رأينا من قبل ـ كما أن ثمرة انتصارهم قد أكسبتهم الجزء الجنوبى من نطاق الإمبراطورية الآشورية، بالإضافة إلى بلاد الميديين نفسها، وسرعان ما مدُّوا سيطرتهم إلى أرمينيا وجبال آسيا الصغرى ناحية الغرب على امتداد نهر «هاليس»، وأما فى الجزء الجنوبى الشرقى فقد أخضعوا الحكام الفرس من الأخمينيين الذين كانوا يحكمون عيلام القديمة[١].

وفى حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، نجح «كيروش الثانى» فى القضاء على الميديين، ذلك أن كيروش بعد أن نجح فى توحيد فارس، إنما أخذ يبحث له عن حليف ضد ميديا من بين القوى الكبرى الأخرى، وكانت بابل هى الحليف الأقرب ـ والمنطقى كذلك ـ ذلك لأن بابل، رغم أنها كانت منذ جيلين مضيا حليفة لميديا، إلا أن ذلك كان أمراً مؤقتاً،

(١) J. Unge, Dareios J, Konig der Perser, 1944, p. 14F; M. Noth, op.cit., p. 300.

انتهى عهده بتدمير آشور، وتقسيم إمبراطوريتها بين الحيفين، وأصبحت ميديا الآن العدو الذى تخشاه بابل، وهكذا عقد تحالف بين «كيروش» ملك أنشان - وربما كانت مكان مدينة مسجيدى سليمان الحالية - و«نبونيد» ملك بابل فى عام ٥٥٥ق.م ضد الميديين، وفى عام ٥٥٣ق.م أعلن كيروش الثورة ضد الميديين، ونجح بعد ثلاث سنوات - وبمعونة من بعض دوائر معينة من بين النبلاء الميديين الذين تمردوا ضد الحكم الاستبدادى الذى كان يمارسه ملكهم - من خلع جده لأمه «استياجس» الذى لم يستطع إلا مقاومة طفيفة قبل إبعاده عن عاصمته «آكبتانا» - ومكانها الآن مدينة همدان - واستولى كيروش على عرش ميديا، وبالتالى فقد أصبح ملكاً على الميديين والفرس، من قبل النبلاء الميديين والفرس سواء بسواء، متخذاً من «أكبتانا» عاصمة له[1].

ورأت بابل بعينيها الآن المملكة الفارسية الأكثر خطورة تظهر قوية بجوارها، بدلا من المملكة الميدية، وبدأت دول غرب آسيا تنظر بقلق إلى الفاتح الجديد وعقدت ليديا وبابل ومصر وبعض الشعوب الإغريقية حلفاً فيما بينها ضد الفرس، ومن ناحية أخرى، فلقد بدأ كيروش يمد سلطته إلى أبعد ما يستطيع شرقاً وغرباً، وكانت جارته الغربية ليديا - وهى مملكة فى القسم الغربى من آسيا الصغرى - ظهرت فى بداية القرن السابع قبل الميلاد، كقوة ذات حجم كبير هناك، منذ انهيار دولة الحيثيين على أيدى شعوبالبحر فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد - وكان ملكها الغنى «كرويسيوس» (٥٦٠-٥٤٦ق.م) معاصراً لكيروش الفارسى، فبدأ يناصبه العداء، وطلب العون من حلفائه، وكانت مصر هى الوحيدة التى احترمت كلمتها، ومع ذلك فلم تغن عنه شيئاً أمام الطوفان الفارسى الذى سرعان ما هاجمه فى

(١) E. Herzfeld, Archaeological History of Early Iram, 1935,p. 40; G.G. Camer- or, History of Early Iram, 1936, p. 219; M. Noth, op.cit., p. 300.

دياره، واستولى على عاصمته «سارديس» في عام ٥٤٦ق.م، وأخذه أسيراً، ولم تمض سنون خمسة حتى أصبحت فارس تحتل المكانة الأولى في الشرق، ثم سرعان ما مدّت نفوذها حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم فقد أصحت مدن الشاطئ الأيوني تحت رحمة الحاكم الفارسي الذي تركها لتصرف قواده، ثم سرعان ما استولى على البلاد الفسيحة شرقي إيران، ومن ثم فقد أصبح يملك بين يديه سلطة قوية وفي غاية الثراء[1].

وأما «نبونيد» ملك بابل، فقد كان قد اتجه إلى «تيماء» ـ وتقع على مبعدة ١٠٤ كيلا إلى الشمال من مدينة العلا الحالية، على الطريق التجاري بين جنوب بلاد العرب وشمالها ـ حيث قضى هناك عشر سنوات[2] ـ ربما ليحيي أهميتها التجارية، وينتفع باقتصادياتها، أو على أمل أن يستعين بها وبوسطها البدوي على تطعيم جيشه بقواته فنية يحيي بها مجد دولته، ويستعد بها لمعركة قادمةلابد منها بينه وبين الفرس الطموحين، ولكن خاب أمله في هذا كله، وخابت سياسته مع تيماء وجيرانها، إذ اشتد عليها وقتل ملكها[3].

وعلى أي حال، فلقد أقام «نبونيد» قصراً في تيماء، أقام فيه حيناً من الدهر، أصبحت فيه تيماء وكأنها قد غدت خليفة لبابل، ونقرأ في واحد من نصوص الملك البابلي عن ذلك بقوله: «واتجه الملك إلى تيماء في وسط بلاد العرب، وباشر مسير الحملة على طريق لم يعهد من قبل، وذبح أمير تيماء[4]

---

(١) محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، ص ٣٤٠-٣٤١، وكذا:
M. Noth, op.cit., p. 300-301; Herodotus, I, 129, 177etc.

(٢) يقترح بعض الباحثين أن نبونيد قد ذهب إلى تيماء في السنة الرابعة من حكمه، وأنه بقي هناك على الأقل حتى السنة الحادية عشرة. انظر:
J. Finegan, op.cit., p. 228-229; J. Lewy, HUCA, 19, 1945, 1946, p. 434-450.

(٣) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٥٦١.

(٤) انظر عن «تيماء»: محمد بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، ٢٧٦/٢-٢٨٧، الإسكندرية ١٩٩٤م.

بسيفه، كما ذبح أولئك المقيمين فى مدينته وفى الإقليم، ثم استقر فى تيماء... وجعل هذه المدية رائعة وفخمة، وحولها إلى ما يشبه قصور بابل[١].

على أن هناك اتجاهًا آخر، يذهب إلى أن الرجل إنما كان هناك فى تيماء، فى المنفى وأنه لم يعد من هناك إلا فى عام ٥٤٦ق.م، عندما دعاه رعاياه الذين كان قد طال من قبل خلافهم معه[٢]، وذهب فريق ثالث إلى أن نبونيد إنما قد ذهب إلى تيماء، لأن هذا المكان هو المركز القديم لعبادة إله القمر «سين» الذى جعله نبونيد فوق «مردوك» وكل الآلهة البابلية الأخرى[٣].

وأيًا ما كان الأمر، فإن الأحداث التى جرت فى الإمبراطورية البابلية كان لهما دوى عظيم بين الشعوب الخاضعة لها، والتى كان لديها من الأسباب ما يجعلها تأمل فى انهيار محتمل الوقوع لسلطة بابل الجديدة، وتطلع اليهود الذين أبعدوا ببابل بأمل كبير إلى كيروش القوى المنتصر، ومن ثم فإن النبىّ المجهول الاسم - والذى يدعى عادة إشعياء الثانى - قد تنبأ بتدخل ربّ إسرائيل بصفته السيد الإلهى الوحيد للتاريخ كله، وهكذا أدمجت النبوة القديمة المستمرة من القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، كيروش فيها، على أنه الملك الذى وهبه الربُّ مع حكومته، ليكون أداة ربِّ إسرائيل، وكان يذكره فى أغلب الأحايين بالاسم[٤]، كما تنبأ إشعياء كذلك بسقوط بابل المحتمل الوقوع فى وضوح تام[٥]، ومن سوء الحظ

---

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٣١؛ وكذا:

A. L. Oppenheim, in ANET, 1966, p. 313-314; J. Finegan, op.cit., p. 227-228.

(٢) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 364.

(٣) Julius Lew, op.cit., p. 434-450; J. Finegan, op.cit., p. 229.

(٤) إشعياء ٤٤: ٨، ٤٥: ١.

(٥) إشعياء ٤٧: ١-١٥.

فإننا لا نستطيع أن نقرر إذا ماكان «إشعياء الثانى» هذا من المنفيين إلى بابل، على أساس نبوءاته عن الأحداث التاريخية فى إيران المجاورة، أم لا ؟ وعلى أى حال، فإن كلمات إشعياء الثانى إنما وجدت قبولا حسناً لدى المنفيين فى بابل، وأنها كانت دافعاً قوياً لآمالهم فى تغيير أحوالهم(١).

وأياً ماكان الأمر، فإن كيروش قد عزم العزم على احتلال بابل، بل إن هجومه على المدينة العظيمة إنما جاء بعد فترة قصيرة جداً، وبعد أن كان قد نجح فى مدّ سلطانه فى اتجاهات مختلفة،ولم يعد أمامه سوى الإمبراطورية البابلية الجديدة، بأملاكها في بلاد الرافدين وسورية وفلسطين، وأنه كان يعرف أنه أبعد علواً فى سلطته، وأن كل ما كان يحتاج إليه لمواجهتها هو الإطاحة بها بسرعة، وفى نفس الوقت فإن «نبونيد» إنما قد حاول أن يعد العدة لاتقاء العاصفة الوشيكة الوقوع، فبذل جهداً أخيراً لإعادة أقدم صور العبادة البابلية، ولكن الفرس - يناصرهم فى ذلك كهنة مردوك - لم يتركوا له وقتاً لتحقيق ما يريد، فضلا عن أن البلاد - ومدينة بابل بالذات - كانت تقاسى الأمرين، من سوء الإدارة، وانتشار المجاعات بين أهلها(٢).

وقرب بداية أكتوبر من عام ٥٣٩ق.م، قاد كيروش معركة فى «أوبيس» Opis على الدجلة، وأحرق أهل «أكد» بالنار، وبهذه الطريقة الهمجية من الرعب البغيض، أفقد كيروش خصومه شجاعتهم، وفى ١١ أكتوبر استسلمت «سيبار» دون قتال، وحاول «نبونيد» الهروب إلى الجنوب الغربى متجهاً إلى الصحراء، إلا أن البدو الرحل من أعوان كيروش قطعوا عليه الطريق وأجبروه على العودة إلى بابل، وفى ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٥٣٩ق.م، دخل «جوبرياس» Gobryas محافظ Gutium الخائن - والذى

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 301.

(٢) R.P. Dougherty, Records from Erech, 1920, No. 154; G.G. Cameron, New Light on Ancient Persia, JAOS, LII, 1932, p. 304.

كان قد هرب إلى فارس منذ عشر سنوات ليعمل فى خدمة كيروش ضد قومه البابليين ـ دخل بابل، ومعه قوات كيروش، دون معركة، وهكذا سقطت إمبراطورية «نبوخذ نصر» على يد أحد ضباطه، وفى ٢٦ أكتوبر بدأ الكتاب يؤرخون باسم العاهل الجديد «كيروش ملك العالم» وفى ٢٩ أكتوبر ٥٣٩ق.م، دخل كيروش نفسه بابل، وفرشت الورود فى طريقه ورحب به كهنة مردوك، وكثير من البابليين الذين لم يكونوا راضين عن حكومة «نبونيد»، وأعلن الغازى الجديد الأمان لسكان المدينة، وعين الخائن «جوبرياس» واليًا (ستراب Satrap) على إقليم بابل الجديدة، وأعيد الموظفون إلى وظائفهم، وأعلن كيروش أنه «الملك العظيم، الملك القوى، ملك بابل، ملك سومر وأكد، ملك كل أنحاء العالم»(١)، وهكذا انتقلت مقاليد الأمور فى الإمبراطورية البابلية الجديدة إلى كيروش، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين بدون صعوبة، واعترفت سورية وفلسطين بالغازى الجديد.

(٢) العودة من السبى:

لم يكن تأسيس الإمبراطورية الفارسية مجرد تغيير فى السيادة، وتركيز أقوى فى السلطة، وإنما كان تغييرًا جوهريًا فى سياسة العواهل من أشور وبابل تجاه الشعوب الخاضعة لهم، وكان ذلك أمر فى منتهى الأهمية بالنسبة لإسرائيل، ذلك أن الملوك الآشوريين ـ والبابليين من بعد ـ إنما حاولوا أن يوطنوا سلطتهم كلما أمكنهم ذلك، عن طريق وضع السكان الوطنيين فى الأقاليم الخاضعة لهم، تحت وصايتهم، وترحيل الطبقات الأعلى مرتبة إلى أقاليم أخرى، هذا فضلا عن إدخال دين الإمبراطورية

(١) R.W. Rogers, Cuneiform Parallels to the Old Testament, London, 1912, p. 381; Herodotus, I, 178, 188FF; A.L. Oppenheim, ANET, p. 315F; R. Ghirshman, Iran (penguin Books), 1954, p.131-132; A. T. Olmstead, History of the Persian Empire, Chicago, 1970, p. 50-51; R.A. Parker and W.H. Dubberstien, Babylonian Chronology, 626B.C.-A.D. 45, 1942, p. 11.

الرسمى فى عواصم الأقاليم، إلى جانب الأديان المحلية، ولو أنهم كانوا يتسامحون معهم إلى حد ما، واستمر الفرس فى سياسة التسامح هذه، ولكنهم احتفظوا بالسلطة الفعلية ـ والتى كانت مركزة فى شخص الملك، وكبار الموظفين ـ فى أيديهم[١].

ونقرأ فى التوراة[٢] أنه فى السنة الأولى من حكم كيروش ـ أى فى السنة الأولى من حكمه للإمبراطورية البابلية الجديدة ـ وبمعنى آخر فى عام ٥٣٩/٥٣٨ق.م أصدر كيروش أمره الملكى بالسماح للمنفيين من اليهود بالعودة إلى أورشليم، إن رغبوا فى ذلك[٣]، ولعل السبب الذى دفع كيروش إلى إصداره أمره هذا، أن الجالية اليهودية فى بابل قد ساعدته على احتلال المدينة، وربما لأن العاهل الفارسى قد رأى فى وجود جالية يهودية فى فلسطين تدين بوجودها لإحسانه سيشكل توازنًا فعالا تجاه الحزب الموالى للمصريين الذى طالما برز فى شئون فلسطين[٤].

هذا ويبدو أن المنفيين قد ترددوا بين العودة إلى ديارهم التى خربت، وبين البقاء فى تلك التى أقاموها فى أرض المنفى، وكانت النتيجة الرئيسية أن غالبية الشعب اليهودى قد بقيت فى بابل[٥] فقد كان الكثيرون منهم قد تأقلموا فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرابحة، ليعودوا إلى القفار الخربة فى المدينة المقدسة[٦]، وهكذا كان من الصعب ـ فيما يرى المؤرخ الأمريكى أولمستد ـ التوقع بأن يترك اليهود، بعد أن اغتنوا، بابل الخصبة من أجل هضاب

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 32.

(٢) عزرا ١: ١-١١.

(٣) C. Roth, op.cit., p. 53; S.A. Cook, op.cit., p. 409.

(٤) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٥) N. Sokolow, History of Zionism, Vol. II,p. 106.

(٦) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٦٥.

اليهودية الجرداء[١] بل إن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن زعماء المنفيين إنما كان يضعون بابل فى مرتبة تفوق مرتبة أورشليم نفسها، وهكذا نرى المؤرخ الأمريكى الصهيونى «سالو - و - بارون» يذكر عن مرحلة أقدم من مرحلة العودة نسبياً أن زعماء المنفيين فى بابل قد أصروا على أن تتلى فى جميع بلدان سبى اليهود الصلوات «من أجل صحة حكماء بابل» قبل أى شىء آخر، وقد أتاح العدد والرفاء المادى لآباء اليهودية الروحيين البابليين أن يؤكدوا أنه هنا - أى فى بابل - يسكن مصدر الحكمة والنبوءة، ومن بابل بالذات - وليس من القدس - يشع الإكليل المتألق على شعبه[٢].

وهكذا فضّل أغنياء المسبيين البقاء حيث هم، بدليل ورود أسماء عبرانية بصورة متكررة فى الوثائق التجارية لذلك العهد،وكانت هذه الأسماء مركبة من أسماء آلهة، وكانت أهم مراكزهم - كما أشرنا من قبل - على نهر الخابور، جنوب شرق بابل، وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكان أول أفراد ما عرف بـ «الدياسبورا» Diaspora، أى اليهود المقيمين خارج فلسطين أو «يهود الشتات»[٣].

ورغم ذلك كله، فإن «عزرا» و«نحميا» يقدمان ٤٢,٣٦٠ رقماً للعائدين، وهو رقم - فيما يرى فيلب حتى - مبالغ فيه، إذا ما قورن بمجموع المسبيين وهو ٥٨ ألف نسمة (٤٠ ألف فيما يرى سيسل روث[٤]) كما أنه لا يتفق مع ما جاء فى قوائم المفصلة التى تسبق الجمع النهائي، ولابد أن الذين استجابوا لهذه الدعوة - أى العودة - هم بصورة رئيسية من العناصر الناقمة، ومن الذين لم تكن لهم جذور فى الأرض الجديدة[٤].

---

(١) A. T. Olmstead, op.cit., p. 1960, p. 57.

(٢) Salo W. Baron, A Social and Religions History of the Jews, V, N.Y., 1957, p. 25.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٤) C. Roth, op.cit., p. 53.

(٥) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٣؛ وانظر: عزرا ٢ : ٦٤؛ نحميا ٧ : ٦٦.

وعلى أى حال، فإن هؤلاء العائدين لم يجدوا ترحيباً كبيراً فى وطنهم القديم ذلك أن أقواماً آخرين من الساميين قد استقروا فى تلك البلاد، وتملكوا الأرض بحق احتلالها والعمل فيها، وأخذت هذه القبائل تنظر بعين المقت إلى أولئك الذين خالوهم مغيرين على بلادهم وحقوقهم، ولولا تلك الدولة القوية الصديقة لهم والتى كانت تحمى العائدين ـ أعنى فارس ـ، لما استطاعوا أن يستقروا فى فلسطين[١].

٣ ـ إعادة بناء المعبد:

نقرأ فى المرسوم الملكى الذى أصدره كيروش الثانى (٥٥٨-٥٣٠ق.م) فى السنة الأولى من حكمه للإمبراطورية البابلية الجديدة (٥٣٩/٥٣٨ق.م) بعودة المنفيين إلى أورشليم[٢]، أن العاهل الفارسى إنما قد أمر بإعادة بناء معبد أورشليم فى نفس مكان المعبد السابق، حيث كانت تقام الاحتفالات الدينية، وتقدم القرابين، وأن تكون نفقات البناء الجديد من «بيت الملك» ـ أى من الخزانة العامة ـ وأخيراً فإن المرسوم الملكى إنما يعيد للمعبد الجديد كل متعلقات المعبد القديم الثمينة، التى كان قد اغتصبها «نبوخذ نصر» عند الاستيلاء على المدينة المقدسة، وتدمير المعبد فى عام ٥٨٧ق.م، ثم أحضرها إلى بابل مع الغنائم والأسلاب التى استولى عليها الغازى البابلى من يهوذا، هذا فضلا عن الأموال التى تبرع بها يهود السبى البابلى للمعبد الجديد[٣].

ولعل سؤال البداهة الآن: لم تدخل كيروش بنفسه فى أمر عبادة محلية على نفس حدود إمبراطوريته العظيمة، بعد فترة قصيرة من استيلائه على

---

(١) ول. ديورانت، المرجع السابق، ص ٢٦٥.

(٢) هناك من يثير الشكوك حول صحة هذا القرار. انظر:

E. Meyer, Die Entstehung des Judentums, 1896, p. 8F.

(٣) عزرا ١: ١-١١، ٦: ٣-٥؛ وكذا:

S.A. Cook, op.cit., p. 409; C. Roth, op.cit., p. 53; M. Noth, op.cit., p. 306-307.

أملاك الإمبراطورية البابلية الجديدة، داخل بلاد وصلت إليه عن طريق الإمبراطورية المذكورة، رغم أنه لم يرها من قبل؟.

لاريب فى أن تصرف كيروش هذا لا يرجع بالتأكيد إلى مبادرته الشخصية، ولعل الأمر الذى يمكن إدراكه بسهولة، أن بعض اليهود الذين سبق ترحيلهم إلى بابل، والذين شاهدوا تجديد الديانات القديمة فى ميزوبوتاميا، ربما لفتوا نظر البلاط الفارسى إلى حقيقة أن حاكم الإمبراطورية البابلية الجديدة قد دمّر معبد أورشليم، الذى يجب أن يجدد بناؤه الآن، وأنه من الممكن إعادة الأشياء المقدسة التى نهبت من هذا المعبد.

وأما بالنسبة للمنفيين، فضلا عن القبائل التى بقيت فى البلاد، والجماعات الأخرى المتفرقة من إسرائيل القديمة، فقد كان تجديد المعبد أمراً ذا أهمية أساسية بالنسبة للديانة المركزية الفيدرالية التى كانت أورشليم مركزاً لها لفترة طويلة، ومازالت مركزاً لإسرائيل التى تعلقت بسرعة بتقاليدها.

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن هناك من يذهب إلى أن كيروش الثانى لم يصدر أية أوامر رسمية بتجديد معبد أورشليم، ولم يشر بأية وسيلة بأنه سوف يقوم بالاحتياجات التى ربطها إشعياء الثانى بشخص كيروش كمبعوث من العناية الإلهية وهو الذى كان عليه أن يؤثر فى التغيير النهائى الحاسم فى التاريخ، ومع ذلك، فيبدو أنه على الرغم من أن الأمل فى تغيير أساسى، وتحسن الموقف الذى كان قد ارتبط بظهور كيروش، لم يكن هناك أى أمر كتابى، وقد وجد البعض أنه من الصعوبة بمكان تصديق أن كيروش قد وافق على أن تكون إعادة بناء المعبد من الخزانة العامة، الأمر الذى اتخذه البعض كحجة ضد صحة القرار المقتبس من النص الذى جاء فى سفر عزرا(٦ : ٣-٥).

غير أن هذا العمل إنما يتفق مع سياسة تحسين أحوال الديانات المحلية

عن طريق تقديم مساعدة مالية من الدولة فى حالات الضرورة، وفى حالتنا هذه إنما يوجد سبب خاص لتقديم المساعدة الآنفة الذكر، ذلك أن العاهل البابلى «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ق.م) إنما قد دمّر المعبد ونهبه، عند استيلائه على المدينة المقدسة فى عام ٥٨٧ق.م، وبما أن العاهل الفارسى «كيروش» الثانى هو الوريث لحكم الدولة البابلية، فضلا عن أنه الذى تبنى سياسة معينة بالنسبة للشئون الدينية، ومن ثم فهناك سبب وجيه لقيامه بإصلاح أخطاء «نبوخذ نصر»، هذا إلى جانب أن المعبد إنما كان مكاناً للعبادة الملكية السابقة ولما كان «كيروش الثانى» يعتبر نفسه الخليفة الشرعى لملوك يهوذا السابقين، فهو إذن المسئول عن تكاليف تجديد المعبد، وهكذا فقد كان من اللائق أن يعطى أوامره بذلك، فضلا عن توجيهاته بشأن أسلوب البناء الجديد[١].

ويشير مرسوم كيروش بصفة خاصة إلى تجديد المعبد، وفيما بعد نرى كاتب الحوليات العبرانى يسجل الحادث باللغة العبرية فى سرده لقصة البداية الجديدة بعد فترة النفى[٢]، معتمداً فى ذلك على النص المعروف والمرتبط بأمر تجديد المعبد، ومنح المنفيين حرية العودة، لأنه إنما كان يفكر فى الموطن القديم، وبخاصة مدينة أورشليم، والتى كانت خرائب مهجورة، ومن ثم فمن المحتمل أنه قد استنتج أن كيروش قد استغل سلطانه لإصلاح المعبد والسماح للمنفيين بالعودة إلى الوطن للقيام بهذه المهمة، وأن وجهة نظره إنما كانت تتجه إلى أن جزءاً صغيراً من السكان قد بقى فى فلسطين[٣]، فضلا عن تلك الطبقة العليا الأجنبية التى بقيت فى ولايات مملكة إسرائيل، والتى لم تشترك فى إعادة بناء المعبد.

وفى الواقع، إن قرار كيروش لم يذكر عودة النفيين، لأن ذلك لم يكن

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 307-308.

(٢) عزرا ١ : ٢-٤. (٣) ملوك ثان ٢٥ : ١٢.

ضرورياً بالنسبة لتجديد المعبد، ذلك لأن الجزء الرئيسى من القبائل، إنما قد بقى فى البلاد للقيام بالخدمة الدينية فى المكان المقدس، حتى بعد تخريب «نبوخذ نصر» لهيكل سليمان، ومن ثم فهذا الجزء من القبائل إنما كان قادراً على التجديد وربما لم يرجع كثير من المنفيين إلى أورشليم وبلاد يهوذا، رغم أن الفرس لم يضعوا أية عقبات فى طريق عودتهم، وعلى أى حال، فمن المفترض أن عدد العائدين لم يكن كبيراً (أربعين ألفاً فيما يرى سيسل روث)[١]، ذلك لأن أحوال فلسطين نفسها لم تكن تسمح بذلك، بسبب المدن والقرى الكثيرة التى دمرت، والتى لم يكن قد أعيد بناؤها بعد، بل إن مدينة أورشليم نفسها، كانت ماتزال بمثابة خرائب بدرجة كبيرة[٢].

وأياً ماكان الأمر، فلقد فوّض كيروش شخصاً يدعى «شيشبصر» وصف بأنه «رئيس يهوذا» فى أن يأخذ الكنوز التى نهبت من معبد أورشليم منذ نصف قرن، وحفظت بمعبد الإله «بل» Bel، وأن يقوم بمهمة تجديد المعبد، وكان على «شِيشْبصّر» على أى حال، أن يقوم بوضع أساس المعبد الجديد[٣].

هذا وقد وصف «شيشبصر» بأنه كان والياً من قبل كيروش الثانى[٤]، وأنه «رئيس يهوذا»[٥]، ومع ذلك فليس من السهل علينا أن نحدد المركز الذى كان يشغله «شيشبصر» هذا، وهل كان حاكماً على ولاية يهوذا التى كانت قد بقيت كولاية مستقلة، أو أنها قد أعيد تكوينها من جديد، أم أنه كان حاكماً مساعداً لجهة ما فى يهوذا، التى كانت تحت الإدارة الإقليمية للسامرة؟ أم أنه كان شاغلا لوظيفة عادية عند الحاكم، وليس أكثر من مجرد وكيل خاص يشرف على عودة كنوز المعبد وتجديده، طبقاً للأوصاف

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 53.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 308.

(٣) عزرا ٥ : ١٤-١٦؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 53.

(٤) عزرا ٥ : ١٤.

(٥) عزرا ١ : ٨.

التى جاءت فى سفر عزرا (٥ : ١٥) ؟ كل تلك أسئلة من الصعب إعطاء إجابة حاسمة عنها، وكل ما نعرفه أن كيروش الثانى إنما قد أعطى تفويضاً محدداً لتنفيذ قراره[١].

ثم من هو «شيشبصر» هذا؟. إن الرجل ـ كما يبدو من اسمه البابلى ـ ليس موظفاً فارسياً، وربما كان يهودياً منفياً قبل الآخرين ممن على شاكلته فى بابل، وفى نفس الوقت كان يحمل اسماً بابليًا، وقد بدا للحكومة الفارسية لسبب أو لآخر أنه الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة، ومن العبث أن نحاول توحيده بشخصية أخرى معروفة جاء ذكرها فى سفر أخبار الأيام الأول (٣ : ١٨) تدعى «شناصر» والذى يظهر على أنه رابع أبناء الملك اليهوذى المنفى «يهوياكين»[٢]، ورغم أنه لا يوجد حقيقة ما يجعلنا نوحد «شيشبصر» بـ «شناصر» وأنه من المستحسن أن نعترف بأننا لا نعرف عن شخص «شيشبصر» هذا سوى القليل الذى جاء عنه فى نص عزرا (٥ : ١٤-١٦)[٣]، فإن هناك من الباحثين من يذهب إلى أنه ابن الملك «يهوياكين»، ومن يذهب إلى أنه أمير من الأسرة المالكة[٤]، ربما اعتماداً على ما جاء فى التوراة من أنه «رئيس يهوذا»[٥].

وأياً ما كان الأمر، فبعد عودة قوافل المنفيين إلى فلسطين، يمكن أن يتصور المرء أن القوم قد تفرّقوا فى أماكنهم الأولى، وبدأت كل عائلة تبحث عن قطعة الأرض التى كانت تمتلكها سابقًا، ورغم ذلك فقد تجمعوا بعد ذلك فى أورشليم لإعادة الشعائر المقدسة فى المعبد، وفى مناسبة الحفل

(١) M. Noth, op.cit., p. 309; K. Galling, JBL, 70, 1951, p. 179.

(٢) أطلق الملك البابلى «أويل مردوخ» (٥٦٢-٥٦٠ق.م) سراح الملك اليهودى «يهوياكين» فى عام ٥٦٢ق.م (ملوك ثان ٢٥ : ٢٧-٣١؛ وكذا؛ C. Roth, op.cit., p. 51

(٣) M. Noth, op.cit., p. 309-310.

(٤) S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, p. 409.

(٥) عزرا ٢ : ٨.

الدينى الذى كان يقام فى بداية الشهر السابع (والذى عرف فيما بعد ببداية العام) بدأت إزالة الأنقاض من وسط الساحات المهدمة تمهيداً لإقامة الهيكل الجديد، ومنذ تلك اللحظة - ومنذ ثلاثة قرون ونصف القرن - لم تنقطع التضحية المنظمة والمتوالية صباح مساء[1].

وهكذا - وبعد عامين من العودة - أقيمت أساسات المعبد الجديد، ولكن العمل سرعان ما توقف بسبب الموقف السىء فى أورشليم والبلاد المجاورة، ومن ثم فقد بدأت دعوة جديدة تنادى، «بأن الوقت لم يحن بعد لبناء بيت يهوه»، وأن القوم كانوا ما يزالون مشغولين بأمورهم الخاصة، «وكل رجل لا يشغله إلا آل بيته»، وأن بعضاً منهم كان ما يزال يعيش فى «منازل مكسورة»، ورغم أنهم ربما كانوا قلة، فالذى لا شك فيه أن أورشليم كانت ماتزال إلى حد كبير مدينة خربة، يسكنها قوم يستحقون العطف، وأن القرى فى الريف لم تكن بأفضل من ذلك، وكان على قمة تلك المآسى «المجاعة» التى يتلوها حصاد سىء للغاية، مما جعل الأهالى يركزون كل اهتماماتهم فى متاعبهم الشخصية، وهكذا بدأت الأساسات دون أن يلمسها أحد، وتوقف العمل فى تجديد المعبد نهائياً[2].

وهكذا توقف العمل فى إعادة بناء معبد أورشليم، بسبب حاجته إلى أعداد كبيرة من الأيدى العاملة، والتى كانت أورشليم المهدمة فى أشد الحاجة إليها لإعادة بنائها، كما أن المعونة الفارسية كانت جد قليلة، فضلا عن أن جيران يهوذا، إنما كانوا من عوامل هذا التوقف، إذ «كان شعب الأرض يرخون أيدى شعب يهوذا ويذعرونهم عن البناء، واستأجروا ضدهم مشيرين ليبطلوا مشورتهم كل أيام كوروش ملك فارس، وحتى ملك داريوس ملك فارس»[3].

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 53.

(٢) حجى ١ : ١-١١، وكذا M. Noth, op.cit., p. 310.

(٣) عزرا ٤ : ٤-٥.

وهكذا لم يبن من المعبد الثانى غير أساساته، حتى قضى «كيروش الثانى» فى سبتمبر من عام ٥٣٠ق.م، وهو يهاجم جحافل الطورانيين على حدوده الشمالية، وخلفه ولده «قمبيز الثانى» (٥٣٠-٥٢٢ق.م)، الذى انشغل بالاضطرابات التى انتشرت بعد وفات أبيه، بسبب المشاكل المتعلقة بوراثة العرش، والتى لعب فيها أخوه «بريديا» (سمروس) دوراً هاماً، ومن هنا فقد عقد العزم على أن يكبح بعنف كل ما يهدد قوته بالضعف، أو يجعل العرش الذى يجلس عليه يهتز من تحته، ومن ثم فقد تم اغتيال «بريديا» وخلا له الجو ليكون الحاكم الوحيد لأكبر إمبراطورية عرفها عصره[1]، غير أن قمبيز لم يقدم شيئاً ذا منفعة ليهود، وهكذا - وبعد ستة عشر عاماً من قرار كيروش، وبعد البداية الأولى لإعادة بناء المعبد - مات قمبيز فى سورية، فى مكان غير معروف على وجه التحقيق، ربما فى شمال فلسطين عند «أقبطانا» أو «أكبتانا» على مقربة من جبل الكرمل، وربما عند دمشق[2].

واستغل «جاوماتا» الماجى شدة شبهه بشقيق قمبيز (برديا)، وزعم أنه «برديا» الحقيقى، الذى كان قمبيز قد قتله فى بداية حكمه، ومن ثم فقد أعلن الثورة فى ١١ مارس من عام ٥٢٢ق.م، ثم أصبح ملكاً فى بابل فى ١٤ أبريل، وفى أول يوليه من عام ٥٢٢ق.م، تم الاعتراف به فى جميع أنحاء الإمبراطورية، وقد تقبل القوم «بريديا» المزعوم بارتياح،و لأنه أوقف الضرائب التجنيد لمدة ثلاث سنوات، ومع ذلك فإن حكمه لم يدم طويلا، إذ سرعان ما اجتمع سبعة من النبلاء، بزعامة «دارا بن هستاسبس» ونجحوا فى القضاء عليه فى ٢٩ سبتمبر من عام ٥٢٢ق.م، وأصبح «دارا» ملكاً على فارس[3].

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 310-311; R. Ghirshman, IRan (Penguin Books), 1954, p. 136.

(٢) Herodotus, III, 64; Josephus, Antiquities of the Jews, XI, 2, 3; Pliny, V, 19.

(٣) A.T. Olmstead, AJSL, LV, 1938, p. 394; Herodotus, III, 61F; G.G. Cameron, AJSL, LVIII, 1941, p. 315F.

وبدأ الأمل يداعب اليهود من جديد فى إعادة بناء هيكل سليمان، وفى النصف الثانى من عام ٥٢٠ق.م، بدأ النبىّ «حجى» يتكلم عن إعادة المبانى الخاصة، بينما بيت يهوه ما يزال خراباً، وإلى هذا تشير التوراة فى سفر حجى «فمن أجل بيتى الذى هو خراب، وأنتم راكضون كل إنسان إلى بيته لذا منعت السماوات من فوقكم الندى، ومنعت الأرض غلتها، ودعوت بالحرّ على الأرض، وعلى الجبال، وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى مـا تنبتـه الأرض وعل الناس وعلى البـهـائم وعلى كل أتعـاب اليدين»[١].

وفى بداية عـام ٥١٩ق.م بدأ كـذلك النبىّ «زكـريا» (٥١٩-٥١٨ق.م) يتحدث عن رؤياه المسجلة فى (زكريا ١ : ٧-٦ : ١٥)، وكان زكريا - كما كان حجى (حوالى عام ٥٢٠ق.م) - يرى ضرورة إعادة بناء المعبد، وهكذا كانت بداية عصر «دارا الأول» (٥٢٢-٤٨٦ق.م)، بمثابة عصر جديد بالنسبة إلى يهود، لقد كان «يهوه» ربُّ إسرائيل غاضباً على شعبه إسرائيل، ولكنه كفَّ الآن عن ذلك، وعاد إلى مدينته، غيوراً على شعبه، وانتهت سنين البؤس بلا عودة، وبدأ الأمل يداعب القوم فى مستقبل قريب[٢].

وهكذا كان النبيّان - حجى وزكريا - فى انتظار مجىء حكم الربّ الذى أنذرت بقدومه الاضطرابات التى سادت تلك الفترة، وكان مهمّا بالنسبة إليهما - إزاء كل تلك الظروف - أن يعاد بناء المعبد، ذلك لأن كلا من النبيّين لا يدرك وجود الربّ، إلا باتصاله بالمكان المقدس فى أورشليم، وبهذا الاهتمام العقائدى، فإن حجى وزكريا إنما يختلفان عن أنبياء القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، ومن ثم فقد حاول حجى - بصفة خاصة -

(١) حجى ١ : ٩-١١.

(٢) زكريا ١ : ١٤ وما بعدها ٢ : ١ وما بعدها ؛ وكذا: S.A. Cook, op.cit., p. 410.

استئناف العمل فى بناء المعبد فى نهاية عام ٥٢٠ق.م[١].

وفى تلك الأثناء أرسلت الحكومة الفارسية «زَرُبَّابل»[٢] بن شَألْتِيئيل الداودى - وهو الحفيد الأكبر للملك «يهوياكين» بن يهوياكين الأكبر «شألتئيل» - إلى أورشليم ؛ بوصفه موظفًا فارسيًا، يعمل كحاكم إقليمى فى يهوذا، أو كحاكم تابع يعمل تحت إمرة والى السامرة، وطبقًا لما جاء فى سفر حجى (١ : ١ وما بعدها) فإن «زرُبَّابل» بوجه خاص، هو الذى ذكره حجى النبىُّ بإعادة بناء المعبد، وطبقًا لما جاء فى الفقرة (١ : ١٢) من نفس السفر، فإنه هو الذى أمر ببناء المعبد، فضلا عن أنه الذى ينسب إليه أقصى ما أمكن الوصول إليه من الأمانى، ثم هو كذلك وريث بيت داود، والزعيم فى أورشليم ويهوذا، ولكه فى الوقت نفسه، ليس إلا موظفًا فى الإمبراطورية الفارسية، وطبقًا لنبوات أنبياء القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، فهو ملك المستقبل، ويسجل سفر حجى (٢ : ٢٠-٢٣) أن الربَّ قد اختاره ليصبح «خاتم الله» وأن ذلك ربما يعنى أن «زرُبَّابل» فى مملكة الربِّ سوف يكون مبعوث العناية الإلهية، ورمز قوة يهوه، وخادمه ومختاره، سوف ينال القصر الذى أخذ من جده «يهوياكين» وسيكون المسيح الأمير الممسوح من نسل داود، هذا وقد تابع زكريا حجى فى نبوءاته، فتحدث عن التعويض الإلهى لزرُبَّابل، ووضع التاج على رأسه كملك للمستقبل (زكريا ٩٦-١٤)[٣].

وفى الواقع فإن حالة «زرُبَّابل» هذه، إنما هى حالة فريدة من أنبياء

---

(١) حجى ١ : ١٢-١٤ ؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 311-312.

(٢) زربابل، اسم أكادى معناه «زرع بابل» أو «المولود فى بابل» ابن «شألتيئيل» (عزرا ٣ : ٢، ٨، نحميا ١٢ : ١؛ حجى ١ : ١، ١٢، ١٤ ؛ متى ١ : ١٢، ١٣ ؛ لوقا ٣ : ٢٧)، ونستطيع أن نفهم مما ورد فى سفر أخبار الأيام الأول (٣ : ١٧-١٩) أن شألتيئيل مات بدون ذرية، ولعل أخاه «فدايا» قد تزوج بامرأته وأقام نسلا لأخيه حسب الناموس. (تثنية ٢٥ : ٥-٦) ؛ (انظر : قاموس الكتاب المقدس ٤٢٥/١).

(٣) S. A. Cook, op.cit., p. 411; M. Noth, op.cit., p 312; C. Roth, op.cit., p. 54-55.

يشيرون إلى توقع «المسيا» المنتظر، فى شخص تاريخى موجود بينهم، ومن الواضح أن هذا إنما يشير إلى اللهفة الغربية فى البحث عن التغيير النهائى فى الموقف التاريخى، وعلى أى حال، فإننا لا نعلم مدى تأثير رؤيا الأنبياء التى عبّر عنها حجى وزكريا والأمل المركز فى «زربابل»، ولكن من السهل أن نتصور أن فروغ الصبر واللهفة كانتا عظيمتين فى أورشليم نفسها، وربما من القبائل التى تقطن الريف كذلك ومهما يكن من أمر، فإن تلك الآمال التى أصبحت معقودة على ملك من نسل داود، يقوّم ما اعوّج، ويعيد الأمور إلى مجراها القديم، إنما قد أصبحت وبالا على «زربابل» فاختفى فجأة كما اختفى من قبل «شيشبصر»[1] من مسرح الأحداث بسبب ما يزال موضع خلاف بين الباحثين، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن حاكم السامرة قد علم بما يدور فى أورشليم ويهوذا، فأحاط البلاط الفارسى علمًا بذلك، وهكذا تم إبعاد «زربابل» على أنه موظف خطير يسعى إلى الاستقلال بإحدى الولايات، ذلك لأن السلطات الفارسية كانت لا تمانع فى إعادة بناء المعبد، أما إقامة عرش جديد فأمر يستحق التفكير، بل يستوجب المقاومة ومن ثم فربما تعرض «زربابل» لنهاية عنيفة كعقاب له على تطلعاته الطموح بإقامة عرش جديد فى أورشليم، مستقلا عن الإمبراطورية الفارسية[2]، على أن هناك اتجاهًا آخر، يذهب إلى أن اختفاء «زربابل» ربما كان بسبب التنافس بينه وبين الكهنة[3].

وعلى أى حال، فلقد نجح «زربابل» فى إكمال بناء الهيكل (المعبد

---

(١) هناك من يرجح أن «شيشبصر» هو «زربابل» نفسه، ومن يرجح أنهما مختلفان، وأن الأول زعيم العائدين فى عهد كيروش والثانى فى عهد دارا . (قاموس الكتاب المقدس، ١/٤٢٥) وكذا:

S.A. Cook, op.cit., p. 410.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٥-٤٦٦؛ وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 313; C. Roth, op.cit., p. 55.

(٣) S.A. Cook, op.cit., p. 412.

الثانى) فى اليوم الثالث من شهر آذار من العام السادس من حكم الملك الفارسى «دارا الأول» (أى فى ١٠ مارس من عام ٥١٥ق.م)، وكان البناء الجديد أضخم من الهيكل الأول، لكنه كان أقل منه فخامة وتكلفة، وقد استعمل فى تشييده خشب الأرز، ورصع بالجواهر التى تبرع بها السكان، وأعيدت إليه بعض أوانيه التى سرقت، غير أن قدس الأقداس كان خالياً لأن «تابوت العهد» كان قد اختفى[١].

وهكذا أصبح لإسرائيل مركز دينى، يمكن أن تستأنف فيه من جديد تقاليد معبد سليمان، وبدهى أن الحدث إنما كان ذا أهمية حاسمة بالنسبة لمستقبل الحياة فى إسرائيل التى فقدت استقلالها السياسى، وأصبح الكثيرون من أهلها يعيشون بعيداً عن يهوذا، وأصبح التحالف الودى الذى كان يجمع القبائل الاثنى عشر مجرد فكرة، بعد أن كان يعبرعنه فى عصر الملوك فى أورشليم مركز التابوت بأشكال مختلفة، وأما الآن فقد اعتبر معبد أورشليم هو المعبد الوحيد الشرعى، كما أنه أصبح مرة أخرى المركز الحقيقى للحياة اليهودية، وكانت إسرائيل وقت ذاك هى المجتمع الدينى العظيم الذى يتركز حول هذا الخراب[٢].

على أن هذا لا يعنى أن هؤلاء المتجمعين حول معبد أورشليم يمثلون إسرائيل القديم، صحيح أن الأجزاء الباقية من القبائل القديمة، كانت ماتزال تعيش فى جهاتها القبلية، ولكن صحيح كذلك أن هناك جماعات أخرى - أصغر أو أكبر - انتشرت فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية الفارسية الواسعة، وفيما وراءها، ومن المستحيل إحياء عوامل التحالف القبلى التى كانت محددة فى مظاهر كثيرة منذ تأسيس الملكية، غير أنها سرعان ما تدثرت نتيجة

---

(١) عزرا ٦ : ١٥ ؛ قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١٠١٤ ؛ وكذا:

M. Noth, op.cit., p. 314; C. Roth, op.cit., p. 54; S.A. Cook, op.cit., p. 409.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 314.

الأحداث التى أعقبت منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ولم يعد باقياً، من مخلفات التابوت شيئاً، باستثناء المكان المقدس الذى كان يشغله فى الماضى، والذى أصبحت أهميته الوحيدة تنحصر فى كونه مكاناً للعبادة وتجمعت إسرائيل حوله كمجتمع دينى فى دائرة ضيقة من هؤلاء الذين بقوا فى يهوذا، أو الذين عادوا إليها، وفى دائرة أوسع من «الدياسبورا Diaspora وهم اليهود المقيمون خارج فلسطين[١].

(٤) نحميا (٤٤٥-٤٣٣ق.م):

كان نحميا ينحدر من صلب أحد المنفيين فى بابل، وقد ساعدته الظروف على أن يعمل فى وظيفة حامل الكأس الملكية فى المدينة الفارسية «سوسة» (شوشة وشوشان فى التوراة)[٢]، مما ساعده على الاتصال بالعاهل الفارسى «أرتاكزكسيس الأول» (٤٦٥-٤٢٤ق.م) نفسه، وفى الوقت ذاته تعطينا ظروف «نحميا» هذه مثالا فريداً ومعروفاً لنا عن الوسيلة التى يمكن الحصول بها على اهتمام الملك الفارسى بأمور فلسطين، وربما لم يكن «نحميا» هو المنفى الوحيد الذى وصل إلى منصب ما فى البلاط الفارسى.

ونقرأ فى التوراة أن بعض العائدين إلى يهوذا ممن كانوا يترددون على «سوسة» - فضلا عن الزوار والحجاج العائدين من فلسطين - إنما قدموا تقريراً إلى نحميا عن الظروف السيئة التى كانت ماتزال تسود أورشليم، وكيف أن أسوار المدينة المقدسة وبواباتها - فضلا عن الجزء الأكبر من منازلها - كانت ماتزال خراباً ينعق فيها البوم والغراب، واستغل نحميا رضى العاهل الفارسى عنه، فى السماح له بزيارة القدس، بل وفى إرساله فى مهمة رسمية إلى أورشليم ليجدد أسوارها، ومزوداً فى الوقت نفسه بخطابات رسمية

(١) Ibid, p. 314-315.

(٢) نحميا ١ : ١؛ دانيال ٨ : ٢.

لتسهيل مهمته عند حكام ولايات ما وراء النهر، فضلا عن المشرفين على الأملاك الملكية لتزويده بالأخشاب اللازمة لعملية البناء، والتى تعانى أورشليم منها نقصاً واضحاً(١).

وفى شهر نيسان من العام العشرين من حكم «أرتاكزكسيس الأول» (أبريل/ مايو عام ٤٤٥ق.م)، وصل «نحميا» إلى أورشليم بحرس عسكرى من الخزانة وضباطها، ولم يظهر نحميا فى أورشليم ببعثته الخاصة فحسب، وإنما ظهر بمنصب رسمى «ترشاثا» Tirshata(٢) أنعم به عليه الملك الفارسى، وبعد ثلاثة أيام من وصوله ركب جواده، ودار حول أسوار المدينة مع بعض المرافقين له، وتأكد أن كل ما سمعه من أخيه «حنانى»، ومن العائدين من أورشليم إلى بابل، صحيح تماماً، وأن ما حدث منذ قرن ونصف من خراب وتدمير للمدينة المقدسة، إنما هو باق كما كان، فالحصون قد خربت، والأسوار دمرت والمنازل هدمت وا لأبواب فى حالة يرثى لها، ومن ثم فقد استدعى نحميا الموظفين البارزين فى المدينة، وأبلغهم عن السلطة التى خوّلها إياه الملك الفارسى، والإجراءات التى سوف يتخذها لإعادة بناء المدينة وصيانتها، وقد استقبلت هذه الأخبار بترحاب شديد من الكهنة والحرفيين، وبدأ الناس فى أورشليم يهشون أنفسهم - ما وسعهم إلى ذلك سبيل - لإعادة البناء، كما بدأ العمال يتوافدون على أورشليم من جميع المناطق المجاورة(٣).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن إصلاحات «نحميا» هذه، من

---

(١) نحميا ١: ١-٢: ٨؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 321.

(٢) ترشاثا: منصب أعطي لنحميا من قبل الملك الفارسى «أرتاكزكسيس الأول» أثناء فترة عودة المنفيين من بابل إلى أورشليم، ويمنحه سلطة مدنية كاملة. (نحميا ٨: ٩، ١٠: ٢؛ وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 238.

(٣) نحميا ١١: ٥؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 58; A. Alt, PJB 24, 1928, p. 91F.

إعادة بناء أسوار أورشليم، وتجديد الحصون، إنما لاقت معارضة شديدة فى داخل أورشليم وفى خارجها[١]، ففى داخل المدنة المقدسة ومجاوراتها، إنما عارضها بعض وجهاء اليهود المحليين، بسبب النفور الذى ظهر بمجرد عودة المنفيين، بين اليهود الذين بقوا فى فلسطين أثناء السبى البابلى، وأصبحوا يملكون معظم الأراضى الخصبة، وبين القادمين الجدد الذين يملكون توصية من الملك الفارسى بامتلاك هذه الأراضى، وهكذا بدأ النزاع بين القادمين والمقيمين حول امتلاك هذه الأراضى، فضلا عن الاشتراك فى الحياة اليومية، وقد انعكس كل ذلك على مهمة نحميا[٢].

وأما المعارضة الخارجية فقد تزعمها رجال ثلاثة، جشم الزعيم العربى، وسنبلط حاكم السامرة، وطوبيا العمونى، ويشير نحميا فى سفره (٢ : ١٠) أن الأخيرين قد ساءهما كثيراً، أن رجلا جاء يطلب الخير لبنى إسرائيل.

كان «جشم العربى» أول المعارضين[٣]، وقد اختلف المؤرخون فيه، فمنهم من يرى أنه من السامرة (ربما من القبائل العربية التى هجَّرها سرجون الثانى إلى السامرة)، بينما يرى آخرون أنه رئيس قبيلة عربية تسكن فى جنوب يهوذا[٤]، على أن فريقًا ثالثًا يرى فيه أحد ملوك «قيدار» - وهى مملكة عربية تمتد من حدود مصر الشرقية إلى حدود يهوذا، فجنوب ديدان بحوالى ٢١ كيلو متراً[٥] - ويظن البعض أن الإناء الذى وجد فى مكان ما، يقع إلى الغرب من مدنة الإسماعيلية بتسعة عشر كيلا، وقد دون عليه اسم

(١) نحميا ٤ : ١-٢٣.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 56.

(٣) نحميا ٤ : ١-٢٣.

(٤) جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦٤٧/١، وكذا:
Encylopaedia Biblica, p. 1710; J. Hastings, op.cit., p. 162.

(٥) F.V. Winnett, Notes on the Lihyanite and Thamudic Inscriptions , Le Luse-on, 1938, p. 307-309; W.F. Albright, New Light on Early Recension of the Herbrew Bible, BASOR 140, 1955, p. 31.

من يدعى «قينو بن جشم ملك قيدار»، إنما يخص ابن جشم المعاصر لنحميا اليهودى[١].

وأيا ما كان الأمر، فإن جشم العربى هذا، إنما كان يرى أن إعادة بناء أسوار أورشليم المهدمة، إنما يعنى إعادة دويلة يهوذا من جديد، ثم تنصيب «نحميا» ملكاً عليها من قبل الفرس، فيه من الخطورة ما فيه على العرب، ومن ثم فإنه يكتب لنحميا ـ طبقاً لنص التوراة ـ «إنك أنت واليهود تفكرون أن تتمردوا، ولذلك أنت تبنى السور لتكون لهم ملكاً حسب هذه الأمور، وقد أقمت أيضاً أنبياء لينادوا بك فى أورشليم قائلين : فى يهوذا ملك»[٢].

وأما «سنبلط» حاكم السامرة، فقد كان يعارض معارضة شديدة فى إقامة أية سلطة فى أورشليم، حتى لا تنافس سلطاته يوماً ما، ومن ثم فقد بدأ يعمل ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلا ـ على القضاء على إقامة هذه السلطة الجديدة، وصلت إلى حد محاولة اغتيال «نحميا» نفسه[٣].

وتؤكد الوثائق المعاصرة أن موظفى الحكومة الإقليمية فى السامرة كانوا فى أورشليم ـ التى كانت ماتزال مع إقليم يهوذا تابعة لحاكم السامرة الفارسى ـ بسبب إعادة بناء أسوار أورشليم، وأنهم قد أرسلوا تقريراً إلى الملك الفارسى ـ ربما عن طريق الحاكم الفارسى لبلاد ما وراء النهر ـ مشيرين فيه إلى أن أورشليم مدينة متمردة منذ زمن قديم، وستكون ـ إذا ما أعيد تجديد أسوارها ـ تهديداً لأمن وسلامة الإمبراطورية الفارسية.

وفى الواقع فلقد كان حاكم السامرة ـ مدينة إسرائيل الملكية القديمة ـ ينظر إلى إحياء مدينة اليهود الملكية القديمة بقلق شديد، خوفاً من أن تصبح منافساً خطيراً لمدينته، وهكذا ـ ونتيجة للتقرير الذى أرسله موظفوه إلى

(١) W. Culican, The Medes and Persians, London, 1965, p. 151.

(٢) نحميا ٦ : ٦-٧.

(٣) C. Roth, op.cit., p. 56-59.

العاهل الفارسى «أرتاكزكسيس الأول» (أرتخشستا الأول) - أوقف العمل فى إعادة بناء أورشليم حتى إخطار آخر، فى قرار أرسله الملك الفارسى إلى السامرة[١].

وبدهى أن المنفيين من يهود لم يستسلموا لقرار إيقاف العمل فى تجديد المدينة وبذلوا جهودهم - بقيادة نحميا - فى الحصول على أمر من العاهل الفارسى، لا باستمرار العمل فى تجديد أسوار أورشليم فحسب، بل وفصل ولاية أورشليم ويهوذا عن ولاية السامرة، وبدأ نحميا فى تحقيق أهدافه سراً، حتى لا يتعطل مشروعه مرة ثانية بجهود «سنبلط» (صنبلاط Sanbal-lat)، فضلا عن العرب والعمونيين والأشدوديين والفلسطينيين، وهكذا فكر نحميا فى أن ينجز مهمته، قبل أن ينجح جيرانه فى إعاقته عن العمل، فقسم السور إلى قطاعات عهد بكل قطاع إلى مجموعة معينة، فعهد إلى الكهنة ببناء «باب الضأن»، وإلى «بنو هسناءة» «باب السمك»، و«الباب العتيق» إلى «يوياداع بن فاسح ومشلام بن بسوديا»، و«باب الوادى» إلى «حانون وسكان زانوح» و«باب العين» إلى شلون بن كلحوزة رئيس دائرة المصفاة... وهكذا[٢].

هذا، وقد أثار هذا العمل - بادئ ذى بدء - احتقار الجيران فى السامرة ومنطقة العمونيين فى شرق الأردن، ولكن حينما تم بناء نصف السور، حاول الجيران أن يعطلوا العمل عنوة، ومن ثم فقد صدرت الأوامر من حاكم السامرة وعمون بالقيام بهجوم مفاجئ على أورشليم، غير أن يهود الحدود سرعان ما أحاطوا نحميا علماً بكل ذلك، مما اضطر المهاجمون إلى إيقاف خططهم تجاه أورشليم، وفى نفس الوقت فقد أدرك نحميا أنه لن يستطيع إنجاز مهمته إلا تحت حراسة تامة، وهكذا جاء وقت كانت الفرق

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 322-323.

(٢) نحميا ٣: ١-٣٢.

المتطوعة لتعمير أورشليم مضطرة إلى مباشرة عملها تحت حماية جماعة من المسلحين، حتى لا يباغتهم هجوم مفاجئ يقضى عليهم، ورغم هذا الجو الذى يحيطه الرعب، ورغم التهديد المستمر بأن عملهم هذا، إنما يعنى بطريق غير مباشر، التمرد ضد السلطة الحاكمة، ورغم اضطرارهم إلى التوقف عن العمل فى بعض الأحايين، فقد أنجز رجال نحميا مهمتهم فى فترة قصيرة ـ فى اثنين وخمسين يوماً[١].

على أن السرعة التى تمت بها إقامة الأسوار، إنما دفعت بعض الباحثين إلى القول، بأنها لا تعدو أن تكون تجديداً لأسوار قديمة، ذلك لأن وصف تصميم المدينة قبل السبى، وما كتبه عنه المنفيون فيها، إنما يشير إلى أن دائرة الأسوار التى كانت تحيط بالمدينة إنما كانت ٤٠٥٠ متراً، وليس هناك من حل مقبول ومعقول لتفسير بناء مثل هذه الأطوال من السوار فى ٥٢ يومًا، إلا أن تكون الأسوار القديمة كانت قائمة، وأن الأمر لم يكن إلا ترميم بعض الثغرات، مع التركيز على المداخل، وتشير الحقيقة الجديدة إلى أن الدائرة يحتمل أن تكون ٢٦٠٠ متر فقط، أو إذا كانت النهاية الشمالية للجبل الغربى تتمثل فى هذه الدائرة فعند ذلك يصل محيطها إلى ٤١٥٠ متراً، ومازالت تسجيلات الكتاب المقدس تفيد أن الكثير من العمل كان ترميمات فى الأسوار الشرقية[٢].

وعل أى حال، فلقد بدأ السكان يتوافدون إلى أورشليم للإقامة فيها، ولكن فى فترات متباعدة، وبأعداد قليلة، هذا فضلا عن أن المدينة المقدسة، والتى ظلت فترة طويلة خرائب غير محمية، لم تكن إلا بأعداد قليلة، ومن ثم فقد اضطر نحميا رغبة فى حماية أورشليم من أى غزو قد تتعرض له بسبب قلة المدافعين عنها، أن يجرى قرعة بين الأسر التى كانت تشتغل

---

(١) نحميا ٦ : ١-٧ : ٣؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 324; C. Roth, op.cit., p. 58-59.

(٢) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٠٣-١٠٤.

بزراعة الأرض فى مجاورات العاصمة، لاختيار أسرة من بين كل عشرة أسر، للانتقال إلى العاصمة والإقامة فيها، فضلا عن الدفاع عنها ضد أى غزو قد تتعرض له بين آونة وأخرى، وعندما تم ذلك قام اللاويون بتدشين سور أورشليم الجديد[١].

وهكذا رتّب نحميا الأسوار لمدينة جديدة مسورة، تحرس بعناية تحت قيادة «قائد الحصن»، وكانت البوابات التى حول المدينة تغلق تماما عند حلول الظلام ولا تفتح إلا فى صباح اليوم التالى، وبذا تحولت إقامة اليهود فى فلسطين من كونها تكريماً لجاليات يهودية مهجرة، إلى اعتبارها نشأة جديدة لولاية تعيش خلف أسوار، يجب على من بداخلها أن يكونوا دائمًا متحفزين لصدّ أى غزو قد يتعرضون له، فضلا عن كونها مركزاً جديداً، ومقراً للحكومة[٢].

واتجه نحميا ـ بعد تأمين العاصمة ـ بحماس شديد إلى بناء المجتمع الجديد، وكانت هذه الفترة من أكثر فترات الضغط الاقتصادى والمعاناة، ومن ثم فقد اضطر كثير من أفراد الطبقة الكادحة ـ رغبة فى الوفاء بالتزاماتهم ـ إلى رهن أملاكهم إلى من يملكون المال، وتعرض المعسرون منهم لمصادرة أملاكهم وفاء لديونهم، بينما لجأ المعدمون إلى بيع أبنائهم كعبيد، للحصول على ثمن بيعهم لسداد ما عليهم مه التزامات[٣]، غير أن هذا إن كان فيه شبهة من شرعية دينية عند يهود[٤]، فإن هناك أمراً آخر لجأ إليه القوم فى هذه الفترة تحرمه شريعة يهود، وهو «الربا» الذى انتشر بين الطبقات اليهودى المختلفة[٥].

(١) نحميا ١١ : ١-١٢ : ٤٧؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 56.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 324; C. Roth, op.cit., p. 59.

(٣) C. Roth, op.cit., p. 60.

(٤) خروج ٢١ : ٧-١١؛ تثنية ١٥ : ١٢-١٨.

(٥) ٢٢ : ٢٤؛ تثنية ٢٣ : ٩-٢٠، ٢٤ : ١٠-١٢.

وقد دفع ذلك كله «نحميا» إلى أن يعقد اجتماعًا عامًا من الأغنياء، ووبخهم فيه على جشعهم هذا، مما أدى إلى أن يقبل معظمهم إعادة الأراضى التى كانوا قد استولوا عليها، والأموال التى تقاضوها من المعسرين فى مقابل تأخير سداد الديون، وكعامل من عوامل تحصين ظروف البلاد المعيشية، فقد تنازل نحميا عن حقوقه فى الجزية التى فرضها الحكام السابقون، كما كان من نتائج الاتفاق الذى تم فى الاجتماع الذى عقد مع الأغنياء، الالتزام بشدة بتعليمات «السبت»، والتى يتم بموجبها إغلاق بوابات مدينة أورشليم منذ غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت، وإيقاف البيع والشراء خلال هذا اليوم، واتخاذ أعنف الإجراءات ضد المخالفين لهذه التعليمات وكلّف بعض ضباطه بمراقبة التنفيذ[١].

وفى العام الثانى والثلاثين من حكم «أرتاكزكسيس الأول» (أى فى عام ٤٣٣ق.م) - وبعد كفاح ونشاط متواصل طيلة اثنى عشر عامًا - استدعى نحميا إلى «سوسة»، وقد أدى ذلك إلى إعادة العلاقات مع القوى المناوئة لأورشليم فى السامرة، والتى كان كبار القوم من يهود على صلة دائمة بها، كما بدأت عملية تزاوج بين الاثنين على نطاق واسع، بحيث كان يبدو واضحًا لكل ذى عينين، ما كان يخشى عليه من اندثار المتحدثين باللغة العبرية، وقد صرّح كبير الكهنة «الياشيب» لواحد من أحفاده بالزواج من إحدى بنات «سنبلط» حاكم السامرة، كما سمح لسكرتير هذا الحاكم ويدعى «طوبيا» بأن يشغل غرفة فى المعبد عند زيارته لأورشليم[٢].

وهكذا كانت التقارير التى جاءت إلى نحميا فى «سوسة»، سببًا فى عودته مرة أخرى إلى أورشليم بعد غيبة طويلة تقدم خلالها فى السن كثيرًا، وإن لم يفقد الكثير من همته ونشاطه على ما يبدو، وعلى أى حال، فلقد

(١) C. Roth, op.cit., p. 60.

(٢) Ibid, p. 61.

طرد «طوبيا» من الغرفة التي كان يحتلها في المعبد، وأعيد استعمالها في الغرض الذي كانت مخصصة له، وقام نحميا بإجراءات مشددة ضد عقود الزواج الكثيرة التي تمت بين اليهود وبين أفراد من الشعوب المجاورة، وذلك ليس بفسخ هذه العقود وإنما بتعهد اليهود بعدم السماح لأبنائهم بتكرار مثل هذا الزواج بعد ذلك أبداً، واشتد في جمع ضريبة العشر المستحقة للمعبد، وعين مفتشين للإشراف على جمعها، وإعطائها للاويين حتى يتفرغوا لواجباتهم الكهنوتية وعدم العمل في الحقول، وأما «راحة يوم السبت» والتي أهملها القوم في العاصمة وفي القرى المجاورة، حتى أن الناس يأتون يوم السبت مع حميرهم للبيع، وكان تجار صيدا الذين استوطنوا أورشليم يبيعون السمك الذي كانوا يأتون به من شاطئ البحر المتوسط ـ مع السلع الأخرى ـ لا يهتمون أبداً بيوم السبت، فأصدر نحميا أوامره بإغلاق السوق في يوم السبت، بل وبعدم فتح أبواب المدينة طوال هذا اليوم، ـ كما فعل من قبل ـ [١].

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن اليهود قد تمتعوا في عهد «زربابل» و«نحميا» بامتياز الحكم الذاتي، ولكن اللغة العبرية في عهدهما لم تستعمل كلغة دارجة، وذلك ليس في مواطن سبي اليهود فحسب، وإنما في يهوذا كذلك، وقد حلت محلها اللغة الآرامية، وظلت العبرية تستخدم كلغة دينية، واستعمل اليهود الآرامية في مراسلاتهم الرسمية[٢].

(٥) عزرا:

تروى التوراة أن «عزرا»[٣] يسبق «نحميا»، من الناحية التأريخية، إذ أنه

---

(١) نحميا ١٣ : ٤-٣١؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 61; M. Noth, op.cit., p. 329.

(٢) نحميا ١٣ : ٢٤؛ عزرا ٤ : ٣١؛ فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٣) عزرا : هو ابن سرايا بن عزريا بن حلقيا بن شلوم بن صادق بن أخيطوب بن أمريا بن عزريا بن مرأيوث بن زرحيا بن عزى بن بقى بن أبيشوع بن فينحاس بن لعازار بن هارون الكاهن الرأس (أى هارون النبيّ شقيق موسى النبيّ عليهما السلام). (عزرا ٧ : ١-٤).

جاء إلى أورشليم فى أول الشهر الخامس من السنة السابعة للملك «أرتاكزكسيس»[١]، فإذا كانت تعنى «أرتاكزكسيس الأول» فإنه يكون قد وصل إلى أورشليم فى حوالى عام ٤٥٨ق.م، وبالتالى يكون سابقًا لنحميا، غير أن العلماء ـ ومنهم أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل[٢]، ومارتن نوث[٣]، وستانلى كوك[٤]، ووليم أولبرايت[٥]، وجاك فنجان[٦]، و«وولى»[٧] وغيرهم ـ إنما يجمعون على أن عزرا إنما جاء بعد نحميا، وربما جاء فى السنة السابعة عشرة من عهد «أرتاكزكسيس الثالث» (أى فى عام ٣٩٨ق.م)، ذلك لأن ما كتبه كل منهما على حده ـ كما يقول أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل[٨] ـ يشير إلى أن عمل كل منهما مستقل عن عمل الآخر، وليس هناك ذكر لواحد ممن عادوا مع عزرا، يشير إلى أنه عاون نحميا فى بناء الأسوار، هذا إلى أن عزرا يتنبأ بعمل نحميا، فهو لا يذكر بناء المعبد وحده، بل يشير كذلك إلى الأسوار، وإنا لنرى أن نحميا يحرم الزواج بالأجنبيات مستقبلا ولا يفرض إلغاء الزيجات القائمة فعلا ـ كما رأينا من قبل ـ بينما يطلب عزرا إلى اليهود تطليق الزوجات الأجنبيات وهو أمر لاحق للأمر السابق، حين رؤى أنه غير كفيل بمعالجة الأمر، وأخيراً فإن بردية «إليفانتين» تشير إلى كبير كهنة يدعى «يوحانان» كان معاصراً لعزرا

---

(١) عزرا ٧: ١، ٨.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٩.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 230.

(٤) S.A. Cook, op.cit., p. 413.

(٥) W.F. Albright, The Archaeology of Palestine and the Bible, p. 169F.

(٦) J. Finegan, op.cit., p. 239.

(٧) H.H. Rowley, The Servant of the Lord and Other Essays on the Old Testament, 1952, p. 131-159; BJRL, 38, 1955, 166-198; Norman H. Snaith , Zaw, 636, 1951, p. 53-66.

(٨) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٩.

(٤٠٨ ق.م)، ويوحانان هذا هو حفيد «الياشيب» المعاصر لنحميا، والذى كان يرتبط طوبيا العمونى به برابطة نسب[١].

وعلى أى حال، فعزرا هذا إنما هو كاهن أرسل من بابل إلى أورشليم، ومن الواضح أنه من مجموعة المنفيين، وربما كان ينتمى إلى مجموعة «الصدوقيين» الذين كانوا قد أتوا إلى أورشليم من قبل، وإن مهمته إنما كانت تعتمد إلى حد كبير على شخصيته، فضلا عن بعض الأشخاص ذوى النفوذ فى محيطه، وبدهى أنه نظراً للموقف المضطرب فى أورشليم، فإن عزرا عندما وصل إليها إنما كان مزوداً بتعليمات رسمية، اقترحها بعض المقربين إليه من المنفيين، وربما ارتبطت مهمة عزرا هذه بمهمة نحميا الثانية، بل ينبغى أن ترتبط بها، وأن تكون الحادثتان متقاربتين، لو كان عزرا حقيقة قد تلى نحميا فى مهمته[٢].

وأيًا ما كان الأمر، فإن عزرا إنما قد تلقى تفويضاً خاصاً لمهمة خاصة، الأمر الذى يبدو بوضوح فى نص عزرا (٧: ١٢)، والذى يشير إلى أنه - إلى جانب لقب «الكاهن» الذى حمله فى مجتمع أورشليم الدينى - فقد حمل كذلك لقب «كاتب شريعة إله السماء»، والذى حاول كاتب الحوليات العبرانى أن يفسره بأنه «كاتب ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الربُّ إله إسرائيل»[٣]، ومع ذلك، فطبقًا لما ورد فى عزرا (٧: ٢) ونحميا (نحميا ٨: ١ وما بعدها) فإنه اختار لقب «عزرا الكاتب»، والتطور فى المعنى من كلمة «Sofer» أدى فى النهاية إلى فكرة «عزرا المفسر العالم»، وفى الواقع فإن لقب عزرا الرسمى هذا كان اصطلاحًا فنيًا فى اللغة الآرامية الرسمية، للإمبراطورية الفارسية لم يكن يقصد به أن يوصف عزرا، ككاتب لشريعة

(١) عزرا ٧: ٧، ٩: ٩، ١٠: ٣، ٦، ١٣: ٤، ٧، ٢٨؛ نحميا ٣، ١٣: ٢٢؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٦٩.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 331.

(٣) عزرا ٧: ٦.

السماء»، أو «خبير عالم ومفسر لهذا القانون»، وفي اللغة الرسمية كانت الكلمة الآرامية «كاتب» تعبيراً شائعاً لموظف ذى اختصاص رسمى، وهكذا كان عزرا موظفاً لشريعة إله السماء ، أو ـ لأن مهمته لا تنكر ـ مفوض من قبل الدولة لشريعة إله السماء[1].

وليست لدينا معلومات مؤكدة عن كيفية تنفيذ عزرا لمهمته، وكل ما نعرفه أنه قدحصل ـ بمناسبة سفره إلى أورشليم ـ على بعض الحقوق الإضافية التى صيغت فى صورة تعليمات رسمية، وبما أن الرجل كان جداً مهتماً بتقوية نفوذ جماعة البابليين من المنفيين الذين وقفوا إلى جواره، فقد كان شديد الرغبة على أن يأتى معه بجماعة من هؤلاء المنفيين، وهكذا سمح العاهل الفارسى لمن يرغب منهم فى العودة إلى يهوذا بأن يفعل ذلك، واستغل عزرا ذلك إلى حد كبير، فجند منهم الأعداد التى يريدها، هذا فضلا عن أنه نظراً للظروف السياسية والاقتصادية السيئة فى ولاية يهوذا المنكوبة ـ كما وصفت بوضوح فى ذكريات نحميا ـ فقد أراد عزرا أن يأخذ معه قدراً من المال ليستعين به على أداء مهمته، ومن ثم فقد حصل من الملك الفارسى ـ وكذا من مستشاريه الكبار ـ على نذر خاص بيهوه ربّ إسرائيل، الساكن فى أورشليم، هذا فضلا عن التصريح له بجمع التبرعات من ولاية بابل، وأخذ الأوانى لخدمة المعبد هناك فى أورشليم، هذا إلى جانب تجديد الامتياز الذى أصدره الملك الفارسى «دارا الأول»، والذى ينص على أن نفقات القرابين الخاصة بمعبد أورشليم إنما تؤخذ من الإيراد العام للدولة، وأخيراً الإعفاء الكامل لكل هيئة المعبد من الضرائب، وبهذه الامتيازات الرسمية جميعها ذهب عزرا إلى أورشليم مع حاشيته[2].

---

(١) M. Noth, op.cit., p. 331-332.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٢/١٠٢٠؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 333-334.

ومع ذلك كله، فالذى نعرفه بالتأكيد عن نشاط عزرا فى أورشليم، إنما كان مشكلة «الزواج المختلط» بين يهود وجيرانهم، ومن المستحيل القول: هل كان من حق عزرا أن يهتم بنفسه بمشكلة الزواج المختلط بين نحميا الذى يفترض أنه قد سبقه فى معالجته؟ والتى أصبحت - كما تشير نصوص التوراة - مشكلة خطيرة، يقول سفر عزرا: «لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأرض حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والمؤابيين والمصريين والأموريين، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم، واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى، وكانت يد الرؤساء والولاة فى هذه الخيانة أولا»[١].

ويستمر الإصحاح التاسع هذا من سفر عزرا معلناً ألم صاحبه من هذه الخيانة لربّ إسرائيل قائلاً: «اللهم إنى أخجل وأخزى من أن أرفع يا إلهى وجهى نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤسنا، وآثامنا تعاظمت إلى السماء، منذ أيام آبائنا نحن فى إثم عظيم إلى هذا اليوم»[٢]، ذلك لأن ربّهم «يهوه» إنما قد حذّرهم من مصاهرة الأمم الأخرى، ولكنهم إنما كانوا دائماً وأبداً يصاهرون هذه الأمم[٣].

ويروى الإصحاح العاشر من سفر عزرا بقية الرواية، فترى عزرا يصلى ويعترف «وهو باك وساقط أمام بيت الله»، ثم «اجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة جداً من الرجال والنساء والأولاد لأن الشعب بكى بكاء عظيماً» «لأننا قد خنا إلهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض»[٤]، ثم يستمر سفر عزرا فى الرواية قائلا: «أطلقوا نداء فى يهوذا وأورشليم إلى جميع بنى السبى لكى يجتمعوا إلى أورشليم، وكل من لا يأتى فى ثلاثة

(١) عزرا ٩: ١-٤.
(٢) عزرا ٩: ٦-٧.
(٣) عزرا ٩: ١٤.
(٤) عزرا ١٠: ٢١.

أيام حسب مشورة الرؤساء والشيوخ يحرم كل ماله، وهو يفرز من جماعة أهل السبى، واجتمع كل رجال يهوذا وبنيامين إلى أورشليم فى الثلاثة الأيام، أى فى الشهر التاسع فى العشرين من الشهر، وجلس جميع الشعب فى ساحة بيت الله مرتعدين من الأمر ومن الأمطار، فقام عزرا الكاهن، وقال لهم: إنكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل، فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم، واعملوا مرضاته، وانفصلوا عن شعوب الأرض ومن النساء الغريبة، فأجاب كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم: كما كلمتنا كذلك نعمل»، ويجتمع عزرا ورؤساء بيوت إسرائيل لعمل إحصاء لكل من صاهر غير الإسرائيليين، «وانتهوا من كل الرجال الذين اتخذوا نساء غريبة فى اليوم الأول من الشهر الأول... فوجد من بين الكهنة من اتخذ نساء غريبة»[1]، ومن اللاويين ومن المنفيين، وكل هؤلاء قد اتخذن نساء غريبة ومنهن نساء قد وضعن بنين»[2].

ويرى البعض أن عزرا قد استصدر أمراً من ملك الفرس أسبغ به على التشريع صفة الإلزام، واستخدم القوة فى هدم الزيجات المختلطة القائمة، وشتت الأسر بالعنف، وشرّد الأطفال الأبرياء، وتم كل ذلك باسم الدين، لاستئصال الرجس من بنى إسرائيل، وفى ذلك نرى عزرا يفوق نحميا الذى اكتفى بلعن هؤلاء الأزواج وجلدهم ونزع شعورهم، ثم استحلفهم بالله قائلا: لا تعطوا بناتكم لبنيهم، ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم»[3].

وكانت المهمة الثانية ـ والأكثر أهمية ـ لعزرا، هى : إعلان الشريعة

---

(١) عزرا ١٠ : ٧-١٢.

(٢) عزرا ١٠ : ١٦-٤٤.

(٣) ثروت الأسيوطى، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، الجماعات البدائية بنو إسرائيل، ص ١٨١ . (نقلا عن مكس فيبر، فى مقالاته عن سوسيولوجيا الأديان، ٢٦٦/٣).

التى أحضرها معه من بابل فى اجتماع وقور وخطير، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه «سفر شريعة موسى»[١]، وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرأون عليهم ما تحويه ملفات هذا السفر، ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع، ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه، ومبادئ خلقية يسيرون على هديها، ويطيعونها إلى أبد الآبدين[٢].

ولعل السؤال الهام وا لصعب الآن: من أين أتت شريعة ربّ السماء هذه، التى كانت بين يدى عزرا؟ وما هى موادها؟ علمًا بأنه لا توجد أية إشارة إلى ذلك فى تعليمات عزرا الرسمية، أو فى الرواية المتأخرة التى جاء بها كاتب الحوليات العبرانى.

وفى كل الاحتمالات الممكنة أن هذه الشريعة قد جمعت وظهرت بين جماعات البابليين من المنفيين، ثم أصبحت أمراً ملزماً لكل إسرائيل عن طريق سلطة الدولة الفارسية، وقد كانت ـ فيما عدا نبوءة إشعياء الثانى ـ من أكثر الأمثلة أهمية فى حياة إسرائيل[٣]، وعلى أى حال، فإن شريعة عزرا هذه هى القانون الكهنوتى (أو جزء من القانون كان موجوداً مع السبى فى بابل)، وأضيفت إليه إضافات بها بعض الشرائع، وبها بعض قصص الآباء،

---

(١) سفر شريعة موسى: ليس هناك فى التوراةالحالية من الأسفار ما يحمل هذا الاسم، ولعله من الأسفار الخفية أوالمفقودة، إذ أن هناك من أسفار التوراة ما قد فقد، ولم نستطع الحصول عليها حتى الآن، ربما لأنها من الأسفار الخفية، وربما لأنها فقدت حقيقة، وربما لأن اليهود ـ عندما كتبوا التوراة ـ نقلوا منهما ما يريدون ، ثم تصرفوا فيما لا يريدون بطريقة أو بأخرى، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك (سورة البقرة، آية : ١٥٩ ؛ سورة المائدة، آية : ١٥ ؛ سورة الأنعام، آية: ٩١) ، ونستطيع أن نذكر من بين هذه الأسفار الخفية أو المفقودة عدداً ليس بالقليل، تردد ذكره فى ثنايا التوراة الحالية، وإن كنا لا نعرف عنها أكثر من أسمائها. (انظر: كتابنا «إسرائيل» ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣، ص ٩٥-٩٧).

(٢) نحميا ٨: ١-١٨؛ ول ديورانت، قصة الحضارة، ٢/٣٦٦.

(٣) M. Noth, op.cit., p. 335.

وكلها تعنى اليوم محتويات ناموس موسى (أسفار موسى الخمسة)، هى أساس الدين اليهودى[1]، ومن هنا نظر القوم إلى عزرا على أنه «موسى الثانى»، ويعتقد اليهود أنه هو الذى جمع أسفار الكتاب المقدس ونظمها، كما يزعمون أنه هو الذى حمل إلى فلسطين الأحرف الآرامية المربعة الشكل، والمعروفة بالخط الآشورى، والتى مهّدت لنشوء الأبجدية العبرانية الحالية[2].

وأيا ما كان الأمر، فإن من الأمور التى لا تقبل كثيراً من الجدل، أن قراءة التوراة علناً، إنما قد عرفت قبل عهد عزرا، ولكن الشىء الجديد فى أيام عزرا، إنما كان الشرح الذى يتبع القراءة، وكان هدف عزرا من ذلك هو وضع التوراة فى مركز السلطة العليا، وليجعل القوم يضعون قوانينها نصب أعينهم، ومن ثم فإن مجهود عزرا إنما قد أخرج التوراة عن كونها تختص طبقة واحدة إلى جعلها فى متناول يد كل من يرغب فى تعلمها[3].

وهكذا يمكننا القول، أنه مع وجود عزرا، إنما زادت وقويت تعاليم التوراة Torah فى نفوس اليهود بمساعدة السلطات المدنية، كما أقيمت المعابد فى عدة مواقع بتشجيع من يهود المنفى، وكان هذا هو أساس فيما عرف من بعده بـ «المعبد» ـ والذى يمثل الكنيسة عند المسيحيين، والمسجد عند المسلمين ـ كمكان للعبادة، وتعتبر هذه الخطوة من أهم مساهمات الإسرائيليين تجاه المدينة، ولم تكن التوراة تتلى فقط فى هذه المعابد، وإنما كانت تشرح وتفسر كذلك، وهكذا أخذ دور المعلم يصبح له أهمية أخذت تتزايد بمرور الزمن، حتى أصبحت تفوق مكانة الكهنة ومساعديهم فى إدارة المعبد إلى حد ما، ولم تكن النظرة إلى التوراة فى ذلك الحين على أنها

---

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٧٠.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ٢/٦٢١.

(٣) I. Epstein, op.cit., p. 84-85.

دستور جاف المواد، وإنما اتخذت أساساً للحياة الإنسانية، وعماداً لتصرفات القوم فى كل مناحى الحياة، ومن ثم فقد أخذ القوم يتمسكون بتعاليمها بصرامة، وينفذون ما تنص عليه حرفياً، وكان اليهود قد عادوا من المنفى نصف متعلمين، وإن كانوا مختلفين فى عقائدهم وعقائد نسائهم، غير أنهم كانوا مترابطين ومتسامحين، وكانت مثلهم العليا تتمثل فى شرائعهم الدينية[1].

وهكذا بدأ القوم فى ممارسة الطقوس على النظام القديم، ومراعاة «السبت» والعبادة والختان، التى غدت جميعاً بعد هذه المرحلة أموراً يجب اتباعها، كما عملت فى الوقت نفسه على ربط ما كان قد انفرط من عقدهم، ونأت بهم عما كادوا يترددون فيه من ضباب الوثنية، الآخذ بخناقهم، والمحيط بهم من كل ناحية، وقرّبتهم إلى فكرة التوحيد، وباعدت ما بينهم وبين الشرك، وأعطتهم الأمل فى بعث ونشور، وحساب من ثواب أو عقاب[2].

٦ ـ السامريون:

ظهر السامريون كقوة لها تأثير خطير فى الديانة اليهودية، ومعادى لسكان أورشليم، بعد العودة من السبىّ البابلى فى عام ٥٣٩ق.م، ثم الاتجاه بعد ذلك إلى إعادة بناء المعبد، وتجديد أسوار أورشليم، حتى انتهى الأمر إلى انفصال دينى تام بين مجتمع الشمال ومجتمع أورشليم، حيث أقيمت شعائر عبادة سامرية على جبل «جرزيم» المقدس على مقربة من شكيم فى أثناء حكم «أنطيوخس الرابع أبيفانس» (١٧٥-١٦٤ق.م) ومنفصلة عن معبد أورشليم.

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 62.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٧٠.

وفى الواقع أن هذا الانفصال لم يبدأ فجأة، وإنما كانت له جذوره التاريخية البعيدة، كما أن عصر «أبيفانس» لا يعنى تحديد تاريخ دقيق لهذا الانفصال وإن كات قد تمت فيه نهاية نزاع طويل بين سكان الشمال والجنوب، بدأ على الأقل منذ أيام «داود» عليه السلام (١٠٠٠-٩٦٠ق.م)، حيث كتبت السيادة فيها لليهوذيين على الإسرائيليين - كما سوف نرى فيما بعد - وبعد موت ولده سليمان، عليه السلام فى عام ٩٢٢ق.م، أبقت مملكة يهوذا الجنوبية - داخل مجال نفوذها، وفى مدينتها الملكية أورشليم - التابوت القبلى القديم الذى كان يشكل المركز الدينى لكل تحالف القبائل الإسرائيلية، وبالتالى فقد كان معبد أورشليم مزاراً لكل قبائل إسرائيل، ومن ثم فقد حاول ملوك الشمال منافسة محراب أورشليم بإقامة محاريب أخرى فى بيت إيل ودان، فضلا عما أقيم فى الجلجال وشيلوه وشكيم، واستمر الأمر كذلك حتى انتهت دويلة إسرائيل على أيدى الآشوريين فى عام ٧٢٢ق.م، ونجح «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ق.م) فى إلغاء مراكز العبادة المحلية فى ولاية إسرائيل التى ضمها إليه، ومن ثم فقد عادت إلى أورشليم مكانتها السابقة، وأصبح محرابها هو المكان الدينى الوحيد لهيا كل بنى إسرائيل جميعاً، حتى أننا نرى بعد تدمير معبد أورشليم فى عام ٥٨٧ق.م، مجموعة من الرجال قد أتوا من شكيم ومن شيلوه ومن السامرة لتقديم قرابينهم إلى بيت الربّ فى أورشليم[1].

غير أن التناقضات القبلية بين الشمال والجنوب، كانت ماتزال تعيش تحت السطح، ولا تحتاج إلا لما يحركها، وكان المحرك الجديد هو إعادة بناء المعبد بعد قرار كيروش الثانى المشهور، ويبدو أن الذى بدأها هذه المرة هم يهود الجنوب، الذين نظروا إلى المعبد، وكأنه ملك خاص لهم، وأن إعادة بنائه إنما تقع على عاتقهم دون سواهم من سكان الولايات الإسرائيلية

(١) ملوك أول ١٢ : ٢٥-٣٣؛ إرميا ٤١ : ٤-٥، وكذا: M. Noth, op.cit., p. 352-353.

الأخرى، الذين طلبوا أن يقوموا بواجبهم نحو إعادة بناء المعبد، ولكن يهود السبى إنما كانوا ينظرون إلى سكان الولايات هؤلاء، على أنهم غير متطهرين دينياً، بعد أن اختلطوا بغيرهم من الأقوام غير اليهودية، نتيجة حركة التهجير والاستيطان التى قام بها سرجون الثانى الآشورى (٧٢٢-٧٠٥ق.م)، فضلاً عن الزواج المختلط، وعلى أى حال، فهكذا نظر إليهم «حجى» فى سفره (٢: ١٠-١٤)، أو أن يهود السبى البابلى، والذين أثروا فى مجرى الأحداث إبان فترة ما بعد العودة من السبى بسبب اتصالهم بالبلاط الفارسى، إنما نظروا إلى إعادة بناء المعبد على أنه أمر يهودى صرف، وربما كان النزاع السياسى القديم بين اليهود والإسرائيليين مايزال يلعب دوراً فى هذه الفترة، كما يظهر ذلك من موقف زربابل ونحميا منهم[١].

هذا وقد رأينا «نحميا» يطرد حفيد كبير الكهنة الذى تزوج من ابنة «سنبلط» ويذهب المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» إلى أن اسمه «منسى» وأن «سنبلط» عوضه عن فقدانه لميراثه الكهنوتى فى أورشليم ببناء معبد على جبل «جرزيم» أصبح منسى الكاهن الأكبر له[٢]، ولدينا ما يشير إلى أن أهل إلفانتين قد حجوا إلى أورشليم وإلى معبد سنبلط على السواء فى عام ٤٠٨/٤٠٧ق.م، مما يشير إلى أن شقة الخلاف لم تكن قد اتسعت كبيراً فى هذه المرحلة[٣].

ويحكى المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى»[٤] عن تقدم الإسكندر الأكبر (٣٣٦-٣٢٣ق.م) عبر سورية وفلسطين، وكيف أن كاهن أورشليم

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ٤٥٠/١، وكذا:
M. Noth, op.cit., p. 353-354; ANET, p. 284; N. Ausubel, The Book of Jewish Knowledge, N.Y., 1964, p. 126.

(٢) يرجع يوسف اليهودى هذا الحادث إلى عهد الإسكندر، كما سوف نرى حالاً.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٧١.

(٤) Josephus Flovius, Antiquities of the Jews, XI, 8, 3-7.

قد تحدى الغازى المقدونى، إخلاصًا منه للإمبراطورى الفارسى «دارا الثالث» (٣٣٥-٣٣٠ق.م)[1] بينما قدَّم له حاكم السامرة ولاءه التام، فضلا عن طلبه السماح له بتشييد محراب يكرسه للغازى الجديد، الأمر الذى وافق عليه الإسكندر فوراً، غير أن القصة - كما رواها المؤرخ اليهودى - إنما تمتلئ بتفاصيل أسطورية، فضلا عن تقديمها لكل الشخصيات مثل «سنبلط» حاكم السامرة، الذى لم يكن يعيش فى هذه الفترة، بالإضافة إلى نجاة أورشليم من تدمير الغازى الجديد، بطريقة تشبه المعجزة[2].

ومن هنا فإن كثيراً من المؤرخين إنما يرفضون رواية يوسف اليهودى عن زيارة الإسكندر لأورشليم، التى تفرد بذكرها دون غيره من المؤرخين - سواء أكانوا من الإغريق أم الرومان - الذين كتبوا عن حملة الإسكندر فى سورية وفلسطين، ومن ثم فإن ما ذكره يوسف هذا عن الإسكندر لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب الدعاية التى حذقها اليهود فى العصرين الهلينستى والرومانى، وعملوا على ترويجها دون أى اهتمام بالحقائق التاريخية[3].

---

(١) تذهب رواية يوسف اليهودى إلى أن الإسكندر عندما كان يحاصر «صور» بعث إلى الحبر الأعظم فى أورشليم يطلب إليه أن يمده بجند يعينونه على حصارها ، فأبى عليه ذلك تعبيراً عن ولائه للملك دارا الثالث، فثار الإسكندر وأقسم أنه سيعطى يهود أورشليم - فى شخص حبرهم - درساً لن ينسوه، وعندما تقدم الإسكندر إلى أورشليم بعد إستيلائه على غزة، أوجس الحبر الأعظم منه خيفة، ولكن أوحى إليه أن يتخذ هو وزملاؤه الأحبار ملابس بيضاء وأن يكونوا فى استقبال الإسكندر خارج المدينة، وما أن رأى الإسكندر الحبر حتى هرع إلى تحيته وذلك لأنه رأى هذا الحبر فى منامه فى مقدونيا مبشراً إياه بالنصر على الفرس، ثم ذهب الإسكندر مع الحبر إلى هيكل أورشليم حيث قدّم القرابين لربِّ يهود، وهناك عرض عليه اليهود سفر دانيال (٧: ٦) الذى تنبأ بأن أحد الأغارقة سيقضى على إمبراطورية الفرس، ورحّب اليهود بالخدمة فى جيشه عندما عرض عليهم ذلك وأقطع الجند السامريين الذين صحبوه إلى مصر أرضاً فى إقليم طيبة وعهد إليهم بأعمال الحراسة فى هذا الإقليم، وفى العصر الهلينستى أضاف اليهود إلى سيرة الإسكندر قصة أخرى عن زيارته لأورشليم تختلف عن الأولى فى التفاصيل وتتفق معها فى النهاية. (انظر: مصطفى عبد العليم ، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣٠.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 354-355.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٠-٣١-٣٣.

على أنه ـ من ناحية أخرى ـ ربما كانت السامرة قد رحبت بالغازى الجديد، بينما وجد ذلك الأمر معارضة فى أورشليم التى كانت قد نالت من سادتها الفرس كثيراً من الامتيازات التى تخشى أن تفقدها فى العهد الجديد، وفى نفس الوقت كان أهل السامرة ينتهزون فرصة تغيير الحكومة والحصول على إذن بإقامة عبادة خاصة بهم فى «جرزيم»، ومستقلة عن أورشليم التى كان الفرس يحرصون على أن تكون هى مركز العبادة فى فلسطين، ورغم أن المعبد السامرى فى جرزيم يؤرخ بعهد «أنطيوخس الرابع أيبفانس»[١] ،ولكنه قد ظهر من قبل - إلى جانب معبد أورشليم ـ كمحراب هام، ورغم أن قصة، يوسف بن متى عن الإسكندر، تشير إلى أن الرجل إنما قد أعطى تصريحاً ببناء معبد فى السامرة عندما وصل مباشرة إلى سورية وفلسطين، فلا يصح أن ينظر إليها كحقيقة تاريخية موثوق بها، ومع ذلك فليس من المحتمل كثيراً أنه أثناء حكم الإسكندر ـ وربما أثناء النزاع بين قواده ـ قد وجدت السامرة الفرصة للحصول على تصريح رسمى بإقامة عبادتها الخاصة بها، والتى عانت بسببها كثيراً.

على أنه على الرغم من قيام عبادة على جبل جرزيم لكل سكان ولاية السامرة، والتى أصبحت بالنسبة إليهم مركزاً دينياً خاصاً بهم، كما كانت أورشليم بالنسبة لسكان اليهودية، غير أن تقاليد أورشليم القديمة، والتى طلبت لفترة طويلة ـ حتى لسكان ولاية السامرة ـ مركزاً دينياً، إنما جذبت إليها الإسرائيليين من سكان الأجزاء الجنوبية للسامرة، ربما بسبب قربهم منها جغرافياً، وربما بسبب مكانتها الدينية فى نفوس القوم، وأياً ما كان السبب، فقد أدى ذلك فى حوالى القرن الثانى قبل الميلاد إلى انفصالهم عن السامرة وتحولهم إلى اليهودية[٢] .

---

(١) مكابيين ثان ٦ : ٢ .

(٢) M. Noth, op.cit., p. 354-355; A. Alt PJB, 31, 1935, p. 94F.

وليس من المدهش كثيراً أن الشعب فى أورشليم، إنما كان ينظر دائماً إلى العبادة فى جرزيم على أنها أمر غير شرعى، وعلى أن السامريين من الكفرة، غير المتطهرين دينياً، وذلك منذ حوالى عام ٣٠٠ ق.م، بغرض إثبات الشرعية فقط لمعبد أورشليم، وبالتالى فقد أعطيت السيادة منذ البداية لعمل داود القريب من قلب الرب، عندما قام بإعداد التجهيزات اللازمة لبناء معبد أورشليم، وهكذا تعلق اليهود الذين عادوا من السبى بتجديد المعبد، وإعادة تنظيم المجتمع الدينى[1].

وعلى أى حال، فلقد نظر السامريون إلى نقل التابوت إلى معبد أورشليم على أيام داود، وكأنه عمل غير شرعى، ومن ثم فإنهم إنما كانوا يقابلون اليهود الهاربين من القانون فى أورشليم، عندما يذهبون إلى هيكل جرزيم للعبادة، بترحاب كبير، واستمر موقف السامريين العدائى من اليهود طويلاً، من ذلك أننا نرى «أنطيوخس الرابع» عندما يدنس هيكل أورشليم بتقديم خنزيرة على مذبحه، أعلن السامريون أنهم لا ينتمون إلى الأصل اليهودى أبداً، وأعلنوا ولاءهم للطاغية بأن كرّسوا هيكلهم للإله «زفس» حامى الغرباء.

وفى عام ١٢٨ق.م، استولى يوحنا هيركانوس على شكيم وجرزيم وخرّب الهيكل هناك بعد بنائه بمائتى سنة[2]، ولكن السامريين ظلوا يقدمون قرابينهم على الجبل، حيث كان هيكلهم، وظلوا يفعلون ذلك «حتى جاء المسيح إلى أرضنا»[3]، وفى العام السادس قبل الميلاد ألقى بعض السامريين عظاماً نجسة فى هيكل أورشليم، فصار اليهودى يستنكف من أن ينجس شفتيه بنطق كلمة «سامرى»، وكان يحسب طعام السامرى نجس

(١) M. Noth, op.cit., p. 356.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ٤٥٠/١.

(٣) إنجيل يوحنا ٤: ٢٠-٢١.

كلحم الخنزير، وهكذا كان العداء مستحكمًا بين اليهود والسامريين، ولم يكن اليهود يسمحون بأية علاقة اجتماعية أو دينية مع السامريين.

وفى زمن المسيح، عليه السلام، كانت عقائد السامريين اللاهوتية لا تختلف عن عقائد اليهود، وخصوصًا عقائد الصدوقيين، وكانوا مثلهم ينتظرون «المسيا»، على أنهم لم يقبلوا من العهد القديم (التوراة) إلا أسفار موسى الخمسة، وإن كان النص السامرى لهذه الأسفار الخمسة يختلف عن النص العبرى.

هذا وقد فقد السامريون - أو بقاياهم - مواضعهم بالتدريج، ولا تزال هناك طائفة قليلة منهم، مازالت تعيش فى مدينة نابلس (شكيم) ومجاوراتها، ومازالوا يصعدون على جبلهم «جرزيم» ثلاث مرات فى السنة، فى عيد الفصح، حيث كانوا يحتفلون بالخلاص من مصر، وفى عيد الأسابيع، وفى عيد المظال، ومع ذلك فقد أصبحوا الآن مجرد ظاهرة تاريخية[1].

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ١/٤٥١؛ وكذا: M. Noth, op.cit., p. 356.

الفصل الثالث
الجالية اليهودية فى مصر

لا ريب فى أن علاقة اليهود بمصر، إنما هى جد قديمة ترجع إلى أيام الهكسوس (١٧٢٥-١٥٧٥ق.م)، عندما قدم إليها يوسف الصديق، عليه السلام، ثم تبعه بعد ذلك أبوه وإخوته ـ كما أشرنا إلى ذلك بالتفصيل فى الجزء الأول من هذه الدراسة ـ وبدهى أنه ليس صحيحًا ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن هذه العلاقة ترجع إلى أيام الأسرة الخامسة[1] (٢٤٨٠-٢٣٤٠ق.م)، ذلك لأن التاريخ لا يعرف هؤلاء اليهود قبل عهد الخليل، عليه السلام ـ جد يعقوب أو إسرائيل كما يدعى أحيانًا ـ والذى زار مصر على أيام الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م) ـ كما أشرنا من قبل ـ.

وهكذا فالصحيح ـ فيما نعتقد ـ أن علاقة اليهود بمصر، إنما بدأت على أيام الهكسوس، حين لجأ القوم إلى أرض النيل الطيبة،عندما أصيبت أرض كنعان بمجاعة لم تترك زرعًا، ولم تبق على ضرع، ثم بقى اللاجئون بمصر حتى تم خروجهم منها ـ فيما نرى ـ على أيام مرنبتاح (١٢٢٤-١٢١٤ق.م)، ولم تنقطع علاقة يهود بعد ذلك بمصر، وإن اختلفت هذه العلاقة تبعًا لاختلاف وضع فلسطين بالنسبة إلى مصر، فضلا عن علاقة مصر ببقية دول الشرق الأدنى القديم، وأثر هذه العلاقة على فلسطين، وإن كان الأمر لم يأخذ صورة هجرات يهودية ـ أو على الأقل تسلل يهودى ـ إلى مصر، إلا بعد الغزو الآشورى لإسرائيل، واستيلاء «سرجون الثانى» على السامرة فى عام ٧٢٢ق.م (أو عام ٧٢١ق.م)، ثم السبى البابلى فى عام ٥٨٧ق.م (أو ٥٨٦ق.م)، وما تلا ذلك من تكوين جاليا يهودية فى مصر،

---

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣؛ وكذا:
W.O. Osterley, The Legacy of Egypt, p. 218, 249.

ذلك لأن اليهود - كما تشير الأدلة التاريخية - إنما كانوا كلما حزبهم الأمر - سياسيًا أو اقتصاديًا أو عسكريًا - إنما يولون وجوههم شطر مصر، فيجدون عندها دائمًا الآمان والحماية، أو يهاجرون إليها للإقامة فيها، كما يشير إلى ذلك العهد القديم، سواء أكان ذلك فى الأسفار التاريخة، أم فى أسفار الأنبياء، وهكذا نقرأ فى سفر الملوك الثانى، «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير، ورؤساء الجيوش، وجاءوا إلى مصر، لأنهم خافوا من الكلدانيين»[1]، ونقرأ فى سفر إرمياء «الكلمة التى سارت إلى إرميا من جهة كل اليهود الساكنين فى أرض مصر، الساكنين فى مجدل وفى تحفنحيس وفى نوف وفى أرض فتروس...»[2].

وأما «مجدل» فهى «تل السموت»، وربما كانت «ثارو» على حدود الدلتا الشمالية الشرقية، ومكانها الآن «تل أبو صيفة» الحالى، على مبعدة حوالى ثلاثة كيلو مترات إلى الشرق من مدينة القنطرة شرق الحالية[3]، وأما «تحفنحيس» فهى «دفناى» (كوم دفنة)، وموقعها على الفرع البيلوزى، وعلى مسيرة خمسة عشر كيلو مترًا من القطرة الحالية، وفيها وضع بسماتيك الأول (٦٦٤-٦١٠ق.م) حامية من المرتزقة الإغريق[4]، وأما «نوف» فهى «منف» (من نفر) - العاصمة المصرية العتيقة - وتقع على الشاطئ الأيسر للنيل، على مبعدة ثلاثة كيلو مترات من النيل، ٢٢ كيلو مترًا إلى الجنوب من القاهرة، وتقع أطلالها تحت وبجوار قرية «ميت رهينة» مركز البدرشين، محافظة الجيزة[5]، وأما «فتروس» (باتروس Patros) فهى منطقة فى أرض الصعيد، تقع فى نطاقها جزيرة «اليفانتين»[6].

(١) ملوك ثان ٢٥: ٢٦. (٢) إرميا ٤٤: ١.

(٣) W.F. Albright, JEA, Io, 1924, p. 8; A.H. Gardiner, Ouom, II, p. 203-204.

(٤) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٢٣، حاشية ٢.

(٥) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastics, III, Oxford, 1947, p. 122-123.

(٦) M.J. Leibovitch, (Pathros), BIE, 17, 1935, p. 69F; P.E. Elgood, Later, Dynastis of Egypt, Oxford , 1951, p. 98F.

ولعل سؤال البداهة الآن: متى تكونت الجاليات اليهودية فى مصر؟

فى الواقع أن هناك وجهات نظر مختلفة بشأن بداية تكوين الجاليات اليهودية في مصر - وخاصة تلك التى استقرت فى «اليفانتين» وأسوان[(١)]، فهناك وجه للنظر يذهب إلى أن مؤسسى الجالية اليهودية فى اليفانتين، إنما كانوا من جنود الملك اليهوذى «منسى» (٦٨٧-٦٤٢ق.م)، الذين التحقوا بجنود الغازى الآشورى «أشوربانيبال» (٦٦٨-٦٢٦ق.م) فى حملته على مصر فى عام ٦٦٧ق.م، ثم بقوا عند الحدود الجنوبية لحمايتها[(٢)].

وهناك وجه آخر للنظر، يذهب إلى أن تلك الحامية اليهودية فى اليفانتين، إنما ترجع إلى أيام مؤسس الأسرة السادسة والعشرين (بسماتيك الأول) (٦٦٤-٦١٠ق.م)[(٣)]، ذلك لأن الظروف المختلفة التى مرت بمصر وواجهت «بسماتك الأول» فى كفاحة ضد الآشوريين، إنما قد ساعدت على تذمر المحاربين القدامى، من مرتزقة ليبين، ودفعتهم إلى ترك خدمة «بسماتيك الأول» فكان هذا سببًا فى أن يقيم الفرعون حامية جديدة عند اليفانتين، بها بعض سكان فلسطين وسورية[(٤)]، كان منهم كثير من الجنود اليهود الذين عملوا عند فرعون كجنود مرتزقة، بل إن الفرعون قد لجأ كذلك إلى «جيجس» ملك ليديا، الذى أمده بقوة من المرتزقة الإيونيين والكاريين الذين يرتدون دروع البرونز، والذين - طبقًا لرواية هيرودودت - قد عاونوا «بسماتيك الأول» على أن يصبح سيد أمرا الدلتا[(٥)].

---

(١) E.G. Kraeling, The Broklyn Museum Aramaic Papyri, New Haven, 1953, p. 43-47.

(٢) انظر : خالد طه الدسوقى، الجالية اليهودية فى أسوان، القاهرة ١٩٧٤، ص ٦-٧.

(٣) E.G. Kraeling, op.cit., p. 44.

(٤) إيتين دريوتون، وجاك فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٦٣٧؛ بولس عياد، الآراميون فى مصر، القاهرة ١٩٧٥، ص ٣٩.

(٥) Herodotus II, p. 152; A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 353.

وأما وجه النظر الثالث، فيذهب إلى أن وجود حامية اليفانتين اليهودية، إنما يرتبط بإصلاحات الملك «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ق.م) الدينية، التى كان أساسها الحصول على نسخة من «سفر الشريعة» فى السنة الثامنة عشرة من حكمه (أى فى عام ٦٢٢ق.م) وتأكد الملك اليهوذى أن قومه قد زاغوا عن الصراط المستقيم(١)، ورغم ما أثير حديثًا حول هذا الكشف من شبهات، وسواء أكان «حلقيا» كاهن معبد أورشليم قد أوجد هذه النسخة لمليكه، أم أنه قد وجدها حقيقة (٢)، فإن الرواية التوراتية إنما تذهب إلى أن ملك يهوذا قد جمع شيوخ قومه وقرأ عليهم السفر، ثم أقسم الجميع الإيمان المغلظة على التوبة النصوح(٣).

وسرعان ما يقوم «يوشيا» بإصلاح المعبد، وتطهير العقيدة من الطقوس الأجنبية الوثنية، فأزيلت المحاريب المحلية من المرتفعات، ودمر مذبح «بيت إيل» المنافس لمذبح أورشليم منذ أيام «يربعام الأول» (٩٢٢-٩٠١ق.م) واحتفل بعيد الفصح، الذى يذكر القوم بالخلاص من مصر، ولم يعترف إلا بمعبد أورشليم كمكان تقدم فيه الأضاحى(٤)، ويبدو أن هذه الحركة الإصلاحية لم تعجب كثيرًا من السكان، فأخذهم السخط، وعدم الرضى، ومن ثم فقد لجأ فريق منهم إلى مصر، ليمارسوا عبادتهم القديمة الوثنية بحرية أكثر (٥)، وهذا فضلا عن أن هناك فريقًا من الكهنة قد فقدوا

---

(١) ملوك ثان ٢٢: ٣-١٣؛ أخبار أيام ثان ٣٤: ٨-٢٨.

(٢) انظر: رحمة الله الهندى، إظهار الحق ٣٢٥/١، (القاهرة ١٩٦٤)؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٥٦؛ وكذا:

A.P. Davies, The Ten Commandment, N.Y., 1956, p. 53; A. Lods, op.cit., p. 12; W.F. Albright, The Archaeology of Palestine , p. 225.

(٣) ملوك ثان ٢٣: ١-٣؛ أخبار أيام ثان ٣٤: ٢٩٨-٣٣.

(٤) C. Roth, op.cit., p. 35-36; A.T. Olmstead, The Reforms of Josiah in Its Secular Aspects AHB, 20, 1915, p. 566.

(٥) بولس عياد عياد، المرجع السابق، ص ٣٩.

وظائفهم على أثر هدم معابدهم، وبما أن مصر كانت دائماً الواحة التى يلجأ إليها المضطهدون والمغضوب عليهم فى فلسطين، فلا نستبعد أن هؤلاء الكهنة قد هاجروا إليها، حيث سمح لهم بتشييد معبد لهم فيها، ومن الطريف أن ديانة الجالية اليهودية فى اليفانتين هى نفس الديانة اليهودية التى كانت متبعة فى فلسطين قبل إعلان قوانين الإصلاح، وقد يبدو هذا الرأى مقبولا، إلا أنه يصعب تبرير السبب الذى من أجله استقر هؤلاء المهاجرون فى اليفانتين (جزيرة أسوان) بالذات[1].

على أن هناك فريقاً رابعاً يذهب إلى أن تأسيس هذه الجالية، إنما يرجع إلى أيام «بسماتيك الثانى» (٥٩٥-٥٨٥ق.م) ويعتمدون فى ذلك على أن الخطاب المنسوب إلى «أرستياس» Aristeas - والذى يرجع إلى حوالى عام ١٢٠ق.م - إنما يقرر أن عدداً كبيراً من اليهود جاءوا مع الغزو الفارسى، وآخرين جاءوا إلى مصر فى عهد بسماتيك لمساعدته فى حملته ضد ملك الأثيوبيين، ويرجح أن بسماتيك المذكور فى خطاب «أرستياس» إنما هو «بسماتيك الثانى» إذ أنه هو الذى حارب الأثيوبيين[2]، على أن هناك من يذهب إلى أن المقصود هنا إنما هو بسماتيك الأول، وليس الثانى، على أساس أن دويلة يهوذا لم تكن فى حوالى عام ٥٩١ق.م (أى أيام حكم بسماتيك الثانى)، بقادرة على أن ترسل من رجالها من يعمل كجنود مرتزقة فى مصر[3].

غير أننا لو صدقنا «أرستياس»، فإن بسماتيك الثانى هو الذى قاد حملة ضد أثيوبيا فى عام ٥٨٩ق.م[4]، إذ أن هناك ما يشير إلى أن الأمور إنما

---

(١) خالد الدسوقى، المرجع السابق، ص ٨-٩.

(٢) بولس عياد، المرجع السابق، ص ١٣٩؛ وكذا:

R.H. Charles, The Apocryphs and Pseudepigrapha of the old Testament, Oxford, 1913, 2, p. 96, L. 12, 13.

(٣) انظر: خالد الدسوقى، المرجع السابق، ص ٩.

(٤) H.S.K. Bakry, Psammetichus, II, and his Newly - Found Stela at Shellul, OA, 6, 1967, p. 225-244.

كان يشوبها بعض الاضطراب، وربما كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن الأسرة الكوشية الثانية كانت ذات أطماع فى مصر نفسها، وأنها كانت تحاول استعادة نفوذها فى مصر، ذلك النفوذ الذى قد ضاع عقب فرار «تانوت أمانى» (تانوات ـ أمون) من طيبة، وهكذا اضطر «بسماتيك الثانى» تلافيًا للخطر، أن يرسل حملة إلى الجنوب، وصلت إلى شمال دنقلة على أقل تقدير، ونجحت إلى أبعد الحدود فى سحق الجيوش النوبية فى أرضها[1] هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى قيام الفرعون بحملة إلى فينيقيا، وسواء أكانت حملة حربية، أم أنها مجرد زيارة تفتيشية لميناء بيبلوس، مادام قد استدعى بعض كهنة كثير من المعابد للإسهام فيها[2]، فالذى يهمنا هنا أن هذه الحملة ربما قد أعطته الفرصة لتجنيد بعض قوات يهودية فى جيشه.

وهناك وجه خامس للنظر ـ يعتمد فى الدرجة الأولى على نصوص التوراة، فضلا عن وثائق إليفانتين الآرامية ـ ويذهب إلى أن الوجود اليهودى فى مصر، إنما كان قبيل وبعد سقوط أورشليم تحت أقدام العاهل البابلى «نبوخذ نصر» فى عام ٥٨٧ق.م، فمن المحتمل أن هناك قوات يهودية ـ فضلا عن جموع من الحزب المصرى فى أورشليم ـ قد هاجرت إلى مصر قبيل الغزو البابلى للمدينة المقدسة، ثم سرعان ما قتل «جداليا» ـ حاكم اليهودية من قبل العاهل البابلى وعندئذ، وكما أشرنا من قبل، فلقد أدرك القوم مدى الكارثة التى حلت بهم، وخوفًا من «نبوخذ نصر» لقتل نائبه ـ بل وبعض القوات البابلية نفسها ، والتى كانت تعسكر فى المصفاة ـ كان

---

(١) جان يويوت : مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران ، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٨٧ ؛ وكذا:
Saunern et Yoyott, La Campagne Nubienne de Psammetique, II, in BIFAO, 51, 1952, p. 157F.

(٢) Saunern et Yoyotte, VT, I, 1951, p. 140-144, 2, 1952, p. 131-136; A.H. Gardiner, op.cit., p. 360.

الهروب إلى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم[1]، ونقرأ في التوراة «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش، وجاءوا إلى مصر، لأنهم خافوا من الكلدانيين»[2].

وهكذا لم يجد اليهود ملجأ يجتمعون به سوى مصر، التى خرجوا منها يومًا ما، واعتبروا يوم خروجهم منها عيدًا يحتفلون به، بل أكبر أعيادهم، وأعنى به «عيد الفصح»، ونظرًا لأن الفرعون المصرى «إبريس» (٥٨٩-٥٧٠ق.م) إنما كان حليفًا للملك اليهوذى «صدقيا» (٥٩٧-٥٧٠ق.م)، ضد ملك بابل، فلقد فتح الفرعون صدره لليهود، فكانت تلك الهجرة اليهودية إلى مصر.

ويعتمد أصحاب هذا الرأى فى تعضيده على تمثال «نسحور»، - والذى يحمل لقب «قائد بوابة الأقطار الجنوبية» فى عهد الملك «إبريس»، - فقد جاء فى النقش أن حامية «اليفانتين»[3] قامت بحركة عصيان، والتجأت إلى بلاد النوبة، ولكن «نسحور» نجح فى إحضارهم إلى المكان الذى فيه

---

(١) S.A. Cook, op.cit., p. 403; M. Noth, op.cit., p. 288; M. F. Petric, Egypt and Israel, 1911, p. 90-93; H.R. Hall, op.cit., p. 546.

(٢) ملوك ثان ٢٥: ٢٦.

(٣) إليفانتين: تقع جزيرة إليفانتين (Yab)، والمعروفة الآن باسم جزيرة أسوان على مبعدة ٩ كيلا إلى الشمال من الجندل الأول، فى مقابل مدينة أسوان الحالية عبر النهر، ويعنى اسمها فى اللغة المصرية القديمة «فيل» ، والذى انتقل إلى اليونانية تحت اسم «إليفانتين» (أو ليفنتين» ، وربما سميت كذلك لأن الأفيال وجدت فى هذا المكان مكانًا ملائمًا لاستقرارها قبل هجرتها النهائية صوب الجنوب، ونظرًا لتحكم جزيرة «يب» وأسوان (والمعروفة عند الأغارقة باسم Syene) فى مدخل مصر الجنوبى، فقد أقيمت قلعة فى كل منهما، ومن ثم فإن البرديات الآرامية إنما تتحدث كثيرًا عن «يب القلعة» و«أسوان» (سنى أوسونو) القلعة» وقد ذكرت أسوان فى التوراة كذلك (حزقيال ٢٩: ١٠، ٢٠: ١٦؛ مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٦؛ خالد الدسوقى، المرجع السابق، ص ٤٩؛ وكذا:

G. Ricciotti, The History of Israel, II, Milwante, 1955, p. 155; H. Goedick, ZAS, 81, 1956, p. 81-124; E.G. Krealing, op.cit., p. 21.

سيده (إبريس) ومعاقبتهم، وأن ما قامت به هذه الحامية من عصيان أنهى خدمتها، ثم حلّت محلها حامية جديدة تحتوى على العنصر اليهودي[١].

هذا وتحدثنا المصادر أن «إبريس» قد أنزل اليهود في «تل الدفنة» (تحفنحيس التوراة)[٢]، على مبعدة خمسة عشر كيلو متراً من القنطرة الحالية، عند مدخل الدلتا من جهة الشرق، غير أن موقع المدينة الاستراتيجية الهام ـ فضلا عن كونها المركز الرئيسي للجنود المرتزقة على أيام العصر الصاوي ـ إنما قد باعد كثيراً بينها وبين أن تكون معسكراً للاجئين من يهود، ومن ثم فأغلب الظن أن فرعون لم يبق بها من لاجئ يهود، غير أولئك الذين انخرطوا في سلك الجيش، ولاسيما أننا نسمع أن كثيراً من أولئك اللاجئين إنام قد تفرقوا بين تانيس ومنف وأرض الصعيد (أرض باتروس Patros)[٣].

وهكذا تشير المصادر إلى أن اليهود إنما قد انتشروا في صعيد مصر، وبخاصة في منف والفيوم ودهشور والبهنسا[٤] والأشمونين[٥] وأبيدوس[٦]

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٤٠؛ وكذا:

W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, p. 168; J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, IV, No. 989.

(٢) إرميا ٤٤ : ١؛ وكذا:

A. H. Sayce, The Egypt of the Habrews and Herodotus, London, 1896, p. 129.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٥.

(٤) تقع البهنسا على حافة الصحراء الغربية على مبعدة ١٣ كيلاً شمال غربي بني مزار بمحافظة المنيا، وحوالي ١٩٢ كيلاً جنوبي القاهرة.

(٥) الأشمونين: هي مدينة «خمنو» المصرية و«هرموبوليس ماجنا» ، الإغريقية، وتقع على مبعدة ١٠ كيلا من مدينة ملوى بمحافظة المنيا، وكانت مقر عبادة وفلسفة إله القمر «تحوت» الذى شبّهه الإغريق بالإله «هرمس» ومنها تسمية المدينة بهرموبوليس . (كريستيان توبلكور، توت عنخ آمون، ص ١٠٧).

(٦) أبيدوس: وتقع على حافة الصحراء الغربية عند العرابة المدفونة على مبعدة حوالى ١٠ كيلو مترات إلى الغربية من مدينة البلينا بمحافظة سوهاج.

وطيبة (الأقصر) وإدفو وإليفانتين وأسوان، وأن الجاليات اليهودية فى هذه الأماكن المختلفة، إنما كانت تتصل بعضها بالبعض الآخر[١].

الجالية اليهودية فى أسوان (جزيرة إليفانتين):

على أن أم هذه الجاليات إنما كانت «جالية إليفانتين»، والتى يميل أغلب الباحثين إلى أنها من سلالة الجند المرتزقة فى جيش «بسماتيك الثانى»، أو من سلالة أولئك الذين نجوا من السبى البابلى بعد تدمير هيكل أورشليم فى عام ٥٧٨ق.م، فضلا عن الذين هاجروا إلى مصر بعد قتل «جداليا» بعد السبى البابلى.

هذا وقد نجح أفراد الجالية اليهودية - والذين كانوا يقيمون مع عائلاتهم بأمر الفراعين - فى أن يقيموا فى إليفانتين معبداً للإله اليهودى «يهوه» - بجانب معبد إله المنطقة المصرى «خنوم» - فى فترة تسبق الحكم الفارسى لمصر عام ٥٢٥ق.م، [٢]، ومن ثم فإننا نقرأ فى أحد النصوص على لسان يهود اليفانتين هؤلاء «لقد بنى آباؤنا هذا المعبد فى قلعة «يب» (إليفانتين)، منذ أيام الملوك المصريين وأن قمبيز عندما جاء إلى مصر هدم كل معابد الآلهة المصرية، ولكنه لم يصب هذا المعبد بأى ضرر»[٣].

وأما أين يقع هذا المعبد؟ فمن الصعب الآن تحديد المكان الذى شيد عليه معبد «يهوه» هذا، وإن كان فى إمكاننا القول بشىء أقرب إلى التوكيد منه إلى التخمين، أن معبد إليفانتين اليهودى، إنما كان مجاوراً لمعبد «خنوم» المصرى، أو بجوار واحد من الأحياء المصرية المجاورة [٤]، ويذهب

(١) مراد كامل، النصوص الآرامية التى كشفت حديثاً فى مصر، مجلة أحاديث الثلاثاء بدار السلام، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٠٩ وما بعدها.

(٢) انظر: M. Noth, op.cit., p. 294 وانظر عن الغزو الفارسى لمصر: محمد بيومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٤١-٢٦٢.

(٣) A.E. Cowley, Aramaic Papyri of the Fifth Century, B.C. Oxford, 1923, No. 30: 13-14.

(٤) E.G. Kraeling, The Brooklyn Museum Aramaic Papyri, p. 82.

«كلير موت جانيو» إلى أن المعبد اليهودى إنما كان فى شمال جزيرة إليفانتين، وسرعان ما تجمعت منازل اليهود حول معبد يهوه هذا، مكونة حياً خاصاً أخذ يتسع شيئاً فشيئاً، حتى بلغت مشارف الحى المصرى الذى كان يقع إلى الجنوب من المعبد اليهودى، وانتهى الأمر بأن أصبحت منازل المصريين ملاصقة لجدران «معبد يهوه»[١].

ولعل من اللافت للنظر أن عبادة يهود إليفانتين لم تكن مقصورة على عبادة إلههم «يهوه» وإنما تجاوزته إلى عبادة آلهة أخرى، عبادة معبودين اثنين الواحد ذكر، والأخرى أنثى، أى ثالوث من الآلهة، شأنهم فى ذلك شأن جماعات الآلهة الأخرى المشابهة فى الشرق الأدنى القديم، وهكذا مارس يهود إليفانتين عبادة وثنية يهودية[٢]، وربما نظر القوم إلى هذه الآلهة على أنها من أتباع إلههم «يهوه»، ومن ثم فقد كانوا يتوسلون إليها من أجل رفاهية خلانهم خاصة فى خطاباتهم، فهذا «هانانياه» يكتب لـ «يدونياه» وزملائه وللحامية اليهودية قائلا: «ليشاء الآلهة رفاهية إخوانى»[٣].

ويرى «دوبون ـ سومير» أن يهود إليفانتين قد عبدوا الآلهة البابلية، معتمداً فى ذلك على أن أربعة من هذه الآلهة (بل ونابو وشمس ونرجال) قد ذكرت فى ضراعة من يدعى «يارجو» فى إحدى البرديات، وأن هذه الآلهة قد كتبت بهذا الترتيب فى نقش يرجع إلى أيام الملك «سرجون»[٤] وهناك ما يشير إلى أن يهودياً يدعى «جادول» قد تضرع للإلهين «يهوه» و«خن»، وقد ذهب «دوبون ـ سومير» إلى أن «خن» هذا، إنما هو اختصار لاسم الإله المصرى «خنوم» ـ معبود إليفانتين الرئيسى ـ ومن ثم فإن يهودا إنما قد شاركوا المصريين فى عبادة هذا الإله.

(١) J.B. Chabot, Les Fouiles de Clermont - Ganneau Elephantine, Journal des Savants, 1914, p. 136F; E.G. Krealing, op.cit., p. 74.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 295.

(٣) A.E. Cowley, op.cit., p. 21, 22.

(٤) A. Dupont-Sommer, Les Syncretisme Religleux des Juifs d'Elephantine, RHR, 65, 1945, p. 17F.

غير أن هناك من يعترض على هذا الاتجاه ويذهب إلى أن المراد هنا من «خن» إنما هو الإله «خان» ـ إله منطقة حران ـ الذى اشترك اسمه مع كثير من أسماء الأشخاص من إليفنتين، ومع ذلك فلا يمكن استبعاد الرأى الأول، ذلك لأن هناك ـ كما تشير إحدى البرديات ـ امرأة يهودية قد أدت قسمًا باسم الإلهة «سايتس»، إحدى ثالوث الشلال الأول، الذى يرأسه «خنوم»[١].

وأيًا ما كان الأمر فإن يهود إليفنتين إنما كانوا يحتفلون بأعياد الإسرائيليين القديم، ومنها «عيد السبت» ومن ثم فإننا نقرأ فى إحدى البرديات «إنى ذاهب ولن أعود حتى عشية السبت»[٢]، ويبدو أن اليهود كانوا يعتقدو أن «يهوه» إنما كان «يسكن فى إليفنتين القلعة» ـ أى أفى معبده بإليفانتين، وليس فى أورشليم[٣] ـ بل لقد ظل الإله «يهوه فى إلفنتين يحمل لقبه القديم «ربُّ الجنود»[٤].

وأما عن علاقة اليهود بالمصريين، فيبدو أن يهود إليفانتين إنما كانوا يقومون بواجباتهم فى خدمة مصر، وصدّ الهجمات التى كانت تتعرض لها من الجنوب، ولم يتدخل ملوك العصر الصاوى فى شئون الجالية الداخلية، وسمحوا لأفرادها بقسط وافر من الحرية الدينية، وبالرغم من وجود معبد «يهوه» فى إليفانتين، إلى جانب معبد خنوم، فإنه لم يحدث طوال العصر الصاوى، أى صدام بين اليهود والمصريين بسبب التعصب الدينى، أو اختلاف العقائد بين الفريقين[٥].

ومع ذلك فهناك من الباحثين من يرى أن اليهود قد نسوا لمصر، أنها

---

(١) E.G. Kraeling, op.cit., p. 86; H.L. Cinsberg, Aramaic Letters, ANET, p. 401; A. Dupont - Sommer, BHR, 65, 1945, p. 17F; A.E. Cowley, op.cit., p. 14-15.

(٢) M.Noth, op.cit., p. 295.

(٣) A. G. Kraeling, op.cit., Nos. 2, 4, 9, 10; A.E. Cowley, op.cit., No. 2, 4, 44-45.

(٤) A. Dupont - Sommer, (Ral, 1947), p. 180F.

(٥) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٨.

قد أطعمتهم من جوع، وآوتهم من تشرد، وكستهم بعد عرى، فردوا لها الجميل نكراناً، وكانوا عليها للفرس أعواناً، وفى حامياتهم جنوداً، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المصريين كانوا يكرهون الإسرائيليين منذ أول يوم عرفوهم فيه، وتذكروا أن أعوان الفرس اليوم، إنما هم أعوان الهكسوس فى الأمس البعيد ثم ازدادت الكراهية والمقت، بعد أن رأوهم بعد طول إقامة فى البلاد، خونة وجواسيس، ومثار فتن ودسائس، وأذناباً لأعداء البلاد، يعملون على هدم وطنهم، واستعباد أهله، ثم سرعان ما تحولت الكراهية والمقت إلى ثورة ضد الأجانب بصفة عامة، واليهود بصفة خاصة، وكان اختلاف الدين والجنس بين اليهود والمصريين من ناحية، ووجود هؤلاء الذين يعبدون «يهوه» ملاصقين لكهنة الإله «خنوم» ذى رأس الكبش من ناحية أخرى، سبباً فى إشعال هذه الثورة المباركة التى انتهت باستقلال مصر.

وكان «فيدراغ» قد أصبح فى عام ٤٢٠ق.م، «قائداً للجيش» (أو رئيس القوة) فى أسوان، ثم سرعان ما رقى فيما بين عامى ٤١٦، ٤١١ق.م إلى منصب «حاكم الإقليم»، وقد أفاد كهنة خنوم من وجود الوالى «أرساميس» فى الخارج فى عام ٤١٠ق.م، وتمكنوا بمساعدة «فيدراغ» من تدمير المعبد اليهودى، الذى طالما آذى الشعور القومى، بسبب عدم توقيرهم للإله خنوم ذى رأس الكبش[١]، وتقديمهم للكباش كقرابين ليهوه فى «عيد الفصح» - عيد الخروج من مصر - الأمر الذى اعتبر خطيئة دينية كبيرة موجهة إلى كهان خنوم، الذين كانوا يعتقدون أن الكبش حيوان مقدس عند ربهم «خنوم»[٢].

غير أن هناك من الباحثين من يرفض هذا الاتجاه، ويتساءل : إذا كان الأمر كذلك، فلم تأخر الصدام حتى وقت ثورة المصريين ضد الفرس؟ ثم

(١) A. T. Olmstead, A History of the Persian Empire , Chicago, 1970, p. 364-365.

(٢) J.B. Chalbot, op.cit., p. 137.

ألم يدرك فرعون الذى سمح لليهود بعبادة ربهم يهود، وبإقامة معبد له بجوار معبد الإله خنوم، أن هذا الذى سيفعله اليهود، سوف يسيء إلى شعور المصريين ؟.

ويجيب «كليرمونت ـ جانو» على ذلك بأن اليهود إنما كان لهم قبل هذا العهد بوقت قصير، الحرية فى تقديم القرابين من «الجدى» بدلا من «الكباش» غير أنهم بدأوا فى وقت ما يضحون بالكباش، مما أثار غضب المصريين، وفى نفس الوقت فإنه إنما يذهب ـ حدسًا عن غير يقين ـ إلى أن يهود إنما قد مارسوا عادة التضحية بالكباش إبان كتابة تلك البردية التى ذكرت الاحتفال بعيد الفصح[١].

ولكن يبدو أن الأمور قد ساءت بالنسبة إلى يهود قبل تدمير المعبد، ربما بسبب خيانتهم للمصريين، وربما بسبب الكراهية للأجانب، ولعل مما يستوقف النظر أن اليهود قد سارعوا إلى تقديم فروض الولاء للملك الفارسى، وفى نفس الوقت وجد الفرس فيهم أداة طيعة يستطيعون استخدامها فى السيطرة على بلاد لم تكن فقط بعيدة عن مقر الحكم فى الإمبراطورية، وإنما كانت كذلك قوية فى شعورها بذاتيتها، وحريصة على استرجاع استقلالها[٢]، هذا فضلا عن أن اليهود إنما كانوا أعضاء فى الحامية الفارسية فى إليفانتين، وكانت هذه الحامية تشترك فى إخماد ثورات المصريين التى كانت تقوم فى هذه المنطقة ضد عواهل الفرس، وكان هذا من أسباب اضطهاد المصريين لأعضاء هذه الجالية، عندما تراخت قبضة الفرس على مصر، وكان ضعف الحكومة الفارسية على أيام «دارا الثانى» (٤٢٤-٤٠٤ق.م)، فرصة لا تعوض بالنسبة إلى كهنة خنوم، وجموع المصريين فى إليفانتين وأسوان، فانقضوا على معابد يهوه ودمروه تمامًا فى

---

(١) W. Vincent, La Religion des Judeo-Arameons d'Elephantine, Paris, 1937, p.388F.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٩.

عام ٤١٠ق.م، وأوقعوا كثيراً من الأذى بأعضاء الجالية اليهودية هناك، أضف إلى ذلك كله، أن الكهنة المصريين فى معبد خنوم إنما كانوا يمثلون معقل الوطنية فى المنطقة، ومن ثم فقد ضايقهم إلى حد بعيد بقاء الفرس فى مصر، وإخلاص يهود لهم، مما أد إلى اشتراك الكهنة فى هذا الاضطهاد(١).

وهناك لمحات من أحداث خطيرة ساعدت على ازدياد الكراهية بين المصريين واليهود فى أسوان، وربما وقعت هذه الأحداث فى عام ٤١٠ق.م، عندما لحق بالمعبد التدمير، فهناك جزء من رسالة، يبدو أنها كتبت بيد مصرية وتتحدث عن تقرير خاص بأحداث معينة ومرسلة إلى شخصية فى إليفانتين ـ وتذكر الرسالة أسماء ست نساء، وخمسة رجال من يهود وجدوا عند البوابة فى طيبة، ثم قبض عليهم، هذا وتشير الرسالة إلى دخولهم بعض المنازل فى إليفانتين، واستيلائهم على بعض البضائع التى أعادوها إلى أصحابها، ثم تختم الرسالة برغبة صاحبها فى أن يحل السلام بمن يخاطبه وبعائلته، «حتى تحقق لنا الآلهة ما نريده»، وقد تتضمن هذه العبارة الأخيرة شعوراً عدائيًا تجاه يهود، وهناك احتمال كبير فى أن وجود بعض رجال ونساء يهود فى طيبة، إنما كان للوقوف أمام محكمة عليا، ويبدو أن هذه الحادثة قد وقعت قبل هدم المعبد اليهودى، وليس بعده، وعلى أى حال، فمن الواضح أن تغير الشعور المصرى العام تجاه اليهود، إنما كان نتيجة عوامل سياسية، وليست دينية(٢).

وانطلاقًا من هذا كله، يذهب «كريلنج» إلى أن تحطيم معبد يهود فى إليفانتين، وبالتالى اضطهاد الجالية اليهودية هناك إنما يرجع إلى أسباب غير دينية، ومن ثم فإن تقديم الذبائح والمحرقات فى المعبد اليهودى لم تكن

---

(١) عياد بولس، المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) خالد الدسوقى، المرجع السابق، ص ٣٥؛ وكذا: A.E. Cowley, op.cit., p. 34.

السبب في الاضطهاد، معتمداً في ذلك على أسباب كثيرة، منها (أولا) أن عيد الفصح - فيما يرى كريلنج - لم يذكر فعلا في البردية الآرامية، وحتى لو افترضنا أن هناك احتفالا تم بهذا العيد، فهو يختلف عما جاء في التوراة بشأن الاحتفال بهذا العيد.

ومنها (ثانيًا أنه ليس من الممكن أن يقيم أعضاء الجالية من يهود شعائرهم الدينية، التي تسيء إلى عقيدة المصريين، خاصة وأن أعضاء الجالية اليهودية إنما كانوا متساهلين بشأن التناقضات المذهبية، التي سادت الجماعة التي يعيشون بينها، ومنها (ثالثًا) أن «كريلنج» لم يعترف بما ذهب إليه «كليرمونت - جانو» من أن تقديم الكبش في معبد يهود قد أثار حنق كهنة خنوم، ومنها (رابعًا) أن «كريلنج» إنما يعارض ما ذهب إليه «كولي» من أن التقدمات والذبائح الدموية، إنما كانت سببا في اضطهاد الجالية اليهودية في إليفانتين[1].

وهكذا يعلل «كريلنج» سبب اشتراك كهنة «خنوم» في تحطيم المعبد اليهودي واضطهاد الجالية اليهودية في إليفانتين، إلى قيام الأسرة الجديدة في «منديس» وكانت عبادتها «الإله الكبش» وقد أضفت هذه العبادة قوة لكهنة الإله «خنوم» في الجنوب، وكان هذا نذيراً بالشر للمعبد والجالية اليهودية، ولكن يرد على ذلك بأن تحطيم المعبد تم قبل قيام الأسرة الجديدة بمدة ليست بالقصيرة، ولو افترضنا أن ما ذهب إلى «كريلنج» صحيحا، وأن قيام أسرة جديدة أعطى للكهنة سلطة قوية، فليس من المقبول أن يحطم الكهنة المعبد، إلا إذا كانت بينهم وبين اليهود عداوة قديمة[2].

أضف إلى ذلك أن «كريلنج» لم يشر إلى بعض النواحي الهامة التي

---

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٥٢، وكذا:

E. G. Kraeling, op.cit., p. 102-103; A. E. Cowley, op.cit, p. 32

(٢) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٥٢، وكذا: E.G. Kraeling, op.cit., p. 113.

وردت فى البرديات الآرامية، ولم يعط لها تعليلا، ومنها (أولا) اشتراك الكهنة المصريين فى تحطيم معبد يهود بعون من الحاكم الفارسى «فيدراغ»، وعن طريق العامة من المصريين، وليس هناك من سبب يدفع الكهنة إلى تحطيم المعبد اليهودى، إلا ما كان يمس عقيدتهم أولا، وقوميتهم ثانيًا، ومنها (ثانيًا) أن أعداء الجالية اليهودية إنما يقدمون الذبائح والمحرقات قبل تحطيم المعبد، ثم استعدادهم بعد ذلك لإعادة المعبد، على ألا تقدم فيه أية ذبائح.

ومنها (ثالثًا) أن هناك عبارة آرامية جاءت فى إحدى الرسائل تشير إلى أن الإله «خنوم» إنما قد أصبح ضد أعضاء الجالية من يهود، ومما لا ريب فيه أن خنوم لا يصبح ضدهم إلا إذا كان هناك من الأسباب الدينية ما يجعله غاضبًا على الجالية اليهودية، وهكذا يبدو واضحًا أن الأسباب الدينية إنما لعبت دورًا فى اضطهاد الجالية اليهودية وتحطيم معبدهم، بالإضافة إلى الأسباب الأخرى التى ذكرت من قبل[1].

وأيًا ما كان الأمر، فلقد قام المصريون بثورة فى عام ٤١٠ق.م، بدأت شرارتها الأولى من أسوان، وانتهت بتدمير المعبد اليهودى فى إليفانتين تمامًا، ثم سرعان ما امتدت إلى الدلتا، ولم يمض حين من الدهر، حتى أصبحت نضالا سافرًا عنيفًا بين مصر وفارس، وامتد لهيبها إلى كل أنحاء البلاد.

ومن أسف أننا لا نعرف الكثير عن هذه الثورة الوطنية، وإن كنا نعرف تمامًا أن مصر لم تعتمد فيها على عون من حلفائها القدامى من الأغارقة، بسبب انشغال كل من أثينا وإسبرطة بحرب ضروس تدور رحاها بينهما، ونعرف كذلك أن الذى تولى قيادة الثورة المصرية ضد فارس، إنما كان «أمير تايوس الثانى» وهو ابن أو حفيد، أو على الأقل واحد من ذوى قربى «أمير

---

(١) بولس عياد، المرجع السابق، ص ٥٢-١٥٣ وكذا: A.E. Cowley, op.cit., Nos. 732, 38.

تايوس» الذى حمل من قبل لواء الصراع الذى بدأه «إيناروس» ـ بعد أن قبض أعداء الأخير عليه ثم صلبوه.

واستمرت الثورة نحواً من ست سنوات (٤١٠-٤٠٤ق.م)، انتهت بخلوص حكم مصر لبنيها، وتحررها بعد مذلة المهانة، وينهى مؤرخنا المصرى «مانيتو» عند هذه النقطة الأسرة السابعة والعشرين الفارسية، ويجعل أسرته الثامنة والعشرين من ملك واحد هو «أمير تايوس» الساوى (أمون حر الثانى) (حوالى عام ٤٠٤-٣٩٩ق.م) [١].

وتشير الدلائل إلى أن موقف اليهود من ثورة المصريين ضد أعدائهم الفرس إنما كان موقفاً سلبيًا، بل إن بردية Strasburg لتشير إلى أن اليهود لم يتركوا مراكزهم إبان الثورة، ولم توجه إليهم تهمة الخيانة من جانب الغزاة، مما يدل على أنهم قد عاونوا الفرس على إخماد الثورة المصرية، مما كان سببًا فى غضب المصريين على يهود، بعد أن أفسحوا لهم صدورهم، وأكرموا غربتهم، فمنعوهم من ممارسة شعائرهم الدينية لربهم يهوه[٢]، ثم انتهى الأمر بتدمير المعبد اليهودى نفسه، بعون من الوالى الفارسى «فيدرانج».

ولعل سائلا يتسائل: لم انضم «فيدرانج» القائد الفارسى إلى المصريين فى تدمير معبد يهود فى إليفانتين؟

فى الواقع إن تصرف الوالى الفارسى إنما يحتاج إلى تفسير مقبول، بخاصة وأنه لم يقف عند هذا الحد، إذ نقرأ فى إحدى البرديات أنه كتب إلى ولده «نفايان» ـ وكان قائداً لبعض فرق عسكرية ضمت بعض المصريين فى قلعة أسوان ـ يأمره بأن يدمر المعبد فى «يب» (إليفانتين)، وهكذا اشترك فى تدمير المعبد اليهودى «نفايان» وجنوده، فضلا عمن صحبة من المصريين، وكذا كهنة «خنوم».

(١) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٣٨٩، (القاهرة ١٩٦٧)؛ وكذا:
A.H. Gradiner, op.cit., p. 372-452; A. T. Olmstead, op.cit., p. 373-374.

(٢) A. E. Cowley, op.cit., p. 27.

ولعل الباعث على تصرفات «فيدرانج» إنما كان باعثاً شخصياً، مردّه من ناحية إلى الطموح الشخصى، والطمع فى الكسب، وإلى ما أغراه به المصريون على نحو ما أشارت إليه البردية السابقة، وربما خوفاً من بطشهم، ومن ناحية أخرى ربما كان اليهود قد أثاروا حفيظته عليهم[١].

وأياً ما كان الأمر، فهناك الكثير من الشكاوى التى يلتمس فيها «يدونياه» زعيم الجالية اليهودية فى إليفانتين - وزملاؤه الكهنة، عون السلطات الفارسية ضد الوطنيين، بل إن هناك رسائل أخرى، إلى كبير الكهنة وزملائه فى أورشليم وإلى المدعو «أوستانيس»، وإلى نبلاء اليهودية، وإن كان الصمت هو الجواب الدائم عليه[٢].

وفى ٢٥ نوفمبر من عام ٤٠٧ قبل الميلاد، يرسل «يدونياه بن جمارياه» رسالة إلى «باجواس» حاكم اليهودية، يطلب منه أن يستغل صلاته الطيبة بملك الفرس وأمرائه، ليسمح لهم بتشييد معبدهم، ثم يعيد «يدونياه» قصة الهجوم على المعبد، وكيف أن آباءه قد بنوه فى قلعة «يب» (إليفانتين) قبل الغزو الفارسى (عام ٥٢٥ق.م)، وكيف أن معابد آلهة مصر العظيمة قد دمرت فى عهد قمبيز ولم يصب معبدهم بأى أذى، ثم يصف «يدونياه» حالة قومه اليهود بعد تدمير المعبد، فيروى أنهم قد أصبحوا فى هم مقيم، فهم لا يرتدون ملابس حسنة، ولا يتطيبون بزيت، ولا يشربون خمراً، وباتت نساؤهم، كالأرامل لأن المصريين يصرون على ألا يعيد اليهود بناء معبدهم.

ثم تنتهى رسالة «يدونيا» بأن يستغل «باجواس» نفوذه لدى حماته الفرس لإعادة بناء المعبد، متعهدين ألا يحرق اليهود فيه أية مأكولات إرضاء

---

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١١؛ وكذا:

H. L. Ginsberg, op.cit., p. 492; E.G. Kraeling, op.cit., p. 109; R. Driver, op.cit., p. 54.

(٢) A.T. Olmstead, A History of thePersian Empire, Chicago, 1970, p. 365.

للفرس الذين كانت تحرم ديانتهم تنجيس النار، إذا وضعت فيها - أو لامستها - جثث حيوانات ميتة، مشيرين إليه من طرف خفى بهبة مالية، فضلا عما سوف يناله من ثواب عند «يهوه» ربّ يهود، وأخيراً فإن «يدونياه» وزملاءه كهنة إليفانتين يكتبون رسالة كذلك بنفس المعنى إلى حاكم «السامرة»، ولكن الرد كان دائمًا أن «أرساميس» (أرشام) الوالى الفارسى، وحده صاحب الحق فى تحقيق رغبتهم(١).

على أن «باجواس» - وكذا «دلايا» أحد ولدى حاكم السامرة - إنما كتبا رداً فى صورة توصية شفوية إلى «أرشام» حاكم مصر الفارسى، يتضمن النقاط التالية:

١ - أن معبد إله السماء هذا، إنما قد أنشىء قبل وصول قمبيز إلى مصر فى عام ٥٢٥ق.م، ومن ثم فليس من حق المصريين الزعم بأنه من أعمال الفرس فى مصر.

٢ - أن «فيدرانج» القائد الفارسى هو المسئول عن هدم المعبد، وليس المصريون.

٣ - ضرورة إعادة بناء المعبد فى مكانه الأصلى، ولعل المقصود من هذه العبارة إبعاد أى تفكير من جانب المصريين فى عدم إقامة معبد «يهوه» إلى جوار معبد «خنوم»، وربما إبعاده عن جزيرة اليفانتين كلية.

٤ - أن تقدم القرابين على المذابح - كما كان الحال من قبل - وإن اقتصرت هذه القرابين على البخور والأطعمة، ودونما أى ذكر للأضاحى(٢).

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى يعود «أرساميس» (أرشام) من فارس، وكان عليه أن يوفق بين رغبة اليهود الملحة فى إعادة بناء معبدهم،

---

(١) A.T. Olmstead, op.cit., p. 304-366; A.E. Cowley, op.cit., no. 30-32.

(٢) A.E. Cowley, op-cit, No. 32; R. Driver, op.cit., p. 54.

وبين الاستياء العام الذى يسود شعور المصريين ضد يهود، وإصرارهم على عدم بناء معبد يهوه، وهكذا وجد «أرساميس» أن إعادة بناء المعبد اليهودى فى هذه الظروف الحرجة، قد تجر عليه مشاكل لا قبل له بها، ومن ثم فلم يفعل لليهود شيئاً.

ويستمر اليهود ـ دون تقدير للموقف الحرج، ودون إدراك للسحب التى بدأت تتجمع فى سماء العلاقات بين مصر وفارس ـ يستمرون فى كتابة رسائلهم إلى المسئولين فى إصرار عجيب، ومن ثم يرى «يدونياه» وأربعة من زعماء المستعمرة اليهودية، يكتبون إلى الموظف الأعلى ـ ولعله الحاكم المحلى فى طيبة ـ بنغمة تسودها الذلة أكثر من التواضع، والتوسل أكثر من الملتمس، فضلا عن أنهم إنما يتعهدون فى رسالتهم هذه، بألا يقدموا فى معبدهم قرابين من العجول والخراف والماعز، وأنها سوف تكون مقصورة على البخور وقرابين الطعام والشراب، كما يتعهدون كذلك بتقديم مبالغ من المال (ضاع رقمها) وألف أردب من الشعير، من ممتلكات «بيت يهوه»[١]، إلا أن من حملوا رسالتهم هذه إلى طيبة، قبض عليهم بمجرد وصولهم إلى مداخل مدينة آمون، وجردوا من مناصبهم، وأجبروا على أن يدفعوا فدية كبيرة[٢].

ويختلف المؤرخون فى أمر إعادة بناء المعبد من جديد، فهناك من يذهب إلى أن المعبد إنما أقيم مرة ثانية، وربما فى مكانه الأصلى، وإن كان ذلك إنما قد تم بعمارة متواضعة، ولكنها تفى بتحقيق أغراضه الدينية[٣]، على أن هناك اتجاهاً آخر، يذهب إلى أن المعبد لم يقدر له أن يبنى مرة ثانية، بسبب الثورة التى قامت فى مصر، والتى أدت ـ كما أشرنا من قبل ـ إلى

---

(١) A. E. Cowley, op.cit., p. 33; A.T. Olmstead, op.cit., p. 305.

(٢) H.L.Ginsberg, op.cit., p. 491-492; A.E. Colwey, op.cit.,no. 34.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٣؛ وكذا: E. G. Kraeling, op.cit., p. 110.

استقلال مصر، وقيام الأسرة الثامنة والعشرين فى عام ٤٠٤ق.م[١]، ويميل كثير من الباحثين المصريين إلى الرأى الأول، وخاصة بعد نشر مجموعة برديات متحف بروكلين إذ جاء في البردية (رقم ١٢) منها - والتى كتبت بعد تلك الأحداث بسنين قصيرة أى فى عام ٤٠٢ق.م - إن الإله «يهوه» كان ما يزال يسكن فى إليفانتين[٢].

وأياً ما كان الأمر، فإن الجالية اليهودية فى إليفانتين، إنما بدأت تسير بسرعة فى طريق الاضمحلال على أيام الأسرة التاسعة والعشرين (٣٩٩-٣٨٠ق.م) - والتى كانت من منديس فى الدلتا، حيث مركز عبادة الإله الكبش - ومن ثم فقد ترك أمر يهود إليفانتين تحت تصرف كهانة خنوم، التى كررت أحداث عام ٤١٠ق.م، ولكن بصورة أشد قسوة، وأكثر عنفاً، ويتجه «كريلنج» إلى أن عهد آخر ملوك هذه الأسرة «نفريتيس الثانى» (تف - عاون- رود) إنما قد شهد نهاية يهود فى إليفانتين، ذلك لأن آخر بردية وصلتنا من إليفانتين، إنما قد تحدثت عن تولية هذا الملك عرش مصر[٣].

ويكاد يكون فى حكم اليقين أنه لم يعد هناك يهودى واحد فى إليفانتين على أيام الأسرة الثلاثين السمنودية (٣٨٠-٢٤٣ق.م) فى الوقت الذى أعاد فيه آخر فراعنتها «نكتانبس» (نخت حارحبى) (٣٦٠-٣٤٣ق.م)[٤] بناء «معبد خنوم» فوق الجزيرة، ومما يؤيد ذلك أن الشارع الذى يحيط بجدار معبد «خنوم»، قد تجاوز منازل الحى اليهودى بطريقة توحى بأنها لم تكن عامرة فى وقت إنشائه[٥].

---

(١) خالد الدسوقى، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٣؛ خالد الدسوقى، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٥؛ وكذا: E.G. Kraeling, op.cit., p. 115.

(٤) A.H. Gardiner, op.cit., p. 453.

(٥) خالد الدسوقى، المرجع السابق، ص ٤٤.

ولعل سائلاً يتساءل: أين ذهب يهود إليفانتين ؟ وهل عادت تلك القلة التى نجت إلى أرض يهوذا؟

فى الواقع أن بعضًا من الباحثين إنما يستبعد عودة الناجين من يهود إلى اليهودية[١] مرة أخرى، بينما يرجح آخرون أن نفراً من تلك الجالية إنما قد اتجهوا شمالاً - إلى إدفو - معتمدين فى ذلك على أن هناك شواهد قبور، تحمل كتابة آرامية، ترجع إلى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد، قد عثر عليها هناك فى إدفو، هذا وقد اختص اليهود فى العصرين اليونانى والرومانى بالحى الرابع من أحياء هذه المدينة، كما أن بطليموس الأول (٣٢٢-٢٨٤ق.م) إنما قد وجد فى مصر عناصر يهودية كثيرة، عندما آل إليه حكمها، بعد وفاة الإسكندر الأكبر فى عام ٣٢٣ق.م، وأن كثيراً من الجاليات اليهودية فى العصر البطلمى، إنا ترجع فى أصولها إلى القرن السابع أو السادس قبل الميلاد[٢].

---

(١) اليهودية تعبير جغرافى كان أول من استعمله عزرا (٥ : ٨) ليشير إلى ولاية فى الإمبراطورية الفارسية.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥، وانظر:

H.I. Bell, Cults and Creads in Graeco-Roman Egypt, Liverpool, 1954, p. 32;

E. Beavan, A History of Egypt Under the Ptolemaic Dynasty, London, 1927, p. 111.

الباب العاشر

بنو إسـرائيل

فيما بين الثورة المكابية ونهاية اليهود فى فلسطين عام ١٣٥م

الفصل الأول
الثورة المكابية (١٦٦-١٦٠ ق.م)

(١) فلسطين فيما قبل الثورة المكابية

مات الإسكندر الأكبر فجأة في الثالث عشر من يونيه عام ٣٢٣ق.م. وقسمت إمبراطوريته بين قواته الذين جهد الواحد منهم في الحصول على النصيب الأوفر من الإمبراطورية المقدونية، وهكذا انتهى الأمر، بأن أصبحت مصر من نصيب «بطليموس»، وبابل من نصيب «سلوقس»، وآسيا الصغرى من نصيب «أنتيجونس»، ومقدونيا من نصيب «أنتيباتر»[١]، وهكذا «انكسر القرن العظيم، وطلع عوضًا عنه أربعة قرون عظيمة، تتجه نحو رياح السماء الأربع»[٢]، وكان بطليموس - فيما يرى البعض - أكثر هؤلاء الأربعة ذكاء، إلا أن سلوقس كان بالتأكد أقدرهم[٣].

هذا وقد بدأت علاقة اليهود بالبطالمة منذ بداية دولتهم في مصر، وتطلعها إلى الاستيلاء على فلسطين، بغية تأمين سلطانهم في أرض الكنانة، ومن هنا قام «بطليموس الأول سوتير» (٣٢٣-٢٨٤ق.م) بغزو سورية في عام ٣٢٠ق.م ثم الاستيلاء على أورشليم - عاصمة اليهودية - في عام ٣١٨/٣١٩ق.م، ورغم أنه قد اضطر إلى إخلاء سورية الجنوبية (وتعني أساسًا منطقة فلسطين، والتي تشمل في العادة جنوب سورية وفينيقيا)، إلا

(١) عن الظروف التي أحاطت بدولة الإسكندر بعد وفاته: وتقسيم إمبراطوريته بين قواده، انظر: لطفي عبد الوهاب، دراسات في تاريخ مصر - عصر البطالمة، ٨٥/١-٩٤؛ إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، ٤٥/١، وما بعدها؛ تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، ص ٤-٨؛ مصطفى العبادي، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٨-٤٤.

(٢) دانيال، ٨: ٨.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

أنه سرعان ما عاد إليها مرة أخرى بعد انتصاره العظيم على «ديمتريوس» فى موقعة غزة عام ٣١٢ق.م[1].

وكان من نتائج انتصار بطليموس الأول فى غزة أن تابع الرجل تقدمه، فاستولى على فلسطين وفينيقيا، كما أن الأنباط[2] فى البتراء إنما قد انضموا تحت لوائه، ومن ثم فإن «ديودور الصقلى» (من القرن الأول الميلادى) يروى أن «أنتيجونس» قد أغار على البتراء فى عام ٣١٢ق.م، بسبب موالاة النبط لبطليموس الأول،، فأعد حملة تحت قيادة صديقه «أثنيوس» بلغ تعدادها أربعة الاف من المشاة، وستمائة فارس - ليجبرهم على التحالف معه ضد الملك البطلمى، ونجح «أثنيوس» فى أن يخفى أمر حملته، وأن يسير إلى «البتراء» عن طريق أدوم، وأن يباغت القوم ليلا، والناس نيام، فضلا عن غياب حراسها من الشباب والرجال الأشداء فى سوق لهم، ومن ثم فقد كتب له النجح عليها، ونهب ما استطاع من بخور وتوابل وطيب وفضة.

غير أن الأنباط سرعان ما علموا بالأمر، فطاردوا الغزاة ذات ليلة، كانوا يستريحون فيها من وعثاء السفر، ومشقة الطريق، وأعملوا السيف فيهم حتى قضوا عليهم، إلا خمسين فارساً هربوا بسلام، وإن أصيبوا بجراح من سيوف الأنباط، ويعلل «ديودور» ذلك الفشل الذى منيت به الحملة، بأن رجالها ما كانوا يتوقعون أن يطاردهم الأنباط بهذه السرعة، ومن ثم فقد أهملوا الحراسة فكانت المأساة، مما اضطر «أنتيجونس» إلى أن يرسل إليهم حملة أخرى

---

(١) مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ٣٤-٣٧؛ مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٣؛ محمد عواد حسين، الحرب السورية السادسة، حوليات كلية الآداب، جامعة إبراهيم باشا الكبير، ٧١/١، ١٢٥، القاهرة ١٩٥١م.

(٢) عن دولة الأنباط انظر: محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، الفصل الرابع عشر، الرياض ١٩٧٧، ص ٤٩٣-٥٣٣.

بقيادة ولده «ديمتريوس»، باءت بالفشل كذلك[1].

وأيا ما كان الأمر، فإن «ديمتريوس» سرعان ما ينتصر على جيوش بطليموس فى شمال سورية فى عام ٣١١ق.م، الأمر الذى أدى إلى انسحاب بطليموس من فلسطين مرة أخرى، غير أنه سرعان ما يعود إليها فى عام ٣٠٢ق.م، منتهزاً فرصة انشغال «أنتيجونس» وولده «ديمتريوس» فى حروبهما فى آسيا الصغرى، ويبدو أن الأمر قد استقر له فى هذه المنطقة ـ بما فى ذلك يهوذا ـ منذ عام ٣٠١ق.م، إلى حد ما، ذلك لأن التاريخ إنما يحدثنا أن منطقة سورية الجنوبية (أو سورية الحالية Coele Syria)، إنما قد ظلت فترة طويلة موضع نزاع عنيف ومستمر بين الأسرتين البطلمية والسلوقية، وتكررت الحروب بشأنهما، وقد تبادل فيها الجانبان النصر والهزيمة، كما تعرض فيها بنو إسرائيل للشدائد والمحن، وربما بسبب تقلب الحكيم من دولة لأخرى، وربما لأن القوم ـ بطبيعتهم ـ إنما كانوا يندمجون فى الدسائس والمؤامرات.

وعلى أى حال، فلقد كانت فترة حكم البطالمة ـ على أيام بطليموس الأول (٣٢٣-٢٨٤ق.م)، وبطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ق.م) وبطليموس الثالث (٢٤٦-٢٢١ق.م) ـ أطول من فترة حكم السلوقيين وأقوى، حتى استطاع «أنطيوخس الثالث» أو الكبير (٢٢٣-١٨٧ق.م)، أن ينتزع فلسطين من البطالمة ـ بعد أن أوقع هزيمة ساحقة بجيش «بطليموس الخامس» (٢٠٥-١٨٠ق.م)[2] فى موقعة بانيون عام ١٩٩ق.م ـ ولكنها

(١) جواد علي، ٣/١٩-٢٠؛ صالح أحمد العلى، محاضرات فى تاريخ العرب القديم، ١/٢٧؛ محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٥٠٣-٥٠٤؛ وكذا؛
F. Altheim and R. Stiel, op.cit., p. 32-33; J. Hastings, ERE, 9, p. 121; A.B.W. Kennedy, Petre, Its History and Monuments, London, 1925, p. 31; Encyclopaedia of Islam, III, p. 801.

(٢) اختلف الباحثون حول وفاة بطليموس الرابع وتولية ولده بطليموس الخامس، فمنهم من يرى أنها فى عام ٢٠٥ق.م، ومن يرى أنها فى عام ٢٠٣ق.م (انظر: إبراهيم نصحى، عصر البطالمة ١/١٥٢؛ مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ٧٧؛ وكذا؛
T.C. Skeat, The Reigus of the Ptolemies, 1954, p. 32.

سرعان ما عادت إليهم مرة أخرى، فانتزعها السلوقيون منهم، بل واستمروا يحكمونها باستثناء فترات قصيرة - حتى الفتح الرومانى فى عام ٦٣ق.م[١].

ولقد أدى النزاع بين البطالمة والسلوقيين على السيادة فى فلسطين[٢]، أن اليهود إنما انقسموا إلى فريقين، الواحد قد تحزب للبطالمة، والآخر قد تحزب للسلوقيين، ومن ثم فقد كان كثيراً ما يقع الشقاق بين الفريقين، هذا إلى جانب أن السلوقيين عندما كانوا يستولون على البلاد، إنما كانوا يتكلمون بأنصار البطالمة، يساعدهم فى ذلك الحزب المناصر لهم، فمثلا عندما آل العرش السلوقى إلى «أنطيوخس الثالث» إنما عمل على الاستيلاء على سورية من «بطليموس الرابع» (٢٢١-٢٠٥ق.م)، وقد نجح فى ذلك إلى حد ما، غير أن بطليموس الرابع سرعان ما استعادها بعد معركة عنيفة عند مدينة «رفح» فى الثانى والعشرين من يونية عام ٢١٧ق.م، لعب فيها الجنود المصريون من الفلاحين أخطر الأدوار، وفى خلال هذه الفترة ظهر الحزبان - السلوقى والبطلمى - وأخذا يتناحران ويكيد الواحد منهما للآخر، وينكل الواحد منهما بالآخر تنكيلا شديداً، وفى فترة السيطرة السلوقية فرّ كثير من أنصار البطالمة إلى مصر وأخذوا ينشئون لأنفسهم فى «تل اليهودية»

---

(١) محمد عزة دروزة، تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٩٤.

(٢) لم تكن فلسطين تعتبر فى القرن الثالث قبل الميلاد، وحدة إدارية قائمة بذاتها، بل كان يطلق على الولايات البطلمية فى سورية وفينيقيا وشرق الأردن اسم «سورية وفينيقيا» وكان يطلق عليها بصفة رسمية «سورية» فقط، وفى بردیات «زينون» كان اسم سورية لا يطلق على فلسطين، فيقال عن الذاهبين إلى فلسطين أنهم ذاهبون إلى سورية، وعن القادمين من فلسطين أنهم قادمون من سورية؛ وحتى فى أوائل العصر الرومانى كان اسم سورية يطلق أيضاً على فلسطين، فنجد الإمبراطور «كلاديوس» يحذر يهود الإسكندرية من أن يأتوا إلى المدينة بيهود من سورية، ومن هذا نرى أنه كان فى العصر اليونانى والرومانى، يخلط بين الشعوب القادمة من الشام، ويطلق عليها جميعاً اسم سوريين ، كما كان يخلط - كذلك بين اللغة العبرية ، واللغة التى يتكلم بها السوريون، وتوصف اللغتان بأنهما «اللغة الآرامية» . (انظر: مصطفى عبد العليم، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٥).

(ليونتوبولويس) فى إقليم هليوبوليس معبداً، على أيام بطليموس السادس (١٨٠-١٤٥ق.م) ـ والمعروف بشدة عطفه على اليهود ـ على غرار هيكل أورشليم، ثم أخذوا يدسون دسائسهم فى اليهود الباقين فى بلاد اليهودية، ويحركونهم ضد السلوقيين، واستجاب بعضهم فعلا لهذه الدسائس، مما أثار «سلوقس الرابع فيلوباتر» (١٨٧-١٧٥ق.م) الذى خلف أباه أنطيوخس الثالث، وجعله يشتد عليهم قمعًا وتدميراً، ثم جعل السلوقيين يبذلون جهدهم فى تحويل اليهود عن التقاليد الدينية والاجتماعية اليهودية إلى التقاليد اليونانية[١].

وعلى أى حال، فرغم أن كلا من الدولتين ـ البطلمية والسلوقية ـ إنما كانت تقيم فى البلاد ولاة وقواداً عاميين، فضلا عن الحاميات العسكرية، إلا أن رؤساء كهان يهود، إنما كانوا يمارسون ـ إلى جانب وظائفهم الدينية ـ الزعامة المدنية على اليهود، ويقومون بجمع الجزية وتسليمها للسادة الحكام من البطالمة أو السلوقيين[٢].

على أن البطالمة ـ بالذات ـ إنما كانوا يتبعون سياسة معتدلة إزاء فلسطين، ولم يحرصوا إلا على أن تؤد لهم الجزية، ومن ثم فقد تفادوا التدخل بشكل محسوس فى شئون اليهود الداخلية، مفضلين أن يتركوا لهم قدراً كبيراً من الحكم الذاتى، وهكذا يبدو واضحًا أن سياسة البطالمة إزاء يهود، إنما كانت شديدة الشبه بتلك التى اتبعها الفرس عندما كانوا يحكمون فلسطين[٣].

---

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٤٤-٤٥؛ محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص٢٩٦؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 64 F; Josephus, Antiquitie, XIII, 62-79.

(٢) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٧، وكذا:

A.H.M. Jones The Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford, 1937, p.236; G.H. Box, Judaism in The Greek Period, Oxford, 1953, p.21.

ولعل من الأهميـة بمكان الإشارة هنا إلى أمرين، الواحد: ويتصل بأسرى اليهود، الذى جاء بهم بطليموس الأول إلى مصر، والثانى: ويتصل بالترجمة السبعينية للتوراة على أيام بطليموس الثانى.

أما عن الأمر الأول، فإن الرواية اليهودية إنما تبالغ إلى حد كبير فى أعداد الأسرى الذى جلبهم بطليموس الأول - وبخاصة بعد انتصاره فى موقعة غزة عام ٣١٢ق.م - ثم حررهم ولده بطليموس الثانى وقت الترجمة السبعينية للتوراة، إذ تصل بهم مصادر يهود إلى مائة ألف أو يزيدون (١٢٠ ألف فى بعض الروايات)، الأمرالذى نظر إليه اليهود، وكأنه كارثة قومية لبلاد اليهودية، يمكن أن تؤدى إلى افتقارها من سكانها[١].

غير أن «وسترمان» إنما يرجح أن عدد الأسرى اليهود الذين جاء بهم «سوتير» إلى مصر، إنما كان أقل بكثير مما ذكره كاتب الرسالة المنسوبة إلى «أرستياس» Aristeas، وخاصة أنه لم يقم دليلا على أن أحداً من البطالمة الأوائل قد أتيح له أن يأسر مثل هذا العدد الضخم فى إحدى حملاته الحربية[٢]. هذا فضلا عن أن «ديودور الصقلى» إنما يذكر أن بطليموس قد أتى معه إلى مصر بثمانية آلاف من الأسرى الذين وقعوا فى قبضته، وأنزلهم فى أقاليمها[٣].

وأيا ما كان الأمر، فإن بطليموس الأول إنما قد أتى إلى مصر بيهود، كانوا مزيجاً من الأسرى، ومن بعض الأحرار الذين جاءوا إلى مصر من تلقاء أنفسهم، بعد أن استشعروا عطف الملك البطلمى عليهم، ولمسوا النواحى

---

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٣-٣٤.

(٢) W.L. Westermann, The Slave System of Greek and Roman Antiquity, Philadelphia, 1955, p. 28.

(٣) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٣٤؛ وكذا:

Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, 19, 85, 4.

الطيبة فيه، كما أن الرجل إنما كان قد أدرك صلاحية استخدام اليهود فى جيشه، فنقل أفواجاً منهم، ومنحهم إقطاعيات ليستقروا فى مصر كالإغريق والمقدونيين، ثم سرعان ما اجتذبت الحياة الجديدة عناصر أخرى من يهود، جاءوا إليها وانتشروا فى كثير من أرجائها[1].

وأما الأمر الثانى، فهو «الترجمة السبعينية للتوراة» (سبتوجنيتا Septu-aginta)، ويرجع أصل هذه التسمية السبعينية إلى قصة أسطورية نسجت حول هذه الترجمة، إذ يروى أن الملك «بطليموس الثانى» (٢٨٤-٢٤٦ق.م)، قد طلب من اليعازر - الحاخام الأكبر - أن يرسل إليه اثنين وسبعين عالماً من يهود فلسطين - ستاً من كل سبط - لترجمة التوراة إلى اليونانية، كل على انفراد، لأن كثيراً من يهود الإسكندرية إنما كانوا قد تأغرقوا تماماً، وأصبحت اليونانية لغتهم الوحيدة، وليس أدل على ذلك من أن القوم - بعد إتمام الترجمة إلى اليونانية - إنما كانوا يؤدون شعائرهم الدينية لليهودية باللغة اليونانية.

وقام علماء يهود بالمهمة الخطيرة الملقاة على عاتقهم خلال اثنين وسبعين يوماً، ومن ثم فقد أطلق على هذه الترجمة «الترجمة السبعينية»، ربما نسبة إلى العلماء المشتركين فيها، أو نسبة إلى عدد الأيام التى تمت إبانها، وإن كان العدد فى الحالتين اثنين وسبعين - وليس سبعين، وأياً ما كان الأمر فإن الرواية إنما تذهب إلى أن التراجم المختلفة للتوراة إنما وجدت مطابقة بعضها للبعض الآخر، مما يعنى (أولا) أن كل حبر من هؤلاء الاثنين والسبعين من أحبار يهود، إنما قام بالترجمة بمفرده، كما يعنى (ثانياً) أن ترجمة الكتاب المقدس (أعنى العهد القديم أو التوراة) إنما تمت بوحى من

---

(١) إبراهيم نصحى، المرجع السابق، ص ١٥٨؛ مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ٣٤-٣٥؛ وكذا: Josephus, Antiquities, XII, Io.

«يهوه»، حتى أن كلماته (أى العهد القديم) لا تختلف من ترجمة إلى أخرى[1].

ومن ثم فقد ابتهج الملك البطلمى (بطليموس الثانى فيلادلفوس)، الابتهاج كل الابتهاج، وسرّ السرور كل السرور، فأمر لحاخام يهود الأكبر بجائزة كبرى، ومنح بقية العلماء الاثنين والسبعين جوائز مالية كبيرة، هذا إلى جانب إصداره الأوامر بإطلاق سراح من كان أسيراً فى مصر من سبى يهود ـ وعددهم مائة ألف على رواية، ومائة ألف وعشرون ألفًا على رواية أخرى ـ كان أبوه بطليموس الأول قد أتى بهم بعد حملاته المتكررة على فلسطين، وخاصة بعد موقعة غزة فى عام ٣١٢ق.م، وأخيراً تذهب الرواية إلى أن بطليموس الثانى إنما قد أمر بصنع مائدة من ذهب، رسمت عليها أرض الكنانة والنيل يجرى فى وسطها، ثم رصعت هذه الصورة بالجواهر الثمينة، وقدمت هدية من ملك مصر البطلمى إلى «بيت يهوه» فى أورشليم[2].

غير أن الاتجاهات العلمية الحديثة إنما تذهب إلى أن هذه الروايات إنما هى مجرد أسطورة، ليس لها أساس من الصحة، كما أن بعض المؤرخين إنما يشكّون فى أن الترجمة الإغريقية جاءت ترجمة صادقة للتوراة الأصلية، وذلك لتأثر المترجمين الواضح بالأساليب الإغريقية التى كانت تصاغ وفقًا لها القوانين الهلينستية، هذا فضلا عن أن العلماء الذين عهد إليهم بهذه الترجمة لم يكونوا من «يهوذا» ـ كما حاول أن يؤكد كاتب الرسالة

---

(١) فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٦، تاريخ يوسفيوس، ص ٤٩، (دار صادر ببيروت)؛ محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٥؛ المطران الدبس، تاريخ سورية، ١١٢/٢، (المجلد الثالث)؛ مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ١١٢-١١٣.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ٧٦٨/٢؛ المطران الدبس، المرجع السابق، ص ١١٢، تاريخ يوسفيوس، ص ٤٩ وما بعدها؛ محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٥، وكذا:

Josephus, ANtiquities, XII, 24F.

المنسوبة إلى أرستياس - وإنما كانوا من علماء الإسكندرية اليهود، الذين ألفوا أساليب اللغة الإغريقية وتمرسوا بها تمرساً تاماً[١].

أضف إلى ذلك أن هناك فريقاً من المؤرخين إنما يذهب إلى أن صاحب الرسالة المنسوبة إلى «أرستياس»، إنما كاتب رسالته في القرن الثاني قبل الميلاد، فيما بين عامي ١٤٥، ١٢٧ق.م - وليس في القرن الثالث قبل الميلاد وعلى أيام بطليموس الثاني (٢٨٤-٢٤٦ق.م) بالذات - ومن ثم فإنهم يرون أن كل ما أورده عن ترجمة التوراة هو ضرب من الخيال، وأنه لم يكن معاصراً لبطليموس الثاني، على الرغم من إقناع القارئ بأنه عاش في عصر هذا الملك وشهد اجتماعات البلاط، بل ويزيد على ذلك، أنه كان شخصياً واحداً من أعضاء الوفد الذي بعث به «فيلادلفوس» لإحضار علماء يهود من فلسطين.

هذا فضلا عن أن هؤلاء المؤرخين إنما يذهبون إلى أن يهود الإسكندرية قد سبق لهم من قبل أن تولوا ترجمة التوراة قبل «بطليموس الثاني»، ومن ثم لو افترضنا أن هناك ترجمة للتوراة قد تمت في عصر هذا الملك، فإنها لم تكن الترجمة الأولى، ولا الترجمة الكاملة للتوراة، ذلك لأن ما تم نقله إلى الإغريق فعلا في عهد «فيلادلفوس» إنما كانت الأسفار الخمسة الأولى (شريعة موسى) والمعروفة باسم «البنتاتوك» Pentateuch ثم تعاقبت ترجمة بقية الأسفار بعد ذلك، حتى تمت الترجمة كلها فيما بين عامي ٢٥٠، ١٥٠قبل الميلاد[٢].

---

(١) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١١٥؛ وكذا:

H.I. Bell, Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt, p. 44F; P.E. Kahle, The Cairo Genize, London, 1947, p. 133.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٢٢-١٢٣؛ وكذا:

G.H. Box, Judaism in the Greek Period, Oxford, 1953, p. 178.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى عدة نقاط تتصل بالترجمة السبعينية هذه، منها، (أولا) أنها لم تكن فى مجموعها ترجمة دقيقة، وبخاصة فى أسفار إشعياء والمزامير ودانيال، حيث نجد الترجمة فيها حرة غير دقيقة، أى أنها فى أحايين كثيرة إنما كانت بالمعنى لا بالحرف، ومنها (ثانيًا) أن سفر إرميا إنما ينقص عن النص العبرى نحو السبع، كما ينقص سفر أيوب نحو الربع، ومنها (ثالثًا) ذلك الاضطراب فى ترجمة بعض الألفاظ العبرية إلى اليونانية، كما أن هذه الترجمة لم تتم فى عصر بعينه ـ كما أشرنا من قبل ـ ومن ثم فالآراء متضاربة حول الترجمة السبعينية، ليس فقط حول ترتيبها وتنسيق أسفارها، بل حول اختلافها أحيانًا عن النص العبرى، وترتيب العهد القديم العبرى[1].

ومنها (رابعا) أن الترجمة السبعينية تضم أسفارًا ليست شرعية، ولم ترد فى النص العبرى، ذلك لأن يهود الإسكندرية إنما قد اهتموا بنوع من الكتب عرف باسم «أبو كريفا» Apocrypha، وحرصوا على نقل هذه الكتب إلى اللغة الإغريقية، ومن ثم فإن الترجمة السعبينية إنما تشتمل على أسفار لا تتضمنها العربية ولا الإنجليزية الرسمية، على سبيل المثال، فلقد أضاف يهود الإسكندرية كتاب السفر الثالث من كتاب المكابيين، ولم يكن فى الأصل حتى ضمن كتب «الأبوكريفا» الاثنى عشر، والتى نشرت فيما بعد منفصلة فى إنجيل الملك «جيمس» فى عام ١٦١١م، ومن أسف أنه لم تصل إلينا نسخة واحدة من الأصل القديم الذى ترجم عنه، وأقدم نسخة لدينا ترجع إلى القرن العاشر الميلادى[2].

---

(١) فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٦-٢٧.

(٢) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٢١؛ محمد بيومى مهران، إسرائيل، ص ٤٩-٥٠، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣؛ وكذا:

P.W. Charles, The A Pocrypha and Pseuepigrphas of the Old Testament, 2 Vols., Oxford, 19/3; C.C. Torrey, The A Pocryyphal Literature, New Haven, 1948, p. 1.

ولعل الهدف من إضافة هذه الأسفار هو نقد الأوضاع الظالمة التى يعيش فيها اليهود والتى أشاعت الأمل فى مستقبل أسعد، وقد كان اليهود يألفون هذا النوع من الأدب، عندما كانت بابل وآشور تهددان بالقضاء عليهم قضاء مبرمًا، وما لبثوا أن عادوا إليه فى الشطر الثانى من حكم البطالمة، كرمز للضغط الذى أحسوا به، والكراهية التى أحاطت بهم، عندما أثاروا حقد إغريق الإسكندرية عليهم[١].

(٢) الثورة المكابية (١٦٦-١٦٠ق.م):

نجح الملك السلوقى «أنطيــوخس الرابع» (١٧٥-١٦٤ق.م) فى الاستيلاء على قبرص ومصر فى عام ١٦٨ ق.م، ولكن روما سرعان ما أجبرته على الانسحاب منهما، ونقرأ فى سفر المكابيين الأول[٢]، أن الملك السلوقى بعد أن عاد من مصر قد تحول إلى اليهودية، «فصعد إلى أورشليم بجيش كثيف، ودخل القدس بتجبر، وأخذ مذابح الذهب ومنارة النور مع جميع أدواتها ومائدة التنضيد والمساكب والجامات ومجامر الذهب والحجاب والأكاليل والحلية الذهبية التى كانت على وجه الهيكل وحطمها جميعًا، وأخذ الذهب والفضة والآنية النفيسة، وأخذ ما وجد من الكنوز المكنونة، وأخذ الجميع وانصرف إلى أرضه، وأكثر من القتل وتكلم بتجبر عظيم، فكانت مناحة عظيمة فى إسرائيل فى كل أرضهم، وانتحب الرؤساء والشيوخ وحارت العذارى والفتيان وتغير جمال النساء، وكل عروس اتخذ مرثاة، والجالسة فى الحجلة عقدت مناحة، فارتجت الأرض على سكانها، وجميع آل يعقوب لبسوا الخزى وبعد سنتين من الأيام أرسل الملك رئيس الجزية إلى مدن يهوذا فوفد على أورشليم فى جيش كثيف، وخاطبهم سلام

---

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٧؛ مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ١٢١-١٢٢؛ وكذا: C.C. M. Cown, Hebrew and Egyptian , Apocalyptie Literature, p. 368.

(٢) سفر المكابيين الأول ١: ٢١-٤١.

مكر فوثقوا به، ثم هجم على المدينة فجأة وضربها ضربة عظيمة وأهلك شعبها كثيراً من نسل إسرائيل، وسلب غنائم المدينة وأحرقها بالنار، وهدّم بيوتها وأسوارها من حولها، وسبوا النساء والأولاد واستولوا على المواشي، وبنوا على مدينة داود سوراً عظيماً متيناً وبروجاً حصينة فصارت قلعة لهم، وجعلوا هناك أمة أثيمة منافقين، فتحصنوا فيها ووضعوا فيه السلاح والطعام وجمعوا غنائم أورشليم، ووضعوها هناك، فصاروا لهم شركاً مهلكاً»[١].

وهذا يعني أن الملك السلوقي «أنطيوخس الرابع»، إنما قد وضع حامية مختلطة من اليونانيين والإسرائيليين فصاروا يعتدون على أهل أورشليم، قتلا ونهباً وتدنيساً لمقدساتها، مما جعل أهلها يهربون منها وتغدو قفراً خراباً.

هذا وقد كان «أنطيوخس الرابع أبيفانس» يهدف إلى صهر ممتلكاته في وحدة ثقافية، ومن ثم فقد «كتب الملك أنطيوخس إلى مملكته كلها بأن يكونوا جميعهم شعباً واحداً، ويتركوا كل واحد سنته، فأذعنت الأمم بأسرها لكلام الملك»[٢]، ولعل الرجل إنما كان يتبع في ذلك السياسة التقليدية للأسرة السلوقية التي اعتبرت الهلينية القاسم المشترك الذي سيلتقي عنده جميع رعاياهم، ولكن أنطيوخس ذهب أبعد مما يجب وبلغ منه أن أعلن نفسه «إلهاً» أو «الإله الظاهر» (تيوس أبيفانس)، وقرن نفسه في هذه المناسبة بـ «زفس أوليمبيوس»، وبما أن آلهة السوريين لم تكن غيورة، فقد منحت أتباعها امتياز عبادة الملك[٣].

وقد حاول أنطيوخس الرابع اتباع تلك السياسة مع اليهود، فعمل جاهداً على تحويلهم عن التقاليد الدينية والاجتماعية اليهودية إلى التقاليد اليونانية، وقد وجد تجاوباً لآرائه هذه من الأرستقراطية اليهودية، فضلا عن

(١) سفر المكابيين الأول ١: ٢١-٣٧.

(٢) سفر المكابيين الأول ١: ٤٢-٤٤.

(٣) فيلب حتي، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

الأغنياء والطبقة المتطورة بين اليهود فى أورشليم، والذين تبنوا العادات واللغة اليونانية، ومن ثم فقد أصبح اللباس اليونانى شائعًا بين اليهود، وبدأ «الجمنازيوم» اليونانى فى الظهور بل إنهم حتى لم يعترضوا على تسميتهم «أنطاكيين» أو كما يقول سفر المكابيين الثانى «أن يكتب أهل أورشليم فى رعوية أنطاكية»[١].

وسرعان ما سار أنطيوخس الرابع فى هذا المجال شوطاً آخر، فأصدر أوامره للوالى «أثنيوس، بأن ينصب تمثالا للإله «زفس» فى معبد أورشليم، على أساس أنه مساو لربّ إسرائيل «يهوه»، هذا فضلا عن إقامة مذبح للإله اليونانى فى المعبد اليهودى، وكان ذلك - كما جاء فى سفر دانيال - «وبجعل الرجس المخرب»[٢]، كما أن الملك السلوقى إنما أمر كذلك بأن تقدم للإله اليونانى القرابين، وأن يدعى اليهود إلى المشاركة فى الطقوس اليونانية، وأن يشتد ضد المتمردين على دعوته[٣].

وقد استجاب كثير من اليهود إلى دعوة الملك السلوقى وأخذوا ينصرفون عن شرائعهم وتقاليدهم، ويندمجون فى تقاليد وطقوس اليونانيين[٤]، بما فى ذلك «أونياس الثالث» الحبر الأعظم وأسرته، حتى أن شقيقه «ياسون» إنما ذهب فى تحمسه للحضارة الإغريقية، إلى حد أنه أضحى زعيماً للحزب المتأغرق فى أورشليم، وطمع إلى انتزاع منصب الحبر من أخيه بمساعدة السلوقيين[٥].

---

(١) سفر المكابيين الثانى ٤ : ٩.

(٢) دانيال ١١ : ٣١؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٣) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٤) نفس المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٥) مصطفى عبد العليم، المرجع السابق، ص ٤٢-٤٤؛ وكذا:

W.W. Tarn, Hellenistic Civilisation, p. 214.

ونقرأ في سفر المكابيين الأول أن كثيراً من اليهود إنما «قد ارتضوا دينه وذبحوا للأصنام ودنسوا السبت، وأنفذ الملك كتبًا على أيدى رسل إلى أورشليم ومدن يهوذا، أن يتبعوا سنن الأجانب في الأرض، ويمتنعوا عن المحرقات والذبيحة والسكيب في المقدس، ويدنسوا السبوت والأعياد، وينجسوا المقادس والقديسيين، ويبنوا مذابح وهياكل ومعابد للأصنام، ويذبحوا الخنازير والحيوانات النجسة، ويتركوا بينهم قلفًا، ويقذروا أنفسهم بكل نجاسة ورجس، حتى ينسوا الشريعة وغيروا جميع الأحكام، ومن لم يعمل بكلام الملك يقتل، وكتب بمثل هذا الكلام كله إلى مملكته بأسرها، وأقام رقباء على جميع الشعب، وأمر مدائن يهوذا بأن يذبحوا في كل مدينة، فانضم إليهم كثيرون من الشعب كل من نبذ الشريعة فصنعوا الشر في الأرض، وألجأوا إسرائيل إلى المختبآت في كل موضع فرُّوا إليه»[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «زفس أوليمبيوس» الذى أوجده «أنطيوخس الرابع» إنما كان يحمل اسمًا يونانيًا، فقد كان يحمل شخصيته «بعل الشرقي» كما كان يحمل «زفس» الغربي، وكان يعبد بصفاته نصف السامية في معابد شبه سامية، ويمثل بلباس نصف سامي، ومع ذلك فقد كان المتمسكون بأصول الديانة والقوميون بين اليهود متحدين في معارضتهم الأكيدة[2].

على أن فريقًا من يهود قد تمرد وتمسك بالتقاليد الموسوية، مما أدى إلى أن ينقسم القوم إلى فريقين: الواحد، آثر التمسك بدينه وتقاليده، والآخر، يقبل الحضارة الإغريقية ويتغالى في الأخذ بها[3]، وقد وشى الفريق

(١) سفر المكابيين الأول ١: ٤٥-٥٦.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ وكذا:

M. Rostovizeff, The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford, 1641, p. 704.

(٣) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ وكذا:

W.W. Tarn, Hellenistic Civilization, p. 214.

الثانى بمعارضيهم من الفريق الأول، مما كان سببًا فى أن يتعرض الأخيرون إلى التنكيل الشديد، هذا فضلا عن أن السلوقيين إنما قد تشددوا فى إرغام الناس على تقاليدهم، وترك التقاليد الموسوية، مما أدى إلى انفجار الثورة، التى عرفت «بالثورة المكابية»[١] فى عام ١٦٨ق.م، بزعامة «متيتا بن يوحنا بن سمعان كاهن من بنى يوياريب»[٢]، من أسرة الحسمونية من حسمون أبو جد متيتا من أبناء يهوياريب[٣]، واتخذ بعد ذلك لقب «المكابى»، ومن ثم فقد بدأ دور جديد لبنى إسرائيل، طالت أيامه إلى ما يقرب من القرنين ونصف القرن (١٦٨ق.م ـ ٧٠م)، تمتع بنو إسرائيل خلالها بشىء من الكيان المستقل، والسيادة فى بعض الفترات، وإن كان هذا الاستقلال فى أكثر الأحايين ذاتيا، تحت سيادة السلوقيين ثم الرومان، كما أنه كان يضيق ويتسع طبقًا للظروف التى تمر بها اليهودية[٤].

ويعتز اليهود بهذه الثورة ويعدونها من مفاخرهم العظمى، وقد يكون ذلك حقًا من حيث بواعث الثورة وسيرتها، غير أنها شيبت بمعكرات كثيرة من اليهود أنفسهم، مما هو شنشنة بنى إسرائيل الدائمة أبدًا، فأضعفت نتائجها ومفخرتها، فاليهود لم يندمجوا جميعًا فيها، بل كان كثيرًا منهم

---

(١) من أسف أنه ليس فى أسفار المكابيين التى يدور الكلام فيها حول مقدمات الثورة وسيرتها فى حقبتها الأولى، ولا فى تاريخ يوسفيوس الذى استغرقت أحداثها معظمها، تعليل ما لهذا الاسم (المكابى) ومن ثم فقد اختلفت الآراء حول أصل هذا التعبير ومعناه، فهناك من يرى أنه مشتق من الكلمة العبرية «مقبة» أى «المطرقة» بالإشارة إلى الضربات الساحقة التى أنزلت بالعدو، ومن يرى أنه بمعنى «مضرب» ومن يرى أنه بمعنى «المخبأ» لأن زعماء الثورة إنما قد اختبأوا فى أول الأمر فى المغاور، حتى هيأوا أنفسهم للثورة. (قاموس الكتاب المقدس، ٩١٣/٢؛ المطران ا لدبس، المرجع السابق، ص ٢١٢؛ سفر المكابيين الأول ٢: ٤؛ وكذا:

Josephus, Antiquities, XII, 6, I.

(٢) سفر المكابيين الأول ٢: ١.

(٣) أخبار أيام أول ٢٤: ٧.

(٤) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٧.

يكيدون لها ولرجالها فى مختلف المناسبات والأشكال، وظل كثير منهم على انحرافهم الخلقى والدينى، هذا فضلا عن أن كثيراً منهم إنما كانوا يحالفون السلطات السلوقية ثم الرومانية ويتعاونون معها ضد الثورة، أضف إلى ذلك أن ما كان ينشأ بين رجال الحركة من خلافات إنما كانت بسبب الاضطرابات فى البلاد، التى أدت - إلى حد كبير - إلى قصر مدة سيادة المكابيين التامة، وخضوع يهود فى أكثر فترات هذا الدور الجديد للسيادة الخارجية، كما أدى بالتالى إلى انهيار دولتهم آخر الأمر[١].

وأيًا ما كان الأمر، فهناك تمرد أو ثورة قام بها «متيتا» الكاهن، واتجهت فى بادئ الأمر ضد الطبقة العليا التى تستغل الجماهير، أكثر منها ضد الحكومة المركزية، وقد نظم الثوار عصابات غير نظامية تعمل فى التلال، وتتجنب المعارك النظامية مع القوات الملكية، وكان هناك أتقياء (حاسيديم) بين الذين ثاروا على الملك السلوقى أنطيوخس الرابع، ولم يقبلوا بتدنيس يوم السبت، وذلك بالقيام بأعمال حربية، ومن ثم فقد أبيدوا بسهولة[٢]، مما اضطر الثوار إلى القتال حتى فى «يوم السبت» فهاجموا الجيوش السلوقية بقوة وحماس، حتى تمكنوا من قتل كثير منهم وهزيمة البقية، مما شجع الثوار على الطواف باليهودية وختن الأطفال الغلف وهدم المذابح الوثنية[٣].

وفى عام ١٦٦ق.م، مات «متيتا» فخلفه ولده «يهوذا» فى قيادة الثورة المكابية (١٦٥-١٦٠ق.م)، وانضم إليه إخوته وأنصاره، فتعقب المنافقين وأحرق الذين يفتنون الشعب، واشتهر إلى أقاصى الأرض»، وهنا زحف «أبلونيوس» قائد السلوقيين بجيش كثيف من السامرة، وخرج «يهوذا» للقائه

---

(١) محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٢٩٧.

(٢) سفر المكابيين الأول ١: ٦٢-٦٣، ٢: ٢٨.

(٣) سفر المكابيين الأول ٢: ١-٤٨.

وتمكن من هزيمته، فضلا عن قتله، وكذا أعداد كبيرة من جنوده، والاستيلاء على غنائم كثيرة، كان من بينها «سيف أبلونيوس» نفسه، والذى ظل «يهوذا» يقاتل به بقية عمره[(١)].

وجاء أخبار هزيمة «أبلونيوس» إلى ملك السلوقيين، فجهّز جيشاً آخر ـ على رأسه سارون، القائد العام لجيوش السلوقيين ـ فخاف أتباع يهوذا، وملأ الرعب قلوبهم، ولكن الرجل طمأنهم بأن «الظفر فى الحروب ليس بكثرة الجنود،وإنما القوة من السماء» والتقى الفريقان عند «عقبة بيت حورون» ـ على مبعدة ١٢ ميلا شمال غرب أورشليم ـ فى معركة كتب النصر فيها للمكابيين وباء السلوقيون بالهزيمة، فاشتد غضب أنطيوخس وأرسل حملة أخرى ـ تحت قيادة بطليموس ـ «قوامها أربعون ألف راجل، وسبعة آلاف فارس»، وصام الإسرائيليون وتطهروا والتحموا مع الحملة عند «عمواس» فهى معركة أخرى انتصر المكابيون فيها كذلك، وأرسل الملك السلوقى حملة ثالثة كان نصيبها من النصر نصيب ما سبقها من حملات[(٢)].

وهكذا أصبح الطريق إلى أورشليم أمام اليهود مفتوحاً، فاتجهت قواتهم إليها حتى وصلت إلى جبل صهيون، فى الوقت الذى كانت فيه القوات السلوقية فى قلعة «أكراه» خلف أسوار أورشليم المحصنة[(٣)]، وأخيراً احتلت أورشليم، فطهّر المكابيون الهيكل، وأعيدت الذبائح اليومية، وأقيم «عيد هنوكة» (الكريس) ـ الذى ما يزال يحتفل به سنوياً ـ تخليدا لذكرى دخول المكابيين أورشليم، «وبنوا على جبل صهيون أسواراً عالية وبروجاً حصينة، لئلا تجىء الأمم وتطأه ـ كما فعلت من قبل ـ ، كما أقاموا جيشاً للحراسة، فضلا عن تحصين «بيت صور» حتى يكون للشعب معقلا تلقاء أدوم»[(٤)].

---

(١) سفر المكابيين الأول ٣ : ٥-١٢؛ محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٢) سفر المكابيين الأول ٣ : ١٣-٦٠.

(٣) فيلب حتى ، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٤) سفر المكابيين الأول ٤ : ١-٦١.

ويبدو أن احتلال المكابيين لأورشليم - أو حتى أجزاء منها - إنما أثار الأمم المجاورة، ومن ثم فقد عزموا على أن «يبيدوا من بينهم من نسل يعقوب وطفقوا يقتلون ويهلكون من الشعب»، مما اضطر يهوذا إلى أن يخوض عدة معارك ضد «بني عيسو في أدوم عند أقربتين»، وضد «بني بيبان»، هذا فضلا عن المعركة التي دارت عند «يعزيز» - وهي بيت زرعة الحالية - ضد العمونيين، مما أدى إلى أن تجتمع الشعوب ضد بني إسرائيل في «جلعاد» من الشرق، وفي «الجليل» من الشمال، وأن يضطر «يهوذا المكابي» إلى أن يرسل فرقة من جيشه بقيادة أخيه «سمعان» إلى الجليل، وأن يقود هو فرقة أخرى إلى «جلعاد»، نجحت كل منهما في مهمتها، فقتلت كثيراً من الأعداء، ودمرت كثيراً من المدن، وسلبت كثيراً من الغنائم، وهكذا «عظم الرجل يهوذا وإخوته جداً في عيون كل إسرائيل وجميع الأمم التي سار إليها ذكرهم»[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اليهود إنما بدأوا منذ فترة طويلة قد ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد - ينظرون إلى العرب نظرة عدائية مطلقة[٢]، ربما لأن العرب قد بدأوا يتخذون موقفاً موحداً من اليهود، ثم التوغل في فلسطين، والاتحاد مع جيرانهم في العمل، على منع اليهود من إقامة دولة يهوذا مرة أخرى[٣]، ومن ثم فقد رأينا بعض الأعراب ينضمون إلى «تيموتاس» (١٦٦-١٦١ق.م) أمير عمون (فيلادلفيا - عمان الحالية) في نزاعه ضد اليهود[٤]، وإن ذهب سفر المكابيين الأول إلى أن «تيموتاس» لم يحقق نصراً على اليهود[٥].

---

(١) سفر المكابيين الأول ٥: ١-٦٣.

(٢) Encyclopaedia Biblica, p. 273.

(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦٤٩/١، (بيروت ١٩٦٨).

(٤) J. Hastings, op.cit., p. 937.

(٥) سفر المكابيين الأول ٥: ٦؛ سفر المكابيين الثاني ٨: ٣٠، ٩: ٢.

(٣) الأسرة الحسمونية:

بدأت الحركة المكابية حركة دينية فى أول الأمر، ثم سرعان ما تطورت إلى ثورة قومية تهدف إلى تحرير البلاد، ولم يكن النزاع ضد القوات السورية فقط، بل كان نزاعاً بين المتعصبين والقوميين اليهود، الذين لم يترددوا فى إخلاصهم للنزعة العبرانية من جهة، وبين أنصار الثقافة الجديدة الذين يؤلفون الحزب الهلينستى أو حزب الإصلاح من جهة أخرى، وكان النصر فى كلا النزاعين حليف المكابيين[1].

وعندما قتل «يهوذا» فى معركة «السا» Elasa ـ على مبعدة ١٢ ميلا إلى الشمال من أورشليم ـ فى عام ١٦٠ق.م، انتقلت الزعامة إلى أخيه «يوناثان» (١٦٠-١٤٢ق.م)، الذى استطاع أن يدخل أورشليم فى عام ١٥٢ق.م، ليس فقط كزعيم محارب، ولكن أيضاً ككبير للكهنة، وحاكم فعلى لليهودية، وعندما قتل فى عام ١٤٢ق.م، خلفه أخوه «سمعان» (١٤٢-١٣٥ق.م)، الذى انتخب فى عام ١٤١ق.م، كاهناً أعظم وحاكماً، ثم سرعان ما منح الملك السلوقى «ديمتريوس الثانى نيكاتور» (١٤٦-١٣٨ق.م) اليهود الاستقلال تحت حكم «سمعان» ومن ثم فقد أخذ الحاكم المكابى يضرب النقود، وبدأت أورشليم عصراً جديداً، فأرخت الوثائق من ذلك الحين فصاعداً كما يلى: «فى السنة الأولى من حكم سمعان الكاهن الأعظم والحاكم» وهكذا ولدت ـ كما يقول فيليب حتى ـ جمهورية يهودية دامت حتى مجىء الرومان بعد ثمانين سنة[2].

وكانت فترة حكم ولده «يوحنا هيركانوس الأول» (١٣٥-١٠٤ق.م) الطويلة، ذات أهمية خاصة فى نمو الشعب اليهودى، فقد هاجم «يوحنا

---

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٢) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ١١٤؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٨-٢٦٩؛ سفر المكابيين الأول، ١٣: ٣٤-٤٢؛ وكذا: Josephus Antiquities, XII, 6. 7.

المكابى» السامريين الذين استسلموا لمشروع أنطيوخس وهدم مدينتهم فضلا عن معبدها الذى أقيم على جبل جرزيم[١].

وفى الواقع فإن سياسة التوسع ـ على أيام يوحنا هيركانوس الأول ـ إنما كانت هى السياسة القومية وقت ذاك، حتى أن الرجل قد مدّ حدود دولته فى كل الاتجاهات، ومن ثم فقد ضمّ إليه مناطق عقرون، وأماكن أخرى على الساحل، فضلا عن «يافا» و«جازر»، وأما فى شرق الأردن فقد عمل «يوحنا» على احتلال «ميديبا» Medeba، والمناطق المجاورة[٢]، هذا فضلا عن أن الحاكم المكابى إنما قد أجبر الآدوميين الذين كانوا قد تهودوا فى عام ١٢٦ق.م، على الاختتان، ومن ثم فقد انضم بنو عيسو إلى الإسرائيليين[٣].

وأعقب وفاة «يوحنا هيركانوس الأول» فى عام ١٠٤ق.م، فترة اضطراب وخلافات عائلية بين أولاده، انتهت بأن يخلفه فى دولته ولده الأكبر «يهوذا» أو «أرسطو بولس» (١٠٤-١٠٣ق.م)، الذى استطاع إبان فترة حكمه القصيرة أن يمد حدوده إلى الشمال، فيغزوا بقية منطقة الجليل، وبعض المناطق حول جبل لبنان، وأن يحولها إلى الديانة اليهودية[٤]، كما أنه كان ـ خلافًا لأبيه الذى نقش على نقوده لقب «يوحنا الكاهن الأكبر» ـ قد اتخذ لقب «ملك»، أو على حد تعبير المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» قد «وضع تاجًا على رأسه»، واتخذ لنفسه مع سائر ملوك السلالة المتأخرين أسماء يونانية بجانب العبرية، ثم سرعان ما أصبحت الكلمات اليونانية، على أيام خليفته، تستعمل على النقود بجانب العبرية[٥].

(١) C. Roth, op.cit., p. 78; Josephus, op.cit., XIII, 42-3.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 77-78.

(٣) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود فى بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧، ص ٧٢؛ سفر ١ المكابيين الأول ٤ : ٢٩، ٥ : ٦٥؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 78; Josephus Antiquities, XIII, 9-1.

(٤) C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 78.

(٥) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٩؛ وكذا: Josephus Antiquities, XIII, 11, 1.

وجاء بعد «أرسطوبولس» أخاه «ألكسندر جانى» (١٠٣-٧٦ق.م)، والذى نجح فى مد حدوده على طول الساحل الفلسطينى، على مقربة من الحدود المصرية، فضلا عن الجانب الآخر من الأردن، وقد أصبحت الآن الدولة اليهودية تنافس، بل تزيد فى الاتساع عن تلك التى كانت أيام المجد ـ على أيام داود وسليمان، عليهما السلام ـ فأصبحت فلسطين كلها، فضلا عن المناطق المحيطة من بحيرة «ميروم» Merom، وحتى حدود مصر جنوباً، كما أنها أصبحت من الناحية الشرقية تضم مناطق واسعة فى عبر الأردن، وأما فى الغرب فقد أصبحت تضم كل السهل الساحلى تقريباً ـ ما عدا عسقلان ـ وهى المناطق التى لم يستطع ملوك إسرائيل القدامى السيطرة عليها أبداً[١].

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن هذه الأسرة الحسمونية، إنما كانت ذات أطماع بحرية، بدليل تلك السفن المحفورة على مقابر الأسرة فى «مودين» Modein ـ وهى المدينة الحالية فى مجاورات اللد[٢] ـ غير أن دولة الحسمونيين هذه، إنما كانت غير متجانسة الشعوب، إذ كانت توجد هنا وهناك بعض المدن اليونانية التى تسكنها أقلية يهودية، كما أن السامريين ـ رغم هزيمتهم الكاملة ـ إنما قد استمروا فى مقاومة امتصاص الدولة اليهودية لهم، إلا أن مناطق أخرى قد أصبحت يهودية تماماً، كما أن منطقة الجبل قد أصبحت منذ تلك الفترة واحدة من المراكز اليهودية الرئيسية[٣].

وفى الواقع فإن منطقة الجليل ـ بوصفها الذى نعرفه من الإنجيل ـ إنما كانت من عمل «أرسطو بولس»، وكانت تسكنها لمدة طويلة شعوب غير يهودية، وأصبح الآن يسكنها «الإيتوريون» (يطور فى التوراة) ـ وهم من أصل عربى، ولغتهم آرامية، وقد نجحوا فى تكوين دولتهم فى سورية المجوفة،

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 78-79; M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 388-89.

(٢) المطران الدبس، تاريخ سورية، ٢/٢٢٦ (المجلد الثالث).

(٣) C. Roth, op.cit., p. 79.

خذين من «عنجر» عاصمة لهم[١] - وقد خير سكان الجليل بين الطرد ختان، ففضلت غالبية القوم الختان، ونتيجة لذلك كله، فإن الكثير من سكان الذين عمل المسيح، عليه السلام، بينهم، واتخذ منهم أكثر تلاميذه، ما كانوا من أصل غير يهودى، ويتكلمون العبرية بلكنة أجنبية (غير رية).

وهكذا فقد كان ينظر إليهم على أنهم أدنى من اليهود القدامى مرتبة، غير جديرين بظهور «نبى» من بينهم.

هذا وقد اعتبر التصرف الذى قام به «هيركانوس» وولده أرسطوبولس»، سنة اتبعها آخرون من البيت الحسمونى فى معاملتهم المدن الشعوب التى كتب عليها أن تقع تحت قبضتهم، وأعنى بتلك السنة: لاختيار بين اليهودية والإبادة[٢].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن العرب إنما قد بدأوا منذ عصر الملك النبطى «الحارث الثانى» - والذى حكم فى الفترة ١١٠-٩٦ق.م) على رأى[٣] وفى الفترة (١٣٩-٩٧ق.م) على رأى آخر، فى الفترة (١٢٠-٩٦ق.م) على رأى ثالث[٤] - والمعروف باسم إيروتيموس»، وربما كان هو الذى عناه «يوسف اليهودى»، فى أحداث عام ٩٦ق.م[٥]، وذلك حين لجأ إليه أهالى غزة يطلبون معونته أثناء حصار الكسندرجانى» (إسكندرجانيوس) لمدينتهم، إلا أنه لم يكن عند حسن

---

١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٩-٢٧٠؛ إشعياء ٩ : ١؛ تكوين ٢٥ : ١٥؛ أخبار أيام أول ١ : ٣١؛ سفر المكابيين الأول ٥ : ١٥؛ إنجيل متى ٤ : ١٥.

٢) إنجيل مرقس ١٤ : ٧؛ لوقا ٢٢ : ٥٩؛ أعمال الرسل ٢ : ٧؛ يوحنا ١ : ٤٦، ٧ : ٤١، ٥٢؛ وكذا:
Josephus, Antiquities, XIII, 154, 11, 3.

٣) J. Hastings, ERE, 89, p. 121; EI, III, p. 801.

٤) جواد علي، ٢/٢٥؛ وكذا: F. Altheim and R. Stiehl, op.cit., p. 290.

٥) Encyclopaedia of Islam, III, p. 801; J. Hastings, op.cit., p. 121.

ن به، على رأى[١]، وأنه قدم إليهم ما يطلبون، على رأى آخر[٢] ومن ثم
د بدأت العلاقات بين الأنباط واليهود تأخذ اتجاهاً آخر، بخاصة عندما رأى
نباط أن المكابيين إنما يسعون إلى الاستيلاء على شرق الأردن، ثم التوغل
، أرض الأنباط نفسها، مما كان سبباً فى أن يقف النبط فى وجه السياسة
كابية[٣].

وفى عهد الملك «عبادة الأول» نجح الأنباط فى إلحاق الهزيمة بـ
كسندر جانى» فى معركة دارت رحاها على الشاطئ الشرقى لبحر
جليل، ومهدت الطريق لاحتلال الجنوب الشرقى من سورية (منطقة حوران
بل الدروز اليوم)، أما «ألكسندر المكابى» فقد فرَّ إلى القدس، حيث قوبل
اك بمعارضة شديدة، سرعان ما تحولت إلى عداء صريح، يتمثل فى
تدعاء أحد الحكام السلوقيين وتنصيبه ملكاً، وهكذا وضعت الظروف
كسندر جانى» بين خصمين قويين (ديمتريوس الحاكم السلوقى، وعبادة
لك النبطى)، ومن ثم فقد رأى إلكسندر أنه من الخير أن يكسب ود
نباط حتى يستطيع الحفاظ على عرشه، فتنازل لهم عن «مؤاب»
جلعاد»، وأماكن أخرى كان يخشى من انضمامها إلى أعدائه[٤].

وفى عهد «الحارث الثانى» (٨٥-٦٠ق.م) كانت الأمور قلقة فى
لة يهوذا، ومن ثم فقد كان على الحارث أن يضع حداً لهذا القلق فإن لم
مل، فإن الأحزاب اليهودية ما كانت بقادرة على أن تتركه على الحياد،

---

(١) F. Altheim and R. Stiel, op.cit., p. 290.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤١٩.

(٣) جواد علي، ٢٦/٣؛ وكذا، The Universal Jewish Encyclopaedia, 8, p. 79.

(٤) CAH, 9, p. 409; Josephus, The Jewish War, I, IV, 34; J. Hastings, op.cit., p.121; Encyclopaedia of Islam, III, p. 801.

وانظر: جواد علي، ٢٧/٣؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ٤١٩؛ محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، الرياض، ١٩٧٧، ص ٥٠٨-٥٠٩.

وهكذا ما أن يمضى حين من الدهر، حتى يبدأ الجيش النبطى يهاجم يهوذا، ويشترك معها فى معركة ضارية عند «أديدا» Addida - وهى الحديثة الحالية على مقربة من اللد - ينهزم فيها جيش اليهود شر هزيمة، ويطلب «الكسندر جانى» الصلح على شروط الأنباط، التى تجاهلها المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى»، ولم يقل لنا عنها شيئاً[١].

وجاءت «سالومى ألكسندرا» (٧٦-٦٧ق.م) بعد زوجها «الكسندر جانى» Alexander Jannai - الذى تزوجته بعد أخيه أرسطو بولس - وكان أخوها «سمعان» من قادة حزب الفريسيين، وإن كانت هى تميل - شأنها فى ذلك شأن زوجها - إلى الحزب الآخر، وعلى أى حال، فإن اعتلاء «سالومى الكسندرا» العرش إنما يشير إلى مكانة المرأة الممتازة فى حياة اليهود فى تلك الفترة، إذ أن كلا من ولديها «هيركانوس» و«أرسطوبولس» إنما كان صغيراً، وفى حاجة إلى وصى عليه، يدير شئون الدولة نيابة عنه، وأياً ماكان الأمر، فلقد أصبح أكبر ولديها (هيركانوس) رئيساً للكهنة، بينما تولى الآخر (أرسطوبولس) قيادة الجيش[٢].

وقد اتسم حكم «سالومى» بالهدوء بالنسبة إلى حكم الملوك السابقين، الذين خاضوا كثيراً من المعارك الحربية، وإذا كان ولدها «أرسطوبولس» قد قاد حملة فاشلة على دمشق، فقد نجحت الملكة اليهودية فى إبعاد غزو كان ينوى القيام به «تيجرانس» Tigranas ملك أرمينيا، عن طريق الرشوة والدبلوماسية، هذا فضلا عن أن الملكة العجوز - والتى كانت قد بلغت عامها الثالث والسبعين - إنما قد نجحت إلى حد كبير فى حفظ التوازن

---

(١) جواد علي، ٣/٣١، وكذا:

Josephus, Antiquities, XIII, XV, 2 Vol. II, p. 428; CAH, IX, p. 40; EP, p. 1932; J. Hastings, op.cit., p. 12.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 82-83; M. Noth, op.cit., p. 387-388.

ين عنصرى الدولة المتنافسين ـ الصدوقيين والفريسيين(١).

هذا وقد بدأ «أرسطو بولس» ـ بمساعدة الصدوقيين ـ يطالب بالعرش، ينما كانت أمه «سالومى» على فراش الموت تودع هذه الدنيا، ومن ثم فإنه سرعان ما قام ـ بمجرد وفاة أمه ـ بالهجوم على أخيه «هيركانوس» ـ صاحب الحق الشرعى فى عرش يهوذا ـ وبعد معركة صغيرة تأكد فيها نتصار «أرسطوبولس» أسرع فاتخذ مظاهر السلطة فى يهوذا، وهرب هيركانوس» إلى «أرتياس» (الحارث النبطى)، وأصبح «أرسطوبولس» ملكاً لى يهوذا فى الفترة (٦٧-٦٣ق.م)، أى حتى الفتح الرومانى فى عام ٦٣ ل الميلاد(٢).

وهكذا دعت الظروف السياسية فى يهوذا «الحارث الثالث» ملك لأنباط (٨٧-٦٢ق.م) إلى التدخل فى شئون يهوذا، حينما احتدم النزاع ين ولدى «الكسندر جانى» و«سالومى الكسندرا» (هيركانوس أرسطوبولس) وانقسام يهود إلى فريقين، الصدوقيين ويؤيدون أرسطو بولس، لفريسيين(٣) ويؤيدون «هيركانوس» الذى فرَّ إلى «البتراء» ـ بناء على نصيحة انتباتر ـ القائد الأدومى، والمستشار القوى فى يهوذا ـ لعله يجد لحمى عند «الحارث» النبطى، فضلا عن إعادة التاج اليهودى إليه، وتثبيت

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 83; M. Noth, op.cit., p. 391.

(٢) C. Roth, op.cit., p. 83.

(٣) نمت فى الدولة اليهودية وقت ذاك فرقتان، الواحدة: وتنظر إلى المعبد كرمز للدراسة ومركز للعبادة، والأخرى تبحث عن المعرفة أينما وجدتها، وبالتالى فقد كانت الأولى محافظة، بينما كانت الثانية متحررة فى العقيدة والممارسة، وكانت إحدى الفرقتين تتكون من الكهنة، وتساندها الطبقة الأرستقراطية وملاك الأراضى، بينما تضم الأخرى الطبقتين الدنيا والوسطى، وقد ساندت الأولى الحكم المطلق بما فيه من سلطات رئيس الكهنة الموروثة بينما الأخرى تميل إلى الديمقراطية وبالتدريج فقد أصبح الحزب الأول يعرف باسم «الصدوقيين» والآخر باسم «الفريسيين» انظر: C. Roth, A Short History of the Jewish People, 1969, p. 83.

ملكه، على أن يعيد للحارث - فى مقابل ذلك - المد الاثنى عشر، التى كان أبوه قد أخذها من العرب.

ويقبل «الحارث الثالث» العرض اليهودى، أملا فى أن يوسع أملاكه على حساب يهوذا، إن لم يقدر له أن يوجه إليها الضربة القاضية، وهكذا يوجه الحارث جيشًا - قوامه خمسون ألف رجل - لمهاجمة «أرسطوبولس» الذى سرعان ما يفر إلى القدس بعد هزيمة منكرة، فيتابعه الحارث إلى المدنة المقدسة، ويكاد يستولى عليها، لولا قيام الرومان بالهجوم على دمشق فى عام ٦٤ق.م، ثم إرسال حملة عسكرية إلى القدس نفسها للتدخل فى النزاع القائم وقت ذاك، ولمنع الأنباط من الاستيلاء عليها[١].

وهكذا يضطر الحارث إلى فك الحصار عن القدس، غير أن «أرسطو بولس» - الذى نجح فى أن يضم إليه قائد الحملة الرومانية - سرعان ما يتعقب الأنباط، وهم فى الطريق إلى «ربة عمون»، (فيلادلفيا = عمان الحالية)، وهناك عند «بابيرون» Papyron، تدور معركة ضارية بين الفريقين، انتصر فيها «أرسطوبولس»، وقتل ستة آلاف من أتباع الحارث النبطى[٢].

(٤) ظهور روما ونهاية الأسرة الحسمونية:

كانت روما فى السنوات الأخيرة تنتقل من نصر إلى نصر، وكان تأثيرها ملموسًا فى غربى آسيا منذ فترة، فمنذ قرن مضى كان «يهوذا المكابى» يحس بالرغبة فى إرسال مبعوث من قبله إلى إيطاليا لعقد معاهدة سلام وصداقة، ثم حذا حذوه أخواه - يوناثان وسمعان - هذا فضلا عن أن النفوذ الرومانى هو الذى أنقذ «يوحنا هيركانوس الأول» فى عام ١٢٦ق.م،

(١) تاريخ يوسفيوس، ص ١١٠-١١٥، (دار صادر، بيروت)؛ وكذا:

Josephus, The Jewish War, p. 32; C. Roth, op.cit., p. 83-84.

(٢) جواد على ٣٣/٣. وكذا:

CAH, IX, p. 382; F. Altheim and R. Stiehl, op.cit., p. 302.

وأن الضغط الرومانى كان من وراء انسحاب «تيجرانس» ملك أرمينيا فى عام ٧٠ قبل الميلاد[١].

وعندما وصل «بومبى» - القائد الرومانى - إلى دمشق فى عام ٦٤ق.م، أرسل المتنافسان على عرش يهوذا (هيركانوس وأرسطوبولس) رسلا إلى القائد الرومانى يطلب كل منهما أن تكون روما العظيمة إلى جانبه، بل إن بعضًا من الفريسيين - الذين كانوا يعتبرون هذا النزاع بنى الأخوين اليهوديين من الشئون العائلية للأسرة المالكة - إنما قد طلبوا من الرومان أن يجعلوا السلطة السياسية فى فلسطين تحت أيديهم.

ومكث «بومبى» طويلا حتى اتخذ قراره، لدرجة أن «أرسطوبولس» قد ظنَّ أن القرار سوف يكون فى غير مصلحته، ومن ثم فقد هرب إلى أورشليم، وعندما وجد نفسه مطاردًا، أدرك أن المقاومة لا تجدى، فاتخذ طريقه نحو معسكر الرومان، عارضًا عليهم تسليم المدينة المقدسة لهم، غير أن أتباعه داخل أورشليم رفضوا تنفيذ أوامره، واعتصموا بجبل المعبد، لمدة ثلاثة أشهر، وفى يوم سبت من عام ٦٣ق.م، دمرت حصونهم، وقتل رجالهم، ودخل «بومبى» المدينة المقدسة، وأصبحت ولاية يهوذا ولاية رومانية[٢].

وبدأ «بومبى» Pompey تنظيماته الجديدة، فأدخل سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد، هو «ولاية سورية» Provincia Syria، وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية، وأصبحت عاصمتها «أنطاكية»[٣]، بينما جعلت «قليقيا» ولاية قائمة بذاتها، وأبقيت اليهودية دولة خاضعة

---

(١) C. Roth, op.cit., p. 84.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 402-403; C. Roth, op.cit., p. 84; W. Keller, op.cit., p. 323.

(٣) تقع أنطاكية على نهر العاصى، وعلى مبعدة ١٥ ميلا من ساحل البحر الأبيض، وقد أسسها «سلوقس نيكاتور» أحد قواد الإسكندر الأكبر فى عام ٣٠٠ق.م، ودعاها أنطاكية نسبة إلى أبيه «أنطيوخس» وقد صارت عاصمة السلوقيين (قاموس الكتاب المقدس، ١/١٢٤-١٢٥).

ضمن إطار ولاية سورية، ولكن المدن ذات الدساتير اليونانية، والتي ضمها الرومان إلى ممتلكاتهم، قد أعيدت إلى وضعها السابق، ومنحت حرية داخلية في ظل حكام الولايات، وشكلت عشر من هذه المدن اتحاداً عرف باسم «الديكابوليس» (١) وقد انضمت إليها مدن أخرى فيما بعد(٢).

وفي عام ٥٧ق.م، عين «أولوس جابينيوس» حاكمًا على سورية (٥٧-٥٥ق.م)، فأعاد تنظيم الأمور في اليهودية، ومن ثم فقد جرد الكاهن الأعظم «يوحنا هيركانوس الثاني» ـ حفيد أرسطو بولس ـ من رتبته الملكية، على أن يحكم البلاد كتابع لروما، كما كان يفعل أسلافه الكهان أيام السيادة الفارسية على اليهودية، كما قام «جابينيوس» بفرض ضرائب ثقيلة على السكان، وتقسيم الدولة إلى خمسة أقسام صغيرة، يحكم كلا منها مجلس (سنهدرين Sanhedrin) وذلك عقب ثورة فاشلة قام بها «الكسندر بن أرسطو بوليس»، هذا فضلا عن أن «جابينيوس» إنما قام بإعادة بناء عدد من المدن اليونانية السورية، التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة، وبيسان ودور وغزة، ومنذ ذلك الحين ـ وطوال عصر مجد الإمبراطورية الرومانية ـ بقيت فلسطين ولاية رومانية(٣).

---

(١) اتحاد الديكابوليس: أو «حلف المدن العشرة» والتي تبدأ حيث يتصل «مرج ابن عامر» بوادي الأردن، ثم تمتد نحو الشرق، وكانت هذه المدن التي كانت تسيطر على تلك المنطقة هي «بيت شان» (بيسان = سكيثوبوليس) وبيلاوديون (تل الأشعري) وجرش وفيلادلفيا (ربة عمون = عمان الحالية) وجدرة ورافانا (الرافا في حوران) وكنانا (القنوات) وهيبوس (قلعة الحصن جنوب شرق بحيرة طبرية) ودمشق، وقد أضيفت إليها ثماني مدن بعد ذلك فأصبح العدد ثماني عشرة مدينة. (فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٠٩، ٣٥٠-٣٥١؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١١٤؛ وكذا: Pliny, V. 16.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٠٩؛ وكذا:

Josephus, Antiquities, XIV, 4, 4; M. Noth, op.cit., p. 404-405.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٩-٢١٠؛ وكذا:

Josephus, Antiquities, XIV, 5, 3; C. Roth, op.cit., p. 84-85; Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 405-406.

الفصل الثانى

نهاية اليهود فى فلسطين عام ١٣٥م

(١) أسرة هيرودوس الآدومية

مرت الإمبراطورية الرومانية بعد مصرع «يوليوس قيصر» فى منتصف مارس من عام ٤٤ق.م، بفترة عصيبة من الحرب الأهلية، انتهت بانتصار «أوكتافيان» (أوغسطس فيما بعد)، و«مارك أنطونيو»، فى عام ٤٢ق.م ثم اقتسم القائدان المنتصران الإمبراطورية فيما بينهما، فآلت الولايات الغربية لأوكتافيان، والولايات الشرقية ـ بما فيها سورية ـ لمارك أنطونيو[١].

ولعل من أهم ما قام به «مارك أنطونيو» فى موضوعنا، أنه عمل على القضاء على سلطة المكابيين، وإقامة سلطة أخرى من الآدوميين» على رأسها «هيركانوس» إلا أن زمام الأمور، إنما كان بيد «أنتيباتر» الأدومى الأصل وما أن جاء عام ٣٧ق.م، حتى أصبح «هيرودوس» الابن الثانى لـ «أنتيباتر» ملكاً على أورشليم، بعد أن اتخذ له زوجة ثانية، هى حفيدة هيركانوس الثانى، بغية أن يربط عائلته بالعائلة الحسمونية، التى خلفها فى حكم اليهودية، واستمر هيرودوس (الذى عرف فيما بعد بالكبير) يحكم أورشليم لمدة ثلاث وثلاثين سنة (٣٧-٤ق.م)، كان طوال تلك الفترة أداة طيعة فى أيدى الرومان الذين نصبوه ملكاً على اليهودية[٢].

كان «مارك أنطونيو» قد أعلن فى عام ٣٥ق.م طلاقه من زوجته «أوكتافيا» أخت «أكتافيان» كما أعلن شرعية علاقته بملكة مصر

---

(١) مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١١-٣١٢؛ جواد علي، ٣/٣٥-٣٦؛ قاموس الكتاب المقدس، ٩١٣/٢؛ وكذا:

Josephus, Antiquities, XIV, 6, 4; The Jewish War, I, XIII, 8.

«كليوباترا» (كليوبترا السابعة ٥١-٣٠ق.م)، ثم سرعان ما حضر إلى مصر، وأعلن تقسيم الإمبراطورية الشرقية بين أبنائها جميعًا، بينما جعل من «كليوبترا» نفسها ملكة على الولايات الشرقية كلها ـ بما فيها بلاد الأنباط ـ وهذا ما لم يجرؤ أحد من البطالمة من قبل على التفكير فيه إبان أعظم أيامهم[١].

وهكذا أصبحت «كليوبترا» صاحبة الحق في جزية الإمبراطورية الشرقية، غير أن النبط إنما قد امتنعوا عن دفع الجزية لملكة مصر، ومن ثم فقد طلبت «كليوبترا» من «مارك أنطونيو» الإسراع في تأديب الأنباط.

وكانت سياسة «كليوبترا» تهدف إلى السيطرة على بلاد العرب الشمالية، فضلا عما منحه إياها «أنطونيو» في سورية وفينيقيا، ومن ثم فقد أرادت لتتخلص من ملكي العرب واليهود سواء بسواء، وهكذا شجعت «هيرودوس» ملك اليهودية على محاربة الأنباط، ويبدو أن هيرودوس كان ينتظر هذه الفرصة، ومن ثم فقد أسرع بشن هجوم على الأنباط عند «اللد»، وما أن يتم له النصر هنا حتى يسرع بالهجوم عليهم مرة أخرى عند «قنا» في البقاع»، ويكاد ينتصر عليهم، إلا أن موازين النصر سرعان ما تتغير إلى جانب النبط، وهكذا قتلوا عددًا كبيرًا من جيشه، وأسروا آخرين، وفرّ هيرودوس إلى القدس[٢].

وهنا بدأ «هيرودوس» يعد العدة لجوة أخرى، بخاصة وأن النبط قد بدأوا يهاجمون مدنه، مما أدى إلى قيام سلسلة من المعارك تبادل فيها الجانبان النصر والهزيمة، فضلا عن الخسائر في الرجال والمعدات، ويزعم المؤرخ

---

(١) مصطفى العبادي، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٢) تاريخ يوسيفيوس، ص ١٦٨؛ فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٣١١-٣١٢؛ جواد علي، ٢٥/٣-٢٦؛ محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٥١٤-٥١٥، (الرياض ١٩٧٧)؛ وكذا:

F. Altheim and R. Stiehl, op.cit., p. 306-307; Josephus, The Jewish War, I, XVIII, 4, 1, 4.

اليهودي «يوسف بن متى» أن النصر كان فى النهاية إلى جانب اليهود، وذلك حين جمع «هيرودوس» قواته وأعاد تنظيمها، وعبر الأردن، والتحم مع الأنباط فى معركة ضارية عند «عمان» فأنزل بهم خسائر فادحة، فاقت خمسة آلاف قتيل، وأربعة آلاف أسير، فضلا عن سبعة آلاف آخرين لقوا حتفهم بأيدى اليهود، حينما حاولوا الفرار من الحصار، وكان نتيجة ذلك كله أن اضطر الأنباط إلى دفع جزية لهيرودوس، وإذا كان ما زعمه المؤرخ اليهودى صحيحًا، أو حتى قريبًا من الصواب، فليس هناك من ريب فى أن قوة هيرودوس لم تكن وراء هذه الانتصارات، وإنما كان السبب فيها قوة الرومان الطاغية، وجنود الأنباط غير المدربين[١].

وأيًا ما كان الأمر، فلقد شجع «هيرودوس» المصالح الرومانية على حساب المصالح اليهودية القومية، وقد نجح حيث أخفق «أنطيوخس الرابع أبيفانس» فى جعل اليهودية بالقوة شبه مملكة هلينستية. وبدأ مشروع بناء أبنية عامة بدل به وجه البلاد تبديلا تامًا، فقد بنى ـ مثلا ـ فى أورشليم ميدانًا لسباق الخيل ومسرحًا ومدرجًا، وأقام ألعابًا عامة، وكانت كلها لا تتفق مع الديانة اليهودية[٢]، كما بنى قصرًا فى الركن الشمالى للمدينة العليا (على الجبل الجنوبى الغربى) بالقرب من بوابة «يافا» الحالية، وأقام فى الطرف الشمالى للقصر الملكى ثلاثة أبراج كبيرة، وهى المعروفة «ببرج فاسيل» (أخيه)، و«برج هيبكوس» (صديقه)، و«برج ماريامن» (زوجته)، لم يبق منها الآن، سوى «برج فاسيل» والمعروف بـ «برج داود» هذا فضلا عن برج رابع سمّاه «بسيفينوس»، كان متصلا على أيام الملك «أغريبا» (٤١-٤٤م) بسور المدينة الجديد الذى بناه والذى عرف بالسور الثالث[٣].

(١) F. Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 360; Josephus, The Jewish War, I, p. 383; وكذا: جواد علي، ٣٧/٣.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٢.

(٣) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ١٢١.

ولعل من أهم مباني هيرودوس في أورشليم إنما كان الهيكل أو المعبد، وقد بدأ بناءه عام ٢٠ق.م - وهي السنة الثامنة عشرة من حكمه - وإن لم ينته البناء إلا في عهد «أغريبا الثاني»، وبالتحديد في عام ٦٤م، وقد وسعت مساحته، إلى ضعف ما كانت عليه من قبل، هذا وقد بني المعبد من كتل حجرية كبيرة، وغطيت واجهته بالذهب، كما بني السور من كتل حجرية كبيرة مستطيلة، بلغت ١٩ مدماكاً، وكان ارتفاعه فوق سطح الأرض ثمانية عشر متراً وأما «قدس الأقداس» (منزل الربّ) فقد غطيت واجهته بالذهب، وقسم إلى ثلاثة أقسام «مائدة للبخور، وأخرى لخبز التقدمة، فضلا عن الشمعدان الكبير ذي الأفرع السبعة[1].

هذا وقد أحيط الهيكل بدور عدة، لعل أهمها: دار الأمم، والدار الخارجية، ودار النساء، ودار إسرائيل، ودار الكهنة، وقد بني دار السياج بين دار الأمم ودار النساء، وكان فيه ثلاثة عشر باباً، منع منها غير اليهود، وكانت المزامير ترنم في دار إسرائيل، وأما دار الكهنة فقد كان أصحابها يغنون فيها، ويباركون الشعب، أما «السنهدريم» فكان يجتمع في مكان سمي بالبلاط، وهو غرفة، متصلة بالدار، التي فيها المذبح، الذي كان مبنيًا من حجارة مبيضة بالكلس، وفيه ثقوب ليسيل منها دم الذبائح، ثم غطي وجهه (أي المذبح) بالذهب[2].

هذا وقد بنى «هيرودوس» كذلك مدينة «قيصرية» - التي قدر لها أن تكون عاصمة فلسطين الرومانية - على ساحل البحر الأبيض المتوسط، - وعلى مبعدة ٤٤ ميلا جنوبي عكا، ٤٧ ميلا إلى الشمال الغربي من أورشليم - ، وذلك في عام ١٠ق.م، وسماها كذلك (أي قيصرية) تكريماً لـ «أوغسطس قيصر» (٢٧ق.م-١٤م)، هذا وقد كانت مدينة «السامرة» مقره المحبب فزينها بالأبنية، وأعاد تسميتها باسم «سباسطية» Sebaste أي

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ١٠١٤/٢-١١٠٥.

«مدينة أغسطس» تكريمًا لأوغسطس قيصر كذلك، حيث أن كلمة «سيباستوس» Sebastos اليونانية تعنى «أوغسطس» Augustus فى اللاتينية[١].

هذا وقد تزوج «هيرودوس» من عشر نساء، كان له منهن أبناء كثيرون اشتد التنافس فيما بينهم على وراثة العرش، وأصبح القصر مسرح عشرات من المؤامرات والفتن، التى اشتركت فيها زوجات الملك وأقربائهن، هذا إلى جانب المؤامرات التى حاكها «هيرودوس» نفسه ضد أعدائه من يهود البلاد، وضد خصومه من حكام الرومان، فقد كان الرجل قاسى القلب، عديم الشفقة، يسعى وراء مصالحه ولا يتراجع عنها مهما كانت الخسائر، ومهما كانت صلته بالضحايا، حتى أنه قتل عدداً من زوجاته وأقربائه خوفًا من مؤامراتهم، أو معارضتهم لحكمه المطلق وحتى أن قسوته بلغت حداً وصل به إلى أنه لم يشأ أن يودع هذه الدنيا ـ وهو فى السبعين من عمره ـ إلا بعد أن أمر بقتل وجهاء أورشليم ساعة موته، حتى يعم الحزن المدينة، ولا يجد السكان فراغًا للابتهاج بموت مليكهم المكروه[٢].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن عهد «هيرودوس» هذا، إنما تميز بمولد رسول السلام ـ سيدنا عيسى عليه السلام[٣] ـ فى مدينة «بيت لحم» اليهودية، وطبقًا لرواية الإنجيل، فإن هيرودوس إنما قد أسرع بقتل جميع الأطفال فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون، وهنا رأى «يوسف النجار» ـ فيما يرى النائم ـ من يأمره بأن يأخذ الصبىّ وأمه (المسيح والعذراء)، وأن يلجأ بهما إلى أرض الكنانة، حيث بقوا هناك

---

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٢؛ قاموس الكتاب المقدس، ٧٥٥/٢؛ ١٠٠٩؛ وكذا:
M. F. Unger, op.cit., p. 470-71' Josephus, Antiquities, XV, 9, 6; Pliny, V. 14; Strabo, XVI, 2, 27.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ١٠٠٩/٢.

(٣) انظر عن الآراء التى دارت حول مولد المسيح: كتابنا هذا، ص ٣٠٩.

إلى وفاة هيرودوس (٤ق.م)[١]، الذى مرض بعد ذلك مرضًا خطيرًا، وسافر إلى شرق الأردن للاستشفاء بحماماتها، ثم عاد إلى «أريحا» أسوأ مما كان عليه من قبل، حيث مات هناك، وهنا عادت أسرة المسيح ـ عليه السلام ـ إلى اليهودية ولكنها لم تقم فى «بيت لحم»، وإنما أقامت فى «الناصرة» بأرض الجليل، خوفًا على السيد المسيح عليه السلام، من خليفة هيرودوس وولده «أرخيلاس» (٤ق.م-٦م)[٢].

وحكم «أرخيلاس» بعد أبيه وبوصية منه، غير أن أخاه «هيرودوس أنتيباس» وهو الابن الثانى لهيرودوس الكبير من زوجته الرابعة السامرية «ملثاكى»، ومن ثم فهو نصف أدومى، نصف سامرى[٣] ـ قد نافس «أرخيلاس» على عرش اليهودية، فأخذ جزءًا كبيرًا من المملكة، وإن لم يعط غير لقب «حاكم» فقط[٤].

وهكذا أصبح «هيرودوس أنتيباس» حاكمًا لمنطقة الجليل، وهو الذى بنى مدينة «طبرية» وسماها على اسم «طيبريوس قيصر» (تيبيروس ١٤-٣٧م) وفى الواقع فإن هيرودوس إنما كان ذا وجهين ـ شأنه فى ذلك شأن أبيه وغيره من أفراد سلالته ـ فهو يهودى فى اليهودية، وهلنستى خارجها، وحين خلع «أرخيلاس» فى عام ٦م، وضعت اليهودية تحت الحكم المباشر للحكام أو النواب الرومان الذين كان خامسهم «بيلاطس النبطى»[٥].

(١) هناك من يذهب إلى أن المسيح إما أنه ولد فى أخريات عام ٥ قبل الميلاد، أو أوائل عام ٤ قبل الميلاد، أما الاحتفال بمولد المسيح فى ٥ ديسمبر، فقد بدأ فى القرن الرابع الميلادى، ومن ثم فربما كان ميلاده فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من عام ٥ق.م، وهذا يجعله سابقًا للتاريخ الذى وضعه «ديونسيوس» (أى ٢٥ ديسمبر عام ١م) بخمس سنوات. (قاموس الكتاب المقدس، ٨٦٤/٢).

(٢) إنجيل متى ٢: ١-٢٣؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 471; C. Roth, op.cit., p. 109.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ١٠١١/٢.

(٤) M.F. Unger, op.cit., p. 472; Josephus, Antiquities, XVII, 11, 4.

(٥) إنجيل لوقا ٣: ١؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٣؛ وكذا:

F. Josephus, Antiquities of the Jews, XVIII, 2, 3.

ويبدو أن علاقة «هيرودوس» (٤ق.م - ٣٩م) بالأنباط إنما كانت - بادئ ذى بدء - طيبة، ومن ثم فقد تزوج هيرودوس من ابنة الملك النبطى «الحارث الرابع» (٩ق.م - ٤٠م) إلا أن «هيرودوس» إنما قد تجرأ بعد حين من الدهر، فطلّق ابنة الحارث الرابع، ليتزوج من أم راقصة كان السبب فى مقتل «يوحنا المعمدان».

ونقرأ فى الإنجيل أن هيرودوس أراد أن يتزوج من «هيروديا» امرأة أخيه «فيلبس»، إلا أن «يوحنا المعمدان» قد أفتى بغير ذلك، ومن ثم فقد قرر هيرودوس التخلص منه، غير أنه خشى غضب القوم، لأنه كان عندهم مثل نبىّ»[1]، ومن ثم فقد اكتفى بإلقائه فى غياهب السجون، وتنتهز «هيروديا» فرصة الاحتفال بعيد ميلاد هيرودوس فتتفق مع ابنتها «سالومى» على أن ترقص شبه عارية لعمها الملك، وحين تنتهى من رقصتها، ويفتن الملك بها، تطلب منه أن يعطيها رأس يوحنا فى طبق، وتفعل سالومى ما أرادت أمها، وهنا يضطر هيرودوس إلى تنفيذ رغبة ابنة أخيه، بناء على وعد منه أن يعطيها ما تريد، أيّاً كان الذى تريد، حتى وإن كان نصف مملكته، وهكذا يأمر الملك بقتل يحيى فوراً وبسرعة مذبوحاً بالسيف، وأن يؤتى برأسه على طبق، ليكون هذا ختام الاحتفال ونهاية الاجتماع، وقدمت الرأس إلى «سالومى» وهذه قدمتها إلى أمها «هيروديا»[2].

(١) ليس هناك من شك فى أن «يوحنا المعمدان» نبىٌّ من أنبياء الله الكرام، وهو سيدنا يحيى عليه السلام، وقد جاءت نبوته صريحة فى القرآن الكريم (سورة آل عمران، آية : ٧٩)، وأما عصره فقد كان على أيام المسيح عليه السلام وربما على أيام القيصر «أوغسطس» (٢٧ق.م-١٤م) و«تيبريوس» (١٤-٣٧م)، وقد كان يحيى يعمد القوم، أى يغسلهم فى نهر الأردن للتوبة من الخطايا (متى ٣: ٥-٦) وقد عمد المسيح نفسه (متى ٧: ١٢-١٦).

(٢) إنجيل متى ١٤: ٣-١١؛ إنجيل مرقس، ٦: ١٦-٢٨؛ تاريخ يوسيفيوس، ص ٢١٤؛ قاموس الكتاب المقدس، ١٠١١/٢؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٤٢٠-٤٢٢؛ عبد الرازق نوفل، يوحنا المعمدان، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦١-١٨٦؛ وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 472 ثم قارن: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ٣٠١/١-٣٠٢؛ تاريخ الطبرى، ٥٨٥/١-٥٩٣؛ تاريخ ابن خلدون، ١٤٤/٢.

والأمر بهذه الصورة يحتاج إلى وقفة، (فأولا) ليس هناك من شك في أن «يوحنا المعمدان» (سيدنا يحيى عليه السلام) نبيٌّ من أنبياء الله المصطفين الأخيار، (وثانيًا) لماذا يمنع يوحنا هذا الزواج؟، ومبلغ علمي أن اليهودية ـ دين هيرودوس وهيروديا ـ لا تمنع ذلك، بل تفرضه على المؤمنين بها، بل إنها إنما تفرض كذلك أن ينسب الأبناء من هذا الزواج إلى الأخ المتوفى[1]، فإذا كان ذلك صحيحًا، فإن التفسير الآنف الذكر للحدث الخطير، إنما هو تفسير مسيحي، وما كان هيرودوس مسيحيًا، وإنما كان ملكًا يهوديًا آدوميًا على دولة يهودية، فالتاريخ حتى تلك اللحظة لا يتعامل مع ملوك ـ أو حتى شعوب مسيحية ـ كما أن يوحنا المعمدان لم يكن نصرانيًا، حتى يفتي بشريعة النصارى، إلا أن يكون السبب هو الوسيلة التي تزوج بها «هيرودوس» من «هيروديا»، إذ أن هناك رواية تذهب إلى أن هيرودوس إنما ألقى بأخيه في غياهب السجون، ثم قتله قبل أن يتزوج من امرأته.

وأيًا ما كان الأمر، فإن الحرب سرعان ما تدق طبولها بين اليهود والأنباط ولكن ليس بسبب النبيّ الكريم، وإنما بسبب طلاق ابنة الحارث من زوجها هيرودوس، فضلا عن الاختلاف على بعض مناطق الحدود، وهكذا نشبت المعارك بينهما، وانتهت بانتصار الحارث النبطي في «جلعاد»، ومن ثم فقد استنجد هيرودوس بالإمبراطور الروماني «تيبريوس» (١٤-٣٧م)، الذي أمر عامله في سورية بالقضاء على الأنباط، ولكن بينما كانت القوات

=

غير أن المراجع العربية (ابن الأثير ـ الطبري) للأسف، مضطربة في تأريخها لهذه الفترة، حتى أنها تذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى ـ قد سلط على اليهود «بختنصر» (نبوخذ نصر ٦٠٥-٥٦٢ق.م) جزاء وفاقًا لما ارتكبوه في حق النبيّ الكريم سيدنا يحيى عليه السلام، وأنه قتل منهم سبعين ألف رجل وامرأة مع العلم بأن العاهل البابلي إنما كان يعيش في أخريات القرن السابع، وحتى عام ٦٢ من القرن السادس قبل الميلاد، وأن سيدنا يحيى عليه السلام كان يعيش بعد ذلك بحوالي ستة قرون، حيث عاصر المسيح، عليهما السلام.

(١) التوراة، سفر التكوين ٣٨: ١١.

الرومانية تتحرك نحو «البتراء» تأتى الأخبار بوفاة القيصر، فتتوقف الحرب، وينجو الحارث الرابع، بل وتسوء حالة «هيرودوس»، فيضطر الرومان إلى تنحيته عن العرش فى عام ٣٩م، ونفيه إلى أسبانيا، على أيام الإمبراطور «كاليجولا» (٣٧-٤١م)(١).

(٢) ثورة أعوام ٦٦-٧٠م وتدمير أورشليم:

فى الواقع إن الجزء الأكبر من فلسطين، إنما أصبح بعد موت «هيرودوس الكبير» فى عام ٤ق.م، يحكم حكماً رومانياً مباشراً، فيما عدا الفترة (٤١-٤٤م) حينما عينت روما «أغريبا الأول» ملكاً، وهو حفيد هيرودوس الكبير من زوجته الحمونية «ماريا من» Mariamne، ليحكم جزءاً كبيراً من أراضى هيرودوس، وكانت مدة حكمه قصيرة، لم تتجاوز أربع سنوات(٢)، على أيام الإمبراطور «كاليجولا» (٣٧-٤١م) والإمبراطور «كلوديوس» (٤١-٥٤م) كان فيها محبوباً من اليهود، بسبب أمه الحسمونية، وإن كانت صورته فى الإنجيل قاتمة، بسبب موقفه السيء من المسيحيين(٣)، وبسبب ادعائه الألوهية(٤).

هذا وهناك ما يشير إلى أن «أغريبا» (أجريبا)، إنما قد ردم ما بين جبلى «موريا» و«بيزيتا»، ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير، بحيث أصبح حياً من أحياء المدينة المقدسة كان يسمى «المدينة الجديدة»

وجاء بعد «أغريبا الأول» ولده «أغريبا الثانى»، وكان عند موت أبيه صغيراً، فرفض الإمبراطور الرومانى «كلوديوس» تعينه فى مركز أبيه، ووضع اليهودية تحت وصايته، وبقى أغريبا يقيم فى روما إلى أن نال أخيراً لقب

(١) تاريخ يوسفيوس، ص ٢١٣؛ قاموس الكتاب المقدس، ١٠١١/٢؛ جواد على ٤٣/٣-٤٤؛ وكذا: Josphus, Antiquites, XVIII, VI,

(٢) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ١٤١.

(٣) أعمال الرسل، ١٢: ١٩.

(٤) أعمال الرسل ١٢: ٢٠-٢٣؛ قاموس الكتاب المقدس، ١٠١١/٢.

«ملك»، وضمت إليه بعض مناطق لبنان الداخلية، واستمر ملكه فى الاتساع إلى أن حكم الإمبراطور «نيرون» (٥٤-٦٨م)، فأضاف إليه مناطق كثيرة فى فلسطين والأردن، واستمر بملك حتى سقوط القدس فى عام ٧٠م، فانتقل إلى روما، وهنا عاش مع أخته «برنيكى» التى كان يعاشرها كزوجة إلى أن مات فى عام ١٠٠م[١].

وفى الواقع فإننا إذا أردنا الحديث عن ثورة (٦٦-٧٠م)، فعلينا أن نتذكر أن الجماعات اليهودية كانت أقل الجماعات السورية المتعددة استجابة لتأثيرات الحضارة الرومانية، وكانت الأرستقراطية قد أصبحت مصطبغة بالصبغة الهلينية وحصل الصدوقيون الذين كانوا يمثلون الحزب الأرستقراطى ويحتكرون الوظائف على تأييد روما، أما الفريسيون الذين كانوا يمثلون العامة من القوم، فقد تمكنوا بتقاليد دينهم، وهدفوا إلى تحرير اليهودية، ويتصل الفريسيون من حيث مثاليتهم بالحسيديم Hasidim.

وقد عومل اليهود منذ عهد «بومبى» كجماعة متميزة بسبب الوحدانية فى دينهم، فكانوا فى عهد الأباطرة يعفون من الخدمة فى الجيش، ومن الطقوس الواجبة نحو الإمبراطور، فلم يطلب منهم المساهمة فى عبادة الحاكم الرومانى المقرونة بتقديم القرابين له، وكانوا بممارستهم سياسة الانطواء والعزلة يغذون شعورهم القومى، وأدى هذا إلى اصطدامات اتسعت، فأصبحت ثورة قومية فيما بين عامى ٦٦، ٧٠م[٢].

وكانت بداية النزاع اليهودى الرومانى فى عام ٦٤ق.م، عندما جاء «جسيوس فلورس» كحاكم رومانى لليهودية، وقد تميز عهده بالمذابح، مما زاد من اشتعال نيران الغضب فى قلوب يهود، وفى عام ٦٨/٦٧م عهد الإمبراطور «نيرون» بمهمة قمع الثورة إلى قائده «فسباسيان» الذى أخضع

(١) قاموس الكتاب المقدس، ١٠١٢/٢.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٧٥.

منطقة الريف والحصون المنعزلة دون مقاومة كبيرة [١]، كما تمكن كذلك من عزل أورشليم عن فلسطين، غير أن القائد الرومانى بينما كان يتجه إلى أورشليم لضرب الحصار من حولها تأتى الأخبار من روما بوفاة الإمبراطور «نيرون»، فتوقف عن الحصار، وذهب إلى روما[٢].

وعندما أصبح «فسباسيان» إمبراطوراً (٦٩-٧٩م)، عهد بمهمة القضاء على الثورة إلى ولده «تيتوس» الذى ضرب الحصار حول أورشليم مباشرة - ولمدة خمسة أشهر - بقوات كبيرة، مكونة من أربع فرق، بالإضافة إلى المرتزقة، وقد اندفعت إلى أورشليم فرق رومانية أخرى، وأحاطت بالمدينة من كل جهة.

ويوصف مصير المحاصرين المفجع من ميثاق متبادل بين اليهود، تعهدوا فيه بإبادة أنفسهم، عندما كان جنود الرومان يفتحون المدينة المقدسة، ذلك أن القوم - بعد أن أبادوا نساءهم وأولادهم - توقف كل منهم عن القتال، ورمى سلاحه حول أفراد عائلته المذبوحين، وقدم رقبته لضربه بسيف واحد من أولئك الذين وقعت القرعة عليهم بالقيام بهذه المهمة الأليمة، وقد كتب الوصف التالى مؤرخ يهودى ساهم بنفسه فى هذه الحرب، وهو «يوسف بن متى» حيث يقول:

كان الأزواج يضمون زوجاتهم بحنان، ويحملون أطفالهم بين أذرعهم ويتعانقون عناق الوداع، والدموع تترقرق فى مآقيهم، ولكنهم نفذوا فى الوقت ذاته ما اعتزموا عمله، كأنهم يعملون ذلك بأيد غريبة، وقد جعلوا عزاءهم لضرورة ما قاموا به، تفكيرهم فى المصائب التى سيقاسونها فيما لو سقطوا بأيدى أعدائهم، وكانوا فى الحقيقة رجالا تعساء، بسبب الضرورة

---

(١) Dodorus Siculus, LXIII, 22,1; F. Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3-4.

(٢) C. Roth, A Short History of the Jewish People, 1969, p. 103; M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 441.

التى وجدوا أنفسهم فيها، وهم الذين بدا لهم ذبح زوجاتهم وأطفالهم بأيديهم أهون الشرور التى تنتظرهم»[١].

وبدأ «تيتوس» فى مهاجمة أورشليم، ونجحت جيوشه فى دخول المدينة المقدسة فى سبتمبر من عام ٧٠م، وأضرمت النار فيها، وهدم المعبد المزخرف الذى بناه «هيرودوس الكبير»، فوق أبنية متعاقبة فى نفس الموقع، وأشعلت النار فى «قد الأقداس»، ويقدر المؤرخ اليهودى - والمعاصر للأحداث - «يوسف بن متى» عدد القتلى بمليون وثلاثمائة وخمسين ألفًا، هذا فضلا عن تسعمائة ألف آخرين أسروا أو بيعوا كرقيق، كما مات مئات من الآلاف غيرهم من المجاعة والأوبئة والمذابح.

ويعلق «هنتنجون» - وهو جغرافى يهودى لا يخفى تعصبه - بأن هذه أرقام مبالغ فيها دون شك، ويمكننا نحن أن ننبذها ونعدها خرافيه تمامًا، ذلك لأن الأدلة التاريخية وإشارات التوراة نفسها، تضع كل تعداد اليهود - فى أزهى عصورهم - فى حدود تقصر دون ذلك كثيرًا جدًا، ولا تتجاوز ثلاثة أرباع المليون كحد أعلى، ومن ناحية أخرى، فإن البعض إنما يقدر عدد من أبيدوا من اليهود فى هذه التوراة، بما لا يقل عن ستمائة ألف، فإذا صح هذا الرقم - ولعله ربما كان أدنى إلى العقل - ، فذلك انقراض جنسى حقيقى، لم يكد يترك من يهود شيئًا[٢].

وأما المعبد اليهودى فى أورشليم، فقد بلغ من جسامة وقسوة تهدمه فى هذه الثورة، أن ضاعت آثاره تمامًا، حتى أن الناس قد نسوا فيما بعد، إذا كان المعبد قد بنى على التل الشرقى أو الغربى من أورشليم، وقد فشلت جميع المحاولات التى بذلت لإعادة بنائه بالاستناد إلى وصف التوراة وحدها[٣].

(١) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٧٥؛ وكذا: Josephus, The Jewish War, VII, 9, 1.

(٢) جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٩-٢٠؛ وكذا:

E. Huntington, Palestine and Its Transformation, Boston, 1911.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٧٥.

وعاد «تيتوس» إلى روما، وقام هو ووالده بموكب كبير عرضت فيه كنوز المعبد، وأخصها «الشمعدان الذهبي»، ذلك أن أحد الجنود الرومان قد اختطفت الشمعدان ذا الفروع السبعة من المعبد المحترق، وحمله في موكب النصر، وقد سار أسرى اليهود - وعلى رأسهم القائد سيمون بارجيورا، الذي أعدم بعد ذلك - في موكب النصر، وتخليداً لذكرى انتصار تيتوس هذا على أورشليم، أقام القائد الروماني في ساحة روما «قوس نصر» دعاه Triumphal Arch of Titus، وسجل عليه كثيراً من المناظر لعل أهمها، منظر موكب الأسلاب التي جيء بها من أورشليم، فضلا عن مقصورة الشمعدان[1].

وهكذا أضيف فصل روماني في تاريخ الشتات اليهودي Diaspora إلى الفصول الآشورية والكلدانية، وخيم الخراب على أورشليم، وهدم كل شيء فيها، وصدق فيها قول المسيح، عليه السلام: «يا أورشليم... يا أورشليم... يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين إليها، كم أردت أن أجمع أولادك، كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا، وها هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً»[2] وقوله: «الحق أقول لكم: إنه لا يترك ها هنا حجر على حجر، لا ينقض»[3].

وعلى أي حال، فلقد تبع ذلك كله انحطاط ديانة يهود وتدهورها، تبعاً لانحطاط المؤمنين بها وتدهورهم، هذا فضلا عن الدور الذي لعبته الأسس القومية الضيقة - إلى جانب بعض مظاهر طقوسها - في عدم انتشارها بين غير اليهود، ومن ثم فقد فشلت جميع محاولات علماء يهود - ومنهم فيلون السكندري[4] في تقريب اليهودية إلى العقلية اليونانية الرومانية[5].

(١) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٤٦؛ وكذا:
Werner Keller, The Bible as History, 1967, p. 388; C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 103-107.

(٢) متى ٢٣: ٣٧-٣٨.　　(٣) متى ٢٤: ٢.

(٤) فيلون اليهودي: سكندري عاش في الفترة (٢٠ق.م - ٥٠م)، جعل شريعة موسى أساس الفلسفة، وقال إن الكائنات بادئة من الله، ونازلة إلى المائدة، وقد كان لهذه التعاليم أثر عميق في الكتاب اليهود والمسيحيين. (الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٣٥٢، القاهرة ١٩٦٥).

(٥) فيلب حتي، المرجع السابق، ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٣) ثورة باركوخبا (١٣٢-١٣٥م):

فقد الإسرائيليون الكثير - كما أشرنا آنفًا - في مذابح تيتوس عام ٧٠م، وأقام الحاكم الروماني في مدينة «قيصرية»، وأخذ يراقب أورشليم، عن طريق حاميته التي كانت هناك، وبدأ الربانيون في الاهتمام بشئون اليهود الدينية، حتى لا تتأثر باتجاهات روما، وأصبح «الكنيس» هو ملتقى اليهود، واستمر لأورشليم طابعها اليهودي، على الرغم من وجود الحامية الرومانية بها، فضلا عن جماعات غير يهودية كانت هناك.

وفي عام ١٣٠م، قام الإمبراطور الروماني «هادريان» (١١٧-١٣٨م) بزيارة سورية - بعد عودته من زيارة قام بها لمصر - فزار مدينة أورشليم وأصدر عدة قرارات، منها تحريم تقديس يوم السبت، وعادة الختان، وتحويل أورشليم إلى مستعمرة رومانية، مما أغضب اليهود كثيرًا، وأدى إلى اشتعال الثورة في عام ١٣٢م، بقيادة «سيمون باركوخبا» Simon Bar Kohba[1].

ونجح الثوار في الاستيلاء على بعض معاقل الرومان، وأخذ أورشليم والاستقلال بها لمدة ثلاث سنوات (١٣٢-١٣٥م)، وهكذا غدت أورشليم كعاصمة سياسية، ومركزًا دينيًا، طوال هذه الفترة، وضربت العملة باسم «سيمون باركوخبا»[2].

وأخيرًا اضطر «هادريان» إلى استخدام منتهى العنف في قمع الثورة، فعهد إلى قائده «يوليوس سيفيروس» بالقضاء على الثورة، ونجح القائد

---

(١) باركوخبا: تعبير آرامي بمعنى «ابن الكوكب» وقد تكون فيه إشارة إلى سفر العدد (٢٤: ١٧)، وبعد فشل الثورة دعاه اليهود «باركوزيبا» Bar Koziba بمعنى ابن الكذاب. (فيليب حتى، المرجع السابق، ٣٧٧).

(٢) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٥٣-١٥٤؛ وكذا:
W. Keller, op.cit., p. 389; M. Noth, op.cit., p. 451-452; A. Rienberg, Ancient Jewish Coins, 1927, p. 33F.

الروماني في مهمته، حيث انتهت الثورة عند «بيت ثير»[١] - على مبعدة بضعة أميال جنوب غرب أورشليم - في أغسطس من عام ١٣٥م، وقبض على «باركوخبا» ونكل به، ثم قتل، واستولى الروماني على أورشليم، التي هدمها «هدريان» تماماً، وبنى فوقها مدينة جديدة باسم «إيليا كابيتولينا» Aelia Capitolina وأبدل المعبد القديم بمعبد كرس للإله «جوبيتر كابيتولينس» Jupitee Capitolinus، وقام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود في فلسطين، كدولة وكقومية، فعدا تدمير أورشليم والهيكل مرة أخرى، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة، ويقدر «ديودور الصقلي» عدد القرى التي دمرت بتسعمائة وخمس وثمانين قرية، وعدد القتلى من السكان بخمسمائة وثمانين ألفاً[٢].

ورغم ما في هذه الأرقام من مبالغات، فإن اليهود، إنما قد طردوا فعلاً من فلسطين إلى كل أجزاء الإمبراطورية الرومانية، وكان هذا هو التاريخ (أي عام ١٣٥م) الذي انتهت فيه نهائياً، علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً، إنه الخروج الأخير، كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود في قبرص، وحتى ندرك مدى ضآلة ما تبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات، يكفي أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو أربعين ألفاً.

أما ما تبقى من هذا وذاك من يهود فلسطين، فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصاً فيما بعد، بتحول بعض أفرادها إلى المسيحية، ولعل أهم تلك البقايا «السامريين» الذين تحولوا إلى قوقعة قزمية مغلقة في «نابلس» (شكيم القديمة) حتى أنها لا تزيد اليوم عن مائة أو مائتين، وفي بداية القرن التاسع

---

(١) تذكر التوراة في سفر يشوع (١٥: ٥٩) اسم «بيت عنوت»، وهناك شك إن كانت موجودة في القرن الثاني الميلادي أم لا؟ وانظر: M. Noth, op.cit., p. 453.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣٧٧؛ وكذا: مصطفى كمال عبد العليم، اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٩٥-١٩٦.

M. Noth, op.cit., p. 453-454.; H. Strathmann, PJB, 23, 1927, p. 92F; A. Schulten, ZDPV, 56, , 1933, p. 180F.

عشر الميلادى لم يكن عدد اليهود فى فلسطين كلها ليزيد عن عشرة آلاف نسمة[١].

(١) جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٢٠-٢١، وانظر: فؤاد حسنين، المجتمع الإسرائيلى منذ تشريده حتى اليوم، القاهرة ١٩٦٧، ص ٥-١٥.

خاتمـــة

تفرق اليهود بعد ذلك فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية، فتبعوا الرومان إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا حتى الراين، الذى وصلوا إليه منذ القرن الثالث الميلادى، حيث تحولت «فرانكونيا» بالذات إلى قاعدة رئيسية، ونواة لهم، وكادت عاصمتها «فرانكفورت» أن تكون عاصمة «يهود الشتات» الجديد، ومنذ ذلك الحين نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة «فرانكفورت» واليهود ظلت حتى يومنا هذا.

ثم أتت العصور الوسطى بحروبها الصليبية التى أشعلت نار الاضطهاد الدينى ضد اليهود فى جميع أنحاء أوروبا - مثلما أثارتها ضد العرب خارجها، وعلى أطرافها ومشارفها - هناك بدأت عمليات الطرد بالجملة والإبادة التى ستؤدى فى النهاية إلى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوروبا، ففى القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤م) اختفى يهود فرنسا تمامًا، بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة، أما يهود إيطاليا فظلوا متقوقعين بها، حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع، وحيث تلقوا، فضلا عن ذلك، هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد.

أما يهود ألمانيا وأسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود فى العصر الحديث، فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الإبادة والطرد، ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى أوالرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوربا من ناحية، وجنوب أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى، أعنى ثنائية «الإشكناز» Ashkenazim و«السفاردى» Sephar-din - وهما كلمتان قديمتان فى التوراة فاستعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى، لتميز بين يهود ألمانيا، ويهود أسبانيا على الترتيب - اعتقاداً منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة يهوذا، ويهود أسبانيا من نسل

قبيلة بنيامين، والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم «أرستقراطية» اليهود على الأساس الدينى، غير أن «الإشكناز» إنما يؤلفون الأغلبية الساحقة عدديًا (٨٠ إلى ٩٠٪ فيما يقدر)، والطبقة المسيطرة المتفوقة حضاريًا إلى حد يحتقرون معه «السفارديم» احتقارًا لا يحفلون بإخفائه[١].

وهكذا تفرق اليهود فى أنحاء العالم يلاقون النجاح والاضطهاد، والتسامح والتفرقة، بدرجات متفاوتة من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى آخر، وفى كل هذا، بقى اليهود طوال هذه العصور يهودًا، ينظرون إلى الماضى بأسى، ويشكون فى كل ما هو غير يهودى، كما كان غير اليهود من أقوام ينظرون إليهم دائمًا وأبدًا على أنهم غرباء[٢].

وانقطعت علاقة اليهود بفلسطين ـ سياسيًا وقوميًا ـ وإن ظلوا ينظرون إلى أورشليم ـ مقر هيكل الله المقدس ـ وكأنها حاضرتهم الكبرى، وبقى الأمر هكذا، حتى القرن الثامن عشر الميلادى، لم يتجاوز تعلق اليهود الروحى بنصوص التوراة وطقوس الأعياد والاحتفالات الدينية، وكانت دوافع رغبة قسم من اليهود فى العودة إلى فلسطين دينية صرفة، وهكذا بقى اليهود، حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولم يكن يخطر ببال أحد أن يتساءل: عما إذا ما كان اليهود شعبًا ـ أى أمة بلا وطن ـ أم هم مجرد جماعات تمثل ديانة معينة، بخاصة وأن اللفظ اللاتينى Judaismus فى العصور الوسطى، لم يكن يفرق بين الأمرين، والأمر كذلك بالنسبة إلى شعور اليهود إزاء الأمرين[٣].

وجاء القرن التاسع عشر الميلادى، وأثار مسألة القومية اليهودية، لأن القومية كانت على كل لسان فى البلاد التى يكثر فيها اليهود ـ وبخاصة

(١) جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٢١-٢٢.

(٢) Don Peretz, The Middle East Today, U.S.A., 1963, p. 244.

(٣) James Parker, A History of the Jewish People, 1964, p. 172.

بولونيا ورومانيا وأسبانيا وهولندا ــ فخطر لليهود أن يطالبوا لهذه القومية بوطن تساعدهم الدول على احتلاله، ومن ثم فقد بدأ اليهود يفكرون فى «الوطن القومى» بل سرعان ما اندفعوا إلى فكرة «الدولة اليهودية» ولم يقنعوا بالوطن لمجرد السكنى والتعمير(١).

ومن هنا ظهرت الحركة الصهيونية الحديثة كحركة سياسية، قامت فى شرق أوروبا من جراء اضطهاد اليهود فى روسيا وبولندا وألمانيا، بقصد إسباغ صفة القومية السياسية على العنصر اليهودى، ومن هنا كانت الصهيونية فى القرن التاسع عشر الميلادى، تطوراً لما كان يسمى بالمشكلة اليهودية فى أوروبا(٢).

وفى ٢٩ أغسطس من عام ١٨٩٧م، انعقد أول مؤتمر صهيونى عالمى ــ ولمدة ثلاثة أيام ــ فى مدينة «بال» بسويسرا بزعامة «تيودور هرتزل» (١٨٦٠-١٩٠٤م)، وتمخض المؤتمر عن قرارات ثلاث، أولها: ضرورة إنشاء وطن قومى لليهود، وثانيها: ضرورة جعل اللغة العبرية لغة يتحدث بها اليهود فى جميع أنحاء العالم، وثالثها: إنشاء صندوق يدفع له كل يهودى جزءاً من المال، وينقسم الغرض من تمويل الصندوق إلى شقين: الأول الإنفاق على سفر الشبان اليهود إلى فلسطين، والثانى لشراء الأراضى فى فلسطين وإعطائها لليهود(٣).

وفى العقد الأول من القرن العشرين بعد الميلاد ــ وفى عام ١٩٠٧م على وجه التحديد ــ حدث أول لقاء بين الصهيونية والاستعمار الحديث، ذلك أن بريطانيا التى كانت تملك أكبر إمبراطورية وقت ذاك، إنما كانت

(١) عباس العقاد، الصهيونية العالمية، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٣، ٢١، ٢٣.

(٢) James Parker, A op.cit., p. 172-174.

(٣) انظر: ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، القاهرة ١٩٧٠، جـ١، ص ٧٧-٩٤؛ وكذا: Don Peretz, op.cit., p. 248-250; J. Parker, op.cit., p. 184-185; C. Roth, op.cit., p. 411.

تخشى من أن يصيب إمبراطوريتها، ما أصاب غيرها من إمبراطوريات كبرى سبقتها فى التاريخ القديم والوسيط، وتلاشت على مرّ الزمن، وتتابع التاريخ، ومن ثم فقد حاولت أن تؤمن مستقبلها معتمدة فى ذلك على الحلول العلمية، فجردت نخبة من العلماء فى التاريخ والآثار والجغرافية والاقتصاد من علماء الدول الخمسة الكبرى المستعمرة فى ذلك الحين ـ وهى انجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال ـ وانعقد المؤتمر بلندن فى عام ١٩٠٧م، ثم أصدر وثيقة خطيرة سرية تعرف فى التاريخ الدولى باسم «وثيقة بترمان» ـ نسبة إلى رئيس وزراء بريطانيا كامبل بترمان ـ الذى وجه إلى العلماء رسالته المشهورة، ومفادها : أن الإمبراطوريات تقوم عادة ثم تقوى ثم تأخذ فى الزوال تدريجياً، وضرب لذلك أمثلة بإمبراطوريات الفراعنة، وآشور وبابل وروما وغيرها، ثم طرح «بترمان» تساؤله: فهل لديكم أيها السادة وسائل يمكن أن تحول دون سقوط الإمبراطورية البريطانية، وتؤخر مصير الاستعمار الأوروبى؟.

وقد أجاب العلماء على هذا التساؤل بعد الدراسة، بأن الخطر الذى يهدد الاستعمار إنما يكمن فى البحر الأبيض المتوسط وفى جنوب شرقية على وجه التحديد، حيث يعيش فى هذه المنطقة شعب واحد، تتوافر له وحدة التاريخ، ومقومات التجمع والترابط والاتحاد، وخاصة إذا دخلت المنطقة مكتسبات الثورة الصناعية واستخدمها الشعب، فعندئذ سيكون هذا عاملا مدمراً للاستعمار وبناء على ذلك يمكن معالجة الموقف على النحو التالى:

١ ـ أن تعمل الدول ذات المصالح المشتركة على استمرار تجزئة هذه المنطقة وتأخرها، وإبقاء شعوبها على ما هى عليه من تفكك وتناحر وتأخر.

٢ ـ ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الأسيوى، واقترحت اللجنة لذلك ما يأتى: إقامة حاجز بشرى قوى وغريب، يفصل الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا، والذى يربطهما معًا بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يجب أن تعيش بهذه المنطقة ـ

وعلى مقربة من قناة السويس ـ قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة.

وقد وجد الاستعمار ضالته المنشودة فى «اليهود» الذين كانوا ـ إلى جانب العاملين السابقين ـ يحلمون بإنشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين، يحققون به جشع عقول مريضة من يهود فى أرض الشرق العربى، متوارين خلف ستار من نصوص أوردها يهود السبى البابلى فى التوراة، تجعل أرضنا العربية من النيل إلى الفرات، وكأنها هبة من «يهوه» ربِّ إسرائيل لشعبه إسرائيل[١].

وفى عام ١٩١٧م نجح الدكتور «حاييم وايزمان» (١٨٧٤-١٩٥٩م) ـ والذى أصبح فيما بعد أول رئيس لدولة إسرائيل ـ نجح فى الحصول على «وعد بلفور» فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧م، على هيئة رسالة كتبها «آرثر جيمس بلفور» وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت، إلى «آدموند روتشيلد» رئيس الجمعية الصهيونية فى بريطانيا: وهذا نصها:

«عزيزى اللورد روتشيلد: يسرنى أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالى الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته:

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أنه يفهم بوضوح أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية من سكان فلسطين، أو حقوق اليهود ووضعهم السياسى فى أى دولة أخرى»[١].

---

(١) انظر: محمد بيومى مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة، مجلة الأسطول، العدد ٦٦، ص ٣-١٥، العدد ٦٧، ص ٥-١٥، الإسكندرية ١٩٧١؛ التوراة، سفر التكوين، ١٣: ٤-١٧، ١٥: ١٨.

وانتهت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) باحتلال إنجلترا لفلسطين، وكان هذا الاحتلال تمهيداً لإنشاء وطن قومى لليهود على هذه الأرض العربية، وتعيين السير «هربرت صمويل»، والذى أصبح زعيماً لحزب الأحرار فيما بعد (١٩٢٧-١٩٢٩) مندوباً سامياً لبريطانيا فى فلسطين (١٩٢٠-١٩٢٥)، وكان هذا أل «هربرت» يهودى الديانة، صهيونى العقيدة، ومن أشد المتعصبين، ومن ثم فقد عمل منذ وصوله إلى فلسطين على تنفيذ وعد بلفور، وإقامة الدولة اليهودية، فكانت ثورات العرب الفلسطينيين فى أعوام ١٩٢١، ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٩، ١٩٣٦م[٢].

وفى عام ١٩٤٠م، تألفت وزارة «ونستون تشرشل»، فكسب اليهود بذلك رئيس الوزراء ذا الميول الصهيونية، كما كسبوا كذلك وزراء آخرين فى الوزراء لهم نفس الميول، وينجح «وايزمان» فى إقناع إنجلترا بتكوين فرقة يهودية تقاتل إلى جانب الحلفاء[٣]، وإلغاء الاتجاه المضاد إلى تكوين فرقة فلسطينية عربية ويهودية، وكانت تلك الفرقة اليهودية هى نواة جيش إسرائيل، الذى حارب خلال الساعات الحرجة التى تلت إعلان قيام دولة إسرائيل فى ١٤ مايو ١٩٤٨م، وقد كانت الجهود التى بذلت من أجل

---

(١) ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ٣٨٥/١؛ محمد محمود السروجى، وعد بلفور والعوامل التى ساعدت على إصداره، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ١٦، ١٩٦٣؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 413-414; G. Antonius, The Arab Awakening, The Story of the Arab National Movement, U.S.A., 1939, p. 266-267; J. Loder, The Truth about Mesopotamia Palestine and Syria, London, 1923, p. 31; M. V. Seton- Willams, Britain and the Aarab States, 1948, p. 122-123.

(٢) أحمد طربين، محاضرات فى تاريخ قضية فلسطين، القاهرة ١٩٤٩، ص ٧٦-١٨٣؛ وكذا: C. Roth, op.cit., p. 415F; J. Parkers, op.cit., p. 210-212; S. Fisher, The Middle East, London, 1960, p. 440.

(٣) كان لليهود وحدات محاربة يهودية صرفة فى جيش «اللنبى» الذى غزا فلسطين فى عام ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى.

(Sir Ritchard Wavell, Allenby, Edinburgh, 1940, p. 282).

إيجاد هذه الفرقة عنيفة ومتواصلة في جميع المجالات، من الصحافة، إلى اقترحات يقدمها النواب من حزبي المحافظين والعمال إلى البرلمان البريطاني، إلى ضغط وإقناع لدى الساسة والقادة العسكريين.

وفي سبتمبر من عام ١٩٤٨م، أعلنت وزارة الحرب البريطانية أنها قررت المساعدة في تكوين الفرقة اليهودية المحاربة، ثم سرعان ما أصبح للوحدة علمها المستقل، مشيرة بذلك إلى أن اليهودية قد أصبحت «قومية» لا مجرد دين، وكان ذلك العلم هو نفس علم دولة إسرائيل اليوم، وفي أكتوبر ١٩٤٤م، طلبت الوكالة اليهودية من الحكومة البريطانية تحويل فلسطين إلى «كومنولث يهودي» وأن تسمح بهجرة مليون يهودي إلى فلسطين بحيث يصبح اليهود أغلبية في فلسطين تسمح بإعلان اليهودية، واستطاع «وايزمان» أن يحصل على موافقة «ونستون تشرشل» الشخصية على إقامة الدولة اليهودية، على الأقل في جزء من فلسطين.

وفي يناير ١٩٤٧م، بدا أن هيئة أركان الحرب البريطانية قد باتت مقتنعة بأن فلسطين لم تعد لها أهمية استراتيجية بالنسبة للدفاع البريطاني في الشرق الأوسط، وهكذا تظهر بريطانيا عزمها على الانسحاب من فلسطين، وتعلن الحكومة البريطانية أنها سوف تضع المسألة كلها بين يدي الأمم المتحدة، التي تصدر في ٢٩ نوفمبر من عام ١٩٤٧م قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود بأغلبية الثلثين، بزيادة صوت واحد[١].

وفي تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨م، يعلن «دافيد بن جوريون»، قيام دولة إسرائيل، ويختار هو رئيساً لوزرائها، كما يختار «حاييم وايزمان» رئيساً لجمهوريتها، ويبادر «ترومان» رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فيعلن اعترافه بالدولة الجديدة بعد دقائق من قيامها في

---

(١) حسن صبحي، التآمر الصهيوني ضد الأمة العربية، بيروت ١٩٦٨، ص ١١٢؛ وكذا:
J. Parkers, op.cit., p. 226.

فجر ١٥ مايو ١٩٤٨م، وتبعته فى نفس اليوم «جواتيمالا» أما ثالث دولة اعترفت بإسرائيل فهى الاتحاد السوفيتى فى ١٧ مايو ١٩٤٨م، وفى الأول من فبراير ١٩٤٩م، بلغ مجموع الدول التى اعترفت بإسرائيل ٢٣ دولة، ثم ختمت المأساة الأليمة الكئيبة بموافقة الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة بضم إسرائيل إلى عضويتها فى ١١ مايو ١٩٤٩م، وهكذا نجحت مؤامرات يهود وخلقت إسرائيل خلقاً مصطنعاً، مسجلة بذلك ظاهرة غريبة وفريدة من نوعها فى تاريخ نشأة الدول[١].

---

(١) Lenczovsky, The Middle East in World Affairs, p. 312.

وانظر: محمد بيومى مهران، قضية فلسطين، الإسكندرية ١٩٧٠، ص ١١٧-١٥٢.

فهرس الأعلام

(أ)



(ب)

(ت)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

المراجع المختارة

أولا - المراجع العربية:

١ - القرآن الكريم.

٢ - صحيح البخارى، دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ.

٣ - صحيح مسلم، دار الشعب، القاهرة ١٩٧١-١٩٧٢م.

٤ - مسند الإمام أحمد، طبعة الحلبى، القاهرة.

٥ - الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، دار الكتاب المقدس، القاهرة ١٩٧٠.

٦ - الكتاب المقدس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥١.

٧ - الكتاب المقدس، الأسفار القانونية التى حذفها البروتستانت، الإسكندرية ١٩٥٦.

٨ - أبكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة ١٩٦٧.

٩ - ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي الشيبانى)، الكامل فى التاريخ، الجزء الأول والثانى، بيروت ١٩٦٥.

١٠ - ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم)، مجموع فتاوى ابن تيمية (الأجزاء من ١ إلى ٣٥)، الرياض ١٣٨١-١٣٨٢هـ.

١١ - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)، الفصل فى الملل والأهواء والنحل (خمسة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٤.

١٢ - ابن حيّان (محمد بن يوسف بن حيّان الأندلسى)، تفسير البحر المحيط، القاهرة.

١٣ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١.

١٤ - ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد)، الطبقات الكبرى، الجزء الأول، دار التحرير، القاهرة ١٩٦٨.

١٥ - ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، البداية والنهاية فى التاريخ، الجزء الأول، بيروت ١٩٦٦.

١٦ ـ ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، قصص الأنبياء (جزءان)، القاهرة ١٩٦٨.

١٧ ـ ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، السيرة النبوية (أربعة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٤-١٩٦٦.

١٨ ـ ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن أيوب)، سيرة النبيّ ﷺ (أربعة أجزاء)، القاهرة ١٩٥٥.

١٩ ـ أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، القاهرة ١٣٢٥هـ.

٢٠ ـ الدكتور أحمد بدوى، في موكب الشمس، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٥٠.

٢١ ـ الدكتور أحمد شلبى، اليهودية، القاهرة ١٩٦٧.

٢٢ ـ الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف، مصر في القرآن والسنّة، القاهرة ١٩٧٣.

٢٣ ـ الدكتور أحمد فخرى، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، الأدب المصرى، القاهرة ١٩٥٨.

٢٤ ـ الدكتور أحمد فخرى، دراسات في العالم العربى، القاهرة ١٩٥٨.

٢٥ ـ الدكتور أحمد فخرى، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة ١٩٦٣.

٢٦ ـ الدكتور أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١.

٢٧ ـ الأب إسحاق ساكا، معنى لتسميات للشعوب السامية، مجلة العربى، العدد ٩١، الكويت ١٩٦٦.

٢٨ ـ الدكتور إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧.

٢٩ ـ الدكتور إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩.

٣٠ ـ الدكتور إسماعيل راجى الفاروق، أصول الصهيونية في الدين اليهودى، القاهرة ١٩٦٤.

٣١ ـ الشهرستانى (أبو الفتح محمد)، الملل والنحل (ثلاثة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٨.

٣٢ ـ الألوسى (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود)، روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، القاهرة.

٣٣ ـ البكرى (أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (أربعة أجزاء)، القاهرة ١٩٤٥-١٩٥١.

٣٤ ـ البلاذرى (أحمد بن يحيى)، فتوح البلدان، (ثلاثة أجزاء)، القاهرة ١٩٥٧.

٣٥ ـ البيضاوى (ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (جزءان)، القاهرة ١٩٦٨.

٣٦ ـ البيهقى (أبو بكر أحمد بن الحسين)، دلائل النبوة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٠.

٣٧ ـ الدكتور التهامى نقرة، سيكولوجية القصة فى القرآن، تونس ١٩٧٤.

٣٨ ـ الزمخشرى (أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل (المعروف بتفسير الكشاف)، القاهرة ١٩٦٦.

٣٩ ـ الدكتور السيد يعقوب بكر، أوفير، من كتاب العرب والملاحة فى المحيط الهندى، القاهرة ١٩٥٨.

٤٠ ـ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، طهران ١٣٧٧هـ.

٤١ ـ الطبرسى (أبو علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان فى تفسير القرآن، بيروت ١٩٦١.

٤٢ ـ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آى القرآن (المعروف بتفسير الطبرى)، القاهرة ١٩٥٧-١٩٦٧.

٤٣ ـ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبرى)، الجزء الأول والثانى، القاهرة ١٩٦٧.

٤٤ ـ الفخر الرازى (أبو عبد الله محمد بن عمر القرشى)، التفسير الكبير، القاهرة ١٩٣٨.

٤٥ ـ القاسمى (جمال الدين)، محاسن التأويل (المعروف بتفسير القاسمى)، القاهرة ١٩٥٧.

٤٦ ـ القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، الجامع لأحكام القرآن (المعروف بتفسير القرطبي)، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٠.

٤٧ ـ المسعودى (أبو الحسن علي بن الحسين)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول والثانى، بيروت ١٩٧٣.

٤٨ ـ المقدسى (المطهر بن طاهر)، كتاب البدء والتأريخ، الجزء الثالث والرابع، باريس ١٩٠٣-١٩٠٧.

٤٩ ـ النسفى (عبد الله بن أحمد)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (المعروف بتفسير النسفى)، القاهرة.

٥٠ ـ اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر)، تاريخ اليعقوبى، الجزء الأول والثانى، بيروت ١٩٦٠.

٥١ ـ الأب إميل أده، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، بيروت ١٩٦٩.

٥٢ ـ أمين الريحانى، قلب لبنان، بيروت ١٩٥٨.

٥٣ ـ إيلى ليفى أبو عسل، يقظة العالم اليهودى، القاهرة ١٩٢٤.

٥٤ ـ الدكتور باهور لبيب، لمحات من الدراسات المصرية القديمة، القاهرة ١٩٤٧.

٥٥ ـ الدكتور بولس عياد عياد، الآراميون فى مصر، القاهرة ١٩٧٥.

٥٦ ـ الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين: الجماعات البدائية، بنو إسرائيل، القاهرة.

٥٧ ـ جرجى زيدان، العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٦.

٥٨ ـ الدكتور جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، القاهرة ١٩٦٧.

٥٩ ـ الدكتور جمال حمدان، شخصية مصر، القاهرة ١٩٧٠.

٦٠ ـ الدكتور جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة أجزاء)، بيروت ١٩٦٨-١٩٧١.

٦١ ـ حبيب سعيد، المدخل إلى الكتاب المقدس، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة.

٦٢ ـ حبيب سعيد، خليل الله فى اليهودية والمسيحية والإسلام، القاهرة.

٦٣ ـ حبيب سعيد، الأنبياء الأقدمون، يتكلمون، القاهرة.

٦٤ ـ الدكتور حسن ظاظا، القدس: مدينة الله ـ أم مدينة داود؟، الإسكندرية ١٩٧٠.

٦٥ ـ الدكتور حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، الإسكندرية ١٩٧٠.

٦٦ ـ الدكتور حسن ظاظا، الفكر الدينى الإسرائيلى، القاهرة ١٩٧١.

٦٧ ـ الدكتور حسن ظاظا وآخرون، الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة ١٩٧١.

٦٨ ـ الدكتور حسن محمود، حضارة مصر والشرق القديم، العبرانيون، القاهرة.

٦٩ ـ حسين ذو الفقار صبرى، إنما الأمور بأصولها، المجلة العدد ١٥١، القاهرة ١٩٦٩.

٧٠ ـ حسين ذو الفقار صبرى، توراة اليهود، المجلة، العدد ١٥٧، القاهرة ١٩٧٠.

٧١ ـ حسين ذو الفقار صبرى، إله موسى فى توراة اليود، المجلة، العدد ١٦٣.

٧٢ ـ الدكتور خالد طه الدسوقى، الجالية اليهودية فى أسوان، القاهرة ١٩٧٤.

٧٣ ـ الدكتور رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨.

٧٤ ـ الدكتور رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الثالث، بيروت ١٩٦٩.

٧٥ ـ الدكتور سليم حسن، مصر القديمة (الأجزاء ١-١٣)، القاهرة ١٩٤٥-١٩٥٨.

٧٦ ـ الدكتور سليم حسن، الأدب المصرى القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٥.

٧٧ ـ سيد قطب، فى ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت ١٩٦٧-١٩٧٠.

٧٨ ـ شاهين مكاريوس، تاريخ الأمة الإسرائيلية، القاهرة ١٩٠٤.

٧٩ ـ الدكتور صبرى جرجس، التراث اليهودى الصهيونى، القاهرة ١٩٧٠.

٨٠ ـ طنطاوى جوهرى، الجواهر فى تفسير القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٤.

٨١ ـ طه باقر، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، القسم الأول والثانى، بغداد ١٩٥٥.

٨٢ ـ عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، دار الهلال، القاهرة.

٨٣ ـ عباس محمود العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، القاهرة ١٩٦٠ .

٨٤ ـ عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة ١٩٦٥ .

٨٥ ـ عباس محمود العقاد، الصهيونية العالمية، القاهرة ١٩٦٨ .

٨٦ ـ عباس محمود العقاد، مطلع النور، القاهرة ١٩٦٨ .

٨٧ ـ عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية، القاهرة ١٩٧٠ .

٨٨ ـ الدكتور عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦ .

٨٩ ـ الدكتور عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦ .

٩٠ ـ الدكتور عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤ .

٩١ ـ عبد الرحيم فودة، فى معانى القرآن، القاهرة.

٩٢ ـ الدكتور عبد الرحمن الأنصارى، لمحات عن بعض المدن القديمة فى شمال غربى الجزيرة العربية، مجلة الدارة، العدد الأول، الرياض ١٩٧٥ .

٩٣ ـ الدكتور عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، القاهرة ١٩٦٧ .

٩٤ ـ الدكتور عبد الفتاح شحاتة، تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٦٠ .

٩٥ ـ عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، القاهرة ١٩٦٦ .

٩٦ ـ الدكتور عبده الراجحى، الشخصية الإسرائيلية، الإسكندرية ١٩٦٨ .

٩٧ ـ الدكتور علي عبد الواحد وافى، الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، القاهرة ١٩٦٤ .

٩٨ ـ عصام الدين حفنى ناصف، محنة التوراة على أيدى اليهود، القاهرة ١٩٦٥ .

٩٩ ـ الدكتور فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، الجزء الأول، القاهرة.

١٠٠ ـ الدكتور فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، القاهرة ١٩٦٨ .

١٠١ ـ كمال أحمد عون، اليهود من كتابهم المقدس، القاهرة ١٩٧٠ .

١٠٢ ـ الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، الإسكندرية ١٩٦٨ .

١٠٣ ـ محمد الصادق عرجون، معجزات الأنبياء بين العقل والدين، القاهرة ١٩٥٥ .

١٠٤ ـ محمد العزب موسى، موسى في سيناء ، الهلال، العدد ٦ ، القاهرة ١٩٧١ .

١٠٥ ـ محمد بدر، الكنز في قواعد اللغة العبرية، القاهرة ١٩٣٦ .

١٠٦ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة (رسالة ماجستير) ، الإسكندرية ١٩٦٦ .

١٠٧ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث (رسالة دكتوراة) ، الإسكندرية ١٩٦٩ .

١٠٨ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ اليهود القديم (١) ، مجلة الأسطول، العدد ٦٣ ، الإسكندرية ١٩٧٠ .

١٠٩ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ اليهود القديم (٢) ، مجلة الأسطول، العدد ٦٤ ، الإسكندرية ١٩٧٠ .

١١٠ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ اليهود القديم (٣) ، مجلة الأسطول، العدد ٦٥ ، الإسكندرية ١٩٦٥ .

١١١ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (١) ، مجلة الأسطول، العدد ٦٦ ، الإسكندرية ١٩٧١ .

١١٢ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة الأسطورة (٢) ، مجلة الأسطول، العدد ٦٧ ، الإسكندرية ١٩٧١ .

١١٣ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، النقاوة الجنسية عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٨ ، الإسكندرية ١٩٧١ .

١١٤ ـ الدكتور محمد بيومي مهران، أخلاقيات الحرب عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٩ ، الإسكندرية ١٩٧١ .

١١٥ - الدكتور محمد بيومى مهران، التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠، الإسكندرية ١٩٧٢.

١١٦ - الدكتور محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الثانى، إسرائيل، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣.

١١٧ - الدكتور محمد بيومى مهران، الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلى، مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض ١٩٧٤.

١١٨ - الدكتور محمد بيومى مهران، قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد الخامس، الرياض ١٩٧٥.

١١٩ - الدكتور محمد بيومى مهران، العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة،مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، الرياض ١٩٧٦.

١٣٠ - الدكتور محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، حركات التحرير فى مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦.

١٣١ - الدكتور محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم (أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، الرياض ١٩٧٧.

١٣٢ - الدكتور محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، فى بلاد العرب، (أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، الرياض ١٩٧٨.

١٣٣ - الدكتور محمد بيومى مهران، النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل، الإسكندرية ١٩٧٨.

١٣٤ - الدكتور محمد بيومى مهران، دراسة حول الديانة العربية القديمة، القاهرة ١٩٧٨.

١٢٥ - الدكتور محمد حسين هيكل، حياة محمد ﷺ، القاهرة ١٩٧٠.

١٢٦ - محمد حسني عبد الحميد، أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، القاهرة ١٩٤٧.

١٢٧ - محمد رجب البيومي، البيان القرآني، القاهرة ١٩٧١.

١٢٨ - محمد رشيد رضا، تفسير سورة يوسف، القاهرة ١٩٣٦.

١٢٩ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣-١٩٧٥.

١٣٠ - الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنّة (١)، القاهرة ١٩٦٨.

١٣١ - الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنّة (٢)، القاهرة ١٩٦٩.

١٣٢ - الدكتور محمد عبد اللطيف محمد علي، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية ١٩٧٧.

١٣٣ - الدكتور محمد عبد القادر، الساميون في العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨.

١٣٤ - الدكتور محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، الكويت ١٩٧٤.

١٣٥ - محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩.

١٣٦ - محمد مبروك نافع، تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، القاهرة ١٩٥٢.

١٣٧ - محمود الشرقاوي، الأنبياء في القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٠.

١٣٨ - محمود شيت خطاب، أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية، القاهرة ١٩٧٠.

١٣٩ - الدكتور مراد كامل، الكتب التاريخية في العهد القديم، القاهرة ١٩٦٨.

١٤٠ - الدكتور مراد كامل، النصوص الآرامية التي كشفت حديثًا في مصر، مجلة أحاديث الثلاثاء بدار السلام، القاهرة ١٩٥٢.

١٤١ - الدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدي البكري، تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي، القاهرة ١٩٤٩.

١٤٢ - الدكتور مصطفى العبادى، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، القاهرة ١٩٦٦.

١٤٣ - الدكتور مصطفى كمال عبد العليم، اليهود في مصر فى عصرى البطالمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨.

١٤٤ - مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، بيروت ١٩٦٥.

١٤٥ - منيس عبد النور، إبراهيم السائح الروحى، القاهرة.

١٤٦ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٦٦.

١٤٧ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثانى، الإسكندرية ١٩٦٦.

١٤٨ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، الإسكندرية ١٩٦٦.

١٤٩ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الخامس، الإسكندرية ١٩٦٣.

١٥٠ - ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) معجم البلدان، (خمسة أجزاء)، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧.

١٥١ - قاموس الكتاب المقدس، الجزء الأول، بيروت ١٩٦٤.

١٥٢ - قاموس الكتاب المقدس، الجزء الثانى، بيروت ١٩٦٧.

ثانياً - المراجع المترجمة إلى اللغة العربية:

١٥٣ - أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٢.

١٥٤ - أدلف أرمان، وهرمان رانكة، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، القاهرة ١٩٥٣.

١٥٥ - الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠.

١٥٦ - أندريه إيمار، وجانين أبواية، الشرق واليونان القديمة، ترجمة فريد داغر، وفؤاد أبو ريحان، بيروت ١٩٦٤.

١٥٧ - إيتين دريوتون، وجاك فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠.

١٥٨ - إيمانويل فليكوفسكى، أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، القاهرة ١٩٦٨.

١٥٩ - باروخ سبينوزا، رسالة فى اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم الدكتور حسن حنفى، القاهرة ١٩٧١.

١٦٠ - تيودور روبنسون، تاريخ العالم، إسرائيل فى ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، القاهرة.

١٦١ - ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة الدكتور طه حسين، القاهرة.

١٦٢ - جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران ومراجعة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٦.

١٦٣ - جورج فضلو حوارنى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨.

١٦٤ - جوزيف لويس، الختان، ترجمة عصام الدين حفنى ناصف، القاهرة.

١٦٥ - جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٧.

١٦٦ - جوستاف لوفيفر، روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى، ترجمة الدكتور علي حافظ (الألف كتاب)، القاهرة.

١٦٧ - جون إلدر، الأحجار تتكلم، ترجمة الدكتور عزت زكى، القاهرة ١٩٦٠.

١٦٨ - جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، الجزء الأول، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد، ومراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار (الألف كتاب)، القاهرة ١٩٦٣.

١٦٩ - جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، الجزء الثانى، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد ومراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار، القاهرة ١٩٦٧.

١٧٠ - جيمس فريزر، الفولكلور فى العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم، ومراجعة الدكتور حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧٢.

١٧١ - جيمس فريزر، الفلكلور فى العهد القديم، الجزء الثانى، ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم، ومراجعة الدكتور حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧٤.

١٧٢ - جيمس هنرى برستد، تاريخ مصر، ترجمة الدكتور حسن كمال، القاهرة ١٩٢٩.

١٧٣ - جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، ترجمة الدكتور سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦.

١٧٤ - جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، القاهرة ١٩٦١.

١٧٥ - سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٦٨.

١٧٦ - عاموس عبد المسيح، دراسة فى عاموس، ترجمة حارث قريصة، القاهرة ١٩٦٦.

١٧٧ - ف.ب. ماير، موسى، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة.

١٧٨ - ف.ب. ماير، يشوع وأرض الموعد، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٤٩.

١٧٩ - ف.ب. ماير، حياة داود، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٥٨ .

١٨٠ - ف.ب. ماير، حياة إبراهيم، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٠ .

١٨١ - ف.ب. ماير، حياة يعقوب، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٢ .

١٨٢ - ف.ب. ماير، حياة يوسف، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٥ .

١٨٣ - ف.ب. ماير، حياة يوسف، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة، ١٩٦٦ .

١٨٤ - ف.ب. ماير، حياة صموئيل، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٧ .

١٨٥ - فيلب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت ١٩٥٨ .

١٨٦ - لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان ١٩٦٥ .

١٨٧ - م.ص. سيجال، حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل، ترجمة الدكتور حسن ظاظا، بيروت، ١٩٦٧ .

١٨٨ - متى هنرى، تفسير هوشع، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٩ .

١٨٩ - ه.ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٦٧ .

١٩٠ - هـ.ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الجزء الثانى ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦٩ .

١٩١ - هيرودوت، يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، وتقديم الدكتور أحمد بدوى، القاهرة ١٩٦٦ .

١٩٢ - و.ج. دى بورج، تراث العالم القديم، ترجمة زكى سوسن، القاهرة ١٩٧١ .

١٩٣ - وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة الدكتور زكى إسكندر، والدكتور محمد عبد القادر، القاهرة ١٩٧١ .

١٩٤ - ول. ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١ .

١٩٥ - يورى أبفانوف، احذروا الصهيونية، ترجمة ماهر عسل، القاهرة ١٩٦٩ .

١٩٦ - يوسفيوس، تاريخ يوسفيوس، دار صادر، بيروت.

١٩٧ - دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٢ .

ثالثاً ـ المراجع الأجنبية:

198. Abramsky, (Samuel), Ancient Towns in Israel, Jerusalem, 1963.

199. Albright, (W.F.), The Role of the Canaanites in the History of Civilization, London, 1961.

200. Albright, (W.F.), from the Stone Age to Christianity, N.Y., 1957.

201. Albright, (W.F.), Akkadian Letters, in ANET, Princeton, 1966.

202. Albright, (W.F.), The Archaeology of Plaestine, London, 1949.

203. Albright, (W.F.) King Jehoiachin in Exile, BA, V. 1942.

204. Albright, (W.F.), The Bible and The Ancient Near East, London, 1961.

205. Albright, (W.F.), The Biblical Period from Abraham to Ezra, N.Y., 1963.

206. Albright, (W.F), Archaeology and the Reiligion of Israel, Baltimore, 1963.

207. Albright, (W.F.), Historical Geography of Plaestine , AASOR, 1923.

208. Albright, (W.F.), Recent Discoveries in Bible land, N.Y., 1955.

209. Albright, (W.F.), New Light on Early Recensions of the Hebrew Bible in BASOR, 140, 1955.

210. Altheim (F.) and Stiehl (R.), Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964-1968.

211. Barton, (G.A.), Semitic and Hamitic Origins, London, 1934.

212. Baron, (S.W.), A Social and Religions History of the Jews, N.Y., 1967.

213. Bentwich (N.), Palestine, London, 1934.

214. Bonfante, (G.), Who Were the Philistines, in AJA, L, 1946.

215. Bowman, (R.A.), Arameans, Aramaic and the Bible, in JNES, 7, 1948.

216. Bowman (R.L.) and Albright (W.F.), Archaeological Discoveries in Suth Arabia, Baltimore, 1958.

217. Box (G.H.), Judaism in the Greek Period, Oxford, 1953.

218. Brandies, (L.T.), on Zionism, N.Y., 1942.

219. Breasted, (J.H.), A History of Egypt, From the Earlies Tiems to Persian COnquest, N.Y., 1946.

220. Breasted (J.H.), Ancient Records of Egypt, 5 vols., Chicago, 1906-1907.

221. Breasted (J.H.), The Dawn of Conscience, N.Y., 1939.

222. Buber, (M.), Moses, Oxford, 1946.

223. Burney, (C.F.), Israel's Settlement in Canaan , London, 1918.

224. Burney (C.F.), The Book of Jndges, London 1920.

225. Bright (j.), A History of Israel, Philadelphia, 1969.

226. Cameron, (G.G.), History of Early Iran, 1936.

227. Caatan, (H.), Palestine , The Arabs and Israel, London, 1969.

228. Caussin de Perceval, Essai Sur L'Histoire de Arabes Avant L'Islamisme, L' Paris, 1847.

229. Cerny, (J.) Egypt From the Death of Ramesses III, to the End of the Twenty-First Dynsty, Cambridge, 1965.

230. Cerny, (J.), Greek Etymolgoy of the Name of Mosis, ASAE, XLI, 1942.

231. Charles, (R.H.), Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament, 2 Vols., Oxford, 1913.

232. Chermont - Ganneau (C.S.), La Stelede Mosa, Paris, 1887.

233. Cohen, (ISrael), A Short History of Zionism, N.Y., 1951.

234. Cook (S.A.), The Rise of Israel, in CAH, II, Cmbridge 1931.

235. Cook, (S.A.), Israel and the Neighbouring, CAH, III, Cambridge, 1965.

236. Cook, (S.A), The Fall and Rise of Judah, CAH, III, Cambridge, 1965.

237. Cook, (S.A.), Israel Before the Prophets, CAH, III, Cambridge, 1965.

238. Cooke, (G.A.), A Text-Book of North-Semitic Inscriptions, Moabite, Hebrew, Phoenician, Aramaic, Nabataean, Palmyrene, Jewish, Oxford, 1903.

239. Cowley, (A.E.), Aramic Papyri of the Fifth Century, B.C., Oxford, 1923.

240. Culican (C.), The Medes and Persians, London, 1965.

241. Davies, (A.F.), The Ten Commandment, N.Y., 1965.

242. Dhorme, (E.), La religion des Hebreux Nomsdes, N.Y., Bruxelles, 1937.

243. Dimont, (M.), Jews, God and History, N.Y., 1956.

244. Dozy (R.), Die Israeliten Zu Mekka, 1864.

245. Driver, (G.R.), Aramaic Documents of the Fifth Century B.C., Oxford, 1954.

246. Driver, (S.R.), An Introduction to the Literature of the Old Testament, Edinburgh, 1950.

247. Dupont - Sommer , (A.), Les Arameens, Paris, 1949.

248. Edgerton, (W.F.), and Wilson (J.A.), Historical Records of Ramses III, The Texts in Medinet Habu, 2 Vols., Chicago, 1935.

249. Elgood, (S.R.), Later Dynasties of Egypt, Oxford, 1951.

250. Eliade, (M.), Traite d' Histoire des Religions, Paris, 1964.

251. Eissfeldt, (O.), The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part2, Cambridge, 1975.

252. Epstein, (Rabbi Isidore), Judaism, A Historical Presentation, (Penguin Books), 1970.

253. Erman (A.), The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927.

254. Faulkner (R.O.), The Wars of Sethos, in JEA, 33, 1947.

255. Finegan, (Jack), Light from the Ancient Past, The Archaeological Background of Judaism and Christianity, Princeton, 1969.

256. Freud, (Sigmund), Moses and Monotheism, Treanslated from the German, by: K. Jones, N.Y., 1939.

257. Frankfort (H.) and Others, Before Philosophy, (Pelican Books), 1949.

258. Foster (C.K.), A History of the Hebrew People, London.

259. Fried, The Jews of Arabia and the Rechabites in JQR, 1910-1911.

260. Gardiner, (A.H.), The Delta Residence of the Ramessides, in JEA, 5, 1918.

261. Gardiner, (A.H.), The Supposed Egyptian Equivalent of the Name of Goshen, in JEA, 5, 1918.

262. Gardiner (A.H.), The Geography of Exodus, in JEA, IO, 1924.

263. Gardiner, (A.H.), Tanis and P'Ra Musse, A Retraction in JEA, 19, 1933.

264. Gardiner (A.H.), Anient Egyptian Onomastica, 3 Vols., Oxford, 1917.

265. Gardiner, (A.H.), Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964.

266. Gardiner, (A.H.), Egyptian Grammar, Oxford, 1966.

267. Gardiner (A.H.), The Admonitions of Egyptian Sage, Leipzig, 1909.

268. Garber, (P.L.), Reconstructing Solomon's Temple, in , BA, 14, 1951.

279. Garsting (J.), Joshua, Judges, The Foundations of the Bible History, London, 1931.

270. Chirshman, (R.), Iran, (Penguin Books), 1954.

271. Ginsberg, (H.L.), Aramaic Letters, in ANET, Princeton, 1966.

272. Glover (T.R.), The Ancient World, (Penguin Books), 1968.

273. Glueck (N.), The Other Side of the Jordan, New Haven, 1945.

274. Glueck, (N.), The Excavations of Solomon's Seaport, Ezion Geber, STAR, 1941.

275. Goitein, (S.D.), Jews and Arabes, N.Y., 1955.

276. Gray, (J.), Israel, in Near Eastern Mythology, N.Y., 1969.

277. Grohmann (A.), Arabien, Munchen, 1963.

278. Griffiths, (J.C.), The Egyptian Derviation of the Name Moses, in JNES, 12, 1953.

279. Guillaume, (A.), Prophecy and Divination among the Hebrews and othe Semites, London, 1935.

280. Gureny, (O.R.), The Hittites , (Penguin Books), 1969.

281. Hall, (H.R.), The Anceitn History of the Near East, London, 1963.

282. Halley (H.), The Bocket Bible Handbook.

283. Habachi, (L.), Khata 'na--Qantir, Important, in ASAE, L.N., 1953.

284. Hamza, (M), Excavation of the Department of Antiquties at Qantier, in ASAE, 30, 1930.

285. Hastings (J.), A Dictonary of the Bible, Edinburgh, 1936.

286. Hastings, (J.), Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 1908-1921.

287. Hayes, W.C., The Scepter of Egypt, II, Harvard, 1959.

288. Heaton, E.W., The Old Testament Prophets, Penguin Books, 1969.

289. Heos, Mores, Rome and Jerusalemn, N.Y., 1945.

290. Hastzberg, (Arthr), The Zionist Idea, A Historical Analysis and review, N.Y., 1959.

291. Hitti (P.K.), The Near East in History, Princeton, 1961.

292. Hornell, (J.) Sea Trade in Early Times, in , Antiquity, 15, 1941.

293. Horovity, (J.), Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islames Times, IC, III, 1929.

294. Hatte (J.P.), The Date and Background of Zephaniah, in , JNES, 5, 1946.

295. Irwin, (W.A.), Poetic Structure in the Dialogue of Job, in JNES, 5, 1946.

296. Jacobson (T.) , Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, JNES, II, 1943.

297. Jack, (J.W.), The Date of the Exodus, Edinburgh, 1925.

298. Jack, (J.W.), Samaira in Akhab's Time, Edinburgh, 1929.

299. Judith Marquet Krause, les Fouilles de 'Ay, (et-tell), 1933-1935, 2 vols., 1949.

300. Kraeling (Emil, G.), Aram and Israel; N.Y., 1918.

301. Kraeling (Emil, G.), The Brooklyn Museum Aramaic Papyri , New Haven, 1963.

302. Kees, Hermann, Ancient Egypt, A Cultural Topography , London, 1961.

303. Keller (Werner), The Bible as History, Archaeology Confirms the Book of Books, Thirteenth Impression, in Great Britain, 1967.

304. Kenyon, (K.M.), Archaeology in the Holy land , London, 1970.

305. Kenyon, (K.M.), Excavations in Jerusalem, 1961, in PEO, 94, 1967.

306. Kenyon, (K.M.), Excavations in Jerusalem, 1902, in PEQ, 95, 1963.

307. Lods, (A.), Israel From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, London., 1962.

308. Laessoe, (J.), People of Ancient Assyria, London, 1963.

309. Lie, (A.G.), The Inscriptions of Sargon, II, Part I, The Annals, 1929.

310. Luckenbill, (D.D.), Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1927.

311. Macalister (R.A.S.), The topography of Jerusalem, in CAH, III, Cambridge, 1965.

312. Malamat, (A.), The Last Wars of the Kingdom of Judah, JNES, 9, 1950.

313. Margoliouth, (D.S.), The Relations Between Arabs and Israelitics Prior to the Rise of Islam, London, 1924.

314. May, (H.G.), Three Hebrew Seals and the Status of Exiled Jehoiakin, in AJSL, LVI, 1939.

315. Meek, (T.J.), The Code of Hammurabi, in ANET, Princeton, 1966.

316. Meek, (T.J.), Hebrew Origins, New York, 1950.

317. Mendenball, (G.), Biblcal History, in Transition in the Bible and the Ancient Near East.

318. Mailer, (B.), Two Hebrew Ostraca from Tel Qasile, in JNES, Io, 1951.

319. Mercer, (Samul, A.E.), The Tell El-Amarna Tablets, 2 Vols., Toronto, 1939.

320. Milgrom, (J.), The Date of Jeremish in JNES, 14, 1955.

321. Montgomery, (J.A.), Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934.

322. Montet, (Pierre), L'Egypte et la Bible, Neuchatel, 1959.

323. Moritz, (B.), Arabien, Hanover, 1923.

324. Moss, (G.), Jews and Judaism in Palmyra PEFQ, 60, 1928.

325. Mowinckel, (S.), General Oriental and Specifica Israelite Elements in the Israelite Conception of the Sacral Kingdom, 1959.

326. Musil, (A.), The Northern Hegas, N.Y., 1926.

327. Myres, (J.L.), King Solomon's Temple and Other Bulaings and Works of Art, PEQ, 80, 1948.

328. Naville, (E.), The Geography, of the Exodus, JEA, Io, 1924.

329. Naville, (E.), Archaeology of the Old Testament, 1913.

330. Noth (Martin), The History of Israel, London,, 1965.

331. Oesterlay (W.O.E.), Egypt and Israel, in the Legacy of Egypt, Oxford, 1947.

332. Olmstead, Albert, History of the Presidn Empire, Chicago, 1970.

333. Olmstead, (Albert, T.), Western Asia in the Days of Sargon of Assyria, Chicago, 1908.

334. Olmstead, (Albert. T.), The Reforms of Josiah in its Seular Apsects, AHR, 20, 1915.

335. Oppenheim (A.L.), Babylonian and Assyrian Historical Texts, ANET, Princeton, 1966.

336. Orr, The Problem of the Old Testament, Geneva, 1908.

337. Parker, (James), A History of the Jewish People, London, 1964.

338. Petrie, (W.M.F.), A History of Egypt, III, London, 1927.

339. Petrie, (W.M.F.), Egypt and Israel, London, 1925.

340. Pfeiffer, (R.H.), Introduction to the Old Testament, N.Y., 1941.

341. Philby, (J.B.), The Land of Midian, MEJ, 9, 1955.

342. Philby, (J.B.), The Background of Islam, Alexandria, 1947.

343. Renan, (Ernest), Histoire du Peuple d'Israel, Paris, 1887.

344. Renan (Ernest), Histoire et Systeme Compare des Langues Semetique, Paris, 1855.

345. Ricciotti (G.), The History of Israel, Vol. I, Milwankee, 1955.

346. Rodinson, (M.) Israel and Arabs, (Penguin Books), 1958.

347. Roger (R.W.), Cuneiform Parallels to the Old Testament , London, 1912.

348. Rostovizeff (M.) , Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxfrod, 1941.

349. Roth (Cecil), A Short History of the Jewish People, London, 1969.

350. Roux (G.), Ancient Iraq, (Penguin Books), 1966),

351. Rowe, (Alan), The Topography and History of Bethshan, Pennsylvania, 1930.

352. Rowley, (H.H.), The Aramaic of the Old Testament, London, 1929.

353. Rowley, (H.H.), From Joseph to Joshus, London, 1950.

354. Rowely, (H.H.), The Unity of the Bible , Philadelphia, 1953.

355. Sachar, (A.L.), A History of the Jews, N.Y., 1945.

356. Saller, (S.J.), The Memorial of Moses on Mount Nebo, 2 Vols., London, 1941.

357. Sayce, (A.H.), The Egypt of the Hebrews and Herodotus, London, 1896.

358. Sayce, (A.H.), and Cowley (A.E.), Aramaic Papyri Discovered at Assuan, London, 1906.

359. Sellin (Ernst), Mose und Seine Bedeutung fur die Israelitisch - Judische Religionsgeschichte, Leipzig, 1922.

360. Simon, (J.), Jerusalem in the Old Testament, Leiden, 1952.

361. Smith (G.A.), Historical Geography of the Holly Land, N.Y., 1932.

362. Smith, (G.A.), and Others, The Legacy of Israel, Oxford, 1953.

363. Smith (J.W.D.), God and Man in Early Israel.

364. Smith (S.), Early History of Assyria to 1000B.C. London, 1928.

365. Sprengling (M.), The Alphabet, its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931.

366. Steindorff (G.) and Seele (K.C.), When Egypt Ruled the East, Chicago, 1963.

367. Torrey, (C.C.), The A Pocryphal Literature, New Haven, 1948.

368. Torrey, (C.C.), Pseudo - Ezekiel and Original Prophecy, New Haven, 1930.

369. Unger (Merril F.), Israel and The Aramaens of Damascus, London, 1927.

370. Unger, (M.F.), Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.

371. Unger, (M.F.), Archaeology and the Old Testament, Michigan, 1954.

372. Vandier, (J.), La Famine Dans L'Egypte Ancienne, le Caire, 1936.

373. Vincent (W.), La Religion des Judeo - Arameen d'Elephantine, 1937.

374. Wainwright, (G.A.) Some Sea, People, in JEA, 47, 1961.

375. Waterman, (L.), The Treasuries of Solomon's Private Chapel, JNES, 6, 1947.

376. Weech, (E.H.), Civilization of Near East, London.

377. Wells, (H.G.), A Short History of the World, (Penguin Books), 1965.

378. Wells, (H.G.), The Outline of History, N.Y., 1956.

379. Weigall, (Arthur), A History of the Pharaohs, 2 Vols., London, 1931.

380. Wilson, (J.A.), The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.

381. Wilson, (J.A.), The Instruction for King Meri-Ka-Re, in ANET, Princeton, 1966.

382. Wilson, (J.A.), The Eperu of the Egyptian Inscription, AJSL, XLIX.

383. Wilson (J.A.), The Tradition of Seven Lean Years in Egypt, ANET, 1966.

384. Winckler (H.), Musri, Meluhha, Main, MVG, I, Berlin, 1898.

385. Woolley, (Sir Leonard), Ur of the Chaldees, (Pelican Books), 1938.

386. Woolley, (Sir Leonard), The Beginnings of Civilization, N.Y., 1965.

387. Woolley, (Sir Leonard), Excavations at Ur, London, 1963.

388. Wright, (G.E.), 1 Samuel 13, 19-22, in Biblical Archaeologist, 6, 1943.

389. Wright, (G.E.), The Bible and the Ancient Near East, N.Y., 1965.

390. Yadin, (Y.), New Light on Solomon's Mejiddo, BA, 23, 1960.

391. Yeivin (G.E.), The Sepulchers of the Kings of the House of David, in JNES, 7, 1948.

392. Encyclopaedia Biblica.

393. Encyclopaedia Britannica.

394. Encyclopaedia of Islam.

395. Encyclopaedia of Religion and Ethics.

396. The Jewish Encyclopaedia , N.Y., 1903.

397. Historical Atlas of the Holy Land, N.Y., 1959.

408. The Westminster Historical Atlas to the Bible, Philadelphia, 1946.

اختصارات

Abbreviations

AJA : American Journal of Archaeology.

AJSL : American Journal of Semitic Languages and Literatures.

ASAE : Annales du Service des Antiquities de l'Egypte.

ANET : Ancient Near Easter Texts.

BA : The Biblical Archaeologist.

BASOR : Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

CAH : The Cambridge Ancient History.

EB : Encyclopaedia Biblica.

EI : Encyclopaedia of Islam.

ERE : Encyclopaedia of Religion and Ethics.

IC : Islamic Culture.

ICC : The International Critical Commentary.

JA : Journal Asiatique.

JBR : Journal of Bible and Religion.

JE : The Jewish Jewish Encyclopaedia.

JEA : The Journal of Egyptian Archaeology.

JNES : Journal of Near Eastern Studies.

JQ : Jews Quarterly Review.

LEA : The Literature of the Ancient Egyptian.

PEQ : Palestine Exloration Quarterly.

UJE : The Universal Jewish Encyclopaedia.



المؤلف فى سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١ - ولد في البصيلية - مركز إدفو - محافظة أسوان.

٢ - حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المعلمين بقنا، حيث تخرج فيها عام ١٩٤٩.

٣ - عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩-١٩٦٠).

٤ - حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.

٥ - عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١م.

٦ - حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف فى التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.

٧ - عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.

٨ - عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤م.

٩ - عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩.

١٠ - أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض فى الفترة ١٩٧٣-١٩٧٧م.

١١ ـ عين عضواً فى مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية فى عام ١٩٨٢م.

١٢ ـ عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨٢م.

١٣ ـ أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣-١٩٨٧م.

١٤ ـ عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية (١٩٨٧-١٩٨٨م).

١٥ ـ اختير مقرراً للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨-١٩٨٩م).

١٦ ـ عين أستاذاً متفرغاً فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨م.

١٧ ـ عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.

١٨ ـ عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.

١٩ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢٠ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢١ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.

٢٢ ـ أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.

٢٣ ـ أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢م.

٢٤ ـ شارك فى حفائر كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية فى الوقف ـ مركز دشنا ـ محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠/١٩٨١م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق ـ محافظة كفر الشيخ فى عام (١٩٨٣/٨٢م).

٢٥ ـ عضو اتحاد المؤرخين العرب.

مؤلفات

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

أولا ـ التاريخ المصرى القديم:

١ ـ الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية	الإسكندرية ١٩٦٦
٢ ـ مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث	الإسكندرية ١٩٦٩
٣ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة	القاهرة ١٩٧٦
٤ ـ إخناتون: عصره ودعوته	القاهرة ١٩٧٩

ثانياً ـ فى تاريخ اليهود القديم:

٥ ـ التوراة (١) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٣.	الإسكندرية ١٩٧٠
٦ ـ التوراة (٢) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٤.	الإسكندرية ١٩٧٠
٧ ـ التوراة (٣) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٥.	الإسكندرية ١٩٧٠
٨ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (١) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٦.	الإسكندرية ١٩٧١
٩ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (٢) ـ مجلة الأسطول، العدد ٦٧.	الإسكندرية ١٩٧١
١٠ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٨.	الإسكندرية ١٩٧١
١١ ـ أخلاقيات الحرب عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٩.	الإسكندرية ١٩٧١
١٢ ـ التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠.	الإسكندرية ١٩٧٢
١٣ ـ إسرائيل، الجزء الأول، التاريخ.	الإسكندرية ١٩٧٨
١٤ ـ إسرائيل، الجزء الثانى، التاريخ.	الإسكندرية ١٩٧٨

١٥ - إسرائيل، الجزء الثالث، الحضارة. الإسكندرية ١٩٧٩

١٦ - إسرائيل، الجزء الرابع، الحضارة. الإسكندرية ١٩٧٩

١٧ - النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل. الإسكندرية ١٩٧٩

ثالثاً - فى تاريخ العرب القديم:

١٨ - الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلى. الريـــاض ١٩٧٤

١٩ - العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة. الريـــاض ١٩٧٦

٢٠ - مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة. الريـــاض ١٩٧٧

٢١ - الديانة العربية القديمة. الإسكندرية ١٩٧٨

٢٢ - العرب والفرس فى العصور القديمة. الإسكندرية ١٩٧٩

٢٣ - الفكر الجاهلى. القـــاهرة ١٩٨٢

رابعاً - فى تاريخ العراق القديم:

٢٤ - قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة. الريـــاض ١٩٧٦

٢٥ - قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة الإسكندرية ١٩٧٩

خامساً - سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم:

٢٦ - الجزء الأول - فى بلاد العرب. بيـــروت ١٩٨٨

٢٧ - الجزء الثانى - فى مصر. بيـــروت ١٩٨٨

٢٨ - الجزء الثالث - فى بلاد الشام بيـــروت ١٩٨٨

٢٩ - الجزء الرابع - فى العراق بيـــروت ١٩٨٨

سادساً - سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم:

٣٠ - مصر - الجزء الأول. الإسكندرية ١٩٨٨

٣١ - مصر - الجزء الثانى. الإسكندرية ١٩٨٨

٣٢ - مصر - الجزء الثالث. الإسكندرية ١٩٨٨

٣٣ - الحضارة المصرية - الجزء الأول. الإسكندرية ١٩٨٩

٣٤ - الحضارة المصرية - الجزء الثانى. الإسكندرية ١٩٨٩

٣٥ ـ تاريخ العرب القديم (الجزء الأول).	الإسكندرية ١٩٩٤
٣٦ ـ تاريخ العرب القديم (الجزء الثانى).	الإسكندرية ١٩٩٤
٣٧ ـ تاريخ لبنان القديم	بيـــــروت ١٩٩٤
٣٨ ـ الحضارة العربية القديمة	الإسكندرية ١٩٨٨
٣٩ ـ بلاد الشام	الإسكندرية ١٩٩٠
٤٠ ـ تاريخ السودان القديم	الإسكندرية ١٩٩٤
٤١ ـ المغرب القديم	الإسكندرية ١٩٩٠
٤٢ ـ العراق القديم	الإسكندرية ١٩٩٠
٤٣ ـ التاريخ والتأريخ	الإسكندرية ١٩٩١

سابعاً ـ سلسلة : فى رحاب النبىّ وآل بيته الطاهرين:

٤٤ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الأول	بيـــــروت ١٩٩٠
٤٥ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثانى	بيـــــروت ١٩٩٠
٤٦ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثالث.	بيـــــروت ١٩٩٠
٤٧ ـ السيدة فاطمة الزهراء	بيـــــروت ١٩٩٠
٤٨ ـ الإمام على بن أبى طالب (الجزء الأول)	بيـــــروت ١٩٩٠
٤٩ ـ الإمام علي بن أبى طالب (الجزء الثانى)	بيـــــروت ١٩٩٠
٥٠ ـ الإمام الحسن بن علي	بيـــــروت ١٩٩٠
٥١ ـ الإمام الحسين بن علي	بيـــــروت ١٩٩٠
٥٢ ـ الإمام علي زين العابدين	بيـــــروت ١٩٩٠
٥٣ ـ الإمام جعفر الصادق	تحت الطبـــــع

ثامناً ـ معجم المدن الكبرى فى مصر والشرق الأدنى القديم:

٥٤ ـ الجزء الأول، مصر ـ الجزيرة العربية ـ بلاد الشام	بيـــــروت ١٩٩٧
٥٥ ـ الجزء الثانى: العراق ـ المغرب ـ السودان	بيـــــروت ١٩٩٧

٥٦ ـ دراسة حول التأريخ للأنبياء ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ـ العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢

٥٧ - الإعجاز في القرآن - دراسة في الإعجاز التاريخي -
الإسكندرية ١٩٩٣.

تاسعاً - سلسلة الإمامة وأهل البيت:

٥٨ - الإمامة بيـــــروت ١٩٩٥

٥٩ - الإمامة والإمام علي بيـــــروت ١٩٩٥

٦٠ - الإمامة وخلفاء الإمام علي بيـــــروت ١٩٩٥

فهرس الموضوعات

الباب التاسع

الباب العاشر